المغرب الأقصى

أمين الريحاني

المغرب الأقصى

تأليف
أمين الريحاني

هنداوي

المغرب الأقصى

أمين الريحاني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: خالد المليجي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٤٣٢ ٠

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٨.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

مقدمة	٧
الجزء الأول	١٧
١- من الاستقلال إلى الحماية	١٩
٢- جبل طارق	٤٥
٣- طنجة	٥٧
٤- مثلث الأخطار	٧٥
٥- من الجزيرة إلى ...	٨١
٦- معضلة قديمة العهد	٩٣
٧- المدينة البيضاء	٩٧
٨- المنطقة الخليفية	١١٣
٩- ميزانيات خليفية	١٢١
١٠- البيت العلوي	١٢٩
١١- المخزن والمخزنية	١٣٩
١٢- نهضة التعليم	١٤٧
١٣- الأحزاب السياسية	١٦١
١٤- الفضل للمتقدم	١٩١
الجزء الثاني	١٩٧
١- الخليفة الحسن	١٩٩
٢- أحاديث وأخبار وزيرية	٢٠٥

٣- الكولونل خوان بايبدر ٢١٩
٤- أعوان وأنصار ٢٣٥
٥- شِفْشَاون ٢٤٣
٦- العرائش ٢٥٥
٧- عمارة الخضر غيلان ٢٧١
٨- الشريف أحمد الريسوني ٢٨٧
٩- من القصر الكبير إلى القصر بأصيلة ٣١٩
١٠- جحيم السجون ونعيمها ٣٢٩
١١- في جبال الريف ٣٣٩
١٢- مليلية وجبال الحديد ٣٥٣
١٣- العرب والبربر ٣٦٣
١٤- المراقبون ٣٧٧
١٥- فوق جبال الريف ٣٨٣

الجزء الثالث ٣٨٧
١- مدريد ٣٨٩
٢- الجنرال فرنكو ٣٩٩
٣- الشريف الطوباوي ٤١١
٤- الحذاء والبلغة ٤١٥
٥- في القصر الخليفي ٤١٩
٦- الأكياس والذي يوسوس في صدور الناس ٤٢٣
ملحق ٤٢٩

مقدمة

بعد رحلاتي العربية المتعددة، التي استأثرت بي بضع سنوات، نشأت الرغبة في رحلة إلى بلاد عربية أخرى، أسماها العربُ الأقدمون المغربَ الأقصى.

وما كانت هذه الرغبة بأقل إلحاحًا واستبدادًا من الرغبات في الرحلات التي تقدَّمَتْها، بل كانت أشدَّ وأحدَّ فنفذت إلى أقصى نواحي النفس، وصارت تحنُّ كالقلب الفتيِّ، قلب العاشق، إلى ذلك البلد العربي في أفريقيا الغربية الشمالية.

وما كنت أقصر في المحاولات الحكيمة للتخفيف عن النفس حمل الشوق والحنين، فكنت أتفلسف تفلسُفًا بارعًا في التأويل والتحليل لما كان يحول دون تخفيف الرغبة من المقادير.

أما المقادير فليست كلها من النوع الذي لا يد للإنسان فيه. نعم، إن بعض التبعة فيها عليَّ؛ فقد نشأت عن إرادة معقودة بشئون الحياة المادية والأدبية والوطنية، ومع أني كنت أستطيع أن أغيِّر أو أعطف بعض مجاريها، فأطلب رزقي في وطني الأول أو فيما جاوَرَه من الأوطان — كمصر مثلًا — وأحصر أدبي في لغة الأجداد، ولا أحمل وطنيتي تبعة الجهادَيْنِ في وطني وعبر البحار، كنت أستطيع ذلك، وما فعلت. فما السبب؟

هناك أسباب: أولها أني هجرت بلادي وأنا في العاشرة من سني، فكانت نيويورك مسرح ألعابي ومغامراتي، وطبعت نفسي بطابعها الخاص، فصرت من أبنائها، وعندما حاولت الانطلاق من قيود تلك العبودية فيما كان من رحلاتي العربية، لم أتوفَّق كل التوفيق؛ لأن تلك الرحلات جدَّدت — في بعض نتائجها — حق نيويورك، بل حق أميركا عليَّ.

والبيان كله في السبب الثاني، وهو أن لغة شكسبير سبقت لغة أبي العلاء المعري إلى لساني وقلمي — كدتُ أقول أيضًا وقلبي — فوقعت في فخ التأليف هناك قبل أن وقعت فيه ها هنا في وطني الأول.

بقي السبب الثالث، أو قُلِ القيد الثالث، وهو أشد القيود وأثقلها، ولا بد — وأنا ذاكره — من العودة إلى الرحلات العربية، تلك الرحلات التي فرضت عليَّ الجهاد في سبيل قضية وطنية قومية، هي قضيتي — وأنا من سلالة قحطان — كما هي قضية ابن صنعاء أو العارض أو الرافدين.

ومن عجيب ما حدث في ارتقائي الفكري وتطوري الوطني — إذ كان من الواجب عليَّ أن أكون أميركيًّا قلبًا وقالبًا، لبًّا وقشرًا، مائة بالمائة كما يقال — من عجيب ما حدث ليفسد ذلك الواجب، هو أني نهضت ذات ليلة من نومي، عند صياح الديك، وأنا أتصور نفسي أكبر من أميركا!

أنا اللبناني العربي المفكِّر الوحيد — لله درِّي — بين مائة وعشرين مليونًا من الناس غير المفكِّرين ممتزجين امتزاجًا مقدورًا معتكرًا، وهم جميعًا يفاخرون بأمريكيتهم، بلسان صحافتهم وحكومتهم و«هليوودهم»، ولا يهمهم من العالم سواها! إنما العالم أميركا، وكل ما سوى أميركا لا يساوي فستقة من فستق العبيد!

هذه النزعة التي امتاز بها الرومان، في قديم الزمان، ثم هلكوا بها، ولَّدَتْ فيَّ أنا اللبناني العربي الأميركي الوحيد المفكِّر، بعض العطف على الشعب المزدحم في غابات المدن هناك بين جبال من ناطحات السحاب، في غابات وبين جبال من الجهل، وولَّدَتْ مع العطف واجبًا في إنقاذ أولئك الآدميين من ذلك الجهل. كيف لا وقد تيقَّنْتُ أنهم يجهلون كل ما أعلم أنا، ولا أجهل أنا كل ما يعلمون، وإنْ قلَّ واعتلَّ.

هو الغرور؛ غرور العبقرية وبعض الأساتذة في الجامعات الكبرى. علِّموا الشعب، أنيروا ذهن الأمة، علِّموه فلا يشقى، أنيروا ذهنها فلا تهلك كما هلكت روما، وكما هلكت بابل قبلها في قديم الزمان. فيا إخوان ضون كيخوته — دون كيشوت — أيها الجالسون في كراسي الأستاذية، المتشعثون في بوادي العبقرية، لا معلم للأمم والشعوب غير الفقر والعذاب، وبكلمة أصح: لا معلم للأمم والشعوب غير الزمان وبيديه السوطان: الفقر والمذلة.

لكني أنا اللبناني العربي أريد أن أعلِّمَ الأمة الأميركية شيئًا يسيرًا من العلم الذي لا يجرح كبرياءها، ولا يمس بضرٍّ غناها. أريد أن أعلِّمها أوليات العلم بالأمة التي أنا منها — كنت ولا أزال منها، اليوم وغدًا، وعلى الدوام — أي الأمة العربية.

ورأيتني أعيد الـ «كيخوتية» — عفوًا يا سيدي سرفنتس — إلى أصلها العربي، وإن تغرَّبَ لسانها. رأيتني أشحذ القلم واللسان بالإنكليزية، وأحبر المقالات وأؤلف الكتب بالإنكليزية، وأقف على منابر الجمعيات والجامعات الأميركية الإنكليزية، لأُفهِم العالم الجديد، رومان هذا الزمان، أن في العالم غير أميركا والأميركان، وأنهم هالكون حتمًا إذا استمروا في جهلهم أو استقووا، والغريب العجيب أنهم مثل البرابرة في الطهر والسذاجة، قلبًا ووجهًا، كانوا يصفِّقون للخطيب، ويرحِّبون به وبعلمه؛ فازدادت الرغبتان: رغبتهم في التعلُّم، ورغبتي في التعليم — بارك الله فيَّ وفيهم.

وتبعت الرحلات العربية رحلات أميركية.

على أن النكبة الكبرى في قُطْر من الأقطار العربية، أي نكبة فلسطين بالصهيونية، نقلتني من التعميم إلى التخصيص، دفاعًا عن إخواني العرب في وطنهم الذي يريده اليهود وطنًا قوميًّا لهم، واليهود في أميركا مثل الرومان في روما قديمًا، ومثل طبقة البورجوازيين في فرنسا اليوم، يملكون قسطًا وافرًا من ثروة البلاد، ويسيطرون بعبقريتهم المالية والقومية على العوامل السياسية.

وإن عاصمة تلك السيطرة اليهودية نيويورك.

عُرِضت على مسارح المدينة في أحد مواسم التمثيل روايتان في مسرحين متقابلين في شارع واحد، عنوان إحدى الروايتين: «مَن هو صاحب نيويورك؟» وعنوان الأخرى: «اليهودي»، فهاك السؤال والجواب كانا ينشران بالأنوار الكهربية الفضية والذهبية: نيويورك لليهود.

وهذا اللبناني العربي يحمل الترس والرمح، كما حملهما ضون كيخوته ده لامنشا حقبة من الدهر، في سبيل الحق والعدل والفضيلة، على معاقل إسرائيل، على حصون يهوذا. ويلك يا نيويورك! ويلك، اكتبي الحجة ليهودك بماء الذهب، وسجليها في سجل الصيارفة والكهان، ومثِّلي روايتها، بالأفلام والكلام، على ألفي مسرح وشاشة. وبعد ذلك؟ ماذا بعد ذلك؟ ستستفيقين ذات يوم، قبل صياح الديك، وستصفرين صفير الهول والهلع، ستسمعين صوتًا يناديك ويقول: صدق العربي البارُّ، الحق أصدق أنباءً من الدولار!

وتكررت الرحلات من الفريكة إلى نيويورك، وتكرَّرت الصولات الضون كيخوتيَّة، فانكسرت رماح، وتجددت رماح، ورُفِعت للعرب فوق معاقل الجهل والظلم، وفوق حصون الصيارفة، وفوق منابر الجامعات والأندية السياسية والثقافية؛ أعلامٌ ورايات قد دبجت بأشرف الآيات. فقال بعضهم مستهزئين: كلام وأوهام. وقال بعضهم الآخَر: كلام فيه

سلام. وقال الكبراء فيهم — أي الأغنياء: هذا العربي ابن عمنا، وهو يجهل حقائق الحياة، فعلينا أن ننير ذهنه بنورَيْها الفضي والذهبي. فراح الأعوان يبحثون عنه — راحوا ينشدونه بصوت فيه رنَّات وغنات، وما كان الله صديق العرب ليظفرهم به!

فقال أحد السحرة من خطبائهم: هذه شظية من رمحه، أحرقوها يحضر …

حرقوها، ويا لهول الساعة! حرقوها، فظهر في البلاد الأميركية ألف ضون كيخوته، شاهرين الرماح، وحاملين أعلام العروبة ينشرونها في الأسواق، وأمام دور الحكومة الروزفلتية في العاصمة الأميركية. ارعووا، يا بني العم، وتوبوا إلى الله إلهنا وإلهكم. أما فلسطين فهي لأصحاب الحق لا لأصحاب الدولار.

كلام، وأوهام، كلام وسلام، وغَلَب المتمردون المسالمين، ثم رجحت كفة المسالمين، وكدنا نقول: آمين. ولكن بني العم عتاة قساة، يحاسبون أتقياءهم منذ أيام الآدون الأكبر، ويرجمون الأنبياء، ولا يعرفون من أبجد الكرام، غير الميم والألف واللام …

تكررت الرحلات، وتعدَّدَتْ بيننا وبينهم المناورات والغزوات والوقعات الحربية؛ فعلَّمتهم ولا بدَّ شيئًا، وعلَّمَتْنا أشياء، منها أن في العالم يهودًا غير اليهود العبرانيين، أسماؤهم إنكليزية مثلًا أو أميركية، وهم مثل إخوانهم العبرانيين، لا يعرفون من أبجد الكرام غير الميم والألف واللام! فهل يصح وهل يليق أن نستعين بهم على إخوانهم الأصليين؟ وقد عرف الأخوان العبراني والأميركي، كما عرف الأخوان العبراني والإنكليزي، أنه قد ينكسر رمح ضون كيخوته، ولا تنكسر الروح الضون كيخوتية. فالحرب لا تزال قائمة بيننا، وضون كيخوته لا يزال ممتطيًا جواده حاملًا رمحه، رائحًا جائيًا من الفريكة إلى نيويورك، ومن نيويورك إلى الفريكة.

هي رحلة طويلة وخصوصًا في فصل الشتاء، حيث اليوم الواحد في الأوقيانوس يمسي ليلًا كله، ويطول والله يطول. اثنان وعشرون من هذه الأيام السود الطوال، قبل أن نصل إلى ساحة القتال، اثنان وعشرون يومًا من الاستجمام، نستجم ونستعد ونشحذ السلاح ونصقله، ونتعب من الشحذ والصقل والتأهُّب.

ولكننا عندما نشاهِد ناطحات السحاب، وهي تبدو لنا كما بدت لضون كيخوته دواليب الهواء، نشتعل حماسة ونشاطًا واستبسالًا. دواليب الهواء قد سحرت ومُسِخت يهودًا، مسخها سحرة الديمقراطية لينجوا من شرها — وما هم بناجين!

دواليب الهواء، جبابرة إسرائيل، صيارفة الصهيونية في فلسطين وفي عاصمة البريطانيين — عليهم يا ضون كيخوته، عليهم!

أسهبت في شرح الأسباب التي حالت دون تحقيق الأمنية القصوى بزيارة المغرب الأقصى، وما كنت لأسهب لولا أني متخذ، في تأليف هذا الكتاب السبيل الشريف في التأليف، سبيل العباقرة، سادة زمانهم وفنونهم. فلا طابع يستعجل، ولا حاجة تستحث، ولا هم يحمل على إرهاق القريحة في الميدان، أو على انتهاك حرمة الفكر في البستان، وفي الإسهاب تعريج، وفي التعريج مرح وتفريج، هي الحسنة الجامعة في التأليف والمطالعة.

إذن سأسوقها إليك سوق الهون، لا رغبة في راحتي فقط بل رغبة كذلك في راحتك، أيها القارئ، فلا تتعب ولا تسأم ولا تُظلم ولا تهان. أما إذا كنتَ ممَّنْ يُطالِعون الكتب على الطريقة السينمائية، فتعدو في صفحاتها عَدْوَ الفارِّ من النار، ثم تَثِب من صفحة إلى أخرى وثب السعدان على الأفنان، فلا دواء لك عندي.

بَيْدَ أني أتمنى لك شيئًا من النعمة التي تلزمني في التأليف، نعمة الصبر والتؤدة، فلا تستعجلني إن وقفتُ حائرًا أو مفكِّرًا، ولا تستوقفني إن سرت منذرًا أو مذكرًا؛ فلعل صورة من صور الجمال تستحيل شرًّا مستطيرًا، ولعل بعض الشر في الناس — سياسيين كانوا أم تجَّارًا — ينقلب خيرًا شاملًا، والسر في التفكير الهادئ والتعريج المطمئن.

قلت إن الرحلة الكيخوتية من الفُريكة إلى نيويورك رحلة طويلة مملة، وخصوصًا في فصل الشتاء، وهي فوق ذلك، عند ملتقى البحرين، مؤلمة لصاحب القلب المتنقل بالشوق والحنين. هناك، في ذلك المضيق، حيث يتصل البحر الأبيض بالأوقيانوس، وتدنو الشواطئ الأوروبية والأفريقية بعضها من بعض، يتلفَّت ذلك القلب إلى الجبال الأفريقية المكلَّلة بالضباب الشفاف والضياء، تلفُّتَ العاشق المشتاق. هناك الغصَّات والحنين تذهب بها في اليوم التالي ظلمات الأوقيانوس وأنواؤه، ثم نعود من الرحلة المباركة، فنصل إلى ذلك المضيق، فتعود هي؛ تعود الغصات، ويعود الحنين.

فهذا جبل طارق بن زياد، لم يبقَ من عروبته غير اسمه وبعض الآثار في أعاليه، ومن ذلك الجبل — من شاطئه الهادئ — يقلنا مركب تجاري صغير إلى الرأس الغربي الجنوبي من الشاطئ الأفريقي، حيث تتمطَّى المدينة العربية الجميلة طنجة، تتمطَّى في ظلال الفردوس الدولي، مطمئنة آمنة راضية مرضية — أو شبه ذلك — شهدت القلوب أم لم تشهد. ومن طنجة — مسقط رأس رحَّالتنا ابن بطوطة — إلى أول ميناء في أفريقيا الأطلنطيقية، إلى أصيلة، ومنها إلى العرائش، فالدار البيضاء؛ أسماء عربية شريفة، ما تغيَّرَتْ منذ وطئت أقدام العرب البلاد.

وها هنا، قبالة صخرة طارق، البلدة الإسبانية الوجه اليوم، العربية الاسم أبدًا: الجزيرة. ومن الجزيرة في مركب بخاري أصغر من المركب الأول — مركب إسباني —

إلى أقرب بلدة أفريقية من الصخرة الشهيرة: من الجزيرة إلى سبتة — سبتم الرومان، سبتة العرب، سوتا الإسبان. وما أقرب تلك المدينة الرومانية العربية الإسبانية من الأمنية القصوى. ساعة في ذلك المضيق ... ولكننا لا نزال على ظهر الباخرة المشرقة.

تختفي القلاع، ويختفي المضيق، وتذوب الشواطئ الأفريقية في بحيرات من الضباب والضياء، ثم تتكوَّن عند أول بلدة في الجزائر — أو آخِر بلدة حسب اتجاهك — فتقف أنت أمام وهران، أو تقف وهران أمامك ترحب بك.

عرِّج على وهران وسلِّم على تلمسان — (اتلمسان المغاربة) عاصمة الزناتيين — وهناك غربًا بجنوب: فاس، حيث تمرَّنَ ابن خلدون على خدمة الملوك المرينيين — بني مرين — وأقام سنتين، جزاء ذلك، في السجن.

هي اتلمسان جارة وهران، وعاصمة الدولة الزناتية في قديم الزمان، ومن اتلمسان غربًا بجنوب نصل إلى وادي ملويه، إيوان الجبل العظيم، في قلب المغرب الأقصى، ذلك الجبل المعروف اليوم بالأطلس، وهو في لغة العرب — عن ابن خلدون — جبل دَرَنَ.[١]

سِرْ في ذلك الوادي تصل إلى الممر الشهير بين الجزائر والمغرب، ممر تاز، ثم إلى تلك العاصمة المغربية القديمة المسمَّاة بهذا الاسم، ومنها إلى مراكش، إلى مكناس، إلى فاس، مدينة إدريس الكبير.

المغرب الأقصى! ما كان أشد الحنين إليه! ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، والأصح أن أقول: تجري السفينة بما لا يشتهيه واحد في الأقل من المسافرين. تجري في بحر من الشوق ولا تستقر.

رحلة تلو الرحلة، وشمس الحبيب تشرق بعيدًا وتغيب.

---

[١] «ابن خلدون» (١٣٣٢–١٤٠٦) وُلِد في تونس، ونُقِل وهو في العشرين من سنه إلى فاس، فدخل في خدمة السلطان ابن عنان، وبعد أربع سنوات «نُقِل» إلى السجن فقضى فيه سنتين — بيان أسباب هذا الحادث في آخِر تاريخه غير مُقنِع — ثم نُقِل إلى غرناطة، وما طالت أيامه هناك في خدمة الملك ابن الأحمر، فعاد إلى أفريقية فعيَّنَه في تلمسان سلطانها، وما طال أمره حتى خرج من الخدمة ودخل معهدًا دينيًّا، فرارًا من السلاطين ودسائس قصورهم. وقيل إن تلك القصور ارتاحت منه. ثم عاد إلى تونس حيث باشَرَ تأليف تاريخه، ثم شرَّق يحج فشمله الملك الظاهر بنظره، فعيَّنَه قاضي المذهب المالكي بالقاهرة، وكانت آخِر مغامراته والملوك مقابلته في دمشق مع وفد علمائها للفاتح المغولي تيمورلنك الذي أحب ابن خلدون بلغته فأهداها إليه، وخاب أمله بكرمه.

وما كانت الأيام لتغيِّر ما أمسى كفصل من فصول السنة، وها هي ذي السنة قد دَنَتْ من الغروب، وهاك زينات العيد تبشِّر بقدومه، والصبيان والبنات في الأسواق والحوانيت زينة الزينات، وأنت أيها الراحل: أتعيِّد في البحر؟ أتستقبل العام الجديد في ظلمات الأوقيانوس؟ أقول: نعم. وأقول: لا.

ليس في الظلمات حدود للزمان والمكان، إنما نحن نصطنع الحدود، ونسميها في مثل هذه الحال العيدَ، فنلبس له الثياب الرسمية — سوداء أو بيضاء للرجال، ومن ألوان الشفق السوري والمغيب اللبناني للنساء — ونكلل رءوسنا بأكاليل من الورق، حمراء وخضراء وزرقاء، ونرقص على نغمات الراديو، التي ترقص على صدر الرياح، فوق جبين الأنواء، وننفخ في الأبواق كالصبيان عند دنو الساعة، ونرفع الأصوات منشدين:

تدور …
دومًا تدور …

وهذه الأشباح — أشباح السنين، والليالي والأيام، أشباح الشموس والأقمار، أشباح الدول البائدة والمدن المدفونة، أشباح الآمال والأشواق، أشباح الشباب والحب، والثراء والسعادة — كلها تدور … تدور وهذه الدنيا. كرة من التراب في جو من الأشباح، تُرَى ولا تُرَى. تُرَى بعين الخيال إن لم تكن رمداء، ولا تُرَى بالعيون التي تتغازل في حلقة الرقص والاهتزاز، على ألحان الـ «جاز»، أو فوق الكئوس والقناني، أمام الـ «بار» الأميركاني!

تعدَّدَتِ الاحتفالات ساعة دنوِّ العامين الواحد من الآخر في بحر الظلمات، قبيل الدنو من المضيق أو بعد اجتيازه، وأنا — شريك الناس في عيدهم — أسمع القلب يطالبني بطنجة والعرائش، وبفاس ومكناس وبجبال الأطلس، وواحات سِجِلْماسَة.

وفي ذات يوم من السنة الثانية من الحرب الإسبانية الأهلية جاءني صديق يقول: في جيش فرنكو مائة وثمانون ألفًا من عرب المغرب، كانوا بالأمس يحاربون الإسبان، واليوم يحاربون مع فرنكو مستبسلين، ولا أحد يعرف السبب في ذلك، وأنت الراغب في زيارة المغرب — هاك الفرصة السانحة للسياحة والدرس.

لا، يا صديقي. ليست الفرصة سانحة لا للدرس ولا للسياحة، فالمثل الإسباني يقول: في الحرب يمسي الكذب كالتراب! فأين الفرصة، وأين المجال الحر للدرس؟ وليست أخطار الأسفار مستحَبَّة في أيام الحرب؛ لأنها تعزى إليها، فتذهب في عين السائح المجرِّب محاسنها ومغرياتها. إلى أميركا إذن، إلى نيويورك. اجتزت المضيق للمرة العاشرة أو الخامسة عشرة،

والقلب رفيق العين يتلفت إلى الشمال وإلى الجنوب. متى تنتهي هذه الحرب الإسبانية الأهلية؟ متى يعود الخير والهناء إلى هذه البلاد الجميلة، الزاهية في أيام السلم بكل زواهي الحياة؟!

قطعت الأوقيانوس وأنا أسأل هذا السؤال: وأَعِد النفس إذا ما انتهت تلك الحرب بعد انتهاء رحلتي الخطابية أو خلالها؛ أعدها بالنزهة الكبرى، أعدها بالتعريج البهيج على صخرة طارق، ومنها إلى فردوس أفريقية، إلى المغرب الذي هو اليوم في حماية إسبانيا، إلى المغرب الذي جنَّد لفرنكو مائة وستين ألفًا من أبنائه الأشداء البسَّل، إلى المغرب المقيم فيه اليوم مقيم إسباني عام وُلِد في قرطاجنة من مقاطعة مُرْسيَة، مسقط رأس شاعرنا الصوفي ابن العربي، وهو — أي المقيم — كما يظهر مما بلغني من أخباره، على شيء من التصوف وأشياء سياسية استعمارية غريبة جديرة بالدرس. جديرة بالدرس؟ ما لنا والدرس.

سأعود من أميركا تعبًا ضجرًا، كليلَ قوى العقل والروح. سأعود وبي الرغبة الكبرى في النزهة الكبرى، أوَلَا أستحقها بعد محاربة اليهود في عقر دارهم أربعة أشهر؟

وجرت السيارة، ودرجت دواليب القطار، وتحركت أجنحة طير السير الحديث، هناك في الولايات المتحدة، وأنا أتنقل عليها من مدينة إلى أخرى، ومن منبر في جامع إلى آخَر في جمعية ثقافية أو نادٍ سياسي.

وجاءت صحف الأخبار أثناء الرحلة تُنبِئ بفوز فرنكو، وتبشِّر بقرب انتهاء الحرب في البلاد الإسبانية المحبوبة.

ثم انتهت الحرب وانتهت الرحلة، فسافرت من نيويورك يوم افتتاح المعرض الكبير، وسمعت وأنا في الباخرة أمام الراديو أحد الخطباء يمجد الزمان والتاريخ — وقد تجسَّدَا اليوم في هذا المعرض العظيم — ضجات استحسان فظيعة!

فيا أيها الضاجُّون — أراحنا الله من ضجيجكم — ما المعارض الكبرى والصغرى غير أحابيل من أصناف اللعب والشعوذة للتفريج عن القلوب، ولصيد ما في الجيوب، يتخللها أشياء من ثمار العلوم والفنون والاختراعات.

المعرض العظيم؟ الجزء الأكبر منه ألاعيب وشعوذات، والجزء الأصغر علم وفن وثقافة، وهذا الجزء الصغير من الفوائد تجده، بعد انتهاء المعرض، في متاحف المدينة، وفي معروضات صناعاتها الدائمة. فلا بأس عليك إن أنت سافرت من نيويورك في اليوم التاسع والعشرين من شهر نيسان (أبريل) من السنة التاسعة والثلاثين والتسعمائة والألف، في الساعة التي افتتُتِح فيها المعرض الأميركي الكبير، هناك في قلب الجزيرة الطويلة المجاورة

لأختها الصغيرة منهاتان، التي هي نيويورك بعينها، والتي تباهي اليوم الجزائر الخالدات في بحر الظلمات.

وقد اجتزنا ذلك البحر على ظهر ذلك الجبل الساري الحافل بالقصور — كل درجة من درجات السفر فيه قصر فخم قائم بذاته — ذلك الجبل الذي يدعى سفينة اسمها الخاص الكونتي دي سافوي. اجتزنا الأوقيانوس بسرعة السيارات في المسافات البعيدة: ثلاثة آلاف ميل قطعناها في خمسة أيام ونصف يوم — فرسَوْنا في مساء اليوم السادس في مياه جبل طارق، ثم نزلنا في الليل، من باب صغير في الطابق الأسفل من السفينة إلى مركب بخاري صغير ربط إلى جنبها، فبدا كالحبة إلى جنب القبة!

وما كنا نحن القلائل المعرجين على جبل طارق، لنختلف كثيرًا تحت جناح الظلام، عن اللصوص، أو ما يشبههم من أبناء الحرام — الجواسيس مثلًا — في نظر الموظف البريطاني الذي فحص جوازات السفر، واستنطق كلًّا منَّا استنطاقًا إنكليزيًّا وجيزًا لطيفًا لا إزعاج فيه ولا اطمئنان: ما هي مدة إقامتكم في جبل طارق؟ وما الغرض منها؟ وفي أي نُزُل ستنزلون؟ هاكم الجواز، «ثنك يو!»

ركبت السيارة إلى النزل الذي سُجِّل اسمه في سجل الشرطة، وفي اليوم التالي اتصلت برقيًّا بسعادة المقيم العام الكولونيل خوان بايبدر في تطوان العامرة عاصمة المغرب الشمالي القانع اليوم بالحماية الإسبانية.

أيها القارئ العزيز، إنْ كنتَ فهمت مما تقدَّمَ أننا سنسيح في المغرب الأقصى، فنجوب عواصمه كلها ونقطع جبله الأكبر إلى آخِر واحة فيه — إلى سجلماسة — فقد أخطأت الفهم، أو أني أنا المخطئ في التعبير والتصوير لمنعكسات الشوق. انفسح الخيال في جو ذلك المغرب الشاسع، وليس للخيال من رادع فرنسي أو سجلماسي.

وإن كنت فهمت أن هذه السياحة نزهة من النزهات تنشرح لها القلوب وتتجدَّد فيها القوى النفسية والبدنية، الروحية والمادية، فقد أخطأت الفهم، أو أني أنا المخطئ فيما بيَّنْتُ أو فيما حاولتُ من التبيين.

وأنا وحدي المسئول عن ذلك، الحامل كل ما خبأته الأيام والليالي لنفسي الكليلة المتخومة، وقد شبعت من مشقات الأسفار الكشفية والاستقصائية، من متاعب الإكرام والوطنية والسياسة، فإما أن هذه الرحلة أشدُّ الرحلات فيما يفرضه الرحَّالة الصادق الأمين على نفسه، وأكثرها صعوبات وعقبات، وإما أني — وقد تجاوزت الستين — فقدت الكثير من العزم والنشاط لتذليل العقبات والتغلب على المشقات. أما الباقي، بعدما فقدت،

فهو ذلك النشاط الروحي في المقاصد الكبيرة، الذي كنت أتمتع به مع قواي الأخرى في رحلتي العربية الأولى.

لله من السنين! ولله من ذلك المقيم الإسباني الكريم! فقد كان في إمكانه أن يقول، جوابًا على برقيتي: ليست البلاد مفتوحة اليوم للزائرين، وخصوصًا إذا كانوا من المستكشفين، ولكنه قال ما هو عكس ذلك في معناه، وانتدب فوق ذلك صديقًا له في جبل طارق، معروفًا لدى السلطتين الإنكليزية والإسبانية، ليرافقني في اجتياز الحدود من الصخرة العربية الاسم إلى المدينة الشبيهة اسمًا بها المقابلة لها — هناك الطرف الغربي من الهلال الأخضر، إلى الجزيرة.

فإن شئتَ، أيها القارئ، أن ترافقني فأهلًا وسهلًا بك، أما مشقات الرحلة فأنت منها بعيد، وقد لا تشعر، وأنت جالس على كرسيك — أو مستلقٍ في فراشك، تدخن السيكارة أو السيكار أو الأركيلة أو الغليون، وهذا الكتاب بيدك — أقول: قد لا تشعر بغير الملل الذي يلزم كل كتاب في بعض صفحاته، وقد يكثر مثلها في هذا الكتاب. فما عليك إذ ذاك غير أن تضعه جانبًا — برفق أرجوك لا بعنف — وتستمر في التدخين، أو في النوم، أو فيما قد يكون أثار فيك من فكر أو غيظ أو كراهية.

فلا يزال هذا الكاتب صديقك القديم، يقول كلمته ويمشي، مشيت أنت معه أم وقفت وتخلفت. فهو لا ينتظر، وهو لا يتوقَّع من أحد الرفقاء — القرَّاء — أن يماشيه حتى النهاية. على أنه يقول، في ختام هذه المقدمة: إن في المغرب طبخة يسمونها الحريرة، هي شبيهة بالحساء، ولكنها تشتمل على الكثير من أنواع اللحم والخضر والأبازير، فيرسب الأكبر في قعرها؛ فلا تحظى أنت به إلا بعد أن تصل في احتسائك إلى القعر — إلى النهاية.

فإلى قعر الحريرة — إلى النهاية. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أمين الريحاني

الفريكة — لبنان — في ٢٥ جمادى الثانية ١٣٥٨

الموافق ١١ آب (أغسطس) سنة ١٩٣٩

الجزء الأول

سمو الخليفة الحسن.

الفصل الأول

من الاستقلال إلى الحماية

قبل أن نباشر السياحة في المغرب الأقصى سنجول جولة قصيرة في تاريخه الحديث؛ لنحيط علمًا بما كان عليه في العقد الأخير من القرن الماضي، وبما آلت إليه أحواله في العقد الأول من هذا القرن. وفي هذا العلم أو بعضه تدنو من فهم السائح غوامض الأمور، الظاهرة والخفية، فتتم محاسن السياحة، وتزداد فوائدها.

في أواخر القرن التاسع عشر كانت الدول الأوروبية العظمى — وشبهها فرنسا وإنكلترا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا — تتنافس وتتشاكس حول بسط نفودها وتوطيده في المغرب الأقصى، فتتخذ لذلك شتى الأساليب، السلمية الدبلوماسية، والدبلوماسية المقرونة بقرقعة السلاح. كل دولة ترقب الأخرى، فترمقها بنظر دائرة اختباراتها! وكل تلك الدول تترقب الفرص؛ لتنفذ سياستها المختلفة صورةً، المتفقة هدفًا، في المغرب الشمالي والغربي: تؤلف الشركات للمتاجرة في البلاد، وتسعى لتعزيزها تارة بالامتيازات، وطورًا بالمؤامرات، تدس بعضها الدسائس لبعض بواسطة قناصلها وأعوانهم في البلاد، تجامل الحكومة الشريفية حينًا، وتجبهها حينًا آخر، تنتفع بالاضطرابات الداخلية، وتغض النظر عن قرصان البحر المتوسط؛ لتضعف بهم السلطات الأهلية المحلية. ترسل بواخرها الحربية للنزهة على الشواطئ الأفريقية، غربًا وشمالًا، فتحتل ميناء ها هنا، وآخَر هناك، باسم التجارة، والمحافظة على رعاياها ومصالحهم، وترسل مَن هم أفعل من البواخر الحربية في تنفيذ سياستها الاستعمارية، أي التجَّار والقناصل المتاجرين، وما كان أولئك القناصل والتجار ليتورَّعوا فيما يفعلون، أو يخجلون؛ فيتجسسون ويفسدون ويثيرون الفتن تحقيقًا لمآربهم الخاصة، ولمآرب دولهم العامة، وكلها استعمارية استثمارية.

قال أحد المؤرخين الفرنسيين:[1] «كان القناصل والتجار المسيحيون غالبًا من المغامرين المنتفعين، يستثمرون أبناء دينهم وأبناء البلاد على السواء.»

وكانت فرنسا أبعد الدول هدفًا، وأكثرها نفوذًا، وأشدها صولة وطمعًا في ذلك المغرب، تستحثُّها وتنصرها عصبةٌ من التجَّار والماليين والسياسيين الفرنسيين في الجزائر، وخصوصًا في وهران القائمة عند الحدود الجزائرية المغربية — وهران الجبهة الشرقية للحرب وللسياسة في استعمارها المغرب واحتلاله.

وقد كانت فرنسا من أسبق الدول كذلك إلى عقد المعاهدات مع سلاطين المغرب، تتذرع بها في تحقيق مآربها في بلادهم، بل كان بين الغرب وفرنسا في العهد الذهبي الفرنسي والشبيه به المغربي العربي، أي في عهد لويس الرابع عشر، ومولاي إسماعيل من التقرب والتودد ما لا يظن به غير الخير للبلادين؛ فقد أرسل إسماعيل وزيرَه الأول الحاج محمد التمين رسول ولاء وإجلال — وتجارة — إلى الملك لويس، وأرسل لويس أحد رجال بلاطه السيد بيدو دي سنْتولان Sr. pidou de Saint-Alan يردُّ الزيارة (١٦٩٣)، وقد سُرَّ الرسولان جدًّا بما شاهَدَا في العاصمتين باريس ومكناس، فكتب السيد سنتولان إلى مليكه يصف أبهة بلاط السلطان، ويخص بالذكر والإعجاب الحرس السلطاني المؤلَّف من أربعمائة عبد أسود عمليق، فدقَّق في وصف هيئتهم حتى جواربهم. وقد كتب الحاج محمد مذكرات رحلته[2] على طريقة ابن جبير، فمدح الكثير مما عرف وشاهَدَ من أمور «الكفار» وبلادهم.

ما سوى ذلك عقيم؛ فالزيارات السفيرية لم تُسفِر عن شيء سياسي أو تجاري في تلك الأيام، ولا بعد خمسين سنة؛ لأن أقدم المعاهدات بين الحكومتين الفرنسية والمغربية هي — على ما نعلم — المعاهدة التي عُقِدت سنة ١٧٦٧، وهي سياسية أكثر منها تجارية، فإن كانت تضمن للأجانب حق المتاجرة، فهي تضمن لهم كذلك حق امتلاك الأراضي في المغرب، وتضمن للدول حق التمثيل القنصلي، وللقناصل الحق بأن يستخدموا في القنصليات كتَّابًا ومترجمين من الأهالي.

ها هنا — في حق الأجانب بامتلاك الأراضي، وحق القناصل بأن يوظِّفوا مَن يستأمنون من الأهالي في قنصلياتهم — ها هنا بابان للدخول إلى البلاد، والتغلغل السلمي، فالاستيلاء

---

[1] Ch-André Julien: Histoire de I' Afrique du Nord P. 500.

[2] سينشر قريبًا معهدُ الدروس الغربية بتطوان تلك المذكرات من النسخة الخطية الأولى.

التدريجي عليها. فالأجانب، في امتلاكهم الأراضي، يخلقون المشاكل لدولتهم فتتدخل بشئون الحكومة والقناصل، في استخدامهم كتَّابًا ومترجمين من الأهالي يتمكَّنون من الحصول بوساطتهم على المعلومات اللازمة لتمهيد سُبُل السياسة الاستعمارية.

على أن هذه المعاهدة أخفقت في مقاصدها — أو كادت — لأسباب كثيرة، منها المنافسات الدولية، ومقاومة السلاطين لكل المساعي والمحاولات في تنفيذها؛ فما كان لفرنسا في أواخر القرن التاسع عشر غير قنصليتين، الواحدة في سالي والأخرى في الرباط، ولم يكن لبقية الدول قنصليات في غير طنجة. أما الرعايا الأجانب فلم يتجاوز عدد الفرنسيين منهم الألف، وعدد الإسبان المائتين في كل البلاد.

ماتت تلك المعاهدة، وقد ماتت روحها بالرغم من مرور مائة سنة ونيف على عقدها؛ فقد تجددت في الربع الثالث من القرن الماضي المساعي والمحاولات للتغلغل في الغرب والاستيلاء عليه، وتجدَّدت معها المنافسات والمشاكسات الدولية، كما تجدَّدت المشادات بينها وبين الحكومة المغربية.

قاومت فاس قوى الاستعمار وسياسته بكل ما لديها من أسباب المقاومة حتى الدينية منها، وكان مولاي الحسن[٣] من أشد سلاطين المغرب فكرًا وروحًا وعملًا في المحافظة على استقلال البلاد.

هذا، على ما كان في البلاد يوم جلوسه على العرش من الاضطرابات، ومن عوامل التفسخ والانحطاط؛ فقد باشَرَ أعماله في تنظيم الجيش، وراح يؤدب القبائل الثائرة، والمدن المتمردة. فضرب فاس، وأعاد إليها الطاعة والأمن والنظام، وحمل على قبائل الريف، فدفعوا الضرائب صاغرين، ومثَّل بسكان مراكش فعلَّق رءوس أبنائها المتمردين فوق أبواب المدينة.

قضى الحسن معظم مدة ملكه في الحروب، وهو يتنقَّل في مملكته المترامية الأطراف، المفكَّكة الأوشاج، من واحاتها الجنوبية إلى جبالها الشرقية الشمالية، ومن مدينة إلى أخرى، وما استتب فيها الأمن والسلام بالرغم من قساوة حكمه وقلبه، وبالرغم من دهاء وذكاء «سي» أحمد وزيره الأول، وشريكه في تلك القساوة.

[٣] هو الحسن (١٨٧٣–١٨٩٤) بن محمد (١٨٥٩–١٨٧٣) بن عبد الرحمن (١٨٢٢–١٨٥٩) بن سليمان (١٧٩٢–١٨٢٢) بن محمد (١٧٥٧–١٧٩٢) … بن إسماعيل (١٦٧٢–١٧٢٧) العلوي. والعلويون من أشراف الحجاز، رحلوا من ينبع إلى المغرب في القرن الخامس عشر، وأقاموا في الجنوب في واحة تفيلات، إلى أن نهض الرشيد أخو مولاي إسماعيل، فأسَّسَ الدولة العلوية على أنقاض الدولة السعدية سنة ١٦٦٨.

فقد كان الفرنجة يمدون المتمردين بعتاد الحرب وبالمال، وجاءت فوق ذلك سفنهم الحربية إلى طنجة، مهدِّدة منذرة بعد أن شاع — كذبًا — خبر موت السلطان، مولاي الحسن، ومع ذلك استمر الفرنسيون يعدون العدة لاحتلال قسم من البلاد على شاطئ الأوقيانوس، ووقف الإسبان متأهِّبين في أبواب الريف.

هذا في ميادين الحرب أو في أبوابها، أما في ميدان السياسة فقد اغتنم الحسن الفرصة عند انهزام فرنسا في حربها مع بروسيا سنة ١٨٧٠، فأراد أن يقصر نفوذها في بلاده، وقد سعى من أجل ذلك لعقد مؤتمر دولي لإعادة النظر في شئون المغرب وعلاقاته الأوروبية، فعقد المؤتمر في مدريد سنة ١٨٨٠، وكان الأول من نوعه لاشتراك ممثل عربي في مباحثاته.

ممثل واحد عربي، بين ممثلي فرنسا وإسبانيا وإنكلترا وإيطاليا، ينكر عليهم حق التدخُّل في شئون المغرب. فماذا ينفع الإنكار، وإنْ سجل في وقائع المؤتمر؟ وماذا تنفع وطنية ذلك الممثل المغربي العربي؟ وماذا تنفع حنكته السياسية، وفصاحته العربية؟ لقد كان مغلوبًا على أمره — وما الغالب غير العدو، وإن تعوَّدنا أن نقول: لا غالب إلا الله.

فقد قررت الدول الأربع فأثبتت، في ذلك المؤتمر، حق رعاياها في امتلاك الأراضي في المغرب، وحق قناصلها في استخدام مَن يرون فيه «الذكاء» من أهل البلاد. ثم أضافت ما هو أهم من ذلك، وهو أن يمنح القناصلُ مَن يريدون من الأهالي — تجَّارًا كانوا أم أكارين — حمايةَ دولتهم، وأن يكون لهؤلاء المحميين ولأولئك الموظفين «الأذكياء» الحقُّ بأن يحاكموا في قضاياهم المدنية والجزائية، في محاكم قنصلية.

أقف بك ها هنا لأعرض وجهًا آخَر من وجوه القضية؛ فقد كان الأهالي ولا سيما التجَّار منهم يطلبون الحماية الأجنبية ليتخلَّصوا من جور الحكومة الشريفية وإرهاقها، فاتفقت مصالحهم ومصالح الدول الحامية، وكان الأجنبي فوق ذلك يشارك الوطني في تجارته أو ملكه لقاءَ حمايةٍ يظفر له بها من قنصل بلاده؛ فيصبح الوطنيُّ شريكُ الأجنبيِّ حمايةً أجنبية، فيشرك الأجنبي في أرباحه دون أن يكون للأجنبي فلس واحد في رأس المال.

زادت هذه الحال الطين بلة؛ فالمحميون شركاء الأجانب أمسوا بيد القناصل أدوات استعمار، يستخدمونها فيما يبتغون تنفيذًا لسياسة حكومتهم، وتعزيزًا لها.

وقد استمرت الحماية في الانتشار بالرغم من مساعي الإنكليز لوقف طغيانها، فامتدت من المدن إلى الأرياف، وصار الأوروبيون ولا سيما الفرنسيون المشاركون للأهالي، أصحابَ أملاك واسعة في البلاد.

زِدْ على ذلك أن أولئك الفلاحين الذين أشركوا الأجانب في أملاكهم أمسوا ذوي امتيازات يتمتعون بها مثل إخوانهم التجَّار، ويزيدون في التمتُّع فلا يدفعون الضرائب، ولا يُجنَّدون، ويشمخون بأنوفهم على أبناء البلاد، والبلاد بلادهم، وعلى موظفي الحكومة وهي حكومتهم.

وإنْ شَكَا أحدهم إلى الحاكم المحلي — إلى الباشا أو القائد — صُمَّت الآذان خشيةَ التدخُّل في أمور هؤلاء الذين يتمتعون بحماية النصارى!

هذه بعض ثمار معاهدة مدريد، يذكرها المؤرخون، ويقول المتفائلون منهم — في دائرة المعارف الإنكليزية، وفي غيرها من الكتب المشرقة صفحاتها بأهلة الحقائق: إن المغرب نجا في ذلك المؤتمر من براثن الحماية، وإن الفضل في الأمر عائد لما كان بين إنكلترا وفرنسا من المنافسات السياسية والاستعمارية.

هَبْ ذلك هو الصواب … وهَبِ الإنكليز كانوا يدافِعون في المغرب — كما يقول مؤرِّخهم — عن كيان الدولة الشريفية كما كانوا يدافِعون في المشرق عن كيان الدولة العثمانية. فهل أفلح الإنكليز؟ اسأل التاريخ في المشرق، وسأسأله عنك في المغرب غدًا.

كان «سي» أحمدُ بن موسى حاجبَ مولاي الحسن، فصار وزيرَه الأول، فسيفه البتار، ف «حجاج» المغرب، قبيل وفاة سلطانه وبعدها، فقد توفي الحسن في الطريق (١٨٩٤) وهو عائد إلى فاس من الجنوب، فكتم «سي» أحمد الخبر بضعة أيام اتقاءَ الفتن.

وكان قد قرَّرَ البيعة لعبد العزيز أصغر أولاد الحسن، فخلفه وهو في الثالثة عشرة من سنه، وتولَّى «سي» أحمد الحكم إلى أن بلغ السلطان الولد سن الرشد، وبلغ — لله من الأقدار! — في السنة نفسها ذلك الوزير الطاغية سنَّ الرحيل من هذه الفانية!

حكم ابن موسى حكم الحجاج بن يوسف بضع سنوات، فقطع الرءوس، وملأ السجون بالنفوس، وبنى القصور للجواري والعبيد؛ فضجت البلاد، وحشرجت العباد، وكلهم إلى الله يشكون، وفي قلوبهم يلعنون.

وكان «سي» أحمد متوقد الذهن ذكيَّ الفؤاد، حكيمًا في أمور الدنيا عليمًا، لا يحكِّم القلب في شيء منها، ولا يرى في بُعْد النظر غير زيادة الأخطار المحدقة بالبلاد. أما ما كان منها أمام ناظريه، فقد كان يتجسم كل يوم تجسُّمًا منكرًا مخيفًا؛ فهناك مدرعات الفرنسيين على الشواطئ الغربية، وهاك الإسبان يحومون حول الشواطئ الشمالية، وهاك ساسة الفرنجة في طنجة، متجمعين متألبين حينًا، ومتخاذلين حينًا آخَر، وكلهم في كل حال ينظرون إلى المغرب نظرة الذئاب الكاسرة.

ضبط «سي» أحمد الأمر بالسيف «الحجاجيِّ» في المغرب الأقصى أجمع برهةً من الزمن، ووقف وقفةً يُحمَد عليها في وجه زبانية الفرنجة بطنجة، ولكنه ضاق ذرعًا بأمر أخويه: وزير الحربية، ورئيس التشريفات في البلاط. فشكاهما إلى الله، فسُمِعت على ما يظهر شكواه، وسُمِع غيرها من الشكاوى، فمات الأخوان فجأةً، وبعد أسبوع لحق هو بهما! فإن كنت تشك في الحكمة الإلهية، فلا أظنك تشك في حكمة الدنيا الفانية، والفتى لا يستقصي شئون الدولة الخفية، في أزماتها الدكتاتورية.

وكان مولاي عبد العزيز قد بلغ سن الرشد عندما أراحه الله من بني موسى الثلاثة في فجر هذا القرن العشرين.

ولكنه بعد سنتين من حكمه (١٩٠٢) مُنِي بمَن جعله يترحَّم على بني موسى؛ فقد شبَّتْ في البلاد نيران ثورة الشريف الكاذب «بوحماره»، وتلتها بعد نحو ثلاث سنوات ثورة الشريف الصادق أحمد الريسوني، وسنقص عليك قصة الريسوني في فصل آخَر من فصول هذا الكتاب.

أما «بوحماره» — ولست أدري مصدر الكنية إلا أن يكون من مطيته — فهو الجيلاني الزرهوني، نسبةً إلى زرهون بالقرب من مكناس، وفيها مدفن إدريس الأكبر مؤسِّس الدولة الإدريسية في المغرب. فلا عجب — وهي مهد القداسة، وقبلة المؤمنين في تلك الديار — إذا كانت لا تزال خصبة مثمرة. فلا تكذب بشائرها، ولا تكذب رسل غيرها!

وهذا رسول الخير الزرهوني، كان حمَّالًا، فصار مرابطًا، ثم صاحب دعوة دينية، وما لبث أن صارت دعوة سياسية.

– أتقولون: السلطان عبد العزيز؟! إنه لعبد الأجانب، إنه لعبد المستعمرين، أعداء المسلمين وأعداء الله!

سمعت القبائل، ولبَّتِ الدعوة؛ فانتشرت الفتنة انتشار النار في الهشيم.

وجلس «وليُّ الله» في تاز إحدى عواصم المغرب في قديم الزمان يُصدِر الأوامر، ويرسل الجباة لجمع الخراج.

– مَن والى الكفَّار كافر، وليس له في أعناق المسلمين عهدٌ، مَن والَى الكفار من السلاطين هو عدو المسلمين! استفيقوا، استفيقوا أيها المسلمون.

وبينما كانت القبائل تردِّد هذه الكلمات، وتدفع الخراج لجباة «وليِّ الله»، كان هذا «الوليُّ» — فعل الله ما شاء به — يستقبل رسل الفرنجة من أهل البلاد، ويتعهَّد بالولاء لَمن يعرض منهم الولاء، وما يليه أو يصحبه من عتاد أو مال. جلس ولي الله في تاز، فرقصت له شياطين السياسة في طنجة والجزائر.

وهناك بالقرب من الحدود، بين الجزائر والمغرب، كان بين رسل الاستعمار طلَّاب امتيازات من الإسبان، وفي ضواحي مَلِيلَة جبال محشوة بالمعادن، ولا سيما الحديد.

– فيا «بوحماره»، يا أيها الطامع بالعرش الشريفي … إن المال عصب الحرب، ونحن ننشد الامتيازات.

فقال «بوحماره»: هاتوا المال، وخذوا امتيازات. وكان ما كان مما لست أذكره، على أننا سنزور شركة المناجم الإسبانية، في جبالها الحديدية في ضواحي مليلة، ولك يومذاك أن تظن شرًّا أو خيرًا.

أما الآن فموضوع اهتمامنا الأكبر هو السلطان الشاب عبد العزيز[٤] والفرنجة الطامعون ببلاده.

وكان الفرنسيون أشدهم طمعًا، وأمهرهم لعبًا على الحبلين، بالرغم مما للإنكليز من الشهرة في هذه اللعبة السياسية المزدوجة؛ فقد أشرت إلى ما كان من أمرهم — أي الفرنسيين — مع «ولي الله» بوحماره، وها هم أولاء الآن يحثون السلطان الشاب على العزم في الحكم، ويَعِدونه بالمساعدة، ويغرونه بالهدايا الثمينة والتافهة — بالسجاجيد والسيارات، بالتحف والأعلاق، بالدراجات والألاعيب — ليمكِّنهم مما يريدون.

لَانَ لهم عبد العزيز ووَالَاهم، وفتح للسياسيين منهم باب المفاوضات، وللتجار أبواب الكسب والإثراء، فتمادى هؤلاء في الطمع، وأولئك في الطغيان. كيف لا وهذه جنودهم تتأهَّب للزحف على البلاد من الجبهة الشرقية، من الجزائر، وهذه مدافع مدرعاتهم ترمق بنظرها القتَّال الشواطئَ الغربيةَ.

– نريد أن نؤمِّن الطرقَ للسياح والمدنَ للتجارة.

[٤] اختلف المؤرخون في تاريخ عهده؛ فمنهم مَن أرَّخه: ١٨٩٤–١٩١١، ومنهم: ١٩٠٠–١٩٠٩، ومنهم: ١٩٠٠–١٩٠٨؛ والسبب في هذا الاختلاف هو السلطان نفسه، وما فتح وختم به عهده من الاضطرابات والفتن، فقد خلف والده الحسن قانونًا قبيل موته (١٨٩٤) ولم يحكم فعلًا إلى أن بلغ سن الرشد، وفيه مجال للظنون، وما انتهى حكمه فعلًا بعد أن انتصر عليه في الحرب أخوه عبد الحفيظ (١٩٠٨)، مع أن علماء مراكش نادوا بعبد الحفيظ سلطانًا في السنة السابقة. فالصواب إذن في واقع أمره هو أنه تزحلق إلى العرش في أواخر العقد الأخير من القرن التاسع عشر، ثم تزحلق منه في أواخر العقد الأول من القرن العشرين … والسر في التزحلق!

آمنًّا، ولكننا مع ذلك غير مطمئنين؛ فقد أرسل مولاي عبد العزيز رسوله المنبَّهي إلى لندن يحتجُّ على ذلك التأمين في مختلف أشكاله، فجامله ساسة الإنكليز، وزوَّدوه بالنصح السديد غير المفيد.

– ليحكم سيد المغرب بلاده كما نحن نحكم بلادنا. ليفتح الموانئ للتجارة. ليجمع الخراج بالطرق المشروعة. ليطلق سراح الأبرياء من المساجين، وليطعم الآخرين.

عاد المنبَّهي يحمل هذه النصائح إلى مولاه، فاهتم عبد العزيز بإصلاح بعض الشئون على الطريقة الإنكليزية، فاصطدم بطريقة أوروبية مناوئة. غاظ الفرنسيين قبولُه نصائحَ الإنكليز.

قال عبد العزيز: على كل فرد من الرعية أن يدفع مبلغًا معيَّنًا من الضرائب.

فقال الفرنسيون: إن الذين في حماية أجنبية — فرنسية أو إسبانية أو إنكليزية أو غيرها — لا يدفعون، وهذه معاهدة مدريد تؤيِّد قولنا.

وهناك غيرهم — مَن والوا «بوحماره» مثلًا — لا يدفعون الضريبة للسلطان، بل سرت روح العصيان من الثائرين والمحتمين بالحماية الأجنبية إلى سواهم من الرعية، فساءت الأحوال في كل مكان، وصار الجباة يمشون في البلاد كأنهم سيَّاح راغبون في النزهة، لا يحملون سيفًا أو كرباجًا، فلا يطاعون ولا يخشون؛ فلماذا يدفع عبد السلام الفاسي الضرائب، وأخوه عبد السلام الفرنجي لا يدفع درهمًا؟ …

سُدَّت على خزينة الدولة الموارد من كل جانب، وكان بلاط مولاي عبد العزيز يكتظ بالتحف والألاعيب الأوروبية، فأصبح كجناح من مخزن اللوفر بباريس، إلا أنه يختلف عن سائر المخازن في أنه يقوم بالهدايا وبالشراء، لا بالبيع. يؤمه التجار فتشحن إليه البضائع، يؤمه السياسيون وهم يحملون الهدايا، ومنها ألاعيب بلوالب تُدَار فترقص وتغني، فتضحك الثكالى والسلاطين المفلسين!

وكان في البلاط هناك غير ذلك من عوامل البهجة واللهو والتفريج، ومن التجار والسياسيين الأوروبيين مَن يزورون غبًّا، ولا يزدادون حبًّا، ومن العبيد والحجاب والجواري والفتيان مَن كانوا وكنَّ جزءًا من الأثاث والألاعيب.

وفوق ذلك كله كان في البلاط أوروبيان، من جزائر البريطان؛ لينيروا عرش مولاي عبد العزيز بأنوار الحكمة، فيهتدي في سياسته الداخلية والخارجية إلى كل ما فيه مجد المغرب، وعز الدولة الشريفية العلوية. أحدهما ذلك المغامر الإنكليزي الأول في المغرب، معلم الجيش الشريفي، ونديم مولاي المعظم، القائد «السر هنري ماكلين» Sir Maclean. والآخَر

الذي كان يعرف المغرب — لإقامته فيه عشرين سنة — معرفته لأسرار مهنته، هو صاحب المجادة العلَّامة المفضال السيد «ولتر هاريس» Walter Harris مراسِل جريدة التيمس الكبرى.

وكان «هاريس» و«ماكلين» ترسَيْ مولاي عبد العزيز وسيفَيْه، يتَّقِي بهما الأخطار، ويضرب بهما رقاب الكبار غير الأبرار من ساسة الفرنسيين والإسبان، ولذينك الترس والسيف مزيتان إنكليزيتان دقيقتا الحد والمعنى، يشترك فيهما السحر والحرام، ولا يجزل خيرهما في الحالين: «ماكلين» و«هاريس» شوكتان في ثريدة الفرنسيين، وذبابتان في كأس الإسبان، وهما في ذلك البلاط بفاس معصومان محصنان، معصومان فيما يوحي به إليهما من الرقم العاشر في دوننج إستريت بلندن، ومحصنان بما يحسنانه من التهريج والتفريج في حضرة صاحب الجلالة!

وما خلا ذلك البلاط — بعد أن قبض الله روح ابن موسى الطاهرة — ممَّنْ كانوا شبيهين به، إلا في ذكائه، فكان الفرنسيون والإسبان يستعينون بهم على داهيتي البريطان.

أما السلطان عبد العزيز — على كل ما قيل في تبذيره وسفهه، واسترساله إلى اللذات — فقد كان صادق العزم في محافظته على كرامة الدولة، بالرغم من ولائه لَمَن كانوا يتودَّدون له، ويتآمرون عليها وعليه.

وأما بليته الكبرى فلم تكن في هؤلاء الأجانب، ولا في أولئك المرابطين — لا في المؤامرات الخارجية، ولا في الفتن الداخلية، بل في الخزانة الفارغة.

المال — المال — يصلح الشئون كلها، ومن أين يجيء بالمال؟

سمع الإنكليز صيحة صاحب الجلالة كما سمعها الفرنسيون، ولكنهم لم يسرعوا في العمل كما كانوا يسرعون في النصح. ما حقَّقوا آمال خادميهم الطائعين: «هاريس» و«ماكلين».

وكانت الجمهورية الفرنسية قد استعادت الكثير من قواها وكرامتها، ومن نفوذها المالي السياسي، فجاء رجالها مسرعين يقدِّمون لمولاي عبد العزيز غير النصائح. ذي هي الفرصة السانحة. فقبضوا على ناصيتها.

– رعيتكم يا صاحب الجلالة لا تدفع الخراج، وأنتم في حاجة إلى المال. فالمال عندنا يجيئكم على ما تشتهون، وبقدر ما تشتهون، وما عليكم غير أن توقِّعوا هذه الأوراق ضمانًا واطمئنانًا — ضمانًا لأصحاب المال، واطمئنانًا لكم.

ختم السلطان بختمه «أوراق الضمان»، ورهن جمارك الدولة لحكومة الدائنين؛ فهتفت الخزينة مع ذلك للستين مليونًا من الفرنكات، وهتف ساسة الفرنسيين وصيارفتهم في الجزائر لهذا النصر المبين.

– لتفتح أبواب المغرب على شواطئ الأوقيانوس كما انفتحت على شواطئ المتوسط. لتفتح للتجارة، وللمشاريع المالية والعمران. لتفتح للتمدن الفرنسي.

كانت السياسة الدولية المغربية تتراوح في أساليبها بين العنف والرفق، وقُلْ بين المصارحة والمخادعة، بحسب تلوُّن السياسة الدولية الأوروبية وتطوُّرها، وكان يدبِّر هذه السياسة في تلك الأيام التي نسرد الآن حوادثها، ثلاثة من ساسة أوروبا الاستعماريين المتطرفين، هم «تيوفيل دلكاسة» Théophile Delcassé في باريس، «واللورد سالسبوري» Salisbury في لندن، «والإمبراطور غليوم الثاني» في برلين.

وكان أولئك الثلاثة، على اختلافٍ بينهم في الخُلُق والمزاج، من طينة سياسية واحدة؛ فقد كان «دلكاسة» ديموقراطيًّا حرًّا في سياستة الوطنية، واستعماريًّا مرًّا في سياسته الدولية، وكان «سالسبوري» الذي خلف «غلادستون»، من أشد المحافظين الأرستقراطيين في البلاد الإنكليزية وخارجها. أما «الإمبراطور غليوم»، فقد كان — بعد أن انطلق من ظل «بسمارك» — الدكتاتور الأوحد في بلاده، وهو يحاول أن يسيطر كذلك على السياسة الدولية في العالم.

وما كان «دلكاسة» من عشاق الألمان، ولا ممَّنْ يتغنَّون بعبقرية «غليوم»، بل أراد أن يذل مَن كان يظنه مجنونًا، ويعزل أمته وحكومته في سعيه لتأليف الحلف الثلاثي الفرنسي الإنكليزي الروسي، وقد خالَفَ في ذلك سياسة سلفه في وزارة الخارجية «غبريال هانوطو» Gabriel Hanotaux الذي كان يريد أن يعزل إنكلترا في حلف يؤلِّفه من فرنسا وألمانيا وروسيا.

على أن الأحوال والمقادير كانت موالية لسياسة «دلكاسة»، وخصوصًا منها سياسته المغربية، فقد أفلح في عقده الاتفاق الأول مع سلطان المغرب (٢٠ يوليو ١٩٠١)، يوم كانت حرب البوير تشغل إنكلترا، فحدد فيه الحدود بين المغرب والجزائر، ثم ألحقه في السنة التالية (٢٠ أبريل ١٩٠٢) باتفاق آخَر قَبِلَ فيه مولاي عبد العزيز التعاونَ مع الفرنسيين.

واستمر «دلكاسة» في سياسته هذه الموفقة، فحاوَلَ أن يكلِّلها بحسن التفاهم أو التفاهم الودي Entente cordiale بين فرنسا وإنكلترا ودولتَي البحر المتوسط: إسبانيا وإيطاليا؛ ليقيم به سدًّا حائلًا دون امتداد نفوذ ألمانيا إلى المغرب، فتعهَّدَ لإيطاليا في كتاب

سري (١ نوفمبر ١٩٠٢) بأن تكون لها حرية العمل في طرابلس الغرب، فقبلَتْ، ووعد إسبانيا بمنطقتين في المغرب؛ الواحدة في الشمال والأخرى في الجنوب، فرفضت.

وكانت إسبانيا تعتمد على إنكلترا في مقاومتها مطامع الفرنسيين، وتذهب مذهبها في وجوب المحافظة على كيان الدولة الشريفية.

على أن إنكلترا، وقد أضعفتها حرب البوير ماليًّا، وأضعفها سياسيًّا تعاظُم شأن حزبي الأحرار والعمَّال؛ خفضت صوتها في الدفاع عن المغرب، والاحتجاج على تغيير الوضع الراهن فيه.

وما كانت مطمئنة فيما تضمره لمصر من «خير» الاستعمار، وفي ما تمخَّضت به مصر من العداء لذلك الخير؛ فسعت سعيًا جديًّا لتحديد الوضع البريطاني في وادي النيل، ولتسوية المشاكل المتعلقة، ولا سيما مشاكل الديون العامة والامتيازات. ذلك ما شغلها في سنة ١٩٠٤ عن المغرب الأقصى، كما شغلتها عنه في السنوات السابقة حرب البوير.

وما أفادت مساعيها، بالرغم من دهاء المقيم العام «اللورد كرومر»، وبالرغم من توسُّط الملك «إدوار» السابع نفسه؛ لأن فرنسا كانت تطالِب ملحة بما لها من حقوق سياسية ومالية واقتصادية في وادي النيل.

فقال غلاة السياسة الوطنية الاستعمارية: فرنسا تعرقل مساعينا في مصر، فَلْنعامِلها بالمثل في المغرب، يجب أن نعود إلى سياسة المحافظة على كيان الدولة الشريفية.

ولكن «آرثر بلفور» — بعدئذٍ اللورد بلفور صاحب وعد اليهود بوطن قومي في فلسطين — الذي خلف اللورد «سالسبوري» في رياسة الوزارة، لم يكن من هذا الرأي، بل كان هو ووزير الخارجية «اللورد لانزدون» Lansdown من دعاة المساومة: لتطلقْ فرنسا يدنا في مصر، نطلق يدها في أفريقيا الغربية.

وكانت الصحافة الإنكليزية، على الإجمال، تردِّد صدى كلمات الوزارة: نحن في مصر وفرنسا في المغرب.

وشاء إبليس صديق «دلكاسة» و«بلفور» و«لانزدون»، أن تتم الصفقة في ٨ أبريل ١٩٠٤، فكانت فرنسا منتصرة للمرة الرابعة في سياستها المغربية خلال ثلاث سنوات: فمن القرض المالي للسلطان عبد العزيز، إلى اتفاق الحدود، إلى اتفاق التعاون، إلى الاتفاق الفرنسي الإنكليزي. ذي هي أربع مراحل بأربعة انتصارات.

وبعد ستة أشهر من هذا الاتفاق الاستعماري تمكَّنَ «دلكاسة» — وقد أسكت الإنكليز — من إرضاء إسبانيا؛ فعقد وإياها اتفاقًا سريًّا (٣ أكتوبر سنة ١٩٠٤) على أن تكون في حمايتها المنطقة الشمالية من نهر مروي شرقًا إلى ضواحي فاس غربًا بجنوب ...

ومولاي عبد العزيز في قصره بفاس يستقبل صديقه المخلص «ماكلين» منظم جيشه، وصديقه الآخَر المخلص «هاريس» مبيِّض وجهه في الجريدة الإنكليزية الكبرى، فيقص الأول عليه الأقاصيص، ويتبسَّط الثاني في العلوم السياسية والاقتصادية التي تعمِّر هذه الدنيا الفانية على حساب الآخِرة الخالدة. فيهز عبد العزيز رأسه، ويعود إلى ألاعيبه …

– لماذا لا ترقص هذه الدمية؟ ولماذا لا تغني؟

– لأن لولبها انكسر، يا مولاي.

– ولولب الدولة؟! مَن يضمنه لمولاي عبد العزيز؟

هل تضمنه المعاهدات السرية، فتظل الدمى الشريفية ترقص وتغني أبد الدهر؟!

المعاهدات السرية الفرنسية الإنكليزية الإسبانية، أتضمن لأصحابها سلامة اللولب المركَّب — لولب الاستعمار — أبد الدهر؟

وما محل ألمانيا من هذا الإعراب الفرنسي الإنكليزي الإسباني المغربي؟ أتنسون ألمانيا؟ أو يستطيع «دلكاسة» أن يعزلها؟ وهل ينسى إيطاليا، وهي من الدول التي اشتركت في مؤتمر مدريد؟

لقد كانت ألمانيا ترقب يومئذٍ الحرب الروسية اليابانية، وترجو النصر لليابان، فتحقق ما كانت ترجوه. انكسرت روسيا، وليَّة «دلكاسة»، فاطمأن قلب «غليوم»، واطمأن باله. لا خوف من دبِّ الشمال؛ إذن … سنصدر بيانًا يزلزل أوروبا: إذا احتلت فرنسا شِبرًا من المغرب، فالحرب حتمًا واقعة. قالها سفير ألمانيا على مسمعٍ من الـ «كاي دورساي» بباريس.

ركب «غليوم» مدرَّعة من مدرعاته الحربية إلى طَنجة (٣١ مارس سنة ١٩٠٥)، وخطب هناك خطبة «هتلرية» — إنْ جازَ تشبيه الماضي بالحاضر — فقال: إنه جاء يزور سيد البلاد المطلق، وإنه «غليوم»، وإنه سيدافع بكل ما لألمانيا من القوة عن استقلال الدولة الشريفية العلوية.

فهم سيد البلاد السلطان عبد العزيز، معنى تلك الزيارة ومغزاها. خسرنا الإنكليز فأنعم الله علينا بغليوم!

واشتدَّ ساعِد عبد العزيز، فقلب ظهر المِجَنِّ للفرنسيين، وراح يدعو لعقد مؤتمر دولي لإعادة النظر في شئون المغرب.

مؤتمر دولي؟ وهل تذهب جهود «دلكاسة» كلها سدًى؟ كلا. هو التهويل تلجأ ألمانيا إليه، وبالرغم من انكسار الروسي في منشوريا، وبالرغم من تقلقُل موقف إنكلترا، ظلَّ السياسي الفرنسي متمسكًا بظنه أن ألمانيا تهول تهويلًا. فتناقَشَ في الموضوع ممثلو البلاد في مجلس النوَّاب والشيوخ، ثم اقترعوا، فكانت الغلبة للمعارضة.

سقطت وزارة «دلكاسة» (٢ يونيو ١٩٠٥) فرجحت كفة ألمانيا في ميزان السياسة المغربية.

وأعود إلى سنة ١٩٠٤ لأصل بالموضوع الحاضر حادثًا خطيرًا من حوادث المغرب: في شهر مايو من تلك السنة قصد الشريف الريسوني، الذي كان خارجًا على الحكومة والأجانب، إلى طنجة، مغامرًا مغامرته الخطيرة. وما تلك المغامرة؟ أراد الريسوني أن يلفت إليه وإلى دعوته نظر الدول الأوروبية، فمشى وزمرة من رجاله، في ليلة مقمرة فاح عبير أزاهيرها، إلى رابية من روابي المدينة، حيث كان يسكن قنصل الولايات الأميركية المتحدة «إيون برديكاريس» Ion Perdicaris فألفوه وأسرته في سمر، فخطفوه والأسرة جميعًا.

وكان يرأس الحكومة الأميركية يومئذٍ ذلك الغليوم الآخَر «تيودور روزفلت» Théodore Roosvelt فكشَّرَ عن أسنانه غضبًا عندما وصل إليه الخبر، وبعث بسبع مدرعات حربية إلى طنجة، يطلب من سلطان المغرب الاعتذار، وسبعين ألف دولار.

دفع السلطان المال، وصارت الصحف والدول منذ ذلك الحين تهتم للريسوني وأخباره، ومنها: ما رواه القنصل «برديكاريس» نفسه بعد أن أطلق سراحه، وهو أن الريسوني عربي شريف كريم الأخلاق. وسنزيدك نحن من أخباره في الفصل الذي وعدناك به.

هذا الحادث — عودًا إلى بدء — حَدَا الحكومة الأميركية إلى المشاركة في بحث شئون المغرب، وما كان الرئيس «روزفلت» ممَّن يجمجمون الكلام. فقد قال في سياسة «دلكاسة» إنها خطر دولي، وحبَّذَ عقدَ المؤتمر الذي تقدَّمَ ذِكْره، فتقرَّرَ أن يعقد في الجزيرة، في ذلك المنزل الجميل القائم على الطرف الغربي من الهلال الأخضر، المنتصب على طرفه الشرقي جبل طارق.

عُقِد المؤتمر في الشهر الأول من سنة ١٩٠٦ واستمر إلى شهر أبريل. فماذا فعل أصحاب السعادة ممثلو الدول العظمى في خلال ستة أشهر؟ لست أدري، إلا أنهم كانوا شرقيين في المناقشات، وغربيين في التنزُّه. ومما لا شك فيه أن الإقامة طابت لهم، فقضوا فصل الشتاء الدافئ كله في ذلك النعيم الأرضي، وما رمَّموا فيما صنعوا نعيم المغرب أو شيئًا منه.

بل قرَّروا أن تكون الشرطة المغربية فرنسية الإدارة في الرباط وصبرة، وإسبانية في تطوان والعرائش، ودولية في طنجة والدار البيضاء، وقرَّروا كذلك أن يُؤسَّس بنك دولي مغربي له امتياز الإصدار، وأن تكون أكثر أسهمه لفرنسا؛ لأنها دائنة الحكومة الشريفية. ما سوى ذلك ينحصر في أمرين؛ الأول: أن تشترك الدول على السواء في المشاريع الاقتصادية والعمرانية في المغرب، والثاني: أن تعترف للسلطان بالسيادة والاستقلال.

أرادت ألمانيا أن تحل محل فرنسا في النفوذ والامتيازات، فحالت دون إرادتها إنكلترا وأميركا.

وأرادت فرنسا أن يكون لهذا النفوذ الأول والامتياز الأكبر، فحالت دون ذلك إسبانيا وإيطاليا وألمانيا والنمسا.

وما حَلَّ المؤتمر مشاكل المغرب، أو مشكلًا من مشاكله، حلًّا تامًّا ثابتًا دائمًا.

ستة أشهر من المناقشات — والتنزه — انتهت بقرار لتنظيم إدارة الشرطة المغربية، وبإجماع الآراء على أن المغرب لنا كلنا، يا ناس، على شريطة أن لا يمس استقلال سلطان المغرب!

فلا عجب إذا هزأ الأمن من هذه المناقضات والمساومات والجمجمات، ولا عجب إذا ازداد الاضطراب في البلاد؛ فقد قُتِل في أيار (مايو) فرنسي في طنجة، وآخَر في أيلول (سبتمبر) في الدار البيضاء. وقد اشتدت حركة الريسوني في آخِر هذه السنة، فحاولت الدولتان الفرنسية والإسبانية أن تروِّعه بمناورة بحرية مشتركة، فما أفلحت المناورة، وقد قام في مطلع سنة ١٩٠٧ عرب الشاوية على الحكومة الشريفية فذبحوا قوَّادها، وهاج الرعاع في الدار البيضاء على العمَّال الفرنسيين في المرفأ، فقتلوا سبعة منهم، وكان العلَّامة «الدكتور موشان» Emile Mauchamp[٥] قد قُتِل في بيته بمراكش في ١٧ مارس من هذه السنة.

وفي السنة التالية كان بمراكش بعض السياح الفرنسيين، فسمعوا الناس في الشارع يقولون: «ها هم أولاء الفرنسيون، جاءوا يأخذون بلاد المغرب.»

---

[٥] هاج الرعاع على الدكتور «موشان» لأنه كان — كما توهَّموا — يتجسَّس لحكومته، ويجمع أخبار المغاربة في السحر والتنجيم؛ ليكتب كتابًا يحط من قدرهم في عيون الأجانب، وقد نُشِر كتابه هذا بعد موته، وكتب مقدمته صديق الدكتور «موشان» السيد «جول بوا» Jule Bois فقال يتهم أحد الألمان هناك بتهييج الرعاع على الدكتور الفرنسي: Déja un étrange aventrrier tenton, avais depuis longtemps excité L’ opinion contre le docteur français, son concurent cet individu, se nomment Holtzmann et se disant médecin, n’était en réalité qu’ un éspion secret doublé d’ un marchand des pastilles du serial il doit porter une large part de responsibilité dans l’assassinat de notre .compatriote. (La Sorcellerie au Maroc, P. 21)

Il Joua un role décisif dans l’emeute de Marakech, au cour de Laquelle Manchamp .succomba (ibid P. 22)

ليس من الصواب أن تُعزَى هذه الحوادث كلها إلى مؤتمر الجزيرة، فهي تتعداه في أسبابها إلى ما تقدمه من الأعمال الاستعمارية. لقد نفخ المؤتمر في نار تحت رماد، وكان جمرها من ذلك القرض المالي، ومما تبعه من تكالُب المستثمرين. هي هي السياسة المالية[٦] La diplomatie à la Financiére أو سياسة التعجُّل، وقد سبق فقلت الكلمة الحق، وهي التكالب في الاستثمار.

وما اتعظ سلطان المغرب مولاي عبد العزيز بما كان من محنة ابن عمه في تونس الباي محمد الصديق، تلك المحنة التي نجمت عن التبذير الشرقي، والجشع الأوروبي، وما كان خازنداره الداهية الشركسي ليخفِّف بدهائه من ويلاتها. فالخزانة فارغة، والإفلاس يخيم على الملك. الإفلاس! ومَن يداويه غير صيارفة الفرنجة؟

وجاء الصيارفة ناصحين لخير الدين، عارضين عليه المال الذي تحتاج إليه الدولة. تحتاج إليه الدولة؟! يحتاج إليه الباي ليظل قصره عامرًا بالجواري والعبيد!

– لا ينقذنا غير القرض — يا مولاي — وهؤلاء الأوروبيون يقدِّمونه لنا بفائدة صغيرة تافهة.

سلَّمَ الباي محمد الصديق، وقَبِلَ من يد الاستعمار التي يحركها الصيارفة خمسة وثلاثين مليونًا من الفرنكات. قال المؤرخ جوليان: «عندما وقَّع الباي وثيقةَ ذلك القرض، حكم على تونس بالموت.»[٧]

وما اتعظ سلطان المغرب مولاي عبد العزيز، ولا فكَّرَ في نتائج القروض المالية والسياسية، وفي جشع المولين.

نقلت لك قول الخازندار خير الدين لمولاه الباي بخصوص الدين وفائدته «القليلة التافهة».

وهاك الحقيقة في أرقام بنفقاته، فقد تقاضَى الصيارفة الباي محمد ستة ملايين فرنك عمولة Commission، ثم ٢٧٧٢٠٠٠ فرنك لقاء إصدار أسهم لذلك القرض، ثم مليونًا آخَر لخدمات سرية، ومما تبقى — أي ٢٥ مليونًا — لم يصل ليد الباي غير ٥٦٤٠٩١٤ فرنكًا، ووجب عليه أن يدفع الدين، بعد خمس عشرة سنة، مع فائدته «لأولئك الصيارفة المتواطئين ورجال السياسة الاستعمارية».

---

[٦] Histoire de l’Afrique du Nord, P. 734.

[٧] Il signa l’arret de mort de la Tunisie ibid. p. 698.

فهل يتعظ سلاطين المغرب؟ وهل يتعظ أمراء الشرق وملوك العرب؟ وهل تتنبه الشعوب العربية؟!

استمرت فرنسا في سيادتها الهدَّامة لاستقلال المغرب، من الناحيتين الشرقية والغربية، بالرغم من قرارات مؤتمر الجزيرة، فكانت تمهد خصوصًا في الشرق، من وهران وتلمسان، سبيل التقدم الاستعماري إلى الأوقيانوس، وذلك بعد أن وقفت برهة موقف الحائر في أي الخطتين أضمن للنجاح السريع: الشرقية أم الغربية؟

وقد كانت المعارضة في تلك الأيام عالية الصوت، فصيحة اللسان، شديدة اللهجة، وعلى شيء من المبادئ الإنسانية، يتزعمها الخطيب الاشتراكي الشهير «جوريس» Jean Jaurés فطلب من الحكومة أن تعقد اتفاقًا نزيهًا مع حكومة المغرب وتمد الأهالي — وخصوصًا القبائل المجاورة للجزائر — بالمساعدات، فتبني لهم المدارس والمستشفيات، وتعبِّد الطرق ... إلخ. كل ذلك بدون احتلال، وبدون تدخُّل الجيش، فعدَّها الاستعماريون بلاهة أو سذاجة، واستمروا في سياستهم العسكرية الاحتلالية التجارية.

– اضمنوا لنا سبل التجارة. وطِّدوا الأمن للتملك والاحتلال. افتحوا البلاد للتمدن الفرنسي!

وبعد مذبحة العمَّال الفرنسيين في الدار البيضاء، وثورة الشاوية على قواد الحكومة الشريفية، احتل الفرنسيون أولًا وجدة، على الحدود المغربية الجزائرية، احتلالًا «مؤقتًا» — كما قالت حكومة باريس. ثم في حيزران (يونيو)، أي بعد سنة من مؤتمر الجزيرة، ثارت لأبنائها، ضحايا الاضطرابات في الدار البيضاء، فأطلقت المدافع من مدرعتها «الجليل» على المدينة فدمرتها، وقتلت من أهلها أضعاف عدد أولئك الضحايا.

ثم احتلَّ الجنرال «داماد» D'Amade بجيشه بلاد الشاوية، بعد محاربة القبائل نحو سنة، فصفا الجو — إلى حين. وهل يصفو على الدوام في ذلك المغرب، وهو كالبركان الهائج، تخمد ناره يومًا، ويومًا تشتعل؟

صفا الجو للجيش، وما صفا للسياسيين في باريس وبرلين، فقد عكَّره الأجانب في الدار البيضاء؛ إذ فرَّ ستة من جنودها هاربين في أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٨، منهم ثلاثة ألمان. فاتهم القنصل الألماني هناك بتشجيع أولئك الجنود على الفرار. مما لا ريب فيه أنه أعطاهم تذاكر الطريق، ولكن القنصل الفرنسي أدركهم بثلة من الحرس، فألقوا القبض عليهم.

هذا الحادث أثار الخواطر في الصحافة والدوائر السياسية في العاصمتين، فطلبت حكومة برلين من الحكومة الفرنسية الاعتذار قبل التحقيق، فرُفِض الطلب، وما كُرِّر ولا عجب، وفيه تحكمٌ عارٍ من الكياسة، وقد أحجمت حكومة برلين عن تكراره؛ لأنها شُغِلت في ذلك الحين بحادث آخَر خطير، في شرقي أوروبا، وهو ضمُّ النمسا لمقاطعتي البُسْنة والهرسك في أكتوبر من هذه السنة. فقبلت ألمانيا أن ترفع قضية الجنود الفارِّين إلى محكمة لاهاي، وقد حكمت تلك المحكمة في القضية لفرنسا (مايو ١٩٠٩).

وكانت المفاوضات في أثناء ذلك جارية بين الحكومتين في معضلة المغرب، فعُقِد بينهما اتفاق اقتصادي (٨ فبراير ١٩٠٩) مبني على قاعدة: «للضرورة أحكام» ومادة المساواة الدولية في ميثاق الجزيرة. فتقرَّر فيه تأليف شركات اقتصادية وتجارية، رأسمالها ألماني وفرنسي؛ لاستغلال المناجم وللأشغال العامة، وقد خُصَّتْ بالذكر شركتا «شنيدر» و«كروزو»، وشركة «كروب»، فتعَيَّنَ للأولين ٥٠٪ من الأسهم، وللثانية الألمانية ٢٠٪، وما تبقَّى لشركاتٍ من الدول الأخرى.

هذا الاتفاق، وإن كانت ألمانيا قد اطمأنت في البدء إليه، ظلَّ حبرًا على ورق، ومكَّنَ فرنسا خلال فترة التنفيذ والتسويف، من تتبُّع سياستها العسكرية الاحتلالية. فاستأنف الجنرال «داماد» زحفه، واحتلَّ القسم الأكبر من بلاد الشاوية، ثم جاء الجنرال «مونيار» Monier صائلًا فاحتل تادَلة (١٩٠٩)، وهي على نحو مائتي كيلومتر من ساحل الأطلنتيقي.

أما في الشرق فقد كان الجنرال «ليوتي» Lyoutey يسير، بعد خروجه من وجدة، غربًا بجنوب، متغلغلًا في البلاد، فوصل بجيشه إلى «دبّدو»، فالعيون. ثم مشى إلى «تاوْريرت» حيث تلتقي الطرق بين المغرب والجزائر. فدنا من تاز.

في هذه المدة (١٩٠٨–١٩١٠) قطعت الجيوش الفرنسية نحو ثلاثمائة كيلومتر من الشرق غربًا بجنوب، وثلاثمائة كيلومتر أخرى من الغرب جنوبًا بشرق، واحتلت البلدان في طريقها، فدنت من العاصمتين مراكش وفاس.

أما الإسبان فقد كان احتلالهم بطيئًا للمنطقة التي غنموها في اتفاق سنة ١٩٠٤، بطيئًا ومحفوفًا بالمصاعب والأخطار. هذه إسبانيا المستعمرة تخبط خبط عشواء بين الكنيسة والاشتراكية، هذه إسبانيا المضطربة شئونها اضطرابًا يدنو من الفوضى، بل هي الفوضى بعينها — الحمراء! — تصيح صيحاتها الاشتراكية اليوم، الإكليركية غدًا، والحكومة تحمل تشريعها لتحليل الزواج المدني، ولتقييد الجمعيات الدينية — كما حمل المسيح الصليب — من مرحلة إلى أخرى، من وزارة إلى أختها، فتسقط الوزارات وتتجدد، وتظل الفوضى

قائمة، نافخة في الصورَين: صور الحرية الحمراء، وصور الرجعية الفاتيكانية، وها هو ذا السنيور «مورا» يعود إلى رياسة الوزارة (١٩٠٩) ليخفق في محاولاته الائتلافية. فلا الاشتراكية تهتدي، ولا الكنيسة تلين، ولا الحكومة تستطيع أن تكبح جماح إحداها.

وهناك في الريف تقوم القبائل على عمَّال شركة المناجم، وهم يقومون بعمل استعماري، يمدون خطًّا حديديًّا من مدينة مليلة إلى الجبال المعدنية المجاورة لها. شبَّتْ نيران الثورة في تموز (يوليو) من هذه السنة، فعجزت الجنود الإسبانية هناك عن إخمادها. النجدة، النجدة!

فهل مَن يسمع في الحكومة بمدريد؟ سمع الجنرال «ليناريس» Linares وزير الحربية، وقام يدعو لتجنيد القوات الاحتياطية، فأثار نقمة البلاد على الحملات التي يستخدمها دعاة الاستعمار لأغراضهم، وتجدَّدت النغمة القديمة ببطلانها.

وما لبث أن تجسمت النقمة والنغمة في الإضراب العام الذي أُعلِن في برشلونة، فانتشر سريعًا في الولايات كلها، وما لبث أن انقلبت الفتنة، فأمست المقاومة للتجنيد والاستعمار حملة اشتراكية على الدولة والكنيسة معًا.

استمر الإضراب ثلاثة أيام، سادت فيها الفوضى، فهاج هائج الرعاع على الكنائس والأديرة، يهدمون ويحرقون؛ فأُعلِنت الأحكام العرفية في إسبانيا جمعاء، واستمرت شهرين.

لا عجب إذا عجزت الحكومة — والحال هذه — عن نجدة جيشها، واستعادة كرامتها في بلاد الريف.

ومما زاد في ضعفها وتبلبلها حادث «فرِّير» Fransisco Ferrer الاشتراكي الشهيد صاحب الدعوة العلمانية في التعليم، وقد كان لمدرسته الحديثة Escuela Moderna في برشلونة شهرة واسعة طيبة. اتهم «فرير» بتحريض الشعب على العصيان وباستخدام القوة في العصيان، وما كان من مبدئه استخدام القوة، ولا التحريض على استخدامها. فسُجِن بالرغم عن ذلك، وحُوكِمَ أمام محكمة عسكرية، فحكمت عليه بالإعدام في ١٢ سبتمبر، فأُعدِمَ في اليوم التالي.

أحدثت هذه الجريمة الحكومية — أقول الجريمة لأن المحكمة بعد سنتين أعادت النظر في قضية «فرير» فحكمت ببراءته — أحدثت هذه الجريمة ضجة استياء واحتجاج في العالمين الأوروبي والأميركي، بل في العالم المتمدن أجمع. وإني أذكر الحفلة التي أُقِيمت لذكرى «فرير» في بيروت، فاعترض عليها الجزويت وحاوَلوا وقفها.

كل هذه الاضطرابات الداخلية أثَّرت شرَّ تأثير في معنويات الجيش في المغرب، ويصح كذلك أن نقول: إن اندحار الماريشال «مارينا» Marina هناك، في ٣ أيلول (سبتمبر)، أثَّر

شر تأثير في الحكومة، فبطشت بأعدائها، وسقطت بعد ذلك وزارتها، أي وزارة السنيور «مورا» في أكتوبر ١٩٠٩.

وما كان المغرب الأقصى ليختلف كثيرًا في أحواله عن إسبانيا؛ فقد كانت الحرب في هذه الأثناء قائمة بين الأخوين الشريفين العلويين؛ عبد العزيز وعبد الحفيظ، ولا تسلْ عمَّنْ أثارها في ذلك البيت العلوي، فإن للسياسة الدولية إشارات وهمسات لا يجوز في مثل هذه الأحوال، ولا يليق، التقصِّي فيها.

استمرت الحرب بين الأخوين نحو سنتين، وانتهت باندحار عبد العزيز، فلجأ في ١٩ آب (أغسطس) سنة ١٩٠٨ إلى الجيش الفرنسي، وكان علماء مراكش قد بايَعوا في السنة السابقة مولاي عبد الحفيظ.

أما الدول، فلم تعترف به إلا بعد أن لجأ أخوه إلى الفرنسيين، وقد قيَّدوا اعترافهم بشروط، منها أن يدفع ديون أخيه.

وكان عبد الحفيظ (١٩٠٨–١٩١٢) شديد الشكيمة، عصبي المزاج، صادق النزعة الخليفية، واللهجة الوطنية المغربية، فسعى لإخماد نيران الفتن في بلاده، فأخمد بعضها، وكانت فتنة «بوحماره» منها؛ فمثَّل بالمتزعِّمين من القبائل الثائرة، وجاء بالزعيم الأكبر «وليِّ الله» إلى فاس، فجعله فرجة للمتفرجين، ثم عبرة للثائرين.

«بوحماره» في قفص يُرمَى إلى السباع في ساحة المدينة! عيد روماني! بل عيد بابلي! أفلا تذكر قصة دانيال في جب السباعِ هناك ببابل، كما قصَّها بنو إسرائيل في التوراة؟ وكان الرب يهْوه حفيظ دانيال، فما دَنَتِ السباع منه في ذلك العهد القديم.

أما في فاس، في هذا العهد الحديث: فقد ذاق أحد السباع قطعةً من ذراع الولي، فما استمرأها، أو أنه ندم فأحجم عنه لوجه الله، ولكن العبيد نفذوا ببندقياتهم الأمر السلطاني.

ولو أعان الله مولاي عبد الحفيظ لجاء بأقفاص أخرى إلى ساحة فاس، فيها من الأجانب مَن لا يحجم عنهم السباع. لله من أولئك المتواطئين والصيارفة! ما دان لهم عبد الحفيظ ولا لان، مع أنه كان في حاجة شديدة إلى المال.

حدَّثَ أحد السياسيين الثقات في تطوان قال: بعد أن تمَّ الصلح بين مولاي عبد الحفيظ والشريف الريسوني، أسرَّ عبد الحفيظ إلى الشريف بحاجته إلى المال، فجمع الشريف من القبائل مائة ألف دورو — نحو نصف مليون فرنك — وأرسلها إليه.

نصف مليون فرنك لا تسد ثقبًا صغيرًا في الخزينة الكثيرة الثقوب.

– في الباب صيرفي يا مولاي.

– ليدخل. لعنه الله.

ولأولئك الصيارفة أساليب عجيبة في تأمين ديونهم وفوائدها. القرض ثم القرض، وشفعة بالكلام المعروف. هاكم، يا صاحب الجلالة، ما هو واجب علينا في تفريج الأزمات الشريفية، هاكم قرضًا آخَر تستطيعون أن تدفعوا منه في الأقل فوائد القروض السابقة، وقيل: إن الكلام قُرِن بشيء من الإنذار والتهديد.

قبل عبد الحفيظ القرض الجديد — مائة مليون فرنك — ودفع منها بعض ديون أخيه، ثم دفع نفقات الجيش الذي احتلَّ الشاوية، ودمَّر الدار البيضاء، ودفع كذلك التعويضات لرعايا الفرنسيين في تلك المدينة.

ذهبت المائة المليون. جاءت من الفرنسيين،[٨] وعادت — يا سبحان الله! — إلى الفرنسيين.

وقد وعد أولئك السياسيون المتواطئون والصيارفة، عندما عُقِد ذلك القرض، أنهم سيجلون عن بلاد الشاوية قريبًا، وعن الدار البيضاء، فلا يكون لهم هناك غير معلِّمين للشرطة الشريفية. وعود عرقوب! وعود أوروبية! ومما زاد في طين مولاي عبد الحفيظ بلة، أنه بعد أن أمست خزينته كما كانت قبل ذلك القرض، زاد هو في الضرائب على رعاياه، فتمرَّدَتِ القبائل، وثارت عليه، ثم اقتدت بالجيش الفرنسي المرابط عند أبواب العواصم المغربية، فرابطت هي ثم شرعت في الزحف.

وا أسفاه! ما مرت السنة الثالثة من عهده، الشبيه في خزينته بعهد أخيه، حتى اضطر — ونار الثورة تشتعل في فاس — إلى الاستغاثة بالفرنسيين أنفسهم، فأغاثوه مسرعين فرحين.

صدرت الأوامر إلى الجنرال «مونيار» بأن يمشي إلى فاس فمشى، ودخلها بجيشه في ٢١ أيار (مايو) سنة ١٩١١.

ثم زحف إلى مكناس فاحتلها في ٨ حزيران (يونيو)، وتلتها الرباط في ٩ تموز (يوليو).

– سنجلو قريبًا عن الشاوية …

أما في المغرب الشرقي، فبعد أن انفرجت أزمات ١٩٠٩ في إسبانيا، أرسلت الحكومة نجدة إلى الريف، فأخمدت الثورة هناك، ثم عقدت والحكومة الشريفية اتفاقًا

[٨] ما جاءت كلها من الفرنسيين؛ فقد كان هذا القرض دوليًّا اشتركت فيه فرنسا وألمانيا وإنكلترا وإسبانيا بنسب مئوية مختلفة، وكان لفرنسا فيها ٤٠٪.

(نوفمبر ١٩١٠) شبيهًا بالاتفاق الفرنسي الشريفي، المزيَّن بالوعود الخلَّابة — الوعود العوقوبية!

وبعد ذلك (يونيو ١٩١١) احتلت جيوشها المدينتين المغربيتين: العرائش والقصر الكبير.

هي سياسة المِطرَق والحديد الحامي؛ اضربْ، وعجِّلْ بالضرب، وعجِّلْ كذلك بالبيان، اطمئنانًا للمضروب، وإن كان لا يحسن الظن بالضارب. عجِّلْ بالبيان، في الأقل، للتاريخ: قد احتللنا وجدة احتلالًا موقتًا، وقد خرج الجنرال «ليوتي» من وجدة للتنزه في ضواحي تاز. صدِّقْ، أيها التاريخ!

ولكن التاريخ بعون الزمان، يفضح السياسيين الفضيحة الشائنة؛ يسجِّل لهم اليوم الأكاذيب، ويسجِّل الوقائع عليهم غدًا! وهم مع ذلك، وبالرغم من فضائحه كلها، من بداية السياسة الاعتذارية إلى اليوم، يكذبون ويتفنَّنون في الكذب، وفقًا للأحوال، ولطبائع المصالح والرجال. يكذبون الأكاذيب الدقيقة والغليظة، الملونة والقاتمة، الطرية والجافة، الناعمة والخشنة. يكذبون الأكاذيب المعززة بالوثائق الرسمية، المكللة بخنفشار الشرف الدولي! الأكاذيب العسكرية، الأكاذيب الاستعمارية، الأكاذيب المضمخة بطيب التعاليم المكيافلية!

رويدك مكيافلي! لقد فاقك تلاميذك براعة واختراعًا، وحذقًا وخداعًا، فلو عدتَ اليوم إلى هذه الدنيا الدنية، وسمعت التلاميذ يقلِّدون «الأمير»،[٩] ورأيتهم يتنافسون في التقليد والتفوق، لقلت — لو كنت تُحسِن اللغة العربية: هم السبَّاقون في المضمار، فلا يشقُّ لهم غبار!

ولَكنتَ تقف، يا مكيافلي، مكشوف الرأس إعجابًا وإجلالًا، أمام أولئك المجلِّين في ميدان سياستك وأدبك.

أما أولئك العرب المغلوبون اليوم على أمرهم، في المغرب والمشرق، فإنهم ليقفون أمامك، يا مكيافلي، في المجلِّين من كتَّابهم النوابغ — ولا يعدُّون — وكل منهم يحمل كتابًا في مكارم الأخلاق، وفي رأس مكارم الأخلاق الصدق والأمانة، ليذكِّروك، ويذكروا تلاميذك، ساسة أوروبا، أن الغلبة في النهاية للصادقين، ولذوي المروءة والأمانة والشرف! يقولون ذلك

[٩] «الأمير» هو عنوان الكتاب المشهور وبطله، كتبه مكيافلي هديًا للسياسيين، ولطفًا بهم وبأحوالهم.

بمائة لسان، ويعتصمون بالإيمان، والصبر والاطمئنان، ويضعون كتابك وكتبهم في كفتي الميزان؛ ليحكم فيها الزمان حكمه، وإننا إلى حكمه لمطمئنون، وإن تأجَّلَ عشرين أو خمسين أو مائة سنة. فإن الحكم، ولا ريب، لنا!

ومما لا ريب فيه أيضًا أن النزاع بين الناس والأمم، عندكم وعندنا، يؤدي إلى الفساد والفناء.

فها هم أولاء يكرِّرون القول والتصريح والتعهد، ويوقِّعون المواثيق والمعاهدات، في المحافظة على كيان الدولة الشريفية واستقلال سلطانها، وفي المساواة بينهم في استعمار بلاده واستثمارها.

إن في ذلك من النزاع العقلي الوجداني ما فيه، وإن فيه كذلك من النزاع الدولي ما هو أشد من النزاع بين الأقوال والأعمال، وقُلْ بين العقل والضمير.

فقد نسيت إحدى تلك الدول العهود قبل أن يجف حبرها، ونسيت في الأعمال أقوالها، وفي الاستثمار الزملاء والجيران. كيف لا، والاتفاق الاقتصادي الألماني الفرنسي ما كان — كما أسلفت القول — غير حبر على ورق؛ فعندما أدركت حكومة برلين ذلك ضربت به عرض الحائط، وراحت تتعامل مباشَرةً والسلطان.

وعندما زحف الجيش الفرنسي على فاس، وسارعت حكومة باريس إلى البيان، اطمئنانًا للقلوب والضمائر، في وزارات الخارجية، والبيوتات المالية، كانت حكومة برلين — وقد أبت أن تشترك يومئذٍ في المهزلات الاعتذارية — أصرح من سواها من الدول، وأسرع منها في سياسة المطرق والحديد الحامي.

أبحرت «اللبؤة» Panther إحدى سفن ألمانيا الحربية إلى أجادير في أول يوليو من سنة ١٩١٢، وهي تشق الأمواج وتطويها بالسرعة التي لا تجيزها غير الأخطار الدولية. سارعت اللبؤة إلى أجادير لتحمي المشاريع الألمانية هنالك، كما سارعت فرنسا إلى حماية رعاياها في فاس.

قنبلة سياسية انفجرت في ذلك المرفأ الأطلنتيقي، فكادت نارها تتصل بمخزن البارود الدولي، والله سلَّم ولطف، وكان من لطفه أن إنكلترا — وقد نسيت ذلك التفاهم الودِّي؛ المغرب لفرنسا ومصر للإنكليز — انبرت للمصارحة فدافعت عن ميثاق الجزيرة لتحول دون مطامع ألمانيا الأفريقية. كذلك قيل وفي القول باب للظنون!

على أن موقفها لم يكن مجردًا من الخير، فقد عادت الدولتان — مصيبتا العالم في سلمه المنشود — إلى المفاوضات التي استمرت أربعة أشهر، وكانت كثيرة المشادات

والمناورات، فسمعت خلالها قرقعة السلاح. ثم دخلت الرواية في فصل المساومات التجارية. هاتي يا فرنسا مستعمرة أفريقية، وسكة حديدية، وخذي ما تريدين.

كان السياسي المالي المغامر المسيو «كايُّو» Caillaux يدير يومئذٍ المفاوضات، وله في بورصتي برلين وباريس أصابع غزَّالة، وأسهم نقالة، فتمتَّع في أمر سكة الحديد — لا شراكة لألمانيا فيها — وحاول أن يخفِّف «الجزية» في تجزئة مستعمرة الكنغو، فأبى «غليوم»، وهو يريد المستعمرة كلها، وثبت «كايُّو» في موقفه.

أزمة في المفاوضات — عُقِدت في المساومة. فمَن يحلُّها؟ هي السياسة في تلونها وتطورها، وحوادث يومها. تجلس اليوم في حجر هذا الوزير، وتركب غدًا على كتفيه، أو تقف كالكابوس على صدره.

وقد جلست يومذاك في حجر «كايُّو» إذ شُغِلت ألمانيا بالحرب الطرابلسية بين الطليان وأصحابها الأتراك، كما شُغِلت بالأمس في قضية البوسنة والهرسك. أَضِفْ إلى ذلك الأزمات المتوالية في بورصة برلين، ولـ «كايُّو» — كما أسلفت القول — يدٌ فيها؛ فخفض «غليوم» من صوته، وقَبِلَ بقسمته، فتَمَّ التفاهم، وعُقِد الاتفاق في ٤ نوفمبر سنة ١٩١١.

إن في هذا الاتفاق وملاحقه السرية الحكم المبرم على استقلال المغرب.

فقد اعترفت ألمانيا لفرنسا بحق احتلال بعض المرافئ البحرية، بموافقة السلطان، وقبلت بأن تعيِّن — إذا اقتضى الأمر — مقيمًا عامًّا في فاس، وأن تشرف على مالية الدولة الشريفية ضمانًا للديون الأجنبية.

واعترفت فرنسا لألمانيا — للمرة الثالثة أو الرابعة — بالمساواة الدولية في الاستثمار، وخصوصًا في امتيازات المناجم، ثم أعطتها، بموجب ملحق سري، قسمًا من مستعمرة الكنغو الفرنسية.

أُرْضِيَتْ إنكلترا بأن تُرِكت وشأنها في مصر، فسكتت، فكان سكوتها ذهبًا لها ولشريكتها في الاغتصاب.

وأُرضِيَتِ اليوم ألمانيا بمستعمرة أفريقية وامتيازات، فسكتت كذلك.

إن السكوت حقًّا من ذهب، وإن الذهب لباب الاستعمار والحماية!

لم تُذكَر الحماية في المعاهدة، ولكنها كامنة بين سطورها، وقد عبَّرَ عنها تعبيرًا صريحًا كتاب آخَر، هو الملحق الثاني السري، من برلين إلى باريس، تعهَّدَتْ فيه ألمانيا بألا تقاوم وألا تعترض إن مسَّتِ الحاجة إلى الحماية.

وما عتمت فرنسا أن خطت إليها الخطوة الأولى، فبعد أن صدَّقَ المجلسان النيابيان في باريس وبرلين هذه المعاهدة، أرسلت المسيو «رنيول» Regnault إلى فاس مقيمًا — موقتًا.

ثم عقدت ومولاي عبد الحفيظ في ٣٠ مارس ١٩١٢ المعاهدةَ التي قضت على استقلال المغرب — أو يجوز أن نقول نحن كذلك: موقتًا!

لقد سلَّمَ عبد الحفيظ بكل الإنشاءات الاقتصادية، والإصلاحات الإدارية والمالية التي تقرَّرَ القيام بها، والتي لا تُلفَظ في مجموعها بغير لفظة الحماية، وقد قبلت بها الدول.

على أن إسبانيا لم تقبل إلا بعد المفاوضات والمشادات والمناورات الشبيهة بما كان منها بين فرنسا وألمانيا.

نعود إذن إلى الناحية الإسبانية من الموضوع؛ لنتقصَّى الحوادث التي أدَّتْ إلى التفاهم.

وقفنا في الكلمة السابقة عند سقوط وزارة «مورا» Maura المتلونة، فقد خلفتها وزارة «موري» Moret المائعة، فما غيَّرَتْ شيئًا لخير أو شر في الأحوال الداخلية والشئون الخارجية. ثم نشطت الحكومة في وزارة حرة جامعة لأحزاب الشمال يرأسها السنيور «كاناليخاس» Canalejas، فشحذت أدوات العمل الحازم في جميع الأمور، وما كادت تباشِره حتى سقطت في أواخر سنة ١٩١١، سقطت بسبب مناقشة والـ «كورتيس» — مجلس النواب — في قضية «فرِّير» الشهيد. فأعاد «كاتاليخاس» تأليفها، وكانت المعضلتان الكبريان — الكنيسة والمغرب، الإرث الخبيث لكل وزارة — موضوعَ اهتمامه الأول.

في ذلك الحين كان الفرنسيون يتأهَّبون للزحف على فاس، فرأت حكومة «كاناليخاس» أن تزيد سياستها المغربية حزمًا ونشاطًا، فاحتلت العرائش كما أسلفتُ القول، بعد ثلاثة أسابيع من احتلال الفرنسيين فاس، وضاعفت قواتها العسكرية لإخضاع القبائل التي عادت إلى الثورة والعصيان والتوثب للقتال.

وما راقَ ذلك الفرنسيين، فحملت صحافتهم على حكومة مدريد العسكرية، الاحتلالية، الاستعمارية؛ فتمثلت في حملتها حقيقة من حقائق الإنجيل الرائعة، هي مَثَل: أن لا ترى الخشبة في عينك، وترى القذى في عين أخيك!

وكان الإسبان قد علموا أن القبائل التي يحاربونها مسلَّحة بسلاح فرنسي، فهاج هائجهم على المعتدين والمحرضين، وامتلأت الصحف في مدريد، كما في باريس بلواذع الكلم والتهم، ومما زاد في اكفهرار جو السياسة الدولية: حادثة أجادير، المنبهة للأحلام، المبددة للأوهام. أدركت باريس ومدريد الخطر الحقيقي، فسكنت العاصفة الصحفية، وما سكنت الخواطر.

في ذلك الجو المكفهر، في صيف سنة ١٩١١، جرت المفاوضات بين الحكومتين الفرنسية والإسبانية، وهما تنشدان التفاهُم للمرة الثانية أو الثانية عشرة، فتوصَّلَتَا في ربيع السنة

التالية (مايو) إلى اتفاق معدل لاتفاق سنة ١٩٠٤، فتنفست الأمتان الصعداء، فزار الملك «ألفونسو» باريس، وزار رئيس الجمهورية المسيو «بوانكاره» بعدئذٍ مدريد.

على أن الشئون الداخلية لم تتأثر بشيء من الزيارات الرسمية أو المعاهدات الدولية؛ فبعد أن غادَرَ الرئيس «بوانكاره» إسبانيا شبت نيران الأهواء الحزبية، ينفخ فيها الإكليروس من جهة، والاشتراكيون وأنصارهم من الجهة الأخرى، فاضطرب حبل الأمن في البلاد، وفي خلال ذلك الاضطراب أطلق فوضوي رصاصةً في ١٢ نوفمبر ١٩١٢ على رئيس الوزارة فأرداه قتيلًا.

كانت المعاهدة قد تمت في شهر مايو، ولكنها لم تصدق إلا بعد ستة أشهر (٢٧ نوفمبر)، أي بعد وفاة «كاناليخاس» بثلاثة أسابيع.

إن لتلك الحوادث في أوروبا والمغرب أسبابًا ونتائج يتصل بعضها ببعض؛ فالمعاهدات الثلاث: الفرنسية الألمانية، والفرنسية الشريفية، والفرنسية الإسبانية، متداخلة متفاعلة، وإن اختلفت فيما كان يطمع فيه المتنافسون وما ظفروا به.

أما التقسيم، فقد قامت القوة مقام العدل فيه؛ فلا عجب إذا كان نصيب الأسد لفرنسا، وقسمة الجَفْل للإسبان!

عُدْ إلى خريطة المغرب الأقصى تجد في شماله بقعة صفراء صغيرة مستطيلة، وبقعة أخرى في الجنوب، عند الخط التاسع والعشرين من خطوط العرض، هي نحو ثُمْن مساحته الأولى. هذه قسمة الجَفْل!

تمتد البقعة الشمالية من نهر مروي في الشرق، وهو يصب في البحر المتوسط إلى نهر لوكس في الغرب، وهو يصب في المحيط الأطلنتيق، وقد تعدَّل خط الحدود الجنوبية لهذه المنطقة، بين النهرين، تعديلًا يثير ثائر المحقق حتى اليوم من الإسبان، إذا ما نظروا إليه، وإلى ما كان قبل معاهدة ١٩١٢.

أما البقعة الصغيرة في الجنوب، على شاطئ الأطلنتيق، التي تُدعَى إفني، فهي محاطة من الجهات الأخرى الثلاث، بالمغرب الفرنسيِّ المحميِّ. لقمة صغيرة من قسمة الأسد!

هذا من الوجهتين الفرنسية والإسبانية. أما من وجهة الحق الأعلى، فإن صاحب المغرب، الذي تقاسمت الدولتان ملكه، لا يزال حيًّا يُرزَق، وقد كان في شخص مولاي عبد الحفيظ حيًّا يُرزَق ويُخشَى. فبالرغم من تلك المعاهدات التي وقَّعَها استمرَّ في سياسته المزعجة المغضبة لفرنسا.

وقد شبَّتْ نار الفتنة في قلب مدينة فاس بعد عقد المعاهدة بأسبوعين (٧ أبريل)، فقُتِلَ فيها بضعة عشر ضابطًا فرنسيًّا وأربعون من الجنود، واثنا عشر من الأهالي؛ فغضبت باريس غضبة استعمارية، وعيَّنَتِ الحكومةُ الجنرالَ «ليوته» مقيمًا عامًّا غير موقت!

عامَلَ الجنرال صاحب العرش بالحسنى، وبغير الحسنى، فألفاه في الحالين شريفًا علويًّا عنيدًا، وعلى شيء من الحذق في التهكُّم والازدراء.

– أتريدون أن أستقيل؟ أتفضلون أخي يوسف عليَّ؟ لكم ما تشاءون بشرط واحد؛ إني أعلم أن الغاية الأولى والأخيرة، الدنيا والقصوى، من سياستكم كلها هي المال، المال ربكم المعبود، وهو عندي كالخادم، المال عبدٌ من عبيدي، ولا بد للسلطان، وإنْ اعتزَلَ العرش، من عبيد. هاتوا المال وخذوا العرش.

وما كانت القيمة التي تقاضاها كثيرة، إنها أربعون ألف ليرة إنكليزية فقط[١٠] دفعها الفرنسيون. فهنَّأ الأخ الراحل أخاه يوسف الجالس على العرش، ثم كسر شارة الملك؛ لأنه هو عبد الحفيظ[١١] «آخِر سلاطين المغرب المستقلين»!

وكان في ذلك اليوم الثاني عشر من شهر أغسطس من السنة الثانية عشرة والتسعمائة والألف مسيحية، واليوم السابع والعشرين من شعبان سنة إحدى وثلاثين وألف وثلاثمائة هجرية.

على شمس المغرب وقمره السلام! ...

[١٠] بذل منها قسمًا وافرًا في حجِّه بعد ذلك؛ فأعجب الملك حسين يومئذٍ شريف مكة، بكرمه، وأدهش ذلك الكرم بيروت يوم عرج عليها في عودته من الحجاز، فالمال كان حقًّا عبدًا من عبيده.

[١١] شيد له قصرًا جميلًا في طنجة؛ حيث كان قد سبقه المولى عبد العزيز، وكان يزور مصايف فرنسا، فتوفي هناك في سنة ١٩٣٧.

الفصل الثاني

جبل طارق

من طنف غرفتي في فندق الصخرة، اللاصق ظهره بصدر الجبل، تحت هوله الخالد، أطللتُ على مشهد رائع من مشاهد الجمال الطبيعي، والعظمة الدولية، فمن الصنوبر الساحق النازعة أغصانه القديمة إلى الفوضى، إلى الأزاهير تحته في جنائن تتغنى بالوفر والنظام، إلى ساحات معبَّدة مسيَّجة، للعب الـ «تينس»، إلى طريق أسحم أملس بين البلدة وطرف البلدة وطرف الصخرة الشرقي، مظلَّل بالأشجار، مزدانة جوانبه بالأزاهير المتدلية من الجدران العالية؛ كل ذلك في انحدارٍ غير انحدار الجبل إلى الفندق، في انحدار خفيف لطيف إلى البحر.

وهناك على شاطئ البحر — الطبيعي والاصطناعي — في الأرض التي هي من الجبل والأرض الردم؛ مظهر من مظاهر العمران المدفعي، والعظمة الصناعية البحرية، المجردة كلها من جمال الطبيعة أو الفن. هناك رمز العلم والقوة، هناك الأرصفة الممتدة إلى البحر، المكعبة والمثلثة فيه كأنها قضايا هندسية، وهناك أبراج وجسور وعمد من حديد للبرق والنور، ولرفع الأثقال ونقلها، وهناك المخازن والمستودعات والمرافئ والأحواض، والمكاتب والمختبرات، وهناك المصانع لترميم السفن، وللتنظيف والتجديد، وهناك المدرعات والغواصات والطرادات، وقد عادت من نزهة في البحر المتوسط، وهي متأهِّبة لدرء أخطار الحرب أو لخوض غمارها.

هي بلدة قائمة بنفسها، وهي دومًا في عمل، نار محركاتها لا تخمد، وأنوارها تصل الشفق بالفجر. هي صخرة الدولة البريطانية وعظمتها البحرية. هي هي جبل طارق!

أما البلدة الأخرى، جبل طارق السوقة، فهي في الناحية الغربية، بين الباب الشرقي والمرفأ التجاري، وهي سوقها الكبير الأوحد، وجادَّاتها القصيرة الضيقة المتفرعة منه، لاصقة ها هنا بسفح الجبل، آوية هناك تحت صخوره، ومستلقية على الساحل وعلى الردم

الذي أضافه إليه الإنكليز. في هذه البقعة المنقبضة المنبسطة معًا يقيم سبعة عشر ألفًا من الناس،[1] من السوقة، وفيهم التجَّار والصيارفة وأصحاب المقاهي والملاهي والحانات من الأمم الغربية والشرقية، وهم يتراطنون بالإسبانية والإنكليزية، ولا يحسنون إحداها، لا يحسنون غير اللغة التي فيها رزق يومهم، ولذات الليالي.

أهل جبل طارق ناس من جنسٍ خاص بالصخرة، لا هم إسبان، ولا هم إنكليز. لا وطنية لهم تحملهم على المشاغب والفتن، ولا قومية تورثهم داءي الكد والاستعمار. هم حقًّا بريئون من اليقظات القومية، والنهضات الوطنية؛ فلا يكلِّفون أنفسهم فوق طاقتها في عمل من أعمال الحياة، ولا يُكلَّفون إلا اليسير اليسير من الضرائب.

يسميهم الإنكليز «عقارب الصخرة»، وإنهم في هذا الزمان المثقلة فيه كواهل الأمم بالضرائب، لَأسعد «عقارب» الدنيا شرقًا وغربًا. فلا عجب إذا كانوا لا يكترثون — مثل صنفٍ من الفلاسفة — بخزعبلات السياسة وأباطيل السيادة والمجد. إذا سألت أحدهم: أإسباني أنت؟ قال: لا. أإنكليزي أنت؟ أجاب: كلا. وما أنت؟ أنا جبل طارقي Gibraltarian. يقول هذا وهو لا يعلم لماذا سُمِّيَ الجبل باسم طارق، ولا هو على شيء من مزايا طارق وجبله.

فإن كنَّا نرثي لحال مَن لا وطن لهم ولا قومية، فالجبلطارقيون يرثون لحال مَن يجاهدون في سبيل الأوطان!

ومن أين جاء الجبلطارقي؟ إنه ما جاء من مكان عبر البحر، فهل نشأ إذن في ظل هذه الصخرة مثل الحيوانات القديمة؟ أهو من نسل الرينو سود أو القردة المنقرضة؟ ليس في تاريخ الحيوان ما يثبت حقيقة هذا الافتراض أو ينفيها، أما تاريخ الإنسان — تاريخه الحديث — فهو ينير ويعين. هو يقول: إن الإسبان، سكان هذا الجبل قبل أن احتله الإنكليز في القرن الثامن عشر، هجروه بعد ذلك الاحتلال، ووقفوا في هجرتهم في منتصف الطريق، بينه وبين الجزيرة، فأسَّسوا لهم هناك البلدة التي تُدعَى اليوم «سان روكيه» San Roque.

[1] عدد جميع السكان بموجب إحصاء سنة ١٩٢٤ هو ٢٠٦٣٨، منهم «عقارب الصخرة» ١٧١٦٠، أكثرهم من المذهب الكاثوليكي، وأقلهم من البروتستنت واليهود، والباقي «ذئاب الصخرة» ٢٩٣٢ من الضباط والجنود البرية، و٥٤٦ من البحرية.

ولا تزال سان روكيه، مثل شقيقتها «لالينا» La lina التي هي على الحدود الإنكليزية الإسبانية — وراء الصخرة — لا تزال مأوًى لبعض أولئك النازحين من جبل طارق، أولئك الذين لا ترغب فيهم السلطة المحلية، وأعني المتشردين والفقراء اللاحقين بهم.

ولنذكر ها هنا أن السلطة الإنكليزية لا تريد أن يكثر سكان الصخرة، وهي حصن وقاعدة بحرية فتعسر سُبل العيش، بالأساليب القانونية والخفية، على أولئك الذين تتجهَّمهم الحياة فيتجهمونها، فيمسون على هامشها المتردم، ولا عمل ولا أمل، ويستمرون في التنقُّل، فيصلون إلى لالينا، إلى سكان روكيه، إلى الجزيرة. على أن أكثرهم يبقون في البلدة القريبة من الصخرة لتوافُرِ الأعمال فيها، ولا سيما المحرَّمات؛ لذلك يقول الجبلطارقي، ولا يكذِّبه الإسباني، ولا يقطع لسانه: إن سكان لالينا أكثر أبناء آدم خبرةً وعملًا في كل ما هو محرَّم من التجارات والمهن.

ولكن في القول غلوًّا بانَ لنا بعد البحث، فيجب أن نقول إذن، دفاعًا عن اللالينيين: إن كل ما هو محرَّم ينحصر في تهريب الدخان والخمر، وفي الشقاوة التي تنطق بلسان الخنجر في بعض الأحايين. أما فيما سوى ذلك، فإنهم — مثل كل الناس — يدفعون الضرائب، ويُجنَّدون، ويؤمون الكنيسة للصلاة، لا لسرقة الأواني المقدسة، ويحسنون معاملة النساء والقطط.

كاد الكلام على سان روكيه ولالينا ينسينا النصف الثاني من جواب التاريخ على سؤالنا. فبعد أن نزح الإسبان من جبل طارق حلَّ محلهم قوم من الطليان، جاءوا على الأخص من جنوا، فرحَّبَ الإنكليز بهم، فأقاموا في ظل الصخرة آمنين، وتاجروا مطمئنين، وتناسلوا فرحين، فكانوا الأجداد لسكان اليوم.

قلت إن في جبل طارق بلدتين: بلدة هؤلاء المتمردين من الطليان، وبلدة الدفاع البحري البريطاني، وليس بينهما خيط صلة من الحرير أو الشعر، بل إن البلدتين تختلفان في مزية أولية جوهرية، هي النطق الذي يميِّز الإنسان عن الحيوان؛ فالنطق كله، بعجره وبجره، عند الجبلطارقيين، والصمت كله، بذهبه ونحاسه، عند الجندية والبحرية ومَن يلوذ بهما من الإنكليز، فإن كنتَ طالب علم، يهمك مقدار ما فيه من الصحة، فدونك الشارع الكبير الواحد تحدث التجار فيه وأصحاب الحانات، وإن كنتَ تبتغي التحقيق والتدقيق فيما تسمع، أو في موضوع يصله، ولو خيط من العنكبوت، بالصخرة الإمبراطورية وأسرارها

العسكرية، فلا تدنو من أحد العاملين في تحصينها وإدارتها، فإنهم ومَن يلوذ بهم لا يُحسِنون على الإجمال غير لفظتين اثنتين: لا أعلم!

خرجت صباح يوم أمشي، ولا هدف غير ما تكشفه الطريق، فرأيت شجرة بين الأشجار لا أعرف اسمها، وأنا في هذه الحال على شيء من شذوذ الطبع فأغتاظ لجهلي، ولا أقف عند حد في فضولي. قلت: أغتاظ ففرَّطت، فإن شجرة أجهل اسمها بين أشجار أعرفها حيثما أشاهدها، لشجرة مكربة مضنية. إنها لتضنيني. أقول ذلك بلساني الشرقي وإحساسي الموروث، وأما بلساني الغربي الذي تمرَّنَ على التدقيق في التعبير، وأحسن شيئًا منه، فأقول: إنها تفسد النزهة عليَّ، ولست في ذلك مفرِطًا أو مفرِّطًا.

وهاكها متحدِّية بين أشجار الصنوبر والسنديان. هي شبيهة بالسنديان وليست منه، وما هي كشجرة من عوامل الدفاع أو من أسرار الحصون والقلاع، فَلْأسأل هذا الضابط يساعد في كشف غمي. صحبته واعتذرت، ثم سألته قائلًا: ما اسم هذه الشجرة؟ فقال بلهجة مزنَّقة: لا عِلْمَ لي بالأشجار. ثم سألت رجلًا في ثوب مدني أنيق فتأسَّفَ وأجاب جواب الضابط!

بعد ذلك بانَ لي في أعالي الجبل شيء غريب من البناء أنساني الشجرة، وكانت امرأة تدنو إذ ذاك مني، وفي وجهها الدميم نبأ التقوى والصلاح، فسألتها عن ذلك البناء، فأجابت بلهجة الضابط: لا أدري! ... وهؤلاء الجنود الأربعة قد خرجوا على ما يظهر متنزهين، لا بد أن يكون واحد منهم، ذاك الرقيق الإهاب الضارب إلى الاصفرار، عالمًا بعلم النبات، فسألته عن اسم الشجرة، وكنت وا أسفاه مخطئًا في ظني.

ثم سألت رفيقه عن اليوم الذي وصل فيه الأسطول إلى جبل طارق، فسمعت للمرة الرابعة أو الخامسة كلمة السر: لا أعلم.

إنني لفي جبل الصمت والتكتُّم، ولكن الحياة تأبى الإطلاق، وتنفر من القياس الواحد، فلا بد أن نلقى حتى في المقابر لسانًا ناطقًا، وها هو ذا تحت الشجرة التي كادت تفسد عليَّ نزهة ذلك الصباح.

كان الرجل يحرق بعض الأوراق، فسلَّمْتُ، فردَّ السلام بإنكليزية سليمة، ولهجة كريمة، وقد أجاب عن سؤالي الأول جوابًا استبشرتُ به؛ فما هو من الجندية ولا من البحرية ولا ممَّنْ يلوذون بهما، إنما هو صاحب مغسل الجنود، وقد كان في تلك الساعة يلهو بحرق الجرائد التي تجيئه من بلاده.

فقال وهو يزيد في نارها: تجيئنا جرائد لندن مرة واحدة في الأسبوع، ونحن نقنع بذلك، لا نريدها أكثر من مرة كل سبعة أيام.[٢] أهلنا هناك — في إنكلترا — يشقون كل يوم بطيخة من الخوف والذعر: الحرب على الأبواب، تطبخها لهم الصحافة صباح مساء، ونحن ها هنا يجيئنا الخوف والذعر دفعةً واحدة مرة كل أسبوع، فهل تصلح هذه الجرائد لغير النار. احرقها، وبردِّ نفسك!

وعندما سألته عن اسم الشجرة أدهشني بثقافة عالية؛ فقد أعطاني الاسم وشفعه بنادرة تاريخية، ومثل لاتيني رواه باللغة الأصلية. عجيب أمر هؤلاء الإنكليز، فإنه يبلبل الباحثين الراغبين في الحقيقة نقدًا وتقديرًا.

وقفت معجبًا بذلك الرجل كل الإعجاب، أمثقف في جامعة أكسفورد وصاحب مغسل للجنود بجبل طارق! سعدت دفعة واحدة بعلمه كما يشقى هو بجرائد لندن، وقانا الله الخير إذا طمى!

قال صاحبي — زاده الله علمًا وفضلًا — اسم هذه الشجرة اللاتيني هو «مُلْتَا» Multa، ولتسميتها قصة قديمة هي أن بعض الجنود الرومانيين في عهد يوليوس قيصر، عصوا ضابطهم فقاصَّهم قصاصًا قرنه بالتجويع؛ فاعتقلهم في معتقل بُنِيَ بين أشجار مثل هذه الشجرة، وحرمهم الأكل أيامًا، وكانت أغصان الأشجار تتدلى في المعتقل بينهم وهي تحمل ثمرتها، وهي شبيهة بثمر الدوم، فتناول منه أحد الجنود وأكل مجازفًا بحياته، ففرح بمجازفته، فاقتدى به إخوانه، فأكلوا من تلك الثمار واستثمروها جميعًا، وهم يضحكون من الضابط الذي حاوَلَ تجويعهم؛ إذ ذاك نطق الحكم فيهم بالكلمة التي ذهبت مثلًا: «نيمو مُلْتَا ريوم ...» أي ليس بين الناس حكيم هو حكيم دائمًا، وسُمِّيَتْ هذه الشجرة مُلْتَا.

ومن مدهشات ما شاهدتُ في ذلك الصباح راعيًا ولا كالرعاة، شابًّا في ثوب إفرنجي نظيف، يتأبَّط كتابًا، بدل أن يحمل القصب أو الناي، ويسوق قطيعًا من المعز. هو ذا الراعي العصري المتمدن! كتاب يذهب بالناي — علْمٌ يذبح الغناء والهناء!

[٢] في كلامه شيء من المبالغة؛ فجرائد لندن تصل إلى جبل طارق إما بالبريد البري بطريق أوروبا، وإما بالبريد البحري، وهو — أي البريد — في الحالين لا ينفي القول المأثور: العجلة من الشيطان. وقد طلبت الجرائد يوم وصلتُ إلى جبل طارق فكان تاريخ العدد الأخير الذي وصل من لندن تاريخ يوم سفري من نيويورك. ستة أيام جعلها محدِّثي سبعة وهو الفيلسوف الغسَّال!

وهناك من الأشجار ما يذكِّر بالغابات والبساتين اللبنانية — بصنوبر المتن، بزيتون الشويفات، بسنديان الأديرة، بتين عمشيت — رموز وإشارات، لا بساتين وغابات. على أن الرمز وجماله السائغ يجتمعان في العرائش المنورة بشتى الألوان الأرجوانية والبنفسجية والحمراء والبيضاء. هي ذي عرائس الـ «بورُغْنِقي» ومجد الصباح Morning Glory والدُفلى والياسمين، تحمل لي طيب بيروت في ليالي صيفها ومجد الربيع منعشًا فوق أسوار بيوتها والبساتين.

أمعنت في الطريق المعبَّد المفروش بالزفت المصعد في الجبل، فمررت ببيوت وضيعة جميلة تحاوِل الاختباء بين أشجار الـ «مُلْتَا» والصنوبر. هي بيوت للضباط البريين والبحريين، وهذه أكواخ لاصقة بالصخور الشاهقة يقيم فيها بعض الفلاحين وهم يكتفون من المهنة — فلا أرض تُفلح في الصخرة — بتربية الدجاج وبيع البيض للجنود. وهاك ديرًا بمدرسة للراهبات فوق الطريق، ومجموعة تحته من البنايات الكبيرة، تصل بعضَها ببعضٍ الجسورُ والأروقة، هو المستشفى العسكري.

دنوت من المكان العالي أمامي، القائم فوقه بناء ينشر علمًا سرِّيَّ الخبر لمثلي، هو مركز الأنباء والإشارات البحرية، يتبادَلها والسفن الحربية والتجارية، المستأذنة — وهي في المضيق — بالدخول إلى الميناء.

وصلت إلى الثكنة العسكرية عند منتهى الطريق في طرف الصخرة الجنوبي الغربي، المشرف على الناحية الشرقية منها — على جون «كاتالان» وقرية صيادي السمك هناك. ما كان لي أنا أن أشرف على ذلك الجون الجميل الذي رأيته بعدئذٍ من الباخرة المشرِّقة. أوقفني الحرس؛ لا مرور عند هذا الحد بدون إذن من الحكومة.

عُدْتُ أدراجي بشيء من التعريج، فوصلت إلى نفق في صخرة ضخمة، ووقفت عند كتابة محفورة إلى جانب المدخل، فإذا هي تقول: إن هذا النفق فتحه وأتمَّه تبرُّعًا جنودُ جلالة الملكة في سنة ١٨٤٢، ثم — بلهجة شعرية تندر في الأنصاب والآثار الإنكليزية:

كذلك كان وكذلك سيكون …
هو الجندي البريطاني …
الشجاع في الحرب …
المحب في أيام السلم للعمل والنظام! …

دخلت النفق المؤدي إلى أرض وراء الصخرة، مهَّدَها كذلك أولئك الجنود، فبُنِيت فيها الثكنات. هناك في تلك الساحة، تحت جفن الجبل وفوق عين البحر تعصف الرياح على

الدوام — الرياح الشديدة الباردة حتى في الصيف — وقد كانت في أشدها، على ما أظن، صباح ذلك اليوم، فولَّيْتُها ظهري. رحت معها كما يفعل صاحب الشراع إبَّان العاصفة، فإذا بي عند الرأس الذي يسرع في انحداره إلى البحر من نواحيه الثلاث الشرقية والغربية والجنوبية، وإذا بي أمام صف من الخنادق المبنية بالأسفلت، وأروقة وراءها وبينها، وأبواب إلى داخلها حيث تكمن المدافع التي تبرز خياشيمها من نوافذ ترى البحر ولا يراها.

وبين هذه الخنادق، فوق سطوحها، مصاطب مصونة لمدافع كبيرة أخرى، دُهِنت باللون الأزرق؛ لتتجانس ومحيطَها شكلًا ولونًا، فتخفي حقيقتها على العدو.

أما ما يُرَى في تلك المنحدرات الحادة الزوايا مع البقع البيضاء الكبيرة، فهي موضوع حدس وتكهُّن للمسافرين في السفن التي تعبر المضيق. فيقولون: هي جدران للطريق المؤدي إلى رأس الجبل. ويقولون: هي فسحات، قُطِعت أشجارها، وجُزَّ نباتها؛ لغرض من أغراض الدفاع. ويقولون: هي بقع صخرية جرداء تظهر في بياض سابغ، فتخفي ظلالها على الناظر إليها من عرض البحر.

أما الحقيقة فهي غير ذلك؛ جبل طارق صخرة تقل فيها الينابيع، ومياه البلدة والحصون — قديمًا وحديثًا — تُجمع من الأمطار في الآبار، أما آبار اليوم فهي أحواض عمومية كبيرة تتوزَّع منها المياه إلى البلدتين، التجارية والعسكرية. ومن أين تتسرب إليها مياه الأمطار؟ هذا هو السر في تلك الجدران المبنية من الحجر الكلسي المنحوت بناء محكمًا على صدر الجبل، فتتلقى الأمطار، وتحملها إلى القنوات المتصلة بالأحواض في أسفلها.

رأيت العمال في إحدى الساحات الصغيرة بالبلدة يحفرون خنادق أو أكواخًا يلجأ إليها الأهالي من الغزوات الجوية، إذا وقعت الحرب، وبينما هم يحفرون عثروا على آثار القنوات القديمة التي بناها العرب للغرض نفسه، فما تغير في جمع المياه وتوزيعها غير الطريقة شكلًا واتساعًا.[٣]

ولكن التغير الكبير الطارئ على هذا الحصن إنما هو في مجمله لا في جزئياته، إن للإنكليز في سياستهم المتعلقة بالبحر الأبيض ثلاثة أغراض أولية، هي: السيادة، والتجارة، وصون طريق المواصلات الإمبراطورية. فالبحث في الغرضين الأول والثاني ليس من

[٣] مساحة الجدران التي تتلقى المياه مليون وخمسمائة وسبعة وسبعون ألف قدم مربع، ومقدار ما تسعه الأحواض تسعة ملايين جالون.

موضوعي، وليس ما يسترعي له النظر الآن من الاستحكامات والقواعد البحرية في طريق الهند، غير جبل طارق هذا، باب رحلتنا المغربية.

كان جبل طارق الحصن الأمنع في التاريخ، وحدَّ الدنيا الأقصى في الأساطير، فذهبت الاكتشافات بالأساطير والحدود، كما تذهب الاختراعات الحربية بأهمية القلاع والحصون. لقد ذكرت التحصينات القديمة المهملة، وأشرت إلى الحديث منها، الظاهر والخفي، في أعالي الصخرة. بَيْدَ أن ذلك كله بالنسبة إلى ارتقاء السلاح الجوي، أمسى كالحصون في القرون الوسطى؛ فالعدو يستطيع أن يحطم من الجو مدينة الدفاع بكل ما فيها من مرافئ الاستحكامات ومدافعها.

ومما ينقص من قيمة هذه الاستحكامات والحصون هو أن لألمانيا اليوم مراكز حربية، بحرية وجوية، جنوبي المضيق، في جزائر كناري بإجازة الإسبان، وعلى شاطئ الأطلنتيق في الأرض الإسبانية الأخرى التي تُدعَى ريو ده أورو.

لذلك باشر الإنكليز بناء مطار وراء الصخرة في الناحية الشمالية، وهي ساحة رحبة تكاد تصل إلى الحدود الإسبانية. فإن شريط سكة الحديد — الحدود — على نحو مائة متر منها.

عندما باشَروا تمهيد تلك الساحة لهذا العمل تنبَّهَ «الجنرال فرنكو»، فزاد في حاميتي لالينيا وسان روكيه، وهو يفكِّر في غير ذلك من أساليب الدفاع والهجوم!

إن بين إنكلترا وإسبانيا اتفاقًا قديمًا على أن لا تُحصَّن الجبال القائمة في ذلك الهلال بين جبل طارق والجزيرة، وأن لا تُستخدَم لغرض من الأغراض الحربية. على أن حكومة «الجنرال فرنكو» لا تميل إلى التقيُّد بذلك الاتفاق، وإني أظن أن هناك، في الجبال الغربية، حصونًا واستحكامات بُنِيت حديثًا.

جبل طارق! لا يزال الإسبان يعلِّلون النفس بضمه إلى أمه، إلى الأرض الإسبانية. فإن كانت حكومة «فرنكو» لا ترى الوقت مناسبًا للعمل الخطير، الذي يحرِّضها عليه الألمان والطليان، فهي لا تمنع الجرائد والكتاب من البحث في الموضوع.

أَضِفْ إلى ذلك عودتهم إلى فكرة قديمة في حفر نفق تحت البحر، في المضيق، بين طريفة وطنجة يصل الأرض الإسبانية بالأرض الأفريقية، ويمكن بواسطته نقل الجنود من المغرب إلى إسبانيا، ومن إسبانيا إلى المغرب، يوم يعزمون على الحرب.

على أن بعض الإسبان لا يرون وجوب الحرب استرجاعًا لجبل طارق، وقد كان «الجنرال بريمو ده ريفيرا» primo de Rivera أول مَن دعا لحل القضية بالمفاوضة والمقايضة؛ فتتنزل إسبانيا لإنكلترا عن سبتة، وهي بمينائها الرحب تصلح أن تكون قاعدة

بحرية كبيرة، نظير أن تنزل لإنكلترا لها عن جبل طارق. ولا يزال لهذه الفكرة أنصار هناك، وخصوصًا في الكتائب التي أسَّسها «أنطونيو» بن «بريمو ده ريفيرا»، والتي ترأس شقيقته «بيلار» فرعها النسائي. فلا يبعد — وقد نقصت قيمة جبل طارق الحربية والبحرية، بل كادت تذهب بأجمعها — أن تصل الحكومتان في المستقبل غير البعيد إلى مثل هذا الاتفاق.

جبل طارق! كم قامت حوله ولأجله الحروب والحصارات، منذ وطئته أقدام العرب بقيادة طارق بن زياد (٧١١م) إلى يوم استيلاء الإنكليز عليه في المرة الأخيرة (١٧٨٣). كان يُدعَى قبل الفتح العربي جبل أليبة — والاسم فينيقيٌّ — ويوم احتله طارق باثني عشر ألفًا من رجاله العرب والبربر كان في حوزة الغوثيين،[٤] فدارت بينهم وبين المحتلين رحى الحرب.

وفي يوليو من سنة الفتح، على شاطئ النهر القريب من المكان القائمة فيه اليوم مدينة شريش Jerez، كانت الوقعة الفاصلة التي دامت ثلاثة أيام، وانتهت باندحار الغوثيين، وتقدُّمِ العرب شمالًا وغربًا.

وفي أعالي الجبل، منها البرج المربَّع الذي لا يزال قائمًا هناك. تلك الجدران الدكناء، بين فسحات من الاخضرار، وتحت أطناف من الصخور، وإن تحدَّت الرواسي والسنين، وظلت سليمة بعد كل ما شهدت من حرب، إن هي إلا شهيدة الزمان، وقديسة التخاذل والنسيان!

استمر حكم العرب في جبل طارق، على اختلاف عهودهم ودولهم سبعمائة وخمسين سنة، فانتزعه منهم الإسبان سنة ١٣٠٩ ثم فقدوه، وفي سنة ١٤٦٢ كان الفوز لهم، فأخرجوا العرب منه، وزادوا في تحصينه، فظلَّ في حوزتهم بشيء من التقطُّع أكثر من مائتي سنة.

أما استيلاء الإنكليز عليه، فقد كان للمرة الأولى في الحرب الأوروبية (١٧٠١–١٧١٤) التي أثارها ملك فرنسا الكبير «لويس» الرابع عشر.

ما أتفه الأمور الظاهرة التي كانت تقام من أجلها الحروب في الماضي! ولكنها كانت تنطوي على غيرها، وهي الجوهرية. هي هي المطامع الاقتصادية والاستعمارية بعينها،

---

[٤] في الكلام على سبتة، في [الجزء الأول – الفصل الخامس: من الجزيرة إلى ...] ذُكِر ما أهمله مؤرخو العرب من الأسباب لهذه الغزوة.

أراد لويس الرابع عشر أن يبسط نفوذه على إسبانيا بإقامة حفيده الأمير «فيليب» ملكًا عليها خلفًا «لشارلس» الثاني، فقامت إنكلترا تنادي بالويل؛ لاختلال التوازن الدولي الأوروبي، فألَّفَتْ حلفًا منها ومن النمسا وهولندا والدنيمرك والبرتغال لمحاربة الفرنسيين والإسبانيين. دارت رحى الحرب في أوروبا بضع سنوات، ثم امتدت إلى إسبانيا، فاحتلَّ الأحلاف قادس، وقرَّرَتِ القيادة العامة أن تحتل كذلك جبل طارق؛ فأطلقت القنابل عليه في ٢٣ يوليو سنة ١٧٠٤، واستمر الحصار ستة أشهر، فتكلَّلَ بالنصر في ١٠ مارس سنة ١٧٠٥ للمحاصرين.

كانت الجنود الهولندية والإنكليزية مشتركة في ذلك الحصار، ولكن الأميرال الإنكليزي «روك» Rooke ضرب الضربة الأخيرة الفاصلة، وأمر — بدون أمر من لندن — بأن يُرفَع فوق الصخرة العلم الإنكليزي، فقبلت لندن بالأمر الواقع!

بَيْدَ أن ذلك الاحتلال لم يَدُمْ طويلًا، في النصف الأول من القرن الثامن عشر، لا للإنكليز ولا للإسبان، الذين حاصروا الصخرة فاستعادوها، ثم فقدوها. وظل الاحتلال الإنكليزي متقلقلًا حتى حصار عام ١٧٧٩–١٧٨٣ برًّا وبحرًا، والذي يُعَدُّ من أعظم حصارات التاريخ؛ ذاق الإنكليز أشد ويلات الحرب وأمرَّها. ومع ذلك، وبالرغم من مساعدة فرنسا، ما استطاع الإسبان أن يزحزحوهم من مراكزهم المنيعة. كانوا هم والصخرة صنوين. فرفع المحاصرون الحصار، وعقدوا مع المحاصرين معاهدة الصلح في ٦ فبراير سنة ١٨٨٣.

منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا استمرت سيادة الإنكليز في جبل طارق دون انقطاع، وهي تزداد قوةً وتمكينًا بما بنوا فيه من الحصون، وبما حفروا من الأنفاق، وبما أسَّسوا من المرافئ وردموا من البحر، وبما حسَّنوا إجمالًا في أسباب الحياة المدنية والعسكرية، وفي أسباب المناعة البحرية، فغدت الصخرة أحصن الحصون وأعزها في العالم، وظلت كذلك حتى عهد السلاح الجوي الذي نحن فيه.

فهل تذهب يا ترى كما ذهبت أمثالها العربية والإسبانية قبلها، هل تمسي حصون الإنكليز كما أمست حصون ملوك قشتالة وملوك غرناطة؟ …

إن في هذه الصخرة كهوفًا حفَرَ تاريخها الزمان — كهوفًا عريقة في القِدَم الجيولوجي — أَوَتْ إليها الطيور والحيوانات الجبارة البائدة، وبليت فيها أجنحة النسور التي كانت

تحلِّق فوق ألف قدم[٥] حول القنن الشامخة عليها، ولا يزال في هذه الكهوف من آثار تلك الأيام ما يسترعي الأنظار، ويُدخِل على القلوب الورع والاتضاع. إن في هذه الكهوف عظام العبرة والذكرى! …

ليقف القارئ عند كهوف الاستعمار — عند خنادقه — وَلْيذكر تلك المدافع والاستحكامات التي كشف الصدأ سرها، وطوت العفونة أخبارها!

الجنرال فرنكو.

[٥] في الصخرة التي تمتد ميلين ونصف ميل، من السهل شمالًا إلى البحر جنوبًا، بضع قنن عالية تتراوح بين الألف والمائتين، والألف والأربعمائة من الأقدام.

الفصل الثالث

طنجة

يجب أن تكون هذه البقعة الأفريقية الجميلة جنينة أوروبا! …

قالها السياسي الإنكليزي «لويد جورج» عندما زار طنجة، ويقولها غيره من الأوروبيين في الجرائد أو لصحبهم أو لأنفسهم — زائرين كانوا أم مقيمين: طنجة جنينةُ الفرنجةِ.

– أولئك الأربعون ألفًا من أبنائها العرب، المزدحمون فيها، المنتشرون في ضواحيها، ماذا يحل بهم إذا تهافَتَ الأوروبيون على هذه الجنينة الأفريقية المغربية، وامتلك كل منهم شبرَ أرضٍ فيها، أو كرسيًّا في دور أحكامها؟!

– يحل بهم، يا سيدي، ما حلَّ بمَن تقدَّمهم من المستكشفين والغازين والفاتحين والمستعمرين. يحل بهم ما حلَّ بالفينيقيين والفنداليين والرومانيين — والعرب أنفسهم.

– وأبناؤهم اليوم، أبناء أولئك الفاتحين العرب، أيذهبون ضحية فتح جديد؟

– وما ضرهم؟ إنها الضحية المثمرة أطيب الثمار وأبقاها. إن لهم جنة الخلد؛ فهم الرابحون، وإن كانوا في جنينة الفناء حمَّالين وسقَّائين وبيَّاعي حطب …

طنجة، جنينة الفرنجة!

وهاك بابها على الشاطئ الذهبي في آخِر المضيق، حيث تتواصل أمواج البحرين، المتوسط والأطلنتيق، ذلك الشاطئ المغمور بشمس أفريقيا الحنون، الدافئة المنعشة المنشطة في كل فصول العام على الدوام. هاك بابها البحري وقد صفت على رماله أكواخ الخشب المقببة، والمظلات الواسعة الزاهية الألوان، يتكاسل فيها ويسترسل تحتها أبناء آدم وحواء، وقد اعتاضوا عن ورق التين ذراعًا من حرير أو «بُبلين»، فاستحالوا حورًا وولدانًا، وراحوا يلعبون ويمرحون، ويتغازلون ويتواعدون.

وهناك تحت زبد الأمواج ترى السابحين والسابحات في البهجة الكبرى، بين الوله والدله، والشمس ترميهم وترميهن بسهام غرامها، فتعلو صوتَ البحر أصواتُ المطاردين، أخوات دون جوان وقايين.

حورٌ غير مقصوراتٍ في الخيام أو في الأكواخ، حور يرقصن على الـ «بلاج» ويركضن أمام الغلمان إلى الأمواج، حيث يتواصل المتوسط والأطلنتيق فيقع ما في القلوب محجوب، وتُغتفَر الذنوب، ولا حبيب يُقيَّد ولا محبوب.

لك الساعة التي أنت فيها!

هذا المشهد الأول من مشاهد طنجة لا يختلف عمَّا في مصايف أوروبا من أمثاله: دوفيل، بِيارِتْز، برَيْطون، سان سبَستيان، طنجة. لسنا ها هنا في أوروبا، ولا في أفريقيا، إنما نحن على شواطئ الجنان الأرضية، في صيف اللذات أو في شتائها، ينادينا القَوَّاد الأكبر، وتتقاذفنا أمواجه الصاخبة، في نور الشمس، وفي ضوء القمر، فنتغازل ونتواعد ونتواصل ونغني!

وها نحن أولاء في أكبر فندق من فنادق طنجة الفخمة، ساعة يسكت الناي وتهدأ الأوتار، فيحتلُّ منصةَ أبناء الفن الموسيقي إخوان برابرة أفرقيا، أولئك النافخون في النحاس، الضاربون على الطبول. نحن في سهرة عَرِصَة، نحن في حفلة راقصة!

وهؤلاء الأوروبيون في أثوابهم السوداء المذنَّبة، وفي قمصانهم البيضاء المكويَّة يخاصرون ويباطنون بنات طنجة الأوروبيات والإسرائيليات، الرافلات بالحرير من خصورهن إلى أخامصهن، وما فوق الخصور غير مكنون، مكشوف للأنوار والعيون!

حميت آلات الموسيقى الأفريقية، موسيقى الـ «جاز»، فالموسيقيون يتدلَّهون ويتحوَّون، والراقصون والراقصات فيما يشبه البَلَه أو الجنون — الصدور على الصدور، والخدود على الخدود، والسكرات في العيون!

وإن هذا المشهد الثاني من مشاهد طنجة لا يختلف عمَّا في فنادق أوروبا، ليالي الرقص، من أمثاله. لسنا إذن في أوروبا، ولا في أفريقيا، إنما نحن في العرصات الأرضية نقطف زهور اللذات ولا نهوى، ونأكل ثمارها فننهم ونُتْخَم ونفنى.

على أن لطنجة شهرة فريدة، غير حميدة. فإن كانت نابولي مدينة القبلات الملتهبة، ولندن مدينة اللذات المحجبة، وباريس مدينة الأفانين في كل محجوب أو مكشوف، فإن طنجة مدينة الشهوات العارية، والمنكرات السارية.

قيل هذا فيها، والقول لا يخلو من غلو وتحامُل. فهل هي في الفحش والفجور أكثر استرسالًا وتجارة من غيرها من مدن أفريقيا الشمالية؟ ولا أقول مدن أوروبا؟ هل تفوق

طنجة وهران والجزائر في تجارة الرقيق الأبيض، وفي الأمراض الزهرية؟ وهل تفوق تونس وفاس في المخزيات والموبقات؟

لو كانت طنجة أكبر مما هي لَصغرت سمعتها المخزية؛ فهي تختلف عن المدن الكبرى بأنها تضيع في سمعتها، في حين أن مخزيات المدينة الكبيرة وموبقاتها تتضاءل وتضيع في أرحابها. فلو نُقِل إلى طنجة ما في باريس مثلًا، بل نصف ما في باريس من مرابع اللذات، وبيوت الدعارة والحانات، لَضاقت بها المدينة وضواحيها.

بَيْدَ أن طنجة، على قسمتها من الجمال الطبيعي، والحسن الهندسي، والعز التاريخي، ما يثبت بعض سمعتها. فالمُدافِع عن المدينة، وهي تستحق الدفاع، لا يتغاضى عن تلك السمعة.

جلست في قهوة من مقاهيها، في ساحة السوق الصغيرة المشهورة، المنحدرة من السوق الكبيرة إلى البحر، أسرح النظر في جمع من الناس متلوِّن متحرك على الدوام؛ متلوِّن بألوان الشرق والغرب، متحرك بما هو أبرز سجاياهما.

رأيت الرجال يسيرون إلى أغراضهم في السبيل الواحد بخطوات متباينة، فالأوروبيون يجدون ويتزاحمون، والمغاربة يمشون الهوينا وهم يجرون أذيال المجد الغابر، والفجر الدابر، ولا يأبهون لما في يومهم، من نتائج نومهم.

ورأيت النساء الأوروبيات في تبرُّج صيَّاح، وريٍّ فضَّاح، الشقراء منهن أكثر اشقرارًا من أخواتها في باريس ومدريد، والحمراء الخدين والشفتين أبلغ احمرارًا من أوانس «الجادة البيضاء» بنيويورك، والألوان — دام اتئادك — من معملَي الكيمياء والعطور لا من الأبوَين الطاهرَين.

ورأيتهن في الأثواب اللاصقة بأجسامهن، وقد بالغن في شد الخصور، كالساعات الرملية. هي القباب من فوق ومن تحت، من أمام.

فنساء طنجة الأوروبيات، وأخواتهن البلديات المباح لهن السفور، أي الإسرائيليات، هي منقطعات النظير في المدن الكبرى المتصفة نساؤها بحسن الذوق والأناقة، إن كان في اللباس أو التبرج.

وقلَّمَا يُرَى في المدن الأفريقية الأخرى، على البحر المتوسط، ذلك الغلو القبيح في «مهيجات» الجنسِ اللطيفِ الخشنَ، وقلما يروق هذا الزي أحدًا من الجنس الخشن «المذكور» إلا إذا كان من أبناء ما وراء الصحراء والواحات — من السودان أو السنغال.

إن المرأة الطنجية، إن كانت على ساحل البحر عارية، أو في حفلات الرقص، وقد ساومت في العري، هي على شيء من الحسن الفتَّان. أما المرأة الطنجية في السوق فقد تكون للعبد السوداني نعيمه وبلواه، وللشيخ المغربي دواء للباه!

فهل النساء في السوق من بنات السوق؟ يستحيل أن يكنَّ كلهن كذلك، إن في جوانب الساحة ووراءها جادات ضيقة متعرجة، تُسمَّى في المغرب زنقات تكثر فيها بيوت الدعارة، ولكني لم أرَ خلال ساعة، غير نسوة ثلاث خرجن من جوانب الساحة.

وقد قيل لي إن أكثر البنات في تلك البيوت هن إسرائيليات — راحيل، إستير، يهوديت! — وإنَّ بينهن، أو في بيوت خاصة بينهن بعضَ الهندات والفواطم، وإن في أحياء أخرى من المدينة زنقات تكثر فيها أوكار الرواحل المرفهات الخصوصيات!

ها هو ذا السر في شهرة طنجة: راحيل، إستير، يهوديت! فإذا كان الفسق الطنجي معرضًا في النهار، ومعملًا في الليل، ومرحمة ساعة الفجر، فهو في أوقاته كلها إسرائيلي الطابع والمبدأ.

عندنا — من أجلك يا سيدي — تحت الطلب، الشقراء والبيضاء والسمراء والسوداء، حتى العذارى منهن. أوَتريدها من «الأوكار»، محصنة أوروبية أم طنجية عذراء، سودانية أم مغربية؟ إننا لفي خدمتك. لك الأمر، أيها السيد الكريم، ولك مَن تريد، ومعها — حبة — مسك!

طنجة جنة الفرنجة …

وإن فيها غير ما ذكرت من أسباب المرح والسرور والراحة والحبور، فيها الملاهي والملاعب والقصور. سِرْ شرقًا على ذلك الشاطئ البهيج تصل، بعد أن تجتاز ثلاثة كيلومترات، إلى قصر جميل، عربي الهندسة، غربي الترف والتنسيق، عربي بنقشه وألوانه، غربي بعرصاته ذات الظلال العاطرة، والزوايا الساترة، وبمرابعه الحافلة بكل ما تشتهيه الأنفس النهمة والمتخمة، وبحوض للسباحة، وردهة للرقص، وغيرها متوارية للارتياح والاعتكاف.

هذا القصر يُدعَى «فيلَّا هاريس» Villa Harris نسبةً إلى ذلك الأديب الإنكليزي الذي أحَبَّ المغرب، وأقام فيه طويلًا، فأثمر حبه كتابًا واحدًا فيه أهلَّةٌ من الحقائق والإخلاص، وأنصافٌ إنكليزية وأنصافٌ مغربية بشيء من الإنصاف من الاثنين وفيهما. فلئن أخطأ سهم أدبه كبد الشهرة، فقد أصابها سهم حبه في هذا القصر الحامل اسمه الكريم.

وإن واصلتَ السير شرقًا بشمال تصل إلى جسر قديم وضيع في وادي الصواني، قبالة الـ «بلاج» العامر بالحياة هناك في الناحية الغربية، فتقطع الجسر، فإذا أنت عند خرائب طنجة Tingis القديمة، تلك التي أَسَّسها الفينيقيون، حنو القرطجني ورفقاء رحلته الأفريقية في القرن السابع الوثني. هناك خرائب المدينة التي كانت في عهد الرومان عاصمة مقاطعة موريتانيا، ولا شك في أن أولئك الرومان — عهد استعمارهم لها — أقاموا فيها دورًا وساحات للألعاب الرياضية التي اشتهروا بها، وما تلك الألعاب الوحشية إذا قيست بألعاب هؤلاء الفرنجة القائمة على علمي الرياضة والغرام؟!

في الدليل الفرنسي للمغرب الأقصى صفحة عن طنجة جاء فيها ذكر أماكن الرياضة والتنزه، كلعب الـ «تنيس» والـ «غولف» والصولجان Polo والمنتزهات البرية في ضواحيها، والبحرية في المضيق على ظهر يخت أو في ظل شراع.

وفي طنجة، في هذا البلد العربي، مدرسة لتعليم — الأوروبيين ولا ريب — ركوب الخيل. فماذا يبتغي بعد ذلك السائح والمقيم؟ وماذا يشتهي بعد ذلك طالب العلوم الرياضية والصحية والاصطيافية والشتوية؟!

هي المدينة الأوروبية السابغة النِّعَم، ومن نِعَمها النادرة في مثل هذه المدينة، نعمة كبرى لا تُنْسَخ ولا تُمْسَخ، هي معهد من معاهد العلم، معهد باستور Pasteur عزَّ وعَلَا، هو في أجمل أحياء طنجة، على الهضبة التي تُدعَى المرشان Le marshan المزدانة بالقصور والبساتين التي يملك أكثرها اليهود.

على أن هناك كذلك قصر المنبِّهي، وزير السلطان عبد العزيز — في ماضي الزمان وسالف العصر والأوان — ودار المندوب الشريفي، باشا طنجة، ومستشفيان إنكليزي وفرنسي، ومقبرة للأهالي.

أما قصر مولاي عبد العزيز، وقصر أخيه مولاي عبد الحفيظ — مما عوَّضه الله بعد قصور المُلْك المفقود — فيما هناك على صدر ذلك الجبل ورأسه في عزلة نعيمها منغَّص، والطريق إليهما يمر بمقبرة أخرى هي مقبرة سيدي محمد الحاج، وليٍّ طنجة، وبوادٍ يُدعَى وادي اليهود. اليهود! المقابر! المال! الديون! ذهاب الملك! موت العز والسادة! سبحان الشاعر الرمزي الأكبر!

وقد يعوض، سبحانه وتعالى، على طنجة الأهالي الذاهبة ذهاب ملك المعتزلين في جبالها، بطنجة جديدة عزها ممدود، وعمرانها غير محدود، طنجة أوروبية حافلة بالصروح الفخمة، الحديثة الهندسة والفن، وبالشوارع والساحات الرحبة، الحاملة أسماء

الأمم حبًّا وكرامة. فهذه ساحة إسبانيا، وذاك شارع بستور، وها هنا جادة إيطاليا، وهناك شارع الإنكليز، وفيها كلها المقاهي والحانات البهيجة، خدَّامها في أثواب الخدم لا أثواب البقالين والسقائين، كما في المقاهي البلدية، فتطلب منهم بلغة الإسبان أو الفرنسيين أو الإنكليز، وأنت جالس إلى مائدة من القش الملون، في كرسي بجانبها، تطلب كأسك المعتاد: أبسنت، وسكي، شري، سنزانو، كأنك في باريس أو مدريد.

وطنجة الأهالي، طنجة المغربية الشرقية، أين هي؟

أعود بك إلى السوق الصغيرة، الكبيرة بشهرتها، الصاعدة من الساحل إلى رأس الرابية، الضيقة المتعرجة بحوانيتها ومصارفها وحاناتها ومقاهيها، الواسعة بأسباب العيش الغامضة، يلجأ إليها من لا حوانيت ولا مكاتب لهم من التجار، تجار السياسة وأخبارها، وتجار الأوراق المالية وأسرارها، وتجار الحياة المحجبة بحجب المدنية، تجار القلوب والأخلاق. هم ذوو المهن «الحرة» التي تقوم بدهاء العقول الملتوية، حول فنجان من القهوة في أحد المقاهي، أو كأس من الجعة في حانة من الحانات.

إن تلك السوق المزدحمة على الدوام بالناس من جميع الطبقات والأمم، تنتهي عند الساحة الكبرى التي تُدعَى السوق الكبيرة، وفيها مظهر من مظاهر الحياة الشرقية المغربية، الوادعة الشريفة. ها هنا يجتمع في يومين من الأسبوع: الثلاثاء والأحد، أبناء القبائل المجاورة لطنجة، القبائل المزارعة، وقد جاءوا من الضواحي نسوةً ورجالًا، يحملون الأحمال، أو يسوقون الحمير المحملة من خيرات الأرض، البقول والثمار، والحبوب والأبازير والدجاج والبيض، والزهور والرياحين والحطب والفحم، حتى الحشيش الأخضر للدواب.

هاك في ظلال الأشجار الوارفة عجوزًا تبيع طاقات من البقدونس والصعتر، أو قليلًا من الفول الأخضر والتين، وهاك فتاة مغربية سافرة على رأسها برنيطة كالمظلة وقد تربعت على الأرض وراء صف من طاقات البنفسج، وآخَر من الزنابق والورود، وهاك أحمال الحطب، وأكياس الفحم، تباع لِمَن يحرقونها، لا لِمَن يتاجرون بها. لا وسطاء في هذه الساحة، ولا سماسرة!

من الحقول والبساتين إلى المطابخ والبيوت.

ها هو ذا المغرب بفقره واتضاعه، بقناعته وصبره، ببساطته وكرامته، بأسماله وأوساخه، وبإحساسه الشعري!

وفي كل يوم من الأسبوع، بعد الظهر، يؤم هذا المكان الحاوي والراوي والمبصِّر والمجَّان والراقص والزمار، فتُعقد حولهم الحلقات، فتعمر فيها أسباب الطرب والتفكهة والسلوان، فيغدو الناس، بما يشاهدون ويسمعون، حيارى سكارى.

وها هو ذا المغرب في مرحه وفرحه، في ألاعيبه وشعوذاته، المغرب الروائي الشعري، المغرب اليائس الضحوك، المغرب العجيب!

إن في هذه الساحة كذلك، إلى جانبي سوق الفحم وسوق المواشي، رمز المغرب السلطاني، المنفصلة عنها المتصلة بها مدينة طنجة، هي منفصلة فعلًا، متصلة اسمًا وشرعًا. وها هو ذا البرهان على ذلك: ذي هي المندوبية، دار المندوب، وفيها مدافع الدولة الشريفية، بضعة وثلاثون مدفعًا من الصَفْر في أشكال شتى ومن عهود مختلفة، وهي كلها اليوم للأنظار والازدكار.

وهناك في القصبة، على هضبة من الهضاب، طنجة الأهلية، بسورها وبابيه: باب الراحة، وباب الهناء، وأشياء أخرى للأنظار والازدكار، هناك بيت المال وصناديقه الطويلة الضخمة الفارغة، وهناك «المشور» أو دار الحكم حيث كان يجلس الباشا مندوب السلطان ليقضي بين الناس، وهناك دار السلطان نفسه، حيث كان يقيم عندما يزور طنجة، هي ولا غرو دار فخمة — أو كانت — بأوانيها وردهاتها وحدائقها التي لا تزال زاهرة.

صعدنا إلى سطح الدار السلطانية فأشرفنا على المدينة الجديدة التي تنحدر مدينة القصبة إليها، وهي — أي المدينة الجديدة — ذات هضبتين ووادٍ بينهما تنساب فيه السوق الصغيرة، وهناك الشاطئ الذهبي وأكواخ الـ «بلاج» والمظلات حيث تلهو الحسان، وإلى الجانب الشمالي الغربي رصيف نحو كيلومتر واحد يمتد إلى البحر، ولا باخرة من البواخر إلى جانبه، إنما في الميناء مراكب حربية فرنسية وإسبانية وإنكليزية آمنة في مرساها مطمئنة متحابة، وهناك في الطرف الشرقي الشمالي من المضيق، على الأفق اللازوردي، غيمة سوداء هي جبل طارق.

إن أجمل ما في القصبة مئذنة جامعها المثمنة الأضلاع، وإن أروع ما في القصبة باب العصا حيث كان يُحاكَم صغار المجرمين.

بيت المال، قصر السلطان، باب العصا، بابا الراحة والهناء، والجامع: هو ذا المغرب في عزه ومجده وقساوته وتقواه. أما المجد والعز والقساوة، فقد أمست أثرًا للعين والذكرى، وأما التقوى، فهي وأخواتها الفقر والصبر والقناعة من البركات الباقيات!

وقفنا في الساحة تحت تينة كبيرة، أمام بناية كانت ثكنة عسكرية للإسبان، فحيينا امرأ هناك، فرد التحية بلهجة مغربية فهمناها.

قال جوابًا عن سؤالي الأول: إن البناية هي مدرسة للصبيان. وقال جوابًا عن السؤال الثاني: لا يا سيدي، ليست وطنية بل هي أوروبية يتعلَّم فيها أولادنا اللغتين الفرنسية والإسبانية.

– ولا يتعلمون العربية؟ ولماذا؟
– الله أعلم، سبحانه وتعالى، إنه على كل شيء قدير.
قالها بلهفة كلها ورع وحنين، ثم أنَّ أنَّة سمعتها السماء.

وهذه جنازة أحد المسلمين تمر أمامنا، نعش محمول وثلاثة أمامه يرتلون أو يحاولون الترتيل، والناس وراءه يتمتمون، لست أدري بأي لغة من لغات العالم. جنازة إسلامية في الشكل الظاهر، والتقوى الباطنة، أما اللغة والتجويد فهما أقرب شيء إلى الرومانية أو البربرية أو الفينيقية منهما إلى العربية والإسلام.

عدنا من القصبة إلى السوق الكبيرة فالسوق الصغيرة، فالتقينا هناك بلبناني أقام في طنجة أربعين سنة فأمسى من أبنائها لسانًا، وقد يجوز أن نقول كذلك: قلبًا وخلقًا. دعوناه للقهوة والحديث، فقال: عندي واحد ميعاد، والذاكرة ديالي (ذاكرتي) ضعيفة، ضعيفة بالزَّفِّ (أي جدًّا أو كثيرًا).

ثم وعدنا بأن يوافينا إلى القهوة — إذا تذكَّرَ اسمها، فسألناه ونحن لا نأمل بذاكرته أن تحقِّق الاجتماع في القهوة: وكيف أحوال طنجة؟

فأجاب قائلًا: موحَّلة.
فقلنا: موحَّلة تجاريًّا أم اجتماعيًّا أم سياسيًّا؟
فقال: موحَّلة في كل شيء — موحلة بالزَّفِّ.
وقالها كما يقول: الصحة جيدة والحمد لله.

ما كذب أخونا اللبناني ولا غالى.

فما السبب في توحيل جميع أحوال طنجة؟ أحديث العهد هذا التوحيل أم قديمه؟ سنجاوب دون أن نعود إلى العهود القديمة مستكشفين أحوالها — وأوحالها.

فلقد ذكرنا الفينيقيين مؤسِّسي طنجة، والرومانيين مستعمريها، ثم جاء الفنداليون غازين ناهبين مخرِّبين، والبيزنطيين مصلحين مستثمرين؛ فكانت طنجة في عهدهم على شيء من العمران. ثم فتحها واستعمرها العرب، ويوم مَرَّ بها إدريس الأول (٧٨٨م) قادمًا من تلمسان، في طريقه إلى فاس، كانت طنجة أجمل مدينة في المغرب.

وما ذهب شيء من جمالها وعمرانها في عهد البرتغاليين الذين انتزعوها من العرب في سنة ١٤٧١، ولا في عهد الإسبان الذين خلفوهم بعد نيف ومائة سنة (١٥٨٠)، خسر البرتغاليون طنجة مرة أثناء ذلك، ثم استعادوها في سنة ١٥٥٦.

وبعد ست سنوات من احتلالهم الثاني عُقد لملك الإنكليز شارلس الثاني على الأميرة ده براغَنْزا البرتغالية، فراحت طنجة مع الجهاز، انتقلت بزواج كاترين إلى حوزة الإنكليز، فحكموها ثماني عشرة سنة فقط؛ ذلك لأن مولاي إسماعيل الكبير قام يطالب بردِّ «الجهاز» إلى أصحابه، فشهر الحرب على أقارب كاترين الجدد وأخرجهم من طنجة في سنة ١٦٨٠.

منذ ذلك اليوم إلى آخِر القرن التاسع عشر بقيت هذه المدينة في حوزة سلاطين المغرب، وهي تنعم بشيء من العمران المادي، وبأشياء من الأمن والنظام. ساد فيها السلم على الأقل والاطمئنان. أما تجاريًّا فقد كانت أول مدن المغرب، وما زالت، ولا غرو فهي باب المغرب الأقصى من أوروبا والشرق وإليهما.

ولا تزال ذلك البابَ، إلا أن مفتاحه وقع من يد السلطان عبد العزيز يوم وقَّع المعاهدة الأولى والفرنسيين، فتسابقت الدول إلى التقاطه، فضاع في الهرج والمرج، وساءت — وَحِلت — أحوال طنجة. أجل، لقد ساءت أحوالها عندما رمقها الأوروبيون في أواخر القرن الماضي، بأنظارهم الاستعمارية؛ فصارت كل دولة من الدول الكبرى، وخصوصًا فرنسا وإسبانيا وإنكلترا، تدَّعِي وصل ليلى، وتنظم لها القصائد باللغة السياسية!

طمحت فرنسا ببصرها — وبصر جندها — إلى المغرب أجمع، وطنجة طبعًا منه، وطمعت إسبانيا بضم مدينة المضيق الكبرى إلى ما كان قسمتها من الساحل الأفريقي، فتحصن مركزها تجاه الإنكليز في جبل طارق، وكان الإنكليز يذكرون، ويتخذون قاعدةً لسياستهم، كلمةً قالها أميرالهم «نلسون» Nelson: إن لم تكن طنجة إنكليزية، فيجب أن تكون دولية. مسكينة طنجة! فقد عظم خطبها في تعدُّد خطبائها — الفرنسيين والإسبان والإنكليز والألمان.

وبينما كان الإسبان والفرنسيون يتنافسون ويتوثبون، كان الإنكليز يقفون موقف المدافع عن شرف طنجة، وكرامة الدولة الشريفية أمِّها.

هذا في آخِر القرن التاسع عشر، وفي السنة الثانية من القرن الحاضر اعتزمت الدولتان فرنسا وإسبانيا، التخلُّص من المنافسات فقرَّرَتا المفاوضة في الأمر.

كان «دلكاسة» يومئذٍ يدير سياسة فرنسا الخارجية، فأزعجه تدخُّل الإنكليز في شئون المغرب، وراح يجامل إسبانيا ليتآزر وإياهم عليهم، فاتفق وسفيرها في باريس «السنيور ليون إي كستيو» Leon Y Castillo على أمرين، وبالأحرى أنهما اعترفا بأمر، وقرَّرَا الأمر الآخَر، وكلا الأمرين غامض، أو أن معناه معقود بالنيات الكامنة في الكلمات السياسية.

قال «دلكاسة»، ووافق السفير الإسباني: إن لطنجة أهمية كبرى في تأييد حرية المضيق، مضيق جبل طارق. ثم قالا معًا: وبناء على ذلك لا تمانع الحكومتان المتعاهدتان في أن تكون طنجة مدينة حيادية.

وما معنى حرية المضيق، وحياد المدينة؟ فقد كان كلٌّ من المتفاوضين يريد أن يقيِّد بتأييد حرية المضيق سلطة الإنكليز فيه، وأن يتدرَّج بتقرير حياد طنجة إلى الاستيلاء عليها. كلٌّ يدَّعِي وصلًا بليلى! …

وقد ظهر من نية «دلكاسة» نصفها أو بعضها في المؤتمر الإسباني الفرنسي سنة ١٩٠٤، الذي تحدَّدت فيه حدود المنطقة الشمالية الإسبانية؛ إذ قال — وأقنع بقوله السفير الذي كان يتجامَل وإياه منذ سنتين: إنه يجب أن تبقى طنجة في وضعها الإداري المعروف يومذاك. أي في حكم «الهيئة الدبلوماسية والمؤسسات البلدية والصحية»، ومعنى ذلك أن طنجة ليست للفرنسيين ولا للإسبان ولا لسلطان المغرب.

فهل تُستغرَب الفوضى، وما تجره من الشرور السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلد لا حكم فيه لغير الأغراض والأهواء، وكل واحد من الهيئة الدبلوماسية، أي قناصل الدول، يقدِّم غرضه ومصلحة حكومته ومواطنيه على أغراض زملائه ومصالح حكوماتهم ومواطنيهم؟ وهل يستغرب وقوف التجارة والعمل في المدينة، واضطراب حبل الأمن فيها وفي ضواحيها؟ في تلك الأيام كان الريسوني قائمًا على الأجانب، وخصوصًا القناصل منهم «زبانية طنجة»! …

فعُقِد مؤتمر الجزيرة للنظر في شئون المغرب، ورأى المؤتمرون أن يشملوا طنجة باليسير من نظرهم المالي، فقرَّروا أن تكون لها شرطة مغربية بإدارة أوروبية، وأن يستولي الفرنسيون والإسبان والإنكليز على جماركها. حيَّ على الفلاح! …

وهل أعادت تلك الشرطة الأمن إلى المدينة؟ وهل نجح استيلاء الدول على جماركها فيما اعتلَّ واختلَّ من شئونها السياسية والتجارية والاجتماعية؟

كان أهل المدينة الوطنيون أكثر الناس شكاوةً وأشدهم احتجاجًا، فضلًا عن أنهم كانوا يشعرون أن المدينة ذاهبة من يد السلطان، ويأملون مع ذلك أن تعود — إذا استمروا في الشكوى والاحتجاج — إلى حالها الطبيعي، ووضعها الشريفي السابق. هيهات!

فقد كانت فرنسا في تلك الأيام مهتمة كل الاهتمام للمغرب لا لطنجة، وهي تهيئ الأحوال للاحتلال والحماية، وكانت إسبانيا تريق دماء بنيها في احتلال الناحية الشرقية من منطقتها؛ فشُغِلت الدولتان عن طنجة، وما اطمأنت الواحدة إلى الأخرى في المغرب، بل كانت المنافسات مستمرة والمشادات تتجدد عامًا بعد عام. فهلَّا تنتهي؟ وهلَّا تُسمع

أصوات طنجة الشاكية؟ وإسبانيا ومطالبها؟ ... وفرنسا ومتاعبها؟ ... تعالوا إذن نتفاهم، تعالوا نعقد مؤتمرًا.

عُقِد المؤتمر الفرنسي الإسباني الثالث أو الرابع أو الخامس (١٩١٢) — ما أكثر تلك المؤتمرات وما أقل خيرها! — فتقرَّر فيه أن تكون طنجة دولية الحكم، وأن يكون لها نظام خاص بها.

وكانت شكاوى الأوروبيين من فوضى الأيام، وفساد الأحكام، وشكاوى الوطنيين من الفوضى والفساد والتدخُّل الأجنبي، تزداد يومًا فيومًا.

لنشرع إذن في العمل المصلح للأحوال. اجتمع ممثلو الدول الثلاث — إسبانيا وفرنسا وإنكلترا — في آخِر سنة ١٩١٣ ليضعوا للمدينة النكداء النظام الذي وُعِدت به، فاستمرت المباحثات والمناقشات بضعة أشهر، حتى صيف سنة ١٩١٤، حتى الشهر السابق للحرب العالمية الأولى، حتى يوم الكارثة؛ فتأجَّلَ ذلك المؤتمر.

وما اهتمَّ أحد لطنجة في أيام الحرب؛ فغدت وكرًا للدسائس الدولية والمفاسد السياسية، وخصوصًا ما كان منها لرعايا الدول الوسطى وجواسيسها؛ فاضطرت دول الأحلاف أن تطرد — بموافقة سلطان المغرب — قنصلي النمسا وألمانيا وأعوانهما من المدينة.

ما اهتمت أثناء الحرب لغير ذلك، وما استؤنفت أعمال المؤتمر المؤجل إلا بعد خمس سنوات من يوم الهدنة؛ فقد شغلت الدول عن طنجة بنتائج الحرب، وخصوصًا منها مسألتي الترميم والتعويض. ثم ذكرت، في صيف ١٩٢٣، أنها وعدت طنجة بنظام خاص بها، وأن المدينة تنتظر ذلك النظام.

ولكن فرنسا — وقد تعاظَمَ نفوذها في المغرب بعد استقرار الحماية فيه — حاولت أن تستقل في إدارة طنجة، فاعترَضَ الإسبان أشد الاعتراض، واستمرَّ الإنكليز يقاومون كل ما في سياستها من نزعات الاستقلال أو الاستئثار.

فإن لم تكن طنجة إنكليزية، يجب أن تكون دولية.

وإن لم تكن طنجة للفرنسيين، فلا بأس أن تكون للجميع على السواء، ولو إلى حين.

وإن لم تكن طنجة للإسبان اليوم، فلا بد أن تكون لهم غدًا ...

اجتمع ممثلو الدول، وهذه عقليتهم الطنجية، اجتماعًا تمهيديًّا في لندن، في صيف سنة ١٩٢٣، ثم نُقِلوا إلى باريس في أكتوبر، حيث تمت المؤامرة على عروس المغرب، فوقَّعَتْ فرنسا في ٨ ديسمبر ١٩٢٣ المعاهدةَ التي قضت بأن تكون طنجة دولية، ووقَّعَتْها إسبانيا في ٧ فبراير من السنة التالية. حي على الفلاح!

ولكن سكان طنجة، الوطنيين والأجانب على السواء، وخصوصًا الفرنسيين والإسبان الأجانب، استمروا يشكون ويحتجون. أما الفرنسيون، فلأنهم كانوا يأملون أن تستقل فرنسا في حكم المدينة، وأما الإسبان، فلأنهم خُدِعوا كما يقولون فحُرِموا الوظائف التي وُعِدوا بها في المعاهدات السابقة.

وأما الوطنيون، فلا لشيء غير الاغتصاب. إنهم أبناء المدينة المغتصَبَة!

أَتَمَّ المتآمرون تلك المعاهدة، وبعد سنة أنجزوا النظام الخاص بمنطقة طنجة، فأُعلِنَ وبُوشِرَ تنفيذه في يوليو سنة ١٩٢٥، ولكن الاحتجاج لم يكن هذه المرة من السكان فقط، بل من بعض الدول أيضًا، ولا سيما أمريكا وإيطاليا اللتان اشتركتا في مؤتمر الجزيرة، ولم تُدعَيَا للاشتراك في مؤتمر باريس؛ لذلك لم تقبل إحداهما اتفاق ذلك المؤتمر، ولا خضعت رعاياهما في طنجة للنظام الجديد.

استمرَّ ممثلو الدول المتعاقدة — أي قناصلها في طنجة — ثلاث سنوات يحاولون تنفيذ نظامهم، فكادوا يخفقون لما لقوه من الصعوبات: نحن الطليان لا نخضع لنظام فرنسي أو إسباني. نحن الإسبان لا نقبل نظامًا مجحفًا بحقوقنا. نحن الأميركان خارج الحظيرة؛ لأن حكومتنا لم تشترك في مؤتمركم.

ونحن أبناء طنجة، نحن العرب المغاربة، لا نعرف غير سلطاننا، سلطان المغرب، حاكمًا ومشترعًا.

قلق القناصل في طنجة، وأطرق السياسيون في باريس، ثم أعملوا فكرتهم الثاقبة في المشكل الجديد، وهم يحللون بوادر العصيان، ويخففون من شرها. لا خوف من الأميركان وأبناء طنجة، فهؤلاء يخضعون للنظام عندما يعلمون أنه وُضِع بموجب ظهير[١] سلطاني شريفي، وأولئك مخلدون في كل أحوالهم إلى السكينة.

أما الطليان والإسبان، فيجب علينا أن نرضيهم؛ لأنهم مشاغبون مقلقون، وكيف نرضيهم؟ ما الرأي؟ وما التدبير؟ تعالوا نتشاور جميعًا. هيا بنا — وأنتم أيها الطليان في مقدمة مَن نخاطب — هيا بنا إلى مؤتمر آخَر!

[١] ليس في مادة ظهر، لا في محيط المحيط ولا في الفيروزبادي المعنى الغربي للظهير، أي الأمر السلطاني أو ما كان يُعرَف عند العثمانيين أو الإرادة السنية، ولكن لإخواننا المغاربة اختراعات غريبة في استكمال مواد اللغة.

اجتمع ممثلو الحكومات الثلاث في وزارة الخارجية بباريس في ٢٠ مارس سنة ١٩٢٨، ومعهم هذه المرة ممثلو «حكومة جلالة ملك إيطاليا»؛ اجتمعوا، فتشاوروا، فتناقشوا، فعدَّلوا نظام سنة ١٩٢٣، ووقَّعوا البروتوكول الجديد، البروتوكول الأخير لنظام طنجة، في ١٦ يوليو سنة ١٩٢٨.[٢]

ولهذا البروتوكول ملحقات تشتمل على الظهراء — جمع ظهير! — الشريفية التي تأمر بالتعديلات؛ أو قُلْ تَقْبَل بها، كما هو الواقع، وهي تشتمل كذلك على الرسائل من سفير إيطاليا إلى سفيري إسبانيا وإنكلترا ووزير خارجية فرنسا، ومنهم إليه، فيما يتعلق بأمرين مهمين — لا لطنجة الدولية، بل لدولة إيطاليا: الأول أمر المرفأ، وهو مورد رزق جزيل، فيقول سعادة السفير الإيطالي: نبغي المشاركة في استثمار المرفأ وغيره من المشاريع الاقتصادية. فيجيب السفيران ووزير الخارجية الفرنسية بالصوت الواحد والعبارة الواحدة: سنكون سعيدين للاشتراك معكم في استثمار المرفأ وغيره من المشاريع الاقتصادية.

والأمر الثاني يتعلَّق بالوظائف، فيقول سفير إيطاليا: نبغي قسطنا العادل من الوظائف في دوائر الحكومة كلها الإدارية والتشريعية والقضائية. فيجيب أصحاب السعادة زملاؤه بالصوت الواحد واللهجة الواحدة: سنكون سعيدين في العمل بقاعدة المساواة؛ ليكون لكم قسطكم العادل من الوظائف في دوائر الحكومة كلها، الإدارية والتشريعية والقضائية.

أما النظام نفسه والبروتوكول المعدِّل لبعض مواده، فالنظر فيهما لغير القانونيين هو من باب الفضول، ولكن فيهما أبوابًا ونوافذ لغير القانوني، وعليهما كما يظهر لنا ظلال جليلة من المنطق. فلا حرج على مَن يتظللها باحثًا مستقصيًا.

لا تزال منطقة طنجة، بموجب هذا النظام، جزءًا من السلطنة المغربية الشريفية، ولا يزال للسلطان مندوب فيها، ولكن السلطنة المغربية الشريفية هي اليوم مشمولة في جزئها الأكبر بالحماية الفرنسية، وفي جزئها الأصغر بالحماية الإسبانية، فإن لم تكن

[٢] اسمه الطويل الشريف هو بالتحقيق البروتوكول النهائي «الذي أقره» المؤتمر «الذي عُقِد» لتعديل معاهدة ديسمبر سنة ١٩٢٣ المختصة بنظام منطقة طنجة. Protocole Final de la Conférence pour la Révision de la Convention du 18 Décembre, 1923, Relative à l'argan izatron du statut de la zone de Tanger.

طنجة تابعة لإحدى الدولتين، يجب أن تكون في حمايتهما المشتركة، وبالتالي لا يحق لغير إسبانيا وفرنسا أن تحكما طنجة.

ولكنها أمست بموجب هذا النظام مدينة دولية حيادية بسيادة سلطان المغرب، الذي يحكم رعاياها الوطنيين المغاربة واليهود، بواسطة مندوب له فيها.

وبما أن الرعايا الوطنيين هم نصف سكَّانها، والرعايا الأجانب أقليات بالنسبة إلى الوطنيين؛ فالمندوب إذن هو الحاكم الأول في المدينة، أو إنه يجب أن يكون كذلك قانونًا ومنطقًا وعدلًا، ويجب أن يكون نائبه الأول، عملًا بهذا القياس، المندوبَ أو السفير الإسباني، ونائبُه الثاني السفيرَ الفرنسي.

وإذا قيس حق الحكم بمدة الاحتلال، كما ينبغي، فالحق الأول هو للمغاربة العرب، والحق الثاني للبرتغاليين، والثالث للإسبان، والرابع للإنكليز، ولا حق البتة لفرنسا؛ لأنها لم تحتلَّ هذه المدينة يومًا واحدًا في الماضي. أما إذا كان يحق لهؤلاء الأجانب أن يشتركوا في الحكم، كلٌّ بالنسبة لما كان لدولته من السلطة في المدينة، ولما لا يزال لأمته فيها من أثر وتقليد، فالقسط الأكبر هو للإسبان، والقسط الأصغر للفرنسيين. هذا هو المنطق وهذا هو العدل.

ولكن الدول المتعاهدة لا تؤمن بالمنطق، ولا ترى العدل بغير المساواة؛ لذلك قلدت الحكم لجنة من القناصل[٣] هي اللجنة العليا، التي يحق لها أن تثبت أو ترفض، بأكثرية الأصوات، ما يقرِّره المجلس التشريعي أو يسنه من القوانين.

والمجلس التشريعي يُؤلَّف من سبعة وعشرين عضوًا،[٤] ثمانية عشر منهم أوروبيون وتسعة وطنيون، ويرأس جلساته المندوب مع أربعة من الأعوان: إسباني وفرنسي وإنكليزي وطلياني.

[٣] وهي مؤلَّفة من قناصل الدول La Comité de Contrôle التي اشتركت في مؤتمر الجزيرة الأمريكية لرغبتها عن الاشتراك، والدول الوسطى في الحرب العظمى، أي النمسا وألمانيا. وعددها اليوم سبعة، هم: قناصل فرنسا وإسبانيا وإنكلترا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا والبرتغال.

[٤] هم كما يلي: إسبانيا ٤، فرنسا ٤، إنكلترا ٣، إيطاليا ٣، أمريكا ١، بلجيكا ١، هولندا ١، البرتغال ١، ينتخبهم قناصلهم. أما الستة المسلمون فينتخبهم المندوب، وأما الثلاثة اليهود فتنتخبهم الجالية الإسرائيلية، أو بالحري تقدم لائحة بتسعة أسماء إلى لجنة القناصل، فتنتخب اللجنة منهم الثلاثة الأعضاء.

فأين المساواة في هذا المجلس؟ إن للوطنيين المسلمين والإسرائيليين — وهم نحو خمسة وخمسين ألفًا — تسعة أعضاء فيه، وللأوروبيين — وهم نحو ثلاثين ألفًا — ثمانية عشر عضوًا.[٥]

دَعِ المساواة تتوارى مع المنطق والعدل والقانون، إنما النظام فوق كل شيء، وبموجب هذا النظام — تكملة لأسباب الحكم المدني الديمقراطي الحر — يعيِّن المجلس التشريعي حاكمًا لمنطقة طنجة، من الفرنسيين غالبًا أو الإسبان، وثلاثة معاونين له: إنكليزيًّا وإسبانيًّا وفرنسيًّا، وهذا التعيين تثبته أو ترفضه اللجنة العليا — لجنة القناصل — بأكثرية الأصوات، كما تثبت أو ترفض القوانين والمقررات.

ها هي ذي هيئات الحكم الثلاث: المجلس التشريعي، والحاكم ومعاونوه الثلاثة، واللجنة العليا، وإذا ما دقَّقْنا في التمحيص والتحليل نجد السلطة كلها بيد هذه اللجنة، أي بيد القناصل السبعة، فهم ينتخبون المجلس، كما بيَّنَّا، والمجلس يعيِّن الحاكم ومعاونيه الحائزين على رضى اللجنة العليا.

هذا هو النظام الذي يخول قناصل الدول السبع الحكم المطلق في مدينة لا يتجاوز عدد سكَّانها الثمانين ألف نفس،[٦] وفي منطقة لا تتجاوز مساحتها المائتين من الكيلومترات.[٧]

أما البروتوكول المعدل لهذا النظام فقد خُصَّ مجمله بالمساواة والاسترضاء — بالوظائف والمشاريع الاقتصادية.

لقد مرَّ بك ما دار بين سفير إيطاليا وزملائه المتعاهدين بخصوص المرفأ والوظائف. نبغي الوظائف. نبغي المشاركة في الاستثمار. أبشروا، ولكم فوق ذلك المساواة والإنكليز في عضوية المجلس.

[٥] وقد تتغيَّر هذه النسبة فينقص عدد الوطنيين في المجلس؛ لأنها معقودة بأهمية كل جالية من الجاليات، بأهميتها التجارية والاجتماعية والسياسية. فبازدياد أهمية الجاليات الأوروبية — كما هو الحال — تقل أهمية الجاليتين الإسلامية والإسرائيلية، والحكم في هذا التطور للقناصل. فلا عجب إذا أصبح المجلس في المستقبل أوروبيًّا محضًا.

[٦] إحصاء السكان هو اليوم بالتقريب: مغاربة ٤٠ ألفًا، إسرائيليون ١٤ ألفًا، إسبان ١٤ ألفًا، فرنسيون ٨ آلاف، ومن الأمم الأخرى ٨ آلاف، فالمجموع نحو ٨٥ ألفًا.

[٧] منطقة طنجة تُدعَى الفَحْص بفتح فتسكين — فحص: كل موضع يسكن — ومساحتها هي والمدينة نحو مائتي كيلومتر مربع، أما حدود الفحص فهي مثبتة في الفقرة الثانية من المادة السابعة من المعاهدة الفرنسية الإسبانية التي عُقِدت في سنة ١٩١٢.

وقد استُرضِيَ الإسبان بقيادة الجندرمة، وبرياسة دائرة الأمن العام.

وقَبِلَ البلجيكيون بما مُنِحوا، أي بالحق في تعيين قاضٍ منهم للمحكمة المختلطة، بدل حقهم في قيادة الجندرمة.

هذه أمثلة من البروتوكول الشريف، الطويل الاسم، القصير الغاية في مصالح المنطقة وخير أهلها.

قال أحد الكتَّاب الإنجليز: «كان من الواجب على الدول المتعاهدة، بعد أن أوجدوا المدينة الدولية، أن يرعوا مصالحها الحيوية، فيهيِّئوا الأسباب لغذائها، وإنعاش تجارتها،[٨] ويمنحوها شيئًا من الحكم الذاتي، ولكن المحرك الواحد للسياسة الأوروبية في طنجة هو حب الذات، فلولا مطامع المتنافسين وحسدهم لما كان هذا النظام، ولما كانت مصالح طنجة آخِر ما يهتمون له.»

والكل مجمعون — ودائرة المعارف توافِق — على أن سوء حال طنجة، في ربع القرن الماضي، ناتِج عن اضطراب شئونها السياسية، وما أثارته من منافسات الدول وحسدها مما أدَّى إلى هذا النظام الدولي العجيب، وهو عجيب بغير ما قدمت. فقد قلت إن طنجة لا تزال شرعًا من أملاك السلطنة المغربية الشريفية؛ لذلك لا يجوز أن تسنَّ لها النُّظُم والقوانين مهما تكن أهميتها أو سخافتها، بدون أمر — ظهير — من السلطان.

ولكن الحقيقة في هذا الأمر عجيبة؛ فهي حق في شكلها، باطل في معناها، هي مُرضِية ظاهرًا، وهي باطنًا مُضحِكة مُبكِية.

خُذْ هذا النظام مثلًا، فهو ينبغي أن يكون مستمدًّا من الظهير الشريفي أو مبنيًّا عليه، أما الحقيقة فهي أنه هو نفسه مصدر ذلك الظهير، يشتمل على كل المواد فيه، كلها بحذافيرها. أما «إننا نأمر» فيجب أن تكون: إننا نقبل أو إننا نذعن …

كيف لا وقد كتب النظام في باريس، وكتب أيضًا في باريس، أو في دار المقيم بالرباط، الظهير المردِّد لكلماته — ما عدا جملة «إننا نأمر» — ترداد الببغاء، ثم أرسل أو أعيد إلى الرباط ليوقِّعه عن السلطان المقيم العام الفرنسي ووزير خارجية جلالته، الجنرال ليوته.

هي اللولبات السياسية، هي المهزلات القانونية، هي …

[٨] بلغت تجارة طنجة من الوارد والصادر سنة ١٩٢٥ مائة وثلاثة وتسعين مليونًا من الفرنكات، وفي سنة ١٩٣٧ لم تتجاوز الأربعين مليونًا، أي إنها ما بلغت ربع قيمتها في الماضي.

عند الكلمة الأخيرة سمعت صوتًا معترضًا يقول: إنك مبالغ في التشاؤم؛ فإن للأمر ناحية مشرقة، يجب أن لا تخفى عليك.

فقلت: وما هي، رعاك ورعاني رب الفلسفة؟

فقال: أفلا ترى أن سلطان المغرب، الجالس على العرش في فاس، هو الوحيد بين السلاطين والملوك ورؤساء الدول، شرقًا وغربًا، الذي يختار عمَّاله من سياسي الدول الأوروبية المحنكين، كوزير خارجيته المقيم العام في الرباط، والقناصل الدهاقين في طنجة، وينتدب أحدهم بإرشاداته؛ ليشرف على أعمالهم، ويمدهم برأيه الصائب، وفكره الثاقب، فيسلكون الصراط المستقيم إلى كل ما فيه خير الدول الشريفية العلوية وعزها، وخير الرعية، و…

فصحت به: كفى، كفى، حرام عليك هذا!

فقال مستمرًّا: وهل تريد أن أغضب غضبة مضرية؟ وما الفائدة؟ فلا السلطان يسعد بها، ولا الدول تشقى.

فضلًا عن ذلك إن تلك الدول لا تخلو من فضل، إنها على شيء من الكرم. البرهان؟ هو في المادة ٥٣ من البرتوكول، عُدْ إليها، وخفِّفْ عنك.

عدت إلى البرتوكول، إلى المادة ٥٣ منه،[٩] فأدهشني ما جاء فيها. إن تلك الدول كريمة حقًّا؛ فهي لم تأخذ منطقة طنجة بأجمعها، بل تركت للسلطان منها منارة سبارتل.

[٩] المادة ٥٣ تقول: إن الدول المتعاقدة تعترف للحكومة الشريفية بحق الاحتفاظ بملكية المنارة في رأس سبارتل Cap Spartel.

حاشية الحواشي لهذا الفصل.

في الشهر التاسع من الحرب العظمى الثانية (١٨ حزيران (يونيو) ١٩٤٠) أعلن الجنرال فرنكو استيلاء الحكومة الإسبانية على طنجة، فانتهى فيها النظام الدولي. على أن حكومتي بريطانيا وفرنسا اشترطت على الحكومة الإسبانية، في موافقتها على الانفراد بالحكم، أن تحافظ على حياد طنجة، فلا تحصنها ولا تقوم فيها بأي عمل من الأعمال العسكرية.

الفصل الرابع

مثلث الأخطار

مضيق جبل طارق[1] هو الصلة بين البحرين المتوسط والأطلنتيق، تلك الصلة التي تبدأ من رأس سبارتل غربًا، في الجانب الأفريقي؛ لأن طنجة تُعَدُّ من مدن المضيق، وتنتهي شرقًا عند رأس الميناء Almina، أو الجبل الذي تتظلل به مدينة سبتة، وهي — أي الصلة — تمتد في الجانب الأوروبي الإسباني من شاطئ طريفة Tarifa غربًا إلى جون كاتالان Catalan، أي الشاطئ الشرقي من صخرة طارق.

نصف هذه الصلة عنق البحر المتوسط، ونصفها عنق الأطلنتيق، والجانب الأفريقي نحو ستين كيلومترًا، والجانب الإسباني نحو ثلاثين؛ لأن المضيق ينفرج في دنوه من الأطلنتيق، ويضيق قبالة طريفة، ثم ينفرج أيضًا بعض الانفراج بين جبل طارق ورأس الميناء الأفريقي، وله جيبان: الصغير في الجنوب الغربي وهو مرفأ طنجة، والكبير في الشمال الشرقي وهو الجون الكائن بين جبل طارق والجزيرة.

أما المسافة بين الشاطئين فهي تتراوح بين الأربعين كيلومترًا في ناحية الأطلنتيق، والعشرين في ناحية المتوسط، ولا تبلغ في الوسط أكثر من خمسة عشر كيلومترًا، وأما المسافة بين المرافئ فأبعدها التي بين جبل طارق وطنجة (٦٠ كيلومترًا)، وأقربها التي بين سبتة وجبل طارق (٢٠ كيلومترًا).

قد يستغرب هذا التدقيق في وصف مضيق هو جغرافيًّا كغيره من مضايق العالم، ولكنه ليس كغيره سياسيًّا وحربيًّا. إن في هذا المضيق ثلاثَ مدن مهمة، أهميتها في مراكزها لا في عدد سكانها، هي: جبل طارق، وطنجة، وسبتة. هي مثلث الأخطار الدولية، بل هي

[1] كان العرب يسمونه بحر الزقاق.

ثلاثة مخازن من البارود، إذا اشتعل الواحد منها اتصلت ناره بالمخزنين الآخرين، وليس بين الثلاثة من المسافات الواقية، كما بيَّنْتُ، ما يمكن الانتفاع بها في سياسة التوفيق — التطبيق — الدولية. ثم هناك بين المدن الثلاث صلة جنسية وتاريخية، وجغرافية وثقافية، تتغلب على مناورات السياسيين ومحاولاتهم إذا ما دنت ساعة الخطر.

فإذا تمكنوا اليوم من تأمين وضع طنجة الحيادي الدولي، بعد أن انتزعوها من ملك سلطان المغرب، وجرَّدوها من الحصون والاستحكامات، فإنهم في نظامهم لها يسجِّلون على أنفسهم العجز في حل المشاكل السياسية حلًّا حكيمًا ثابتًا عادلًا، ويسجلون على أنفسهم الجهل أو التجاهل لأحداث الزمان. مثل هذا النظام لا يدوم طويلًا؛ لأنه غير عادل، وغير حكيم، وغير عملي، وغير مفيد، لغير الموظفين والمديرين والمستثمرين لهذه المدينة وحكومتها.

وهو لا يدوم طويلًا ولا يستقيم؛ لأن الدول أنفسها القائمة بتنفيذه غير راضية به، فنفوذ الدول الصغيرة منها يضيع صوتها في منافسات ومؤامرات الدول الكبيرة، والدول الكبيرة غير مطمئنة إليه لأن كل واحدة منها تبتغي الاستئثار بالحكم والاستقلال في الاستيلاء. فالنظام الذي ليس له نصير مخلص واحد، لا في السائدين بواسطته، ولا في المسودين في ظله، ليس من الأنظمة الطويلة العمر.[٢]

وإذا ما استقلت بحكم طنجة غدًا إحدى الدول الكبيرة المشاركة اليوم فيه، أي إنكلترا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا، فهي ولا شك تحصن المدينة، أو تتخذ من وضعها الجغرافي والطبيعي أسبابًا للحصون والاستحكامات، فقد أرادت إنكلترا حياة طنجة وحكمًا دوليًّا لها؛ لأنها لم تستطع أن تستولي عليها، لتحصنها كما حصنت جبل طارق، أو لتمنع تحصينها صونًا لمراكزها هنالك. وإنه ليصعب على العالم بشيء من ماضي الدول وحاضرها، أن يعتقد بأن إنكلترا هي الدولة التي ستستولي غدًا على طنجة؛ لتجعلها جبل طارق آخَر، أو حائلًا في الأقل دون التحصينات التي تضعف من حصونه. وإذا استولت عليها دولة أخرى قامت إنكلترا تؤلِّف حلفًا من الدول عليها، فيضطرب جو السياسة الدولية، وقد يعصف بعواصف حرب كبرى.

[٢] ولقد تمت النبوءة بعد سنة من كتابتها، أي يوم استقلت الحكومة الإسبانية بالحكم في طنجة، فمات ذلك النظام المعتوه. راجع «حاشية الحواشي» في نهاية الفصل السابق.

هو ذا مثلث الممكنات في مثلث الأخطار. نظام طنجة الدولي لا يدوم طويلًا، استيلاء إحدى الدول الكبرى على طنجة لا بد منه، والتحصين ملازم للاستيلاء ومثير للحروب.

أما جبل طارق، فما هو من الممتلكات الخالدة لإحدى الدول، وإن في تاريخه الماضي ما فيه من الأحداث التي تنفي خلوده البريطاني. إذن لا بد أن تستعيده صاحبة الحق الأول وهي إسبانيا، فإذا زادت في تحصينه أو اكتفت بما فيه من الحصون والاستحكامات، تغيِّر إنكلترا سياستها الدولية الطنجية، وتساعد في إعادة المدينة إلى حكم فردي فيها، إلى حكمها البريطاني إذا كان ذلك ممكنًا؛ لتُقِيم فيها التحصينات وتجعلها كجبل طارق، أو إنها — إذا عصت التقادير والأحوال السياسية إرادتها — تساعد الدولة المغربية لتستعيد المدينة بشرط أن يكون لها، أي لإنكلترا، ولو جبل واحد هناك تتحصن فيه، فتزيد بأخطار المضيق.

أما سبتة، فهي أصلح من جبل طارق لميناء حربي، وأصلح من طنجة للحصون والاستحكامات، فإذا عجزت إسبانيا عن استعادة جبل طارق، فهي محصنة سبتة لا محالة، وليس بين سبتة والصخرة، كما أسلفت القول، أكثر من عشرين كيلومترًا. فهل تقبل الحكومة البريطانية بذلك التحصين، وإن احتجَّتْ — كما هو الأرجح — وعارضت، أفلا تسعى لأن تكون كلمتها نافذةً، نافذة بأي وسيلة كانت، نافذة ولو بالقوة، ولو بحرب تهيئ لها الأسباب؟

وهو ذا مثلث الممكنات الأخرى في مثلَّث الأخطار، إسبانيا تطمح إلى استرجاع جبل طارق، فإذا حالت — القوة أو السياسة دون فوزها فهي تحصِّن سبتة، وفي تحصين سبتة تهديد للإنكليز في الصخرة المقابلة لها، ونقصان في قيمة حصونها. والنتيجة؟ اضطراب جو السياسة الدولية اضطرابًا مؤديًا إلى الحرب.

على أن بين أبواب الخطر بابًا واحدًا مفتوحًا كذلك هو باب الفرج. من الحقائق المبتذلة في السياسة — وفي مقامات الحريري — أن الدهر في الناس قلَّب، فالبس لكل حال لبوسها. وللحكومة البريطانية في هذا الفن حذق العباقرة؛ فلا يستغرب قطعًا تغيير لبوسها — تغيير سياستها — عند تغيُّر الأحوال، وبمقتضى عوامل الحرب والدفاع. أكتفي من الأمثلة وهي كثيرة، بمثل واحد قريب جدًّا من موضوعنا الآن، هو مثل الدردنيل. فماذا كانت سياسة الدول قبل الحرب العظمى فيما يتعلَّق بذلك المضيق؟

كانت روسيا تطالب دائمًا بفتح الدردنيل والبسفور وبحرية المرور فيهما؛ لتتمكن من الوصول بأسطولها إلى البحر المتوسط. وكانت إنكلترا، محافظة على قناة السويس،

وعلى مصالحها في البحر المتوسط، تقاوم روسيا في سياستها. ليُفتح الدردنيل — ليبقَ الدردنيل مقفلًا. هذي هي سياسة روسيا وإنكلترا قبل الحرب العظمى.

أما بعد الحرب فقد انقلبت الآية، فصارت إنكلترا تقول ليفتح الدردنيل، وروسيا تصِرُّ على بقائه مقفلًا. ولماذا هذا الانقلاب؟ لأن روسيا بعد الحرب أمست عاجزة عن تهديد إنكلترا في البحر المتوسط، وصارت ترغب في فتح المضيق لتتصل بأسطولها، إذا اقتضى الأمر، إلى البحر الأسود. فالذي كانت تخشاه إنكلترا من روسيا، صارت تخشاه روسيا من إنكلترا. تغيَّرَتِ الأحوال، فتغيَّرَتِ السياسة، والدهر في الناس قلَّب! …

وقد كان لإنكلترا ما تريد في تغيير لبوسها، بالرغم من مقاومة روسيا. فالاتفاق الدولي بخصوص المضايق الذي عُقِد سنة ١٩٢٣ في مؤتمر لوزان، يمنح تركيا الجديدة، استرضاءً لها، حقَّ إقامة حامية في إستنبول، وإنشاء أسطول حربي على أن تفتح المضايق من البحر الأسود إلى بحر إيجة فالمتوسط، وتبقى المناطق إلى جانبها مجردة من الحصون والاستحكامات.

هذا ما أريد أن أنبِّه الآن إليه. ليس من المستحيل الاتفاق الدولي في تجريد جوانب المضايق من الاستحكامات والحصون، فإذا كانت طنجة والصخرة وسبتة مثلث الأخطار الدولية، كما بيَّنت، إذا كانت — حتى في حالها الحاضرة — مخازن بارود يتصل بعضها ببعض، فماذا عسى أن تكون إذا أخفيت في رءوس جبالها المدافع، وأقيمت الحصون؟

أفتستمر الدول في هذه السياسة المؤدية إلى الحروب؟ أيستحيل تجريد جوانب المضيق من أسبابها، وقد جردت جوانب الدردنيل؟

إنه لصوت بعيد هذا الذي يُرفَع الآن في مسألة دولية خطيرة، بعيدة الأسباب، موصدة الأبواب، توحِّدها المصالح الاستعمارية والوطنية، توحِّدها الأطماع القديمة، توحِّدها أهواء السياسيين ومخاوف الوزراء؛ فلا يصل إليها غير القليل من النور، ولكن هذا القليل ثاقب في إشعاعه، وهو يزداد يومًا فيومًا. هو نور الحق الخالد، هو نور الإنسانية الجديدة، المسلَّحَة بالحق الخالد.

وهذا الصوت الذي يُرفَع في سبيل الحق الخالد والإنسانية الجديدة هو — على بُعْده ووحشته — من الأصوات الكثيرة اليوم في العالم، تلك الأصوات المردِّدة للكلمة الذهبية الواحدة، وإن تنوَّعَتْ ألفاظها: السلام على الأرض والرجاء الصالح لبني البشر، الإنسان أخو الإنسان أَحَبَّ أم كره.

هو صوت بعيد قريب، بعيد في لسانه، قريب في روحه ومعناه، لا يُؤخَذ صاحبه بالأوهام، ولكنه على يقين أن أولي الأمر في كراسي الدول العالية سيسمعونه، وإن خفي فلا يضيع في مجموع أصوات إخوانه أنصار الإنسانية الجديدة في العالم، وحاملي أعلامها.

وهذا الصوت الآن يقول: إذا عاد جبل طارق إلى الإسبان فيجب أن تُنزَع الحصون والاستحكامات كلها، وإذا عادت طنجة إلى حالتها الطبيعية في الحكم، يجب أن تبقى كما هي الآن مجرَّدَة من الحصون والسلاح.

وكذلك قُلْ في سبتة والجزيرة وجبالها؛ لا سلام بحصون، ولا حصون بدون حروب تثيرها.

رعيًا ليوم تصبح فيه مضايق العالم كلها مجرَّدة من الحصون والسلاح، عامرة بأسباب السلام والعلم والاطمئنان.

رعيًا وسقيًا ليوم يصبح فيه هذا المضيق، مضيق جبل طارق، بابًا واسعًا حرًّا، ومفتوحًا على الدوام لكل ما فيه خير الأمم المتواصلة المتآخية.

هذا المضيق الذي يصل البحر الأبيض، العظيم بتاريخه ومآثر شعوبه، بالبحر الأطلنتيق، العظيم بما وراءه من عزم جديد، وفكر جديد، ومن الأعمال الجبَّارة في نظامها الصناعي، وأهدافها الإنسانية.

هذا المضيق بين البحرين العظيمين بما كان من تاريخ الواحد، وبما سيكون من تاريخ الآخَر، بل بين العالمين القديم الماشي إلى الفناء، والجديد الوثَّاب الناظر إلى العلياء، هو طريق التجارة اليوم، هو طريق التفاهم غدًا. نعم، وفوق ذلك هو طريق الثقافة الجديدة، ثقافة الجماعات، لا ثقافة الأفراد.

والجماعات في العالم القديم صائرة إلى العبودية والفناء، إن لم تتواصل والعالم الجديد تواصلًا حرًّا مستمرًّا، فتستمد من آفاقه الواسعة نورًا وأملًا، ومن مآثره الصناعية والاكتشافية غذاءً للعقول والقلوب.

الفصل الخامس

من الجزيرة إلى ...

لا نزال في الباب من رحلتنا المغربية، في ذلك الباب، مضيق جبل طارق، العظيم بمدنه العربية، والإسبانية واللاجنسية — الجبلطارقية والدولية. فقد عرَّفناك باثنتين منها، وها نحن أولاء في الطريق إلى الثالثة وأخواتها؛ نسير من الصخرة غربًا، فنجتاز في السيارة، بعد بضع دقائق، الحدودَ الإنكليزية الإسبانية.

ها نحن أولاء عند لالينيا البلدة التي أَسَّسَها النازحون من جبل طارق بعد احتلال الإنكليز في القرن الثامن عشر، وهناك على خمسة كيلومترات من لالينيا تتربَّع فوق هضبة خضراء البلدة الأخرى سان روكيه، حيث كان الضباط الألمان يعلِّمون متطوعي الإسبان في الحرب الأهلية. نسير حول الجون، بين البساتين والكروم، فنصل بعد خمسة كيلومترات أخرى إلى الأرض المقابلة لجبل طارق، وفيها المدينة التي تُدعَى الجزيرة.

أسماها العرب الجزيرة فأخطئوا، شأنهم في غيرها من أمثالها في الشرق والغرب؛ فهم لا يدقِّقون في هذا الوضع الجغرافي، ولا يكلِّفون أنفسهم الإحاطة بالمكان الذي يصح أن يُسمَّى جزيرة. فهل هو موضع تكتنفه المياه من الجهات الأربع، أو من جهات ثلاث، أو من جهتين، أو من جهة واحدة فقط؟ هو «موضع ينجزر عنه المد» وكفى. هو إذن جزيرة.

أما شبه الجزيرة، فهو كذلك وضع حر مطلق الحرية، لا يتقيَّد بالجهات الثلاث التي يكتنفها الماء، أو «ينجزر عنها المد». وهذا الفيروزآبادي يزيدنا من علمه تشويشًا: «الجزيرة أرض بالبصرة.» هل البصرة فيها أو هي في البصرة؟ و«جزيرة ابن عمر بلد

شمالي الموصل يحيط به دجلة كالهلال.» هو شبه جزيرة إذن، لا بلد، وقد يكون فيه بلدان. «... وجزيرة الذهب موضعان بأرض مصر ...» أنعم بهذا العلم الجغرافي وأكرم! «وجزيرة شكر» يصفها «شيخنا» الهوريني في الشرح، فيقول إنها شقر بالقاف، وإنما يقولها بالكاف مَن به لثغة. بورك به، وبدقيق علمه!

وقد أسمى العرب بلاد الأندلس الجزيرة الخضراء، وهي جزء من الـ «بنسولا» الإسبانية. فما هي الـ «بننسولا» بلغة قحطان؟ يقول صاحب محيط المحيط، الناقل عن الفيروزآبادي والمكمل لأغلاطه، يقول بعد أن يحدِّد الجزيرة تحديدًا صحيحًا: «وإذا أحاط «الماء» بها إلا من جهة واحدة قيل لها شبه جزيرة وبحيثجزيرة.» فمن أين جاء المعلم بطرس — رحمه الله — بهذه البحيثجزيرة؟! هل نقلها عن ياقوت أو عن غيره من أساطين علم الجغرافيا الأقدمين؟ وهل كان للعرب الفاتحين علم بها، فعملوا به؟

إن كان المعلم بطرس ناقلها أو مخترعها، فهو يستحق أن يُذكَر في صلوات الأب أنسطانس الكرملي المحترم. بحيثجزيرة! إن استطعت أن تكتبها دون أن تعود إلى صورتها في القاموس — دَعْ عنك لفظها — فإني أبارِك لك فيها. الوداع. بحيـ ... ولكني أخشى، إن ذكرتها ثلاثًا، أن يُعَدَّ ذلك من ذنوبي الكبيرة يوم القيامة!

أعود بك إذن إلى مدينة الجزيرة، القائمة على ساحل الجون، فينجزر عنها المد من الجهة الواحدة فقط، وإن وراءها وإلى جانبها جبلًا يمتد طرفه الجنوبي في انحدار معتدل إلى البحر، إلى باب المضيق الغربي، ولها مرفأ برصيف تُشَدُّ إليه السفن الصغيرة في مرساها، وفي ذلك المرفأ جزيرة صخرية صغيرة — جزيرة كاملة — قد تكون عذر العرب في تسمية البلدة باسمها يوم دخلوها في السنة الثالثة عشرة والسبعمائة للميلاد.

بقيت الجزيرة في حوزة أولئك العرب ستمائة وثلاثين سنة، فحاصرها في أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر الفونس الحادي عشر، ملك قشتالة حصارًا دام عشرين شهرًا، واشترك فيه كثير من الأوروبيين الذين حارَبوا في الشرق، في الحملة الصليبية الأخيرة، فجاءوا يثأرون من عرب المغرب، بعد أن هزمهم عرب المشرق الهزمة الأخيرة.

قيل إن عرب الأندلس استعملوا البارود لأول مرة في ذلك الحصار، ولكنه ذهب سدى؛ فقد انتصر الفونس عليهم، وبعد أن دخل المدينة دمَّرَها تدميرًا.

ثم جاء الإسبان النازحون من جبل طارق فتوطَّنوا المكان، وشرعوا يبنون مدينة جديدة، على أنقاض الجزيرة العربية. في بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

هذه المدينة الحديثة كانت في حصار كجبل طارق الأخير (١٧٨٠–١٧٨٣) مركز الأسطول الإسباني، وهي اليوم مركز أسطول صيادي السمك، فهم يقلعون أو يبحرون من هذا الميناء غازين الأسماك الإسبانية في بحرها، والأفريقية كذلك، حتى الدولية عند شواطئ طنجة، ويعودون بالغنائم إلى معمل الأسماك القائم في مياه الجزيرة بالقرب من المرفأ، وهو معمل مبني كالسفينة فينقل من مكان إلى مكان، أو يهرب إذا ما طارده أسطول الصيادين الآخَرين أصحاب الأسماك الشرعيين. في ذلك المعمل تُهيَّأ الغنائم البحرية وتُعبَّأ للبيع في البلدان الدانية والقاصية الأفريقية والإسبانية.

وفي الجزيرة فوق ذلك — وفوق ذلك المعمل — سماء صافية الأديم في كل فصول السنة، وشمس محبوبة حتى في الصيف، وهي كلها — الشمس والسماء ومعمل الأسماك — تشفع بالمدينة، وبالثلاثين ألف نفس، سكانها.

أما شهرة الجزيرة الكبرى، شهرتها التاريخية الحديثة، فهي ناشئة من المؤتمر الدولي الذي عُقِد فيها سنة ١٩٠٦ ويُسمَّى باسمها، ذلك المؤتمر الذي بدأت به المؤامرات على المغرب وشعبه وسلطانه. الجزيرة — مؤتمر الجزيرة — مؤامرة الجزيرة! …

قطعنا الجسر فوق نهرها المسمى نهر العسل، هو ولا ريب من مسميات العرب؛ لأنهم أول مَن أسموا بعض الأشياء بضدها. نهر العسل! إنه يسوِّد وجه ساحة المدينة، وبُعَيْد ذلك يسود وجه البحر.

قطعنا ذلك الجسر، وبعدنا عن تلك الساحة ونهرها، فدخلنا بعد أن اجتزنا هامش المدينة الجنوبي، أرضًا عامرة بالأشجار، زاهرة زاهية فأفضت بنا الطريق إلى ساحة أخرى اصطفت إلى جوانبها السيارات.

ها هو ذا فندق الجزيرة المشهور، فندق كريستينا، الذي يؤمه المقعدون والقوامون، وخصوصًا الإنكليز منهم. يؤمه المقعدون بشتى الأمراض: الثروة، الشهرة، السيادة، الشيخوخة؛ يؤمونه في فصل الشتاء جميعًا ليستمتعوا بهواء الجزيرة الطيب، وبشمسها المدفئة المنعشة والمجددة، حسب الوهم الشائع، للقوى الجسدية والعقلية. أما الآخرون الذي يؤمون هذا النزل من كل نواحي أوروبا وفي كل فصل من فصول السنة، فهم من أبناء فنيس وكيوبيد — من أبناء الحقيقة لا الخيال.

وفي هذا النزل، في الشهر الأول من سنة ١٩٢٢، في الأسبوع الثاني من الشهر، وفي اليوم الأخير من الأسبوع — أذكر ذلك جيدًا — تناولت الغداء والكاتب الشهير المستر ولز H. G. Wells واثنتين من عالم الحقيقة لا الخيال، فودعت أنا وداعًا له شهرة في أدب الإنكليز عالية — في صفحة من صفحات عبقريهم الأكبر، في رواية روميو وجولييت — إلا أن افتراقنا لم يكن له غد.

كنَّا قد شهدنا، أنا والمستر ولز — تأبى عليَّ العربية الاصطلاح الغربي القريب من التواضع، فلا تجيز المستر ولز وأنا — كنَّا قد شهدنا مع مراسلي صحف العالم، المؤتمر الدولي لتخفيض السلاح الذي عُقِد في واشنطن، عاصمة الولايات المتحدة في الشهر السابق. شهدنا ذلك المؤتمر، وسئمنا السياسة وأخبارها، فجاء ولز إلى الجزيرة ليجتمع بصديقة له وافته إليها من لندن، وكانت صديقتي رفيقة نصف الرحلة أي من نيويورك إلى الجزيرة.

فاجتمعنا في هذا الفندق، وكان عشاؤنا العشاء السرِّي — والأخير! — واليوم بعد سبع عشرة سنة أجلس إلى المائدة وحدي، فلا تذهب الذكرى حواشي الحياة، ولا تذهَب بشيء من تكاليفها.

ولكني وأنا أروِّح القلب في حديقة الفندق ساعة الغروب، بين جمال ممدود منظم من الأزاهير المتضوعة الأريج، فاجأني القدر بأبهج المفاجآت ... جمعني بصديق من لبنان. التقينا تحت شجرة من الصنوبر، بين أغصان الورد وعرائش الياسمين. رأيته واقفًا هناك، قبل أن يراني، وقد فتح ذراعيه فتضوَّع المكان بشذى عجيب ضاعت فيه نفحات الحديقة كلها.

وإذ نسمت ريح المشرق، فتمايلت الأغصان وحَنَتِ الورود رءوسها، رآني صديقي فاهتزَّ مبتهجًا، فهتفت وأنا أسارع إليه: إنك لكريم، يا لبنان، وإنك لوفيٌّ؛ فقد جمعْتَني في الجزيرة، في حديقة الفندق الجميل، بأعز أصدقائي اللبنانيين — بالوزَّال.

ومن أزاهير الوزال العنبرية، أبعث بنفحات طيبات كئيبات، تحملها سبع عشرة من حسان الخيال إلى مَن ودَّعت في ذلك اليوم، منذ سبع عشرة سنة، إلى مَن ودعت ها هنا، في هذا المكان، في هذا النعيم الدائم للمستمتعين والمستمتعات، السخية بهم وبهن الأيام.

عساك أن تكون منهم أيها القارئ الكريم، وعساك أن تكوني منهن أيتها القارئة اللطيفة، وعسى أن يكون حظك وحظَّه، من لطف الأيام وكرمها، حظ المقربين، فيجمعكما ويحملكما إلى الجزيرة، إلى هذه الجنَّة الصغيرة؛ لتتمتعا بنعيمها، وفي قلبه وزَّال لبنان.

واذكرَا، أطال الله أيام نعيمكما، أن في جوار الجزيرة بلدة أخرى تستحق الزيارة، بلدة وراء الجبل، في الناحية الغربية الجنوبية منه، هي طريفة طريف[1] شريك طارق في فتحه وخلود ذكره.

وهي على عشرين كيلومترًا من الجزيرة، طريقها يتثنَّى في الجبل، فيصعد ويهوي بين أضلعه، وبين غابات من الدلم[2] وبساتين من اللوز والزيتون إلى أن تشرف في الجانب الغربي على الأقيانوس، فتدنو من المدينة العربية الوحيدة الباقية في إسبانيا منذ عهد الاستيلاء. هي عربية ببيوتها المربعة، وأسواقها الضيقة المتعرجة، وبسورها الذي لا يزال كما كان في قديم الزمان.

وفي ذلك الزمان، في سنة ١٢٩٢، جاء الملك سنكو الرابع Sancho (شانجه) يقول للعرب: قد أطلتم الإقامة. فحمل عليهم وانتزع المدينة منهم، إلا أنه لم يدمِّرها كما دمَّر ألفونس بعده الجزيرة.

وقد حاوَلَ الفرنسيون في سنة ١٨١٢، في حروب نابليون، أن يستولوا على طريفة فأخفقوا، وما ألحقوا بها كثيرًا من الضرر، فهي لا تزال حتى يومنا، بسورها القديم، وصورتها العربية، تذكارًا حيًّا سليمًا للعرب في إسبانيا.

ودَّعتُ الوزَّال لأستقبل صديقًا آخَر لبنانيًّا، من بساتين العلم والأدب في لبنان، هو ألفريد البستاني أستاذ اللغة العربية في معهد الدروس المغربية بتطوان. جاء والسنيور خوسيه

[1] أبو ذرعة طريف بن مالك النخعي عبر بحر الزقاق، أي المضيق من طنجة، في السنة السابقة لغزوة طارق، فنزل ورجاله البربر في الشاطئ الإسباني المقابل لطنجة، وغزوا هذه البلدة التي سُمِّيت بعد ذلك باسمه. ومؤرخو العرب يكتبونها طريف.

[2] الدلم — واحدتها دلمة يلفظها المغاربة أدلمة — شجر من فصيلة السنديان لحاؤه لين، تُصنع منه سدادات القناني، أو هو شجر الفلين. أما اسمه «دلم» فهو من المسميات المغربية التي تستعصي على المتقصين في أصول اللغة؛ فقد جاء في مادة دلم: «وهو في شجر السلم.» ولكن وجه الشبه لا يتعدَّى اللفظ. لا صلة بين السلم والسنديان، على ما أعلم، وفوق علمي علوم!

أراغون رئيس المستشارية المخزنية من قبل المقيم العام لملاقاتي في الجزيرة، ومرافقتي إلى عاصمة المغرب الشمالي.

وفي اليوم التاسع من شهر مايو سنة ١٩٣٩، ركبنا الباخرة الصغيرة التي تبحر يوميًّا إلى سبتة Ceuta ومنها، فبلغنا بعد ساعة ونصف ساعة الشاطئ الأفريقي، فخفي عن الساحل الإسباني المقابل له، وما خفي شبح الصخرة الجبارة هناك.

أول ما يستوقف النظر ولا يؤنس في شاطئ أفريقيا: تلك القنن والسنام الحادة لجباله الجرداء الموحشة، ولكنها تنخفض في المكان الذي هو قبالة جبل طارق وتلين حروفها، وتنعم وتخضر منحدراتها، فيتكوَّن منها أرجوحة لمدينة سبتة، على رأس إحدى هضبتيها، الطرف الغربي، قلعة قديمة من قلاع سلطنة المغرب، هي الحبس اليوم، وفي أطراف الهضبة الشرقية بيوت موزَّعة وبساتين تتصل بالأرض القاحلة من الجبال العالية.

في هذه الأرجوحة وعلى الهضبتين تتمدد سبتة، وقد كانت جزيرة في الماضي، أي إن الهضبة الشرقية الشمالية وبها المدينة، كانت منفصلة عن البر، ولكنها قريبة منه، فَعَدَت الحد المائي في نشأتها، فوُصِلت بجسر واطئ قلَّمَا يُرَى، وأصبحت كلها شبه جزيرة يكتنفها البحر من الجهات الثلاث: الشمالية والشرقية والجنوبية.

أما المرفأ، فهو من الجهة الشمالية، في هلال من الأرض، مُدَّ من طرفيه رصيفان طويلان هما حاجزان، فصار المرفأ في حلقة غير كاملة ولكنها حصينة — حلقة ذات باب للسفن — ومن وسطها البرِّي يمتد الرصيف الثالث، وهو أقصر وأوسع من الرصيفين الآخَرين، وفيه بناية في شكل بارجة حربية لدائرة الجمرك ودوائر الميناء الأخرى.

عندما دنونا من هذا الرصيف أشار السنيور أراغون إلى الناس المجتمعين هناك، وقد جاءوا يلاقون الباخرة، وقال باللسان العربي الفصيح: هذه هي الجالية اللبنانية في تطوان، جاءت ترحِّب بكم.

فقلت وبي دهشة وإعجاب: كل هؤلاء من لبنان؟ فضحك الرفيقان، وقال السنيور أراغون مميزًا موضِّحًا، وهو يشير بيده إلى بضعة شبان انتحوا في جانب من الرصيف: الجالية اللبنانية هي هناك.

فأبصرت في وجوه أولئك الشبان وعيونهم وحركاتهم إشارات ترحيب لبناني، إشارات عنيفة لطيفة، ورأيت بينهم شابًّا يلبس الطربوش، وآخَر البرنيطة، وآخَر القبعة الإسبانية،

وواحدًا مكشوف الرأس، فقلت في نفسي: هو لبنان في أزيائه المتعددة، الكاثوليكية — أي الجامعة الشاملة. ولكن مهنتهم في هذا المغرب واحدة هي التعليم، يحملون المشعل من مدارس لبنان إلى مدارس تطوان.[٣]

سلمنا سلامًا لبنانيًّا جبليًّا، بضمات وقبلات وواهات، يتخلَّلها السؤالات والتأهيلات.

ثم ركبنا السيارات، فطفنا في المدينة، وجلسنا في أحد مقاهيها الإفرنجية نبرِّد الأكباد — برِّد يا عطشان، قالها الصيداوي فينا — بكأس من عصير الرمان، لا من السوس.

وبعد ذلك صعدنا إلى إحدى الهضبات نشرف على المدينة، فلقينا هناك أول مغربي عربي بالبرنس والعمامة، وهو يمشي والسبحة بيده، مشية الأمراء أو المتعبدين، بخطوات الرفق والسكينة. فحييته أنا بالسلام عليكم، فردَّ التحية بأحسن منها، وحدَّثناه فما استنكف ولا أقصر، فعلمنا أنه شريف من الشرفاء العلويين، وأنه مستخدم في الحكومة المخزنية — أي الخليفية، أي العربية المغربية، وسنزيدك علمًا بها — وأنه بالتدقيق في الجندرمة أي الدرك.

هذا الشريف الدركي كان يسبِّح الله ساعةَ الغروب بسبحة وقعت من نفسي موقع الإعجاب والطمع، فمددت إليها يدي فقدَّمها لي، فقلت: أحب أن أحتفظ بها ذكرًا منكم؛ لأنكم أول مَن شاهدت في أرض المغرب من أهل المغرب. وأظن أن هذا الشعور وقع في نفسه وَقْع السبحة في نفسي، فقال: هي لكم.

أعجب السنيور آراغون أيما إعجاب بهذا الكرم وهذا التساهل، فقد علم الرجل أني مثل رفقائي نصراني، ووهبني مع ذلك السبحة التي كان ساعتئذٍ يعدِّد بها أسماء الجلالة.

وودَّعنا الشريف الدركي والدركي الشريف، والسنيور أراغون يقول مخاطبًا نفسه: كيف هذا؟ كيف هذا؟!

فقلت أخاطبه: إن للعرب في كل مكان لغة يتفاهمون بها ويتآخون. فقال وأعادها مرارًا: كرم عجيب … تساهُل عجيب!

[٣] هم: موسى عبود من جاج، ونجيب ملهم من بهريه، وحسن عسيران من صيدا، وأنطون عيد البستاني من دير القمر. وكان معهم التاجر السوري في جزائر كناري جورج بهمهن من حمص.

عدت وأنا أكتب هذا الفصل إلى مذكراتي، فإذا الصفحة الأولى من الدفتر الأول ما يلي:

الشريف أحمد بن البشير يعقوب العلوي. سبتة. مخزني. متوظف في الجندرمة. صاحب السبحة.

وهذه السبحة هي الآن في لبنان، في أعز مكان من هذا البيت فيه، أمام صورة الوالد رحمه الله.

فيا أيها الشريف أحمد، إن لبنان يسلم عليك، ويا أيها العربي الكريم، إن العروبة تحييك، ويا أيها الأخ العلوي، إن للأنفس التقية المتضعة التائقة إلى العلا، مذهبًا واحدًا قوامه مكارم الأخلاق. «إنما بُعِثت لأتمِّم مكارم الأخلاق» (حديث شريف).

إن سبتة، مثل طنجة فينيقية الأصل، استوطنها القرطاجيون، فاستعمرها بعدهم الرومانيون مرتين، غزاها خلالها الفنداليون المخرِّبون، ثم دخلت في أواخر القرن السابع للميلاد في حوزة الغوطيين، أو كان لملوكهم شبه سيادة فيها.

جاء في تواريخ العرب ذكر إليان أو يليان، حاكم سبتة[٤] وجبال الغمارة، وهو في الأقل روماني الاسم — جوليان. فمَن ولَّى جوليان الحكم؟ وممَّن كان يتلقَّى الأوامر العالية؟

يقول بعض المؤرخين إنه كان يحكم سبتة وما إليها من قِبَل ملوك الغوط، ويقول بعضهم الآخَر إن سبتة في أيام الفتح العربي، كانت آخِر معقل للرومانيين — للروم بلغة العرب — في أفريقية.

فلمَن أخلص جوليان؟ لا أظنه أخلص لأحد حتى ولا لنفسه، فقد كان على ما يبدو لي، مثل حكَّام هذا الزمان المحميين أو الحاكمين في البلدان المشمولة بالانتداب، همه الأكبر أن يظل متربِّعًا على ديوان الحكم، وما كان ذلك بالأمر اللين، وخصوصًا عندما دنا العرب من بلاده؛ فازداد موقفه حرجًا، فما كان بين نارين فقط: الغوط والروم، بل بين ثلاثة نيران: الغوط والروم والعرب، فكيف يستقيم له الأمر؟ وكيف يستقيم هو في تصريف الأمور؟

[٤] هي في الخرائط الأوروبية Ceuta، وكانت تُدعَى Septem في عهد الرومانيين.

يوم وصل عقبة بن نافع إليه بالَغَ في إكرامه وردَّه بهدية[٥] عن سبتة، وعندما زحف موسى بن نصير غربًا ووصل إلى أبواب سبتة، سارَعَ جوليان إليه بالهدايا والرهائن[٦] فأقَرَّه موسى، واستمر في زحفه إلى المغرب الجنوبي.

وعندما قامت الفتنة في عهد آخِر ملوك الغوط، الملك وتزا Witiza (٦٩٧–٧١٠)، فنازعه رودريق Roderic الملك، وجلس بعد وفاته على العرش، أرسل أهل الملك المتوفى إلى جوليان يستنجدونه على رودريق، وكان طارق بن زياد حاكمًا يومئذٍ في المغرب الأقصى من قِبَل موسى بن نصير، ومزعجًا لجوليان في ولايته، فرأى هذا الروماني الفرصة سانحة للتخلُّص منه، فساعَدَه في إعداد الأسطول ليجتاز المضيق إلى إسبانيا، ويحارب رودريق … ساعَدَه ليُبعِده.

فراح طارق فاتحًا — عبر بحر الزقاق من سبتة لا من طنجة[٧] — وكان منتصرًا كما تقدَّمَ.

أما سبتة، فلم يدخلها العرب في عهد جوليان، ولكنهم بعد موته استولوا عليها صلحًا، كما يقول ابن خلدون.

ثم تداوَلَها ملوك المغرب، فدخلت في حكم الأدارسة (٨٢٥م)، ثم في حكم الأمويين (٩٤٨م)، ثم استولى عليها يوسف بن تاشفين (١١١٤م)، فالموحِّدي عبد المؤمن (١١٨١م)، وقد خلف الموحدين بنو مرين، وانتزعها من بني مرين البرتغاليون.

قد اختلفت رواية المؤرخين العرب والإسبان في تاريخ هذا الاستيلاء الأخير، فقال العرب إن سبتة خرجت من أيدي ملوك المغرب يوم الأربعاء في منتصف جمادى الآخِرة سنة ٨١٨هـ/١٤٦٦م، وبقيت في ملكهم حتى سنة ١٠٨٠هـ/١٧٣٥م، فانتزعها منهم الإسبانيون.

وجاء في دائرة المعارف الإسبانية أن احتلال البرتغاليين لسبتة كان في سنة ١٤١٥، وأنها ضمت إلى الممتلكات الإسبانية سنة ١٥٨٠.

[٥] «فلقيه بطريق من الروم اسمه يليان، فأهدى له هدية حسنة، ونزل على حكمه» (الفتوحات الإسلامية، للسيد أحمد بن ذيني دحلون).

[٦] «وكانت «سبتة» يومئذٍ منزل يليان ملك غمارة، ولما زحف إليه موسى بن نصير صانَعَه بالهدايا، وأذعن للجزية فأقره عليها، واسترهن ابنه وأبناء قومه» (ابن خلدون).

[٧] كانت سبتة في تلك الأيام ولا تزال «فرضة المجاز».

ولا خلاف في أنها خرجت من أيدي ملوك المغرب في القرن الخامس العشر، بين ربعَيْه الأول والثالث، وما استطاعوا استخلاصها لا من البرتغاليين ولا من الإسبان بعدهم. فهي لا تزال من ممتلكات إسبانيا، مدينة إسبانية مثل الجزيرة وتابعة مثلها لمقاطعة قادس.

كانت سبتة في عز الدول المغربية من أكبر المدن وأشهرها، في العمران وفي العلم والأدب، فنبغ فيها العلماء والمؤرخون، مَن اشتهروا في أيامهم، ولم يبقَ من مآثرهم غير بعض التآليف الخطية، منها: «العيون الستة في أخبار سبتة» للقاضي أبي الفضل عياض اليحصبي، و«مغازي العرب» للحافظ أبي الربيع سليمان بن سالم، و«اختصار الأخبار عمَّا كان بثغر سبتة من سني الآثار» لمحمد بن القاسم السبتي.

وفي هذه المخطوطة الأخيرة إحصاءات للمدينة مدهشة وغير مستغربة؛ فلمؤرخي العرب في الشرق والغرب شغف بالإحصاءات لا يوازيه شيء من التدقيق.

قال المؤرخ محمد بن القاسم إنه كان في سبتة يوم احتلَّهَا البرتغاليون ألفُ مسجد، ومائتان وخمسون شارعًا، واثنان وعشرون حمَّامًا عموميًّا. سبحان الله الموزِّع الخير في مدن عباده! فلو فرضنا أن عدد سكان سبتة كان خمسين ألفًا، لكان لكل خمسين نفسًا مسجد، ولكل ٢٢٧١ شخصًا حمام.

أما اليوم فقد تغيَّرَتِ النسبة في تغيُّر السكان؛ فقد زاد الله في سكان سبتة النصارى، وأنقص من عدد المعابد — الكنائس — فيها، فلا تبلغ الخمسين كنيسة، ويُربِي عدد السكان على السبعين ألفًا، ليس فيهم من غير الإسبان أكثر من اثنين أو ثلاثة في المائة.

سبحانه وتعالى المضيِّق على النصارى في كنائسهم، المعوِّض عليهم بالملاعب والمقاهي والحانات!

وسبحانه ثم سبحانه المعسِّر على المسلمين في الملاعب والحانات، الموسِّع عليهم في المساجد!

ولكن لم يبقَ لهم اليوم في سبتة غير مسجد واحد، بنته الحكومة الإسبانية حديثًا لأولئك الأقلاء الموحدين، المقيمين في ربض من أرباض المدينة، وأكثرهم معسكرون في المعسكر الإسباني ... لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ!

الشريف أحمد أخونا في العلويات من أولئك المسلمين، فبعد أن ودَّعناه خرجنا من سبتة في طريق تتعرج بين الرُّبَى، وقد غُرِست جوانبها ها هنا بشجر الكينا، وفُرِشت هناك بالكروم، فوصلنا بعد قليل إلى «كستياخو» أي القصر الصغير، وفيه الجمرك الغربي الخليفي.

ولكننا لا نزال في أرض إسبانيا الأفريقية، التابعة لمدينة سبتة. فمن المدينة إلى القصر الصغير نحو خمسة كيلومترات، وبعد القصر الصغير بكيلومتر واحد يظهر إلى اليمين على رأس الرابية صرح مكتنف بالبساتين، هو المدرسة الحربية الإسبانية الداخلة في منطقة المدينة، فنعدُّ بعد ذلك الأمتار إلى الحدود، وندخل أرض المغرب العربي.

الفصل السادس

معضلة قديمة العهد

لا يزال التملك من الحقوق المشروعة اليوم في العلم، لا ينفيه تعليم من التعاليم الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية، ولا تنفيه حتى الشيوعية؛ فالتملك الجزئي الفردي يستحيل فيها تملكًا كليًّا — حكوميًّا وطنيًّا.

ولا يزال هذا الحق المشروع الفردي أو الكلي يُثبَت ويؤيَّد بالقوة، ولا ينفي ذلك وضع من أوضاع الحكم، ديمقراطيًّا كان أم دكتاتوريًّا، ولا تنفيه فلسفة من الفلسفات العقلية، النظرية والعملية؛ لأنها تقوم كذلك بنوع من القوة، أي بقوة البرهان والمنطق.

على أن المنطق والبرهان مقيَّدان في هذا الزمان بشتى العوامل السياسية والاقتصادية والثقافية — بالدعاية، بالمال، بالتقاليد، بالتعليم الجامد الرسمي. وبكلمة أخص وأوضح هما مقيَّدان بالصحافة وأساليب النشر كلها، وبالمصالح المالية والسياسية، والعقائد الموروثة، والسيادة التقليدية الجامدة، سواء في السياسة، أم في الدين، أم في الاجتماع.

وليس من فصل فيها بعد الجدل والنزاع، غير القوة، القوة المادية أو القوة السياسية التي للسلطة بالاقتراع، بَيْدَ أن للاقتراع في الحكومات الديمقراطية أساليب شاذة، كما نعلم، قوامها الدعاية والمال.

أما القوة الروحية، فهي الهدامة لكل ما سواها من القوى، إذا ما وُضِعت هذه القوة موضع العمل. تثبت حق الإنسان في تقرير مصيره الدنيوي، ولا تثبت حق التملُّك. لا أقول: «الملك لله»، وإن قلتها متصوفًا، أصلح بها ظنًّا، أو أضمد أملًا فلا أكملها. لست مردِّدًا ما يردِّده أتقياء المسلمين؛ لأن الكثيرين من الذين يأخذون الملك بالسيف، وأولئك الذين يأخذونه بالمدافع والقنابل والغازات السامة، يزعزعون عقيدتنا بحكمة الله وعدله.

ولكني أقول: «الأرض لله»، وليس للإنسان غير ثمرة عمله ضمن نظام مبني على الحق الإلهي في التملك، ومؤيد له.

فهل بلغ الإنسان في ارتقائه العقلي والروحي هذه الدرجة العالية؟ لا أظن أن أحدًا من المفكِّرين و«الفردوسيين» يدَّعِي ذلك. أما أن الإنسان سائر إلى تلك الحجة، مصعِّد دائمًا في تطوره وإن وقف أحيانًا أو عاد نازلًا درجة أو درجات، فمما لا ريب فيه. وليس من روَّاد الفكر المغامر، أو من أعلام الرقي المستمر، أو الدائم وإن تقطَّع، مَن ينكر ذلك.

أعود إذن إلى كلمتي الأولى: التملك من الحقوق المشروعة اليوم في العالم، ولا يزال الحق المشروع يُثبَت ويُؤيَّد بالقوة.

على أن في زماننا نزعة رجعية في حق التملُّكِ، لا يثبتها البرهان والمنطق، وقد تُثبِتها القوة، وإن نفى البرهان والعقل عوامل تلك النزعة كلها، العوامل القومية الدينية والسياسية والاقتصادية، فإن القوة بيد النازعين تلك النزعة تتغلب على العقل والبرهان، تتغلب في فلسطين مثلًا أو في أرلندا أو في ألمانيا أو في أفريقيا الشمالية.

وقلَّمَا يقع الاستشهاد بالتاريخ في دحضها ومقاومتها، بل قد يؤيد في مناقضاته الوجهين. فإذا أنا قلتُ مثلًا: لا حق للإسبان في أفريقيا. تقول أنت: ولا حق للعرب؛ إن أهل البلاد الأصليين، بموجب ما هو معروف من التاريخ، هم البربر، والبربر أحياء يُرزَقون أو لا يُرزَقون.

نعم، إن البرهان يؤيِّد حقهم، ولكن القوة تتغلب على البرهان.

وإن قال لي العربي المسلم: ولكن البربر مسلمون، وإخوان — عملًا بالقاعدة الإسلامية — للعرب المسلمين، قلت له: وقد كانوا قبل إسلامهم نصارى ويهودًا ووثنيين! فيحق لهم، والحال هذه، أن ينزعوا النزعة الأرلندية أو الألمانية أو الصهيونية، ويُخرِجوا — إن استطاعوا — الإسبان والعرب من البلاد.

أما أنهم عاجزون، فالعجز لا يُفسِد البرهان، وأما أنهم لا يستطيعون أن يؤيِّدوا البرهان بالقوة فذلك من سوء — لا، ذلك من حسن — حظهم. فما زال الجهل متفشيًا بينهم، والبداوة سائدة في معظم أحوالهم، وهي تولِّدُ مع الجهل كل عوامل التفرقة والتخاذل والانحطاط، وما لهم، والحال هذه إلا أن يقبلوا بالواقع ويذعنوا لإمرته.

وأما العرب المتغلبون عليهم، فشأنهم في مجمله غير ذلك. العرب مثل الإسبان فاتحون، وقُلْ — ولا حرج — دخلاء، ولكنهم على تفرُّقهم اليوم وتخاذُلِهم غيرُ عاجزين. إنهم لمن الشعوب العريقة في الحضارة المثبتة حقوقها القومية، بما لها من المآثر المجيدة في نشر أعلام التمدُّن، وفي تعزيز أسبابه علمًا وعملًا.

ذلك يصح أيضًا في الإسبان، فالأمر بين العرب والإسبان ليس كالأمر بينهم وبين البربر. يحق للعرب أن يقولوا للإسبان: إننا وإياكم في الحضارة، في ماضيها على الأقل،

أقران وشركاء. ولا يحق للبربر أن يقولوا هذا القول، لا للإسبان ولا للعرب، على أنهم في تقاليدهم وعاداتهم، في مجمل أحوالهم، أقرب إلى العرب منهم إلى الإسبان، وهم للعرب إخوان في الدين. من المقدور إذن أن يكونوا والعرب أمة واحدة، فيضاف حق البربر في البلاد إلى حق العرب، وترجح كفتهم في ميزان الاستيلاء. أفيحق لهم، وهذا حالهم أو مصيرهم، أن يُخرِجوا الإسبان من البلاد؟ أجيب: نعم. إذا شاءوا ذلك جميعًا واستطاعوا.

هذه الملاحظات نشأت عن شعور ملكني عندما دخلت سبتة وعلمت شيئًا من ظاهرها، فقد كنتُ أتوقَّع أن أرى على شاطئ أفريقيا مدينة أفريقية عربية، فرأيت مدينة أوروبية إسبانية في كل أحوالها ومظاهرها، فنبا القلب وخاب الأمل.

ولكني بعد أن عرفت شيئًا من تاريخها، وعرفت أن الإسبان تملَّكوها كما تملَّك العرب أفريقيا، وقفت متبصِّرًا متأملًا، فإن كان شعوري لم يتغيَّر، فقد تغيَّر نظري. أول مَن تغلَّب على صاحب البلاد المغربي العربي البرتغاليون، كما أسلفت القول، فانتزعوا سبتة من ملكه، ثم تغلَّبَ الإسبان على البرتغاليين فضموها إلى ملكهم، كما تغلَّبَ عرب الفتح على البربر والغُوط واحتلوا بلادهم في قديم الزمان. إذن الحق في الأحوال الثلاثة واحد ولا استثناء.

هذا في الماضي، أما اليوم فقد دخل في الأمر عامل جديد فغيَّر بعض صورته. فإن قلنا إن الإسبان هم في سبتة، مثل العرب في باقي المغرب، أصحاب حق مشروع، ما دامت القوة هي التي تثبت الحق وتؤيده، فإننا نقول كذلك إن احتلال الإسبان لقسم من المغرب هو للعرب يوجب عليهم التنزُّل، تلقاء ذلك، عن بعض حقوقهم في سبتة.

ونقول أيضًا إن حقيقة الفتح فالاحتلال لا تغيِّر الحقائق الجغرافية والاقتصادية، ولا تلبس الحقيقة السياسية ثوب الحق الدائم والعصمة. إن سبتة جزء من الأرض المحتلة، وليس بينها وبين العاصمة تطوان غير بضعة وثلاثين كيلومترًا — ولا جبال ولا أنهر تفصل بين المدينتين، كما تفصل الجبال اللبنانية والشرقية مثلًا بين بيروت ودمشق. فهل تدوم سيادة الإسبان المطلقة في مدينة الساحل إذا كان حقهم المشروع لا يصطبغ بشيء من العدل الاستعماري، أو بشيء من الأقل من الكياسة والحكمة؟ إن تقسيمهم لبلد أفريقي هو مضر بمصالحهم ومصالح المغاربة العرب. فلماذا، وهم الحامون لجزء من المغرب لا تُضم المدينة ومنطقتها إلى الأرض المحمية، فتشترك فيما لها وما عليها من حقوق وواجبات؟ لماذا — بكلمة أخص — لا ينقل الجمرك المغربي الخليفي من كستيَّاخو إلى سبتة، فتصير هذه المدينة الميناء السياسي والاقتصادي للمغرب الشمالي، كما هي ميناؤه الطبيعي؟!

أسأل هذه التساؤلات وأنا أشعر أن هناك معضلة أخرى قديمة العهد تكمن في الجواب مهما كان من حقيقته السياسية أو الشرعية. فالإسبان من الفرنجة، ومن صميم النصرانية، والنصارى الفرنج السائدون في البلدان الإسلامية لا يزالون يشكُّون في استطاعة الحاكم الإسلامي أن يُقِيم العدل في رعاياه جميعًا: الأهالي والأجانب، المسلمين وغير المسلمين، على السواء، وهم يتذرعون بالنصارى المسودين، أو بالأقليات الأجنبية؛ ليثبتوا ملكهم أو حمايتهم أو انتدابهم في البلاد التي يحتلون ويستعمرون.

على أن في إسبانيا اليوم عقلية سياسية جديدة، يتوقَّع من أصحابها المسيطرين أن لا يعيدوا أخطاء الماضي، ولا يستمروا فيها. فإن السياسة الاستعمارية القديمة أمست في أيامنا عقيمة ذميمة، وهم مدركون ذلك، ومباشرون في المغرب سياسة جديدة كما سنرى. فهل يصح معها التجزئة في البلاد التي يسيطرون على مقدراتها؟ وهل يجوز — وهم أقرب الأوروبيين إلى العرب، وأميلهم إلى التعاون النزيه المثمر خيرًا للشعبين — أن يتشبثوا بتقاليد سياسية قديمة لا خير فيها لأحدهما؟

ستعرض هذه المسألة لنا في مواقفَ أخرى من هذه الرحلة، فنعود إلى بحثها متقصِّين ما تغيَّر منها، وما تطوَّر، وما كان جامدًا لا يتغيَّر ولا يتطوَّر.

الفصل السابع

المدينة البيضاء

الشاطئ الأقصى للمغرب الأقصى يبرز برأس ضخم من البر، عرضه من سبتة إلى سبارتل نحو خمسين كيلومترًا، وطوله من كلا الجانبين الغربي والشرقي، أي من طنجة إلى أصيلة، ومن سبتة إلى واد مرتين، نحو أربعين من الكيلومترات، فتكون المدن الثلاث: طنجة وتطوان وأصيلة، في مربَّع من الأرض هو شبه جزيرة، ويكون لجوها ومجرى الرياح فيها مزية خاصة كما سنذكر فيما بعدُ.

وهذا الشاطئ الذي نزلنا عند طرفه الشمالي الشرقي في سبتة، بعد أن يصل جنوبًا إلى واد مرتين، يمتد شرقًا نحو مائتي كيلومتر إلى مدينة مليلة الكائنة في الناحية الشرقية من رأس برٍّ آخَر، ضيِّق طويل، تقطنه قبيلة بني سيغار، وهو في صورته على الخارطة شبيه بالـ «سيكار».

هذا هو الشاطئ الشمالي لمنطقة الحماية الإسبانية، وقد أكل البحر منه عشرة آلاف كيلومتر مربَّعة فبعدت أفريقيا من أوروبا، بعد أن حاولت أن تعانقها في إسبانيا عند بحر الزقاق، أي مضيق جبل طارق.

وقد بعدنا نحن من إسبانيا التي تعانِق اليوم أفريقيا في سبتة، وتبثها لواعج الغرام، فبلغنا بعد أن اجتزنا الحدود، قرية رنكون Rincon أي الزاوية؛ لأنها قائمة بل نائمة عند منعطف من الشاطئ. يظهر أنها نائمة ولكن أكثر أهلها، وهم من الإسبان، يخرجون في النهار إلى البحر إلى البحر لصيد السمك. هي مهنة أهل رنكون، وساحة السمك في تطوان تشهد لهم بالمهارة والنشاط، كما يشهد البحر عليهم بالغزوات المهلكة لرعاياه.

بدا لنا ونحن نمر بالقرية، بيت أبيض جميل، بل قصر صغير هندسته أندلسية عربية، فظننته قصر الرئيس لنقابة الصيادين، وما هو غير محطة لسكة الحديد![1]

ومن رنكون نستمر في السير متجهين اتجاه الشاطئ، وإن بعدنا نحن قليلًا عنه، أو غاب هو عن الأنظار. فندنو، بعد نحو عشرين كيلومترًا، من واد مرتين، بلدة الاصطياف والسياحة لأهل تطوان — هي منَّا إلى اليسار — ونمر بمروج منطقة بالبيوت الصغيرة البيضاء القريبة من العاصمة.

وهاك أهل العاصمة، من رجال ونساء، وصبيان وبنات، هاكهم في الطريق وفي تلك المروج زرافات زرافات. فهل خرجوا يا تُرَى لملاقاتنا، كما كان يفعل أهل اليمن عندما تدنو قافلتنا من مساكنهم؟

سألت السنيور آراغون هذا السؤال، فظنني مازحًا أو متهكمًا، وما ساءني مع ذلك ما علمت، بل كنت مسرورًا به ومتيمنًا.

فلقد اتفق أن وصلنا إلى تطوان في اليوم الثاني من عيد المولد النبوي ... وهذه الجموع من أتقياء المسلمين، في الأثواب البيضاء الناصعة البياض، خرجت من المدينة للاحتفال بالعيد في المروج والبساتين.

رأيت بين النساء مَن هن محجبات، ومَن هن سافرات، وقد حملت السافرات على رءوسهن قبعات (برانيط) القش الفضفاضة كالمظلات؛ فالمحجبات هن من المدينة، وأخواتهن السافرات المبرنطات من القبائل.

هو الشعب المغربي، وقد اختلط بَدَوه بحضره، وكلهم في بهجة العيد، ولا أثر للبهجة في الوجوه. يمشون ساكنين قانتين، كأنَّ على رءوسهم طيور الجنة، أو كأنهم مثل الإنكليز يستقبلون المسرات بوجوه ألفت الكآبة!

أما أنهم في تجمهرهم متمدنون أكثر ممَّن يظنون أنهم شعب المدينة المختار، كالأمريكيين مثلًا أو الأرلنديين المتدافعين المتصاخبين في الاجتماعات، فهذه السكينة السائدة في سيرهم أو تلك التؤدة المرافقة لصفوفهم، تشهد بذلك شهادة صادقة عادلة.

انقسمت الجموع في الطريق شطرين ليفسحوا لسيارتنا، فأدركتنا بركة الرسول من الجانبين، وكشفت عن مشهد عند منعطف الوادي فيه دهشات وبركات.

[1] في المنطقة ثلاثة خطوط حديدية صغيرة. هذا بين سبتة وتطوان (٤٥ كيلومترًا)، وآخَر بين العرائش والقصر الكبير (٢٥ كيلومترًا)، وأقصرها بين الناضور وتستوتين.

جئت المغرب وفي الذهن صورة لمدنه وقراه لا تختلف عمَّا كنت أشاهده في اليمن وفي نجد؛ هي صورة بسيطة ذات خطوط قليلة، وأشعة تخفي ما في الظلال من إشارات لكرامة وادعة، وآيات بالفقر صادعة. فلما أطللت على تطوان المنبسطة في عرض الجبل، المشرفة على واد مرتين[٢] ونهره، عرتني دهشة سرور وإعجاب.

هي مدينة، مدينة كبيرة، مدينة عامرة، هي مدينة مغربية تلبس بيوتها البرانس البيض مثل أهلها — هي المدينة البيضاء.

وها هو ذا إلى اليسار صرْحٌ آخَر أبيض جميل، صرح منمنم أندلسي عربي، هو المحطة الكبرى لخُطيْطات سكة الحديد.

وها هي ذي إلى اليمين الحديقة العامة، وقد تدلَّتْ من جدرانها العرائش الزاهرة بما يزري بألوان الشمس الغاربة.

دخلنا المدينة ساعة الغروب، فرحَّبَ بي في الفندق مستشار سمو الخليفة مولاي الحسن بلغة عربية مفخَّمة. ليس حضرة المستشار من المغرب أو من المشرق، بل هو من إسبانيا، من أقحاح الإسبان، وقد هداه الله في شبابه إلى مدينة العلم اللبنانية، إلى بيروت، فشرب من مناهل العربية في مدرسة الحكمة، وهو لا يزال يذكر الموارد الأخرى التي يَرِدُها طلبة المدارس في تلك المدينة. أكتفي الآن بهذه الكلمة تعريفًا بالسنيور إميليو الفارس — إميل فارس — طوباو. فقد رحَّبَ بي كما قلت باسم الخليفة الحسن كما رحَّبَ السيدان آراغون والبستاني باسم المقيم العام.

انتهت الرسميات أو كادت، فكنت شاكرًا مسرورًا، وقد أكَّدَ لي سعادة المقيم، أو كما يقول المغاربة مجادة المقيم، السنيور دون خوان بايبدر،[٣] الذي تفضَّلَ فاستقبلني في صباح اليوم التالي؛ أنه يرفع ستار الرسميات بينه وبيني. قالها باللغة الإنكليزية التي يحسنها: No protocol between us.

ثم اشترط عليَّ شرطًا واحدًا، وهو أن أكون صريحًا كل الصراحة فيما أبديه له من رأي أو ملاحظة أو انتقاد بعد المشاهدات والدرس.

---

[٢] الواد — بتسكين الدال — هو اختصار الإسبان والمغاربة للوادي، وهو يُطلَق كذلك على النهر، فيقولون: واد مرتين — مرتيل Martil بالإسبانية — أي نهر مرتين وواديه.

[٣] يكتب بالإسبانية Beigbederg ويُلفَظ: بايبدر لا بيكبدر.

وقال: إني صريح الكلمة فأحب الصراحة، ولا أزدري النصيحة، فلك أن تزور أي مكان، وأية بلدة، وأية قبيلة تشاء، فتشاهد ما نحن قائمون به من الأعمال الإنشائية، العمرانية والثقافية والصحية، وتنبِّهنا إلى ما قد يكون فيها من نقص أو خلل، وهذا الأستاذ البستاني يرافقك حيث تشاء، هو رفيقك ودليلك في المدينة وخارج المدينة — في المنطقة كلها — ومكتبي هذا مفتوح لك تجيء في أي وقت تريد، للحديث إن لم أكن مشغولًا، أو للاستراحة ومطالعة الجرائد.

أما الاستراحة، فقد علمت بعدئذٍ أنه عندما يبغيها هو يكون في حاجة شديدة إليها، يفرُّ هاربًا من مكتبه إلى بيت بناه لهذه الغاية في العرائش، خارج المدينة. فهل كانت دعوته هذه من باب المجاملة؟ أو أنه أراد أن يشركني في الفرار من ذلك المكتب إلى العرائش؟ ما تسنَّى لي أن أتأكَّد أحد الأمرين؛ لأني خلال الأسابيع الستة التي شُغِلت فيها بالمغرب وأحواله، ما عرفت إلى الراحة سبيلًا أو زنقة، أو منفذًا سريًّا!

فمن رحلة إلى رحلة، ومن زيارة معهد إلى زيارة قبيلة، ومن مقابلات في الفندق إلى مقابلات في المآدب وحفلات الشاي، ومن ساعات الدرس والاستقصاء إلى ساعات الكتابة والتمحيص …

فكيف السبيل إليكِ، يا ربة الفراغ والسكينة، يا طبيبة الأجساد المكدودة بحوافر الليل والنهار، يا حبيبة العقول المشدودة الأوتار، يا مريحة الأعصاب، ومزيلة الأوصاب، أين أنتِ؟

يا برج العاج المسحور، يا باب الفرح والحبور، يا مضمخة الأرواح بطيب الجنان، يا ربة اللاشيء واللازمان، كيف السبيل إليك؟

نشدتك في المغرب فقامت العقبات كالأطلس بيني وبينك، العقبات التي ذكرت قليلًا منها، وما ذكرت عادات القوم، في الأكل والنوم، فيما يحسبونه الوقت اليقين للصالحين؛ فالغداء في الساعة الثالثة بعد الظهر، والعشاء في الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الغروب، والنوم بعد نصف الليل … هو المغرب! هي السياحة في المغرب!

ونحن لا نزال في أولها، في عاصمة البلاد — كتب الله لنا ولك الخير والسلامة.

تطوان — وتطاون، وتطاوين — هي مدينة حديثة العهد، لا صلة لها بجلال العتق والعدم، ليست بفينيقية أو بيزنطية كسبتة وطنجة؛ فقد تخططت في أواخر القرن الخامس عشر عندما بدأ العرب ينزحون من الأندلس، وأشرف على بنائها، والأصح على

بناء السور وبيوت المهاجرين الأوَل، القائد علي المنظري من شفشاون،[٤] هذه المدينة قائمة في عرض الجبل الشمالي فوق الوادي الذي يجري فيه نهر مرتيل أو مرتين. وبما أنها في شبه جزيرة، كما تقدم، وفي مركز تكثر حوله مضايق الجبال، فهي عرضة للرياح الغربية والشمالية والشرقية، تعصف في واديها من الأقيانوس، ومن البحر المتوسط، في كل فصول السنة فيسوء جوها، ويكثف هواؤها، فيشتد بردها في الشتاء ولا ينكشف في الليل حرُّ نهار الصيف.

ومع أن الحر شديد، ويبدأ غالبًا قبل شهر يوليو، فقد جئتها في أوائل مايو، وأقمت فيها حتى آخِر الشهر التالي، وما اضطررت إلى تغيير أثوابي الشتوية. ويوم غادرتها كان الجو معتدلًا، فما شعرت بالحر قبل وصولي إلى الجزيرة، وقد بلغ أشده في جبل طارق؛ مما يدل على أن الحرارة الجوية لا تتقيد بدرجات الأرض من خط الاستواء شمالًا أو جنوبًا فقط، بل هي تتصل بعوامل أخرى — بمجاري الرياح بالأنجاد من الأرض والأغوار، بالمنفرجات منها والمضايق، برِقَّة الهواء وكثافته، وخصوصًا بما فيه من رطوبة أو جفاف.

وعلى ذكر الجفاف أدوِّن ها هنا الحقيقة الجغرافية الأخرى، وهي أن تطوان، بل هذه المنطقة من المغرب الأقصى، هي مصر وسوريا في إقليم واحد، فيسود فيها القيظ خمسة أشهر في السنة، وتنقطع الأمطار في شهر أبريل، ولا يعود خيرها حتى أكتوبر. أما مناخ تطوان، فهو جيد على الإجمال، وبالرغم من اشتداد البرد في فصل الشتاء، قلما يسقط فيها الثلج إلا كل فترة من الزمن. قيل لي إنه في فبراير سنة ١٩٤٣ سقط الثلج في المدينة بغزارة ما شهده التطاونة الطاعنون في السن مثلها منذ أربعين سنة.

لا أظن أن الرياح تؤثِّر كثيرًا أو قليلًا في المناخ، ولكنها حقًّا مزعجة، وليس لها وقت أو قاعدة، إن عصفت من الغرب أو من الشمال الشرقي — وحينًا تتفق الريحان، فتعصفان

[٤] وجاء في تاريخ ابن خلدون، المجلد السابع ٢٣٧ ما يلي:

> لما استقرَّ الأمر للسلطان أبي ثابت المريني بعد أن قضى على أبي العلاء بطنجة، أمر باختطاط بلدة تيطاون (٧٠٧هـ/١٣٠٨م) لنزول معسكره فيها والأخذ بمخنق سبتة … وفي خلال ذلك اعتلَّ السلطان فمرض، وقضى أيامًا قلائل، وهلك في ثامن صفر من سنة ٧٠٧. فالمنظري إذن كمل العمل الذي باشره عمال السلطان أبي ثابت المريني.

معًا في تطوان — فقل العياذ بالله. فلو خطَّط المنظري ورجاله المدينة في الناحية الشمالية الشرقية، أي في السهل المواجه للبحر المتوسط؛ لَحَالَ الجبل بينها وبين الرياح الغربية، أو خفَّفَ في الأقل أثر عواصفها، ولكنهم اختاروا مركزها الحاضر؛ لكونه على ما يظهر شبه حصن في منعطف الجبل، وما همهم مهب الرياح، أو أنهم لم يدركوا مصادرها ومجاريها حتى يتجنبوها.

تمتد تطوان في وسط الجبل شرقًا بغرب، وتُشطر شطرين: الجنوبي الأوروبي، والشمال الشرقي الإسلامي. كان يحميها ويضمن الطاعة فيها، حصنٌ قديم فوقها على رأس الجبل، تقوم إلى جنبه اليوم الثكنة الجديدة للجيش النظامي.

من ذلك الحصن أشرفنا على المدينة، والجبال والسهول أمامها وحولها. هو مشهد مألوف في محاسنه ولا يتعالى، يتلون بألوان تسر ولا تبهر، يُدخِل على القلب السكينة غير مقرونة بشيء من الروعة أو الهول، فهو أقرب إلى جبال فلسطين منه إلى لبنان، ولكنه في الأسماء شبيه بالبلدين، تتعدد اللغات فيه كما تتعدد عندنا، وهي في الجبال مثلها في القرى والقبائل، عربية وبربرية ولاتينية وفينيقية.

هاك الجبال الجنوبية مثلًا، وفيها جبل جرجس Gorgues، ووراءه عند الأفق جبل بوزيتون؛ علو الأول ثمانمائة متر، وعلو الثاني مائتان وألف من الأمتار.

وفي سفح جبل جرجس الأخضر بضعة مشادر،[٥] منها بوسمْلان وبنو صالح وسافارين، يتخللها بيوت مبيَّضة منتثرة في البساتين، هي القوافي البيضاء الغنَّاء للقصيدة الزمردية، وهي أجمل ما في المشهد أمامنا.

وإن بين الجبلين وادْ مرتين، فينساب النهر بين سهول مزروعة، وبساتين من التين واللوز والزيتون، تمتد حتى المستنقعات الغربية من البحر، ومن مصب النهر عند البلدة المشاركة له في الاسم التي كانت ميناء تطوان في الماضي.

قلت إن المشهد مجرد من الروعة، ولكن في الجبال الجنوبية أضداد تدنو من مجموعها من ذلك الجمال الهيَّاب؛ فمن البساتين المحيطة بالبيوت، إلى المروج المنبسطة بينها، المنحدرة إلى الوادي، إلى الصخور فوقها المزينة صدورها بالنباتات الطيبة الأريج، إلى القنن المسننة المشمخرة فوق الأعالي الجرداء الموحشة — هاك سُلَّمًا موسيقيًّا جبليًّا.

---

[٥] المشدر بلغة الأولين هناك والمتأخرين: القرية.

تُدعَى هذه الناحية الجناح الأخضر، وإن لتطوان في الطرف الجنوبي منتزهًا و«كرنيشًا» يشرف على ذلك الجناح، ويزيد جماله للمتنزهين والمتنزهات في ساعة الغروب.

أما الجبال في الناحية الغربية، فهي على شيء من البُعْد يذهب بمحاسنها الجزئية، فيتجلَّى في مجموعها ذلك الجمال الشعري الغنائي، البعيد القرار والصدى. وأما أسماؤها، فلك فيها الرأي والترجيح. ذاك جبل بني قرِّش قد تردُّه إلى ما تظنه الأصل العربي — قريش — وقد تكون مخطئًا، وذلك ضهر القيطون، نصفه عربي، لا أناقشك فيه، والنصف الآخَر «القيطون» أتون لعلمك وعلمي. أما السهل الذي يتسع في امتداده إليهما، فهو في نظري — ولا خطأ ولا خداع — صورة مصغَّرة لسهل البقاع.

ليس في أبنية تطوان، ولا في مآذن مساجدها، شيء من الشموخ والعظمة؛ فالبيوت مثل المساجد تتسم بميسم البساطة والاتضاع، وهي لا تتجاوز الطابقين، سطوحها بيضاء مثل جدرانها، وتكاد تكون متواصلة.

أما البيوت في الناحية الإسبانية، فهي أوروبية ذات أربع طبقات أو خمس، فيها أمثلة حسنة الظاهر للفن الحديث في الهندسة المعمارية، خصوصًا ما بُنِي في السنوات العشر الأخيرة، وهو من طراز ما يُقام ببيروت في هذا الزمان من الصروح الفخمة المخططة للكراء، المجهزة بالرديء من المرافق، والركيك من أسباب الراحة والرفاه.

وفي أسواق المدينة القديمة لا تشذ القاعدة الشرقية. تلك الأسواق تُدعَى بحق زنقات؛ لأنها سكك ضيقة متعرجة متقطعة، تقف عند جدار، وتنفذ تحت آخَر، درج هنا، وجورة هناك، تتسع في أماكن لثلاثة يمشون في صف واحد، ثم تضيق وتضيق فتختفي كاللص في زقاق مظلم، ولكنها في النظافة تشذ عن القاعدة؛ لا أوساخ ولا فضلات أمام الأبواب، ولا روائح في تلك الزنقات. إنها حقًّا لَعلى جانب بهيج من النظافة.

أما الشوارع، فهي من الناحية الأوروبية الإسبانية، وهي كلها مخطَّطة بتصميم، لها بداية ونهاية، ولها اتجاهات معروفة، وأرصفة مفروشة كلها بالأسمنت، لا أنصاف فيها كما في بعض الأرصفة ببيروت، وهي تمتاز أيضًا عن الناحية الأهلية بما فيها من الساحات والحدائق العمومية، أكبرها وأشهرها ساحة الفدان، التي كانت سوقًا للمواشي، وهي اليوم تُدعَى ساحة إسبانيا، ولا ثيران، ولا حرب، ولا سفك دماء.

ها هنا في هذه الساحة يريد المقيم العام أن يحقِّق حلمًا من أحلامه العمرانية؛ إن في الجهة الشرقية الشمالية منها اليوم بيت المقيم، وإلى جنبه المقيمية، تصلها بالبيت حديقة غنَّاء، وهناك القصر الجديد لسمو الخليفة، تتفيأ ظله دور الوزارات، ثم معهد الدروس المغربية في الجهة الجنوبية، ويجاوره في منعطف الشارع المعهد الخليفي.

– كانت هذه البناية للدرك، فنقلناها وأقمنا فيها هذا المعهد «معهد الدروس المغربية» وهذه المكتبة العمومية، وستذهب المقاهي كلها، وتلك البنايات، فيُشيَّد مكانها صروح للثقافة وللأحكام وللصحة العامة، أريد أن تتمثَّل في هذه الساحة سياستنا العمرانية الثقافية بجميع مظاهرها؛ فتشع منها أنوار العلم والعدل والارتقاء الاجتماعي والمدني.

فقلت: والسياسي؟

فقال: العدل! … كل السياسات تستقيم بالعدل.

ووقف هُنَيْهة عندها ثم أردف قائلًا: والمحبة. بالعدل والمحبة يستقيم كل شيء، وبدون العدل والمحبة لا يستقيم شيء، وستشهد هذه الساحة غدًا على ما أقول.

هي اليوم مفخرة أهل تطوان، فلا عجب إذا غدت كذلك مفخرة الإسبان. إن أحدث ما فيها اليوم، غير المعهدين والمكتبة العمومية، مسمعة الراديو بمكبرها تحمل إلى المجتمعين في الحديقة ما تذيعه محطة المدينة من الخطب والأغاني والأخبار.

هذه المدينة المشعثة المدهامَّة تذكرني بمنشية بيروت في عهدها القديم، قبل أن شذبتها يد الفن الفرنسية وخططتها، فكشفتها للنور، وفرشت جوانبها بالزهور، منها المنظوم والمنثور، حول المياه الجارية، إلى الحوض الزمردي، فغدت حديقة صادقة الاسم والوجه، كاملة.

وإن في تطوان حديقة مثلها صادقة الاسم والوجه، بل ساحة بحديقة هي في نظري أجمل ساحات المدينة. اسمها ساحة مولاي المهدي — والد الخليفة الحسن — ووجهها يمثِّل الإتقان والأناقة في الهندسة والتجميل. في وسطها جنينة زاهرة، مفروشة مماشيها بالأسمنت، وبالمجالس المصنوعة منه على الطراز الروماني القديم — لا ظهر لها ولا جوانب — وحول الجنينة عمد عالية من حديد، في رأسها مصابيح كهربية ضمن زجاجات كبيرة مستديرة، بيضاء غبراء، في كل عمود مصباحان، وفي وسطها العمود الأكبر يحمل حلقة من المصابيح فتبدو في الليل بهجةً للناظرين.

من هذه الساحة تتشعب الأسواق في كل جانب كأنها في الشكل المصغر ساحة الأوبرا بباريس. ستة أسواق تمتد منها غربًا وشرقًا وجنوبًا وشمالًا وما بينها، أما البنايات حولها

فهي كلها حديثة البناء والهندسة، من الطراز الذي تقدَّمَ ذكره، ذات طبقات متعددة للسكن؛ فالواقف في الساحة ليلًا يرى أمامه كيفما اتجه بنظره صفوفًا من الأنوار تنير الشوارع المكمِّلة لجمالها وبهجتها.

كانت هذه الساحة ساحتي أيام إقامتي بتطوان، وإني مطريها، لا طمعًا بأن تُدعَى باسمي — من كرم المهدي — بل لأنها تمتاز بغير ما وصفت من جمال؛ فهي في النهار جميلة بمشاهدها، كما هي جميلة في الليل بأنوارها. هي — ولا مبالغة — منقطعة النظير، ليس في تطوان فقط، بل في المغرب والمشرق؛ فإنك إذا وقفت تحت دائرة مصابيحها، ونظرت شمالًا تستقبل الرابية القائمة فوقها الثكنة العسكرية، وما يحيط بها من اخضرار وازدهار، وإذا وليت وجهك شطر الجنوب الشرقي تشاهد هناك رابية أخرى في آخِر السوق، كأنها جزء منه، وما هي قريبة من آخِر بناية فيه.

وهنالك في الجهة الجنوبية، المشهد الأجمل، ذو الروعة والجلال. هنالك؟ قل: ها هنا ولا تخطئ. ها هنا بالقرب من البناية الجديدة، ذات الطبقات الخمس، جبل كامل هو بوزيتون بقننه الشبيهة بالمنشار، المذكرة اللبناني بلبنان في بعض روابيه. هاك بوزيتون لاصقًا بالشارع — كأنه نُقِل من مكانه لساحة مولاي المهدي ليزين الأفق. أقول: إنه لاصق بالشارع طوعًا للخداع البصري، ولكنني مدقق مع ذلك؛ فهو على بضعة أمتار من البناية الزاحف إليها. فأين الحقيقة في المسافة بينه في مكانه وبين الشارع الممتد من الساحة؟ سبحانه وتعالى الزارع بيده بذور الشعر في الحقيقة، وبذور الخيال في الشعر، وبذور الحقائق الصغيرة المختبئة في الخيال. إن المسافة بين بوزيتون وآخِر الشارع الممتد من ساحة مولاي المهدي لتزيد على الثلاثين كيلومترًا، وهي كلها ساعة تنظر من الساحة إلى ذلك الأفق مختبئة في الوادي — واد مرتين — الممتد بينه وبين الطرف المرتفع من المدينة حيث ينتهي الشارع.

ما فرغت من وصف هذه الساحة، ومن التطويف بذكر مولاي المهدي، فإن أجمل ما فيها غير ما وصفت، بل هو أجمل أنواع الجمال، ولكنه لا يدوم أكثر من ساعة أو ساعتين كل يوم، مثل لؤلؤ الشمس الشارقة، أو مثل ذهب الغاربة، وساعته في النهار قبل الغروب هي الساعة الذهبية وقد اختلط فيها اللؤلؤ والمرجان. هي ساعة في ساحة المهدي لمشهد فريد عجيب من مشاهد الإنسانية، مشهد ينسيك كل ما في المشاهد البشرية الأخرى من الأحزان والآلام ومن المنكرات والآثام. في ساحة المهدي — وقى الله اسمها — تشاهد الطهارة في مرحها وفرحها، في لهوها ولعبها، في بهجتها البريئة. ها هنا ساعة الغروب تشاهد الصغار يلعبون ويرقصون، يركضون ويمرحون، وتسمعهم يزقزقون كالطيور

ويغنون، الصغار من مغاربة وإسبان، الصغار من ذوي الفاقة واليسار، الصغار سادة الحياة، تجيئهم طائعة وتطيعهم صاغرةً. الصغار في الساحة الـ ...

وقى الله «مولاي المهدي»، وقاه الله، إن الصغار في هذه الساحة لأصحاب الفردوس الأرضي، ولا فردوس بعدهم في هذه الدنيا.

قلت إن تطوان ممتازة بنظافة أسواقها وزنقاتها وحدائقها، وأهل تطوان، إن كانوا من ذوي الفقر أو اليسار، هم أبناء مدينتهم، لا يرددون الكلمة «النظافة من الإيمان»، إلا ليعملوا بها. خذ المثال من صغارهم؛ فقلما رأيت بين أولئك الصغار ما ينفي العقيدة الشائعة، قلَّ مَن رأيت من الولدان الوسخ الثوب أو الوجه، ومن البنات المهملة أمهاتهن لهن فيجئن إلى الساحة في أثواب زرية، أو شعور مشعَّثة.

ومن ساحة مولاي ... أقف لأسجل الأعجوبة، أعجوبتها؛ فقبل أن أنطق بالاسم ساعة الوداع سمعت صوتًا ولا كالأصوات، صوتًا كصوت الأجراس فيما وراء الجبال، صوتًا من الساحة نفسها وقد تجسدت بكل ما فيها ونطقت بمائة من الألسنة، ألسنة الزهور والمصابيح، ألسنة الجبال، ألسنة الصغار أنفسهم، وكلها باللسان الواحد، والصوت الواحد تقول: ساحة الريحاني — ساحة من أحبنا حبًّا صافيًا، حبًّا شعريًّا خالدًا.

ونزلت روح مولاي المهدي من نعيمها الأعلى تبارِك الساحة وجبالها وصغارها — تباركهم جميعًا — وتحمد الله على ما أوحى به إليهم من حسن التسمية!

إذن، من ساحة الريحاني[٦] — أقول مستأنفًا الكلام — يمتد شارع الجنرال فرنكو، الذي يستحيل ساعة الغروب، أو بين ساعتي الغروب والعشاء، متنزهًا للكبار من أهل المدينة، وخصوصًا الفتيان، من مغاربة وإسبان، والفتيات من أهل الجنان!

في تلك الساعة تُمنَع العربات والسيارات من المرور في ذلك الشارع، فيمسي بأجمعه من الرصيف، متنزهًا يغص بالناس، بل يمسي معرضًا للفتيان والفتيات، فيمشي الكهول بينهم والكهلات، مستعرضين متفرجين؛ صفًّا صفًّا يمشون خطوة خطوة، وكثيرًا ما ترى

---

[٦] لست أول أديب سائح أخَلَّ مثل هذا الإخلال في البلاد التي زارها، فجازَفَ باسمه تذكارًا وإكرامًا، ولست معدِّدًا في هذه الحاشية الأمثال، فأكتفي بمثَلٍ واحد لبناني فرنسي: عندما زار لامارتين لبنان وقصد إلى الأرز حاجًّا في فصل الشتاء، حالت الثلوج بينه وبين حجته، فأثبت بواسطة أحد أصدقائه ملكيته لإحدى الأرزات الكبيرة فسُمِّيت باسمه، وهي لا تزال تُدعَى: أرزة لامارتين. إنما الفرق بيني وبين الشاعر الفرنسي هو أنه يملك بالنيابة، وأنا المستملك بوضع اليد والرجل، فضلًا عن القلب والقرطاس والقلم!

الصبيات، الثلاث أو الأربع أو الخمس منهن في الصف الواحد، يتعقبه صف مثله من الشبان.

هي عادة إسبانية قديمة، لا تزال شائعة في بلاد الإسبان، وفي كل بلد يستوطنونه؛ فالحديقة العمومية في المدينة والساحة أو الجادَّة في القرية، هي كلها منظر واحد في تلك الساعة، ساعة النزهة والاستعراض. وإن الشارع القصير، مثل شارع الجنرال فرنكو بتطوان، لأفضل من الطويل، بل هو المختار المستحب؛ لأن الغرض من الموكب هو العرض والاستعراض؛ فيسير العارضون والعارضات، والمستعرضون والمستعرضات من الطرف الواحد إلى الطرف الآخَر، ثم يعودون، ويستمرون غادين في ذلك الشارع رائحين، والعيون منهم تتراشق بالزهور، بالنبال، بالزبيب، حتى ساعة العشاء، فيتفرَّق العشَّاق.

عندما كنت في أشبيلية، في السنة الثانية من الحرب العظمى، كنت أخرج ساعة النزهة إلى حديقة «ماري تيريز» لأُشاهِد هناك موكب المتنزهين والمتنزهات، كانت المركبات الفخمة تقودها الخيول المطهمة، لا تزال يومئذٍ في مجدها، فتغص جادة الحديقة بها، وأكثرها مكشوفة تجلس فيها الجميلات من الإسبانيات والمتجملات الـ «دونيات» Donna والـ «دوانات» Duenna في زينتهن وتبرُّجهن، والمراوح بأيديهن يعبثن بها، وإلى جنب بعض السائقين خدم، بالأثواب الرسمية، والبرانيط السوداء العالية المزدانة بالريش، هو الزهو المكلل بالرسميات، هي الأبهة بكامل صفاتها.

ما تغيَّرَ هذا المشهد الإسباني في انتقاله إلى المكسيك وأميركا الجنوبية، إلا بالمركبات في هذا الزمان؛ فقد كنت أشاهده في مريدا عاصمة البوكاتان، وقد حَلَّ البنزين محل الخيول المطهمة، فذهب بالكثير من أبهته وجماله. وما تغيَّرَ في تطوان إلا بخلو الشارع من الخيول والسيارات جمعاء، وكان الموكب ماشيًا أجمل منه راكبًا، ولا غرو فالغرض الأسمى منه لا يتم بالعجلة، وقد يزداد بالتمهل والتكرار سموًّا، فإن اكتظت الأرض بالأرجل، فالجو يتسع للعيون والقلوب!

هذي هي تطوان في نزهاتها، وأما تطوان في العمل فإنك تشاهد زحماتها في أسواقها القديمة، وقلَّمَا تروقك، على ما فيها من صناعات مغربية؛ فمن الحوانيت التي تباع فيها التحف والمواعين، والبرانس والأحذية والزرابي والوسائد والجلود المنقوشة والمذهَّبَة، تسير إلى مطلع أنوارها ودائرة علومها وفنونها، إلى مدرسة الصناعات.

استقبلنا في الباب رئيس المدرسة السنيور موريانو برتوشي Mariano Bertuchi الفنان الإسباني الغرناطي، الممثِّل الحياة المغربية في لوحاته الزيتية تمثيلًا بليغًا صادقًا،

وعرفنا بالمدير السنيور يواكيم فنيرو Joaquim Venero فطوفنا بالمكان، وكان فخورًا بما يجدد فيه من صناعات المغرب التي تكاد تضمحل.

فإن كانت صناعة البُسُط — السجاد — من تلك الصناعات فهي إما مضمحلة، وإما مجدِّدة للأصل الخشن الزري. وقفنا عند سجادة كبيرة، والأصح أن تُدعَى بساطًا أوروبيًّا، طولها ثلاثة أمتار، وقد جلسَتْ على الأرض أمام النول ثلاث بنات، تعمل كل منهن في قسم منها، فتعقد العقدة تلو العقدة، وتقطع أطرافها بالسكين، وهي تلزم الرسم المرسوم لها. إنه لعمل بطيء وغير دقيق، ولا عجب، فالناسجات طالبات ولا تنجز الواحدة منهن في اليوم الواحد، أي في سبع ساعات، أكثر من خمسة عشر سنتيمترًا.

ولكنها تتعلم وتزقزق معًا، فتكسب فوق الصناعة «بسيطتين» أو ثلاث «بسيطات» — ٢٠ أو ٣٠ قرشًا — كل يوم، وعندما تتزوَّج تقدِّم لها المدرسة المواد اللازمة للعمل في بيتها.

هذه الصناعة حديثة في تطوان، وهي أهلية محض؛ فالصوف المفتول السَّدَى، المنقوش اللُّحْمَة، من البلاد، وكذلك الأصباغ فكلها نباتية، إلا النيلة فتُجلَب من إسبانيا أو إنكلترا.

انتقلنا من دار الأنوال إلى دار الفارات والأزاميل — من روائح الأصباغ إلى الرائحة العطرية المنتشرة من بين الخشب والمنشار. نحن في دار النجَّارين حيث يتعلم الطلبة هذه الصناعة التي امتاز بها المغاربة والعرب قديمًا، فنطقت آثارهم في قرطبة وغرناطة وأشبيلية بآيات من الفن حفرًا ونقشًا، خصوصًا ما كان منه في الأبواب والجدران ورواقد السقوف.

وها هم أولاء أبناؤهم من الجيل العاشر، وقد ذهبت من بين أيديهم صناعةُ الأجداد أو كادت، فجاءوا يستعيدونها في هذه المدرسة، فيتمرنون بخشب بلادهم، بالجوز والبقس[٧] والسنديان، على جرَّة الفارة، وسياق الإزميل، ويقلِّدون فيما يصنعون، من موائد وأُطُر وأبواب، الصناعةَ الأندلسية العربية، شكلًا وحفرًا ونقشًا، ثم يتعلمون الفن الأعلى في التزيين؛ تزيين القباب والأقواس، أي فن التقرنص.

[٧] البقس: «واحدته بقسة، هو كالآس ورقًا وحبًّا» (القاموس). وهو شبيه في لبه بالسنديان وفي قشره بالجوز، ولكنه أصلب من الاثنين.

أجرة المعلمين في هذه المدرسة تتراوح بين الخمس عشرة بسيطة والعشرين — ليرة ونصف لبنانية وليرتين — والتلاميذ يُهدون مع أجرتهم اليومية «١–٣ بسيطات» الهدايا من صنع أيديهم، والمبرزون منهم يرسلون إلى إسبانيا ليتعلموا فنًّا من الفنون الجميلة.

أما صناعة البلاط الأندلسي العربي، فلا تزال شائعة زاهرة، وفي مدرسة الصناعات فرع لها يتعلم الطلبة فيه الأوليات في جبل التراب وسنِّه وصبغه بالأصباغ، ثم تقطيعه مربعات ومثلثات ومخمسات لصناعة الفسيفساء. أما الألوان والرسوم فأكثرها مأخوذ مما يُشاهَد اليوم في دور الحمراء.

سألت المدير عن ذلك اللون النادر في البلاط العربي القديم، أي السماوي الضارب إلى الاصفرار، فقال إنهم اهتدوا إلى ما يشبهه في ماء يُستخرَج من بعض الأعشاب.

وقال الشيخ الأستاذ، الذي كان يؤلِّف قطعة من الفسيفساء، قال بعد أن رفع النظارات عن عينيه: الصبَّاغ العتيق النادر هو ابن الأيام.

فقلت مشيرًا إلى الرسوم أمامه: وهذه؟ فأجاب فورًا: منها القديم المقلَّد، ومنها الجديد المولَّد. قالها بالعربية الفصحى، بلهجة تندر في غير المتعلمين من أهل المغرب، ولكن الأستاذ الجليل من المتعلمين، وإن لعب بالطين.

وهناك فروع للحدادة والصياغة وآنية النحاس، ذكَّرتني بالشام والبلاد العربية الأخرى، فما كان المغرب في المقارنة من المجلين. فصناعة النحاس هي أولية بالنسبة إلى ما تمتاز به دمشق، وصناعة التخريم في قبضات الخناجر وغيرها هي دون ما رأيت منها في صنعاء وفي الأحساء.

أما أولى الصناعات المغربية التي اشتهر المغرب بها، فهي صناعة الجلد وما يتصل بها من فن التجميل نقشًا وتذهيبًا. إنها الصناعة التي لا يزال المغرب يحمل علمها، ويحرز جوائز معارضها، فلا يُبزُّ فيها ولا يُبارَى، وإن محفظة للأوراق من الجلد المغربي اللين كالدمقس المذهَّبَ أو المفضَّض في نقشه البارز، لَتحفة من التحف التي يفاخر بها حتى في عواصم الفن والجمال بأوروبا.

ومن الصناعات المغربية القديمة المتسمة بميسم الفن المغربي، صناعة الخناجر والبنادق — البواريد — وخصوصًا تلك البارودة الطويلة الرفيعة العنق، الواسعة القبضة، التي تُدعَى أم كحلة، المشهورة بهذا الاسم في المغرب، وقد أمست للزينة بعد عزِّها في ساحات الوغى، وليس لها في مدرسة الصناعات غير غرفة صغيرة، وأستاذ واحد وطالبان اثنان، أو معاونان له في المحافظة على مجدها وكيانها.

تناوَلَ الأستاذ الشيخ بارودةً من الزاوية وراءه، وقال وهو يرنو إليها: هذه مكْحلة، هذي أم كحلة. وفهمت الباقي من كلامه بواسطة الأستاذ البستاني الذي يُحسِن التحدُّث «بالهدرة» المغربية. فقد كانت تُصنَع هذه البواريد في تطوان لسلاطين المغرب؛ يُصنَع منها العدد الكثير في مصنع كبير كان يعمل فيه خمسمائة من العمَّال والمعلمين. قال: «هِذِ مُكحْلة.» ثم أعادها إلى مكانها في الزاوية وهو يكرِّر اسمها بصوت فيه حب وحنين، كأنه يقول: من الغزو والقتال إلى غزل العنكبوت — من ساحات المجد إلى زاوية النسيان!

– ولا أمل بأن يجد معملها في تطوان.

قال المدير: ما يُصنع منها اليوم يباع للسيَّاح أو المتاحف، وهو قليل.

أما الصناعات الأخرى، فهي المعول عليها في ازدهار الصناعة والتجارة، وفي تحسين أحوال العمَّال.

قد تأسَّسَتْ هذه المدرسة سنة ١٩٣٠، وفي شتى فروعها اليوم أكثر من مائة طالب ومعلم.

سألت السنيور فنيرو: وهل كلهم مغاربة؟ فأجاب: نعم.

– وهل كلهم مسلمون؟ فقال: المسلم وغير المسلم سواء. عندنا من اليهود بضعة صبيان، ولكن اليهود لا يُقبِلون على الصناعات.

اليهود في تطوان مثلهم في كل مكان، وإن تغيَّرَتِ القيافات، فالمهن — التجارية والصرافة وما إليهما — لا تتغيَّر.

رأيت ونحن عائدون إلى الفندق، رجلًا في قيافة ألفتُ رؤيتها في لبنان — ألفتها وما كلفت بها. أرهبان في تطوان؟ فأجاب البستاني بالسلب المطلق.

– وهذا الذي رأيناه في القفطان الأسود والطاقية السوداء واللحية الكثة المشعَّثة؟

– هذا يهودي، وأكثر اليهود في المغرب يلبسون لباس أجدادهم الأندلسيين والبرتغاليين.

– وهل هم كثيرون في تطوان؟

– ستة أو سبعة آلاف.[٨]

وقد علمت بعدئذٍ، بمحادثتي المراقب المحلي في الموضوع، أنهم لا ينقصون ولا يزيدون.

---

[٨] هم بموجب إحصاء الحكومة الأخير ١٢٨٩١ في مدن المنطقة كلها، منهم ٦٣٧٩ في تطوان، والباقي في القصر الكبير وسان ضرخو والعرائش، وهناك في القبائل سبعة وثمانون يهوديًّا لا غير.

أما المسلمون والإسبان فإنهم في ازدياد مستمر. الدليل الأول: المواليد؛ فهي في المدن وفي بعض القبائل أكثر جدًّا من الوفيات. الدليل الثاني: أسواق المدينة.

فما رأيت في كل المدن التي زرتها وأقمت فيها مدينةً تكثر الأولاد في أسواقها وحدائقها مثل تطوان.[٩]

[٩] عدد سكان المدينة بموجب الإحصاء الأخير ٨٧٢٧٩، منهم ستون ألفًا من المسلمين وواحد وعشرون ألفًا من الإسبان، فيهم قليل من شعوب أوروبية أخرى، والباقي من اليهود.

الفصل الثامن

المنطقة الخليفية

هذه المنطقة هي جزء طبيعي جغرافي تاريخي أثنولوجي من المغرب الأقصى، بل من سائر المغرب الذي يشتمل على تونس والجزائر وطرابلس الغرب، وليس لها حدود طبيعية غير البحرية. ذكرت منها، في فصل سابق، الحد الشمالي، الذي يمتد من بحر الأطلنتيق إلى النهر الفاصل بينها وبين الجزائر أي نهر مُلويه، وعلى هذا الشاطئ الأفريقي من البحر المتوسط المدن الثلاث بمرافئها ومراكزها المهمة، أي طنجة وسبتة ومليلة Malilla — وتُلفَظ بالإسبانية مليًّا — وهي كلها خارجة من حكم المنطقة الخليفية الإسبانية اليوم.

وليس للمنطقة على البحر المتوسط من البلدان غير بلدة وادْ مرتين التي تقدَّمَ ذكرها، وواد لَو Uad Lou على خمسة وعشرين كيلومترًا منها، وبورتو كباص Puerto Capaz،[١] أو الجبهة على أربعين كيلومترًا من واد لو، وسنْخُرخُو البلدة الجديدة التي أُسِّسَتْ عند رأس جون الحُسيماس Al hucimas بين ميناء كباص ومليلة، وسُمِّيَتْ باسم القائد سنخرخو Sanjurjo الذي نزل بعساكره هناك في ثورة عبد الكريم على الحكومة الإسبانية المحتلة البلاد. هذه البلدة هي الوحيدة التي تصلح أن تكون مرفأ للسفن التجارية، أما واد لَو وواد مرتين وبورتو كباص فيتعسر الوصول إليها في غير المراكب الشراعية أو التجارية التي ترسو بعيدًا من الشاطئ.

ومما هو جدير بالذكر أن أكثر الأسماء لهذه الأماكن — الرءوس البرية والخلجان والفراض — هي إسبانية أطلقها عليها الإسبان الذين احتلوها أو نزلوا فيها صائلين أو محتلين في الماضي، كما فعلوا حديثًا في بورتو كباص وسنخرخو، وليس بينها اسم عربي

[١] نسبةً إلى الجنرال كباص، وسيُذكَر فيما بعدُ.

غير اسم واحد بربري هو «لَوْ» — واد لَوْ — اسم قبيلة من قبائل البربر القديمة. هذا في حدِّ المنطقة الشمالي، أما حدها البحري الغربي فهو يمتد من طنجة، والأصح من رأس سبارتِل في خط مستقيم جنوبًا إلى أصيلة فالعرائش، فنحو خمسة عشر كيلومترًا دونها ليس على هذا الشاطئ من الفِراض المهمة غير هاتين الفرضتين، وقد تغلَّب اسماهما العربيان على الأسماء القديمة، وما تغيَّرَ في الحروب والغزوات والاحتلالات المختلفة التي تخلَّلَتِ السيادة العربية فيهما.[٢]

هذا الحدان الشمالي والغربي ثابتان ما ثبتت البحار، ولا خلاف ولا جدال فيهما، وهناك الحد الشرقي بين هذه المنطقة والجزائر. من مصب نهر ملُويه، وراء جبل كبْدانة، إلى نحو سبعين كيلومترًا غربًا بجنوب، وفي الناحية الشمالية منه الجسر الدولي الواصل إلى الطريق بين مليلة ووَجْدة هذا الحد الشرقي، أي سبعون كيلومترًا من مصب ملُويه إلى أمشيرا كليلة Mexera Kalila، مثل الحدين الآخَرين، ثابت ما ثبت النهر، ولا خلاف فيه ولا جدال، ولا يُخشَى عليه — حتى لو كان اصطناعيًّا سياسيًّا — من تغيير أو تعديل، إلا إذا استفحل في هذا الصقع الأفريقي أمر المستعمرين، المخلدين اليوم إلى السكينة، أو اشتد ساعد الحكومة السلطانية الناهضة من كبوتها، فتحاول إحدى السلطات الثلاث أن تحقِّق — إذا استطاعت — حلمها بتوحيد البلاد، توحيدًا استعماريًّا، أو توحيدًا سلطانيًّا مغربيًّا علويًّا؛ عندئذٍ تشرب السياسة الوطنية — أو الاستعمارية — النهرَ، وتأكل الجبل!

بقيت الحدود الجنوبية بين المنطقتين الخليفية والسلطانية، وقَلَّ بين الحكومتين الإسبانية والفرنسية، وهي حدود اصطناعية دولية سياسية بكل ما في هذه الكلمات الثلاث من معاني الاستيلاء والاستعمار، والطمع والنزاع، والمناورات والمشادَّات، هي حدود متعقدة متعوجة متغيرة متنكرة متراجعة متقدمة، عملًا بما يطرأ من طوارئ الزمان على سياسة الدولتين المتجاورتين — المتحابتين! — من الإقدام والإحجام، لحفظ مصلحة، أو لتعزيز مراكز.

ومما يجب ذكره هو أن الحكومتين الفرنسية والإسبانية غير متساويتين في القسمة، وما كانت المساواة في الماضي — القريب لا البعيد — تستقيم بينهما، لا في قوة الأساطيل البحرية والجيوش، ولا في أسباب الاستعمار الأخرى، السياسية والاقتصادية؛ لذلك كانت

[٢] هي في الخارطات الأوروبية Larache, Arcila.

هذه الحدود تتغير كل مرة يُعاد النظر فيها. تغيَّرَتْ ثلاث مرات بموجب المعاهدات الثلاث المعقودة بين الدولتين في سنوات ١٩٠٤ و١٩١٢ و١٩٢٥ التي تقدَّمَ ذكرها.

فقد كانت الحدود الأولى تمتد من نهر ملُويه إلى المهدية على شاطئ الأطلنتيق عند مصب نهر الصبو، أي مائة كيلومتر من العرائش، ثم تغيَّرَتْ في المعاهدة الثانية فنُقِلت غربًا إلى قرب العرائش — شربت جنِّية الاستعمار النهر! — فالتقت بالنهر الآخَر لوكوس شرقي القصر الكبير، وماشته شرقًا إلى مكان في الأخماس يبعد نحو خمسة وعشرين كيلومترًا من شفشاون، ثم جنحت جنوبًا إلى باب زيتونة، فجنوبًا بشرق إلى نهر الوطا على نحو أربعين كيلومترًا من كتامة، فشرقًا بشمال إلى جزناية، فأكلت نصف الجبل، وراحت تتعرج وتتبختر إلى أمشيرا على نهر ملويه.

وفي معاهدة سنة ١٩٢٥ انتقلت الحدود للمرة الثانية والثالثة من المنطقة السلطانية إلى المنطقة الخليفية نحو كيلومترين من الناحيتين الغربية والشرقية، ومن خمسة إلى عشرة كيلومترات في الوسط، فدنت من كتامة وجاورت ترغوستْ.

أما الحدود الحاضرة فقد راحت تغزو المنطقة الخليفية، فتقدَّمَتْ من العشرة إلى العشرين كيلومترًا في الوسط، بين قبائل بني أحمد وبني خالد، وعشرة كيلومترات في جزناية، وعشرة أخَر في الناحية الشرقية، في أراضي بني بويحي.

هذا ما ربحه الفرنسيون في تعديل الحدود وما خسره الإسبان، ولولا الاثنان الموكلان بحماية المغرب لما كان أهل المنطقة الصغيرة يشكون تجاوز أهل المنطقة الكبيرة، ولما كان هناك من كسب أو خسارة، ولما كان هناك من حدود، ولما انقسمت بسبب هذه الحدود بعض القبائل، فأمسى نصفها في المنطقة الشمالية والنصف الآخَر في المنطقة الجنوبية، وفي ذلك ما فيه من حوافز النزاع والتعدِّي والقتال على الحدود، كما نعلم من عرب البادية على حدود العراق ونجد، واتصال أسباب النزاع والقتال بالدولتين المسئولتين عن الأمن والسلام في المنطقتين.

لست أدري، ولا رغبة لي في كشف الستار — لو كان ذلك ممكنًا — ما كان يتلوَّن بين المتفاوضين الفرنسيين والإسبان بشأن هذه الحدود. فبأي شيء وبأية مصلحة كان يتذرع الفرنسيون فيطلبون التغيير والتعديل، وأي شيء، أو أي خوف، أو أية سياسة داخلية أو خارجية كانت تحمل الإسبان على القبول؟ قد تكون المسألة محض شخصية في المتفاوضين — أصحاب السعادة الفرنسية والإسبانية — فيتغلَّب الفرنسيون بذكائهم أو بكياستهم أو بالاثنين معًا على الإسبان، أو تكون ناشئة عن تفاوت في قوى الحكومتين ونشاط سياستهما، فتفرض الواحدة إرادتها على الأخرى.

– لا علم لي بأسرار سياسة المفاوضات، إنما أنقل كلمةً لموظف إسباني كبير في المغرب. قالها وهو يطلعني على الخارطة الشاهدة في خطوطها على التعديلات الثلاثة: مثلنا مع الفرنسيين مثل الجبنة والقط، ففي كل معاهدة يأكل القط قطعة من الجبنة، فصرنا نخشى المعاهدات، ولكننا اليوم — وإن تأخرنا — على حذر.

سألت: كيف يحمون الحدود الجنوبية؟ فقال: إنهم بنوا الحصون على طول الخط، وإذا الجيش المرابط هناك لا يقل عن الأربعين ألف جندي، وللفرنسيين ولا ريب مثلُ هذا الخط على حدودهم، وأكثر من هذا العدد من الجنود.

خط ماجينو، وخط سيغفريد، في المغرب الأقصى.

ومَن ذا الذي يقوم بدفع النفقات؟ المغرب، يا بني، المغرب!

هذه المنطقة، في خطها البحري وبعض جبالها وسهولها، كما في مساحتها وعدد سكانها، هي شبيهة بلبنان، طولها ثلاثمائة وعشرون كيلومترًا، ومعدل عرضها سبعون،[٣] فتبلغ مساحتها اثنين وعشرين ألف كيلومتر مربع، يتوطنها نحو تسعمائة ألف نفس،[٤] ربعهم من الحضر بما فيهم من الإسبان،[٥] وغيرهم من الأجانب، والباقي من القبائل غير الرحَّل — القبائل المزارعة.

وفي هذه المنطقة من الأنهر الكبيرة هي نهر مرتيل المجاور لتطوان، ونهر لوْ النابع من جبل شفشاون، الجاري بين جبال بني حسن وبني سعيد إلى واد لوْ فالبحر، ونهرا النكور والغيس إلى شرق وغرب بني وِرْياغِلْ إلى جون الحُسيماس شرقًا من سنخرخو، ونهر إيجان الذي يجتمع بنهر الكِرْت في الناحية الشرقية، ويجري في أرض بوغفر إلى المتوسط، ثم أكبرها وأطولها نهر ملويه، وهو ينبع من جبال الأطلس على نحو أربعمائة كيلومتر من البحر.

أما في الناحية الغربية، فأكبر الأنهر نهر لوكوس النابع من الجبال جنوبي شفشاون، الجاري غربًا إلى القصر الكبير، فالعرائش، فالأقيانوس. وهناك أنهر صغيرة تجف في الصيف مثل أنهر لبنان الشتوية.

---

[٣] في طرفها الغربي ١٢٥ كيلومترًا، وفي طرفها الشرقي ٢٥، وفي الوسط يتراوح بين الخمسين والسبعين.

[٤] بموجب إحصاء الحكومة الأخير (سنة ١٩٣٨) مجموع سكان المدن ١٥٠٠٩٧، ومجموع القبائل ٦٦٠٣٢١.

[٥] الإسبان المقيمون، غير الجنود، هم بموجب إحصاء سنة ١٩٣٥: في القبائل ٤١٤٠، وفي المدن ٤٠٢٣٨، يضاف إليهم زيادة السنوات الأربع، أي من ١٩٣٥ إلى ١٩٣٩ نحو ٥٠٠٠، فيكون المجموع ٥٠ ألفًا.

في الوجهة البحرية إذن مصب الأنهار الكبيرة، وفيها حول تلك الأنهار أرض طيبة التربة، يُزرَع أكثرها، ويمكن زرعها كلها بعمليات هندسية لرفع مياه للري. إن قلب المنطقة المثمر لفي هذه الأودية والسهول — في واد مرتين وواد لوْ وفي الساحل الذي تقطنه قبائل مسطاسة وبني بو فراخ وبني يطِّفت وبقُوية شرقي الجبهة، ثم في وادي النكور في وسط المنطقة، وأراضي بني سعيد بين هذا الوادي ورأس البر الذي تقطنه بنو شيكر، ثم السهل الكبير بين مليلة ونهر ملويه. على أن أخصب أراضي المنطقة هي في الناحية الغربية بين أصيلة والقصر الكبير، من شاطئ الأقيانوس إلى الجبال التي تتراجع عنه نحو خمسين كيلومترًا، وتوازنها في الخصب سهول جبال الريف في الناحية الشرقية، هي كسهل البقاع في علوها عن البحر وفي شمول زرعها.

ولكنها كلها لا تبلغ ربع مساحة المنطقة، والثلاثة الأرباع الأخرى جبلية تتنوع تربتها، فتصلح في الروابي والأودية للزرع والغرس، وتتباين جدبًا وخصبًا في أعالي الجبال، حيث تكثر الأحراج في أماكن منها — سنمر بها — وتقل في غيرها لأسباب غير مجهولة، ستذكر في محلها. تلك الجبال يبلغ علوها الألفين والألفين والخمسمائة متر. رأينا الثلج على رأس جبل كتامة في يوليو، واجتزنا قبل أن نصل إلى البلدة المسماة باسمه، غابة من الأرز الشبيه بأرز لبنان، إلا في قدمه وضخامة أشجاره.

وهذه الجبال تتصل جنوبًا بسلسلة الأطلس الشهيرة الممتدة بفروعها الثلاثة من المغرب الجنوبي إلى الشرق الشمالي، فتدخل في أرض الجزائر عند وهران. إن أعلى القنن هي في السلسلة الوسطى، وإلى جنوبها وشمالها السلسلتان الأخريان المنخفضتان عنها، تفصل بينها جميعًا سهول وأودية وأنهار، وهي تدفع عن المنطقة الشمالية رياح الصحراء الجافة الحارة، أي السموم التي تُسمَّى خطأً في المغرب «سيروكو»، وهي تحريف شرقي «الشرقيات» في لبنان، وما هي في المغرب كذلك؛ لأنها تهب من صحراء الجنوب الكبرى، وتصل في جبهة الجزائر إلى البحر. أما في لبنان فالاسم ينطبق على حقيقتها؛ لأنها تهب من الصحراء السورية الشرقية.

ولا تشبه سلسلات الأطلس الثلاثة لبنان الشرقي والغربي، إلا إذا افترضنا سلسلة ثالثة في البحر قبالة صنين وضهر القضيب، فيكون لبنان من جبل الريحان إلى عكار شبيهًا بالأطلس الأعلى، وإلى جانبيه الغربي والشرقي السلسلتان الشبيهتان بالأطلس الجنوبي وصنوه الشمالي.

وفي هذه المنطقة سهول مرتفعة، كما قدَّمْتُ، شبيهة بسهل البقاع، أهمها وادي ملويه الكائنة في زاوية من الأطلس الأوسط وصنوه الشمالي، في امتدادهما إلى الجزائر واتصالهما

بسهول وهران العالية. أما سهل ملويه فهو يرتفع من ألف وخمسمائة إلى ألف وسبعمائة متر عن البحر، فيكون أعلى من سهل البقاع، وفي خصبه إن لم يكن أخصب منه.

تُقسَّم هذه المنطقة إداريًّا، حذوًا لتقسيمها الجغرافي، إلى خمس إيالات، الجبلية (جبالا) حول تطوان، والغربية على البحر الأطلنتيق، والغماريَّة في الوسط، والريفية في الريف الغربي، والشرقية أي الناحية الشرقية من جبال الريف.

وهي تختلف في تربتها كما تختلف في شكلها الجغرافي، فيكثر زرع الحبوب في الإيالتين الغربية والشرقية، وتكثر الأغراس، وتختلف المزروعات في الإيالات الأخرى.

قد أسهبت في الوصف الجغرافي الذي تجف عنده صفحات الكتاب، ولكنه واجب لإتمام البحث والفائدة، وسأقدِّم الآن بعض الأمثلة لغلَّات المنطقة في إيالاتها الخمس، إثباتًا لما قلت في الأراضي التي تصلح، والتي لا تصلح للزرع. فالقمح والشعير — الحبوب على أنواعها — تكثر في الإيالة الغربية مثلًا، ويقل فيها غرس الأشجار المثمرة.

أمامي الآن تقرير الحكومة لسنة ١٩٣٤، وفيه أن الأشجار المغروسة في هذه الإيالة تبلغ مائتين وأربعة وثلاثين ألف شجرة، والأرض المزروعة قمحًا وشعيرًا تبلغ ثلاثة وستين ألف هكتار، أكثرها لقبائل بني عروس وبني غُرفُط وأهل سريف. ومما هو جدير بالذكر أن بني غرفط، القبيلة الجبلية في هذه الإيالة، تُكثِر من زرع الحبوب، وخصوصًا الحمص والجلبان — البسلَّة — فقد زرعت منها، بموجب إحصاء هذه السنة، ألفين وخمسمائة هكتار.

أما إيالة غمارة، فهي جبلية في مجملها، وتزيد فيها القرى على الزرع، وقد بلغ عدد أشجارها مليونًا ونصف مليون شجرة، وما تجاوَزَ زرعها الثمانية عشر ألف هكتار.

هذا التبايُن في القرى والزرع كائن أيضًا في إيالة الريف؛ فالأرض المزروعة فيها أربعون ألف هكتار، وتدنو الغراس في عددها من غراس الغمارة. أَضِفْ إلى ذلك أن فيها من القبائل الواسعة الأملاك أكثر من سواها، منها: بوفراخ، ووورياغل، وبنو جميل، ويطفت، وبقُوية.

وفي هذه الولاية يزرع الحشيش، وهو غير محظور، الحشيش الذي يُسمَّى عندهم الكيف، تزرعه قبيلة واحدة فقط هي بنو سدَّات. فقد جاء في تقرير الحكومة أن بني سدَّات زرعوا في تلك السنة سبعة هكتارات من الكيف. قيل لي إن هذا الكيف المغربي لا يكف مثل الأفيون عند الهنود أو القنب عندنا؛ لضعف في مادته السحرية.

أعود إلى الإيالات وغلاتها، فالشرقية في بلاد الريف كثيرة الزرع أو الغرس، بلغت أرضها المزروعة تسعين ألف هكتار، وغراسها مائة وعشرين ألفًا، أكثرها لقبائل كبدانة وبني بويحيى وأولاد ستُوت وبني سِيدَل.

وأما إيالة جبالا — تطوان والساحل والجبال المجاورة — فهي في الوسط بين الإيالات في المزروع والمغروس من أرضها. إنما يكثر فيها التين والعنب، وأغنى قبائلها بنو حسان وبنو حرم وأنْجره والحوْر.

قد يستنتج القارئ من هذه الإحصاءات أن المنطقة غنية، وذلك خطأ؛ فهي زراعية، نعم، وأكثر سكانها من القبائل المزارعة، ولكن مجموع ما يُزرَع من الأرض ٢٢٥ ألف هكتار، منها ٢٠٠ ألف تُزرَع قمحًا وذرة وشعيرًا، والباقي يُزرَع بقولًا — الفول والحمص والجلبان والعدس. أما غلة المائتي ألف هكتار، فهي ٢٠٠ ألف قنطار من القمح، و٦٠٠ ألف من الشعير، و٢٧٠ ألفًا من الذرة.

يمكنني أن أقارن — وكتاب الأستاذ حمادة في اقتصاديات سوريا أمامي — بين غلة القمح في هذه المنطقة وفي سوريا مثلًا. ففي سنة ١٩٣٣ زُرِع من الأرض في سوريا ٤٨٥ ألف هكتار كانت غلتها ٣٢٧ ألف طن، أي أقل من ثلاثة أرباع الطن لكل هكتار.[٦]

وقد بلغت غلة الخمسة والأربعين ألف هكتار من القمح في المغرب سنة ١٩٣٤ مائتين وستة عشر ألف قنطار، أي أربعة قناطير وثلاثة أرباع القنطار لكل هكتار، ولكن المساحة في سوريا تزيد كثيرًا على المساحة المزروعة في المغرب، فضلًا عن أن الأرض التي تصلح للزرع في سوريا تبلغ أربعة ملايين هكتار، لا يُزرَع منها اليوم أكثر من نصفها.

أما الأشجار، فأكثر ما يُغرَس منها في المغرب الخليفي التين والكرم، ثم الزيتون واللوز، ثم المشمش والسفرجل والرمان والبرقوق والتفاح والقراصية التي يسمونها حب الملوك.

وأما عدد الأكثرية، أي التين والعنب، فهو ١٠١٣٥٠٠٠ شجرة، و٣٢٥٠٠٠٠ عريشة. يجيء بعدها الزيتون، وفي المنطقة منه مائتا ألف شجرة، ثم اللوز أربع وثمانون ألفًا، ثم الرمان والليمون وليس من كلاهما أكثر من أربعين ألف شجرة.

فأين هذه كلها مما في لبنان منها؟ أو من الزيتون في الأقل والليمون. فإن كانت تحلو لك المقارنة، فهذه الأرقام، مع كتاب الأستاذ حمادة، تمكنك منها. أكتفي أنا بالإشارة إلى

٦ الطن أربعة قناطير، وأقل محصول الهكتار من القمح ١٤٠٠ كيلو، أي نحو ثلاثة قناطير.

الزيتون؛ فإن عندنا في لبنان من أشجاره ثلاثة ملايين، معدل غلتها السنوية ستة عشر ألف طن، أي أربعة وستين ألف قنطار، وفي هذه الإشارة تنتهي المقارنات والإحصاءات، إلا واحدًا منها.

فسأختم هذا الفصل بالشمع والعسل، أو بما يدعونه تقرير الحكومة الخليفية الإسبانية للصناعة العسلية، وهذه الصناعة قائمة عامرة في الإيالات الخمس كلها؛ فتبلغ في الإيالة الغربية الرقم الأعلى في الإنتاج، أي إن عدد خلاياها ستة عشر ألفًا، وتجيء الإيالة الشرقية أخيرًا بخلاياها الأربعة الآلاف.

أما مجموع ما تنتجه الإيالات كلها من العسل، فتبلغ قيمته ٣٨٠٧٨٤ بسيطة، وقيمة ما تنتجه من الشمع ٨٥٠٠٠ بسيطة. فإذا حوَّلناها إلى ليرات سورية لبنانية، بحسب قيمة البسيطة التي يريد أن يجمدها الجنرال فرنكو على الخمسين بالليرة الإنكليزية، والست بالليرات الفرنسية، تبلغ ٩٢٦٣٠ ليرة من ليراتنا الجديدة التي تشبه المرأة الجميلة الوجه المتقلبة الطِّبَاع.

الفصل التاسع

ميزانيات خليفية

ثمانمائة ألف من الأنفس، ثلاثة أرباعهم من البوادي، يقطنون منطقة مساحتها اثنان وعشرون ألف كيلومتر مربع، أكثرها أرض جبلية، يصلح منها للزرع مليون هكتار، يُزرَع ويُغرَس منها اليوم نحو نصفها.

لهذه البلاد وأهلها حكومة خليفية إسبانية بلغت ميزانيتها في سنة ١٩٣٨ مائةً واثني عشر مليونًا من البسيطات، أي ١٨٦٦٦٦٦٦ ليرة لبنانية.

ها هي ذي حكومة فضفاضة الثوب، كثيرة الدوائر والدواوين، والموظفين والمستشارين، والجنود والأعوان، والنوافل الديمقراطية الإدارية.

إن حكومات ما بعد الحرب العظمى، الحكومات الانتدابية والإقامية والاستعمارية — وإن كانت الضرائب فيها أقل مما هي في حكومات الدول العظمى، ذات الجيوش الجرَّارة والأساطيل البحرية والجوية — هي كذلك كثيرة النفقات والتبذير، ولا نسبة بينها وبين ثروة البلاد، بخلاف الأمم الغنية التي تستهلك معدات الحرب نصف ميزانية حكوماتها، ولا تذهب حصانتها المالية.

على أنها كلها، الكبيرة والصغيرة، الفقيرة والغنية، هي أعباء ثقيلة، أعباء منكرة، على عواتق الشعوب، ولا أمل بأنها ستخف في المستقبل، بل قد تكون أشد وأنكر في الحكومات الاشتراكية والشيوعية والدكتاتورية إطلاقًا، وفي الحكومات الديمقراطية كذلك. تلك الحكومات التي يعسل وزراؤها كلام الحرية والإخاء، ويتاجِر أرباب المال في بلدانهم بسياسة السلم — وبالأسلحة.

ما لنا والمستقبل، وهذا الحاضر تكفينا شروره. أعود إلى الشعب المغربي، المكلَّف بنفقات باهظة مرهقة تنفقها الحكومة، وأُعِيد الأرقام — فقد تكون نسيتها — الأرقام التي تتعلق بالميزانية المغربية، فهي ثمانية عشر مليونًا ونيف من الليرات اللبنانية. ثم

أذكرك بأن عدد سكان المغرب الإسباني هو ثمانمائة وخمسون ألف نفس، نقصت أو زادت قليلًا. فكم يجب أن يدفع كل فرد من الرعية لتدفع الحكومة عنه اللصوص، وتؤمِّن ماله وحياته ما أمكن الأمن في هذه الدنيا، وتسهِّل له بعد ذلك، إن كانت على شيء من الصلاح، سبل المواصلات، وسبل العلم، فلا يموت ميتة وحوش الغاب.

قد كان المغربي يدفع لسلطان المغرب قبل الحماية، مبلغًا يتجاوز أحيانًا عشر ليرات لبنانية، على أن ميزانيته الحاضرة لا تستقيم إن لم يدفع كل شخص في المنطقة ستًّا وعشرين ليرة، أي مائة وثلاثين بسيطة. كل شخص أقول، أي إن البيت ذا الخمسة الأنفس، في المدن أو في البوادي، مكلَّف بمائة وثلاثين ليرة، أي سبعمائة وثمانين بسيطة.

ولكن هناك أسبابًا أخرى لهذا التبذير في ميزانية المغرب. فما هذه الأسباب؟ إني باذل الجهد في توضيح كل ما يتعلق بهذه المسألة، فإن بقي بعد ذلك ما يغمض أو يلبس عليك، فالحق فيه على فهمك لا على بياني.

هذه المنطقة هي جزء من بلاد المغرب، كما قدَّمْتُ، وقد كان أهلها، قبل عهد الحماية، يدفعون الزكاة والضرائب لسلطان البلاد، فتبلغ في بعض السنين أكثر مما تبلغ اليوم، وتنقص أو تزيد في بعضها، عملًا بخصب الأرض أو محلها، وبقوة الحكومة السلطانية أو ضعفها في جباية الخراج، وهناك عوامل أخرى كالفتن والحروب، فكان السلطان يزيد في الخراج ليستطيع أن يحافظ على كيان الدولة وسيادتها السلطانية، والحروب — اغفر لي هذه المتبذلة — لا تقوم بالآمال. والفتن والحروب — ما كان أكثرها في المغرب — تشغل الناس عن الزراعة — حقيقة أخرى متبذلة أستغفرك عنها — فتهمل الأرض ويذهب خيرها، فتفتقر البلاد.

وما السلاطين والملوك، دام عزك، بغير القصور والجنود والعبيد والجواري، والخدم والأعوان؟ والسيارات والطيارات واليخوت في هذا الزمان؟ وما الفرق بين العائلة المالكة وعائلة عبد الرحمن بن عبد السلام إن لم تكثر لديها الأموال لبناء القصور واقتناء كل ما تقوم به — وقُلْ كل مَن تقوم بهم وبهن — من الأثاث الفاخر والتحف والجواري والعبيد.

فالضرائب الباهظة المرهقة تحمل الناس على التمرد والعصيان، وتسبِّب الفتن والحروب، والفتن والحروب تفقر البلاد، فيضطر السلطان أن يستدين المالَ ليظلَّ سلطانًا على عرشه في قصره وأمته، ويضطر، ليتمكن من دفع فوائد الديون — الفوائد على الأقل — أن يزيد الضرائب على الرعية. هي حلقة مفرغة خبيثة، شرها الأول يتصل بشرها الأخير، فتدور الدوائر على الشعب، وعلى الأمة، وعلى الحكومة، وعلى السلطنة نفسها، وفي

الفصل الأول من هذا الكتاب الشاهد والبرهان. ذي هي صورة صادقة لحقيقة عارية مخجلة.

وهناك صورة أخرى لحقيقة عارية ولكنها غير مخجلة، بل هي معزَّة مشرِّفة، فقد كانت أكثرية الأمة راضية بهذه الحكومة السلطانية الشريفية في الماضي، بل كانت مؤيدة لها، معتزة بها، محافظة عليها، وقد أصبحت الأكثرية بعد الحمايات أجمعية تشمل الأمة المغربية في المنطقتين الكبرى والصغرى، الجنوبية والشمالية. أجل، إن هذه الأمة بأجمعها لأشد تمسكًا اليوم بأهداب العائلة العلوية المالكة، وأعظم غيرةً على العرش العلوي، وإخلاصًا له، فتؤيِّده وتحافظ عليه، وتعتَزُّ به قلبًا وقالبًا، وتبذل في سبيله كل ما لديها من القوى الروحية والمادية.

ما السبب في ذلك؟ السبب الأول والأهم أنها أمة إسلامية مغربية تأبى أن تحكمها دولة أجنبية، مسيحية كانت أم غير مسيحية، وبما أنها في المغرب أقرب إلى ذلك الصراع التاريخي بين المسيحية والإسلام في إسبانيا، فهي تقول الأجانب وتعني بهم النصارى. فإذا قضت الأيام بحكم الأجنبي النصراني فهي لا تقبل به، ولا تخضع له، إلا بشرط أساسي جوهري تفرضه معنوياتها وروحياتها قبل كل شرط اقتصادي أو سياسي، ذلك الشرط هو أن تحافظ الحكومة الأجنبية الحامية على البيت المالك، وعلى العرش العلوي. ذي هي الحقيقة الأخرى المجردة من التزويق والتنميق، ولا تستطيع الدولة الحامية أن تبقى يومًا في المغرب إن لم تقبل بهذا الشرط، وتقوم به دون خلل أو تعديل.

لا بد إذن من وجود حكومتين مزدوجتين في هذا المغرب الحاضر، ولكن الحكومة المزدوجة الخليفية مثلًا في وضعها الأساسي، غير الحكومة المزدوجة في مناطق الانتداب!

فالسلطان — دام عزك — سلطان، ورئيس الجمهورية — دامت ديمقراطيتك — رئيس جمهورية، والعرش هو غير كرسي من الخيزران أو الجوز، والقصور للمالك سعيدًا وللعائلة المالكة هي غير البيوت المشيدة بالأسمنت تستأجر لرئيس أو مدير. والحرس المغربي بقيافته الطاووسية هو غير الدرك المزمَّل بأذرع معدودة من القماش الأصفر.

أبهة الملك لا نتنازل عنها مهما كلَّفَتْ من المال، وإننا لنحمل أعباء الضرائب، نحملها فرحين، ليبقى العرش العلوي محفوفًا بالكرامة والإجلال وبالأبهة والمجد. هو لسان حال الأمة المغربية العربية الإسلامية، والحكومة الحامية تفهمه جيدًا وتُحسِن العمل به، بل هي تسرف فيه لغرض من أغراضها السياسية، وتقتبس منه ليكون لمندوبها السامي بعض تلك الأبهة والمجد، ولسان حالها يقول: الشرقيون مشغوفون بهذه المظاهرة الباهرة، خاضعون لأحكامها. فمن الحكمة إذن أن نتشفَّع نحن أيضًا بها.

على أن المقيم العام في تطوان يؤمُّ الكنيسة أو يزور الخليفة في ثوب من الجوخ مصحوبًا بياورين فقط، إسباني ومغربي، في الثوب الأصفر العسكري. فللخليفة وحده أبهة الملك، بحرسها الكامل قيافةً وعدةً وعددًا.

وللخليفة القصر الأكبر، والعبيد والجنود والأعوان — كل مظاهر الفخامة والجلال — وتلك الحكومة الثانية، أو الأولى، الحكومة الخليفية، بوزرائها وقضاتها ومديريها ومخزنها وجندها النظامي — تتمثَّل فيها كرامة الأمة، وحقوقها الموروثة وتقاليدها، وآمالها الوطنية الكبرى. فلولا هذه الآمال باستعادة السيادة القومية والشريفية — السلطانية والخليفية — واستقلال البلاد المغربية استقلالًا حقيقيًّا كاملًا، لما كانت هذه الحكومة غير صورة جميلة من صور التقاليد، بل من صور الباطل والمحال. أمَّا أنها من ألزم ما يلزم لإحياء هذه الآمال وتحقيقها، فمما لا ريب فيه، وذلك ما يبرِّر في نظر الأمة المغربية، وجودَها ونفقاتِها.

وما هي هذه النفقات بالإضافة إلى نفقات الحماية؟ لا بد من التفصيل إنصافًا للحكومتين، الحامية والمحمية، ولكني مُوجِز فيه.

إن أصغر الرواتب بالنسبة إلى مقام صاحبها، راتب الخليفة وراتب المندوب السامي والمقيم العام؛ فالأول يبلغ مائة وأربعين ألف بسيطة، أي ثمانية آلاف ليرة بما فيها رواتب العائلة الشريفية، والثاني خمسون ألفًا، أي ثلاثة آلاف ليرة.

ولكن نفقات القصر الخليفي، بمخزنيته وكتابه وخدَّامه، هي ثلاثمائة وسبعة وثمانون ألف بسيطة، يضاف إليها نفقات الحراسة الخليفية، بعساكرها وفرسانها ومخزنيتها[1] وموظَّفيها، وهي تبلغ المليونين، وتظل الأرقام سبعة في مجموعها — سبعة صغيرة، تكبر وتصير ثمانية أرقام في القسم المختص بالجند الخليفي أو الأهلي، فهذا الجند مؤلَّف من أحد عشر ألفًا من المشاة وثمانمائة من الخيَّالة، بمصحاته وإدارته وكتَّابه، يكلِّف البلاد سبعة وأربعين مليونًا من البسيطات؛ فيكون مجموع هذه الأبواب الثلاثة خمسين مليونًا.

بعد الخليفة وقصره وحرسه وجنده تجيء الصدارة العظمى بكتَّابها ونوَّابها في الإيالات الخمس (١٨٠٠٠٠٠)، فالعدلية الإسلامية (٧٧٠٠٠٠)، فإدارة أملاك المخزن

[1] المخزنيون — الدرك — في القصر ثلاثون، وفي الحراسة أربعة وعشرون، أما الحراسة نفسها فهي مؤلَّفَة من ثمانين جنديًّا وعشرين فارسًا.

ووزارة الحبوس — الأوقاف — (٣٠٠٠٠٠) هي نفقات الحكومة الخليفية الأهلية، تضاف إلى ما تقدَّم، فتبلغ كلها ثلاثة وخمسين مليونًا من البسيطات، أي نحو نصف الميزانية العامة.

أما الحكومة الإسبانية، فقد حذت على الإجمال في هذه المنطقة حذو الحكومة الفرنسية في المنطقة الجنوبية، فالسلطان هناك لا يزال المشترع الوحيد — اسمًا وصورة — في السلطنة. فتُعلَن الشرائع والقوانين والقرارات بخط سلطاني شريف يُدعَى ظهيرًا، فيحترمه، يطيعه في الأقل، كلُّ مَن في السلطنة حتى الأجانب، من أعلاهم أي المقيم العام إلى آخِر اللائحة. ولكن ممَّن يجيء هذا الظهير؛ مَن ذا الذي يكتبه؟ مَن ذا الذي يمليه؟ قال لي أحد السياسيين في طنجة، وهو يريني ظهيرًا شريفيًّا، ويشير إلى البسملة فيه والخاتمة والتاريخ الهجري: هذا وهذا وهذا من فاس، والباقي من باريس!

وبعد الظهير تجيء الحكومة الشريفية السلطانية، وهي مؤلَّفَة من وزير أول، ووزراء العدلية والأحباس والمعارف، ومن محتسبين وباشاوات — محافظي المدن — وقوَّاد — المحافظين في القبائل — وقضاة الشرع والشرطة والجند السلطاني، ولكن هذه الوظائف كلها أمست اليوم إدارات مدنية أو عسكرية يديرها المراقبون أي المستشارون الفرنسيون. لكل وزير، ولكل قائد، ولكل باشا مراقب، ولمدير الشرطة، ولمجالس البلدية كذلك مراقبون.

أما الحكومة الانتدابية، فهي مؤلَّفة من مقيم عام ومندوب من قِبَله لدى السلطان وكتابة السر. إدارتها المركزية في الرباط، تشتمل على دوائر شتى مدنية، شخصية، شريفية، قضائية، اقتصادية، مالية، صحية، عسكرية.

هذا في الرباط مركز الإقامة العامة، وهناك داخل البلاد، في كل منطقة أو ولاية موظفون مدنيون بنوَّابهم وأعوانهم وكتَّابهم والمترجمين يقومون بالأعمال المدنية والعسكرية والإدارية، والاجتماعية والسياسية. هؤلاء الموظفون، الشبيهون بالوكلاء السياسيين في الاصطلاح الإنكليزي، يقدِّمون للمقيمية التقارير المشتملة على أخبار كل منطقة وأعمالها — الظاهرة والخفية — ومَن فيها من سياسيين ومشاغبين، وعليهم أن يراقبوا أعمال الباشاوات والقوَّاد والقضاة، ويؤانسوا الوجهاء والزعماء مستطلعين أخبارهم — وأسرارهم — وأن يساعدوا الفرنسيين المقيمين في منطقتهم، ويشرفوا على جباية الأموال المفروضة على الرعية، هؤلاء المراقبون هم دائرة المعارف للمقيمية العامة.

ومما هو جدير بالذكر أن قضاة الشرع هناك كذلك يحكمون في القضايا التي تتعلق بامتلاك الأجانب للأراضي، وذلك بموجب مادة في ميثاق مؤتمر الجزيرة، أما بعد ذلك،

أي بعد أن تصبح الأرض ملك الأجنبي، فالحكم فيما يتعلَّق بها من خصائص قضاة الفرنسيين، وذلك بموجب قوانين التملك الجديدة.

هذا النظام متبع على الإجمال في المنطقة الخليفية، ولكن الإدارات التي تختص بالحكومة الإسبانية الإقامية تنحصر في كتابة السر العامة ونيابة الأمور الوطنية، التي تشتمل على دوائر الصحة والتعليم، ثم المحاكم العدلية الإسبانية، فيبلغ مجموع نفقاتها خمسة وثلاثين مليون بسيطة.[٢]

أما قيمة ما تنفقه البلاد على الدولة الحامية، فتتعسر معرفتها بالتدقيق؛ لأن هذه الدوائر لا تنحصر منافعها بالإسبان الحاكمين، بل تتجاوزهم إلى أهل البلاد. فلو قلنا إن دوائر الإقامية والمحاكم الإسبانية زيادات قضت بها الحماية، كما هي الحقيقة، فنيابة الأمور الوطنية ليست في كل نفقاتها من هذه الزيادات؛ ذلك لأنها تشتمل على دائرتي الصحة والمخزن، وهما من دوائر الحكومة الأهلية. أما دائرة التعليم فنفقاتها تتناول المدارس المغربية والإسبانية، وسنحاول مع كل ذلك الغربلة؛ فنسقط من الثلاثين مليون بسيطة نفقات نيابة الأمور الوطنية (١٢٠٠٠٠٠٠)، ونفقات المخزنية المغربية والصحة والتعليم[٣] (٥٠٠٠٠٠٠)، فيبقى ثلاثة عشر مليون بسيطة، هي نفقات الحماية.

أما الباقي من الميزانية، أي دوائر الأشغال العامة والمالية والبحرية، فهي من الدوائر التي لا تستغني الحكومة الخليفية عنها — هي من المنافع العامة. كل ما تنفقه البلاد إذن

[٢] هي بالتفصيل:

المقيمية العامة	١٤٦١٠٠
الكتابة العامة أي مكتب كتابة السر العامة	٤٠٢٥٩٢٠
نيابة الأمور الوطنية	٣٥٥٣٥٢٥١
المحاكم الإسبانية	٦٨٠١٨٠
	٣٥٣٨٧٤٥١

[٣] ميزانية المعارف هي ٣٣٠٠٠٠٠ بسيطة، فأسقطت للمدارس الإسبانية ١٣٠٠٣٠٠٠، وهي على ما أرى فوق الحقيقة لا دونها.

على الحكومة الحامية، بمقيميتها ومراقبيها العسكريين والمدنيين، والملحقين بالمراقبين، والمساعدين الإداريين، والمترجمين والكتَّاب والفنيين والأطباء وقضاة المحاكم الإسبانية، كل هذه النفقات لا تتجاوز العشرين مليون بسيطة، أي أقل من خمس ميزانية البلاد.

لقد بيَّنت الأسباب في زيادة ميزانية الحكومة المغربية زيادة لا تبرِّرها طبيعة البلاد واقتصادياتها، بل تبرِّرها طبيعة الملك وتقاليده، وقد بيَّنت كذلك أن الزيادة ليست كلها من الوضع السياسي المزدوج، الخليفي الإسباني في حكم المنطقة، وأن كل ما تدفعه البلاد ثمن لا يتجاوز خمس الميزانية العامة.

وإذا ما قارنَّا بينها وبين ميزانية المنطقة السلطانية تبيَّنَ من الفرق في بعض فروعها ما يدهش حقًّا ولا يسر؛ فميزانية الدولة المغربية — الفرنسية — لسنة ١٩٣٦ هي ثمانمائة واثنان وسبعون مليونًا، وثلاثمائة وثمانية عشر ألفًا من الفرنكات (٨٧٢٣١٨٠٠٠)، أي نحو أربعة وأربعين مليون ليرة لبنانية، وما هي بالكثير؛ لأن المنطقة السلطانية هي أربعة أو خمسة أضعاف المنطقة الخليفية مساحةً وسكَّانًا وأكثر منها ثروة.

إنما المدهش المحزن هو أن أكثر من ثلث هذه الميزانية، أي ثلاثمائة وخمسين مليونًا من الفرنكات مخصَّص لدفع فوائد الديون العامة وما يستحق من أصلها،[٤] وهي أضعاف أضعاف ما يُخصَّص للسلطان والعائلة المالكة. وهناك مائة وتسعة ملايين نفقات للمراقبة السياسية والدوائر العامة، ثم ثلاثة ملايين لما يُدعَى صندوق السيادة، وهو ما يسميه المغاربة الصندوق الأسود؛ لأن أكثر هذه القيمة تُبذَل للجواسيس.

أما المعارف — وها هنا الفرق الأكبر — فالمخصَّص لها خمسة وسبعون مليون فرنك، منها اثنان وخمسون مليونًا للتعليم الفرنسي الإسرائيلي، وثلاثة وعشرون مليونًا لتعليم المغاربة المسلمين، أي إن مليونين ونصف مليون ليرة تُخصَّص لأبناء الأقلية، ومليون ليرة لأبناء الأكثرية الساحقة في البلاد.

فإن غضضنا الطرف عن مجموع المخصَّص بالتعليم، وهو قليل جدًّا بالنسبة إلى عدد سكان البلاد، فأي عذر نلتمس للسلطة الفرنسية هناك في هذه القسمة الضئزى بين أبناء

[٤] لو فرضنا أن المنطقة السلطانية هي خمسة أضعاف المنطقة الخليفية، وعليها قسمتها من الدين؛ فالقسمة تبلغ سبعين مليونًا أي ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف ليرة، وليس على المنطقة الخليفية اليوم ثلثها. فالالتزامات العامة، كما تُسمَّى في الميزانية، هي دون الخمسة الملايين بسيطة (٤٦٧٦٢٨٤)، أي نحو تسعمائة ألف ليرة لبنانية.

الأقلية وأبناء الأكثرية من السكان؟ ألأن اليهود أصدقاء الفرنسيين وأعوانهم في سياستهم الاستعمارية يتساوون وأبناء المستعمرين، فيخصون مدارسهم بمليونين ونصف مليون ليرة، ولا يخصون مدارس المسلمين أهل البلاد بغير مليون واحد؟

إن نفقات المدارس الإسبانية، في المنطقة الخليفية، لا تتجاوز المليون بسيطة، ويجب أن يسقط منها النصف في الأقل، أي رواتب المعلمين الإسبان والمعلمات في المدارس الأهلية، ويضاف إلى نفقات التعليم الأهلي، فتكون النتيجة أن أكثر من أربعة أخماس ميزانية المعارف تُصرَف على أبناء الأهالي، وأقل من خُمس واحد على تعليم أبناء الإسبان.

ها هو ذا أحد وجوه التفاوت بين الحكمين الفرنسي والإسباني في المغرب، وسنذكر غيره في فصول أخرى، ونزيدك علمًا بما يبذله الإسبان في سبيل التعليم في المنطقة الخليفية.

الفصل العاشر

البيت العلوي

في أواخر النصف الأول من القرن السادس عشر كانت سيادة البربر في المغرب الأقصى على وشك الزوال، ويوم تغلَّبَ محمد المهدي السعدي على باحسُّون آخِر ملوكهم انهارَ صرح تلك السيادة، فقامت على أنقاضها الدولة السعدية.

وكان محمد المهدي مؤسِّس هذه الدولة شديد البأس شجاعًا طموحًا، وعلى شيء من الحكمة، فوالَى الإنكليز لتحسين تجارة البلاد، ووطَّدَ صلته بالإسبان تعزيزًا لسياسته، ولكنه حمل على البرتغاليين حملات موفَّقَة، وهو يطمع بالاستيلاء على ثغور المغرب كلها.

وكان الأتراك يومئذٍ يتقدَّمون في أفريقيا الشمالية فتحًا واحتلالًا، فزاد المهدي جنوده، واضطر للقيام بنفقاتها وتعزيزها إلى أن يزيد في الخراج على رعاياه. الخراج! عقبة سلاطين المغرب الكأداء.

فلما زاد في الخراج تمرَّدَتْ بعض القبائل وذَرَّ فيها قرن الفتنة، وبما أنه والَى النصارى ثار عليه ثائر الدين كذلك، فقام الغُيُر المرابطون يدعون المؤمنين للجهاد؛ فحمل المهدي عليهم حملةً شعواء بدَّدَتْ شملهم قتلًا وطردًا، بعد أن هدَّمت زواياهم. بددت تلك الحملة شملهم، وما أخمدت نارهم، فراح الناجون والمطرودون يناصرون الأتراك على سلطان البلاد، فكثر عليه الأعداء، ولكنهم لم يتمكَّنوا منه إلا غدرًا. ومن تهكُّمِ الأقدار أن تكون اليد الغادرة من جنده!

بعد وفاة المهدي (٩٦٣هـ/١٥٥٧م)، خلفه ابنه الملقَّب بالغالب، فتمشى على سياسة أبيه في موالاة الإسبان، وتوطيد صلاته بهم، كما أنه واصَلَ الحملات على غلاة الدين، وما كان فيها موفَّقًا توفيق أبيه، وقد حاوَلَ محمد الغالب أن يجدِّد بعض مجد المغرب، أو يعوض بالبناء عن إخفاق سياسته الداخلية، فشيَّدَ قصرًا فخمًا في عاصمته وبنى مدرسة

وجامعًا. على أنه ظلَّ مواليًا للإسبان «الكفار» في نظر أولئك الغُيُر على الدين، فقضى نحبه بين حُبَّين تجاذَبَا قلبه: حب الجزيرة الخضراء، وحب الجنة!

وما كان ابنه محمد المتوكل بالخلف السعيد للسلف الحميد. ما صَحَّ على ما يظهر توكُّله! ويل للسلاطين من العمومة وأبناء العم! فقد نازَعَ المتوكلَ المُلْكَ اثنان من عمومته اسم أحدهما عبد الملك، فعاد المغرب إلى سالف عهده من الفتن والحروب، وكان عبد الملك منتصرًا على ابن أخيه الذي فَرَّ هاربًا إلى بلاد البرتغال. راح يتوكل على «الكفار».

ولكن مليك تلك البلاد البرتغالية يوحنا الثالث (١٢٥١–١٥٥٧) كان زاهدًا في الأساكل الأفريقية، والثغور المغربية، مؤثرًا عليها البرازيل، وفَتْحٌ واحد في العالم الجديد يُنسِيك الفتوحات والاندحارات المغربية كلها. ليأخذها السلطان المهدي! وهو المعاصر ليوحنا، الموفق في حملاته على البرتغاليين في الثغور التي احتلوها على شاطئ الأطلنتيق والمتوسط. فأخرجهم من سبتة، وما بالَى يوحنا بما حلَّ بهم في الثغور الأخرى، وما كان معارضًا في تقدمة طنجة هدية إلى الأميرة كاترين — بعض مهرها — يوم زواجها بالملك شارلس الثاني. خذوا طنجة، يا أبناء العم الإنكليز، وخلِّصوها من يد «الكفار».

أما الملك سبستيان الذي خلف أباه (١٥٥٧–١٥٧٨) فلم يكن زاهدًا زهده في المغرب، بل كان ينزع نزعة أجداده الفاتحين، ويطمع في استعادة ما خسرته البرتغال في عهد أبيه. كان سبستيان شديد النعرة الدينية، مثل أولئك المرابطين في المغرب. سبستيان المرابط البرتغالي حامي ذِمار الدين! ثار ثائره على «الكفار»، فعبَّأ الجيوش لفتح بلادهم وتنظيف الأرض منهم.

وكان محمد المتوكل لا يزال في بلاد البرتغال، فقال في ... كدتُ أخطُّ الكلمة فوقفت عندها متورعًا. سبحان العالِم بذات الصدور! ولكني أتصور المتوكل قائلًا: أنا وابن عمي على الغريب، وأنا والغريب على عمِّي!

أبحر الملك سبستيان بجنوده، ومعه محمد المتوكل، فنزلوا في أصيلة، ومشوا جنوبًا إلى العرائش، فخرج لهم السلطان عبد الملك بجيش من القبائل ونازلهم في وادي المخازن بالقرب من القصر الكبير.

وفي ٤ أغسطس ١٥٧٨م/٩٤٨هـ كانت الوقعة الكبرى التي تُعرَف في تاريخ المغرب بوقعة الثلاثة الملوك؛ فقُتِل فيها سبستيان، وهلك المتوكل، ومات بُعَيْد ذلك عبد الملك، إنما النصر كان للقبائل التي حاربت يومئذٍ مع عبد الملك وكانت متحدة مستبسلة، فنصرها الله على «الكفار»، كما يقول مؤرخ تلك الأيام!

بعد وفاة عبد الملك تولى أخوه أحمد، فبايعته القبائل التي حارَبَتْ في وقعة وادي المخازن، وراح يؤدِّب بها الخارجين عليه، ويُخضِع المتمردين في شمال البلاد وشرقها، فكان منتصرًا في حملاته كلها، فسُمِّيَ «المنصور».

ثم غزا المنصور السودان، فوصل إلى تمبكتو، وعاد منها ظافرًا غانمًا الغنائم الكثيرة، منها ألف عبد عمليق، وثمانية آلاف قطعة من الذهب، فسُمِّي «الذهبي»، «وفاتح السودان».

كان ذلك السعدي المنصور على جانبٍ يُذكَر من صفات الفاتح والسياسي، فقرن الشجاعة بالحكمة، وكلَّلَها بالعلم وبحبه لأهل العلم، يتخذ منهم الكتَّاب والأعوان، فقالوا: «هو عالِم الخلفاء وخليفة العلماء.»

ازدهر المغرب في عهد الخليفة الكثير الألقاب، والكثير الأعمال الجلية؛ فتوطدت أركان الملك والأمن والسلام في البلاد، ثم سعى لتوطيدها كذلك في الخارج، بعقد معاهدات حُسْن الجوار والتجارة مع دولتي إنكلترا وإسبانيا، فحال القدر دون إتمام مشاريعه الدولية هذه، يوم فتحَ بابَ القصرِ للوباء الذي غزا المغرب سنة ١٦٠٥، فكان المنصور الذهبي غنيمته الكبرى. لقد نُكِب المغرب في فقده نكبتين، نكبة البنَّاء الصريع في وسط عمله، والنكبة التي تلتها.

خلف المنصور ابنه زيدان، فقام أخواه فارس والمأمون ينازعانه الملك، فاحترب الإخوة الثلاثة احترابًا دام بضع سنوات، استولى المأمون خلالها على العرائش، فباعها للبرتغاليين[١] سنة ١٦١٠؛ لحاجته إلى المال في محاربة أخيه. وفي هذه الحرب «الأخوية» احتلَّ الإسبان، سنة ١٦١٤، ثغرَ المعمورة — المهدية اليوم — عند مصب نهر الصَّبُو.

أما زيدان، فبالرغم من أنه أُرِيحَ أخيرًا من أخويه — إذ قُتِل فارسٌ في إحدى المعارك، وقُتِلَ المأمون غدرًا في ضواحي طنجة — لم يستتب الحكم له، وما امتاز بغير أنه آخِر السلاطين السعديين!

فالمهدي جده أخرج الفرنجة من بعض ثغور المغرب، وعمه عبد الملك ردَّهم عنها مدحورين خاسرين، وها هم أولاء، بفضل هذه الحرب «الأخوية»، يعودون. فلا عجب إذا ثارت في البلاد ثوائر الدين والقومية العربية، ولا سيما أن العرب المتخلفين في إسبانيا طُرِدوا منها بعد فتنة ١٦٠٩ هناك، فتخلَّل تلك الثوائر الدينية القومية ثائرُ الانتقامِ: أخرجتمونا من إسبانيا فسنخرجكم من المغرب، ولن تعودوا إذًا أبدًا!

[١] باعها بنصف مليون دوقة، أي ربع مليون ليرة إنكليزية.

دعا الداعون للجهاد، جهاد الفرنجة والموالين لهم من أولي الأمر في البلاد، وكان في مقدمة الدعاة رجل اسمه أبو حسن علي الشريف، من أشراف الحجاز، هاجَرَ أهله من ينبع إلى المغرب الأقصى، فتوطنوا سجلماسة في الجنوب. راح علي الشريف يدعو للجهاد بلهجة ملتهبةٍ فصاحةً وإيمانًا، فلبَّى دعوته الناس من بدو وحضر، وانضَمَّ إليه أولئك الذين طُردوا من إسبانيا، فعظم أمره، وانتشرت دعوته، فاستحالت ثورةً على السلطان السعدي زيدان، ويوم استولى الثائرون على سجلماسة نادوا بمحمد بن علي (١٠٥٠هـ/١٦٤١م) ملكًا على تفيلالت، أي المقاطعة الجنوبية من المغرب.

قضى السلطان زيدان نصف مدة ملكه في محاربة أخويه، والنصف الآخَر في محاربة أولئك الثائرين، الطالبين الملك، الممهِّدين لدولة جديدة — دولة عربية شريفية علوية — وما كان انتصاره على أخويه، ولا كانت حملاته على الثائرين؛ لتمحو ما خطته يد القدر في البداية وفي النهاية من تاريخه، وهو أنه آخِر السلاطين السعديين.

كان الرشيد أخو محمد بن علي حامِل العَلم الأول في الجهاد، ومنتصرًا في أكثر مواقعه فعَلَا نجمُه، وتردَّدَ بين القبائل اسمُه. هؤلاء الثلاثة العرب: علي الشريف صاحب الدعوة، وابنه محمد زعيم الثورة، وابنه الرشيد ناشِر أعلامها شرقًا وشمالًا، هم الأركان الثلاثة للدولة الجديدة، ويصح أن يقال إن عليًّا وابنه محمدًا مهَّدَا لها، وإن الرشيد مؤسِّسها وأول ملوكها؛ فقد بُويِعَ بالخلافة في ٦ يونيو سنة ١٦٦٦ / ١٠٧٥هـ، ونودي به «ملك تفيلالت وفاس ومراكش وترودنت وسائر المغرب».

ولكنه كان قصير العمر؛ فبعد ست سنوات من جلوسه على العرش بفاس، يوم كان عائدًا من ساحة القتال، وقد أخمد فتنةً أضرمها ابن عم له، جفل جواده في حديقة القصر، فاصطدم الملك بشجرة، فشُجَّ رأسه شجة قضت عليه، وهو في الأربعين من سنه.

أما أخوه إسماعيل، الذي تبوَّأ العرش بعده، فقد عاش طويلًا، وملك سعيدًا خمسة وخمسين سنة (١٦٧٢–١٧٢٧) وهو أحد الثلاثة السلاطين العظام في تاريخ المغرب.

ذكرت — وأنا أقرأ أخباره — الملك عبد العزيز بن سعود، فقد كان إسماعيل في زمانه مثل عبد العزيز في زماننا، موحِّد البلاد، مؤدِّب البادية، معزِّز الأمن، ضابط الأمور بيد من حديد، وبقلب — غير قلب عبد العزيز بن سعود — بقلب لا يعرف الشفقة والحنان، حتى في أخص أهله — في الحريم.

فقد كان إسماعيل مزواجًا عجيبًا، لزم الحد في الشرعيات، وما عرَفَ حدًّا لما جاء في الآية: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، وكان فخورًا بذريته التي تجاوَزَتِ المائتين عدًّا ذكورًا وإناثًا.

تحدَّثَ العارفون من الفرنجة الذين زاروا المغرب وأقاموا فيها، عن حريم إسماعيل فقالوا: إنه مثل حريم النبي سليمان، فيه ما لا يقل عن الخمسمائة من النساء البيض والسود، وبينهن شقراء إنكليزية.

وقد أراد إسماعيل أن يضيف إلى ما ملكت يمينه من فرنسا، من باريس، من الذرية الملكية، فطلب من لويس الرابع عشر ابنته المدموازيل ده كونتي من محظيته لويزا فاليار، وكان قد وصف له محاسنها سفيره إلى ملك الفرنسيين العظيم، وقال إنها تقبل أن تتغرب وتتجرب وتعتنق فوق ذلك الإسلام، ولكنها لم توافق إلى ما كان يشتهيه قلبها المجنح، فتغربت وتجربت في باريس. قال المؤرخ: عندما طلبها السفير المغربي كان الجواب ابتسامة ناعمة فرنسية الذوق والمعنى، ولكن أحد رجال البلاط قال للسفير، ولماذا لا يصير مليككم مسيحيًّا؟

كان لويس الرابع عشر في الرابعة والثلاثين من سنه، والتاسعة والعشرين من ملكه، يوم بُويِع إسماعيل بالخلافة وهو في السادسة والعشرين، فتعاصَرَ الملكان ثلاثًا وأربعين سنة، وتشابَهَا في طول عهديهما؛ فقد ملك لويس اثنتين وسبعين سنة منها ست عشرة سنة بوصي، فيكون حكمه الشخصي الفردي ستًّا وخمسين سنة، وملك إسماعيل خمسًا وخمسين سنة كاملة.

ولو كان لويس ملك المغرب ومنه، لكان حريمه كحريم إسماعيل وأعظم، ولو كان إسماعيل ملك فرنسا لكان في تسريه كلويس الأكبر.

وقد تشابَهَ الملكان بالاستقلال والاستبداد في الحكم، فما كان يطيقان المعارضة، ولا يأذنان برأي مخالف للرأي الملكي. كلمة لويس: L'État c'est moi كان يقولها إسماعيل بلهجات شتى، أو بالحري في شتى أعماله كل يوم. وقد تشابه الملكان في أن الفرنسي كان يحسب نفسه ظل الله على الأرض، والعربي المغربي يُدْعَى خليفة الرسول. إلا أن العقلاء من رجال «ظل الله» كانوا يبتسمون ويتهامسون، وأهل المغرب يبايعون على الخلافة ولا تهامُس ولا ابتسام. وقد تشابَهَ الملكان في مطامعهما السياسية، فشاء لويس أن يبسط نفوذه في كل مملكة من ممالك أوروبا، وشاء إسماعيل أن يكون سيد المغرب، بل سيد

أفريقيا الشمالية جمعاء. شعر لويس بشيء من عظمة سيد المغرب فواصله ليدنيه من ظل سيادته ونفوذه، وأدرك إسماعيل عظمة لويس فأرسل سفيره إليه متودِّدًا متقرِّبًا.

ويوم عاد السفير من باريس وصَفَ لمولاه محاسن قصر فرساي ومفاخره، فعول إسماعيل على أن ينقل القصر إلى مكناسة، ويزيد عليه، لا لشغفه بالبناء فقط، بل حبًّا بالمنافسة والمفاخرة. ومما شيَّده قصر القصبة، فكان مدينة بذاته، والحصون الثلاثة المحدقة به، ومدينة الرياض لكبار الموظفين، فبلغ عدد العمال فيها ثلاثين ألفًا عدا ألفين معهم من أسرى النصارى.[٢]

كان لإسماعيل حبان يسيطران على قلبه وعقله وروحه، ذكرت أحدهما وهو حبه للنساء، وأما الثاني فهو حبه للمال، كان يبتزه خصوصًا من اليهود.

وكان فخورًا بذريته، كما قدَّمْتُ، وبعبيده السود العماليق. لهؤلاء العبيد شأن في القصر وفي المملكة، استجلبهم إسماعيل من السودان، وأسكنهم دورًا في ضواحي العاصمة، فكان يُحسِن إليهم، ويعتني حتى بزواجهم، ويجيز الأذكياء بأن يعلِّمهم الصناعات.

كان حرس القصر الخمسمائة من هؤلاء العبيد، وكان منهم العمَّال في سائر الأنحاء ينفِّذون أوامر المولى، ويوطِّدون أركان الأمن والملك في البلاد.

قال المؤرخ: كان إسماعيل يستحلف أولئك العبيد على كتاب البخاري بالإخلاص له ولملكه، فسمُّوا «البخاريين».

أَضِفْ إليهم الجنود، وبينهم كتيبة من الأجانب، أنشأها من شتات الأوروبيين اللاجئين إلى المغرب — أمخترعون الفرنسيون في كتائبهم الأجنبية أم مقلدون؟ — ومن الأسرى الذين كان يجيء بهم القرصان. ذي هي القوى المسلحة التي كانت تمثِّل مشيئة المولى الرهيبة، وإرادته العالية وغير العالية، فأصبحت بلاد المغرب في عهده بلادًا واحدة، طائعة خاشعة، آمنة مطمئنة. كانت البوادي حتى أعالي الأطلس تخشى إسماعيل وتقول: في البلاد اليوم سيد جبَّار!

---

[٢] كان القرصان المسلمون يأتون بالأسرى والسبايا من النصارى إلى المغرب، فيبيعونهم بيع الرقيق، ويبقون مسترقين إلى أن تفديهم حكوماتهم أو أهلهم، وكذلك كان يفعل القرصان المسيحيون بالأسرى المسلمين.

كان إسماعيل طويل القامة، شديد البنية، مخروط الوجه، مقرون اللحية، برَّاق العين، ناعم النظرات، وما فقد في شيخوخته نشاطه الوثَّاب، وروح المرح والشباب. قال أحد الفرنجة الذين زاروا المغرب إنه رأى السلطان الشيخ راكبًا ذات يوم حصانه، وقد حمل أحد أبنائه الصغار بيد والرمح بالأخرى، وإنه كان يمتطي جواده من الأرض في وثبة واحدة كالفارس المغوار.

وكان إسماعيل ذكي الفؤاد، سريع الخاطر، كما أنه كان قاسي القلب، سريع الغضب، فلا يجرؤ أن يدنو منه ساعتئذٍ أحب الناس إليه. لقَّبَه الفرنجة بالدموي؛ لأن الدم كان يجري من مركز سيافه بمكناسة كل يوم، وإنه ليصفه عرب البادية بشيء من الهيبة والإعجاب قائلين: هذا ملك يقطُّ الرءوس.

هو المولى إسماعيل الذي جدَّدَ في المغرب مجد يوسف بن تاشفين، وقدَّم من الحسنات ما قد يشفع لدى الحكم الأعلى.

ومن ذنوبه ما جناه أبناؤه على المغرب. مسكين هذا المغرب، فهل هو غير نسمة من روح العرب، وقطعة من عقلية العرب، وفلذة من كبد العرب؟!

فإن مات منَّا سيد قام سيد ...! لا وربك الأعلى، فإن مات منا سيد قام سادة يتقاسمون ملكه — يتحاربون ويتطاحنون، فيهلكون ولا يملكون، ولا يخسر الخسارة الكبرى غير الشعب المغربي.

شيَّدَ إسماعيل للسيادة العربية المغربية صرحًا عظيمًا، فانهار ذلك الصرح بعد موته، وقامت عليه بوم الخراب. انتقضت القبائل على كل ذي أمر ودعوة. أضرب الأسرى عن العمل في تشييد القصور. قام العبيد «البخاريون» يدعون السيادة العليا في الأحكام. حاوَلَ الأتراك من الخارج ورجال الدين من الداخل أن يقتسموا الإرث العظيم ...

وأبناء إسماعيل في هذه الغمرة من الفوضى يتنازعون الملك ويتحاربون.

فقد جلس المولى عبد الله على العرش وسقط منه ست مرات في خلال عشرين سنة من الفتن والحروب.

وكان الأوروبيون يسعون لتخليص أبناء بلادهم من الأسر، بل من ذلك المغرب الهائج، المتلاطمة فيه أمواج الفوضى، فباع عبد الله الإسبان والإنكليز والفرنسيين أسراهم لاحتياجه إلى المال.

أما المولى محمد، خلف المولى عبد الله، فقد حاوَلَ أن يجدِّد سياسة أجداده الداخلية في حملاته على غلاة الدين، وعلى القبائل المتمردة، فكان توفيقه كنور الشمس الغاربة

بين أكداس من الغيوم، وقد حمل على البرتغاليين والإسبان ليخرجهم من ثغور المغرب، فتوفق في إخراج البرتغاليين من معقلهم الأخير — مازغان — وأخفق في مليلية، فثبت بها الإسبان.

وكان خلفه المولى سليمان أكثر توفيقًا منه في ترميم أركان الملك وتوطيدها، وفي تعزيز شئون المغرب الخارجية، لولا السياسة الأوروبية الأفريقية الجديدة التي بدأت تقرن الغزوات الاقتصادية والمالية بالغزوات الحربية في عهد هذا السلطان، وقد توفقت التوفيق الأكبر يوم احتل الفرنسيون الجزائر (٥ يوليو ١٨٣٠)، أي في عهد ابنه المولى عبد الرحمن.

وفي احتلال الجزائر بداية احتلالها لجميع أنحاء أفريقيا الشمالية الغربية.[٣]

البيت العلوي في المغرب.

علي الشريف	(١٦٣٠م)
محمد بن علي	(١٦٤١م)
الرشيد بن علي	(١٦٦٦–١٦٧٢)
إسماعيل بن علي	(١٦٧٢–١٧٢٧)
محمد بن إسماعيل	(١٧٢٧–١٧٥٧)
عبد الملك بن إسماعيل	(١٧٢٧–١٧٥٧)
عبد الله بن اسماعيل	(١٧٢٧–١٧٥٧)
محمد بن عبد الله بن إسماعيل	(١٧٥٧–١٧٩٠)
يزيد بن محمد بن عبد الله	(١٧٩٠–١٧٩٢)
سليمان بن محمد بن عبد الله	(١٧٩٢–١٨٢٢)
عبد الرحمن بن سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل	(١٨٢٢–١٨٥٩)
محمد بن عبد الرحمن	(١٨٥٩–١٨٧٣)

[٣] راجع [الجزء الأول – الفصل الأول: من الاستقلال إلى الحماية].

البيت العلوي في المنطقتين الجنوبية والشمالية في المغرب.

محمد بن عبد الرحمن بن سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن علي الشريف (١٨٥٩–١٨٧٣)		
في المنطقة الجنوبية		في المنطقة الشمالية
السلطان الحسن بن محمد	(١٨٧٣–١٨٩٤)	المولى إسماعيل بن محمد
السلطان عبد العزيز بن الحسن	(١٩٠٠–١٩٠٧)	الخليفة المهدي بن إسماعيل بن محمد
السلطان عبد الحفيظ بن الحسن	(١٩٠٧–١٩١٢)	(١٩١٣–١٩٢٣)
السلطان يوسف بن الحسن	(١٩١٢–١٩٢٧)	الخليفة الحالي الحسن بن المهدي
السلطان الحالي محمد بن يوسف ١٨ نوفمبر ١٩٢٧م/جمادي الأولى ١٣٤٦هـ وعمره إذ ذاك ١٧ سنة		ربيع عام ١٣٨٠هـ/فبراير ١٩٦١م

الفصل الحادي عشر

المخزن والمخزنية

من الألفاظ الشائعة في المغرب دون سواه من الأقطار العربية، ألفاظ ذُكِرت في القاموس وما ذُكِر أصلها، ولا ذُكِر في الأقل أنها مغربية الاصطلاح، كالحبس والبرنس والمخزن.

فقد جاء في القاموس المحيط للفيروزآبادي، في أول فصل من باب السين: الحبْس المنع، حبسه منعه، والحبَّس كركع كل شيء وقفه صاحبه من نخل أو كرم أو غلة يحبس أصله، وتسبل غلته.

وليس في المغرب اليوم مَن يقول المحبس والمحبسات، إذا أراد الأوقات أو الأحباس.

أما صاحب محيط المحيط، المكمل للفيروزآبادي، والناقل أغلاطه، القليلة أو الكثيرة — القليلة بموجب علمي، وهو قليل — فهو يقول: الحبس جمعها أحباس، أي ما وُقِف في سبيل الله.

هذا صحيح فصيح، ولكن القاموسين الكريمين لا ينصفان اسميهما في هذه اللفظة؛ لأنهما لا يحيطان بمعانيها واصطلاحاتها كافة، فلا ينبئان طالب العلم الحديث أن الحبس والأحباس ينحصران في المغرب، ولا يقال في الأقطار العربية الأخرى غير وقف وأوقاف.

أما البرنس، بالضم — العفو، إني الناقل لهذا التدقيق — فهو كما يذكر صاحب «القاموس المحيط» وصاحب «محيط المحيط»: قلنسوة طويلة كان النسَّاك يلبسونها في صدر الإسلام، أو كل ثوب رأسُه منه، دراعةً كان أو جبَّةً أو ممطرًا.

فهل أحاط المحيط ومحيط المحيط علمًا بالموضوع؟ هل نزعَا القلنسوة عن رأس هذه المادة فنتعرف أصلها؟ أَوَجاءت من المشرق إلى المغرب، أم انتقلت من المغرب إلى المشرق؟

أستأذن أئمة اللغة بأن أكمل ما جاء ناقصًا في قاموسي العلَّامتين الفيروزآبادي والبستاني، فأقول: البرنس لفظة بربرية مشتقة من اسم قبيلة قديمة من قبائل البربر اسمها البرنس، وقد تقول أنت: إن هذه القبيلة جاءت من الشرق، من البلاد العربية، تلبس

البرانس، فسُمِّيَتْ بهذا الاسم، وقد يصح قولك، ولا ينفي قولي. وفي كل حال فإن البرانس اليوم لبس المغاربة دون سواهم من الشعوب.

بقيت الثالثة من الألفاظ التي ذكرت، وهي المخزن، عنوان هذا الفصل؛ فاللفظة ظاهرًا عربية، بشهادة الفارسي الفيروزآبادي واللبناني البستاني، فالأول يقول: خزن المال أحرزه، والمخزن كالمقعد مكان الخزم. والثاني يزيد على عادته: خزن المال ... أحرزه واذخره وضعه في الخزانة. ثم يستطرد قائلًا: خازن الأمير الأمين الذي يتولى حفظ ماله وإنفاقه، وخزين الملك خازنه، والمخزن المكان الذي تخزن فيه الأشياء. فيوصلنا في النهاية إلى المعنى المقصود، أما المعاني الأخرى فلا دخل لها فيما يراد من اللفظة اليوم في المغرب الأقصى، ولا دخل للمال لغويًّا — في المخزن.

هذه اللفظة في وضعها واصطلاحها مغربية محض، وُضِعت قبل صاحب محيط المحيط بمائتي سنة، وقبل آخِر مَن كتبوا على القاموس المحيط، وهو من المغرب، أي العلامة الفاسي المعروف بابن الطيب بمائة ونيف من السنين، ومع ذلك فلا هو ولا البستاني أضاف إلى المادة، في الشرح أو في الصلب، اصطلاحها المغربي، واللوم الأشد على ابن الطيب، ابن البلاد، بلاد المخزن.

عليَّ أنا إذن، أنا الفقير إلى رحمة أئمة اللغة قديمًا وحديثًا، أن أكمِّل شرح العلامة الهوريني، الذي رأى شرح الإمام ابن الطيب الفاسي، الذي دلق على كتاب القاموس «دويات» من علمه، وكان عمدة الهوريني في هذا الفن.[1]

باسم الله وعليه توكلت.

كانت قبائل المغرب في الماضي على عداء دائم وأهل المدن، فتروعهم وتغزوهم، وتقطع عليهم الطرق — تسلب وتنهب وتأسر وتسبي متى تشاء، وكما تشاء، ولا غالب غير الله.

وكان الحكم الشرعي القانوني ينحصر في السلطان ووزيره — إذا كان السلطان موفقًا به — وبعض الكتَّاب والحجاب، فيجلس صاحب الجلالة للناس، أو يجلس نائبه، وإلى جانبه رجل يحمل الكرباج أو العصا[2] فينفذ أحكامه في الحال إن كانت دون قطع الرءوس، وإلا فالسيَّاف ينفذها بعون الله.

[1] «ورأيت شرح شيخنا الإمام اللغوي أبي عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي، المولود بفاس سنة ١١١٠هـ/١٦٩٨م، والمتوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م، وهو عمدتي في هذا الفن» (شرح ديباجة القاموس) للعلامة نصر الهوريني.

[2] كان مندوب السلطان في طنجة يجلس للناس عند البوابة التي لا تزال تُدعَى بوابة العصا.

استمرت هذه الحال حتى عهد السلطان السعدي، الذي حدَّثتك عنه في الفصل السابق، وذلك السلطان المنصور الكثير الألقاب — الذهبي، فاتح السودان، عالم الخلفاء وخليفة العلماء — واضع النظام الذي هو الآن موضوعنا.

فقد أراد المنصور الذهبي أن يضبط القبائل بالسياسة والمصانعة، فيقرِّبها منه ويشركها في الحكم ليأمن شرها، أو يتخذ له حزبًا منها، إذا استحال توحيدها في طاعته، فيشقها ويضعف شوكتها؛ لذلك أنشأ النظام المخزني، نسبة إلى المخزن الذي يخزن فيه السلاح؛ ليكون سيفه في البلاد، وترسه في القبائل.

إنه إذن لَذُو صفتين سياسية وعسكرية؛ فالسياسة تنحصر في القبائل، كما قدمت، وقد منح المنصور الموالية منها الامتيازات، وأعفاها من بعض الضرائب، وولى زعماءها القيادة المخزنية، فنصرته على المناوئة المعادية منها.

أما صفة المخزن الأساسية — العسكرية — فهي حفظ الأمن في البلاد بواسطة باشاوات في المدن وقوَّاد في القبائل، يعيِّنهم السلطان، ويكون لهم من المخزن قوة مسلحة تنفذ أحكامهم وأوامرهم.

هذه القوة شبيهة بالدرك، ولكنها توسَّعَتْ في اختصاصها، فشملت فرعًا من القضاء، واختلطت سلطتها حينًا بعد حينٍ بسلطة الشرطة، ثم استمرت في مدارج التطور، طردًا وعكسًا، تفاقمًا وتضاؤلًا، حتى عهد السلطان إسماعيل فكادت تضمحل، ولا عجب، فقد كان إسماعيل، كما ذكرت في الفصل السابق، الكل في الكل.

ولكن المخزنية هذه عادت بعده تشارك في حكومة البلاد، فتجدَّد سالف عهدها في حالتي القوة والضعف، بحسب ما كان من صفات السلاطين الشخصية في سياسة الملك، واستمرت كذلك حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فتطورت في عهد السلطان حسن بن محمد (١٨٧٤–١٨٩٤) تطوُّرًا متشعِّبًا جسيمًا.

فقد كان للصدارة العظمى كتَّاب أو نوَّاب في المناطق كلها، فانحصرت السلطة فيها أو كادت، فأعاد الحسن تنظيم الحكومة المخزنية لتشاطِر الصدارةَ السلطةَ، فيحول التوازن دون التجاوز، وتبقى السلطة العليا في البلاد — السلطة الشريفية العلوية — محترمة معزَّزة.

اشتمل التنظيم المخزني الجديد على ما يصح أن نسميه وزارة كاملة، مؤلَّفَة من رئيس الوزراء، وأمير البحر، ووزير الحربية، وأمين الأمناء (وزير المالية)، وكاتب الشكايات الذي انتحل بعدئذٍ وظيفة قاضي القضاة، ثم صار وزير العدلية.

وكان «المشور» في القصر شبه مجلس سلطاني، يتلوه مكتب الحاجب، وهو الحجاب والصلة بين السلطان ورعاياه، بل كثيرًا ما كان الحاجب صاحب النفوذ الأكبر في القصر، فيسيطر حتى على الحكومة المخزنية.

وقد كانت السلطة المخزنية، في المدن وفي البوادي، تؤثِّر في السلطة المحلية، وتسيطر في بعض الأحيايين عليها، بواسطة القوَّاد والباشاوات الذين يعيِّنهم رئيس الوزراء ليشرفوا على المحتسبين، ويجبوا الخراج، ويقضوا في الدعاوى الصغيرة المدنية والتجارية والجزائية، ولكنهم كقضاة صلحٍ كانوا يعدون صلاحيتهم إلى ما هو من صلاحية قضاة الشرع فقط، أو أن وظيفتهم لم تكن واضحةَ الحدود، فتختلط بحدود قضايا الإرث والأحوال الشخصية.

هذه الحكومة المخزنية، التي تُدعَى أيضًا «المخزن»،[3] قائمة اليوم في أصولها وفروعها في المنطقتين السلطانية والخليفية،[4] ولا تزال في تطوُّر إيجابي وسلبي، وإن اختلف عمَّا تقدَّمَه بعض الاختلاف. فالحوافز اليوم غير ما كانت، والسلطة الواسعة التي تمتد بنفوذها وأحكامها إلى ما هو خارج عن صلاحيتها أمست عرضةً للاحتجاج والشكوى بدعوى الصحافة الحرة والمنبر الحر، وعلى الأخص في المنطقة الخليفية.

لنَعُدْ إذن إلى هذه المنطقة، منطقة رحلتنا، نواصِل فيها البحث. على أنه من الواجب، قبل استكشاف وجوه الشكوى وأسباب الاحتجاج، أن أصف مُوجِزًا نظامَ المنطقة القضائي؛ فالمحاكم فيها تُقسَّم قسمين: محاكم شرعية تنظر في قضايا الأحوال الشخصية والعقارية والإرث، بموجب الشرع الإسلامي ومعاهدتي مدريد والجزيرة، ومحاكم مخزنية تنظر في القضايا الأخرى التجارية والمدنية والجزائية. هذه المحاكم يرأسها الباشاوات في المدن والقوَّاد في القبائل، وقد يكون الباشا أو القائد القاضي الوحيد في بعض الأحايين.

وفي هذه المنطقة محكمة استئناف شرعية، رئيسها وزير العدلية، لها فروع في الإيالات الخمس ونواحيها؛ ففي الإيالة الغربية مثلًا قاضٍ للاستئناف في كلٍّ من المدن الثلاث، أي العرائش والقصر الكبير وأصيلة، وفي كل محكمة شرعية من محاكم القبائل الست، وهي: بنو غرفط، وبنو عروس، وأهل سريف، وسوماته، وبنو يسف، وبنو زكار، وكذلك في الإيالات الأخرى.

---

[3] ويقال كذلك «المخزن الشريف»، وهو في اصطلاح المغاربة اليومَ الحكومةُ المغربية الوطنية التي على رأسها جلالة السلطان.

[4] أي منطقة الحماية الفرنسية، والأخرى الإسبانية.

أَضِفْ إليها المحاكم اليهودية: محكمة عليا في تطوان مؤلَّفَة من حاخام رئيس وحاخامين قاضيين، وثلاث محاكم عدلية في تطوان والعرائش والناضور.

أما المحاكم العدلية الإسبانية فهي إحدى عشرة: محكمة عليا في تطوان، وثلاث محاكم ابتدائية في تطوان والعرائش والناضور، وست محاكم صلحية في المدن الثلاثة المذكورة وفي القصر الكبير وسنخرخو وأصيلة.

ولكن القضايا الجزائية كلها، ما عدا الإسبانية منها، يقضي فيها باشاوات وقوَّاد المخزن، ومرجعهم واحد في صفتهم المزدوجة، القضائية والتنفيذية، هو مرجع المحاكم الشرعية، أي الوزارة العدلية. فلو جُرِّدَ هؤلاء الموظفون من صفتهم القضائية، لَكان ينبغي أن تكون الصدارة العظمى مرجعهم مباشرةً، وفي ذلك ما فيه من الاقتصاد في الأعمال الإدارية.

قلت إن لقوَّاد وباشاوات المخزن صفتين: قضائية وتنفيذية، فيجب أن يضاف إليهما صفة ثالثة تتعلق بالإدارة المدنية العسكرية الدركية والقضائية معًا، فهي حقًّا وظيفة خطيرة ولو ردَدْتُها إلى أجزائها الثلاثة لَكان كل جزء منها وظيفة مهمة تستوجب في صاحبها الاختبار والعلم والمقدرة، فضلًا عن الأخلاق العالية.

وها قد وصلنا إلى مواطن الخلل والتجاوز. إن لكل وظيفة من هذه الوظائف الثلاثة الإدارية والمخزنية والقضائية؛ شروطًا خاصة في العلم والممارسة كما قدَّمْتُ، وشروطًا عامة في الأخلاق، وهي غير متوافرة في موظفي الحكومة المخزنية الحاضرة، بل إن الكفاية نادرة، إما لضعفٍ في أخلاق الموظف، وإما لنقص في علمه واختباره.

لذلك يطلب المصلحون إصلاح المخزن، ويقترحون ويحدِّدون، فمن اقتراحاتهم أن تنشأ مدرسة خاصة، ذات برنامج حديث الطراز، مناسب لتطوُّر الشعب المغربي؛ لتخريج طبقة من الموظفين صالحة، وأن تُحصَر الوظائف العليا، الباشاوات والقيادات، في المتخرجين من هذه المدرسة.

وبكلمة أخرى هم يطلبون أن تحل الكفاية، علمًا وخلقًا، محل العصبية العائلية أو القبلية، وإذا عدمت البوادي هذه الكفاية، فيجب أن يُعيَّن لها قوَّاد من غير أهلها. هو عين الصواب نظريًّا، ولكنه عمليًّا كثير الصعوبات.

وعندي، وقد خبرت شئون البوادي في شبه جزيرة العرب، أنه يستحيل؛ لأن سياسة البدو، وضبط أمورهم وإقامة العدل فيهم، قلَّمَا يحسنها عامل من غير أهلها المدربين؛ فالعصبية القبلية شديدة النزعة، صعبة المراس، متأصلة في طبائع البدو وتقاليدهم،

فيصعب التغلب عليها، وقد لا يجوز في بلد أكثر سكانه من البوادي، قبل أن يعمَّ فيه التعليم الابتدائي والثانوي.

أما الفصل بين الوظيفتين التنفيذية والقضائية فهو ممكن ومفيد، بل هو الواجب أصلًا ووضعًا، ولا شك في أن الحكومة الخليفية الإسبانية مدركة هذا الواجب، وستقوم به، إن شاء الله، فتعيِّن قضاة صلح في مراكز القيادات، ذوي كفاية علمًا وخلقًا وخبرة، مرجعهم الوزارة العدلية، وتحصر القيادة والباشاوية في صلاحيتها الأصلية، فتصلهما مباشرةً بالصدارة العظمى، فتتوزع إذ ذاك المسئولية، وتقل الإساءات.

هذا في المخزن، إلى أن تنشأ المدرسة المنشودة لتخريج الموظفين.

وهناك إصلاح في المحاكم نفسها يطلبه المُصلِحون، وهو أن يكون لمحكمة الشرع قسمان: ابتدائي وثانوي، وأن تكون المحاكم الثانوية ثابتةً في المدن، والابتدائية ثابتةً في المدن متنقلةً في البوادي، بل يجب أن تُقسَّم محكمة الصلح كذلك إلى قسمين: ابتدائي وثانوي، ومتنقل. فتنظر المحاكم الابتدائية في المخالفات والقضايا الصغيرة، وتقضي الثانوية في الدعاوى الكبيرة التجارية والمدنية والجزائية. هذا إلى أن يتم الفصل بينها فيستقل بعضها عن بعض، كما هو الأصل المتبع في البلدان الراقية الإسلامية وغير الإسلامية.

على أن الإصلاح المنشود لا يقف عند هذا الحد، بل يتعداه إلى محكمة الاستئناف التي يجب أن تكون اليوم محكمتين: جزائية ومدنية عملًا بسنة الارتقاء الاجتماعي في المغرب وفي المشرق.

إني أذكر هذا الإصلاح المطلوب في المخزن وفي القضاء، لا لأنه واجب وعادل فقط، بل لأنه أيضًا مظهر من مظاهر التطور في الشعب المغربي، وفي أعمال زعمائه ومُصلِحيه.

بقي أن أقول بعد انتقاد النظام المخزني الحاضر، وتحبيذ إصلاحه، إن وظيفة «المخازني»، كما يُدعَى هناك، ليست بالوظيفة المعسلة في بلاد جبلية مثل المغرب الأقصى، وأن في السلك المخزني غير واحد من طراز ذلك «المخازني» الشريف، أول مغربي اجتمعتُ به يوم وطئت أرض المغرب، صاحب السبحة أكرمه الله.

ويجب أن أقول كذلك إن الباشاوات والقوَّاد مَن يدركون وجوب الإصلاح ويطلبونه، وهم يشعرون بخطورة المسئولية التي يلقيها النظام المخزني على عواتقهم.

قال لي أحدهم: مهنة المخازني مهنة مهلكة، ولا جزاء ولا شكر.

قلت: ولا رشوة؟ …

قال: الجزاء حلال والرشوة حرام، وسبحان مَن لا يخلط الحرام بالحلال!

فقلت: وهل مثلك كثير.

فأجاب على الفور: القليل كثير!

أعود إلى اللغويات التي افتتحت بها هذا الفصل، إلى مادة خزن؛ فإن من اشتقاقاتها أخزن الرجل: استغنى بعد فقر!

ولكن الإخزان لا يصح في «المخازنيين» أكثر مما يصح في الرهبان عندنا في لبنان، وكما أن في الأديرة بعض الصالحين، فكذلك في المخزن، فإن أخزن الرؤساء فالمرءوسون هم هم الذين قال فيهم المسيح: إنهم معنا على الدوام!

بل يجب أن أقول كذلك إن بعض القوَّاد والباشاوات تصح فيهم عكس كلمة القاموس، وقل كلمة المسيح؛ ذلك لأن بيوتهم مفتوحة دومًا للضيوف، وللمستضيفين.

إذن يجب أن نضيف إلى مادة خزن: تمخزن الرجل أي افتقر بعد استغناء!

قال مخزني عزب ظريف: مَن تزوَّجَ هلك، ومَن توظَّف مات، ومَن تمخزن مات وهلك!

وقال الشارح: مَن تزوَّجَ هلك وهو حي، ومَن توظَّف عاش وهو ميت، ومَن تمخزن أي توظَّفَ في حكومة المخزن، مات و...

دام فهمُك ودامت نعمتُك!

الفصل الثاني عشر

نهضة التعليم

إن عرب المشرق ليجهلون ما في المغرب الأقصى، وخصوصًا ما في هذه المنطقة منه، وقد كان المغاربة لبضع عشرة سنة مضت، يجهلون ما في الشرق العربي، إلا الأفراد منهم، الذين زاروا مصر وسوريا وفلسطين، واعتادوا مطالعة جرائدها. على أن علمهم يكاد ينحصر في الشئون السياسية، والنهضات الوطنية، وقد لا ينفذ دون السطحيات.

أما جهلنا في سوريا مثلًا، أو في العراق وشبه الجزيرة، لشئون المغرب، فهو أكثر من جهل المغاربة لشئوننا، وليس بيننا وبينهم من الصلات التجارية أو الأدبية غير المعنوية ما يزيل شيئًا من الجهل. فإذا أسهبت في بعض المباحث، وأفسحت في صفحاتي للأرقام والإحصاءات، ولما يعد عندنا من الأوليات وعند المغاربة من المعروف المألوف، فإن عذري في ذلك ما ذكرت من الجهل العام لما عندنا وعندهم على الإجمال، وما بي من رغبة في إزالة بعض هذا الجهل. الأوليات إذن مبرَّرة بل واجبة؛ لأن الذي نعلمه نحن يجهله المغربي، والذي يعلمه المغربي نحن نجهله.

ولست مستغربًا تجهُّم بعض القرَّاء في هذه المواقف الأبجدية؛ فالواجب في استعراض الحقائق، وتقصي الأسباب، لموضوع مجهول، وإن كانت تلك الأسباب والحقائق أولية — أبجدية — يوازي في فوائده ما يُفادَى به من الإيجاز. لا أقول غير ذلك إيضاحًا واعتذارًا!

إن في المغرب اليوم، وعلى الأخص في هذه المنطقة منه، نهضة وطنية عامة، تشمل التعليم في أصوله وفروعه، وفي شعبه الأدبية والعلمية والدينية والصناعية والزراعية.

بل هي تتجاوز التعليم، كما سترى، والفضل فيها لا يُحصَر فيُحَدُّ؛ فمنه ما هو منبثق من روح الزمان المتشرب الأشواق البشرية إلى العلم والاكتشاف المنتشر انتشار الأثير في الأمم، فيحمل من شعب إلى شعب، ومن قطر إلى قطر، الحوافز والمنبهات. ومنه ما هو ناشئ من اليقظة العربية القومية العامة، ومن تحفُّز العرب للعلاء الذي أدركه

أجدادهم في قديم الزمان، ومنه ما هو كامن في تطور الهيئة الاجتماعية تطورًا ماديًّا، يقرن اقتصادياتها بسياستها، فيجاهد الناس في سبيل أوطانهم؛ لاستقلالها إذا كانت غير مستقلة، أو لتوطيد أركانها إذا كانت متزعزعة الأركان، أو رغبة في إنماء ثروتها وازدياد قواها لا حبًّا بالثروة والقوة فقط، بل حبًّا كذلك في تعميم الرقِيِّ والرفاه في أهلها.

ومن الأسباب المباشرة لتلك النهضة الوطنية ما تبذله في سبيلها الحكومة الإسبانية الخليفية، وخصوصًا الإسبانية الحاضرة لا الماضية، أي حكومة الجنرال فرنكو، التي يمثِّلها في المنطقة إسباني كريم، محب للمغرب وأهله حبًّا خالصًا لا تشينه المصلحة، ولا يشوبه الغرض، بل المحب للعرب إطلاقًا حبًّا يندر في العرب أنفسهم؛ لأنه حب مقرون بالعلم، وبالمقدرة على وضع الاثنين موضع العمل. هذا الرجل هو الكولونل ضون خوان بايْبَدر المقيم العام، أذكره حيث لا يتم البحث بدون ذكره، وأذكره الآن ها هنا، لما له من الفضل في النهضة المغربية الوطنية نهضة التعليم، ولست مبالغًا إن قلت هو قطبها، وروحها، ومشعل مصابيحها، إنه كل ذلك لا لأنه حاكم عادل فقط، ولا لأنه رجل مثقَّف ومحب للثقافة، ولا لأنه إسباني جديد يريد أن يحيي روح المودة والتعاون بين العرب وإسبان، بل لأنه ذو مثَل أعلى كحاكم ورجل مثقف وإسباني جديد. وإنه ليدهشك ما يستطيع الحاكم أن يعمل في سنة واحدة من الأعمال الإنشائية متى كان على شيء من مزايا بايبدر، وكانت له الإرادة، والحب رائدها.

لقد ذكرت في فصل سابق ما تنفقه الدولة الفرنسية في المنطقة السلطانية، وقارنته بما يُنفَق في هذه المنطقة، أو بالحري ما أُنفِقَ في السنة الماضية (١٩٣٨). لتَقُمِ الأرقامُ إذن بالدليل والبرهان على أعمال بايبدر في حقل واحد من بلاد المغرب، هو حقل التعليم.

لقد كانت النفقات في هذه المنطقة قبل سنة ١٩٣٧ كما كانت نسبةً هناك في المنطقة السلطانية، بل أقل، أي إن الحكومة الإسبانية الماضية، في عهدَيْها الجمهوري والملكي، لم تكن تختلف في سياستها الاستعمارية عن الحكومة الفرنسية اللهم إلا بالضعف، فهناك في الجنوب قوة جبَّارة تفعل ما تشاء، وتأخذ ما تريد، وها هنا في الشمال قوة خائرة مقطعة الأنفاس تنذر يومًا ويومًا تلين، فتبطش ولا تبالي، ثم تندم ولا تهتدي.

نسيت ما وعدتك به، أنستنيه الحكومة المغضوب عليها في حالي الضعف والقوة، إن كان اسمها إسبانيا أو فرنسا. لنَعُدْ إليها في المواقف التي تأذن بالعودة، بل تستوجبها.

أما الآن فإليك الأرقام التي تختص بالمدارس ونفقاتها في المنطقة الخليفية:

سنة ١٩٣٦: عدد المدارس الابتدائية في المدن والبوادي — بعضها غير تام التجهيز والبناء — ٣٥ مدرسة.

سنة ١٩٣٨: عدد المدارس الابتدائية المجهزة كل التجهيز ٥٢ مدرسة، ما عدا المدارس الثانوية في المدن.

سنة ١٩٣٦: عدد المعلمين والمعلمات ٤٨.

سنة ١٩٣٨: عدد المعلمين والمعلمات ١٦٠.

سنة ١٩٣٦: ميزانية المعارف ٥٧١٥٨٥ بسيطة.

سنة ١٩٣٨: ميزانية المعارف ٢٥٢٢٢٩٠ بسيطة.

وهناك مدارس أخرى خاصة وأجنبية — إسبانية — تزيد نفقاتها على نصف المليون بسيطة، فتكون ميزانية التعليم ثلاثة ملايين بسيطة، أي خمسة أمثال ما كانت في الماضي.

أما المدارس الأهلية فسبع منها للبنات يَدرُس فيها ألف ومائة تلميذة، وأربع صناعية يتعلم اليوم بإحداها مائة وخمسون طالبًا، والثلاث الأخرى في طريق الإنشاء، كما أنه سيتم قريبًا إنشاء مدرستين للزراعة.

وأما عدد الطلاب في المدارس كلها فقد بلغ ٤٧٩٠ طالبًا وطالبة في سنة ١٩٣٨، وهو عدد قليل إذا اعتبرنا عدد السكان في المنطقة وهو ثمانمائة ألف نفس، وافترضنا أن خمسهم، أي مائة وستين ألفًا هم دون الخمس عشرة سنة، وأن نصف هؤلاء من بنين وبنات، يجب أن يكونوا بالمدارس؛ فالخمسة الآلاف الذين يتلقَّون العلم اليوم هو عدد قليل جدًّا، ولكنه كثير بالنسبة إلى ما كان منهم بالمدارس في الماضي.

ولا يفوتنك أن الحكومة في مستهل أعمالها، وأن الزيادة التي تقدَّمَ ذكرها في عدد المدارس والمعلمين والتلاميذ وفي قيمة الميزانية، إنما هي نتيجة ما بُذِلت من الجهود في السنة الواحدة أو السنتين، والعمل مستمر على ما يعترضه من الصعوبات. فالمشكل الأهم الذي يستحيل حله بظهير أو بالأوامر العالية هو مشكل المعلمين.

فهمت أن الحكومة تستطيع أن تبني من المدارس في بضع سنوات ما يكفي الثمانين ألف طالب وطالبة. فمن أين تجيء بالمعلمين والمعلمات؟ إنها تحتاج إلى ألف وستمائة معلم ومعلمة لتعليم ثمانين ألفًا من البنين والبنات، ولا يتيسر وجود العشر من هذا العدد في المنطقة اليوم. هذا المشكل لا يُحَلُّ إلا تدريجًا، بعد أن تنشئ الحكومة دارًا للمعلمين، وعندئذٍ لا تُحَلُّ في أقل من خمس عشرة سنة. فالحكومة العراقية التي باشَرَتْ منذ عشرين سنة التعليمَ الثانويَّ، وأسَّست بعد ذلك دار المعلمين، لا تزال تحتاج، في مواصلتها العمل المعمم للتعليم الثانوي، إلى أساتذة تستجلبهم من مصر ولبنان وسوريا.

لقد أدركت حكومة المنطقة وجوب الاستعانة بمَن تقدَّم المغرب من الأقطار العربية في مدارج التعليم، فباشرت قبل مجيء الكولونل بايبدر، العمل المبشر بحل مشكلة المعلمين حلًّا طبيعيًّا وطنيًّا، وذلك ببعثتين من الطلبة المغاربة إلى مدرسة النجاح بنابلس، الأولى في سنة ١٩٣٠، والثانية بعدها بثلاث سنوات، هي الخطوة الأولى في حل القضية، تلتها في سنة ١٩٣٨ خطوة أخرى أكبر منها، يوم فتح «بيت المغرب» بمصر، حيث يقيم أربعون من الطلبة، ويتلقون شتى العلوم في المعاهد المصرية.

فهل اكتفى الكولونل بايبدر بذلك؟ وهل يقوم المشروع الذي باشره، وهو أن يزيد عدد المدارس ونفقات التعليم، إذا انتظر ثمار البعثات المغربية؟ تلك البعثات مفيدة ولا نكران، ولكنها بطيئة النتيجة العملية، فيجب أن تلحق ببعثات أخرى من المشرق إلى المغرب، يجب أن تُعكَس الآية، وما لبث المقيمُ العامُ الجديدُ أنْ فعَلَ ذلك، فأرسل إلى مصر ولبنان يجتلب المعلمين العصريين في الثقافة وأصول التعليم. اجتلب ستة من مصر،[١] وخمسة من لبنان.[٢]

هؤلاء الأساتذة هم الخميرة التي ستخمر التدريس المغربي، بل هم والبعثات المغربية إلى الشرق العربي مشتركون في الرسالة الواحدة التي تقوم بواجبين مهمين، واجب التعليم في المنطقة، وواجب التعارف والتعاون بينها وبين الأقطار العربية الأخرى. هم الطليعة لنهضة التعليم، هم الحاملون المصابيحَ المنيرة اليوم لزاوية صغيرة من المغرب، المشتعلة غدًا في جميع أنحائه الشمالية والجنوبية.

وعملًا بالكلمة المأثورة: «الفضل للمتقدم»، عليَّ أن أنوِّه باسم اثنين من روَّاد التعارف والتعاون بين المغرب والشرق العربي، اللذين ساعَدَا المقيم العام في تحقيق رغبته في جلب الأساتذة من لبنان ومصر، هما: السيد حبيب سعادة، والأستاذ المكي الناصري.

وللسيد حبيب في هذا الصدد حبة المسك؛ فهو من أولئك اللبنانيين المتغربين الرافعين اسم لبنان عاليًا بما أوتوا من المواهب العقلية والخُلُقية، وبما لهم من همة وإقدام، كسلفه في المنطقة الشيخ عبد الله الدحداح رحمه الله، وكزميلَيْه في القنصلية الأميركية بطنجة، وفي الحكومة الإيطالية بطرابلس المغرب، الشيخ ميشال الخازن والأستاذ عبود أبي راشد.

---

[١] الأساتذة: حسين الأبياري، وعبد الله الجليل خليفة، وحافظ متولي، ويونس مهران، وحسين أمين، ومحمد وهبي.

[٢] الأساتذة: ألفريد البستاني، وأنطون عيد البستاني، وموسى عبود، ونجيب ملهم، وحسن عسيران.

هؤلاء اللبنانيون المتغربون، والأساتذة إخوانهم القائمون بمهنة التعليم اليوم — البستاني وعبود وعسيران — هم من المهاجرين بمعنى الكلمة الوضعي، ومن غير المهاجرين بمعنى الكلمة الشريفية التي يقومون بها، هم من أزاهر الأدب، وصنوبر الأخلاق، من قلب لبنان وروحه، بل هم المصابيح التي تحرق أنوارُها أصحابَها، وهي تنير الأصقاع القصية من البلاد العربية، فقبيح بلبنان نسيانهم، وواجب على هذا القلم الذي يطيب له الدفاع عن لبنان الأدب والعلم، ويدفع عنه كل قبيح وأذى، أن يشيد هنا بذكرهم.

أجل، إن الفضل للمتقدمين، لحاملي المشاعل في البوادي والجبال والسواحل والسهول، وسيزداد عددهم غدًا لأن كبير المتقدمين، الكولونل بايبدر، يواصل استجلاب الأساتذة من مصر ولبنان وسوريا — من المسلمين والمسيحيين — لتتم الرسالة التي باشَرَ نشرها، فيعمُّ خيرها المنطقة كلها بل المغرب أجمع. فَلْيحفظ المتأخرون، وإن كثروا وعظم شأنهم، طيب الذكرى لَمَن تقدَّمَهم من إخوان الصفاء.

وعليَّ أن أقول كذلك إن الحكومة تتحرى الكفاية في اختيار المعلمين، الكفاية العصرية، العلمية والخلقية، وخصوصًا لأنهم العاملون في أسس النهضة، فلا يقوم البناء على السخف والفساد، أو على التقاليد البالية.

من هذه التقاليد مثلًا في التعليم القديم أنَّ أُذُنَ الصبي في ظهره، لا يسمع بغير العصا. وليس بين المعلمين اليوم، المغاربة وإخوانهم المشارقة، غير بعض الشيوخ — معلمي القرآن ويُعرَفون بالمدرِّرين — مَن يرى هذا الرأي أو يقبل أن يعمل به، ومع ذلك فإن في قانون نظام المدارس مادة تحرِّم العقابَ البدني.

وقد أُدخِلَ حديثًا في برامج التعليم، الابتدائي والثانوي والعالي، ما هو من أهم الإضافات العصرية في التثقيف العقلي والجسدي، وفي التمرين على التنظيم والاجتماع، أي الجمعيات المدرسية الأدبية والرياضية والكشفية. نعم، لقد وصلت الكشافة وكرة القدم إلى المغرب، ووصلت معها روح إمام التربية الحديثة بستالوزي، فعلى المعلمين عملًا بالمبادئ البستالوزية أن يشتركوا في هذه الجمعيات؛ لتنشأ بينهم وبين التلاميذ صلات المودة وأصول المعاملة الأخوية في التعليم والتربية. أما أن أكثر أساتذة اليوم، مصريين كانوا أم لبنانيين أم مغاربة، متشربون هذه المبادئ، فمما لا ريب فيه، وحسبي أن أنقل كلمةً من خطبة الأستاذ حافظ المتولي، في «المدرِّس» ألقاها من محطة الإذاعة العربية بتطوان، قال بعد أن نوَّهَ باسم المربي السويسري الشهير بستالوزي: «المدرس شخصية قبل كل شيء، فنفوذه الشخصي المبني على العطف والحكمة والاستقامة والانتصار للحق،

يفسح له السبيل إلى قلوب تلاميذه، فيمتلكها بحبهم واحترامهم له، فيؤدون واجباتهم بسرور، ويُقبِلون على التعليم بلهفة ورغبة.»

ومما يبشِّر بزيادة الخير للمغرب الطالب العلم هو أن إخواننا هؤلاء الروَّاد، المصريين واللبنانيين، قد جابوا أقطار التعليم الحديث، روحًا وفنًّا وعملًا، وآلوا على أنفسهم أن يؤدُّوا خير ما جنوه من ثماره إلى أبناء الأمة الذين انتُدِبوا لتعليمهم.

وإني أنقل كلمة أخرى قالها زميل المتولي الأستاذ الإبياري في الخطبة التي أذاعها راديو تطوان، في الأغراض من التعليم، ثم أيَّدَها بقرارين للمؤتمر الدولي السادس عشر للتعليم الثانوي المنعقد في روما سنة ١٩٣٤، أحدهما أن الغرض الأساسي من المدرسة هو تكوين شعور «خُلُقي وطني»، والآخَر هو أن «الطرق الواجب اتباعها في التربية يجب أن تُستمَد من النظم القائمة، ومن التقاليد الحية لكل شعب، يضاف إليها تلك التي يسلكها كل مدرس مسوقًا بمواهبه الخاصة واتجاهه الشخصي.»

ثم يقول: إن مجرد حشو العقول بالعلوم، وشحن الحافظة بالدروس، وإثقال عاتق الطلبة بالواجبات، كل ذلك يقتل الذكاء ويقبر المواهب، ويقضي على النبوغ، وإن أفضل التعليم وأفيده هو ما يُستعَان فيه بالعلوم على فهم شئون الحياة، وإدراك أسرار المجتمع، وما يرمي دائمًا إلى إعداد إنسان قادر على التفكير، جدير بأن يعتمد على نفسه في تأدية رسالة خاصة في الهيئة الاجتماعية.

هو ذا أبعد مدى التعليم والتربية حتى يومنا، وهو معلوم لدى الاختصاصيين ومَن مارسوا مهنة التعليم، إنما الغرض من ذكره ها هنا واجب؛ لأنه خاص بنا نحن العرب، وفيه التنبيه والبشرى؛ التنبيه للأقطار العربية التي لا تزال مقيَّدَة بالتقاليد القديمة البالية في التعليم والتربية، كاليمن والحجاز ونجد، وحضرموت ومسقط وعمان، والبشرى للناهضة المتقدمة كالعراق وسوريا ومصر. فإن هذا القطر المغربي الصغير ليسلك اليوم المسلك الحديث القويم المناسب لتطوُّر الهيئة الاجتماعية ورُقِيِّها، ولأشواقها في مواصلة هذا الرقي وذلك التطور.

وإن له فوق ذلك ميزة خاصة، امتاز بها التعليم في اليمن والحجاز ونجد، على عقمه التقليدي، وهي أنه خالص من التعليم الأجنبي الديني أو الاستعماري. لا أثر فيه للرسالات التبشيرية، ولا لأعمال المرسلين روَّاد المستعمرين؛ فالمدارس الإسبانية في المنطقة هي لأبناء الإسبان المقيمين فيها، والمعلمون والمعلمات من الإسبان في المدارس المغربية هم من السلك المدني المنحصرة مهنته في التعليم.

وإن مَن يطالع تقرير مديرية المعارف يعجب لما في البرامج من الدروس القرآنية والإسلامية، وليس فيها شيء من الدروس الدينية المسيحية، ولا من التعليم الأجنبي الاستعماري، اللهم إذا استثنينا اللغة الإسبانية وجغرافية إسبانيا.

أما في المنطقة السلطانية، فالمعاهد الدينية ومراكز التبشير كثيرة،[٣] أنشأتها الإرساليات الكاثوليكية، بمساعدة الحكومة الحامية. أضِفْ إليها المدارس غير الإسلامية التي يُصبَغ فيها التعليم بصبغة الدعاية الفرنسية.

وأما في المنطقة الخليفية، فلا تبشير هناك ظاهرًا أو خفيًّا، ولا مبشِّرين في أثواب إكليريكية أو مدنية، ولا دعاية تُذكَر للدولة الحامية. هو شيء جديد في المغرب، ذكرته مرة في محادثتي المقيم العام، وأكَّدْتُ له أن أمتن روابط الثقة والولاء بينهم وبين المغاربة تنحل وتضمحل، إذا هم أَقْدَموا على عملٍ في التعليم يشتمُّ منه روح التبشير، فقال: غرضنا الأول والأعلى في هذه المنطقة ثقافي لا ديني، والثقافة العربية الإسبانية التي نريد إحياءها لا تحيا وتتعزز بغير التعليم المجرد من التبشير، لنا ديننا نحافظ عليه في بلادنا وفي أهلنا بالمغرب، وللمسلمين دينهم يحافظون عليه في بلادهم، ونحن نساعدهم في ذلك. هذا القول، بمعناه لا بحرفه، قاله غير مرة في محادثاتنا الكثيرة. أجل، هو شيء جديد في المغرب، وقل بالتخصيص هو شيء جديد في السياسة الإسبانية الأفريقية.

هذه السياسة الجديدة الرشيدة تحسِّن الصلات المضطربة، وتوطد الصلات الطيبة، بين حكومة البلاد والحكومة الحامية، وهي تمكِّن من تعاوُن الحكومتين على التعليم مثلًا في هذه المنطقة؛ فينظَّم ويُنشَر ويُتقَن بالوسائل الفنية الإدارية الحديثة.

والتعاون مثل التجنيد، إما تطوُّعًا وإما إجبارًا. أعني أن التئام الإدارتين الشريفية والمقيمية، واتحاد الحكومتين الشرعية والحامية، هما من الممكنات والواجبات؛ الممكنات بالحسنى، والواجبات بالقوة. فالحكومة الحامية، إن كانت في الجنوب أو في الشمال، تعترف بالحكومة الشرعية الشريفية، وتحترم الظهير، بل تستوجبه وتحافظ عليه؛ لا قرار يُقرَّر، ولا قانون يُسَنُّ، في أيَّةِ دائرة من دوائر الحكم، بغير ظهير سلطاني أو خليفي.

[٣] بلغ عدد الكنائس ومراكز التبشير سنة ١٩٣١ — بموجب إحصاء نشرته مجلة «المغرب الكاثوليكي» — أربعين كنيسة وثمانين مركزًا، موزَّعَة في أنحاء البلاد، في المدن والبوادي والجبال، من الرباط إلى ترودنت، ومن الدار البيضاء إلى وجدة وما وراء الأطلس.

أما الظهير السلطاني، فقد قلتُ لكَ ما قاله في وصفه أحد السياسيين الكبار بطنجة، هو التجنيد الإجباري، وأما الظهير الخليفي فهو الشبيه بالتطوع. على أن الأمر قد يُصَاغ بصيغة الاقتراح — لا نكران — وقد يعمل به حبًّا وكرامة، أو بناء على فعل من أفعال المطاوعة، كجذبته مثلًا فانجذب. لا أدعي المعرفة لما يجري ويحدث وراء أستار المخزن الشريف والمقيمية المجيدة.

ولكني أعلم أن الإرادتين، الخليفية والمقيمية، تجتمعان وتتحدان في مشاريع التعليم بتطوان. فعندما يقول المقيم العام للخليفة الحسن أو للصدر الأعظم إن مديرية المعارف تحتاج إلى زيادة مليون أو مليونين من البسيطات في ميزانيتها، فالحسن — دامت حكمته — لا يتردَّد في كتابة الظهير، بل قد يكون أسرع بالأمر من المقيم العام بالاقتراح، فهو المحب — مثل المقيم — للعلم، وله في سبيل التعليم مَبَرَّات، منها المعهد الخليفي الذي تأسَّسَ بتطوان سنة ١٩٣٧.

في هذا المعهد مائة طالب من المدينة، وستون من الخارج، يسكنون ويطعمون ويعلمون مجانًا. رئيسه الأستاذ المكي الناصري، المثقف ثقافة عالية في مختلف المعاهد العلمية، بمصر وفرنسا وإسبانيا، وبرنامجه يشتمل على شُعَب ثلاث، هي: (١) التاريخ والجغرافية. (٢) اللغة العربية. (٣) العلوم الطبيعية والرياضية. وللمعهد مكتبة تُدعَى بيت الحكمة، ومكتب التبادل الثقافي.

قال الخليفة الحسن في حفلة الإقناع (يناير ١٩٣٧) إنه يأمل أن يكون أبناء أمته «مغاربة جديرون بإعجاب العالم الإسلامي، بل العالم المتمدن أجمع، بديانتهم المتينة، وآدابهم العالية، وتقاليدهم القومية، وبعزائمهم الماضية، وبغيرتهم الحارة، وبتربيتهم الصحيحة، وبإنتاجهم الباهر، وباستعدادهم الكافي للتفوُّق في جميع المرافق الحيوية.»

هي آمال كبيرة، إن حقَّقَ المعهد نصفها في خريجيه كان مُوَفَّقًا توفيقًا باهرًا.

ومن مآثر الخليفة الحسن في سبيل التعليم أنه اقترح على الحكومة مشروعًا، وقد يكون الخطوة الأولى في تأسيس دار المعلمين، وتبرَّعَ بالخاص من ماله مساعدة له، هذا المشروع هو إنشاء قسم دراسي في الصيف، يتلقَّى فيه المدرسون دروسًا نظامية في شتى العلوم، وفي قواعد التربية وأصول التعليم.

لا يصح أن يُدعَى المعهد الخليفي مدرسةً عاليةً، فهو شبيه بالثانوية، وهو في روحه ومدى أعماله بين الاثنين، وكذلك معهد الدروس المغربية الذي يدرِّس فيه العربيةَ الأستاذان البستاني وعبود، ولكن البستاني ألفريد هو الحركة الدائمة في تطوان الموكل بمكتبة المعهد

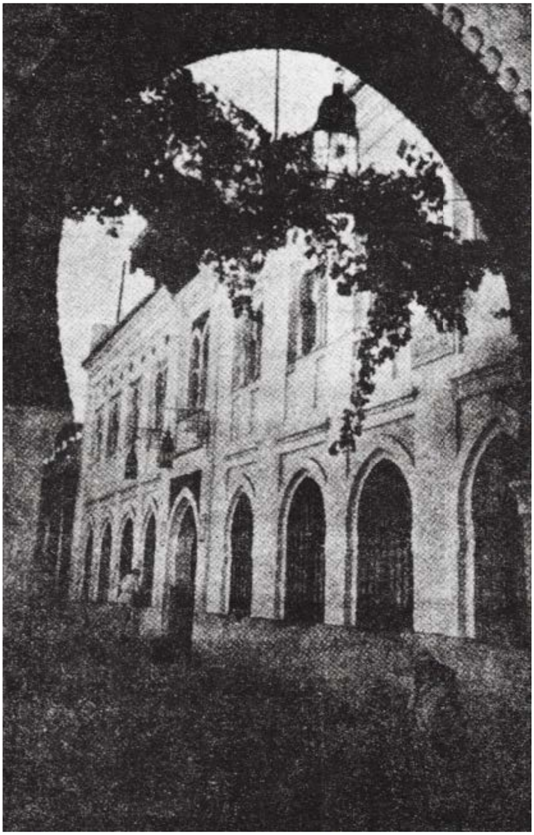

داخل جامع «حومة».

التي تحتوي اليوم على خمسة آلاف من الكتب العربية والإسبانية والفرنسية، والموكل بالمخطوطات يفتش عنها في بيوت الحضر، وعشائر البوادي، وصوامع الرهبان، وقد جمع منها حتى اليوم مائة مخطوطة، ينتخب منها للطبع. والموكل — وكله الله — بشئون إخوانه اللبنانيين يقيل العاثر، ويرشد الخاطئين، وهو لا يزال بين الثلاثين من سنه والأربعين، وبين ابن رشد من الفلاسفة وسان أوغسطين. وستجتمع فيما بعدُ بألفريد

اجتماعات لا تستكثرها؛ لأنه المختار — من لطف الله والمقيم العام — لمرافقتنا في الرحلات المغربية والإسبانية.

سنواصل الآن الطواف بمعاهد تطوان: فالمعهد الحر لمؤسسه ومديره الزعيم الكبير عبد الخالق طريس، يباري المعهدين، الخليفي والإسباني، في أساليب التعليم الحديثة، وإن قصر عنهما في المعدات والأسباب، وهو يمتاز عنهما بأن أساتذته جميعًا، إلا الإسباني الذي يعلِّم اللغة الإسبانية ساعة واحدة في النهار، هم شبان مغاربة وبعضهم متطوعون لا يتقاضون راتبًا. هذا المعهد هو ابن البعثة الشرقية الأولى، التي تلقَّى أعضاؤها دروسهم، وتشرَّبوا روح العروبة، في مدرسة النجاح بنابلس. طلابه نحو مائة، يدفعون رواتب زهيدة لا تقوم بنفقاته، فتساعده الحكومة وذوو الأريحية من أهل المدينة.

لقد أُسِّست هذه المعاهد الثلاثة في السنوات الثلاث الماضية، على أن هناك معهدًا سابقًا لها كلها، والفضل — أعيد الكلمة — للمتقدم. فكما أن للتعليم في لبنان أباه وإمامه وهو صاحب محيط المحيط ومجلة الجنان والمدرسة الوطنية، المعلمُ بطرس البستاني رحمه الله، وكما أن للعراق قطبه في التعليم الحديث وثقته في فن التربية، هو الأستاذ ساطع الحصري، فإن لهذه المنطقة من المغرب صنوًا لَمن ذكرتُ، هو الأستاذ الحاج محمد بن أحمد داود، مؤسِّس أول مدرسة أهلية،[٤] ومنشئ أول مجلة عربية في المغرب الخليفي.[٥]

أما المدرسة الخليفية — كذلك تُدعَى — فهي، على صبغتها الإسلامية، وطنيةٌ حرَّةٌ عامةٌ حديثةُ أساليب التعليم، كانت ولا تزال تقسم إلى قسمين، قسم يختص بالقرآن والتوحيد والفقه، وقسم بالعلوم التي تُعرَف في الجامع الأزهر بالكونية، وهي ستة صفوف وأقسام ليست سنوات. كان طلابها سنة ١٩٣٩ يَرْبُون على المائتين، منهم صف الصغار وهم يتعلمون قراءة القرآن بالألواح مثل سائر الكتاتيب القرآنية في المنطقة. أما كتب التعليم في الصفوف الأخرى، فهي كلها حديثة التصنيف والطبع، مجلوبة من مصر وبيروت. هذه المدرسة تقوم بنفقاتها دون إعانات من الحكومة أو من المُحسِنين، ولها فروع في شفشاون والعرائش والقصر الكبير.

[٤] أُسِّسَتْ سنة ١٩٢٥.

[٥] هي مجلة السلام المصوَّرة، صدر منها عشرة أعداد فقط، الأول في أكتوبر سنة ١٩٣٢، والأخير — العاشر — في نوفمبر سنة ١٩٣٤.

ليس في الشباب المغربي المثقف مَن لا يذكر حبًّا واحترامًا الأستاذ محمد داود، وإن أكثر القائمين اليوم بالنهضتين الوطنية والأدبية من خريجي مدرسته، كالأديب الحاج محمد ينون المتبرع بالتدريس في المعهد الحر، والزعيم الأستاذ عبد الخالق طريس، والتهامي الوزاني رئيس جمعية الطالب.

الأستاذ داود هو رائد المنطقة الأول في التعليم الحديث والتربية الوطنية العالية، ومَن علَّمني حرفًا ... ومَن عَلَّم مَن علَّمني حرفًا ... لنبدل العبد بالابن وَلْنَقُلْ: كنت له ابنًا. إن الأستاذ داود هو لآباء الأولاد المغاربة أبوهم الحكيم الرءوف.

والولد المغربي هو مثل أخيه العربي، ذكي الفؤاد، سريع الفهم، شديد التحمس واليقين، فصيح اللسان، وسيصبح بفضل المدارس فصيح اللهجة العربية. فقد تحققتُ ما قاله أحد الأساتذة المصريين في شيوع التعليم المبني على الفهم لا على الحفظ والإظهار، تحققتُه فيما سمعت من إلقاء التلاميذ، فقد كان الولد يقف طوعًا لإشارة معلِّمه ليقرأ نبذة من كتابه، نثرًا أو شعرًا، فيلقيها إلقاءً حسنًا، فصيح الوصل والوقف والتبليغ، إلقاء الفاهِم لما يقرأ، المتأثر به.

وليس لطريقة الإظهار من آثار في المنطقة الخليفية، غير تلك الكتاتيب القرآنية، حيث يجلس الصبيان على الأرض وبأيديهم الألواح، كما في اليمن، مكتوبة عليها السورة، يظهرونها ويردِّدونها بالصوت العالي، كلٌّ على هواه، وبعزلة عن سواه، وإن اصطك الجنب بالجنب والصدر بالظهر، في حين أن الشيخ «المدرِّر» متربِّع مثلهم وهو يهز برأسه استحسانًا أو نعاسًا لست أدري!

أما في هذه المدارس، وقُلِ المعاهد، كما يريدها المغربي، فإن المعلم جالس على كرسي الكرامة، وراء منضدة النظام، منبسط اليد والعقل، فيقرأ أبناؤه للفهم والاستيعاب، لا للإظهار والافتخار، يقرءون ليفهموا، وليفكِّروا فيما يفهمون.

كنتُ أحدِّثهم بما يوحي به الموقف، فأكرِّر كلمة في وجوب تثقيف الأخلاق قبل تثقيف العقول، وأن العلم بلا أخلاق كالنور بلا دفء، أو كالحرارة بلا نور، أو كالزيت الكدر، أو كالسيف بيد الحاكم الظالم، وأقف لأسألهم هل فهمتموني؟ هل فهمتم لهجتي العربية الشرقية؟ فيجيبون بالصوت الواحد: نعم، فهمنا.

وعندما انتهيت من كلامي في أحد صفوف الصغار وقف أصغرهم، على ما ظهر لي، بدون إشارة من معلمه، وقف مندفعًا بالحماسة المغربية العربية وهتف قائلًا: عاش الريحاني. فردَّدَ الصف هتافه، دون أن يخشى تأنيب المعلم. هي الحماسة العربية، والمعلمون لا يتجهمونها في تلاميذهم، بل يشجعونهم عليها.

سأُجمِل الآن ما قدَّمْتُ، فالتعليم في المنطقة على ثلاثة أنواع:

(١) المدارس المغربية، الابتدائية والثانوية، وهي تعلِّم اللغتين العربية والإسبانية، ومعلِّموها عرب وإسبان.

(٢) الكتاتيب التي مَرَّ ذكرها وأكثر معلميها من الشيوخ.

(٣) المعاهد الدينية أو بالحري المساجد، التي تُلقَى فيها الدروس الدينية والفقهية مع بعض الدروس الأخرى كاللغة والحساب والجغرافيا والتاريخ. أَضِفْ إليها المعاهد الخاصة، أي تلك التي زرناها.

وهناك جمعية منبثقة من روح التعليم في هذه المدارس كلها، ومتصلة به اتصالًا معنويًّا وطنيًّا، فتسعى لتغذية المدارس بالدعاية والتشويق، هي جمعية الطالب[٦] التي تأسَّسَتْ سنة ١٩٣٢، رئيسها الأول عبد الخالق طريس، ورئيسها الحالي التهامي الوزاني.

وهناك مؤتمر الطلبة الذي يُعقَد من حين إلى حين للبحث في شئون التعليم والمدارس والمعلِّمين، فالمؤتمر الثالث لطلبة شمالي أفريقيا، الذي عُقِد في باريس في الشهر الأخير من سنة ١٩٣٣، بعد أن منعت الحكومة الفرنسية المغربية عقده في فاس؛ بحَثَ وقرَّرَ القرارات في المسائل التالية:

(١) تحضير المعلمين بشمال أفريقيا.
(٢) تحسين حال طلبة التعليم العالي بأفريقيا الشمالية وبالخارج.
(٣) تنظيم البعثات العلمية بأوروبا وبالشرق.
(٤) النظام الجديد لجامع الزيتونة وجامع القرويين.[٧]
(٥) التعليم الابتدائي في المغرب الأقصى.
(٦) تعليم اللغة العربية في الجزائر.

---

[٦] من غاياتها: محاربة الأمية، والمطالبة بإنشاء المدارس المنظمة، لا سيما الابتدائية والقرآنية. تُلِقي من منبرها الحر الخطبَ السياسية، والمحاضرات العلمية والأدبية.

[٧] يقول أهل المغرب إن في العالم الإسلامي ثلاثة معاهد دينية عظمى، هي: الأزهر بمصر، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس.

هذه المؤتمرات وتلك الجمعية هي من أركان النهضة الثقافية في المغرب، وهي للمدارس الرسمية والأهلية الخاصة العلمية والدينية، الرائد والرقيب معًا، تشق الطريق لمواصلة الجهود، وإتقان الأساليب والقواعد الحديثة، وتراقِب إدارة التعليم فتنبِّه إلى ما فيها من نقص أو خلل، وتطلب الإصلاح والتحسين.

لا شك في أن هناك نقصًا وخللًا ومجالًا واسعًا للتحسين؛ فالنهضة لا تزال في المرحلة الأولى، والبلاد — كما أشرتُ مرارًا — فيها يقظة وفيها أشواق، وليس فيها اليوم من عوامل التحقيق غير القليل، أعني العوامل الوطنية التي تستطيع الحكومة الحامية أن تستخدمها في مشاريعها الثقافية والاقتصادية. كان المقيم الكولونل بايبدر يذكر مديرية التعليم مثلًا بشيء من التحسُّر، ثم يقول: سأفاجئهم ذات يوم بمدير من دمشق أو من القاهرة.

أما مفتِّشُو المعارف فأكثرهم — إما لعجز أو لكسل أو لغرض من الأغراض الخاصة — لا يدقِّقون في التفتيش.

كان الأستاذ محمد داود المفتش العام للتعليم الإسلامي، فما كمَّل السنة في وظيفته، والأستاذ داود صلب العود، متين الأخلاق. سألته: لماذا استعفيت؟ فكتب إليَّ يقول:

> أرادَتِ السلطة أن أكون مثل جلِّ الموظفين … ولم نجد وسيلةً للتقريب بين وجهتي نظرنا، فاستعفيت واسترحت وأرحت.

هو مثل صديقي الأستاذ الحصري في العراق، يتكسر ولا يلين. وهل يجب أن يلين المثل الأعلى في اصطدامه والمثل العملية؟ إن في الاثنين مجالًا لوجهتي نظر المصلح والسياسي، ولما بينهما أي وجهة نظر السياسي المصلح، هذا إذا كان الثلاثة من أهل العلم الراقي والوطنية الصادقة؛ فالسياسي المصلح يستطيع أن يضع موضعَ العمل بالتدريج، دفعة دفعة، آراءَ واقتراحاتِ المصلح ذي المثل الأعلى.

مما لا ريب فيه أن المجال واسع للتنظيم والإصلاح، للتحسين الدائم إن كان في مديرية التعليم المغربي، أو في المجلس الأعلى للتعليم الإسلامي، ودوائرهما الرئيسية والفرعية.

ومما لا ريب فيه أيضًا أن النهضة الشعبية التي تتمثَّل في جمعية الطالب، وفي الأحزاب الوطنية وصحافها، وفي المؤتمرات العامة للطلبة التي تُعقَد من حين إلى حين؛ أن هذه النهضة كفيلة بالإصلاح التدريجي وبالتحسين المستمر.

الفصل الثالث عشر

الأحزاب السياسية

أعود للقارئ إلى آخِر الفصل الأول من هذا الكتاب، حيث تركنا الحكومة الإسبانية في وميض من الأمل بتحسين حالها في المغرب، بعد إعلان الحماية الفرنسية (١٩١٢) في الجنوب، والإسبانية في الشمال، فنمر بالحوادث التي أَدَّتْ إلى تأليف الأحزاب السياسية والمطالبة بالإصلاح في المنطقة الخليفية، وسنقتصر على ما يتعلَّق مباشرةً بالموضوع.

منذ إعلان الحماية حتى بداية الحرب العظمى كان الشريف الريسوني لا يزال قائمًا بحركاته على السلطات الأجنبية في المنطقة الشمالية.

أما في خلال الحرب العظمى، فالمغرب الأقصى، شمالًا وجنوبًا، كان راكنًا إلى السلام، بل كان على ولاء للحلفاء بالرغم من الدعاية الألمانية الملحفة المسرفة المستهترة، وخصوصًا ما كان منها في المنطقة الشمالية من طنجة، مركزها وعش جواسيسها، إلى مليلة.

وحسب مغاربة الجنوب أن ألوفًا من جنودهم البسلاء حاربوا مع الحلفاء، واستشهدوا في مختلف الجبهات الفرنسية.

وما كان من أحوال المغرب، خلال تلك الحرب، ما يقلق إسبانيا المحايدة، وإن كانت في ذلك الحياد غير متحدة إلا على الوجه الظاهر منه. هذه الحقيقة تمثَّلَتْ في شخص رئيس الوزراء يومئذٍ الكونت رومانونس Romanones الذي كان مخالِفًا لسياسة الحياد ومُكرَهًا في تنفيذها، لسان حاله ولسان الأمة واحد: نِصْفي مع الحلفاء، ونِصْفي الآخَر مع حكومتي! فلا تستغرب نتيجة هذا التناقض في الأمة والحكومة — الأمة الرابحة من الحياد، والحكومة الخاسرة.

وقد كانت الخسارة بادية، بعد الحرب، في كل مظهر من مظاهر الحكم، بادية في الضعف والتخاذل والفساد، وقد انتشرت في سائر البلاد، وجازت البحر إلى المغرب، فتغلغلت في صميم الجيش هناك.

كان الجنرال سلفستر Silvestre متوليًا القيادة يومئذٍ في مليلية، وكان عبد الكريم الخطابي، بطل الريف المشهور، على صلة طيبة به، فحدث ما أفسدها، فخرج عبد الكريم من مليلية غاضبًا على الجنرال سلفستر، مصمِّمًا في الانتقام منه، أإهانة شخصية تحمله على الثورة؟ قيل ذلك، ولكن الحقيقة المستترة فيها تتصل بحوادث الريف السابقة للحرب العظمى.

وما غيَّرَ تقلُّبُ الوزارات شيئًا في أحوال الدولة الداخلية التي تفاقَمَتْ في عهد السنيور داتو Dato، الذي لا يختلف عن الكونت رومانونس في تشعُّب عقليته، بل في ضعفها المتشعب، تعثَّرَ داتو في مسالك الأحزاب المعوجة، وفي مزالق الميزانية المضخَّمة، وما استطاع أن يستر عن المغرب في الأقل ما اعترى حكومته من التنابذ والتخاذل، بل من الضعف والفساد. سعى السنيور داتو للتوفيق بين الأحزاب، أو لتأليف كتلة من الجمهوريين والكارليين أو العسكريين والاشتراكيين تؤازر في استعادة قوة الحكومة وكرامتها، ولكن يد القدر حالَتْ دون إتمام مسعاه، فقد أطلَقَ عليه فوضويٌّ رصاصةً (١٨ مارس ١٩٢١) أودَتْ بحياته.

وبعد أربعة أشهر نكبت إسبانيا النكبة القاسية في الريف، حيث أعلن عبد الكريم الثورة، وأغار ببضع مئات من رجاله على مقدمة الجيش الإسباني إغارة خطيرة مبيدة؛ فذبح الريفيون بضعة آلاف من أولئك الإسبان، وشرَّدوا الباقين وغنموا الغنائم الكثيرة. هذه النكبة (يوليو ١٩٢١) عجلت بأجل الجنرال سلفستر الذي اختلفت الرواية في موته؛ فقيل إنه قُتِل، وقيل إنه انتحر.

وهي النكبة التي ولدت في حكومة مدريد «الأزمةَ المغربية» — مهواة الوزارات — فقد سقطت فيها وزارة السنيور ألنديسالازار Allendesalazer الذي خلف السنيور داتو، فعاد السنيور مورا Moura إلى الحكم، وسارَعَ في إنجاد جيش المغرب بمائة وأربعين ألف جندي، ومع ذلك ما استطاع أن يُسكِت المعارضة التي بلغت أشدها في «نقابات الدفاع» Juntas de defense.

سقطت وزارة مورا، وخلفتها وزارة سنكيزغرا Sanchez Guerra المتزعزعة الأركان من يومها الأول، فما لبثت أن انهارت تحت عاصفة هوجاء من عواصف المعارضة، هبت من الأمة والبرلمان معًا. العقاب لمَن تولَّوا إدارة الشئون في المغرب، نطلب معاقبة المسئولين، الجبناء والخونة، وما كان العقاب يلحق بغير الوزارات، التي تلت الواحدة الأخرى في مهواة أزمة المغرب. ثلاث وزارات في سنة واحدة.

فقام إذ ذاك من الجيش أحد قوَّاده، الجنرال بريمو دي ريفيرا Primo de Rivera[1] يعلن الدكتاتورية في البلاد؛ فأسكت الأحزاب كلها، وشرع يعمل لإنقاذ الحكومة والأمة من أولئك السياسيين النفعيين والعاجزين، والمسئولين عمَّا انتاب إسبانيا من البلاء منذ نكبة المغرب الأولى (١٨٩٨)، وقد كان للجنرال دي ريفيرا رأي خاص في قضية المغرب،[2] ولكنه عزم على حلها حلًّا سريعًا حاسمًا يليق بكرامة الأمة، كما قال، ولا يزيد في خسارتها.

كانت الحكومة قد خصَّتِ المغرب باعتمادات باهظة، فاضطرت أن تستدين من الأمة سبعمائة مليون بسيطة، استنفدت حرب المغرب قسمًا كبيرًا منها، وبقي العجز ملازمًا للميزانية، فأراد الدكتاتور أن يخفِّف العبء عن الأمة بسياسة عسكرية دبلوماسية في المغرب، بدأها وما أتمها؛ لأسباب تتعلق بثورة عبد الكريم.

قيل لي في تطوان إنه ليس في كلِّ ما كُتِب عن تلك الثورة — إن كان بالإسبانية أو الفرنسية أو الإنكليزية أو العربية — كتابٌ واحدٌ مجرد من التحيُّز، وخالٍ من الأغلاط والمبالغات. فهل من الحكمة أن أضيف أنا إلى ذلك «الكنز التاريخي» شيئًا من عندي؟ على أني علمت وتحقَّقت أمرًا واحدًا: لماذا قبض عبد الكريم على الشريف الريسوني، وكيف تم ذلك؟ استقيت الخبر من منبعه، وسأعطيكه في موضعه.

أما الآن فعليَّ أن أواصِل البحث في سياسة دي ريفيرا، التي كان قد بدأ ينفذها كما قدمت، ثم عدل عنها، والسبب في ذلك هو أن عبد الكريم أغار على المنطقة الجنوبية في ربيع سنة ١٩٢٥، إغارةً غيَّرَتْ في سياستَي الدولتين الإسبانية والفرنسية، وعجَّلت في التئامهما؛ فقد كانت هناك مشادات ومناورات، وإحجام ومجادلات في المفاوضات أو وجوبها، لو علم عبد الكريم بها لما أَقْدَمَ على تلك الغزوة مهما كانت أسبابها.

وما هي تلك الأسباب؟ تقدَّمَتِ الجنود الفرنسية، المرابطة على الحدود، فاحتلت ناحية في المنطقة الخليفية ادَّعَتْ أنها داخلة في المنطقة السلطانية، وأنه من الواجب على الجيش الفرنسي أن ينقذها من الثوَّار؛ فثارت قبائل تلك الناحية على أولئك الجنود، واستغاثت بعبد الكريم فأغاثها، وحمل بها على الفرنسيين في منطقتهم الجنوبية حملات موفَّقَة، فتقهقروا مدحورين، وواصَلَ عبد الكريم زحفه إلى فاس في شهر يونيو، فأضحى قريبًا

[1] حكم منذ ١٣ سبتمبر ١٩٢٣، إلى ٣٠ يناير ١٩٣٠، وتوفي في باريس في ١٦ من مارس من سنة استقالته هذه.

[2] راجع [الجزء الأول – الفصل الثاني: جبل طارق].

منها، فاضطربت القيادة الفرنسية المغربية، واتصل اضطرابها بباريس، فرأت حكومة الـ «كاي دور ساي» وجوب الإسراع بالمفاوضة وحكومة مدريد للتعاون على عبد الكريم. لا شك إذن في أن تلك الغزوة الكريمية كانت البداية لنهاية الحرب، فإن اتَّهَمَ الإسبان الفرنسيين بالطمع في احتلالهم المراكز داخل الحدود الشمالية، فإن ذلك الطمع، وما تلاه من إغارات عبد الكريم، أنقذ حكومة إسبانيا من «الأزمة المغربية».

فقد أرسلت حكومة باريس مندوبها المسيو مالفي Malvy إلى مدريد، فجَرَتِ المفاوضات بينه وبين الجنرال ريفيرا، وتم التفاهُم على التعاون العسكري والسياسي في المغرب. شكرًا لعبد الكريم! وجزاء له أرسلت فرنسا نجدة إلى المغرب فأخرجته من منطقتها في أكتوبر ١٩٢٥، ثم جاء الريف المرشال بتان Petain بجيش جرار، وأنزل الإسبان نجدات في رأس الحسيمة، فتعاوَنَ الجيشان على الريفيين ومع ذلك ظل عبد الكريم في ساحات القتال حتى شهر مايو ١٩٢٦، فاضطر أن يسلِّم للقيادة الفرنسية، فأتمَّتْ حكومة باريس جزاءها له بنفيه إلى جزيرة ده بونيون بمدغشقر.

سلم عبد الكريم، وخمدت نيران الثورة، وما انحلت قضية المغرب بالطريقة التي كان يريدها دي ريفيرا، فالجيوش الإسبانية سنة ١٩٢٧ كانت تُربِي على المائة ألف، ما عدا القوات الإضافية من الدرك والحرس المدني، والقوات الجوية في العرائش ومليلية وتطوان. سكن المغرب على دخل، واستقبل أهله الملك ألفونس والملكة في أكتوبر من هذه السنة، ورحَّبوا بجلالتيهما ترحيبًا يكمن الضغن فيه.

تلك الزيارة الملكية لم تكن مشفوعة بغير التأكيدات الحارة والوعود المعسولة؛ فابتسم لها المغرب ابتسام الرضى والافتنان، فردَّ الملك والملكة الابتسام بأحسن منه. مشت أرجل الجلالة على الرماد المختلط بالرمل الذهبي، وما شعرت بالنار تحت الرمل والرماد، وعادت أرجل الجلالة إلى قصرها بمدريد، وذهبت وعود الجلالة ذهاب الدكتاتورية، وذهاب الملكية، يوم أُعلِنَتِ الجمهورية في ١٤ أبريل ١٩٣٠.

وكانت تكاليف الجمهورية ومشقاتها أشد مما نخر منها في عظام الملكية، وما كانت سياسة الجمهوريين المغربية أرشد وأنجح مما تقدَّمَها ...

وجاء الرئيس المحترم السنيور ضون نسيطو الكالا زمورا Zamura يزور المنطقة السعيدة، ويتفقد شئون أهلها (نوفمبر ١٩٣٣) فزمر المغرب له، حتى من فوق المآذن،

وقدم لائحات بمطالب الأمة،[٣] فقبلها الرئيس شاكرًا، ووعد بالإصلاح باكرًا، وعاد بموكبه كما عاد صاحِبَا الجلالة قبله دون أن يشعر أن تحت الرماد نارًا، غير ما رأى منها في لائحة الإصلاحات المطلوبة، وما هي محرقة، ولا ملتهبة.

ولحقت الزيارة الجمهورية بأختها الملكية، وتبدَّلَتِ الوزارات في سنة الزيارة هذه ثلاث مرات، وراح مقيم عام من تطوان وجاء آخَر إليها. من لويس فرير Lupez Ferrer المستبد، إلى خوان موليس Mulis المتذبذب، إلى ريكو أفيو Rico Avello المصانِع، وازدادت الوعود الملبسة بحلو الكلام والإبهام.[٤]

وجاءت سنة ١٩٣٦، وولت أشهر منها، والأمة المغربية تنتظر البر بالوعود، فأوفدت الكتلة الوطنية وفدًا إلى مدريد برياسة عبد الخالق طريس، «للاتصال برجال إسبانيا وهيئاتها، والمذاكرة معهم فيما يعود بالمنفعة للأمتين.»

وقد كان الرئيس طريس صريحًا بعد رجوعه، فقال إن التقرير الذي قدَّمه الوفد إلى الحكومة يُقسَّم إلى قسمين: قسم يصف الحالة في المنطقة من نواحيها السياسية والاقتصادية والثقافية، وقسم يعدِّد المطالب، قدَّمَه الوفد ولسان حاله يردِّد بيتين من الشعر لشاعر المغرب علال الفاسي:

«وأدوا المغرب الأقصى حقوقًا   مقدسة حماها منذ عاد
ولا يضرركم فيه خمود   فإن النار من تحت الرماد!»

هذا في شهر أبريل، وكانت النار تتأجج في المغرب، نار المغاربة ونار الجيش الإسباني نفسه، فاندلعت منها، في ٢٧ يوليو، ألسنة الثورة — ثورة فرنكو على الجمهوريين.

---

[٣] مطالب الشعب المغربي التي قدَّمَها وفد الأمة إلى الرئيس زمورا هي: (١) مجالس بلدية منتخبة انتخابًا حرًّا. (٢) مجلس عام للشورى. (٣) حرية الصحافة والنشر والاجتماع. (٤) الاهتمام بالتعليم وجعل اللغة العربية أساسية. (٥) اعتمادات للفلاحين في ميزانية الحكومة.

[٤] «إن من الواجب توليد وتغذية العواطف التي تمكِّننا نحن الإسبان من أن نقوم في المغرب بعمل مثمر مستمر. العواطف الناشئة عن التذكارات القديمة، والمشتقة من النظر والإدراك ... إلخ.» من بيان المقيم العام السنيور أفيو، فبراير ١٩٣٤.

وبعد ثلاث سنوات، في سنة النصر، تنشر جريدة «بريد الصباح» بتطوان سيرة بطل الثورة؛ لأنه «أقرب الناس إلينا جغرافيًّا، ولأنه نبغ في المغرب[٥] وقام فيه بحركته الشهيرة.»

ويقف الزعيم الوطني خطيبًا فيُنَوِّه باسم فرنكو، وباسم المقيم العام بايبدر، ويثني على سياستهما التي «سمحت باستقلال الأحباس،[٦] واستقلال القضاء،[٧] كما ساعدت على تأسيس بيت المغرب بمصر، والمعهد الخليفي بتطوان، ومنحت الوطنيين حرية الفكر والعمل في صحفهم واجتماعاتهم، دون تدخُّل ولا مقاومة، واعترف لسمو الخليفة المعظَّم بحرية خاصة، وحرية عامة، لا يتمتع بهما — ويا للأسف — جلالة السلطان نفسه.»

هذه المنطقة الخليفية إذن هي الباب للمغرب أجمع؛ باب الإصلاح والتجدد، باب الرقي والعمران، باب الثقافة والعلم، باب الحرية والاستقلال.

وأهل البيت، وهم في الباب، يتفقون مع الأجنبي الحارس الحامي، ويختلفون فيما بينهم أنفسهم، ويتنابذون.

يقول ساسة أوروبا الاستعماريون، وأنصارهم من أهلهم، رجال الدين والمال والاقتصاد، أقوالًا في المغاربة، بل في العرب إجمالًا، هي أقرب إلى الغرض والتحامل منها إلى الحق والإنصاف. من تلك الأقوال: أن المغاربة متقهقرون منحطُّون، وأنهم سيغرقون حتمًا ويفنون في أمواج التمدن الأوروبي.

قبل ذلك في مطلع هذا القرن، يوم كانت الدول الأوروبية العظمى تمهِّد لنفسها سبل الاستيلاء على المغرب، وها هم أولاء المغاربة العرب، بعد ربع قرن، ينهضون من سباتهم، وينفضون عن مناكبهم غبار الخمول والذل، ويمدون أيديهم إلى خزائن ذلك التمدن الأوروبي؛ ليأخذوا منها ما يحتاجون إليه من السلاح، سلاح العلم والعمل، لا ليحاربوا الأوروبيين بل ليصونوا ملكهم من «أمواج التمدن الأوروبي» الاستعماري، وليتعاونوا وذوي النزاهة والفضل من شعوب أوروبا على الرقي والعمران.

---

[٥] جاء الشاب فرنسيسكو فرنكو إلى المغرب كضابط في الجيش سنة ١٩١٢.

[٦] استقلت الأحباس، وتأسست الوزارة الأولى بموجب ظهير خليفي مؤرَّخ في ٤ شوال عام ١٣٥٥/ ١٩ يناير ١٩٣٦.

[٧] «واليوم يقدم الزعيم فرنكو لكم الوفاء بالوعود: (١) عشرة ملايين بسيطة للأشغال العامة. (٢) العفو العام. (٣) توسيع التعليم. (٤) إنشاء معهد ثقافي إسلامي في قرطبة. (٥) استقلال القضاء الإسلامي.» من خطبة المقيم العام الكولونيل بايبدر في تهنئة الخليفة الحسن بعيد المولد النبوي في ربيع أول عام ١٣٥٨/مايو ١٩٣٩.

هذا ما يجب أن يقال إنصافًا للمغاربة وللأفاضل من الأوروبيين، فلا يصدقون ما يفتريه أصحاب الأغراض المادية على أهل المغرب.

وعليَّ أنا أن أقول ذلك، حبًّا بإخواني العرب في الشرق والمغرب، وغيرةً على اسمهم من أنفسهم ومن المستعمرين: إن الآفة العربية الكبرى، التي نشأت في البوادي قبل فجر النبوة، ولزمت العرب في فتوحاتهم، فكانت السبب الأول في اضمحلالهم وسقوط دولهم، بعد مجد قصير أو طويل، هي الآفة التي لا تزال تنخر في كياننا في هذا الزمان، زمان التنظيم العلمي الفني والائتلاف والتعاون. إنها الشقاق وما يصحبه من تخاذُلٍ وتنابُذٍ وهوانٍ.

فالزعماء السياسيون الحاملون على سياسة التفريق الفرنسية، المطالبون بالوحدة المغربية، المجدون العروبة والإسلام، المجاهدون في سبيل أمة أدركت حقائق الحضارة الحاضرة وتريد أن تنتفع بها، لا تتحقق أمانيهم العالية ولا يتغلبون على الخصوم، ما داموا هم أنفسهم مُسَاقين بعوامل التفريق والشقاق.

إن الصراع بينهم وبين الدولة التي تعمر المغرب، لا لأبنائه بل لأبنائها،[٨] وتسعى بكل ما لديها من القوى المنظمة الموحدة — القوى المالية والاقتصادية والثقافية والدينية والسياسية والعسكرية — لتهدم أركان القومية العربية المغربية الإسلامية؛ فتشيد على أنقاضها معاقل روحية وثقافية ومالية للعمران الفرنسي. إن ذلك الصراع عنيف، وإن الغلبة فيه للعمل لا للقول، وللقوى الموحدة ذات الاتجاه الواحد لا للقوى الموزَّعة الكثيرة الاتجاهات.

فما أجمل ما يخطه قلم الكاتب المُصلِح! وما أبلغ ما ينطق به الزعيم السياسي نثرًا وشعرًا، من درر الحماسة الوطنية، ومن آيات الفخار بالعروبة والإسلام، ومن الحقائق الباهرة في وجوب الإخلاص والثبات والاتحاد في الجهاد! ما أفصحها كلها وما أبلغها! وما أجملها وما أعظمها! لو كانت تسمع في كل مكان ينطق أهله بالضاد، ولو كان السامعون يعملون بها. فلو عمل بها، أو بجزء منها، ووحد العاملون الجهاد والاتجاه؛ لما استطاع المستعمرون أن يعقدوا خيطًا أو يحلوا عقدة في قطر من الأقطار العربية …

[٨] قلت لأحد القناصل في طنجة، غير المتحيزين لفرنسا أو لإسبانيا: إن المشاريع العمرانية التي قامت بها فرنسا، خلال ربع قرن، في المغرب، مشاريع تُذكَر بالإعجاب. فقال: «هذا صحيح، ولكنها عمرت هناك لأهلها لا لأهل البلاد.»

ما تمتعت الصحافة في هذه المنطقة، ولا تمتعت الجمعيات والأحزاب، بحرية الفكر والنشر والاجتماع في العهدين السابقين لعهد الثورة، وإنه لجدير بالذكر والتكرار أن كل ما في المنطقة اليوم من مظاهر النهضة الوطنية والثقافية هو حديث العهد، ويكاد ينحصر في السنوات الثلاث الأخيرة التي أعلنت فيها سياسة الجنرال فرنكو المغربية، وكان المقيم العام الإسباني، العربي الروح، منفذًا لها؛ فالمدارس والصحافة والمستشفيات والأحزاب السياسية تأسَّسَتْ في أيامه وبمساعدته.

على أن من المؤسف أن تكون الأمة متحدة في عسرها يوم كانت حرياتها مقيَّدَة، وأن تنشق على نفسها بعد أن أُطلِقت تلك الحريات من القيود؛ فالأمة في فجر جهادها الوطني، وفي دور النشوء المدني، يجب أن تكون متحدة متضافرة، وأن يمثِّل اتحادها، وينطق بلسانها، حزب سياسي واحد لا غير. أما تعدد الأحزاب فهو جائز بل واجب في أمة مؤسَّسَة موحدة النظام؛ لاختلاف المبادئ في خطط العمران وأساليب العمل الوطني، وليس المغرب اليوم بهذه الأمة. الطفل يحيا بالغذاء، لا بالمناقشات حول سريره!

هي كلمة يمليها عليَّ الحب لإخواننا في المغرب، وهاك الآن رأس الموضوع.

قلت في الفصل السابق إن الأستاذ محمد داود هو رائد التعليم الوطني في هذه المنطقة، وأقول ها هنا إن للسياسة الوطنية رائدًا هو الأستاذ عبد الخالق طريس، أول مَن أنشأ جريدة وطنية بتطوان،[٩] وأول مَن ألَّفَ حزبًا سياسيًّا، فقد كان — ولا يزال — الزعيم الأول، وهو في ريعان الشباب ملء برنسه الصحة والعافية، والنشاط الوثَّاب، وملء صدره الذكاء والحكمة والإخلاص.

وما أكثر ما لهذه القوى المحركة من المهمات؛ فصاحبها هو مدير المعهد الحر، ورئيس حزب الإصلاح الوطني، وصاحب جريدة الحرية، والقائد العام لفِرَق الفتيان المغاربة، وقد تولَّى مديرية الأحباس[١٠] مرتين، فاستقال في المرة الأولى احتجاجًا على تعطيل جريدته «الحياة»؛ لأنها كانت تطالِب يومئذٍ باستقلال القضاء الإسلامي، واستقال في المرة الثانية (أبريل ١٩٣٧) احتجاجًا على تدخُّل الحكومة المقيمية بواسطة الصدارة العظمى في شئون الأحباس؛ فهو لا يقدِّم الوظيفةَ على الوطنية، ولا يحصر جرأته في الكتابة والخطابة.

---

[٩] الحياة، صدر العدد الأول منها في مارس ١٩٣٤.

[١٠] كانت مديرية، وهي اليوم وزارة مخزنية مستقلة، مثل الوزارة العدلية.

حزبه، حزب الإصلاح الوطني، الذي تأسَّسَ سنة ١٩٣٦، هو أول الأحزاب السياسية وأكبرها، عدد أعضائه ١٤٠٠، وله فروع في جميع مدن المنطقة، وله صلة حس ومبدأ بالحزب الوطني في المنطقة السلطانية الذي يرأسه الشاعر محمد علال الفاسي.[١١]

وللحزب جيشه، كتائبه أو «قمصانه»، جريًا على تقليد جديد للشباب في الشرق العربي. فالفتيان المغاربة يلبسون القمصان الخضراء، ولهذه الكتائب فروع مثل الحزب في المدن، أسماؤها[١٢] أجمل من قمصانها، تعيد إلى الوجود التاريخي مجد المغرب الغابر.

لعبد الخالق شغف بالتأسيس والتنظيم، فلا يقف فيهما عند حد سياسي أو وطني أو اجتماعي، فهناك فوق ما ذكرت عصبة الفكر المغربي التي تعاوَنَ في تأسيسها هو وإخوانه الشريف الوزاني والطيب ينون ومحمد الفاسي. هذه العصبة هي جمعية أدبية غرضها الدراسة والبحث في المواضيع العلمية والأدبية، فمن محاضراتها مثلًا مناظرة في أيهما أعظم: المهدي بن صومر «مؤسس الدولة الموحدية»، أم عبد الله يسين «مؤسس الدولة المرابطية».

سألت عبد الخالق: أتقدمون في منظماتكم ومدرستكم وسياستكم العرب على الإسلام، أم تقدمون الإسلام على العرب؟ فقال: ندعو للاثنين معًا. ثم قال: العربية دين الإسلام، وأمن على «مَن أعزَّ العرب أعَزَّ الإسلام.»

من أعمال حزب الإصلاح القيام بمكافحة الأمية؛ فقد فتحت بعض المدارس أبوابها ليلًا بمساعي الحزب؛ لتكون مدارس ليلية للطالبين، أما الإقبال عليها، فهو «كيف كيف» كما تقولون في المغرب، ولكنه دائم.

يوم كان عبد الخالق طريس مدير الأحباس كان المكي الناصري يرغب في أن يكون مديرًا للمعهد الحر، فما حقَّقَتْ إدارة المعهد رغبته، وعبد الخالق قطب تلك الإدارة، فغضب الناصري وخرج من حزب الإصلاح.

هذه إحدى الروايتين في الشقاق. أما الرواية الأخرى، فهي أن الاختلاف مبدئي لا شخصي، سنتحرَّاها فتحكم حكمك فيها.

---

[١١] كان سنة رحلتي منفيًّا في كابون Gabon وهي مستعمرة فرنسية أفريقية.

[١٢] تطوان: فرقة مولاي إدريس. أصيلة: فرقة الخضر غيلان. العرائش: فرقة المنصور الذهبي. القصر الكبير: فرقة المهدي تومرت. شفشاون: فرقة يوسف بن تاشفين.

الأستاذ محمد المكي الناصري، صاحب جريدة «الوحدة المغربية»، وصاحب مجلة أخرى أسبوعية بالإسبانية، ورئيس حزب الوحدة، ومدير المعهد الخليفي، هو من قرية الناصرة بالمغرب، وقد ساح في الشرق والغرب طالبًا العلم، فحصَّلَ منه جزءًا وافرًا في القاهرة وفي باريس، وأقام سنة في إسبانيا، ثم حطَّ رحاله في تطوان ببيت عبد الخالق طريس، وكان ما ذكرت من خلاف أدَّى إلى خروج المكي على صديقه وحزبه.

قال عبد الخالق: خمسة عشر من الأنصار خرجوا من الحزب، ثم انشقوا على أنفسهم؛ فانضم ثمانية إلى المكي، وسبعة إلى بودرة.

والأستاذ محمد بودرَّة (ابن أخت عبد الكريم) هو رئيس حزب الأحرار، وصاحب جريدة «الريف» التي يحرِّرها الشريف التهامي الوزاني نائب رئيس حزب الإصلاح الوطني — والصلة «القدسية» بين الحزبين.

أقول القدسية على وجهها الظاهر ولا ابتسام ولا سوء ظن؛ فإنه وجه الشريف التهامي لنادر بين الوجوه، ما رأيت مثله في غير صور القديسين كمار أنطونيوس مثلًا أو مار يوحنا المعمدان، وهو يسير في تطوان مثل يوحنا المعمدان في زمانه، مكشوف الرأس، أشعث الشعر، ينير الشوارع ليلًا بنور ناظريه المتقدين، ويزيد بريقهما بنور النهار. شبَّهتُه بمار يوحنا وبمار أنطونيوس، ولكن حِسَان أشبيلية، يوم اكتحلت عيونهن بطلعته القدسية، صِحْنَ قائلات: هو ذا مار يوسف!

أما محمد بودرة فإنه في نحوله، ودقة ملامحه، ولحيته السوداء الفتية، وقيافته التي من لون لحيته — حبةً وعمارةً — لأشبه بالقديسين منه بالسياسيين، وإنك لتحسبه راهبًا من الرهبان المتقشفين، أو عالمًا من علماء الإسبان — أستاذًا من أساتذة سلمنكة — في الزمن الغابر. حديثه ناعم كنظراته، وجبته أنيقة كلحيته، وروحه تطل عليك من بين الاثنتين، فتغريك ولا تشجيك.

لو رأيت طريس والناصري وبودرة والتهامي الوزاني ماشين معًا في ساحة الفدان بتطوان، لَقلتَ معجبًا مبتهجًا: سبحان الخالق، في المغارب والمشارق! هاكم الأربعة مِن صنْعِ يديه تعالى — مِن صنْعِهِ الخاص — الأربعة المجربين والمقربين، هاكم فوست ومفيستا ويسوع ومار يوسف!

قال بودرة في تعدُّد الأحزاب: «لا أرى فيها غير الخير، فليس بينها خلاف سياسي، إنما هي مثل الكتائب الوطنية تجتمع كلها لعمل واحد في يوم واحد، يوم تكون المنطقة في حاجة إلى أبنائها ليُدافِعوا عنها وعن مصالحها.»

هذي هي الأحزاب السياسية الثلاثة وصحفها اليوم: الإصلاح الوطني «والحرية»، وحركة الوحدة المغربية وجريدة «الوحدة»، والأحرار «والريف». فإن أراد الله الخير للمغرب أعادها إلى الأصل الواحد، وجمعها غدًا في حزب واحد، وأبقى على مكتب الدفاع الوطني ليواصل الخدمة الوطنية التي باشَرَها في كتيِّبٍ طبَعَه، ليس فيه من قلم التحرير غير صفحة واحدة بعشرة أسطر، والباقي كله منقول من المعاهدات والبيانات الفرنسية والإسبانية، ومن أقوال السياسيين الفرنسيين والفاتحين، وخصوصًا المرشال ليوتي، في سياسة فرنسا المغربية، وما ينبغي أن تكون لتلتئم ومعاهدة الحماية. من لسانك أدينك!

إبراهيم الوزاني إلى مسقط رأسه وزان لا إلى أحد من آل البيت، هو شريف في أخلاقه وأعماله، ومكتبه مثل مكتب البارودي بدمشق، وملجأ أيضًا للمضطهدين الفارين من المنطقة الجنوبية. وهناك وزاني آخَر هو أخو الشريف التهامي، وصاحب جريدة «بريد الصباح» التي تختلف عن الجرائد الأخرى بأنها إخبارية تنشر الأخبار، ولا تعلِّق عليها لا بالكثير ولا بالقليل.

هؤلاء الوزانيون الثلاثة الشريفان نسبًا ومبدأً وعملًا، والشريف مبدأً وعملًا، هم في الوطنية وعبد الخالق سواء، ولكنهم جميعًا دون المكي الناصري في العلم والثقافة — وحب الذات.

وهل في الناس مَن لا يحب نفسه غير القديسين والأولياء؟ أجيب كلا: ولكني أزيد على ذلك أن هذا الحب يختلف اختلاف الأزهار، وفيها الكبير كزهرة «دوار» الشمس ولا شذى له، والصغير كالبنفسج والياسمين؛ فالناصري صافي الذهن، ثاقب النظر، سريع الخاطر، عصبي المزاج، يعرض أفكاره وآراءه ببلاغة تزينها الحماسة حينًا، وحينًا تشينها فيضؤل البرهان في ظل زهرة الشمس.

وأما إبراهيم الوزاني، فحبه لنفسه هو كزهر البنفسج، وحديثه نار متأججة، بلهيبها ودخانها. هو ولا نكران من القلب، لا غبار على صدقه، وإن اضطرب التعبير، ولا حد لحماسته، وإنْ اربدَّ لون اللهيب.

قصَّ عليَّ قصة اضطرابات أكتوبر سنة ١٩٣٧ في المنطقة السلطانية،[١٣] وقمع السلطة لها بالإرهاب والتنكيل، بالاعتقال والنفي والتعذيب المنكر. فقد بلغت الاضطرابات حد

[١٣] لا تَقُلْ المنطقة الإسبانية أو المنطقة الفرنسية؛ فالمغاربة يأبون هذه الإضافة، ويقولون: المنطقة الخليفية والمنطقة السلطانية، أو منطقة الحماية الإسبانية ومنطقة الحماية الفرنسية، أو المنطقة الشمالية والمنطقة الجنوبية.

الثورة؛ فتأججت نيرانها في فاس ومكناسة ومراكش، وفي القنيطرة ووجدة وسلا، وفي الرباط والدار البيضاء. فألقت السلطة القبض في الرباط على الأستاذين أحمد الشرقاوي ومحمد غازي، وفي القنيطرة على الشيخ مشيش العلوي والسيد الجيلاني كناني، وفي فاس على الأستاذين عبد العزيز إدريس ومحمد الهاشمي الفلالي، وعلى أعضاء الهيئة التنفيذية للحزب الوطني، ونفت رئيس الحزب علَّال الفاسي، والعلَّامة الشيخ محمد القري الذي توفي في منفاه، والأستاذ محمد بن الحسن الوزاني رئيس الحركة القومية، ومدير جريدة «عمل الشعب»، والأستاذ محمد اليزيدي مدير جريدة «الأطلس»، والأستاذ عبد الهادي الشرايبي محرِّر جريدة «الدفاع»، كل هؤلاء حكمت عليهم السلطات الفرنسية بالنفي والأعمال الشاقة؛ فنفتهم إلى أقاصي الصحراء في أفريقيا الاستوائية، حيث الكرباج يقوم بتنفيذ أوامر السلطة المحلية.

هذا ما عدا الذين ألقوا في السجون في المدن التي كانت ثائرة، وعددهم يُربِي على الألف، وقد عطلت السلطة الجرائد، ومنعت الجريدة الإسبانية التي تُطبَع في طنجة، وبعض الجرائد الإيطالية من الدخول إلى البلاد، كل ذلك باسم جلالة السلطان؛ لأن الثورة كانت عليه وعلى عرشه. كما ادعت السلطة الفرنسية، فنفذت السلطة المغربية أوامرها، ولا غبار على وجهها القانوني.

وكان إبراهيم بين الثائرين يحرِّضهم على الثورة لإنقاذ البلاد من المحتلين المستعمرين، ولصون العرش السلطاني العلوي من السيطرة الأجنبية المزعزعة لأركانه، «فنجا من السلطة» وفَرَّ هاربًا إلى المنطقة الشمالية، فألقى جرانه في تطوان.

يقول إبراهيم الوزاني: «إن أحرار الفرنسيين يقرون مطالب المغرب، ويعترفون بحقوق المغاربة، ويريدون أن يتم التعاون ويدوم لتوثيق الصلات بين الأمتين على أساس معاهدة الحماية.

ولكن السلطة الفرنسية الاستعمارية تحول في أعمالها دون هذا التعاون، فهي لا تسمح مثلًا لكتلة العمل الوطني أن تُصدِر صحفًا تنطق باسمها، وتعبِّر عن الرأي العام المغربي، المجرد من الصبغات الأجنبية، وهي تنتزع الأراضي من أهل البلاد خصوصًا البوادي لتملكها الأجانب، تنتزعها لشتى الأسباب وبشتى الأساليب، وفي ذلك جور يلحق ضرره بجميع الناس؛ فالفرنسي الذي يمنح آلاف الهكتارات — تباع له بالثمن البخس لمدة ٩٩ سنة — يجلب النقمة على حكومته فتكون هي الخاسرة؛ فعندما يفقد أهل البادية أموالهم وأراضيهم ظلمًا، وإرهاقًا بالضرائب، يهجرون أعشاشهم ويقصدون إلى

المدن؛ ليزاحموا أهلها وخصوصًا الأجانب منهم. فكسب أجنبي واحد يسبِّب الخسارة للفرنسيين أنفسهم وللكثيرين من أهل البلاد.»

فالوزاني إبراهيم المحصن اليوم في مكتبه بتطوان، يحارِب الفرنسيين بمثل هذه الحجج والبراهين، والمكي الناصري المسلَّح بأسلحة جريدته وحزبه يقف يوم ذكرى الظهير البربري، في طنف دار الإذاعة بالقصر الكبير — هناك عند حدود المنطقتين الخليفية والسلطانية — ليطلق المدافع الرشاشة على «الفرنسيين مستعبدي المغرب وأعداء دينه وشعبه وملكه وسلطانه.»

وتقرِّر اللجنة التنفيذية لحزب الإصلاح الوطني أن تحتفل هيئات الحزب في جميع فروع المنطقة، ويشارك في ذلك حزب الأحرار، فيحجون جميعًا إلى جبل العلم[١٤] للتذكير بما أصاب دينهم ووطنهم من الهوان والعدوان.

وتقوم فرقة الأدارسة من الفتيان المغاربة — والقمصان الخضراء — بمظاهرة في تطوان، فتطوف في شوارع المدينة يتقدَّمها الجوق، ثم العلم، ثم الضباط، ثم الفتيان: ليسقط الظهير البربري، لتسقط سياسة التفريق الفرنسية، عاش المغرب حرًّا مستقلًّا موحَّدًا.

لا خلاف بين الأحزاب في حملاتها على معاقل الحماية الفرنسية ومعاقل الحماية الإسبانية، ولا خلاف في مبادئها الوطنية الأساسية: المغرب وطن واحد لا يتجزَّأ، والمغرب للمغاربة أولًا وأخيرًا.

أين الخلاف إذن؟ سننظر الآن في مطالب الحزبين المطبوعة[١٥] علَّنَا نجد فيها من اختلاف المبادئ ما يبرِّر الانشقاق. وإني متبسط فيها لما تحويه من الأدلة على يقظة المغرب وحصافة زعمائه العصريين، وعلى ما لا يزال في المغرب من النظم القديمة العقيمة التي يسعون ليستبدلوا بها نظمًا حديثة مثمرة.

[١٤] في جبل العلم مقام الولي عبد السلام مشيش — «مقام الطهر والصلاح، مأوى الشهداء الأبرار، عرين الأبطال الصناديد» (جريدة الحرية).

[١٥] مطالب الشعب المغربي مقدَّمَة من اللجنة التنفيذية لحزب الإصلاح الوطني إلى سمو مولانا الخليفة السلطاني، وإلى مجادة المقيم العام — حركة الوحدة المغربية في المنطقة الخليفية، تصريحها الأساسي ومطالبها العامة.

موقف المغرب تجاه فرنسا

الحماية لم تقم في المغرب بما التزمت به بموجب معاهدة فاس (١٩١٢) في أية ناحية من نواحي الإصلاح، بل إن نظامها أتى بعكس المطلوب؛ فوجد المغاربة أنفسهم، بعد خمس وعشرين سنة من إعلان الحماية، أمام مزاحَمَةٍ أجنبية لا طاقة لهم بالتغلُّب عليها؛ فالإصلاحات المقترحة في هذه المطالب هي أقل ما يقنع الأمة بحسن نية الدولة الحامية، وقد شعر المغرب اليوم بوجوده المستقل، وبوجوب الاحتفاظ بهذا الوجود.

حزب الإصلاح

لا مبرِّر لتدخُّل الفرنسيين من الوجهة القانونية والدولية إلا شيء واحد هو مساعدة المخزن الشريف، بموجب معاهدة فاس (١٩١٢) على إدخال الإصلاحات الضرورية في مملكته. وحيث إن المكلَّفين من الحكومة الفرنسية اتبعوا في المغرب منذ إعلان الحماية إلى الآن، سياسةَ الفتح والاحتلال والاستعمار والاندماج، فحركة الوحدة المغربية تبذل كل جهودها لمقاومة هذه السياسة، ولإقناع ممثل فرنسا في المغرب بتطبيق سياسة الحماية الحقيقية، وتنفيذ الإصلاحات الموعود بها الشعب حتى يستعدَّ لاسترجاع حريته، وتستعد الدولة المغربية لاستعادة استقلالها.

حزب الوحدة المغربية

موقف المغرب تجاه إسبانيا

ومن حسن الحظ أن الحكومة الإسبانية حافَظَتْ على مبدأ الحماية في أكثر تصرُّفاتها … وأظهرت استعدادها لسماع صوت المغاربة وتحقيق أمانيهم؛ فلذلك تقف الوحدة المغربية من إسبانيا موقف التفاهم والتعاون والنقد الهادئ.

حزب الوحدة

وإذا كان نظام الحماية في جوهره هو نظام الإصلاحات، فلا نظن أن التعاون مع الحكومة الإسبانية على تنفيذ الإصلاحات الضرورية إلا مفيدًا.

حزب الإصلاح

موقف المغرب إزاء العرش العلوي

المغرب للمغاربة ... والعائلة المغربية الوحيدة المختارة من الشعب المغربي نفسه لمزاولة هذا الحق، والمُبايَعَة من قِبَلِه على الطاعة منذ أكثر من ثلاثة قرون إلى الآن، هي العائلة العلوية الشريفة؛ لذلك تؤيِّد الوحدة المغربية هذه العائلة المالكة ... وتوجِّه الشعب في نهضته نحو الولاء لها والتعلُّق بأهدابها.

حزب الوحدة

إن مبدأنا في حكم البلاد ملكي إسلامي على أساس الشورى ... وإننا لا ننسى الخدمات الجليلة التي قدَّمَتْها العائلة العلوية الشريفة للمغرب؛ لذلك نحن متشبثون بالعرش العلوي الشريف ... وإننا من أجل ذلك نحارِب الحكم المباشر من إدارة الحماية، وكل التشريعات التي تمس نفوذ جلالة السلطان، أو نفوذ خليفته وممثله الشرعي في هذه المنطقة.

حزب الإصلاح

موقف المغرب نحو لغته

اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة للمغرب الإسلامي ... المغرب وطن واحد لا يتجزَّأ.

حزب الوحدة

إننا مغاربة مسلمون، ديننا الإسلام، ولغتنا الرسمية هي اللغة العربية، وإن المغرب بكل مناطقه وحدة لا تتجزَّأ.

حزب الإصلاح

الإصلاحات العامة في المنطقة الخليفية

بناء النظام الإداري على أساس معاهدة الحماية طبقًا لنصوصها ولمعنى الحماية القانوني.
إلغاء التشريعات والمؤسسات التي أحدثت منذ إعلان الحماية على أساس الإدارة المباشرة، وكفالة الإقامة العامة لسائر المصالح الأساسية في المغرب بالوسائل الإدارية.
الابتعاد عن سياسة الامتيازات العنصرية في التشريع والإدارة.
جعل التقسيم الإداري للنواحي خاضعًا لمبدأ المركزية الإدارية، وإسناد رياسة النواحي إلى موظفين مغاربة.
استبدال الحكم الإداري المدني بالحكم الإداري العسكري في سائر المدن المغربية، وفي كل البوادي التي استتبَّ بها الأمن وأجري فيها النظام.
إلغاء الإدارات الزائدة، وإدماج الإدارات المتشابهة الاختصاص، وإلحاق كل إدارة بالوزارة المغربية التي تمس اختصاصها.
إدخال عدد كافٍ من المغاربة في كل المجالس الإدارية.

حزب الإصلاح

جعل التقسيم الإداري للنواحي خاضعًا لمبدأ المركزية الإدارية، وربط الموظفين في جميع نواحي المنطقة بالحكومة الخليفية ربطًا مباشرًا.
إلحاق كل إدارة من إدارات الدولة الحامية بالوزارة الخليفية التي تمس اختصاصها.

حزب الوحدة

الحكومة المغربية

تتألف الحكومة المغربية من ستٍّ وزارات: الصدارة العظمى والداخلية – العدلية المغربية – المالية والاقتصاد الوطني – المعارف – الأحباس – الأشغال العامة.
يُعيَّن خليفة مغربي للقائد العام للجيوش في المغرب.

يُعيَّن الفنيون الإسبانيون في الإدارات الفنية التابعة للوزارات المغربية، زيادة على الموظفين المغاربة.
تكون كل المصالح المغربية تحت نظر الوزارات الجديدة.
تُلغَى الإدارة المباشِرة في بعض الإدارات كالمالية والأشغال العامة.
يُلحَق الخبراء الإسبانيون بالوزارات المغربية، فلا يبقى من حكم الحماية غير الإقامية، والكتابة العامة، ونيابة الشئون الوطنية، والمراقبات (مراكز الاستشارية).

حزب الإصلاح

تتألف الحكومة الخليفية من ثماني وزارات، بزيادة وزارة الصحة والإسعاف، ووزارة المواصلات، فوق ما ذُكِر في مطالب حزب الإصلاح.
إنشاء رياسة مغربية عُلْيَا للجيش الخليفي إلى جانب المراقبة الإسبانية.

حزب الوحدة

مجلس وطني

يُؤسَّس مجلس وطني مؤلَّف من الرعايا المغربية، يكون أعضاؤه مقسومين إلى قسمين: ثلث من مندوبي مجالس المغرب الاقتصادية، وثلثين يُنتخَبون انتخابًا عامًّا.
مندوبو المجلس الوطني لا يتقاضون أجورًا على وظائفهم، وإنما تؤدي الحكومة تعويضات التنقُّل للمندوبين الساكنين خارج العاصمة.

حزب الإصلاح

يُؤسَّس مجلس عمومي أعلى في المنطقة يتألَّف من مندوبين مغاربة يمثِّلون المجالس الإيالية والنقابات الاحترافية والهيئات الداخلية.

في طليعة ما ينبغي أن يُعرَض على هذا المجلس ميزانية المنطقة، وكل المسائل التي تتصل بالمالية الخليفية.

حزب الوحدة

العدلية

مطالب الحزبين واحدة على الإجمال، وخصوصًا في التنظيم الحديث للمحاكم الشرعية والصلحية والمخزنية، ويطلب الحزبان أن يكون لكلٍّ هذه المحاكم قسمان: ابتدائي وثانوي.

ثم يطلب حزب الإصلاح: «فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية، مع إبقائهما خاضعتين لسمو الخليفة، وحماية القضاء من التدخُّلات الإدارية، وأن تكون اللغة العربية اللغة الرسمية في كل أعمال المحاكم المغربية.»

ويطلب حزب الوحدة: «فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية، وحماية القضاء من التدخلات الإدارية، لا من جانب السلطة الحامية، ولا من جانب السلطة المحمية.» ويطلب أيضًا: «إدخال اللغة العربية شيئًا فشيئًا في الإدارات المختلفة.» ويتلو ذلك بعض التفصيل في التعريب العام للمنطقة.

الحريات الشخصية والعامة

يتفق الحزبان في طلب الضمان القانوني لحرية الفكر والاعتقاد والقول والنشر والاجتماع. ثم يطلب حزب الإصلاح:

وجوب تناسب العقوبة مع الجريمة.
عدم سجن المتهم أكثر من ٢٤ ساعة بدون بحث قضائي.
إبطال الضرب بالسياط والتعذيب بأية آلة من الآلات.
القضاء نهائيًّا على بقايا النظام الإقطاعي في جميع أطراف المنطقة ويطلب حزب الوحدة.
وجوب تناسُب العقوبة مع الجريمة.
إبطال العقوبة بحجز الأملاك والأمتعة في جميع أطراف المنطقة.

إبطال الضرب بالسياط والتعذيب بأية آلة من الآلات.

وهناك فصول في اللائحتين تكاد تكون متشابهة تتعلق بالسجون وضرورة إصلاحها، «فهي وسيلة من وسائل التهذيب والتربية، لا أداة من أدوات الانتقام»؛ وبالعمال لتحسين معيشتهم؛ وبالزراعة، والاقتصاد، والصناعة.

والحزبان يطلبان إعانة الصنَّاع المغاربة بقروض صغيرة لترقية أدواتهم الصناعية، وحماية المصنوعات المغربية من المزاحمة الأجنبية.

وفي إصلاح المعارف يطلب الحزبان توحيد برامج التعليم الحديث لجميع الرعايا المغربية، وجعل التعليم الابتدائي إجباريًّا في البوادي وفي المدن.

ومن أهم ما يُطلَب إصلاحه في الأمور الاقتصادية والمالية هو: جعل قدرات ميزانية المنطقة مناسبة لحاجات سكَّانها وملائمة لمقدرتهم على الأداء (هذا بالحرف الواحد من اللائحتين)، وعدم الالتجاء إلى القروض الخارجية (هذا في لائحة حزب الإصلاح). أما حزب الوحدة فيقول: إلى أن تستغني ميزانية المنطقة بالتدريج عن القروض والمساعدات الخارجية.

فالحزبان مدركان ما للقروض الخارجية من سوء العاقبة على الدولة، ويطلبان ميزانية محدودة بالمقدرة والحاجة.

وفي اللائحتين روح مدنية عصرية مفعمة بالحكمة والوطنية والإخلاص، وليس في الإصلاحات العامة والأساسية كما هو ظاهر، شيء يذكر من الفرق الجوهري فلا تختلف اللائحتان إلا بالتفصيل في بعض الفصول، وبالاقتضاب في بعضها الآخَر — وبعنوانيهما وحزبيهما — وحرد رئيسيهما! وقد يكون حرد الواحد أخف من حرد الثاني فيزول، ولا يدوم بعده الحرد الباعث على الشقاق إن شاء الله.

لا يتم بحث في سياسة المغرب وأحزابه بدون ذكر الظهير البربري والحزب الأكبر المقاوم له.

والظهير البربري هو العلة والمعلول لسياسة فرنسا في المغرب الأقصى، «تلك السياسة التي أوحى بها بعض المستعمرين النفعيين، وأيَّدَتْها مساعي الكهنة الكاثوليكيين، واستغَلَّها ممثِّلو عهد الحروب الصليبية من المتعصبين، تلك السياسة التي اتحدت أغراض العناصر الرجعية عليها، وتوحَّدَتْ مساعيها حولها، فخلقت مشروعها خلقًا لتتوصَّل به إلى مطامعها، واستمدت من سلطة الحكومة وغفلة حرَّاسها قوةً تستند إليها لتنفيذ برنامجها، وتحقيق شهواتها وأغراضها.»

هذه البلاغة هي من سيل يراعة الأستاذ محمد داود، في مقال افتتاحي عنوانه الذكرى الرابعة في ١٦ مايو، مطبوع بالحبر الأحمر ضمن إطار أسود، في الجزء الثامن من مجلته «السلام»، وموجَّه إلى دولة فرنسا الديمقراطية.

ومثله أو دونه أو فوقه في البلاغة يكتبه كل كاتب ويقوله كل خطيب في بلاد المغرب، وخصوصًا يوم ذكرى الظهير البربري كل عام، كما قدمت، فاليوم السادس عشر من شهر مايو لأهل المغرب كاليوم الثاني من شهر نوفمبر لأهل فلسطين، وكما أن العرب في فلسطين، بل في البلاد العربية جمعاء يستنكرون وعد بلفور، ويحتجون عليه، ويستبسلون في جهاد الدولة التي أصدرته وشرعت في تنفيذه، فكذلك أهل المغرب وقد عزَّزوا جهادهم بالتضحية في أكتوبر سنة ١٩٣٧، وهم يردِّدون كلمات كل كاتب فيهم، وكل خطيب وزعيم:

> يا فرنسا، إن الحقيقة التي لا موارَبَة فيها، وإن الصراحة التي يسرنا ويهمك أن تسمعيها، هي أننا — نحن المغربيين، كبارًا وصغارًا، ذكورًا وإناثًا، علماء وجهَّالًا، في حواضرنا وبوادينا، من حدود الجزائر إلى المحيط الأطلنتيقي، ومن البحر الأبيض إلى الصحراء الكبرى — نستنكر السياسة البربرية كل الاستنكار، وننزِّه فرنسا الحقيقة ورجالها الأحرار عن المشاركة فيها، ونصارِح كلَّ مَن يهمه الأمر أن الإصرار على تنفيذها سوف لا يكون له نتيجة إلا إبعاد الثقة بين الحكومة والشعب، وخلق المشاكل العويصة التي يعود الشطر الأكبر من مضارها على الحكومة ورجالها ومشروعاتها.

هذا الكلام من المقال نفسه للأستاذ داود يتحقَّق صحته كلُّ مَن ساح في المغرب؛ فالأمة المغربية هي حقًّا حزب واحد على الظهير البربري، أو هي الحزب الأكبر المقاوم له، وللسياسة المبنية عليه.

وما هي حقيقة الظهير البربري، حقيقته المجردة من العواطف الوطنية، والبلاغة الخطابية؟

لقد كُتِبت في اللغة الفرنسية كتب كثيرة، تاريخية وقانونية وأثنولوجية وسياسية، علمية واستعمارية، في هذا الظهير ووجوبه، وفي كيفية العمل به في القبائل البربرية

بالمغرب. ما طالعتُ هذه الكتبَ الفرنسية، ولكني قرأتُ ما نُقِل عنها باللغة العربية،[١٦] وشيئًا وافرًا غيره في الموضوع، متوخيًا الحقائق الراهنة المجردة من العواطف الهائجة والهادئة، ومن أفانين البلاغة والتحريض.

هذا الظهير هو ظاهرًا وثيقةُ استقلال البربر عن العرب المسلمين، وحصن حقوقهم القبلية والتقليدية استوحته الحكومة الحامية من شئون القبائل الخاضعة وتقاليدهم وعاداتهم المرتبطة بها أحوالهم الشخصية.

وهي تزعم أن القبائل هم من غير العرب الفاتحين، بل من الشعوب الأوروبية، وأن إسلامهم لم يكن في زمن من الأزمنة تامًّا ثابتًا، وأن بعض هذه القبائل كانت خارجة على الدولة المغربية وسلطانها، وأنها بعد إعلان الحماية اطمأنت إلى الحكم فدخلت في طاعته، وأن أكثرها تجهل الشرع الإسلامي، وتتشبث بعاداتها وتقاليدها في التقاضي؛ فلذلك كله يجب أن يكون لها أنظمة خاصَّة تضمن بقاء الأحوال التي أمست جزءًا من كيانها.

إن في الزعم الأول مجالًا واسعًا للجدل والمناقشة، وقد اختلفت العلماء في أصل الشعوب التي كانت تقطن أفريقيا الشمالية قبل الفتح الفينيقي والاحتلال الروماني، بل قبل أن يكون بين البحرين المتوسط والأطلنتيقي المضيق الذي يُدعَى اليوم مضيق جبل طارق. ففي ذلك الزمان الجيولوجي، يوم كانت أوروبا متصلة بأفريقيا، نزحت بعض الشعوب الأفريقية إلى أوروبا واستوطنتها، فيكون الأوروبيون بحسب هذا الرأي العلمي، من أفريقيا أصلًا ولا يكون الأفريقيون من أوروبا! ويقول ابن خلدون الذي يحترم المؤرخون الأوروبيون رأيه: إن البربر من عرب اليمن نزحوا إلى المغرب قبل الفتح الإسلامي. على كل حال إن الاهتمام بمثل هذا الأبحاث لَعقيم، وخصوصًا في هذا الزمان السعيد، وقد اختلطت الشعوب كلها بعضها ببعض، فلا يُعرَف الآري من السامي، ولا البربري من المغربي، ولا ابن أفريقيا الشمالية الأزرق العين، الوردي الخد، من ابن ماتاغونية المفاخر ﺑ «الحيوان الأشقر» حيوان نتشة. لا يُعرَف الفرق بينهم إلا بالقانون الدكتاتوري، أو بالظهير.

[١٦] خير كتاب عربي يشرح القضية شرحًا تاريخيًّا سياسيًّا قانونيًّا، ويدحض حجج أنصارها، هو كتاب «فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى»، أي التقرير إلى المؤتمر الإسلامي العام من اللجنة الشرقية للدفاع عن المغرب، والمصدر ببحث مستوفٍ للأستاذ محمد المكي الناصري.

ومَن ينكر أن القبائل البربرية اختلطت بالعرب الفاتحين ونسلهم، فأضحى الدم في الشعبين واحدًا في صفائه، أو في عكرته — كما تشاء؟

ومَن ينكر أن دول المغرب كلها منذ الفتح حتى اليوم هي دول إسلامية، وأن بينها مآثر مجيدة للبربر تمثَّلَتْ في دولتي المرابطين المسلمين والمسلمين الموحدين، وفي أبطالها المشهورين؛ ابن صوفر، وابن يسين، والبربري العظيم ابن تاشفين.

أما عادات القبائل وتقاليدها، في الأحوال الشخصية، فليس بين أهل الاختصاص مَن يجهل حقيقتها، بل إن للقبائل في كل مكان عادات وتقاليد خاصة، تتشبث بها، وتغار عليها من طوارئ الحدثان وأيدي التجديد والعمران.

وعندنا في البلاد العربية ما يشبهها، كبعض القبائل في اليمن، وفي نجد والحجاز والعراق؛ فإن لها جميعًا عادات وتقاليد مرعية في أحوالها الشخصية، تحترمها السلطات العليا في البلاد، ولا تتذرع بها لتُخرِج أصحابها من حظيرة الإسلام، وتجعلهم مستقلين في قضائهم وفي لغتهم ودينهم.

إن الظهير، فضلًا عن ذلك، وُضِعَ لأغراض، وهي على ما أرى ثلاثة:

أولًا: فصل القبائل البربرية عن المغاربة لغةً ودينًا، وذلك بنشر التعليم الفرنسي فيهم، وبالتبشير بالدين المسيحي الكاثوليكي.

ثانيًا: استقلال القضاء البربري، أو ما يسمونه العرف البربري، عن الشرع الإسلامي، وإدخاله تدريجيًّا في القضاء الفرنسي.

ثالثًا: تملُّك الفرنسيين أراضي القبائل بطرائق مشروعة يستنبطونها من عادات البربر وتقاليدهم التي تعهَّدوا أن يحترموها.

فهل في إحلال القضاء الفرنسي محل القضاء العرفي، كما هي الحقيقة في التقارير الملحقة بالظهير — وسنذكرها في محلها — وهل في إحلال الثقافة الفرنسية محل الثقافة العربية، شيء من الاستقلال البربري، أو من المحافظة على حقوق البربر التقليدية؟ إنه لَيصعب إخفاء النتيجة أو تحايدها؛ فالمسألة مرتبطة بقاعدة كانت رومانية في قديم الزمان، وكانت تركية بالأمس، وهي اليوم فرنسية إنكليزية يابانية، هي قاعدة: فرِّقْ تَسُدْ. وللسيادة هدف أقصى هو الاستيلاء، وبكلمة أخص هو امتلاك الأراضي.

ليس في الظهير البربري الأول ما يتعلَّق مباشَرةً بالأرض، ولكن في الظهير الثاني والتقارير الملحَقة به ما يثبت أن الدولة الحامية تمهِّد لأبنائها سُبُلَ التملُّك في البلاد

وخصوصًا في البوادي، على ما يعترض ذلك من الصعوبات؛ فالفلاح المغربي شديد التعلُّق بالأرض، وهو يسميها أمه، فإن سُئِلَ بيعها قال: وهل أبيع أمي؟ والفلاح البربري هو أشد تعلُّقًا بهذه الأمومة من سواه.

أضِفْ إلى ذلك أن أكثر الأراضي التي للقبائل هي ما يسمونه هم «أرض جماعة»، وما نسميه نحن في البلاد العربية حمى، فلا يجوز بيعها للأجانب، ولا يجوز لأي فرد كان من العشيرة التصرُّف بها مستقلًّا عن أبناء عشيرته، حتى إن حق الشفعة الذي يخص به الشرع الإسلامي شركاء الأملاك الخاصة، يمده العرف البربري إلى كل سكان القبيلة. فكيف تغلَّبَتِ الدولة الحامية على هذه الصعوبات؟

عندما حلَّتْ جنود الحماية بالبلاد أُنزِلت في أملاك خاصة بالدولة، أي في أراضي المخزنية. فما لبثت أن ضاقت هذه الأراضي بالجنود، فخطت إدارة الأملاك خطوتها الثانية، وقصدها أن تنتزع من بعض القبائل قسمًا من أملاك جماعاتهم، فتضمه إلى ما تسميه أراضي الجيش؛ لتُخرِج أصحابه منه، ثم توزِّعه على المهاجرين من الفرنسيين إلى المغرب.

هذا المشروع المتشعِّب الأطراف، المرتبك الأسباب والأساليب، باشَرَتْه الدولة الحامية، وشرعت تتقدَّم فيه تدريجًا كلما ازداد عدد الطالبين،[١٧] وبما أن اشتراء الأراضي من القبائل كان متعسرًا، للأسباب التي ذكرت، طفقت تستأجرها بعقود قصيرة الأجل، ثلاث سنوات في البداية. ثم طويلة، عشر سنوات. ثم أطول، تسعة وتسعين سنة.

وقد كلَّلت مشروعها هذا بظهير يونيو سنة ١٩٢٢، الذي يختص «بتفويت «بيع» العقار من قِبَلِ المغاربة المنتمين إلى القبائل ذات العُرْف البربري، والتي لا محاكم فيها لتطبيق الشرع لأشخاص أجانب.»

فكيف نوفِّق بين ظهير سبتمبر سنة ١٩١٤ الذي من شأنه المحافظة ظاهرًا على عادات القبائل وتقاليدها، ومنها أن بيع العقار للأجنبي محظور، وبين هذا الظهير الذي يجيز البيع ويبرره؟ الجواب: لا توفيق يراد بينهما. والجواب الآخَر: أن الاثنين واجبان

[١٧] لم يكن في المغرب قبل عهد الحماية أكثر من خمسة آلاف أوروبي، منهم أربعة آلاف في طنجة. وفي سنة ١٩٢٩ بلغ عدد الأوروبيين في المغرب الأقصى مائة وخمسة آلاف نفس، ثمانون ألفًا منهم فرنسيون أو نحو ذلك.

لسلامة الدولة ومصالح أبنائها. أما الجواب الصريح المفحم، فإني أعطيكه من كتب أَلَّفَها فرنسيون قانونيون ومستعمرون.

قال روبر ريتو: «رعيًا ليوم يصبح فيه أبناء فرنسا أصحاب الرأي المطلق في الشمال الأفريقي، فينشأ على أنقاض الإرث الروماني، بأمن وسلام، شعب فرنسي، ويرفرف على شواطئ البحر المتوسط العلم المثلث الألوان. هو ذا الفوز الذي يضمن لنسلنا المتزايد أصقاعًا أمينة نلجأ إليها كلما مسَّتِ الحاجة إلى ذلك.»

وقال مارتي P. Marty: «ما جئنا هذه البلاد — أفريقيا الشمالية — حبًّا بأهلها، بل لنجعل من تربتها أرضًا صالحة لأبناء فرنسا، ونعيدها إلى الحظيرة اللاتينية كما كانت قبل الغزو الإسلامي.»

وقال جيرو A. Guiraud، الذي انتدبته الحكومة الفرنسية لإصلاح العدلية التونسية، وكان بعدئذٍ عضوًا في لجنة إصلاح العدلية المغربية: «إن القضاء البربري قائم على الفكرة في أن البربر مسيحيون، فلا يجب أن يخضعوا للشرع الإسلامي.»

وقد جاء في المادة الأولى من معاهدة الحماية (١٩١٢)، أن الحكومة الجمهورية الفرنسية، تتعهَّد بأن تجمع الإصلاحات التي تقوم بها في المغرب لا تمس الدين الإسلامي بسوء، وأن المؤسسات الدينية الإسلامية تبقى كلها على حالها. ثم جاء في المادة الثانية، أنها «تقطع على نفسها عهدًا بأن تبذل لجلالته — السلطان — الشريفية المساعدةَ ضد كل خطر يهدِّد شخصه أو عرشه، أو يقلق راحة ولايته، وتقدِّم المساعدة نفسها إلى وارث العرش وخلفائه من بعده.»

على أن في فرنسا علماء ومؤرخين وقانونيين تستعين حكومة الجمهورية بعلمهم في شرح نصوص المعاهدات وتأويلها؛ لتبرر السياسة التي تريد اتباعها.

وكذلك فعلت في استصدار الظهير البربري؛ فقد عادت إلى العقد الثاني من القرن الماضي، إلى عهد السلطان الحسن بن محمد، تدرس أحواله وأعماله، فوجدت أنه اهتم مرة بالتقاليد البربرية في سوس، فأمر بجمعها ليتحقق ما إذا كان فيها شيء مخالف للدين الإسلامي فينهى عنه، ولكنه لم يتعرض لها؛ لأنه علم وتيقَّنَ أنها لا تحتوي على ما يناقِض الشرع والدين.

هذا الاكتشاف التاريخي تستغله الحكومة بواسطة رجال القانون، قال ريبو Ribaut الاختصاصي في قوانين الجزائر والداعي للظهير البربري: «هذه السابقة الشهيرة من آخِر سلاطين المغرب العظام، هي التي سمحت لابنه مولاي يوسف أن يوقع دون كثير من الصعوبات ظهير ١١ سبتمبر ١٩١٤.»

والفرق بين إجازة الأعراف البربرية ضمن نطاق الشرع الإسلامي والاعتراف بها والعمل لاستقلالها عن ذلك الشرع، ظاهر لا جدال فيه، وقد جاء في الكتاب العربي، أي التقرير الذي أشرت إليه، أن المولى يوسف كان خصمًا عنيدًا للسياسة البربرية، وأنه صرح قائلًا: «كل قبيلة دخلت في طاعة الدولة المغربية يجب أن تكون خاضعةً للشرع الإسلامي.» — نقلها كذلك ريبو في كتابه «جماعات القضاء البربري».[١٨]

ولكن الإلحاف السياسي، والتلبيس الدبلوماسي، «والسوابق التاريخية»، ومعاونة بعض رجال القصر لرجال الحماية، كل ذلك أحاط بالعرش ومَكَّنَ الفرنسيين من صاحبه، فوقع المولى يوسف الظهير في ١١ سبتمبر سنة ١٩١٤، وها هو ذا بنصه الشريف:[١٩]

> نظرًا إلى أنَّ قبائل جديدة تنضم يومًا فيومًا إلى الإمبراطورية المغربية بفضل الأمن والسلام، ونظرًا إلى أن هذه القبائل من الجنس البربري، لها قوانين وعادات خاصة، تُستعمَل عندها منذ القِدَم، ولها بها تعلُّق شديد، ونظرًا إلى أنه يلزم لخير رعايانا، ولطمأنينة إيالتنا السعيدة رعاية الحالة العرفية التي تدبر هذه القبائل، أصدَرَ جلالة السلطان أمره بما يأتي:
>
> **الفصل الأول:** قبائل العرف البربري تكون محكومة ومنظمة طبق قوانينها وأعرافها الخاصة، تحت مراقبات السلطات، وتبقى محكومة ومنظمة كذلك.
>
> **الفصل الثاني:** تصدر قرارات من وزيرنا الأكبر — رئيس الوزراء — بالاتفاق مع الكاتب العام للحكومة الشريفية تعين شيئًا فشيئًا، وحسب الحاجة؛ أولًا: القبائل التي تدخل في دائرة العُرْف البربري، ثانيًا: القوانين والتنظيمات التي تطبق على العُرْف البربري.
>
> ثم عيَّنَ المقيم العام المارشال ليوتي يومئذٍ لجنة خاصة من كبار موظفي الإقامة «لجمع الأبحاث المتعلقة بالقبائل البربرية من جميع أطراف المغرب،

---

[١٨] "Quand le texte du dahir fut soumis au sultan et au grand vizir, tous deux opposèrent une vive résistance, affirmant que tout tribu pacifiée devant, comme le reste de l'Empire, être soumise au charâ musulman." Ribaut: Les Djemâas Judiciaires Berberes.

[١٩] أظن أنه كُتِب أولًا باللغة الفرنسية، وهذه ترجمته منقولة بالحرف الواحد من كتاب «فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى».

واستخراج نتائج عملية من تلك الأبحاث تساعد السلطة على تنظيم القبائل وإدارتها بشكل يتفق ومصلحة الدولة.»

ومما قرَّرَتْه اللجنة أن البرابرة ثلاثة أصناف:

أولًا: العنصر البربري الخالص الذي لا يزال في المغرب الأقصى محتفظًا بلهجاته البربرية، عدده مليون ونصف مليون نسمة، منهم برابرة الريف، والأطلس الأعلى، والأطلس المتوسط.

الثاني: القبائل المغربية المستعربة، التي تريد السلطة أن تضمها إلى الصنف الأول، وتدخلها في نظام العُرْف البربري.

الثالث: القبائل البربرية التي تخضع منذ القِدَم لمحاكم الشرع الإسلامي، وهي مسلمة عريقة في الإسلام، وكل ما تحتفظ به من تقاليدها يتعلق بالقضايا الجنائية فقط، وعدد الصنفين الثاني والثالث يزيد نحو مليون نفس على عدد الصنف الأول.

ولكن كل هذه القبائل ستدخل تدريجًا في حكم النظام الجديد؛ لذلك أصدرت الحكومة الحامية، باسم الحكومة المحمية ولا غرو، قرارات وزارية في ٥ مايو ١٩٢٣ و١٦ أبريل ١٩٢٨، تُوجِب مواصلة العمل في الفصل والتنظيم.

ثم قررت إنشاء «جماعات بربرية» تقوم بتنفيذ أحكام العرف، وأصدرت الظهائر السلطانية والقرارات الوزارية لهذا الغرض، فأنشأت بموجبها نحوًا من ثمانين «جماعة بربرية» تتولى القضاء في نحو أربعين مركزًا من المراكز الإدارية، وجهزت هذه «الجماعات» بكتَّاب فرنسيين اختارتهم من ضباط الجيش أو الضباط المترجمين، وقررت أن تكون اللغة الفرنسية اللغة الرسمية لأعمال «الجماعات»، وأن يكون لها سكرتير عام فرنسي، هو فعلًا قطبها ومدير شئونها.

على أن المشروع في مراحله الأولى لم يتجاوز الحدود الإدارية، ولم تكتسب «الجماعات البربرية» صفة قانونية، فما اعترفت المحاكم الإسلامية بعقودها وأحكامها.

وبما أن الصفة القانونية هي من ألزم ما يلزمها، سَعَتِ السلطة لاستصدار الظهير الذي يعطيها هذه الصفة فيرفعها إلى مستوى محاكم الشرع الإسلامية، وكانت قد عيَّنت لجنةً لتنظيم العدلية في سنة ١٩٢٤، فاستعانت بتقريرها القائل: «تعتقد اللجنة أن لا غنى عن أخذ مرسوم من جلالة السلطان لوضع أساس الجماعات البربرية وتحديد اختصاصها.»

مرت السنة وتلتها السنوات الثلاث، الأربع، الخمس، وما صدر الظهير المنشود. مع ذلك استمرت الحكومة الحامية في عملها الإداري توطد أركانه، فجهَّزت الجماعات القضائية بأنظمة للإدارة والمرافعة، وبميزانية خاصة بها، ثم قرَّرَتْ إنشاء محاكم عرفية، ابتدائية واستئنافية، في بعض القبائل كزمور وبني مطهر وبني مجيلد.

هذه الأعمال الإدارية قامت الحكومة الحامية بها، مستقلة عن الحكومة المخزنية، خلال الست عشرة سنة، منذ ١٩١٤ إلى ١٩٣٠، وبدون الظهير الذي يبرِّرها، ويعطي «الجماعات البربرية» صفة قانونية.

وفي سنة ١٩٣٠ بعد أن خلف مولاي محمد أباه مولاي يوسف بثلاث سنوات، رأى المقيم العام المسيو لوسيان سان Lucien Saint أن الفرصة قد حانت لصبغ النظام الجديد بصبغة قانونية تامة ثابتة، وقد استعان ببعض رجال القصر الحائزين ثقةَ السلطان الشاب، فهوَّنوا الأمر عليه، فوقع في ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ الظهير الذي يوسع نطاق النفوذ الفرنسي في القبائل، ويفصلها تمامًا عن السلطة المخزنية، ويضع الجماعات القضائية تحت سلطة الحكومة الحامية، ويعيِّن موظفين فرنسيين في المحاكم الابتدائية والاستئنافية، ويجعل القضايا العقارية وجميع القضايا الجنائية خاضعة لأحكام النظام القضائي الجديد، وهو يقلِّد كذلك رئيس الوزراء سلطةً تمكِّنه من إصدار الأوامر في كل ما يتعلَّق بتنظيم المحاكم العرفية وتعيين القبائل التي تدخل تحت نظام العرف، فيطبق تدريجًا عليها كلها.

وفي مقدمة هذا الظهير الذي وضعه المسيو لوسيان سان، وافتتحه حسب العادة بالبسملة، تسوية للحقيقة؛ إذ يقول إن السلطان مولاي يوسف هو الذي وضع أساس السياسة البربرية لمصلحة الأمة المغربية. وقد سبق فذكرت أن مولاي يوسف صرَّحَ قائلًا — بشهادة المسيو ريبو نفسه: «إن كل قبيلة دخلت في طاعة الدولة المغربية يجب أن تكون خاضعةً للشرع الإسلامي.»

هي السابقات التاريخية، قرة عين القانونيين، ومعشوقة السياسيين عندما تخدم أغراضهم؛ فالمولى الحسن قد مهَّدَ لابنه المولى يوسف، والمولى يوسف مهَّدَ لابنه مولاي محمد، وما عملت الحكومة الحامية بغير إرادة سلاطين المخزن الشريف.

ولكن المؤتمر الإسلامي العام الذي عُقِد بمدينة فاس في ٢٧ رجب و٢٧ شعبان عام ١٣٥٠، قرَّرَ ما يلي:

قد تناوَلَ المؤتمر في أبحاثه موضوع الظهير الذي أُصدِر بتأثير السلطات الاستعمارية سنة ١٩٣٠ في بلاد المغرب الأقصى، القاضي بقطع علاقات مسلمي البربر من أحكام الشريعة الإسلامية، وكذلك موضوع الحملات التبشيرية التي تقوم بها الجمعيات الدينية لتحويل أبناء البربر المسلمين عن دينهم ولتنصيرهم. وهو يقابل ذلك بأشد الاستنكار، ويرى فيه عدوانًا صارخًا على الحرية الدينية، وكرامة الدين الإسلامي وأحكامه، وقد عهد إلى رياسة المؤتمر بالاحتجاج على ذلك لدى المراجع الإيجابية، وبطلب إلغاء الظهير والكف عن تلك الأسباب التبشيرية.

وجاء في قرار لكتلة العمل القومي:

وقد تيقَّنَ المغاربة أن السياسة البربرية المتبعة في البلاد هي سياسة إدماج، وأنها مظهر من مظاهر الحكم المباشر المنافي تمام المنافاة لمعاهدة الحماية التي تقضي بأن الحكم للمغرب وحده، ليس للدولة الحامية سوى حق المراقبة وواجب المساعدة.

وفي «مطالب الشعب المغربي» التي قدَّمتها لجنة الوفد المغربي إلى جلالة السلطان محمد بن يوسف عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م ما يلي:

(١) العدول عن تطبيق السياسة البربرية وإبطال العمل بما صدر فيها منذ ١٩١٤ من الظهائر والقرارات المخزنية، ومن المناشير الإدارية.

(٢) جعل نظام المحاكم المغربية ونظام التعليم موحَّدَين في أنحاء البلاد كافةً.

(٣) منع التبشير بين المغاربة والمسلمين في البوادي والحواضر.

(٤) عدم منح أي إعانة من الميزانية المغربية، أو أي ملك من أملاك المخزن الشريف للجمعيات التبشيرية.

ولا تزال الأحزاب والصحافة والأمة تحتجُّ على الظهير البربري احتجاجًا يبلغ أشده في ١٦ مايو من كل عام.

١٦ مايو سنة ١٩٣٠ في المغرب الأقصى، و٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ في فلسطين: الظهير البربري، ووعد بلفور. إنهما من الوثائق التاريخية الخطيرة التي يتمثَّل فيها أسلوب من أساليب الاستعمار الأوروبي الجديدة، ولا يقوم مؤرخ هذه الأيام، بالواجب عليه حق

القيام إن لم يذكر هاتين الوثيقتين ويدرسهما، ويقارن بينهما وبين أغراض الدولتين المصدرتين لهما.

بقي أن أعطيك، أيها القارئ العزيز، مثالًا واحدًا من الأعمال التمهيدية للظهير البربري — كيف يطبخ الظهير — وهو مأخوذ من محضر اللجنة[٢٠] التي عيَّنها المقيم الفرنسي العام للبحث في تنظيم العدلية البربرية (الرباط ٢٦ فبراير سنة ١٩٢٤):

دوران «المفتش العام في إدارة المحافظة العقارية»: يجب أن يُنصَّب قضاة فرنسيون في المحاكم البربرية؛ ليمكنهم استنباط ما هو العرف بين البربر.

كوردي «الرئيس الأول في محكمة الاستئناف»: يجب أن نضع نظامًا مطاطًا ليِّنًا جدًّا، يسمح بنصب القضاة الفرنسيين في المراكز التي يناسب ذلك فيها.

كوردي أيضًا: أرى أن تكون عقوبة الجرائم المرتكبة في بلاد البربر موكولة بالمحاكم الفرنسية.

بينازي «مدير الأمور الأهلية»: إني أشك في إمكان موافقة المخزن على هذه المسألة.

بلان «قنصل فرنسا ومستشار الحكومة الشريفية»: أستطيع أن أؤكد لأعضاء اللجنة مساعدة السلطان على النص المشار إليه.

بينازي: من الممكن حدوث رد فعل من جانب المخزن، فأرى المستحسن أن نصل إلى هذه التدابير شيئًا فشيئًا — على التدريج.

كذلك يُطبخ الظهير، فيُقدَّم بواسطة طبيب السلطان — الحاجب، أو رئيس المشور، أو رئيس الوزراء، أو آخَر من دهاقين القصر أو المخزن — فيذوقه فخامة الدهقان، بعد أن يكون قد ذاق من موائد الحماية ألذ المآكيل؛ ويؤمن عليه، بل يهون أمره على المولى، فيوقِّعه وهو مصدَّر باسم الله!

[٢٠] نشرته جريدة الوحدة المغربية في عددها الخاص بالذكرى السابعة للظهير البربري الصادر في ١٦ مايو ١٩٣٧.

الفصل الرابع عشر

الفضل للمتقدم

ليذكر العاملون في حقل التعليم، وزعماء الأمة السياسيون والاقتصاديون، وقادة الرأي العام في المستقبل أن:

أول مَن أسَّس مدرسة أهلية بتطوان سنة ١٩٢٥ هو الأستاذ الحاج محمد داود، وهو كذلك أول مَن أنشأ مجلة أدبية تاريخية مصوَّرة، هي مجلة «السلام»، صدر العدد الأول منها في أكتوبر سنة ١٩٣٢.

وأول مَن أنشأ جريدة عربية بتطوان هو الشيخ عبد الله الدحداح اللبناني، أنشأها في سنة ١٩٣٣ وأسماها «الاتحاد».

وأول مَن أنشأ جريدة وطنية من أهل المنطقة هو الأستاذ عبد الخالق طريس؛ فقد صدر العدد الأول من «الحياة» في مارس ١٩٣٤، وهو أول مَن أسَّس حزبًا سياسيًّا.

وأول مَن اهتم باقتصاديات المنطقة، وأسَّسَ شركة اقتصادية هو الحاج عبد السلام بنونة.

وأول بعثة من الطلبة إلى فلسطين التحقت بمدرسة الفلاح بنابلس سنة ١٩٣٠.

وأول معلمة وكاتبة في هذه المنطقة هي السيدة رحمة المدني.

وأول مهندس هو محمد الفاسي.

وأول أستاذ عربي لبناني هو ألفريد البستاني.

والآخرون من الأساتذة اللبنانيين: موسى عبود، وحسن عسيران، ونجيب مُلهم، وأنطوان عيد البستاني، جاءوا بعده في أوائل سنة ١٩٣٩.

وأول رهط من الأساتذة المصريين كان مؤلَّفًا من: حسين الإبياري، وعبد الله الجليل خليفة، وحافظ متولي، ويونس مهران، وحسين أمين، ومحمد وهبي، قدَّموا تطوان في يناير ١٩٣٩.

وأول خليفة عني بالتعليم ونشره، ويعقد صلة ثقافية بين المغرب والمشرق العربي، فأسَّسَ المعهد الخليفي بتطوان، وبيت المغرب بالقاهرة، هو الخليفة الحسن بن المهدي.

وأول مَن اهتم بالنهضة المغربية الوطنية الثقافية من المقيمين الإسبان اهتمامًا صادقًا مثمرًا، فساعَدَ في وضع الأسس ووطَّدَها، هو الكلونل خوان بايبدر.[١]

وللشعراء

أرى أملًا للمغرب ابيضَّ أفقُه　　　يلوح بليلِ اليأسِ منه سنى البرقِ
عليه من العليا بشائرُ نهضةٍ　　　تهدِّد أركان التسلُّط والرقِّ

المغرب

محمد المهدي الحجري

[١] في تطوان مَن يذكرون بالخير الجنرال فرنند كاباس F. Capaz الذي تولَّى نيابة الأمور الوطنية — أي مديرية الداخلية ورياسة المراقبين — منذ سنة ١٩٣٣ حتى منتصف سنة ١٩٣٥، وكان ذا عناية محمودة بالنهضة الوطنية الثقافية، فباشَرَ تأسيس المدارس، ووظَّفَ بعض الوطنيين العصريين في الحكومة كعبد الخالق طريس الذي كان في عهده مدير الأحباس، ومنح الصحافة حرية مقيَّدَة بسياسة الإقامية؛ فعطلت الحكومة جريدة «الحياة» لأنها كانت تطالِب باستقلال القضاء الإسلامي.

كان الجنرال كاباس من الاستعماريين الرشيدين، يعجب بالمارشال ليوتي ويريد أن يقتفي أثره؛ ليكون لإسبانيا في المنطقة الشمالية ما لفرنسا في المنطقة الجنوبية. أما فضله الأهم، من الناحية الوطنية، فهو استدعاؤه لصديقه الكولونيل بايبدر، الذي كان يومئذٍ مستشارًا في السفارة الإسبانية؛ ليكون عونًا له في المغرب، فجاء بايبدر في سنة ١٩٣٤ وشغل وظيفة مراقب حتى يوم أُعلِنَتِ الثورة، ثم تسلَّمَ زمام الأمور وتبنَّى النهضة المغربية، فزادها نشاطًا وعزمًا.

كلُّ صعب على الشبابِ يهونُ　　هكذا همة الرجال تكونُ
قَدَمٌ في الثرى وفوق الثريَّا　　همةٌ قَدْرُها هناك مكينُ

فاس

علال الفاسي

وردُّ السيل عن مجراه أدنى　　مِنَ انْ يرتدَّ نشءٌ يستفيقُ
أَلَا فَلْنتحد في السير جنبًا　　لجنبٍ أيها النشء المفيق

مراكش

المختار السوسي

قوموا انظروا القوم في أسمى تقدمهم　　قد مهَّدوا الأرض قاصيها ودانيها
في كل يوم تَرَوْا منهم عجائبَ لا　　ينفكُّ حاضرها يُزرِي بماضيها

الرباط

محمد الجزولي

بني وطني أحيوا علومًا دوارسًا　　فكل بلايا الشعب جاءت من الجهل
بني وطني هيا ارفعوا شأن قومِكم　　فقد جُرِّعوا كأس المهانة والذل

تطوان

محمد عزيمان

أمة المغرب هيَّا للعلا فلقد ولى زمان الخاملين
يا بني المغرب هيا اقتحموا سبل العيش بعزم لا يلين

تطوان

محمد داود

يا أيها الشبان سيـ ـروا إنكم جند الحياة
الخطبُ جلَّ وليس غيـ ـر بني البلاد لها حماة

تطوان

المكي الناصري

ما كان لي من حاجة ومراد إلا تيقُّظ أمتي وبلادي
هذي الحوادث أيقظت من هولها حتى الجماد فعاد غير جماد

الجزائر

السعيد الزاهري

عهدي بقومي كالصوارم تنتضي عهدي بهم كصوارم الأطراد
عهدي وليس يفلُّ شيء عزمهم أو يظفروا بمرامهم ومراد

تونس

الهادي المدني

لذة العيش حياة الوطن وفداه من صروف الزمن

* * *

إن يكن غيري يهوى أحدًا   فهواه العذب قد تيَّمني

* * *

وأنا ما عشت عليه واقفٌ   قوَّة الروح وشغلَ البدنِ
ومُضَحٍّ كل ما أملكه   في هواه لست في ذاك أني
وإذا متُّ عليه فأنا   مطمئنٌّ لرضاه المثمنِ
فاغسلوا بالماء منه بدني   واجعلوا نسج بنيه كفني
وادفنوني في ثراه وضعوا   فوق قبري منه زهر السوسن
واكتبوا فوق ضريحي بدمي   ها هنا قبر شهيد الوطن

علال الفاسي

الجزء الثاني

الفصل الأول

الخليفة الحسن

لا يزال في البلاد العربية، على الخليج الفارسي والبحر الهندي وحول عدن، إمارات مقيَّدَة بالسياسة الإنكليزية، يخضع أمراؤها بنفس طيبة، أو بعامل من عوامل القضاء — يقضي على المرء! — أو حفظًا لحقوق بيتية في الإمارة، أو من قِصَر الهمة، لمشيئة الإنكليز التي يمثِّلها المقيم أو المستشار أو الضابط السياسي.

هذه الصلة بين الإنكليز والأمير الحاكم، على أنواعها في الأمر والطاعة، أو في الإرادة والإذعان، لا يجهلها العرب مهما حرص أميرهم على كتمانها ... فهم يعلمون بما فيه من ضعف ومن قوة، وبما تقوم عليه إمارته من حق مشروع، وإن كان متزعزعًا في بيته، ومن حق مصنوع مؤيد في ارتباطه بالإنكليز؛ لذلك لا يطيعون إلا منتفعين أو مكرهين، فيقل — ويكاد يضمحل — الحب والاحترام بينه وبينهم.

والأمير يدرك ذلك ويتجاهله، على أنه لا يستطيع أن يقنع آل بيته ورجال حكومته والمقرَّبين منه، بصدق جهله، أو بحياة تجاهله. إن صلته بالإنكليز لتحرمه حق الحاكم العادل، أي محبة رعيته واحترامها، هذه الحقيقة تثير في صدره من حين إلى حين كوامن الغيظ والحنق، فيكبتها، فينشأ من التفاعل بينها وبين ما يظهره شيء لا يخفى على الإنكليز، ولكنهم يتجاهلون، يتجاهلون والحرمان مشترك متبادل في حالي الجهل والتجاهل. فإن تلك العاطفة، عاطفة الحب والاحترام، التي تقل وتكاد تضمحل بين الأمير ورعيته، هي هي العاطفة نفسها، بصفتها التامة — وقل الناقصة — بينه وبين الإنكليز المسيطرين عليه.

إنها لحالة غير طبيعية، تدوم — إن دامت طويلًا — بالقوة، فإذ ذاك لا بد من الأزمات السياسية، أو المصانعة التي توجبها المصلحة، فإذ ذاك لا بد أن تظهر — وإن خلتها تخفى — فتفسد كل تدبير، وتذهب بكل احتياط، هذا في البلاد العربية.

وها هنا في هذه المنطقة من المغرب الأقصى أمير عربي، لا غبار على عروبته، وعروبة أجداده، التي نعمت في المغرب بثلاثمائة سنة من الحياة الحاكمة، بمآثرها ومعاثرها، بعد أن انتقلت بحسبها ونسبها من الحجاز. أما أن يكون الدم العربي صافيًا في هذه السلالة طوال هجرتها مما لا أعلمه، ولا أظن أن أحدًا يعلمه العلم اليقين، فيستطيع أن يجزم به.

على أن هناك أبوابًا للترجيح، أذكر بابًا واحدًا هو تسرِّي جد هذه العائلة، إسماعيل الكبير تسرِّيًا بلغ المنتهى، وأثمر ما يزيد على المائة من بنين وبنات، من النسوة البيض والشقر والسود في الحريم السلطاني الذي كان يومئذٍ مشهورًا. فهل يعقل أن يكون أبناؤه جميعًا من أرومة عربية صافية نقية؟ وهل يستنكر أو يستهجن اختلاط دم البربر مثلًا بدم العرب؟ وهل نستطيع أن نثبت الشك إن شككنا في مثل هذا الاختلاط؟ ليس عندي غير جواب واحد في هذه الحالات الثلاث، ولست أرى في التزاوج بين شعبين من الشعوب البيض أو السود أو الصفر في حالي الصحة والسلامة، غير الخير الوافر. ما ضرَّ اختلاط العرب بالفرس على قلته، بل أفاد الشعبين، ولا يضر اختلاط عرب المغرب بالبربر، وليس من شك في أنه كثر خلال ثلاثة عشر قرنًا؛ فإن اختلاط الشعبين بالتزاوج من دواعي القومية المغربية — العربية البربرية — التي تزداد قوةً ومناعةً.

إن الشكل العربي التقليدي السامي المحدَّد في علم الأثنولوجيا، أي الوجه المخروط، والعظم الفارغ فوق الخدين، والأنف الأقنى، والإهاب الأسمر، والعين السوداء، هذا الشكل يشتد كثيرًا في البلاد العربية، خصوصًا في أعالي اليمن والحجاز. فما كل العرب ساميين بحسب التحديد الأثنولوجي، ولا هم كلهم من معدن الخير والكرم الذي تصوَّرَه الشاعر حسان بن ثابت في قوله:

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شمُّ الأنوف من الطراز الأول

فقد رأيت في اليمن الأعلى كثيرين ممَّن تصح فيهم الصفتان الأولى والثالثة فقط، ورأيت عددًا غير قليل ممَّن كرمت أحسابهم، وابيضَّتْ بشرتهم، وطالت منهم الأنوف والوجوه. فأين الشكل السامي الأثنولوجي الكامل؟ وأين الشكل العربي الشعري التام؟ إنه ليندر في الأقطار العربية جمعاء.

أما الكريمة أحسابهم، فإن أشكالهم في الحجاز ونجد تختلف عنها في اليمن أو في العراق؛ فمنها ما يدنو من الشكل الآري، ومنها ما فيه بعض السمات السامية، ومنها ما تختلط فيه الأشكال السامية والآرية والحامية معًا.

وأما الأَنَفَة والحَمِيَّة وعزة النفس التي يتصف بها «بيض الوجوه، شم الأنوف»، فهي من التقاليد المستحبة صورها في كلام الأدباء شعرًا أو نثرًا، وقلَّمَا يجدها المحقِّقون من العلماء مجتمعةً في موضعها، وإنه ليصعب عليهم أن يدركوا الأسباب في شواذها، فيدهشهم وجودها في العبد الأفطس الأنف مثلًا، كما يدهشهم عدمها في ذوي الوجوه البيض والأنوف الشمَّاء.

والحسن بن المهدي بن إسماعيل بن الحسن العلوي، الخليفة الثاني في هذه المنطقة، هو من العرب الذين تشذُّ في وجوههم فقط قاعدة الشاعر حسَّان بن ثابت؛ فهو أسمر الوجه مستديره — غير الشكل السامي — ولا نتوء في العظمين المتواريين فوق خديه وراء أنف أشمَّ، وإن له من سواد حدقتيه، ورقيق بياضهما، ما للعرب على الإجمال من النور البرَّاق الذي يفيض على الوجه، فيذهب بكلوحه، ويزيد بهيبته:

«سُمْر الوجوه» كريمة أحسابهم شُمُّ الأنوف من الطراز الأول

وليس الخليفة الحسن ممَّن ذكرت من الأمراء العرب، فهو في صلاته بالحاكم الأجنبي غير مُكرَه وغير مكروه، بل هو محبوب محترم من رعيته؛ لأن تلك الصلات لا تقصر من نفوذه، ولا تطعن في كرامته؛ فهي ناشئة من المصالح المشتركة، والعواطف المتجانسة، وقائمة بحسن النية في توخِّي المقاصد التي يستقيم بها الحكم المزدوج، وتصلح بها أمور الأمة.

هذه الصلة الطيبة بين الأمير الحاكم والدولة الحامية لبلاده يندر وجودها في البلاد العربية، وقُلِ الشرقية على الإجمال، وهي كما أشرتُ منزَّهَة عن المصانَعَة، لا إكراه فيها، ولا مجاملة، غير ما تقتضيه الأساليب السياسية في المواقف الرسمية.

يقول الخليفة الحسن، عندما تسأله عن السبب في هذا الولاء العامر بين الحكومة المخزنية والحكومة الوطنية الإسبانية: إن النُّظُم السياسية التي يقوم عليها حكم الجنرال فرنكو لا تهمه؛ فهو وشعبه يميلون إلى تفضيل ما يكون مناسبًا لمصالح البلاد، وقد وجدوا في السياسة الإسبانية الأفريقية الجديدة ما يسهل القيام بالأعمال الإصلاحية والإنشائية، ويحقِّق كثيرًا من الآمال الوطنية.

ويقول المقيم العام: لا يفسد الصلة بيننا وبين سمو الخليفة غير المصالح المتناقضة، وليس بيننا شيء منها. ليس ما يوجب الضغط والإكراه. ختم الخليفة الحسن بيده لا

بيدنا، وكرامته متصلة بكرامتنا فهي مصونة معزَّزَة. هذه السياسة تغنينا عن كل عمل مستنكر أو مستهجن — ليس أحد من سياسيي هذه المنطقة في السجن أو في المنفى. لا يخاف الحرية غير المقيَّدين بها!

والخليفة الحسن يقدِّم الإسلام على العرب لأسباب عملية؛ فهو ينظر في هذا الأمر نظرة عامة تشمل المغرب الأقصى بأجمعه، فيرى في المنطقة الجنوبية الإرساليات الدينية تقوم بأعمال تبشيرية خطيرة تضر بالإسلام والمسلمين، فتحدوه الغيرة العربية الإسلامية إلى الدفاع والمقاومة، فيقول نحن مسلمون ثم مغاربة. ويعمل مع العاملين لتخفيف وطأة التبشير في الجنوب، ولمنعه بتاتًا في الشمال.

وهو يعترف بسلطان المغرب ابن عمه محمد بن يوسف، فيأمر بالدعاء لجلالته في خطب الجُمَع والأعياد، كما أنه يؤيِّد الأحزاب الوطنية المجمعة على أن المغرب وطن واحد لا يتجزَّأ، وتؤيِّده في الوقت نفسه الدولة الحامية. أما أن يتم التوحيد بحماية من الحمايتين، أو بدون حماية، فذلك من الغوامض التي لا يكشف حقيقتها غير الزمان، وللزمان في مُداته ومُديداته شئون!

أما في الحاضر، فالخليفة الحسن يعمل هو والأحزاب لتخفيف المراقبة الإسبانية، وإزالتها بالتدريج من دوائر الحكم المخزني كلها؛ فقد كان في مقدمة المطالبين باستقلال وزارتي القضاء الإسلامي والأحباس، ثم أجاب طلب الأمة بتأليف مجلس أعلى يُشرِف على الأحباس، ويتعاون والوزارة المخزنية على ضبط شئونها وإدارتها.[١]

هذا فضلًا عن اعتنائه بالتعليم كما قدَّمْتُ، وبإدخال الأساليب الحديثة على فرعيه المدني والديني، فيكون ملائمًا لأماني المغرب في رُقِيِّه وتطوُّره، وشاملًا بخيره البوادي والحواضر جميعًا.

وليس حديث الخليفة في هذا الموضوع مقتصرًا على التجمُّل الخُلُقي، فيُثنَى عليه، بل هو حديث ذي عقيدة ويقين لا تعمُّل فيه ولا تصنُّع. فالنور في مبسمه، وإذ يتحدَّث في شئون المنطقة، يتنقل النور إلى لهجته فيضيء ما في حديثه من عزم وحماسة ونشاط.

ذكرت مبسمه — سمة البشر الطبيعي — الذي يتبارى وفهمه، ولا يتقدمه فيجري إلى جنبه أو في إثره قريبًا منه، يترافقان ويتزاوجان في مسالك السياسة والكياسة.

[١] أعضاء هذا المجلس، الذي تألَّفَ في فاس سنة ١٩٣٩ من الإيالات كلها، هم واحد وخمسون عضوًا، منهم عشرة أعضاء عاملون، يضم إليهم رئيس الوزراء، والباقي أعضاء شرف أو مراسِلون.

الأمير المهدي بن الحسن نجل سمو الخليفة والرئيس الفخري لبيت المغرب في مصر.

زار العاصمة في خلال الثورة الفرنكوية أوانس إسبانيات يخدمن في مؤسَّسَة الصليب الأحمر، فدعاهن الخليفة الحسن إلى حفلة شاي أقامها إكرامًا لهن في داره الجميلة خارج المدينة، وأَتَمَّ إكرامه فأمر بالفونوغراف، ومتى قلت الفونوغراف في هذا الزمان قلت الموسيقى الأفريقية التي غزت العالم المتمدن بعد أن احتلت أميركا وعُرِفت باسمها الأفريقي «الجاز»، ومتى قلت «الجاز» قلت الرقص الفرنجي الأفريقي الذي جُنَّ به الآدميون في كل مكان.

رقَصَ المدعوون يتقدَّمهم الخليفة الشاب في قيافته المغربية، فأدهَشَ الإسبانيات بما أتقن في هذا الفن، كأنه من أبناء أشبيلية أو غرناطة.

وما خرج في سلوكه هذا عمَّا كان من سلوك أجداده الحاكمين هناك في الماضي، فاقتبسوا عن النصارى كما اقتبس النصارى عنهم، وما تقيَّدوا كل التقييد بالتقاليد والعادات الشرقية، الاجتماعية والدينية. فلو كان الرقص شائعًا في تلك الأيام شيوعه في زماننا، لكان أولئك العرب — وهم المشغوفون بما يسمونه اليوم في الحجاز اللعب، أي الرقص — من المبرزين فيه.

والخليفة الحسن يُحسِن على ما يظهر التهكُّم كما يُحسِن سياقة الحديث في مجالسه، فقد دعا أحد وزرائه ذات يوم إلى القصر ليسأله عن رأيه في أمر من الأمور، فقال الوزير: كما يرى مولاي. فقال الحسن: أريد أن أعلم ما ترى أنت. فأجاب صاحب المعالي: رأيي في الأمر رأي سموكم. فقال الحسن: أنا عالم بذلك، ولكن يُنتظَر مني أن أستشير في أمور الأمة لحيةً طويلة، وليس في «المخزن» أطول من لحيتكم!

الفصل الثاني

أحاديث وأخبار وزيرية

رُوِي أن الفقيه أبا العباس المكناسي الملقَّب بالحبَّاك كان خطيبًا بجامع القروين فعُزِل، ثم طُلِب لخطبة جامع بالأندلس، فأبى وقال: إن كان عزلي بجرحة فلا يحل لكم تقديمي، وإن كان بغير جرحة فقبولي من قلة الهمة!

أرويها لا لأنفي وجود مثل الحبَّاك في حكومة المغرب المخزنية، ولا لأثبته، فليس أسهل من الشك أو القول الملتبس غير النفي المطلق. والسهل محبوب، إلا أنه في مثل هذه المواقف مشجوب، أما الإثبات فإنه ليعسر على مَن قضى شهرًا أو شهرين في البلاد، وقد يستحيل إن طالت الإقامة؛ لما في السياسة الحزبية والأغراض الشخصية في كل مكان من المنافسات والسعايات التي تفسد الحقائق أو تخفيها.

إنما الأمم الأخلاق ... صحيح، ومن الأخلاق ما هو متين وما هو جميل، وقد تقرن المتين بالجميل وقلَّمَا تعكس؛ فالأخلاق المتينة في المتوظفين، كالاستقامة والإباء والعزيمة والصراحة والثبات والجرأة الأدبية، هي كلها من المُثُل العليا التي تقل بمجموعها، ولا تندر بمفردها، في كل حكومة من حكومات العالم.

وأما الأخلاق الجميلة، أي اللطف والوداعة والكرم والأريحية، وما إليها من الرأفة والورع والتقوى، فهي في هذا المغرب، كما هي في الشرق العربي موفورة مشهورة. وقد يصح التعميم إن قلت إن الفرق الصارخ الأظهر بين الأوروبي والعربي — المغربي أو الشرقي — هو في هذه الأخلاق الروحية، أي الكرم واللطف والوداعة والأريحية.

لا أقول إنها تقل في الأوروبيين، ولا أقول إنها موفورة، إنما يظهر لي أن في البلاد العربية على الإجمال قاعدتها، وفي البلدان الأوروبية شواذ القاعدة. فكيفما ولَّيْتَ وجهك في الشرق العربي — والمغرب الأفريقي منه — تجد في أبنائه أمثالًا مشرقة من اللطف والكرم والوداعة والأريحية، وكيفما ولَّيْتَ وجهك في بلد أوروبي يتمثَّل لك في أهله الجد

والنشاط، والعزيمة والثبات، والكبرياء والأنانية. أما الصدق والاستقامة فلا تفاضُلَ فيهما — الصدق والاستقامة من المزايا الشخصية لا الشعبية أو الوطنية. وهذا تعميم آخَر، أتركه على وجهه ليرى غيري رأيه فيه.

أعود إلى الحبَّاك لأسترعي، لما روي عنه، أنظارَ الموظفين في الحكومة المغربية وغيرها من حكومات شرقنا العربي، وأقتصر في هذا الصدد الآن على صور وأحاديث لكبار رجال المخزن الشريف بتطوان. فالحديث حقيقة، والتصوير فن وحقيقة، على أن ظاهر الحقائق يختلف أحيانًا وباطنها، بَيْدَ أن ظاهر الفن ينبئ إجمالًا بباطنه، ولا يضيق فيه مع ذلك مجال الجدال.

ختمت الفصل السابق بتهكُّم الخليفة الحسن على وزيره ذي اللحية الطويلة، فأعود إليك لأعطيك المثل لما قدَّمت. سأعرِّفك بعد ملاحظة صغيرة، وأنت الكريم العاذر، أن الخليفة ليس وحده المنفرد بذلك التهكُّم، فإن له زميلًا هو المقيم العام نفسه. لقد سمعته — والأصح أن أقول: رأيته — غير مرة يسخر من ذوي اللحى الطويلة بمسحة يد من ذقنه إلى صدره، ثم يقول: لا بد للوزير منها. أي إن الوزارات لا تليق بغير أصحاب اللحى الطويلة البيضاء. والحقيقة المطوية، التي يكشفها التهكُّم، هي أن العقل في أصحاب تلك اللحى لا يقدِّم ولا يؤخِّر كثيرًا، إنما الجلال هو المنشود — الجلال هو زينة السدة الوزيرية.

وهناك الحقيقة الأخرى المزعومة، وفيها المثل الذي وعدتك به، فما هي الصلة يا تُرَى بينها وبين صورة الجلال؟ بين عقل يقصر ولحية تطول؟ وهل هناك من صلة؟ هل هناك سر لا يُكشَف بكلمة سحر أو سيادة؟ لا أظن أن الخليفة أو المقيم العام يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال، ولا أظنهما يدعيان الاكتشاف للصورة أو لسرها المكنون، إن كان هنالك من سر.

إن التهكُّم على اللحى الطويلة والسخرية منها، لَمِن الآثار القديمة في الفكر والمجون، حُفِظتْ في بعض كتب الأدب ودواوين الشعر. اللحية الطويلة هدف كل ذي نكتة عريضة، أو مرارة مريضة. وهل من مبرِّر لهذا النوع من الأدب أو قلة الأدب؟ هل يصح ما يقوله أولئك الأذكياء والمجَّان من أن العقل يقلُّ كلما كبرت لحية صاحبه، فينقلها عنهم صائغو الأمثال، فيقولون: «مَن طالت لحيته قصرت فطنته»؟

إنها لفرية منكرة، وإنها في ظني قديمة العهد، افتراها وزير من وزراء فرعون المُرْد، أو حلَّاق مصري كان يكره الآشوريين كُرْهَيْن؛ لأنهم المبرزون في زمانهم باللحى

الطويلة، ولأنهم آشوريون. ثم شرع الأدباء وأصحاب النكتة، من عرب وعجم، يردِّدونها كما تردِّد الببغاء السلام عليكم.

لستُ من الذين يؤثرون الالتحاء على المرودة، وليس لأحد أقاربي أو أصدقائي أو معارفي على ما أذكر لحية طويلة أو قصيرة. أما أولئك اللحيانيون اللبنانيون، المقيمون في الأديرة أو الفارون منها، خلاصًا لأنفسهم في الحالين، فالقارئ يعلم — وقد يجهل فيقرأ ويصبح من العالمين — بما هو قائم بيني وبينهم. هدانا الله جميعًا، وجعل دفاعي عن ذوي اللحى الطويلة، المتقدمين والمتأخرين، هذا الدفاع المجرد من الغرض؛ جعله الله مقبولًا لديهم، فيدافعون عني يوم القيامة — كما قال ابن خلدون متمنِّيًا في دفاعه عن حسب الأدارسة ونسبهم!

أنكرت صحة المثل السائر القائل: مَن طالت لحيته قصرت فطنته. وقلت: إن مصدره فرية افتراها الأقدمون، والأرجح أنهم المصريون، على أعدائهم الآشوريين اللحيانيين، وأزيد على ذلك أن لا أثر ولا دخل للعقل في الشَّعْر النابت على وجه الإنسان، أو الشَّعْر الواثب أو المتدلي منه، أو الشَّعْر المتكتل والمتشعب فيه، أو الشَّعْر المرسل الفائض كفضة الفجر على صدر صاحبه، وبكلمة أخرى أوضح أقول إنه لا صلة البتة بين الآلة المفكِّرة في المخ والآلة الغازلة والناسجة وراء العثنون، وحسبي في إثبات ذلك أن أذكر من مشاهير العلم والفن والأدب والسياسة والشعر مَن طالت لحاهم وهم كثيرون؛ فأعدِّد منهم: طولستوي وتانيسون ورودن وطاغور في زماننا، وإمام الطبيعيين دروين، وذلك العبقري ليوناردو ده فنسي، وذلك رائد التعليم في بلادنا العلَّامة الحكيم المحبوب كرنيليوس فانديك، والشهابي الكبير الأمير بشير، وشاعر أميركا الأكبر والتوتمان، والموسيقي المشهور غونو، والبطل غاريبلدى، والقائد العظيم صلاح الدين الأيوبي، وهذا فضلًا عن أنبياء من موسى — عليه السلام — إلى وكليف الممهد للبدع الإصلاحية في الدين، إلى بريغام يونغ المؤسِّس للكنيسة المرمونية؛ كل هؤلاء العباقرة، جبابرة العقل والروح، طالت لحاهم — كما طالت أيامهم — وابيضَّتْ، وكانت رمز العظمة والجلال في زمانهم.

وهي كذلك في زماننا، فإن شذت القاعدة، فسخف عقل ذي اللحية الجليلة، أو قصرت فطنة مَن طالت لحيته، فلا أظن أن أحدًا من علماء الفيزويولوجية يعزو ذلك إلى عملية خفية، شبيهة بالعمليات الاقتصادية المألوفة، التي تفقر الواحد لتغني الآخَر. لا أظن أن أحدًا يقول قولًا علميًّا: إن لشَّعْر اللحى من الطفيليات ما يعيش على حساب الغير؛ يمتص غذاءه من المادة السنجابية في الدماغ. إذن إلى أن تثبت هذه الصلة الطفيلية

وتتحقق علميًّا، أثبت أنا في الدفاع عن اللحى الطويلة الجليلة الجميلة، وأبرئها من التعدِّي على العقل والفطنة.

واذكر — رعاك الله وأطالَ أيامَك ولحيتَكَ إن كنتَ من الملتحين — أني عطفت على اللحى الطويلة بنعتين آخَرين هما: الجمال والجلال، الجمال القائم بالاعتناء الفني، والجلال الملازم للنعمة، الجمال والجلال بالنمو الوارف والمقص المشارف، والمشط والـ … — عفوًا مولاي — إن من زملائك الأنبياءَ، فلا بأس كذلك بشيء من الطيب.

أما اللحى المزاحمة في الروائع للمعامل الكيماوية، اللحى العامرة بالأشياء السارحة، اللحى الناشرة أنانيتها الدينية أو السياسية أفقيًّا وعموديًّا من تحت العنانين ومن فوق الخدود، تلك اللحى الرهبانية والبلشيفية، مهزلات التقوى والتقشُّف، أو المساواة والتعسُّف، تلك اللحى المخيفة، مفزعات الأطفال ومجفلات النساء والرجال، تلك اللحى الشبيهة بالمكانس، أو بعقلية العوانس، تلك اللحى المذكرة بريش قنفذة تهاج — فإن في المغرب ولا شك، كما في أديرة الشرق وبلاد البلاشفة، كثيرًا منها، عفا الله عنها.

وأما في الحكومة المغربية، فهي على أنواعها غانمة، غانمة في الأقل بالوظيفة، وما رأيت منها في دوائر المخزن العالية غير تلك التي تستحق الثناء والاحترام، وفي مقدمتها لحية صاحب الفخامة السي أحمد غنيمة رئيس الوزراء ووزير الداخلية.

لهذا الشيخ الوزير طلعة بهية زكية، لا شرقية ولا غربية، طلعة حقًّا بهية، كأن الشمس الشارقة بجوار القطب الشمالي نفحتها بتذكار الحب، فاحمرَّتِ الوجنتان، وازرَقَّ الناظران، وابيضَّتِ البشرة، ورقَّ الأديم، فتقول لولا القيافة إن هذا الشيخ الجليل اسكتلندي أو صقلي، وهو مغربي عربي من أقحاح المغاربة العرب، ذو لحية متواضعة، لا طويلة ولا قصيرة، بياضها شامل كبياض جبل صنين في فصل الشتاء.

ولكن في قلبه تشرق على الدوام الشمس المغربية، وفي طلعته يتجلَّى من الأخلاق الجميلة أجملها، أي الوداعة والبشر، وهو إلى ذلك مثقَّف بالثقافة الإسلامية الغربية، فصيح اللسان، سليم البيان، يرصع حديثه بالأشعار، ولا يُكثِر فيعثر.

رأيته لأول مرة في مجلس الخليفة الحسن، فكانت كلماته القليلة زهرات من الحكمة المألوفة، منشورة على طبق الترحيب، فتشم في موضعها ولا تمس. تنعش الفؤاد، ولا تطمع بمكان من الذاكرة.

ورأيته للمرة الثانية في مكتب الصدارة متربعًا على ديوان منخفض متكئًا على وسادة فوق وسادة، وراء منضدة متجانسة والديوان، فذكَّرَني لأول وهلة بصورة من الصور

الصينية المرسومة على الديباج، تمثِّل الحكمة والوداعة والحنان. هي الأخلاق الجميلة التي ذكرت، وها هو ذا مثلها المشرق القائل: إن المنطقة الخليفية تنعم اليوم بما لا تنعم به إسبانيا نفسها.

والفضل في ذلك، يا أستاذ، لهم ولنا، الفضل فيه للحكومة الإسبانية الوطنية، ولجنوده الذين حارَبوا مع الجنرال فرنكو، واستبسلوا في سبيل دعوته. هو التعاون، هو الإخاء العامل. إننا والإسبان اليوم إخوان:

أخاك أخاك إن من لا أخًا له　　كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح

ولقد برهن رجال هذه الحكومة، حكومة فرنكو، على صدق إخائهم بما فعلوا ويفعلون، وبذلنا نحن في سبيله دماء أبنائنا؛ فكانت النتيجة ما قلت من أننا ننعم اليوم بما لا تنعم به إسبانيا نفسها. فكل حاجاتنا الأولية — الدقيق والسكر والأرز والبن — هي أوفر عندنا وأبخس مما هي في إسبانيا. أتعجب لذلك؟ إذا بان السبب زال العجب. كانت الحكومة الإسبانية الوطنية تستورد المواد الأولية غالبًا عن طريق إيطاليا، فتدفع عليها رسمًا جمركيًّا يتراوح بين الـ ٢٠ والـ ٢٥٪، وكان الجنرال يعطينا هذه الأرزاق بأسعارها الأصلية، دون أن يضيف إليها شيئًا من نفقات الشحن والنقل أو من الرسوم الجمركية.

ولقد حقق خُبري ما قاله فخامة الرئيس عن وفر الأرزاق وجودتها؛ فالخبز في نزل الجزيرة الكبير أسمر خشن، وفي نزل تطوان الصغير أبيض نقي، والسكر في المنطقة الخليفية أجود وأوفر منه في إسبانيا. هذا في أثناء الحرب الأهلية، وقد استمر بعدها.

كل دواوين الوزراء مثل ديوان رئيسهم شرقية منخفضة، وكذلك هي دواوين الكتاب الشبيهة بالديوان الإمامي بصنعاء اليمن، سبعة أو عشرة منهم يجلسون على وسائد مفروشة فوق الزرابي، وراء منضدات صغيرة متضعة، تقوم مقامها أحيانًا الراحات، وبها الطروس يكتبونها.

قال وزير العدلية السي محمد أفيلال، دفاعًا عن القديم الصالح من العادات والتقاليد: ينتقد الشباب هذه الدواوين، ويقولون إن الكراسي والمنضدات العالية خير منها، كأن مقامنا ومقام الحكومة لا يعززان بغير الكرسي العالي والمنضدة المصنوعة بأوروبا. الشباب يا أستاذ متطرفون في تحبيذهم كل شيء أوروبي، كل شيء جديد، صالحًا كان أم غير صالح، وفينا نحن الشيوخ مَن هم متطرفون في جحودهم ومَن هم

رجعيون، لا يرون غير الخير في بقاء القديم على قِدَمه. إن في القديم أشياء صالحة ينبغي أن يحافظ عليها، وأشياء كانت صالحة في زمنها فأمست في زماننا غير صالحة، فيجب أن ننبذها.

قلت: وأنتم الصلة الطيبة بين المصالح من القديم والجديد.

فقال: الصلة مستمرة إن شاء الله، خذ المثال من القديم الصالح.

قالها وهو يشير إلى ديوانه المفروشة أرضه بالبُسُط، المزيَّنَة بالتعاليق والآيات، المنضَّدَة دواوينه بالوسائد:

ماذا يضر أن يكون مفروشًا بالفرش المغربي؟ يقول عبد الخالق طريس: يجب أن تغيِّر ديوانك، يجب أن نكون عصريين في مكاتبنا ومساكننا كما نحن في أعمالنا الإصلاحية. فأقول له: وهل جلوسي متربِّعًا أمام هذه المائدة الوضيعة يضر بأعمالي الإدارية؟ فإذا كان الخلل في الإدارة ناشئًا من شكل الديوان لا من صاحبه، فعبد الخالق هو على حق. ما قولك يا أستاذ؟

أذكر أني أجبت بكلمة في الرموز، وأن الأشكال الظاهرة في حياتنا الاجتماعية أو السياسية أو الشخصية ترمز إلى ما بأنفسنا؛ «وليس أجمل من هذا الديوان الرامز إلى ما بنفس معاليكم، فأنتم فيه قطبه الناطق العامل. أما لو كان الوزير من الشباب، بقيافة إفرنجية، فإن التناسب بين الرامز والمرموز إليه يضيع. هذا من الوجهتين النظرية والذوقية، أما من الوجهة العملية فالكرسي الصلب أصلح للشباب من الديوان الوثير … عوَّدوهم الأخشيشان.»

هزّ الوزير رأسه ضاحكًا، ثم قال: «الدهر معلمنا جميعًا، فهو الذي يعقد العرى في العادات والتقاليد، وهو الذي يحلها، ولله — سبحانه وتعالى — البداية والنهاية.»

لمعالي الوزير السي محمد أفيلال وجه سامي الشكل والسمات، بسمرته وانخراطه، وبالعظم الفارغ فوق الوجنتين، أما اسمه أفيلال فما هو بعربي ولا سامي؛ هو اسم عائلة من العائلات التي خرجت من إسبانيا في آخِر القرن الخامس عشر أو بعده، والأرجح أنه إسباني Avilal كأسماء العائلات الأخرى المقيمة اليوم بتطوان، ومنها: طريس Torres، ومدينا Medina ، ومالينا Malina، وصالص Salas ، وقسطيلو Castillo ، وأراغون Aragon.

كما أن كثيرًا من الإسبان أسماؤهم عربية، كرامازان (رمضان)، والفارز (الفارس)، وأباد — من بني عباد — وفي الأندلس بين قرطبة وأشبيلية قرية اسمها بدرو أباد Pedro Abad، وزامورا (زمور)، وقديرة، ومنها المستشرق كوديرا Codera.

ومن غريب ما في هذه الأسماء أن الاسم الأول لا يتناسب والاسم الثاني، أي اسم العائلة. مثال ذلك: بدرو أباد، وميشال رمضان، وعبد المحسن قسطيلوس، ومحمد راغون … وغيرهم كثيرون.[١]

سألت العلَّامة الوزير رأيه في هذه الأسماء النصرانية الإسلامية، والإسلامية النصرانية، فقال: إن كثيرًا من الإسبان أسلموا يوم كان العرب سائدين في الأندلس، وكثيرًا من المسلمين تنصَّروا بعد خروج العرب من البلاد، ثم حدثت تردُّدات في الشعبين، فعاد أبناء المسلمين المتنصرين إلى دينهم،[٢] واحتفظوا بأسمائهم الإسبانية العائلية كطرس وموليتا وراغون، وعاد أبناء المسيحيين إلى دين آبائهم، وظلَّتْ أسماؤهم إسلامية عربية.

قلت: وهذا قديم استُحدِثَ، ثم عاد إلى قِدَمه.

فقال: ولا بأس. قد يكون في التذكارات أحيانًا ريحانة للقلوب، ولكن المحافظة على الأصل هي في كل حين عين الخير والكرامة — أعيد قولي! القديم على قِدَمه اعتباطًا لا يجوز، والجديد على الإطلاق لا يجوز. إنما الحق والصواب في التمحيص والاختيار. هذه العدلية مثلًا نعود بها إلى الأصل، وفي استقلالها خيرنا وكرامتنا، أما أن تظل العدلية مقيَّدة بالقديم البالي، فليس فيه خير ولا كرامة. وإننا ساعون للإصلاح، ورافعون — إن شاء الله — المحاكم إلى المستوى العصري العالي، حسبنا اليوم أن العدلية قد استقلت كل الاستقلال، فلا تمييز ولا استئناف إلى محكمة إسبانية عدلية.

ووزير الأحباس السي محمد بن موسى يشارك زميله وزير العدلية في هذا الاغتباط، ولكنه غير مدهوش.

---

[١] ومنهم الأديب الحاج بدرو راغوني عبد الكريم مؤلف التاريخ المسمى «نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر»، ومنهم نقولا «بوباديليه» Bâbadilla أبو عبد الله، رفيق القديس فرنسيس الإسباني في الأيام الأولى من رسالته، وقد عاوَنَ الاثنان القديسَ أغناطيوس لوبولا في تأسيس الرهبنة اليسوعية.

[٢] من الإسبانيين مَن أسلموا عن عقيدة، ومنهم مَن فعلوا ذلك تخلُّصًا من الجزية والأحكام التي كانت تُفرَض عليهم، وكان المسيحيون الأصليون ملقَّبين بالصدئيين — عليهم صدأ الحديد — ليتميَّزوا عن أولئك الذين دخلوا في المسيحية من المسلمين واليهود، وبعد زوال السؤدد العربي تخلَّف عدد من المسلمين في إسبانيا وهم مقيمون على إسلامهم، فدُعُوا بالمدجنين، ولكن الملك كارلوس الخامس فرض عليهم جميعًا في سنة ١٥٢٥، إما النصرانية وإما الجلاء؛ فظعن الكثيرون، وتنصَّرَ الآخرون فسُمُّوا «مورسكوس» Morescas ليتميَّزوا عن المسيحيين الأصليين «الصدئيين»، ثم حدثت فتنة اتُّهِمَ هؤلاء المورسكوس بها فطُرِدوا جميعًا من إسبانيا، وكانت الردة التي أشار إليها العلَّامة الوزير.

«لا إشراف أجنبي اليوم ولا تفتيش؛ كله بيدنا، ولكن هل يستعظم هذا العدل من الدولة الحامية؟ يوم كان أجدادنا مسيطرين في الأندلس تقاضوا النصارى الجزية، وما تعرَّضوا لشعائر دينهم ولا لكنائسهم وأحباسهم. فالمعاملة بالمثل أقل ما يكون.»

سألت معالي الوزير عمَّا إذا كان للحرمين أحباس في المغرب، فقال: «قد تكثر في المنطقة الجنوبية، أما في منطقتنا فليس في غير مدينة العرائس، وذلك يسير.»

ثم قدم لي أعداد «الجريدة الرسمية لوزارة الأحباس» التي تصدرها الوزارة كل ثلاثة أشهر، وهي تبحث في شئون الأحباس على أنواعها، وفي إدارتها وكل ما يتعلق بها، وفيها للدرس والاعتبار أشياء طريفة، منها أن كل شيء فيها يجري بموجب ظهير يصدره الخليفة، أو كتاب من رئيس الوزارة مصدَّرًا بالحمد لله وحده ولا يدوم إلا ملكه. وإليك نموذج هذه الكتب:

> يُعلَم من هذا الكتاب الشريف، والأمر المنيف، أنه وفقًا لما اقترحه وزير الأحباس من تعيين القدر من المال الذي يُخصَّص للتعليم الإسلامي سنويًّا من وفر الأحباس ... وبعد اطلاع صاحب السمو — الخليفة — وموافقته أذن بتخصيص مبلغ ١٩٠٠٠٠ ألف بسيطة ... إلخ.
>
> يُعلَم من هذا الكتاب الممضي باسمنا بصفة رياسة الوزارة، واعتماد رتبة الصدارة أنه بعد اقتراح وزير الأحباس قد أمرنا بإعفاء فلان من وظيفة ناظر أحباس قبيلة كذا، ولينصرف لحال سبيله، والسلام.
>
> أحمد الغنمية، لطف الله به

من هذه الكتب يستدل على أن وزير الأحباس يقترح الأمور، والصدر الأعظم يستشير الخليفة في المهم منها، ثم يصدر الكتاب الآمِر بالتنفيذ.

ومما يظهر من الميزانية العامة أن الأحباس غنية في هذه المنطقة، وهي منتشرة في حواضرها وبواديها؛ فقد بلغت مداخيلها في سنة ١٩٣٨ في المدن: تطوان وأصيلة والعرائش والقصر الكبير وشفشاون، وفي بوادي الإيالات الخمس: الجبلية والغمارية والغربية والريفية والشرقية؛ ١٢٨٢٢١٥ بسيطة، أي نحو مائتي ألف ليرة سورية.[٣]

[٣] تُصرَف كلها إلا قليلًا في بعض السنين؛ ففي سنة ١٩٣٨ بقي في صندوق الأحباس أربعون ألف بسيطة، ويتبيَّن من درس هذه الميزانية أن القيمة التي تُصرَف على الوزارة والموظفين والقواد في القبائل والمفتشين

والأحباس اليوم نوعان: الكبرى التي يُصرَف منها على التعليم الديني والمدني وعلى المساجد، وأحباس المنقطعين التي تُصرَف على الفقراء والمحتاجين والمرضى وبعض الحيوانات، منها طير اللقلاق،[٤] فقد كان لها مستشفى بتطوان في أيام الدولة المغربية السابقة للحماية، وكان للأبراج أيضًا أحباس في تلك الأيام يُصرَف ريعها في إصلاح الحصون وشراء الرايات التي تُرفَع فوقها أيام الجُمَع والأعياد، أما اليوم فقد أُضِيفت إلى أحباس المنقطعين.

رأيت في الميزانية أرقامًا بالبسيطة الإسبانية وأخرى بالبسيطة المخزنية، فسألت الوزير: ما الفرق بينهما؟ فقال: «إن النقد المخزني قبل الاحتلال كان مؤسَّسًا على الريال الفضة، وهو يُقسَّم إلى عشرين مليون «غرش»! والبليون يساوي ربع بسيطة، أي خمسة وعشرين سنتيمًا صك منه الريال ونصف الريال وربع الريال.[٥] ونسبة هذا الريال المخزني إلى الريال الإسباني «دورو» كنسبة ١٣٠ إلى ١٠٠، أي إن البسيطة الإسبانية تساوي نحو بسيطة وربع بسيطة مخزنية.

بلغت ٢٤٣٠٠٠ بسيطة، أي نحو أربعين ألف ليرة سورية، أي عشرين في المائة. أَضِفْ إليها ما يُدعَى «صوائر مختلفة» وهي تبلغ نحوًا من خمسة في المائة، فيكون مجموع ما يُصرَف لإقامة الأحباس وإدارتها ربع الريع السنوي. لستُ أدري أكثير هو أم قليل، إنما أثبته ها هنا لِمَن يهمهم الأمر.

[٤] «اللقلاق طائر أعجمي يشبه الأوزة، طويل العنق، يأكل الحيات، ويُوصَف بالفطنة والذكاء، ومن ذكائه أنه كان يتَّخِذ له عشَّيْنِ يسكن في كل واحد منهما بعض السنة، وأنه إذا أحس بتغير الهواء عند حدوث الوباء ترك عشه وهرب من تلك الديار» (القاموس).

ومن فطنته أنه قلَّمَا يسكن في غير المآذن والزوايا بالمغرب، فيحافظ على حب أهله، ولا يطالبهم بما كان من إحسانهم إليه في الماضي. فإن أُقفِلَ مستشفى اللقلاق بتطوان فالزوايا والمآذن لا تزال ترحب به. ومن صفاته الحميدة أنه ذو شرف ووفاء في حياته الزوجية، فلا يدخل عش جاره، وإن دخل خطأً طردته منه اللقلاقة الأم؛ لذلك اتخذ الأمريكيون اللقلاق رمزًا للأمانة الزوجية والشرف العائلي، فعندما يُولَد للزوجين ولدٌ يقال: زارهما اللقلاق!

[٥] رأيت قطعة من نصف الريال وقد حُفِر على أحد وجهيها في الوسط: أُجِيز ضربه بباريز عام ١٣٣٦؛ وحولها: قيمة خمسة دراهم مخزنية لضبط الحقوق المرعية. وعلى الوجه الآخَر في الوسط ضمن نجمة بستة رءوس، شعار المغرب نجمة بخمسة رءوس، ومحفور حولها بين كل رأس وآخَر: محفوف بالسعادة واليُمْن والإقبال والعز المنيف.

هذا النقد المخزني منعت الحكومة الفرنسية التعامُل به بعد الحماية، وقد نُقِل إلى طنجة ما كان منه في هذه المنطقة، نُقِل في أيام الثورة بواسطة السماسرة أو بالتهريب للمتاجَرَة به؛ فالصيارفة هناك يبيعون المائة ريال المخزنية بمائتي ريال إسبانية.»

كانت البسيطة تباع في طنجة يوم كنت هناك بأقل من ربع قيمتها الأصلية،[٦] وهي في إسبانيا وملحقاتها جامدة على النصف، بالرغم من تجارة السماسرة التي لا يظهر منها غير الخسارة، ولكن للنقد والقطع والفوارق الصاعدة والهابطة في أسواقها أسرارًا شبيهة عندي بالأسرار اللاهوتية، لا تُفهَم بغير الإيمان والنعمة؛ فَلْندعها لأصحابها وَلْنمضِ في طوافنا الشريف.

كان باشا تطوان غائبًا عن المدينة يوم زرناه في مركزه، ولكن حظنا بلقاء خليفته أنسانَا ما كان من خيبة الأمل. لا أظن أن كل خلفاء[٧] الباشا مثل هذا الخليفة، فهو فقيه حقيقي كامل، لا خيالي ولا مزيَّف؛ علمنا ذلك بعد المصافحة والسلام، ونعمنا بما علمنا. قبيح بنا ذم الفقهاء وفيهم مثل ابن أحمد بوعيسى. قال — دام ظرفه، ودامت صراحته وابتسامته:

«أكُلُّ مَن تعلَّم حرفًا صار فقيهًا؟ ما أكثر الفقهاء في هذا البلد، يا أستاذ، وما أقلهم! خدمنا الحكومة والبلاد بصفة كاتب ومستشار في وزارات عديدة، خدمنا عشرين سنة، وهذي هي النتيجة؛ خليفة لباشا تطوان! أضاعوني، وأي فتى أضاعوا …

الشرع الشريف؟ قطع اليد، جَلْد الزاني، رَجْم الزانية؟ لا يا أستاذ. هذه الأحكام القديمة قد أُلغِيَتْ، ونحن اليوم نسير على هذا الدستور (قدَّمَ لي قانون العقوبات والغرامات) هل تقدَّمْنا؟ لست أدري. إن في الأحكام القديمة عدلًا ورحمة. خُذِ الزنى مثلًا؛ فمَن ذا الذي يستطيع أن يُثبِتَ الزنى على امرئٍ أو امرأة؟ أين الشهود الأربعة يشهدون أنهم رأَوا …

[٦] في طنجة وجبل طارق كانت الليرة الإنكليزية تباع بمائة وخمس وعشرين بسيطة، والدولار الأمريكاني بخمس وعشرين بسيطة. أما في إسبانيا: فقد كان الدولار يُشترَى بعشر بسيطات، والليرة الإنكليزية بخمسين بسيطة. والسر في ذلك، كما قلت في المتن، يفوق إدراكي.

[٧] تُقسَّم المدينة إلى سبعة أحياء، لكل حي خليفة — نائب — للباشا أي المحافظ، وفيها أربعون شيخًا، وشيخ واحد للحَيِّ الإسرائيلي.

أين هؤلاء الشهود؟ فهل يدعوهم الزاني أو تدعوهم الزانية ليشهدوا الفعلة المنكرة؟ الله — سبحانه وتعالى — يلطف بنا فيعسر استكشاف ضعفنا. هي الشريعة السمحاء، والحمد لله.»

والسي محمد بن أحمد بوعيسى، الخليفة الأول لباشا تطوان، يشهد كذلك بالمحبة والحكمة والرحمة ليسوع بن مريم القائل: «مَن كان منكم بلا خطيئة فليرجم هذه المرأة بحجر.»

مشى معنا إلى حديقة المركز المزدانة بشجرة من الأريكاريا باسقة مجيدة، تفرش أغصانها أفقيًّا كالأرز، هي أكبر وأجمل ما شاهدت من نوعها. أما زهور الحديقة، فهي على أنواعها في وفر مضطرب التنظيم يتوسطها حوض من الماء تسبح فيه الأسماك الذهبية.

قال الفقيه الفيلسوف وهو يطوف بنا: «هذه الحديقة والأرض المجاورة لها كانت ملك يهودي من يهود المدينة، فاشتريناها بثمن غير بخس، وَلْينقلب الطمع نارًا في صدر صاحبه. هل في الدنيا أطمع من اليهود؟»

قلت: «وهل يكثرون عندكم؟»

فقال: «القليل منهم كثير.» ثم ذكر الآية: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾، واستطرد قائلًا: «اليهود والفأر!»

قلت: «ولكن الفأر عدوُّ الإنسان في كل مكان.»

فقال: «هو كذلك، الضعيف عدو الإنسان في كل مكان. اليهود والفأر، لسان حالهم يقول: خلقتنا اللهم للشر، فأَعِنَّا عليه.»

وفلسطين؟ وقف أمام غصن من الورد، وأشار إليه قائلًا: «هذه فلسطين، غصن من الورد وشوكة من عوده. يسَّرَ الله أمور المسلمين، وأنقذهم من أعدائهم.»

ثم مَدَّ يده إلى وردة سبقت عيني يده إليها — توارَدَ الفكران واتجه القلبان — فقطفها وقدَّمَها إليَّ قائلًا: «شرفتم، بارك الله فيكم، ووفق المسلمين.»

اجتمعت بعدئذٍ بسعادة الباشا في حفلة شاي أقامها المقيم العام، وهما — أي الباشا وخليفته — والأحرى أن يقال: إن الخليفة ورئيسه على غرار واحد في التساهل والحكمة.

كانت تلك الحفلة أوروبية مغربية معًا؛ فقُدِّم فيها «الشاي» والحلوى، على الطريقة الأهلية، للمغاربة ولِمَن شاء من الأوروبيين، وقُدِّمَ لهؤلاء فوق ذلك ما طاب من الخمر والوسكي، ومعهما الـ «سندويتش» على أنواعه، ومنها لحم الخنزير.

وكان الشريف الوزاني محمد يشرب «الشاي» ويرمق الـ «بار» بنظرات آكلة شاربة! فقدَّمْتُ له كأسًا من الوسكي فرفضها، وأشار إلى الباشا: «ها هو ذا، يغرمني والله غدًا.»

قلت: «اشرب وأنا أدفع الغرامة.»

فقال: «لا والله، هو يغرمني.»

وكان صاحب اللطف والظرف يسمع الحديث، فدنا مِنَّا، والابتسامة تتقدمه. فقلت له: «هذا محمد الوزاني يريد أن يهلك معي في هذه الساعة ولا ينعم معكم في الآخرة، فما قول سعادتكم؟»

فأجاب قائلًا: «النعيم والجحيم بيد الله.»

فقال الوزاني الصغير: «وبيدكم قانون العقوبات والغرامات. لا والله لا أشرب.»

فضحك الباشا وقال: «خذها من يد الأستاذ، ولا حرج.» قالها وأشاح بوجهه عَنَّا.

وذكرت أنا القانون لمشاربي، وهو أن السكر في المحلات العمومية يُعاقَب عليه بغرامة من المائة بسيطة إلى الخمسمائة، أو بالسجن من العشرين يومًا إلى المائة. هوِّن على نفسك، فلستَ بسكران ولا دار المقيم بمحل عمومي.

وفي هذا القانون الموقت الصادر من الصدارة العظمى سنة ١٣٥٤ جدول العقوبات والغرامات، «على السرقات والاختلاسات، والحرية والأضرار والجراحات، والجرائم والزلات المرتكبة في أموال الغير والمخلة بالأمن العام»،[٨] يقضي فيها باشاوات المدن وقواد القبائل بصفة قضاة صلح، كما ذكرت في فصل سابق.

والباشا يرأس المجلس البلدي المؤلَّف من اثني عشر عضوًا؛ سبعة مسلمين، وثلاثة إسبانيين، ويهوديَّيْنِ اثنين، يُعيِّنهم جميعًا المقيمُ العام.

أما ميزانية المجلس، فهي تتراوح بين المليونين والثلاثة الملايين بسيطة، بعجز في بعض السنين تسدِّده الحكومة.

ومن خير ما يهتم به هذا المجلس: الملجأ الصحي للفقراء؛ فهو مجهَّز بأدوات الفحص والتطهير والجراحة، وثمانية أطباء إسبانيين وطبيبة واحدة، تعاونها سيدة من أهل البلاد.

---

[٨] جدول السرقات مثلًا يعين الشيء المسروق أو القيمة المسروقة وعقابها، وهذا يبدأ من الـ ١٠ إلى الـ ٢٥ بسيطة، ويُعاقَب سارقها بالسجن من اليوم الواحد إلى الثلاثة الأيام، وبغرامة من الست بسيطات إلى الاثنتي عشرة بسيطة، وينتهي بالخمسمائة إلى الألف بسيطة، عقاب سارقها من الـ ٢١ إلى الـ ٣٠٠ يوم حبسًا، ومن الـ ٢٥١ إلى الـ ٥٠٠ بسيطة نقدًا.

هذا الملجأ مفتوح للفقراء أجمعين من المغاربة والأوروبيين، يعاين فيه نحو مائتين من رجال ونساء وأطفال كل يوم، فمَن كان مرضه بسيطًا عُوينَ وأُعطِيَ الدواء في الحال، ومَن كانوا يحتاجون إلى معالجة يُرسَلون إلى المستشفى الأهلي. أما المعاينة والأدوية والإسعافات الأولية في الملجأ، فهي كلها مجانًا.

ومما هو جدير بالذكر والثناء، أن هذا الإحسان لا يُقيَّد بمعاملات رسمية — لا إذن ولا استرحام، ولا فحص ولا استعلام. يجيء المريض إلى الملجأ توًّا، فيُعايَن دون أن يُسأَل سؤالًا مزعجًا — الفقير والمتظاهر بالفقر على السواء.

سألت المدير: ما هي الأمراض المتفشية في المنطقة؟ فقال: «الملاريا في الدرجة الأولى، ثم السفلس في الرجال والنساء، والموروث من الأمراض الزهرية في الأطفال، ثم السل.»

يوم كنَّا عائدين من زيارة المعهد الحرِّ، وهو في حي المسلمين القديم، على رابية منه، تصعد إليها في زنقات مدرَّجة، مررنا ببيت مكتوب فوق بابه «معالجة الأمراض الزهرية»، فسألت رفيقي عن السبب في وجوده بهذا الحي فقال: «لأن فيه بيوت الموسات، فرأت البلدية أن يكون العلاج قريبًا من الداء.»

وقد أدهشني قوله: إنهن يُفحَصن يوميًّا، ولا يتساهل أطباء المستشفى في أمرهن. «يجب على كل فتاة، وكلهن في هذا الحي مسلمات مغربيات، أن تُبرِز شهادة الطبيب للطالب، وأن تكون الشهادة محرَّرَةً في ذلك اليوم.»

والجدير بالذكر أيضًا أن شبان اليهود لا يُؤذَن لهم بالدخول إلى بيوت هؤلاء الموسات؛ فهن يطردنهم، ويأبين وصلهم. أما شبان النصارى، فلا حرج عليهم ولا هم يرفضون. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً﴾ (الآية). ولا تجهلها على ما يظهر الفتاة المسلمة.

أما اليهوديات، فإنَّ لهن بيوتًا خاصة — عمومية شاملة — لا حرج فيها ولا حظر، ولا حرز ولا إحراز: «تعالوا إليَّ، أنا يهوديت، وإن كنت من شعب الله الخاص فإني معشوقة الأمم والشعوب. تعالوا إليَّ بأوزاركم فأزحزحها بلمسة، وأزيلها بقبلة، هو الكرم الرباني.» ومع ذلك فهي وشعبها: ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾، ولا تنسى المسلماتُ ذلك، ولا ينساه المسلمون.

قال الراوي: «كان في تاز حاكم وزيره الأكبر يهودي، فلما توفي السلطان بفاس كتم اليهودي الخبر عن الناس لغرض في نفسه؛ أحب اليهودي أن يجلس على العرش، ويمشي تحت المظلة السلطانية، فلمَّا علم بذلك السلطان الجديد هَمَّ بإرسال جيش عليه، فأشار الحكماء بغير ذلك قائلين: يهودي لا يستحق هذا الاهتمام، فالطلبة يريحون مولانا

منه. وجاء الطلبة يقولون: اليهودي هذا يستحق هدية سلطانية. فعيَّنوا لها أربعين منهم دخل كل واحد في صندوق، فحمَلَ الصناديقَ أربعون بغلًا، ساقوها إلى تاز، يتقدمهم خبرها، فلما وصلت القافلة إلى المدينة رحَّبَ بها الوزير، وأمر بنقل الصناديق إلى داخل القصر، ثم فتحها، وكانت فاتحة الخير؛ فكلما انفتح صندوق وثَبَ منه طالب والسيف بيده، فانقَضُّوا على الوزير اليهودي، وقطَّعوه إربًا إربًا.

وإن لأولئك الطلبة عيدًا يقام بفاس كل عام، فتُمثَّل فيه رواية الصناديق واليهودي الذي أحب أن يجلس على العرش، ويمشي تحت المظلة السلطانية.»

الفصل الثالث

الكولونل خوان بايبدر

قيل لي، يوم كان المغرب كعلامة الاستفهام في ذهني، إن هنالك نهضة وطنية ثقافية عمرانية سياسية يشجِّع عليها، ويساعد فيها، حاكم أجنبي يحب أهل البلاد المغاربة العرب حبًّا لا زيف فيه، ويغار على مصالحهم غيرة «عربية» أخوية، وقد قيل في ذلك الحاكم أكثر من ذلك.

فقلت في نفسي، وأنا أُسقِط كثيرًا مما سمعت لأرده إلى حد الاعتدال، وأشذب الشكوك في مقاصد رجال الاستعمار وأعمالهم ابتغاءَ الإنصاف: إن مثل هذا الرجل لَنادر عزيز بين رجال الحكم الأجنبي في البلدان العربية، وقد لا يكون أعز من بيض الأنوق — قد يكون مثالًا لطائفة قليلة، فطمعت في الاستكشاف، وما أكثر النادر العزيز!

وإن أريد التشويق بالقول الذي ذكرت فليس أبلغ في نتائجه من هذا الاتجاه الذهني. هو الخطوة الأولى في التحقيق، فإن كانت الثقة بالسياسيين الأوروبيين الاستعماريين مفقودةً، وكان هناك واحد منهم توجب سياسته إعادة النظر، وإصلاح الظن، فمن الواجب على طالب الحقيقة أن يبحث عنه، ويسعى إليه، ولو كان على مسافة ألف أو ألفين من الأميال. بل قلت في نفسي: إذا كان نصف ما سمعت من أخبار المفوض السامي الإسباني الكولونل خوان بايبدر صحيحًا، فالمسافات تقصر في زيارته إكرامًا واستعلامًا، وفي زيارة البلاد التي يتولى شئونها.

وما كنت مخطئًا في قصدي وظني؛ لقد حقَّق الخبر الخُبْر، بل تمَّتِ الأعجوبة في المغرب، بلد العجائب، فقد أثمر فيه عوسج الاستعمار تينًا، وما كانت الاجتماعات التي تلت الاجتماع الأول لتنفي أو تفسد ما تكوَّن في الذهن من رأي «وحكم» ونظر، بل كانت تكشف من نواحي شخصية الرجل ما يزيد بالعلم والاغتباط؛ فقد تيقَّنت في مقابلتي

الأولى له أنه مجِبٌّ للعرب عمومًا ولأهل المغرب خصوصًا، وأنه مخلص في حبه، وغيور متحمس في أعماله الإنشائية والإصلاحية.

وفي المقابلة الثانية لاحَ لي أن الكولونل بايبدر مجنون في حبه للعرب، وإخلاصه لهم، ورغبته بتجديد الثقافة العربية الإسبانية وتعزيزها في هذا المغرب الأقصى، بل يريد أن يبعث قرطبة في تطوان، فيجدِّد مجد العرب الأقدمين لخير أبنائهم الوارثين. مثل هذا الرجل في نظر الساسة المزيَّنَة صدورُهم بالأوسمة، لا يصلح للعمل الذي انتُدِبَ له، وفي نظر المتفلسفين في السياسة الواقعية القهرية — وقُلِ الدهرية — هو مصاب بداء التصوُّف والخيال؛ فيحتاج إلى الراحة والتداوي، وبكلمة أصرح هو مجنون!

وفي اجتماعنا الثالث شَعَّ نورٌ من كلمة قلتها أنا، فأضاء ذلك الجنون واخترق لبه، فتلألأ هناك شيء جميل نبيل، شيء طاهر باهر، قدسي، تجَلَّتْ فيه روح بشرية كبيرة، مفعمة بتلك الأشواق المولدة في تاريخ الأمم لكل أعمال الإنسان العظيمة، إن كان في الاكتشافات أو الفتوحات، أو في العلوم والفنون، أو في الشرائع والأديان، فإن كان هذا جنونًا، فالشكر، ثم الشكر لله.

كدت أنسى الكلمة الكشَّافة. كان الحديث في الاستعمار الأوروبي، فذكرت الإنكليز بمصر، وقلت إن اللورد كرومر قام هناك بأعمال عمرانية عظيمة، ولكن معظم الخير فيها كان للإنكليز أنفسهم.

ولنا أن نقول إن ثلاثة أرباع ذلك الخير للإنكليز، والربع الواحد للمصريين، وأنتم اليوم، يا سيدي، مثل اللورد كرومر بمصر، وهذه المنطقة من المغرب الأقصى هي اليوم مثل مصر على عهده. كل ما فيها من أسباب العمران والثقافة هو في بدايته، ومن العدل أن يكون الخير الأكبر في الاستعمار لأهل البلاد.

فقال، والتواضع شيمته: جميل منك أن تشبِّهني باللورد كرومر، ولكني على قدري أريد أن أكون أفضل منه في أعمالي للمغرب.

أريد أن يكون الخير كله، مائة في المائة، لأهل البلد، إسبانيا لا تريد أن تربح من المغرب.

قلت: أَوَلَيس في ذلك خسارة على المستعمرين؟

فقال: الخسارة كائنة.

فقلت: وهل تدوم؟

فقال: ما دمنا هنا.

إذ ذاك فهت بالكلمة التي أشرت إليها، فقلت: ليست هذه السياسة استعمارية، بل هي — لا تؤاخذني — ضون كيخوته.[1]

هي الكلمة التي أنارت ذلك «الجنون» فيه، فما كدت ألفظها حتى تلألأ النور في ناظريه، ووثب من كرسيه، يمد يده إلى رفٍّ وراء مكتبه، فقبَضَ على تمثال من القيشاني، يمثِّل فارسًا كئيبًا على جواد منهوك، وقد حنا رأسه على ترسه، وتأبَّطَ رمحًا مكسورًا، فوضعه أمامي قائلًا: هاك ضون كيخوته، رمز حياتي، ونور هدى في أعمالي وأحلامي.

ونُقِل الحديث إذ ذاك من السياسة إلى ميشال سرفنتس مؤلف الكتاب الخالد، الذي حمل بطله الرمح في سبيل الحق والفضيلة، والصدق والأمانة، والمحبة والرحمة، بل حمل الرمح رمح التضحية في سبيل المُثُلِ العليا. فقال الكولونل بايبدر: أراد سرفنتس أن يسخر من عادات زمانه وأخلاق أبناء زمانه، فأدرك في كتابه أعلى منازل السمو والجلال. ضحك فكانت ضحكته سماوية! تهكَّمَ فتجَلَّتْ في تهكُّمه روح الله، وما الله غير المحبة. عزمت مرة على تأليف كتاب في ضون كيخوته، فدرست وحللت، واستخرجت وقارنت، وكنت وأنا أتوغَّل في الموضوع أرى نفسي عائدًا إلى محوره، إلى لبه، وهو يحدد بكلمة وجيزة. نعم، لقد تيقَّنْتُ أن ضون كيخوته هو قلب كبير حسَّاس، ولا عقل له، لا عقل له. وعندما علمت وتيقنت ذلك رأيت كتابي كله ينحصر في هذه الكلمة الواحدة، فمزقت

---

[1] ضون كيخوته في نظر العامة، وأولئك الذين يصوغون الأمثال من البارز في أخلاق الرجال، وإن كان تافهًا أو عرضًا، موضوع سخرية، وقد أمسى رمزًا للأوهام والحماقة، ولكن الكتاب الخالد، على ما فيه من ضروب التهكُّم والمجون، ومن أفانين الأدب بتصوير أوهام الأبطال المجاهدين والفرسان العاشقين، وادعاءات المشغوفين بشرف الأنساب وخزعبلاتها، يحتوي على أنفس ما في كتب الأدب الخالدة من الحِكَم البليغة والمُثُل العليا. «ضون كيخوته» كتابان في كتاب واحد للسخرية والمجون، للذين يقرءون القصص ولا يتجاوز إدراكهم ما في ظاهرها، وكتاب الحكمة السامية والمُثُل العليا التي أفرغها المؤلف القصصي فكمنت في صفحاته بين السطور وطي الألفاظ. إن روح سرفنتس لتتخلل الكتاب، وهي من أشرف وأسمى ما في الإنسانية المفكِّرة التائقة إلى العلا، وقد جاء في الكتاب تحديدًا لمهمة الفارس المغوار Knight Errant على لسان البطل نفسه، ما يلي:

> إن علم الفروسية المغامرة يشتمل على كل العلوم أو أكثرها، وعلى مَن يمارس هذا العلم أن يُحسِن، فيما يُحسِنه، إقامةَ العدل عقابًا وجزاءً، فلا يعطي كل امرئ ما هو حقه فقط، بل ما هو جدير به.

الصفحات التي كنت قد كتبتها، وفي هذه الكلمة تتجلى الحقيقة بكاملها، وهي أن أعمال الإنسان الخطيرة هي من القلب؛ فالقلب يولدها ويغذيها ويربيها ويلجُّ في مواصلتها وإتمامها. وها هو ذا ضون كيخوته (قالها وهو يرفع التمثال ليلفت نظري إليه) بعد وقعة من وقعاته التي انكسر فيها رمحه، وكان مدحورًا، فهل انكسرت روحه؟ كلا، ثم كلا. تراه على حصانه المرهق يحمل ذلك الرمح المكسور، ويمضي مطأطئ الرأس في سبيله، يستمر في جهاده، فهل أخفق ذلك الجهاد؟ اسأل نفسك. قلتَ لي، يا ريحاني، إنك تحمل منذ أربعين سنة الرمح الذي حمله ضون كيخوته، وأنا مثلك، حامل ذلك الرمح، إننا أخوان، وإن لنا في العالم على ما فيه من المنكرات إخوانًا ... المحبة، يا ريحاني، تحل مشاكل العالم كلها، وتزيل أكثر ما فيه من المنكرات ... نعم، لولا محبتي للعرب لما استطعت أن أقوم بعمل واحد فيه شيء من الخير الكبير، ولولا المحبة لما استطعت أن أحلَّ مشكلًا من المشاكل المغربية الإسبانية في هذه المنطقة ... لنشرب كأسًا من الخمر.

الخمر والمحبة ذكَّرَاني بشاعرنا الصوفي الفارض وخمريته، فترجمت مطلعها: «شربنا على ذكر الحبيب مدامة.» فقال الفيلسوف بايبدر المولود حيث وُلِد ابن العربي، والمفطور على شيء من التصوف: ومَن الحبيب؟ الحبيب في قلوبنا، في أشواقنا، في آمالنا، وفي الأعمال التي تحقِّق بعض تلك الأشواق والآمال.

وبعد أيام كنَّا نتناول الغداء في دار المفوضية، بدعوة رسمية، وكان الأساتذة طوباو وأراغون والبستاني من المدعوين، فجلسنا إلى مائدةٍ تنطق بالترف والذوق، في ردهة تردِّد صدى الموشحات الأندلسية، وذكرى مشاهدها. جدرانها مصفحة بالخشب المحفور الملون بالذهب واللازورد، وسقفها مزدان بالنقوش التي تذكِّر بالحمراء، فقال الجندي بايبدر، وهو يرمق الكأس: لا شك أنك جلست مرات كثيرة إلى المآدب الرسمية وسئمتها، وأنا لا أحبها، ولكن يجب على المفوض السامي أن يكرم ضيوفه إكرامًا رسميًّا، ويشاركهم في السأم، فهل تريد أن ترافقني غدًا إلى نزهة وغداء في البرية، مع العمال؟ الحرية تدعوك والإخاء يناديك. لا تحفُّظ غدًا ولا رسميات. تعال نبعد من الـ «بروتوكول» The Comedy of the Protocol كما قالها باللغة الإنكليزية التي يحسنها.

ركبنا السيارة في اليوم التالي إلى القصر الصغير Castillejo في البلدة القائمة على حدود المنطقة ومدينة سبتة، فوصلنا إليها بعد نصف ساعة، وهناك في غابة من شجر الكينا، بوسطها غدير، اجتمَعَ نحو خمسمائة من العمَّال الإسبان، رجالًا ونساء؛ ليقضوا يومًا تقيمه نقاباتهم مرةً كل شهر في مكان يختارونه، وذلك عملًا باقتراح المفوض

السامي، الذي وعد بأن يشارك هو وضباط الجيش وكبار موظفي الحكومة في تلك النزهات.

وهناك في ذلك اليوم، يوم الأحد، على رأس الرابية، في ظلال شجر الكينا، نُصب مذبح للصلاة، فلبس الراهب الفرنسيسكاني الذي كان حاضرًا ثوبه الكنسي وباشَرَ القداس، فحضرناه واقفين تحت الأشجار جميعًا، وصلى — ولا شك — الأكثرون.

قلت لرفيقي الدون كيخوتي: للمرة الأولى أشهد قداسًا في الفلاة، وهو — والحق يقال — أطيب منه في الكنيسة!

فقال: وما كان طويلًا.

فقلت: وهذا من دواعي الحمد.

ورحنا نطوف بالغابة حيث كان الناس مجتمعين حلقات حلقات، ولكل حلقة رقمها المعلَّق على شجرة، أما الغرض من الأرقام فستعلمه في موضعه.

ثم يمَّمنا المطبخ الارتجالي — كل شيء في ذلك اليوم كان ارتجاليًّا، من القداس إلى الموسيقى والرقص بعد الغداء. تراني أتقدَّم الحوادث.

هو ذا المطبخ، وقد أُقيم تحت جسر في درء من الريح. ليس ما يشحذ المعدة للطعام مثل الطبخ في الفلاة، وها هنا عشرون مطبخًا؛ عشرون كانونًا شبَّتْ فيها النار، وفوق كل كانون إناء ضخم من النحاس طُبِخ فيه الطبخة الواحدة الجامعة، مثل الكنيسة الكاثوليكية، وهي أي الطبخة تُدعَى أرز لفالنسيانا أي الأرز على الطريقة البلنسيَّة. كيف أصفها، فلا تفوتك على الأقل صورتها. اطبخِ الأرزَ المعصفر كما تطبخه في سوريا، وأضِفْ إليه مسبحة الدرويش، ثم المقانق المقطعة قطعًا صغيرة، واطبخْها جميعًا على نار خفيفة — كما تقول كتب الطبَّاخين — وفلفلْها، وقَدِّمْ.

وكان الطباخون والمعاونون لهم في حركة مباركة تحت الجسر، والطبخة البلنسية تنضج بين أيديهم تحت مراقبة المدير العام. ومَن هو هذا المدير؟

قال الكولونل بايبدر: جئت بالسنيور مدنيا رئيس شركة الكهرباء، وأغنى رجل في المنطقة، وقلت له: عيَّنْتُك مدير الطبَّاخين. فدهشَ وتبرَّمَ، فأعدت الكلمة: عيَّنْتُك. فأطاع، وها هو ذا السنيور مدنيا. عرَّفَنِي به، ثم هنَّأه بعمله، وقال: أظنك تُحسِن الطبخ كما تُحسِن المراقبة.

وكان محبُّو التصوير يلحقون بنا، فيصوبون إلينا آلاتهم الطاهرة، فتهرول الفتيات ليقفن لها معنا، ومنهن مَن طمعن بالمزيد، فسألن المفوض السامي أن يخصهن بوقفة لا

شرك فيها، فأجاب سؤلهن، وكان كل مرة يقول: مَن تتزوج منكن في هذه السنة أحضر عرسها، بل أكون أشبينها.

ثم قال لي: نريد أن نكثر النسل في إسبانيا، ولكن للعمل لا للحرب.

وها هو ذا أحد العمال يتلو لائحة بالأسماء والأرقام، يتناولها من صندوقين، ففهمت معنى الأرقام الأخرى المعلَّقَة على الأشجار، وعلمت أن المفوض السامي والموظفين والضباط يجلسون بالقرعة كل في حلقة من حلقات العمَّال؟ فلا تزاحُمَ ولا جدال في الاختيار، وأكثرهم ولا ريب يرغبون في مجالسة العميد، فكان ذلك الشرف لحلقة الرقم الخمسين، وكنت أنا وألفريد البستاني من أهلها.

جلسنا على الأرض، في فيء الكينا، إلى جانب الغدير، وعقدت كل حلقة في مكان من تلك الغابة؛ فكانت الأصوات لا عالية ولا خافتة، كأنها لسرب من الأطيار.

ثم جاء المنتخبون من العمَّال للخدمة، الرعيل الأول يحمل الجفنات، والثاني الكئوس، والثالث السكاكين والشوكات، والرابع المناشف والخبز، ووزَّعوها علينا. ثم دلاء النبيذ لكل حلقة دلوها، ثم الطناجر الضخمة ذات الحلقات، كل طنجرة بين اثنين، يتصاعد منها البخار الطيب الرائحة، فملئت الجفنات وأكلنا، ونحن متربعون على الأرض، مريئًا حقًّا مريئًا، وشربنا حقًّا هنيئًا.

هي ساعة من الزمن طابت فيها أنفس العمَّال كما طابت طبختهم، وتساوت فيها أقدار الرجال كما تساوت جلستهم، وكانت مشاركة رئيس الحكومة ورؤساء الجيش للعمال إكليل المحاسن كلها.

مثل هذا الاجتماع يندر عندنا في الشرق العربي، إلا إذا ذكرنا نزهات بعض أمراء العرب، وخصوصًا تلك التي يُقِيمها الملك عبد العزيز بن سعود؛ إذ يخرج ورجاله إلى الصحراء، ومعهم «العيال» فيوقف ذلك اليوم على المسرات الأهلية، الرمي وسباق الخيل، ثم الغداء على الأرض في حلقات المرح والكرم، فيجلس العبيد إلى جنب الأمراء، والملك بينهم، واحد منهم. لا رسميات، ولا قيود، إلا تلك التي يفرضها الأدب المفطور عليه العربي، وإن حان وقت الصلاة — الظهر أو العصر — يقفون جميعًا وراء الإمام، فيصلون، كما صلى العمَّال الإسبان وعميدهم وراء الراهب الفرنسيسكاني.

ولا خطابة تسلب السرور ساعته، لا هنا ولا هناك؛ فقد منع العميد الخطب، وما منع الهتاف؛ فكان العمَّال يهتفون لإسبانيا ولفرنكو ولبايبدر؛ فزجرهم إذ سمع اسمه قائلًا: اهتفوا لفرنكو، اهتفوا لإسبانيا.

بعد الغداء قام الموسيقيون يضربون على الأوتار، فدار الرقص، واستمر حتى المساء.

إن من الرقص لسحرًا، وإن منه لسخرية وفسقًا، وإن السحر في الرقص الإسباني الأندلسي العربي لناشئ من اقتران الفن بالأدب، فقلَّ مَن ينجو بقلبه منه، ولست أنا من هذا القليل، ولست ممَّنْ يغتبطون بمثل تلك النجاة، بل إني أغتبط بضدها، فيسحرني الأندلسيات في أثوابهن المديدة الكثيرة الثنايا، كما يسحرني رقص الدراويش المولويين، ويطربني دق الشُّقَيْقات كما يطربني صوت الناي. كل عمل إذا ما تناهَى في الإتقان والأناقة والذوق هو فن، وفي كل فن شيء من الروح والراح والريحان؛ فالروح ترقص في فتل الأندلسيات كما ترقص في فتل الدراويش المولويين، والسحر في الاثنين واحد.

سحرت ولا عجب سحرًا حلالًا مبهجًا، وكان السحر مقرونًا بالخيال، فنقلني وعاد بي مرارًا من الرقص تحت الأشجار بالمغرب إلى التكية في المشرق، ومن حنين الناي إلى مرح الشقيقات.

فنسيت في تلك الساعة نفسي، ونسيت أيضًا مضيفي الكريم؛ فرحت أنشده في يقظة بين السحرين، فلم أجده، فعدت إلى الحلقة المسحورة. ثم جاء سائق السيارة يقول: المفوض السامي ينتظركم. مشيت، فقال القلب: سألحق بك.

وركبنا السيارة إلى القصر الصغير، فوقفنا أمام حانة هناك، وأدخلنا من باب خاص إليها، فإذا في الغرفة الصغيرة الكولونل بايبدر والراهب الفرنسيسكاني يدخِّنان السيكار، وبينهما كأسان فارغتان، فقال العميد يخاطب المتعبد: كأسًا أخرى؟ فأجاب المتعبد برأسه أن نعم، فأمر الخمر لنا جميعًا.

ثم ودَّعنا رجل الله، والسيكار الأسود الضخم بيده، فسبح قلبي بحمده تعالى، ولست أعلم ما جرى لقلب بايبدر، إنما قال لي ونحن عائدون إلى تطوان: طلبات هؤلاء الرهبان كثيرة. وقد قال، وهو يذكر العمال: كانوا كلهم من الحمر — شيوعيين فوضويين — أما الآن فقد رأيت بعينيك، وسمعت بأذنيك. المحبة يا صديقي، ومع المحبة يجيء كل خير. كلمة إسبانيا الجديدة هي: العدل والخبز! ولكن العدل لا قلب له، والخبز وحده لا يغذي الروح؛ يجب أن يشعر العامل أن الحاكم أخوه، فعلًا لا فلسفةً، ولا تميِّزه عنه غير المسئولية في الحكم. عندنا إخاء كما رأيت، وعندنا أمر يطاع، لا فوضى ولا ادعاءات فارغة في الحرية والمساواة، الحرية — متى كان العدل مقرونًا بالمحبة — لا خوف عليها … كل شهر يجتمع العمَّال مرة للنزهة وأنا أشاركهم في مسراتهم؛ فيزداد سروري بهم، وهم يشعرون ولا شك بشعوري، فيُنشَر السرور في المنطقة كلها. المغرب السعيد، هو ذا المغرب السعيد.

المقيم العام — ذو المنظار في الوسط — وعلى يمينه المؤلف، ومعهما شخصيات إسبانية مغربية.

قلت: وهل هذه الطريقة متبعة في إسبانيا اليوم؟

فقال: لست أدري، أنا هنا أعمل بما يوحيه قلبي، وقلَّما يخطئ القلب، وإن أخطأ أو أخفق في أمله أو عمله — إن انكسر الرمح — فلا تقهقُر ولا استسلام. إلى الأمام على الدوام. ضون كيخوته — أخوك ضون كيخوته.

– وهل العمال المغاربة يشاركون في هذه النزهات؟

– ليس ما يمنع ذلك، ولكن بعض العادات الاجتماعية تحول دون ما نرغب نحن ويرغبون هم فيه؛ فالعامل الإسباني لا يستمرئ الطعام بدون كأس من الخمر، وقد لا يتنازل عن «خنزيره»، فيدس قطعة منه في أكثر مأكله.

عندما وصلنا إلى رنكون — الزاوية — زاوية صيادي السمك، وقفنا هناك حيث كان الناس ينتظرون عودة العميد، فاستقبلونا بالهتاف لفرنكو ثم لإسبانيا ثم لبايبدر.

ومشينا مع كبير القوم وباشا البلدة إلى حقل وراء الحانوت، فتبعتنا نقابة الصيادين، فقدَّمَهم رئيسهم إلى العميد واحدًا واحدًا، ثم خطب فيهم، فذكَّرهم بما لمهنة صياد السمك من المنزلة العالية في حياة الإسبان وفي تاريخ إسبانيا: «البحار تحيط ببلادنا، وفي البحار وأخطارها سالف مجدنا.»

وبعد الخطبة تحدَّثَ رئيس النقابة بخصوص البيوت التي وعد ببنائها في ذلك المكان، وقد أمر بمباشرة العمل، فسيُبنَى لهم عشرون بيتًا من طراز البيوت التي تبنيها

حكومة فرنكو للعمَّال في إسبانيا، وفي هذه المنطقة من المغرب الأقصى، وسأزيدك علمًا بها في فصل آخَر.

هتف الصيادون لبايبدر، فزجَرَهم كما زجر إخوانهم في غابة القصر الصغير: «لا تهتفوا لي. اهتفوا لفرنكو ولإسبانيا.»

ثم قال لي: أفلا تنبئك وجوههم بخبرهم؟ لقد كانوا كلهم أمس فوضويين وشيوعيين، كانوا من الحمر، وسنغيِّر لونهم بالعدل والمعروف؛ سنجعلهم من الخضر، من رجال السلم والعمل.

وما كانوا في تلك الساعة ليختلفوا عن غيرهم من الآدميين إذا ما أكرموا، فقد استوقفونا أمام مائدة تحت شجرة التوت، قرب الحانوت، صُفَّتْ عليها القناني والكئوس والـ «سندويتش» على أنواعها، فشربنا من خمرهم، وأكلنا من خبزهم، وودَّعناهم وهم يهتفون لفرنكو ولإسبانيا.

هو ذا بايبدر في بعض أعماله وأحاديثه، وهناك غيرها تنبئ بما لشخصيته من عديد الوجوه والسجايا، وهو خير الأدلاء فيما كان يقترح من المشاهدات، ويباغت بها.

سألني ذات يوم: هل زرت القصر الخليفي الجديد؟ تعال نَزُرْه، وإن كان قسم منه لا يزال رهن العمل.

خرجنا من دار المفوضية، فدَلَّ على ثلمة في الجدار المجاور لها، وفي الثلمة باب يُبنَى، فقال: هذا باب السر، كان في الماضي مقفلًا؛ لأن الصلة بين الخليفة والمقيم لم تكن طيبة، أما اليوم فإننا أصدقاء، وهذا الباب المفتوح بيننا يشهد على ذلك.

وقد بُنِي القصر الجديد إلى جانب القصر القديم وعلى بعض أنقاضه. فمن الباب الخارجي نمرُّ بغُرَف المخازنية ومكتب الحاجب، ثم نصعد إلى ردهة العرش الشبيهة بملعب صغير، مسرحه العرش نفسه، يدخل الخليفة إليه من باب يفضي إلى الصحن الفسيح، وفيه شاذروان من المرمر، بوسطه جنينة من الزهور.

والقصر قائم حول الصحن من جهاته الأربع، بطوابقه غير المتناسقة، وبغُرَفِه المشرفة على السطوح، وبسطوحه المتباينة، كأنها بُنِيت كلها فوق ما كان هناك أو اندمجت به؛ فغدت في مجموعها كالصحن داخل السور. أما الهندسة الداخلية فهي عربية أندلسية، وفيه الوافر المتناهي من مظاهر الترف والزخرف والأناقة، إلا الحمام، فلا أثر فيه للفن الشرقي العربي، بل هو أوروبي حديث الطراز، من الحوض الطويل إلى الجرن النسائي، الفرنسي الاختراع على ما أظن، إلى مواسير للماء البارد والماء الساخن، ممتدة في الجدران وراء صفحة من البلاط الباهر الألوان.

أمضى بنا الطواف إلى باب خارجي غير الذي دخلنا منه، أمام ساحة صغيرة مرصوفة بالحجارة المنحوتة، فبوابة يدخل السائس منها بحصان الخليفة يوم يركب من القصر في موكبه إلى الجامع.

وقد علمت إذ عدنا إلى باب السر، أن للمفوض السامي مهمة خاصة فوق مهماته العامة كلها، خلقها هذا الباب الذي يؤدي إلى قلب القصر إلى المسكن العائلي فيه؛ فهو الصديق الوفي ليس للخليفة فقط، بل للعائلة الخليفية، فتستشيره في أمورها، وتستعين به في حل مشاكلها الشخصية.

مثال ذلك ما حدث أثناء تأهُّب شقيقة الخليفة، البارعة الحُسْن والتهذيب، عندما عزمت على زيارة إسبانيا، فقد أشارت رفيقتها زوجة ضابط الارتباط الإسباني، بما لم يرقها من أسباب الزي والزينة، واختلف مَن لهم ولهن حق المشاركة في الرأي، فقالوا جميعًا: اسألوا المقيم — المقيم كما يُدعَى في القصر — نادوا المقيم. فجاء مجادته بصفة حكم في الأزياء النسائية والأذواق.

– وما رأيكم في هذه الفساتين، وهذه الجوارب، وهذه الأحذية؟! وهذه الكبكب، يا مجادة المقيم، أهي لعبة أم حذاء؟

وكانت تعني بالكبكب الحذاء ذا الكعب العالي للسهرات وللاستقبالات الرسمية في عاصمة الإسبان.

– لا بد منه يا سمو الأميرة.

– للعب؟!

– حاشاك! هذا الحذاء لهذا الفستان.

– يو! وكيف أمشي به؟

– يجب أن تلبسيه في السهرات الرسمية يا سمو الأميرة. جرِّبيه هنا في القصر، امشي في هذه الردهات، واصعدي وانزلي في هذه الأدراج، تُعَاوِنُكِ وصيفاتُك والسنيورا — زوجة ضابط الارتباط.

بايبدر قاضي الأزياء الشريفية — بطرونيوس تطوان! تذعن الأميرة لأحكامه، وتتمرن في القصر بمعاونة الوصيفات، فتتغلب على «الكعب العالي» وتتبختر به، كأنها من أربابه.

قال الكولونل بايبدر: هذا القصر للخليفة، وعندنا غيره للأهالي. هل زرت المستشفي الأهلي؟ هو للمسلمين والمسيحيين على السواء، مجانًا للجميع. وفيه ما لا تجده في مستشفيات العالم كلها، قد يبني غيرنا لرعاياهم في مستعمراتهم أو في البلدان التي هي

تحت حمايتهم، أكبر وأحسن منه، ويبنون فيه كنيسة، وقد يبنون مستشفيات خاصة بأهالي البلاد فيها مكان للصلاة، ولكن في هذه المستشفى — وأنا فخور به — بنيت الكنيسة بجوار المسجد، في بناية واحدة، تحت سقف واحد، تعال نَزُرْ المستشفى الأهلي دون أن نُعلِم المدير بذلك. أريد أن أكون المفتش اليومَ، وكُنْ أنتَ معاوِنًا لي.

بايبدر يلتذُّ بالمفاجآت المبهجة حينًا. المزعجة أحيانًا — المزعجة له ولسواه.

دهش المدير لرؤيتنا، وما كانت ابتسامة الراهبة، رئيسة الممرضات، تشف عن دهشة الارتياح والسرور. على أن إدارة الشئون في المكان، وجميع مظاهر العناية فيه، خفَّفَتْ من أثر المفاجأة المزعجة التي اعترت الراهبة الرئيسة والطبيب المدير.

طفنا بالمكان من ردهة إلى أخرى، ومن غرفة خصوصية إلى غيرها، وفيها المرضى من نساء ورجال من المسيحيين والمسلمين، إلا أنهم في عزلة بعضهم عن بعض؛ فهناك دار للمسلمين تقابله دار للمسيحيين، وهذه ردهة للمسلمات إلى جانب ردهة مثلها للمسيحيات الإسبانيات وغيرهن، وهناك غرفة للتوليد وأخرى مثلها للأمهات المسلمات.

وإن للنظافة كما للعناية أثرًا محمودًا في كل مكان، ولا تمييز ولا تفضيل في المعاملة أو المعالجة.

دخلنا غرفة العمليات الجراحية المجهَّزَة بكل أدوات الجراحة والغسل والتطهير، فإذا هي بيضاء بأجمعها ناصعة البياض من بلاط أرضها إلى جدرانها، إلى الموائد والكراسي فيها، وكان هناك على مائدة العمليات ذبابتان اثنتان أشار العميد إليهما، فبادَرَ المدير إلى «المنشة» وسحقهما بضربتين اثنتين، ثم اعتذَرَ عنهما.

وهذي هي الكنيسة. قالها المقيم مفتخرًا بها، ودعت له الراهبات، ثم وقفن له في الباب فأصاح لهن، وهو يهز برأسه. يظهر أن الراهبات مثل ذلك الراهب، كثيرات الطلب.

انتقلنا من الكنيسة إلى المسجد وهو في الطابق نفسه، فكانت لهجة دليلي الفاضل مذهبة بابتسامة الرضى، ثم قال: هذا ما لا تجده في مستشفيات العالم — كنيسة ومسجد في المستشفى الواحد، وتحت السقف الواحد، جنبًا إلى جنب. تبرَّمَ أسقف الأبرشية بطنجة عندما قلت سأبني مسجدًا وكنيسة في المستشفى الأهلي. فمضيت في عملي، فقَبِل به.

والكولونل بايبدر يُحسِن فرض إرادته، فتذعن لها الإرادات، دينيةً كانت أم سياسية.

النصرانية والإسلام شقيقان، يجمعهما في هذا المستشفى — بل في هذه المنطقة — التساهل والمحبة. هذي هي سياستي، بل هذا هو مبدئي، وهذا عملي، وسوف ننشئ

معهدًا لتعليم بنات المغرب علم التمريض، فإن زرت هذا المستشفى بعد بضع سنين تجد فيه — عدا الراهبات — ممرضات عربيات مغربيات إن شاء الله.[٢]

أشرت غير مرة إلى مفاجآت الكولونل بايبدر المزعجة، وقد تكون مبهجة، وقد تكون مبهجة ومزعجة معًا. كنت في غرفتي بالنزل، بعد طعام الغداء، جالسًا في كرسي أحاول استلاب الزمان ربع ساعة للراحة؛ إذ دخل الخادم يقول: المفوض السامي يسأل عنك. قلت: بالتليفون؟ قال: لا، بل هو في الطابق الأسفل.

نزلت وبي شيء من الغيظ، فلم أجده لا في غرفة الاستقبال، ولا في الدار، ولا في ردهة القراءة والتدخين. وأين هو؟ دخل الخادم مكتب المدير، وعاد يقول: هو هنا. وقد كان هناك وراء المكتب جالسًا على كرسي المدير، فقلت: إنكم تثبتون ما قلته فيكم. فكمَّلها ضاحكًا. مفاجآتي مزعجة. ثم قال لي إن له غرفة في النزل يستأجرها سنويًّا لتكون ملجأ له من مفاجآت الناس المزعجة!

– لا أرتاح حتى في بيتي، يجيئون حتى إلى البيت، وقد أكون تعلمت منهم المفاجآت. أتذكر وصف دانتي لما رأى في الجحيم؟ فقد أسكن هنالك جميع أعدائه، ونسي أعداء الإنسانية — الثقلاء والحمقى والكثيفي العقول. أعداء الإنسانية عمومًا، وأعداء الحكام خصوصًا. يقول الناس: هذا الحاكم ظالم، وهم يعلمون ما يقاسي هو من ظلم الناس الثقلاء والحمقى والكثيفي العقول، لقد نسيهم دانتي، وهم يستحقون أن يسكنوا في أدنى دركات الجحيم. سأعود الآن إلى مكتبي، عفا الله عن دانتي … لنشرب كأسًا من الكونياك الجيد في هذا النُّزُل قبل أن أعود.

الكولونل بايبدر يحسن انتخاب خموره، ويشرب ويشارب بمسرة صادقة، لا أذكر أني شربت في إسبانيا أفخر من نبيذه «الشريشي»[٣] الذي كان يقدِّمه لنا في مكتبه بدار المفوضية.

وجاء الخادم بالزجاجة التي أثبتت ما قاله في كونياك النُّزُل، فقال وهو يرمق كأسه: يوم كنَّا نتأهَّب للثورة تعقَّبَتْني الحكومة، فاختبأت في هذا النُّزُل، في هذا المكان، وراء هذا المكتب.

[٢] في سنة ١٩٣٨ بلغت اعتمادات المستشفيات في المنطقة كلها نصف مليون بسيطة، أي نحوًا من خمسة وثمانين ألف ليرة سورية، وفي هذه المستشفيات ستون طبيبًا إسبانيًّا، وخمسة وأربعون ممارسًا طبيًّا لمراقبات البادية في كل الإيالات.

[٣] نسبة إلى شريش كما أسمى العرب Jerez المدينة المشهورة بنبيذها الذي يُدعَى شري Sherry .

ضون خوان بايبدر أتيانزا D. Juan Beigbeder Atienza وُلِد في قرطنجة بمقاطعة مرسية في سنة ١٨٨٨، فتلقَّى دروسه الابتدائية والثانوية في مدارسها، ثم دخل طالبًا في الهندسة سنة ١٩٠٢، وبعد ذلك التحق بالجيش، فكان في سنة ١٩٠٧ ملازمًا في الفرع الهندسي ببرشلونة، ومن برشلونة نُقِل إلى المغرب، فاستمر هناك في الخدمة العسكرية من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩٢٣.

وقد أحرز في هذه المدة من العلم بالمغرب وأهله ما أيقظ في قلبه الحب للعرب والرغبة الملحَّة في تحسين الصلات بينهم وبين الإسبان، وتوطيدها بالأعمال المثمرة خيرًا للشعبين.

لا أشك في أنَّ هذا الحب كان كامنًا في قلبه، وقد تحدر إليه من أجدادٍ صفا عنصرهم العربي، وطابت أرومتهم. كيف لا، ومرسية هي المقاطعة التي بقي للعرب فيها، بعد أن انتزعها منهم ملك قشطيلة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، آثار وأخبار تنطق بعصبية متينة العرى، وهي المقاطعة الإسبانية التي ظَلَّ أهلها، العرب والإسبان، المدجنون والـ «مورسكوس»، مقيمين على التراث القومي حتى بعد الجلاء الأخير على عهد كرلوس الخامس. فآل بايبدر، ولا غرو، من سلالة عربية، وقد سبقني الأستاذ يوسف العيسى صاحب جريدة ألف باء الدمشقية، فرَدَّ الاسم إلى أصله العربي أي بدر أو ابن بدر.[٤]

مهما يكن الأمر فالاسم عرض وإن سلمت فيه الدلالة، والروح جوهر وإن غمض معناه. على أنه في بايبدر مشرق معرب عن مَحْتِد كريم؛ فقد تنبهت فيه، كما قدمت، خلال إقامته بالمغرب ثلاث عشرة سنة، عوامل التراث العربي وأسباب الثقافة العربية، فحدت به إلى تجديد معالمها، وتعزيزها بالأعمال المثمرة خيرًا للعرب المغاربة والإسبان، ولكن أحوالًا حالت يومئذٍ دون تحقيق شيء من أمنيته.

[٤] الأسماء الأعجمية عرضة للتحريف والتبديل والتعريب والتنصير، وللإسبان فعلات فيها شبيهة بفعلات العرب، إن لم تكن أقبح منها. فيقولون: موروس ومهمت وبوباديلو، أي: المغاربة ومحمد وأبو عبد الله. ونقول نحن: أدفونوس — قالها ابن بطوطة ونقلها عنه أبناء الببغاء — وشنت ياقب ومجريط، أي: ألفونس وسنتياغو ومدريد. غفر الله ذنوبنا وذنوبهم.

فقد رأت الحكومة الملكية أن تنتفع بمواهبه في سياستها الدولية، ولما يحسنه من اللغات، أي الإنكليزية والفرنسية والألمانية، فعيَّنته ملحقًا عسكريًّا لسفارتها في باريس، ثم في برلين، ففيانا، فبراغ، فبوادبست؛ فاستمر في السلك الدبلوماسي عشر سنوات.

وعندما كان الجنرال كباص نائب الأمور الوطنية في المغرب، سنة ١٩٣٤، وأراد أن يقوم بأعمال وطنية مغربية، اقتصادية وثقافية، دعا صديقه بايبدر ليكون عونًا له، فعيَّنَه مراقبًا في شفشاون، ثم في غمارة.

ولكن الحكومة الجمهورية لم تكن راضية بالخطة التي اختطَّها، ولما استولت الجبهة الشعبية على الحكم في سنة ١٩٣٦، ووجهت اهتمامها شطر المغرب، كان بايبدر من المغضوب عليهم، فأُقِيل من منصبه.

وفي ذلك الحين كان ضباط جيش المغرب، وفي مقدمتهم الجنرال فرنكو والكولونل بايبدر، قد نفروا من سياسة الجمهوريين، ونفضوا أيديهم منها، فشرعوا يعدون العدة للثورة، التي أُعلِنت في ١٨ يوليو من هذه السنة، فشبت نارها صباح ذاك اليوم في مليلية، ومساءه في تطوان.

وفي المساء نفسه دخل الكولونل بايبدر دار النيابة الوطنية والمسدس بيده، فعزَلَ موظفي الحكومة الجمهورية عن مناصبهم، وأعلن انتهاء الحكم الجمهوري في المنطقة، وابتداء الحكم باسم النهضة الوطنية. أما القائم بأعمال النيابة يومئذٍ، الكولونل بينيا، فقد كان في بيته، فخاطَبَه بايبدر تلفونيًّا يُعلِمه ما جرى، وينصحه بألَّا يجيء إلى المكتب؛ لأن أعماله قد انتهت.

وهكذا استولى على الحكومة، وفي صباح اليوم التالي تولَّى منصب نائب الأمور الوطنية، وباشَرَ الحكم باسم الجنرال فرنكو، وقد لزم فيما فعل الأصول القانونية؛ فلو كان في المنطقة يومئذٍ مفوض سامٍ لأقام نفسه مقامه، ولكن المنصب الأعلى كان شاغرًا منذ سنتين، وبقي كذلك نحو سنة بعد تسلُّم بايبدر زمام الحكم، ثم قلَّدَه الجنرال فرنكو المنصب رسميًّا في أيار (مايو) سنة ١٩٣٧، فتولَّاه سنتين وشهرين.

ودَّعْتُه في تطوان في اليوم الثاني من يوليو، وقرأت في صحف الأخبار في الشهر التالي أنه ودَّع تطوان ليلبِّي دعوة الجنرال فرنكو الذي كان يؤلِّف وزارة جديدة، فأسند إليه فيها الوزارة الخارجية.

ثم جاءني منه كتاب، ردًّا على كتاب مني، يُعلِمني بما جرى، وكانت الكارثة قد حلت بأوروبا، فذكرها بكلمة تُعرِب عمَّا حاولت أن أصف أو بالحري أن أمثل من سجاياه، قال:

> إني أشعر بهول الساعة، ولكني متيقِّن أن أولي الإدارة الصالحة والمثل الأعلى يستطيعون أن يعيدوا السلام إلى العالم؛ لذلك تراني أميل إلى رجال الفِكْر مني إلى رجال العمل.

الفصل الرابع

أعوان وأنصار

كيف تنشأ الإشاعات في دوائر الحكومة وخارجها؟ وما هي البواعث عليها؟ لست أشك في أن المصادر والبواعث هي واحدة في الحكومات الصغيرة والكبيرة، وفي الدوائر السياسية الدولية والوطنية، الخارجية والداخلية.

وبما أننا الآن نعنى بشئون حكومة من الحكومات الصغيرة، وفيها سُبُل التقصِّي والتمحيص أوضح مما هي في الكبيرة؛ إذ تشف الأسرار التي تكتنف الحقائق، وتقل الصعوبات في إدراكها، فسنحصر البحث إذن فيها، ونجيب على السؤالات المتقدمة بما يرجح فيه اليقين.

كثيرًا ما كنتُ أسمع في الدوائر السياسية بتطوان أن فلانًا الموظف سيُنقَل إلى تلك المراقبات، وفلانًا المستشار سيُعيَّن قنصلًا في مصر أو سوريا، وفلانًا المراقب سيُقلَّد وظيفة عالية في السلك الدبلوماسي، وفلانًا المدير سيغدو مستشارًا لإحدى الوزارات ... إلخ. وكل ذلك في الشهر القادم، أو في الشهر الذي يليه، أو في الشهر الآخر بعده. فيمر الشهر الأول، ويتبعه الثاني، ويولي الثالث، ولا يتغير في تلك الدوائر غير الإشاعات.

تلك الإشاعات يختلقها الموظفون أنفسهم في أكثر الأحايين، فيسرون بالحادث المقبل إلى أحد أقاربهم أو أصدقائهم، فينتهي الخبر إلى أحد الصحافيين، ولا ينتهي بعد ذلك في الدوران. وقد يكون الموظف حسن النية، فلا يريد من أولي الأمر غير أن يتنبهوا إلى ما هو ضروري في إصلاح بعض الشئون الإدارية أو السياسية، فيرقوا المستحقين من رجالها، أو يعيِّنوا لها أبناء بجدتها، لا أبناء أصحاب العزة والإقبال والفخامة أو المعالي، أو أبناء عمهم. هي الأمنيات الشخصية، وأخواتها الوطنية، مختلقة الإشاعات، وقد يكون في الخبر غير الصحيح أمل مليح.

وهناك إشاعات أخرى مصدرها الدوائر العالية في الحكومة؛ فعندما يشاع أن الخليفة مثلًا أو الصدر الأعظم قدم على عمل ما إداري أو سياسي، متعلق بشئون الحماية — وهل يجهل الأمر كل الجهل — تكون الإشاعة صادرة من دار المفوضية، تمهيدًا لما ستطلب من صاحب الفخامة أو صاحب السمو، وعندما يشاع أن وزيرًا من الوزراء ينوي الاستقالة — بل قريبًا يستقيل — يكون هناك مشورة في أمره واتفاق على عزله. هذا إذا كانت الإشاعات التي تتردد في المدينة وتصبحه وتمسِّيه كل يوم، لا تحمله على الاستقالة. ذي هي بعض الأمثلة التي يصح القياس عليها.

وفي المغرب الأقصى، كما في سائر البلدان العربية، نزعة سياسية إسلامية ينزعها بعض الأوروبيين لأغراض خاصة، فيتزلفون من الإسلام، ويخطبون ودَّ المسلمين بشتى الأساليب السياسية والاجتماعية والاقتصادية. أما في حكومة هذه المنطقة من المغرب الأقصى فإنك تجد رجالًا غير المفوض السامي، موصوفين بحبهم الخالص للعرب والإسلام، فيتمنون الفُرَص التي تمكِّنهم من الأعمال المحقِّقة لمبادئ التآلُف والتعاون، فإن لم تكن هذه النزعة نزيهة صافية، فإنها — ولا ريب عندي في هذا — أصفى وأنزه مما هي في سواهم من الأوروبيين، إن كانوا في المغرب أم في الشرق العربي.

ومن أولئك الذين عرفتهم، وتيقَّنْتُ أنهم يرغبون في تمكين الصلات القائمة اليوم بين حكومتهم والمنطقة الخليفية، وبين هذه، والمناطق العربية الأخرى شرقًا وغربًا، وفي إنشاء الجديد من الصلات وتعزيزها بأعمال يودُّون لو أُتِيحت لهم في السلك الدبلوماسي أو القنصلي؛ من هؤلاء اثنان امتازَا بما يعملان فوق ما يبتغيان، وهما السنيور إميليو طوباو والسنيور خوسه إرغون.

لقد سبق فذكرت السنيور طوباو Emilis Alvarez Tubau بما لا يجوز الاكتفاء به؛ فهو أقدم الموظفين في الحكومة المغربية، رافَقَها في جميع أطوارها، الملكية والجمهورية والوطنية، وكان في أشد الأزمات واسطة خير، ورسول سلم، بين حكومة بلاده وحكومة البلاد التي أَحَبَّها وأَحَبَّ أهلها، أو بين رجال الحماية العسكريين ومَن كان يناهضهم من زعماء المغاربة. يكتب للتوفيق والسلام، ويسعى للسلام والتوفيق، تحقيقًا لآمال المحبين من الفريقين، الراغبين في إزالة أسباب الشقاق والنزاع.

وللأخ طوباو مزية في سلوكه السياسي، الرسمي وغير الرسمي، يُغبَط عليها؛ فهو يستطيع أن يمزج شخصيته في شخصية سواه دون أن يفقدها، يمشي مع الملكيين كأنه منهم، ويماشي الجمهوريين فيتخذونه دليلهم، ويسير اليوم مع الوطنيين، ولا يتنازل عن

شيء من روحه الملكية، وأخلاقه الديمقراطية. يزين صدره بالأوسمة التي مُنِحها — وما أكثرها — فيعتزُّ بها، ويجالسك وهو عاطل منها جلسة الإخاء الفلسفية، فيحدِّثك في شئون الدول والناس حديث عالم حكيم، بل ناقِد بصير، بعيد مدى العطف والحنان، فلا يدين أحدًا، ولا يريد هو أن يُدَان، إلا في اليوم المحتوم، يوم يُنفَخ في الصور، فوق القبور.

والصديق طوباو محِبٌّ للعرب، ولا غرو، ومُغرَم باللغة العربية وآدابها، فيروي من أشعارها بلهجة تُنسِيك اللحن، بلهجة مفخمة، غير لهجة بيروت؛ حيث تلقى علومه في قديم الزمان كما قدمت، وإن قديم الزمان في اصطلاح زماننا هو ما كان قريبًا من العهد السابق للحرب العظمى. لا أريد أن أقول إذن إن طوباو من الأقدمين، فهو مثلي لا يزال في الستين أو دونها من سن الشباب!

وإن له في الأدب والفنون علمًا ماتعًا، وذوقًا رفيعًا، فيعتصم بالكتاب من تكاليف الحياة السياسية، ولا يُقبِل على الأثر الأدبي أو الفني لمجرد شهرة صاحبه، بل له فيما يقرأ، كما له في الناس، رأي سديد، وضحكة في موضعها مديدة.

سألته مرة: وهل تتمكَّنون على كثرة أشغالكم من المطالعة؟ فأجاب قائلًا: مهما تكن الأشغال فلا بد من الأكل والنوم، وكذلك المطالعة. فلا بد منها بعد الأكل، ولا بد منها للنوم.

أشرت إلى أشغاله الكثيرة، فيجب أن أقول إن وظائفه كثيرة، وقد تكون النسبة بينها وبين أشغاله نسبة سلبية، أي إنه كلما زادت الوظائف قَلَّتِ الأشغال؛ فهو اليوم مستشار سمو الخليفة، ورئيس تشريفاته، والمكلَّف بأشغال القصر الخارجية، وهو مفتش الدروس المغربية، وعضو في المجلس الإداري بطنجة، ومعاون في أعمال المفوضية الإسبانية هناك. فإخال أن هذه الوظائف الجليلة الأسماء، على ما توجبه من التنقُّل الدائم بين طنجة وتطوان، ومن السياسة الدولية الطنجاوية إلى السياسة الخليفية المخزنية إلى أختها الحماوية الإسبانية؛ تفسح المجال للأكل والمطالعة والنوم، فيتمتع صاحبها بما يشتهي منها!

وقد زيدت — أيام كنتُ هناك — وظائفه، وصحَّتِ النسبة فقلَّتْ أشغاله؛ إذ عُيِّنَ رسولي لدى سمو الخليفة، ورفيقي إلى رئيس الجنرال فرنكو ببرغشت. فستلقاه، أيها القارئ الصبور، فيما بعدُ غير مرة، وتزداد معرفة به، وحبًّا له.

أما الإسباني العربي الآخَر في المفوضية فهو السنيور خوسه أرْغون — كما يكتبها هو بالعربية — كانبيثاريس Jose Aragon Canezares زين الشباب، وحقيقته الباهرة

الصافية، التي ليس فيها زيف طوباوي أو ريحاني؛ فهو يطل على الحياة من شرفة العقد الثالث، ويرمق العروبة بعين سوداء ناعم نورها؛ لأنه من القلب. فالسيد أرغون مغربي المولد، إسباني المَحْتِد، عربي الروح والوجه واللسان، طويل القامة، أسمر اللون، وقفته عسكرية وخطواته دبلوماسية، وبلغة المقامات هو كالرمح المقتنِّ، وقد جُلي سنانه، والفرس المستنِّ، وقد أحكم عنانه. زين الشباب المتَّئِد المتزن، فلا يروِّج، ولا يعوج.

وُلِد السيد أرغون في الدار البيضاء منذ ثلاثين سنة (١٩٠٩) في الشهر الأخير من الأشهر المثمرة أشهر الصيف، فكان من طيب ثمارها في نظر والديه وآله وصحبهم، ثم في نظر معلميه العرب في المدارس الابتدائية بآسفي والجديدة، ثم في المدارس الثانوية بمدينة مرسية التي كمَّل في جامعتها دروسه العالية، وأحرز من معهد الحقوق فيها شهادة الليسانس.

هو إذن محامٍ، ولكنه غير ممارس. فقد قفز وهو في العقد الثاني قفزة واحدة من مرسية إلى تطوان، في سنة ١٩٢٧، فدخل دار الحكومة وبقي فيها، وهو اليوم رئيس المستشارية المخزنية، ورئيس قسم الدعاية في المنطقة الخليفية والممتلكات الإسبانية عبر البحار. في المكتب الأول يساعد في إدارة الشئون التي تربط الحكومة المخزنية بالحكومة الحامية، وفي المكتب الثاني ينظِّم ومعاونيه الدعاية التي أمست من ضروريات العيش لحكومات هذا الزمان، وخصوصًا منها الإمبريالية الاستعمارية.

ولإسبانيا الجديدة أغراض وطنية تتجاوز ممتلكاتها في البحرين الأطلنتيقي والمتوسط؛ فهي تطمح إلى استعادة نفوذها الاقتصادي، وتجديد سيادتها الروحية والثقافية على الأقل في الجمهوريات الأميركية الجنوبية فمكتب الدعاية بتطوان، وإن كان مخصَّصًا للمنطقة الخليفية وما إليها من الجزر والبلدان، كإفني وريو ده أورو والمدينتين المستقلتين عن المنطقة، يتعاون ما أمكن والمكتب الأول في إسبانيا على نشر الدعاية في البلدان الإسبانية اللسان والثقافة، التي كانت من ممتلكاتها في سالف الزمان.

على أن اهتمام المكتب أولًا وأصلًا هو في المنطقة الخليفية، وما يتصل بها من الشئون معنويًّا وجغرافيًّا غربًا وجنوبًا، أي في طنجة والمنطقة السلطانية؛ فالفرنسيون هناك أول مَن يشعرون بهذه الدعاية وينفرون منها، فيقاومونها بدعاية تفوقها انتشارًا، وللدعايتين بركانان مشتعلان على الدوام، هما الجريدتان الكبيرتان؛ الإسبانية بطنجة، والفرنسية بالدار البيضاء.

يقول السنيور أرغون إن مكتبه غير مسئول عمَّا تنشره جريدة «إسبانيا» بطنجة، وإن الغرض الأول، والهدف الأقصى، من كل أساليب الدعاية التي يتخذها، هو أن يعرِّف

البلدان المجاورة للمنطقة، والدول ذوات المصلحة فيها، بما تقوم به إسبانيا الجديدة من الإنشاءات والإصلاحات في المغرب الخليفي، وما تطمح إليه في انتهاجها سياسة استعمارية غير نفعية.

ثم قال: ويهمنا كذلك أن نكون مطَّلِعين على أعمال الدولة المجاورة لنا وسياستها، فنقتفي أثرها في النافع الصالح منه، الملائم لسياستنا — إن كنَّا في غفلة عنه — ونتَّقِي الأفخاخ والمعاثر التي تقع فيها هناك. ولي في الدعاية مبدأ هو أن تتبارى الدول في الأعمال العمرانية والثقافية، وينتفع بعضها فيما يجهلون ببعضها الآخَر فيما يعلمون. نحن لا نكره الفرنسيين، ولا نحرض على مقاومتهم، ولكننا مطلقون للصحافة والأحزاب السياسية حرية الفكر والنشر، فلا نتعرض لما لا يخل بالنظام والأمن العام، ولكن الفرنسيين، إن كانوا في طنجة أم في المنطقة الجنوبية، يتخيَّلون غير ذلك ويجسمون ما يتخيلون؛ فينظرون إلينا نحن الإسبان نظرهم إلى البدو، بل إلى العدو المتوحش. عندما يمرون بهذه المنطقة مثلًا، في أسفارهم من المنطقة الجنوبية عائدين إلى بلادهم، ويجتازون بعد ذلك بلاد إسبانيا وجبال البرانس، يبرقون إلى أهلهم قائلين: اجتزنا بسلامة. كأن البلاد التي اجتازوها قفر من قفار أفريقيا الوسطى، وكأن الإسبان واقفون في الطرق يسلبون ويذبحون. إني أؤكد لكم أنهم يُعامَلون كسائر المسافرين وأحسن من غيرهم في بعض الأحوال، عندما يجتازون هذه المنطقة في العودة من المغرب الجنوبي إلى بلادهم، أو من بلادهم إلى المغرب الجنوبي، وفي الأعمال خير الدعايات وأسرعها انتشارًا …

لا نكران أن بين الإسبان والفرنسيين عداوات قديمة تتصل بأبناء هذا الزمان، فيصرح مَن ليسوا في الحكومة بما تكنه أفئدتهم ولا يبالون. حضرت مرةً حفلة راقصة في النُّزُل؛ حيث شاهدت شبان المغاربة ببرانسهم البيضاء وجواربهم الحمراء والصفراء، يراقصون الإسبانيات بأدب يدنو من الورع والتقوى، واجتمعت هناك بطبيب إسباني أقام في المغرب الجنوبي معظم حياته، وأشرف على صحة السلاطين؛ من المولى حسن والد السلاطين الثلاثة، إلى المولى محمد السلطان الحالي. فقال: كلما تقرَّبنا من الفرنسيين بعدوا عنا، ولا سبيل إلى التفاهم، أما نحن والعرب فالأمر على خلاف ذلك، نحن إخوان وأنسباء؛ إخوان في البلاد الواحدة، وأنسباء في الثقافة العربية الإسبانية، فيجب أن نتضامن ونتعاون في إنشاء مدينة تجمع بين الهلال والصليب. نحن الوحيدون في أوروبا المدركون أهمية الإسلام، العاملون في تعزيزه ليسير جنبًا إلى جنب وعظمة إسبانيا الجديدة.

قلت: هذه الروح جديدة في إسبانيا.

فقال: بل هي قديمة.

فقلت: كانت إذن في سبات، ولم تستيقظ إلا حديثًا.

فقال: كانت في سبات يوم كانت إسبانيا غريبة عن نفسها، يوم كان النفوذ الفرنسي مسيطرًا على سياستها ومقدراتها. يقول الفرنسيون: إن أفريقيا تبدأ في جبال البرانس؛ أي إننا نحن الإسبان مثل العرب أفريقيون متوحشون برابرة، أما أننا برابرة متوحشون، فهذا قول لا نردُّ عليه، وأما أننا أفريقيون، فلا اعتراض، بل إن في ذلك فخرنا. نفتخر، نعم، إننا والعرب إخوان، وإن عظمة إسبانيا التي نسعى لتجديدها في المغرب والمشرق، حتى في العالم الجديد، هي معقودة بتجديد عظمة العرب والإسلام.

وكان حاضرًا أحد العاملين في دائرة الحكومة الوطنية للترميم والتنظيم، فقال مؤمنًا على كلام الطبيب وشارحًا له: سياسة إسبانيا تختلف عن سياسات الدول الأوروبية كلها؛ لأنها سياسة عقيدة، لا سياسة مصلحة، ونحن في ذلك متطرفون ولا ريب، ولكننا صادقون لما بأنفسنا، عاملون للعقيدة المالكة قلوبنا، دينية كانت أم سياسية، ولذلك نحن دومًا خاسرون ماديًّا، وراضون بما يكون من تعويض معنوي وروحي. سأعطيك المثل: كانت إسبانيا أيام عزها تتقيد في سياستها، أولًا وأخيرًا، بالديانة الكاثوليكية، فتقدِّم مصلحة الكنيسة على مصالحها ولا تبالي بالخسارة، هي سياسة العاطفة، هي سياسة العقيدة الدينية في الماضي. أما اليوم، وإن كنَّا مقيمين على إيماننا الديني الكاثوليكي، فقد أضحت عاطفتنا محض مدنية — وما تجردت من الروحيات. نحن إمبرياليون، ولسنا مستعمرين، نريد أن نحيي الماضي ونُلبِسه حلة جديدة لا دينية ولا استعمارية، نريد أن نؤسِّس دولة إسبانية قائمة على الثقافة العربية الإسبانية، وإن كنَّا فيها خاسرين. سنخسر لا محالة كما خسرنا في سياستنا الدينية الكاثوليكية.

سألت محدِّثي: وهل كانت فرنسا رابحة ربحًا ماديًّا في سياستها الداخلية والخارجية منذ مائة سنة، يوم نشَرَ جنودُها، جنود الثورة البسَّل، مبادئَ الحرية والإخاء والمساواة في أوروبا، ويوم عاونت بعقيدة صادقة حارة، في تحرير الأمم؟

فأجاب: كانت خاسرة ماديًّا، رابحة معنويًّا وروحيًّا، ولكنها نبذت تلك المبادئ في حروب نابوليون، ونسيتها تمامًا في الحكومات البورجوازية التي تأسَّسَتْ بعده. فالسياسة العاطفية التي نبذتها حكومة فرنسا ونسيها الشعب الفرنسي، هي اليوم سياسة الحكومة الوطنية الإسبانية.

– وهل تدوم هذه السياسة في المغرب؟

– ستدوم يقينًا.

– وإن لم تدم الحكومة الوطنية؟

– ليست سياستنا الجديدة منحصرة في الحكومة، بل هي تنعكس عمَّا يضيء في قلب الأمة الإسبانية.

ثم قال الدكتور: هذا صحيح، ولكني أقول فوق ذلك بصراحة تامة، إن المصالح الإسبانية في هذه المنطقة محفوظة، وهي معزَّزة بإرادة أهل المغرب ورضاهم، وهذا ما يريد الإسبانيون أن يحتفظوا به. الإرادة الواحدة في الشعبين، والرضى المتبادَل بينهما؛ هاك الأساس المتين لحكمنا المتين في هذه المنطقة، وللسيادة الثقافية المشتركة هنا وفي الوطن.

فما هو يا تُرَى حظ السياسة العاطفية في عالم تتنازعه سياسة فرنسا البورجوازية، وسياسة إنكلترا الإمبراطورية، وسياسة ألمانيا النازية؟ هذه السياسة المحررة من قيود المبادئ الإنسانية الشاملة، من قيود المثل الأعلى في الحياة المعتزلة، تسير مبصرة متعمدة على الخطة التي تستوجبها الأحوال السائدة التي يُعبَّر عنها بالحالة الراهنة، كما تستلزمها المصالح الخصوصية الوطنية والحزبية والشخصية.

ولكن السياسة البريطانية تتميَّز عنها في علاقاتها العربية الإسلامية التي لا تخلو من بعض العواطف التقليدية.

وتريد إسبانيا اليوم أن تقيم سياستها على العواطف فقط، وهي لا تخلو من بعض المبادئ الاستعمارية التقليدية.

أما السياسة العاطفية البحت، رويدًا رويدًا، فقد يريد الله بعد أن يعيد الإيمان إلى قلوب الشعوب وقلبك، بواسطة هؤلاء الإسبان، فتكون سياستهم العاطفية بداية عهد جديد في العالم.

الفصل الخامس

شِفْشَاون

صروح مديدة منخفضة، ظاهرها أبدًا جديد، صروح بيضاء كزهر السوسن، ناعمة كفجر الربيع، مزخرفة منمنمة. صروح كقصور الجن، بنات الخيال وقصصِ المحال، بعُمُدٍ كفتيات الحور، بأقواس كالنونات، خطها قلمٌ ساحر، فعكستها يد عابثة. صروح بتيجان اقتُبِسَتْ من أعالي الحصون؛ لتنوح فوقها الحمائم، وتغرد الحساسين. صروح لفنانين مولهين، فرُّوا من حقائق الوجود إلى حقيقة الحياة الخالدة، من الأشكال المتنافرة إلى الوئام والتجانس في وحدة الجمال. صروح خفيفة الظل فوق أرض قاسية، تحت سماء كلها بهاء وحنان. صروح كاللعب لأطفال الأرباب، وما هي باللعب ولا هي للاعبين.

ولِمَن الصروح؟ أَلِجبابرة الحديد وعبيد البخار؟ أَلِلطائعين الوادعين الصالحين النافعين من ذريَّة مباركة لا إنسية ولا جنيَّة؟ أَلِلحيوان والإنسان، للذابح والحارس من الناس وللناهبة المسافات؟

حصِّنْ فؤادك واستمع. إن هذا الصرح لسكة الحديد في محطها، وذلك الصرح لمجزر تطوان، والآخَر على الهضبة الخضراء هو مخفر عسكري.

هي الفنون والروح العربية الإسبانية المتزاوجة المثمرة، هي الهندسة الساحرة الأندلسية الغرناطية، وقد تجسمت فيها الأمنية القصوى، الناشئة من فنون الشرق والغرب، ومن تشوقات القلوب المعتصمة بآثار الماضي المجيدة، وبخرائبه الفتانة — بروح الماضي وذكراه.

هي هي صروح الروح الخالدة، وقد شيدت، بعد الحمراء والزهراء للحديد الممدود، للفحم والوقود، وشيدت للجزارين يجازون الأنعام على الطاعة والوداعة والخير، وشيدت لحماة الأمن والنظام.

الصروح البيضاء المتوَّجَة بتيجان الحصون، المحصَّن فيها الفن المغربي الإسباني، تودِّعنا ونحن خارجون من تطوان.

والطريق الأسحم الصقيل ينساب بين الروابي الخضراء، المتألق طلُّها في روض الصباح، الراقص زهرها للشمس الشارقة. ينساب ذلك الأسحم الصقيل بين تلك الروابي في سفوحها وثناياها، وعلى صدرها المجلود وفوق جبينها الصامد لسهام الشارقة الغاربة.

الطريق وأبناء الطريق وزينات الطريق، يحدجها الفجر، ذلك العابد في سمائه، بعين الحب التقية، ويلفها بنسماته العاطرة، يدخل على قلبها نور محرابه الدرِّي.

الطريق وأبناء الطريق: رجال البوادي يسوقون الدواب المثقلة بأحمال الأرض الجوَّادة يسوقونها إلى المدينة بما تنبت الأرض وتثمر، بالحطب والفحم والبقول والحبوب، وبنات البوادي بقبعاتهن الشبيهة بالمظلات تتناعس تحتها العيون النجل في سمرة الخدود، وهن ممتطيات ظهور الأتن الوديعة، الطائعة الصابرة المكدودة.

الطريق، والحركة والسكون في الطريق، سكون الفجر الوفي الأزلي، وحركة الشعوب المتقلبة الزائلة، جيلًا بعد جيل، منذ وطئت هذه الأرض أرجل الفينيقيين، ثم الرومان، ثم البيزنطيين، ثم الغوط والعرب والفرنجة اللاتين، إلى زماننا، فرأت عين الفينيقي منذ ثلاثة آلاف سنة ما نراه نحن اليوم؛ هذه الوجوه السمراء الجافة الإهاب، وهذه العيون السوداء الناعسة، وهذه النعال والبرانس والشماريق، وهذا السكون في الوجوه والعيون، الحاجب العزم والشدة والاستعزاز.

بوادي المغرب من عرب وبربر، صلة الخير بين المدينة والأرياف، بين معدة جشعة وقلب خاشع، بين شهوة لا تزول ورحمة لا تحول، بين فم يردِّد دومًا: هات هات، وأيد تلبِّي يومًا بعد يوم، مبسوطة غير مقبوضة لا تكل ولا تمل.

الطريق وزينات الطريق، ومنها سيارات هذا الزمان تطوي المسافات وتنهبها وتخفيها، وهي تمزج أنفاسها الغازية بأنفاس الطبيعة الشذية، فتمر بالحقول والمروج، وبالزهور والرياحين، كأنها من الطريق اليابس العابس العقيم، لا تستحق وقفة ولا نظرة، ولا نشقة عابرة.

الطريق، طريقنا إلى شِفْشاون، بعد حبس في المدينة يومه شهر، وشهره دهر، حيَّاك الله حيَّاك!

الطريق والربيع الزاهي إلى جانبي الطريق، وفوقه على رءوس الربى، وتحته في الوادي الريان، بجوار النهر، نهر مرتيل النائم الكسول. أهو نهر ورع متقشف لا تهزه نشوة الربيع، فيسير ويدور على هواه، هادئًا ساكنًا بطيئًا، سيرَ الخير في العالم، ويتقبَّل

الجزية التي تؤديها له الربى والجبال — ساقية هنا وسلسبيلًا هناك — بيد صفراء ناحلة! …

الربيع واحد في المغرب وفي لبنان، طرفي هذا الشاطئ الأفريقي الآسيوي، هو واحد في فيضه وأشكاله وزمانه، يجيء البلدين على اليوم — على الساعة — في الروزنامة، لا يبطئ ولا يسرع، ولا يتقدم ولا يتأخر، فيُسمَع صوت الحسون، وتُشهد طلعة السوسن في آنٍ واحد هنا وهناك.

وذي هي النباتات اللبنانية ذوات الأريج الكامن والمنتشر — الصعتر والقصعين والقندول الزاهر — وهاك الدفلى البيضاء والحمراء تتمايل على ضفتي النهر، وقد شاهدنا في بعض الأماكن شقائق النعمان والأصفر من الأقحوان.

وها هو ذا العلم يغزو حتى هذه الأصقاع المغربية القصية. تلك الأبراج من الحديد والعمد من الخشب هي لأسلاك البرق، والأخرى لأسلاك الكهرباء، تسير جنبًا إلى جنب بين أشجار الزيتون البرية والخرنوب. عجبت لزيتونهم الذي لا يلقحونه فيثمر ويضيء، ولخرنوبهم الذي يقدمونه للمواشي ولا يدبِّسون.

وها هو ذا مخفر آخَر من مخافر القبائل، ومنها بجوار تطوان بنو قُرِّش. قُرِّش، أم هي قُرَيش؟ يجب أن تردَّ هذه الأسماء إلى أصلها العربي، ولكن المغاربة لا يبالون بما يحل بالأصول، وإن هم داووها فبالإهمال، فيطول يومها، ولا يحول اعتلالها.

وقد يخترعون أصولًا غريبة في الدين والتفسير، فيتنكَّر التوحيد لأهله، أو يتقنع بقناع الصوفية، ويُؤْثِر الزوايا على المساجد، والمرابطين على العلماء. هي الفتوحات والأقاليم القاهرة، وهي العقائد في قلوب الفاتحين، تنتقل إلى حقائبهم، فتتأثر بالمناخ والمحيط وبتقاليد المغلوبين أنفسهم. بَعُدَ الإسلام عن مهده، فسادت في أندلسه الفلسفة، وكادت تتغلَّب عليه، وسادت في مغربه روح القبائل البربرية، ففتح أبوابه لتقاليدهم وخرافاتهم الوثنية — لأوهامهم وسحرهم وتعاويذهم — بعد أن أخفق في مقاومتها، وعجز عن التغلب عليها.

هذه الكلمة جرَّها مخفر بني قُرِّش — قريش؟ — ونحن ندنو من مدينة هي معقل الدين، والعلوم الدينية، أو كانت. فقد قيل لنا إنها نجف المغرب، وإنها لسبب آخَر نابلس المغرب. وقد يكون التشبيه مثل الأسماء المشوهة بالتحريف، فنبحث في نجف المغرب عن السراديب والمدارس فيها، فلا نجدها، وقد نجد في نابلس المغرب بعض اليهود؛ فالتشويه في التشبيه مستقبح كما هو في الأسماء ومضلل كذلك.

ولكن في الأسماء الكثير من الفصيح السليم، وفيها ما يبرِّره الأصل البربري؛ فقد ذكرت المخفر وهو في اصطلاحهم مرقب، وقرب المرقب المدشر أي القرية. فالمرقب مقبول مكرم في قواميسنا العربية، والمدشر مرفوض مجهول، إلا في القواميس البربرية، وهي غير موجودة، ولا أحد من أهل البلاد العرب والبربر، يستطيع أن يردَّ اللفظة إلى أصلها اللغوي فينكشف سرُّها.

إذن نقول المدشر، وقد مررنا بمداشر عدة، وما شاهدنا غير نموذج منها، كوخ أو كوخين بجوار المرقب، والنموذج طبق الأصل مبني من القش والطين بشكل هرمي، أما المدشر فهو مختبئ في الوادي أو في ثنايا الروابي.

وهاك شفشاون مجموعة ظلال على الأفق المشرق، وهاك النهر في ناحية غير تلك التي كان رفيقنا فيها، فسألت الرفيق ألفريد البستاني — الذي تعلَّمَ جغرافية المنطقة بالأسفار المكررة في البوادي والحواضر: كيف انتقل النهر من يميننا إلى يسارنا، وسبقنا فأصبح أمامنا؟ فعلمت أن نهر مرتيل لا يزال مكانه وراءنا، وقد اختفى في أحد الأودية المنحدرة من منبعه. أما هذا الذي أمامنا فهو نهر سيف اللاو، والسِّيف ساحل للوادي — في القاموس — كما هو للبحر.

إننا إذن في رأس وادي اللاو، وقد كُتِب لنا التعرُّف إليه، من رأسه إلى قدميه، وسنشهد هناك العجائب المبهجة، وستشهدها معنا، أيها القارئ الصبور، إن ثبَتَّ في الصبر والتسيار، فها هو ذا الآن سيف اللاو، وها هو ذا نهر السيف، المنحدر من جبل شفشاون في أحد فرعيه، ومن جبل باب تاز في الفرع الآخَر. فجبل شفشاون أمامنا هناك، على الأفق الشرقي، ولا يزال للثلج أثر في أعاليه، وإلى جانبه جبل القلعة، ووراءه — وراء ذلك الأفق المشرق — باب تاز وجبالها.

إن نهر السيف لأنشط من نهر مرتيل، فيُرَى كأنه يجري وكأنه يُسرِع في جريه ويقهقه في انحداره. تُرَى ضحكته الفضية وتُسمَع، وإن له مرحلة يجتازها من نَبْعَيْه، فيقف الفرعان متحدين طوعًا للعلم، وقد شيد لهما مركزًا قريبًا من شفشاون، وفيه الأدوات والمحركات لاستثمار قواهما. نهر السيف، وقد حُشِدت قواه لتوليد الكهرباء، فرأينا أبراجها في الطريق، وهي تحمل النور إلى المدن — إلى شفشاون وتطوان والعرائش، وإلى القصر الكبير والصغير، حتى إلى سبتة وطنجة.

دنونا من البساتين، وقد نوَّرت أشجارها، وفاح طيبها، وعدنا إلى الصروح، الصروح البيضاء المتوَّجَة بتيجان الحصون، الحاملة خارجًا وداخلًا رسالة الحمراء في الهندسة

الغرناطية شكلًا ومعنى — جمعًا وتفصيلًا — في النقش والتلوين، وقُلِ التلحين، وقُلِ الغناء، وإن أجمل الألحان لفي هذا الزخرف وهذه الألوان.

هي الصروح المغربية الإسبانية، الغرناطية المغربية. هذه ثكنة للجيش، وهذا — في وسط جنينة زاهرة بالقرنفل والورد والنرجس والياسمين — مركز المراقَبَة، وذلك إلى جنبه مركز المخزن الشريف، تحيينا في الأول إسبانيا وقد أقامت للحماية مراقبات يديرها أبناء حكومتها من عسكريين ومدنيين، وهذا مراقب الناحية — ندخل فإذا نحن في شبه «حمراء» صغيرة منمنمة، فتبدو المكاتب فيها كموائد الصيارفة في المعابد. وها هو ذا المراقب الضابط الشاب، في جزمةٍ لامعة وثوب أصفر عسكري، إنه لمن المتناقضات.

ولكن في شفشاون صرحًا أندلسيًّا واحدًا لا تناقض فيه — هو النُّزُل الجديد. فإن كنتَ ممَّنْ جابوا الأقطار القاصية والدانية، وشاهدوا في المدن الحديثة والقديمة كل عجيب طريف، فأصبحت يابس الشعور، لا بهيج يبهجك، ولا عجيب يعجبك، فَاطْوِ هذه الصفحة ودونك غيرها، وإن كان لا يزال لوح نفسك طريًّا تطبع فيه الآيات الطبيعية والفنية، فتزيدك علمًا وحبورًا، فواصِل ما أنت الآن فيه، ولا تَخْشَ الخيبة أو الملل.

ليس هذا النُّزُل القائم بين الجبال، على هامش المدينة، بنُزُل ضخم فخم عظيم، ولا هو في ظاهره على شيء من النادر والممتاز في الجمال، ولكن في داخله السحر الساحر ينقلك بلحظة عين إلى الأندلس — أندلس العرب. ذلك السحر هو في ردهة الاستقبال؛ في النقش والزخرف والألوان، على الجدران والعُمُد، وفي السقف وتحت قدميك. هات القهوة يا غلام!

إن كتاب هذا السحر لمن «حمراء» بني الأحمر الخالدة — ياللَّحْمَر بلهجة المغرب — وأدوات السحر من معامل البلاط الزلِّيجي بأشبيلية، وأستاذ السحر من هذه البلاد المغربية، والسحر الحلال، هاكه في هذه الرسوم الهندسية، بخطوطها الخضراء والصفراء والحمراء، وفي هذه الفسيفساء — الأرابِسْكِيَّة — السوداء الزرقاء البنية، تتجلى في السقف، وترقص على الجدران وحول العمد، وعند قدميك. هات الخمر يا ولد!

إننا في غرناطة، في المضيف السلطاني بالقَصَبة!

هو السحر القديم، وفي الطابق الثاني السحر الحديث الجديد. في الطابق الثاني ننتقل انتقالًا آخَر سحريًّا؛ من غرناطة إلى باريس أو نيويورك، من الفن الساحر المتعب للأعصاب إلى الصناعة الموفورة الراحة والرفاه، من الترف الذهني والعاطفي إلى الترف الجسماني، من الكرسي الخشب المطعَّم القاسي إلى الكرسي المنجد الوثير، من الألوان المثيرة للأفراح والأشجان إلى اللون الواحد الساكن المسكِّن، الممزوج بماء الحياة والاطمئنان!

وإلى جانب كل غرفة من غرف النوم نعيم هذه الدنيا؛ حمام مجهز بجميع أسباب الرفاه والبهجة، بأحواضه الكبيرة والصغيرة، بزليجه الأشبيلي، بأنواره الكهربية، بمواسيره الخفية الحاملة إليك الماءين الحار والبارد ... يا غلام، أين المدلِّكة؟

أيها القارئ العزيز، إن كنت ممَّنْ شاهَدوا عجائب الدنيا في الشرق والغرب، وما زِلْتَ تهتز دهشًا وطربًا لكل مشهد غريب عجيب، وعند كل مظهر من مظاهر الجمال والأناقة، فإنك لَمِن الفائزين، وإنك الغني السعيد.

وقفنا في طنف من أطناف النُّزُل نمتِّع النظر بالمشهد الطبيعي المتمِّم للجمال الهندسي والفني؛ فسألت معاوِن المراقب الذي كان رفيقنا ودليلنا عن بيتٍ ببرج على رأس إحدى الهضبات في الجانب الآخَر من الوادي، فقال: هو مسجد.

– ومَن يقصده للصلاة وهو بعيد عن المدينة؟

– قلَّمَا يُقصَد.

– ولماذا بُنِي هناك؟

– بناه أحد المراقبين ليزيِّن به تلك الربوة.

الزينة والزخرف! الجمال اللطيف في الهندسة والصناعة والفن، وفي الحياة العاطفية؛ إن الإسبان لأشد نزعة إليها، وأبلغ شغفًا بها من العرب، بل هي الصلة المتينة بين الشعبين تنحصر اليوم في الفن الهندسي والثقافة وتشتمل غدًا ... دَعِ التنبؤ للأنبياء.

خرجنا من النُّزُل نمشي إلى الساحة الكبرى، فإذا هي تغصُّ بالناس من المدينة والمداشر المجاورة إليها. هو يوم السوق التي تقام فيها كل أسبوع فتحتلها النساء والرجال للمتاجَرَة، فتتربَّع المرأة على الأرض، ويجلس الرجل القرفصاء إلى جانب ما هو معروض للبيع من البقول والثمار والحبوب، ومن الأقمشة والأحذية والبرانس، ومن مواعين الفخار والنحاس، من الدبوس — كما يقول العطار اللبناني — إلى جهاز العروس. سوق عامرة بالجماهير من بدو وحضر، وبما تناثَرَ فيها على الأرض للبيع والشراء، فتتمُّ الصفقات — وهذا ما أدهشني — باليسير من الكلام بالصوت الخافت. لا صياح، ولا ضوضاء، ولا ازدحام.

قوم متمدنون، يجلسون على الأرض ويتاجرون — فمَن هم يا تُرَى؟ هل هم العرب؟ هل هم البربر؟ وهل هم من الجنسين وقد تخالَطَا وتشابَهَا، فتحسب العربي بربريًّا والبربري من العرب العرباء. إنهم لبيض الوجوه، يغلب في النساء الحُسْن، وفي الرجال الهيبة وشدة البأس.

وهذه اللهجة العربية لهجتهم قد أدهشتني، فأثارت بي كوامن الذكرى؛ لأنها أليفة الأُذُن بسرعتها ووقفاتها وغنَّاتها، وبما فيها من نحت وإدماج وتسكين لا يجيزه أحد من اللغويين الملتحين أو المُرْد المحافظين أو المجددين: حيَاكِلَّه — حياك الله. لبْاسْعْليك — لا بأس عليك!

اللهجة والوجوه، نقلتني النقلة السريعة البعيدة، نقلتني إلى اليمن هناك، في الأعالي — في يريم وذمار وصنعاء — رأيت أمثال هذه السحن البيضاء، وهناك سمعت مثل هذه اللهجة الغناء ذات القفزات والوثبات والوقفات والمدَّات.

وهذه السوق بقناطرها الواطئة ومخازنها الصغيرة، وقد تربَّعَ التجَّار في دكاكينهم على حصير أو فراش أو بساط، هذه السوق بدرجاتها ومتعرجاتها، وبروائحها الشبيهة بالبخور الهندي والبهار والكمون، وقد سُحِقت في الفهر الواحد، ومُزِجت ببقية من بوتقة العطار؛ هذه السوق بجوِّها وروائحها تنقلني إلى اليمن.

وهذه البيوت، لولا قرميد سطوحها، يمانية.

وهذه المدرسة لصبيان القرآن، يتعلمون قراءته بالألواح المكتوبة لا بالكتاب المطبوع: اليمن. وهذه الأنوال: اليمن. وهذا الترفض الشفشاوي: اليمن.

أقف عند هذا، فلا تضلنا التشابيه والانتقالات. إن لشفشاون، على ما ذكرت، صفاتها الخاصة، رأسها النظافة — النظافة في ساحتها، وفي أسواقها المدرَّجة، وفي أهلها، وفي بيوتها.

وقف بنا الرفيق الدليل أمام مدرسة دينية عالية — هي مدرسة شفشاون لتعلم القرآن والفقه، فدخلنا فإذا نحن في صحن فارغ نظيف كقلب البادية، لولا شجرة الليمون والشاذروان الصامت، لا ماء فيه، وحول الصحن المدرسة بطابقين فيهما غرف التدريس والأكل والنوم. لكل طالب غرفة صغيرة فيها سرير وخزانة ونضد للكتابة، كل ما فيها بالمجَّان، وكل ما فيها نظيف.

ولكن الرفيق وبَّخَ المدير؛ لأن الرواق أمام الباب لم يُكنَس في ذلك اليوم؛ فاعتذر المدير وراح ينادي الخادم.

ثم قال رفيقنا: الحكومة تقوم بنفقات هذه المدرسة، وتدفع رواتب المعلمين والخدم؛ فعلينا أن نطالبهم بالواجب عليهم.

ليس في اليمن مثل هذه المواظبة على النظافة، وليست أنوال اليمن كأنوال شفشاون، وإن كانت في البلدين يدوية؛ فتلك شبيهة بأنوال لبنان الضيقة، عرض نسيجها لا يتجاوز الذراع، فيشغل كل عامل نولًا واحدًا.

أما أنوال شفشاون، فعرض نسيجها متر ونصف متر، فيشغل النول الواحد عاملان كلاهما بمكَّوكين، الخيط في الواحد مفتول وفي الآخَر محلول، فيجيء النسيج متينًا خشنًا مزغابًّا، ولا يُصبَغ كما في اليمن، بل يُنسَج من صوف الغنم، ويستعمل بلونه الطبيعي للمشالح والبرانس.

وأمام بيت الحائك تينة أو مشمشة، وعلى سطحه عريشة من عرائش العنب — لبنان.

خرجنا من المدينة ونحن نواصِل السير في بقعة من الأرض جبلية لبنانية، وهذا نبع النهر — نهر سيف اللاو — يتدفق من بين الصخور في نفنف زانته الطبيعة بشجيرات من الزيتون البري والبطم والسنديان، وإلى جوانب المياه تتزاحم الدفلى الزاهرة.

لا بد للدليل من قصة يقصها عليك، فقد أخبرنا أن السلطان الحسن، والد السلاطين الثلاثة عبد العزيز وعبد الحفيظ ويوسف، زار هذا المكان ونصب خيامه حيث كنَّا واقفين، وأن الشمس تشرق في أيام الجُمَع والأعياد على سرب من النساء يقصدن النبع للنزهة؛ فيلعبن ويغسلن في هذه المياه بين الصخور.

عدنا من النبع في طريق آخَر بين البساتين المسيجة بالصبير، المزدانة جوانبها بأقمار البيلسان، فكنَّا نسمع خرير الماء، ولا نرى غير بريق منه هنا وهناك بين أشجار اللوز والتين، ثم يظهر شلالًا عند طاحون أو ساقية في بستان، فيذكرنا دومًا بلبنان. هي ساعة في بقعة من الأرض طيبة مثمرة — وألذ ثمارها الذكرى والخيال. فمن النُّزُل، إلى المدينة، إلى النبع، انتقلنا ثلاث انتقالات.

شفشاون:[1] بلدة حديثة العهد، أُسِّسَتْ سنة ١٤٧٠، عند سفح الجبل الحامل اليوم اسمها، على هضبات هي كالدرج إلى رأس النبع، وفي هذا الدرج الطبيعي الأسواق المعبَّدة والأدراج المرصوفة بالحجارة، وقد صقلتها أرجل الناس فأمست مثل نعالهم المسحاء الملساء، مزلقة للأحذية الفرنجية.

وفي شفشاون مزالق أخرى، لا للفرنجة بل للعلماء من أبنائها؛ فهم يذكرون الماضي، يوم كانت مثل النجف مدينة العلوم والأسرار الدينية، فيطمعون بالنِّعَم الخالدة، ولا يتقون فيقعوا بالزائل منها، ولكنهم لا يؤلفون الكتب ليبرِّروا المزالق ويشرحوها، وهذه

---

[1] وتُختصَر فيقال شاون، فتُكتَب بالإسبانية Xauen، وهي على مسافة خمسة وخمسين كيلومترًا من تطوان، وتعلو ستمائة متر من سطح البحر.

من حسناتهم. ومنها أنهم يزدرون الجهل وأهله حتى الإهمال، فيسمعون الأساطير تُرَدَّد ولا يبالون.

فمَن ذا الذي أشرف على بناء شفشاون؟ هو ولي من الأولياء يُدعَى علي بن غاشد (راشد) — يلفظ الشفشاوني الراء كما يلفظها ابن باغيس (باريس) — ولمولانا ابن غاشد مزار عند مدخل المدينة، وكرامات في الحياة وفي الممات. فهو الذي امتشق حسامه، وضرب به الصخرة في سفح الجبل، فتفجرت منها مياه النهر!

وفي شفشاون اليوم ثمانية آلاف نفس نزح أجداد أكثرهم من الأندلس قبل سقوط غرناطة وبعده، ومن هذه الثمانية الآلاف ألفٌ أو مائةٌ أو عشرةٌ — لست أعلم بالتحقيق — يشكُّون في كرامات الولي المذكور، وينكرون أعجوبة سيفه المتحدر من سلالة عصا موسى.

وفي شفشاون مزالق لليهود؛ فيوم دخلت عساكر إسبانيا المدينة سنة ١٩٢٠، رحَّبَتْ بهم الجالية الإسرائيلية، فابيضَّتْ وجوه واسودَّتْ وجوه، وما كان المبيضون بمفلحين؛ فعددهم اليوم أقل مما كان منذ عشرين سنة، وقد تصير شفشاون شبيهة كل الشبه بنابلس.

أما حسنة حسناتها، بعد النظافة والأنوال ومعمل الزرابي والمدارس المدنية والدينية، حسنة هذه الحسنات مدرسة البنات، ومديرتها السيدة رحمة المدني حرم عبد السلام الأندلسي. والسيدة رحمة الريفية المولد، المتعلمة بطنجة، المحسنة اللغتين الإنكليزية والفرنسية؛ هي أول امرأة تعلِّم وتكتب في هذه المنطقة من المغرب الأقصى، وقد تصير ولية — طال عمرها — فتُدفَن إلى جنب مولى شفشاون علي بن راشد.

تُقسَّم هذه البلدة القدسية إلى خمس حومات أي أحياء، هي حومة رأس الماء، القريبة من النبع، وحومة الخرازين — الإسكافيين — وحومة ريف الأندلس التي سكنها النازحون من إسبانيا، وحومة سُويقة — كانت تقام قديمًا بها سوق — وحومة ريف الصبَّانين أي الغسَّالين.

سألت الدليل: وفي أية الحومات يسكن اليهود؟ فأجاب: في البلدة حفنة منهم منشورة على حواشي الحومات.

ليس في شفشاون من الآثار التاريخية غير القلعة التي بناها البرتغاليون، القائمة في الناحية الجنوبية الشرقية من الساحة الكبرى. في هذه القلعة تحصَّنَ الريسوني يوم كان يحارب الإسبان، وقال كلمته المأثورة يخاطب القبائل: هذه بلادي وأنتم أهلي، فلا خوف على البلاد ما دمت حيًّا، ولكنها ذاهبة بعد موتي.

وكانت هذه القلعة مركزًا لعبد الكريم بعد الريسوني، فحدث بين الاثنين ما سنذكره مفصَّلًا في موضعه، وما كان القدر ليرحم المجاهد الأول ولا المجاهد الثاني. قال بطل الريف للبطل الشريف: تعال شاركنا في الجهاد. فأبى، وكان الشريف يومئذٍ مريضًا في بيته بتَزْروت، ومتحركًا مع ذلك في سياسته. هي القبائل المتقلبة، والدسائس المتغلبة، ومن رجال عبد الكريم الذين حملوا غصن الزيتون يومئذٍ إلى الريف، الريسوني، وممَّن حملوا السيف عليه السي يزيد بن صالح قائد قبيلة بني يَرْزين، وباشا شفشاون الحالي.

زرنا الباشا في بيته، فاستزريت اللقب لما شاهدت صاحبه، وما محل الباشوية من هذه الطلعة البدوية الرائعة؛ لقد خطَّ الدهر في وجه ابن صالح سفر المغامرات والغزوات والشدات، فأجاد، وأيَّدَتْه لحية سوداء بيضاء كأنَّ غبار المعارك لا يزال لاحقًا بها، وأيَّدَتِ الدهر عينان غائرتان لا تزال النار بادية في رمادهما، وأيَّدَ الدهر فمٌ في سكوته هول، وفي ابتسامه أمن واطمئنان.

الباشا يزيد! حاشا وكلا. السي يزيد! بئست الألقاب المدنية والمخزنية. متى كان الـ «باشا» من تراب هذا المغرب؟ وهل لبني عثمان أثر غيره هنا وهناك في شرقنا العربي؟ أريد الجواب من عجيل باشا الياور. أريد الجواب من محجم باشا مهيد. لا يا أخي، لا تضيع الوقت في السؤال والجواب، إن هذه الألقاب وأغطيتها — سعادة، فخامة، معالي — لَمِن منكرات الدولة البائدة، ولو كانت من غير المنكرات فإنها تستقبح حينما تضاف إلى عجيل أو محجم أو فهد أو هزلول أو يزيد. أما الـ «سي» — نصف سيد أو أقل — فهو أقبح وأنكر. إذن نقول الشيخ، وليس أشرف منه لقبًا في البوادي والحواضر.

زرنا الشيخ يزيد بن صالح — أرأيت كيف تتجانس الأسماء والألقاب؟ زرنا الشيخ يزيد في بيته، فاستقبلنا في الباب وصعد أمامنا في درج ضيق عالي الدرجات — ذكَّرني باليمن — إلى قاعة الاستقبال المشرقة بألوان فرشها، على الأرض والدواوين والجدران، إشراق ابتسامته — وكان في إكرامه لنا عربيًّا قحًّا، خلقًا وتقليدًا. فجاء الخادم، عمليق من سود السودان، بقماقم خضراء وصفراء وقدَّم قمقمًا لكل زائر، فصبَّ ماء الزهر على الرءوس والأيدي، فمسحت الوجوه وسُبِّح بحمد الله. ثم جاء العبد الآخَر بمبخرة حُرِق فيها عود الند، فنشقنا منها وبخرنا الصدور، وسبَّحنا بحمد الله.

ثم جاء الخادمان بالـ «أتاي المنعنع»، وبأطباق عليها أهرام من الحلوى، فشربنا الشاي في كئوس من الزجاج كأننا في الحجاز، وأكلنا من تلك المقرَّنات والمربَّعات المعسَّلة، وما سبَّحنا بحمد الله، وهو ها هنا أولى بالتسبيح. إن للتقاليد تقاليد تقيِّدها.

وكنَّا قد علمنا أن مضيفنا ممَّن حجوا في العام السابق، فسألناه رأيه في ابن سعود، فقال بأسلوبه الوجيز: عربي كريم وحاكم عادل. ثم أخبرنا أنه دُعِي لمأدبة أقامها الملك لبعض الحجاج، وأنه يحتفظ برقعة الدعوة.

وفي مساء ذلك اليوم بتطوان، في بيت عبد الخالق طريس، اجتمعنا بغيره ممَّن حجُّوا في ذلك العام، فأثنوا على عبد العزيز «العربي الكريم» و«السياسي القدير» و«الحاكم العادل»، وما تعرَّضوا بخير أو شر لمذهبه. إننا لفي المغرب السني الشافعي، ولكن المذاهب لا تحول في هذه الأيام دون الإقرار بالفضل، ولا تتنافى في العروبة.

طال الحديث، وطابت فيه المقارنة، فَلْنختمه بشيء منها يختصُّ بالبيوت، وهي إجمالًا على شكلين: بيت الشيخ يزيد بن صالح — مثال الشكل الواحد — والبيوت الحديثة في تطوان من الشكل الآخَر. الأول — وأكثر بيوت تطوان القديمة مثله — عربي مبنًى ومعنًى، عربي النطق والمزاج، بيت صغير متواضع يتوارَى ولا يتعالى، وبيت الأستاذ الطريس مثلًا هو عربي مغربي، عربي الشكل، مغربي المزاج، منفسح منشرح وراء جداره العالي الأصم، فيقوم بطابقيه حول صحن رحب، مفروشة أرضه، ومصفحة جدرانه، بالبلاط الزليجي، وفيه كما في بيت الأستاذ محمد بنونه الذي نزل به الأمير شكيب أرسلان يوم زار تطوان، ردهة استقبال مفروشة بالفرش الأوروبي مغرقة التقليد، وأخرى وطنية، مغربية الشكل والذوق، مغربية الروح والمظهر، وهي على الإجمال في الطابق الأول، في صدر الصحن، طويلة ضيقة، مشطور طولها شطرين، يفصل بينهما عمد بأقواس، ودرجة ترفع أرض الواحدة عن مستوى الأخرى.

وفي صدر هذه الردهة ديوان منخفض عريض طويل، مدى الحائط، حافل بالفُرش الوثيرة، المغطاة بالأبسطة، وبالوسائد الباهرة الألوان — مزاج المغرب — وإلى جانبي هذا الديوان في طرفي الردهة، أي زاويتَيْها، سريران عاليان، أو سدتان، أو عرشان. قد يستطيع الرياضي الحائز الجوائز في القفز أن يقفز من الأرض إلى ذلك العرش قفزة واحدة، ولا يستطيع مثلنا — أستغفر قارئي الرياضي — أن يدرك ذلك العز بغير درج يصعده.

كثيرًا ما فكَّرت، قبل أن أُقدِم على السؤال، في هذا الشيء المفخم المتخَّم بالفخامة، المكدس بالفُرش، المصفَّف بالوسائد، المرفه بالأطلس والحرير، البادي بكلَّته المزركشة كالعروس المجلوة. كثيرًا ما فكَّرت في ماهيته، مهنته، سبب وجوده، أهو من الأثاث أم من نوافله، أهو للزينة أم للاستعمال؟

وهل يجوز، في الحالين، لغير العروسين ... إذن هو سرير الليلة الأولى. فكرتُ، أقول، ثم فكرت، وقد يستعمل بضع ليالٍ بعدها، وقد يسخر لشهر العسل بأجمعه، ثم يُترَك هناك لعسل الذكرى، وإنْ حام عليه الذباب، فكرت وفكرت، ثم تشجعت فسألت، فعلمت أنه لأهل البيت في الأيام العادية، وللضيف في الأعياد.

فشرحها رب البيت قائلًا: ويوم الضيافة عندنا عيد.

وكما أنهم يستعملون هذه السدة الملكية للنوم، فهم يستعملون الردهة الفخمة للمآدب؛ فيكرمون فيها الضيف إكرامين في مأكله ومنامه.

جلسنا حلقة حول طبق من النحاس، ونظمنا الزاد بالأيدي على الطريقة العربية في شبه الجزيرة اليوم، غير أن المضيف لا يشارك ضيوفه في الأكل، بل يحدِّثهم وهو واقف يُشرِف على الخدم.

وكان الخدم تلك الليلة من شبَّان كتائب حزب الإصلاح في أثوابهم — قمصانهم — الرسمية.

وكان الحديث في تطوان وتاريخها، فأخبرني جاري أن العلَّامة المفضال الحاج أحمد الرهوني — الرئيس السابق لمجلس التعليم الإسلامي الأعلى — كتب تاريخ تطوان في عشرة مجلدات — غير مطبوعة طبعًا، وقد أهدى النسخة الخطية إلى الأستاذ الطريس يوم زفافه.

تاريخ تطوان في عشرة مجلدات، يا ساتر يا معين، فكيف السبيل إلى الانتفاع بعلم الشيخ الرهوني؟

خطر لي خاطر أذكره الآن، وهو أني أعربت عن رغبتي في نشر نموذج منها، فتعلم دوائر الأدب العربي بالكنز التاريخي، فلا يبقى كنزًا دفينًا، وهدية عرس. بل لقد رغبت في نشر تاريخ تطوان بالشكل الملائم لِمَعِدِ قرَّاء هذا الزمان الضعيفة، فسألت عبد الخالق أن يأمر أحد كتَّابه بتلخيص كل مجلد في صفحة واحدة، فأضعها أنا في بوتقتي وأغليها، ثم أقدِّم لقرَّاء هذا الكتاب خلاصة الخلاصة. فأجاب بالإيجاب، أي إنه وعد بأن يفعل.

وكرَّرْتُ الطلب فكرَّرَ الوعد، وتكرَّرَ الوعد، فتكرَّر الطلب؛ فعلمت وتيقَّنْتُ أن الوعود في المغرب مثلها في هذا الشرق العربي، وأننا والمغاربة إخوان، حقًّا إخوان!

الفصل السادس

العرائش

من برقة على البحر الأبيض إلى طنجة، ومن أصيلة على البحر الأطلنتيق إلى بلاد نهر الذهب Rio de Oro، في كل بقعة من هذه الشواطئ الأفريقية، الشمالية والغربية، زيَّنَها الله بالجبال الخضراء والأنهار وبالمروج والبساتين، كان يتحدَّث الأقدمون ويسترسل المحدثون، في ذكر الأسطورة اليونانية، وتفاحات بنات الـ «هسبيريد» الذهبية، التي كانت شائعة في هذه الديار في زمن الرومانيين، وفي عهد البيزنطيين بعدهم.

إنما اختلف علماء الأساطير في موضع ذلك البستان — بستان بنات الـ «هسبيريد» وشجرتهن العجيبة — فقالوا إنه كان في البلاد الطرابلسية بالقيروان، وقالوا إنه كان بجوار طنجة، ومنهم مَن مضوا في التدقيق، فذكروا الأرض التي يجري فيها نهر لوكوس، وحدَّدوا المكان الذي سكنته الـ «هسبيريد» الحسان في ظلِّ شجرة تفاحهن الذهبي؛ فقالوا إنه على شاطئ النهر عند مصبه، حيث تقوم اليوم مدينة العرائش.

أولئك الحسان الثلاث، وقيل إنهن أربع، وقيل سبع، عدد الثريا «بنات الدجى»، كُنَّ يسكنَّ المغرب الأقصى، كما جاء في التقاليد القصصية على شاطئ الأقيانوس، حيث تختفي الشمس كل يوم، وكل يوم تعود، لتشرق عليهن وعلى بساتينهن، وفيه الشجرة التي كان يحرسها التنين، شجرة التفاح الذهبي التي أهدتها الأرض إليهن ذكرًا لقران الربة هيرا بزوس رب الأرباب.[١]

[١] وفي أسطورة أخرى أن أربيس، إحدى بنات الدجى، دُعِيت مرةً لحفلة عرس، فألقت تفاحة ذهبية بين المدعوات لتأخذها أجملهن، ملكة الجمال، فكادت تحدث فتنة، فسُمِّيَتْ «تفاحة الشقاق»، وقد ادعتها ثلاث من اللواتي حضرن ذلك العرس، هنَّ أفروديت وهيرا وأثينا، فمنحها الحكم بريس الربة الكبرى أفروديت.

أما التنين حارس تلك الشجرة، فهو المعروف برمزه الذي لا يزال يُدعَى باسمه القديم نهر لوكوس،[٢] ولا يزال رابضًا عند سيف الأوقيانوس، فيهدر عندما تزمجر رياح الجنوب، ويرغي ويزبد تحت سياطها الكاوية.

وهاك بجوار العرائش، في ذكرى النهر، بحراسته الدائمة، آثار المدينة القديمة — الرومانية؟ اليونانية؟ الفينيقية؟ — المدينة العريقة في القِدَم المسمَّاة شمِّيس Chimmis تحدِّث خرائبها، لو وُهِبت النطق، عن ذلك البستان الذي كان يظللها، وأولئك الحسان جيرانها، وتلك الشجرة كنزهن الذهبي.

وهو ذا الأوقيانوس حيث كانت الشمس «تختفي كل يوم، وكل يوم تعود»، فتشرق على البستان وتفاحه وحوره — الأوقيانوس الغول يشرب دومًا ماء النهر العذب ولا يرتوي، والنهر الذئب أي التنين يحرس الأرض التي لا تزال حافلة بالكنوز؛ بالشمس الشارقة، والشمس الغاربة، وبالسماء الصافية الأديم، وبالمروج الذهبية، والجبال الزمردية، بالكنوز العسجدية الخالدة.

ذهبت الأساطير وما ذهبت روحها المثمرة على الدوام — المثمرة تفاح الـ «هسبيريد» حينًا، وحينًا تفاح صدوم. فالعرائش الحديثة العهد تناجي شمِّيس القديمة، وخرائب شميس اليوم تنادي العرائش، وهو ذا التفاح الذهبي يستحيل في زماننا برتقالًا ورمانًا، إننا لفي فجر الزمان! ويستحيل خشخاشًا وحنظلًا، إننا لفي غسقه! وذي هي حسان الـ «هسبيريد» — بنات الدجى — مجسدة في بنات المغرب السمر الهيف، ذوات العيون النجل والثغور المتأهبة للقُبَل.

إرث الأساطير إنه لخالد في روحه، وإن تغيَّرَتْ أسماؤه، ودرست معالم أشكاله؛ فالتفاحة التي كانت تفاحة المعرفة والخطيئة، ثم صارت تفاحة الشقاق، أصبحت في زماننا تفاحة الحب والتناسُل، فحَلَّ الفارس العارس محل الذئب الحارس. إرث الأساطير تتوارثه الشعوب فيحول منه المنظور والمنقول، ولا يحول المحسوس والمعقول.

---

[٢] لوكوس شبيه اسم نهر الكلب بلبنان، اسمه اليوناني القديم Lykos أي الذئب، فمسخته التقاليد كلبًا، وللاثنين في الأقاصيص مصدر واحد يوناني؛ فالكلب حارس الممر عند النهر، كان ينبح كلما رأى العدو قادمًا إليه، والذئب عند أهل المغرب الأقدمين هو التنين الحارس لشجرة التفاح الذهبية في بستان بنات الـ «هسبيريد»، والمدهش المدهش إنما هو في لساننا العربي المثبت الصلة الخرافية بين الذئب والتنين؛ فقد جاء في مادة تن بعد تنين والتينان أي الذئب.

شاهدت بنات الـ «هسبيريد» مغربيات هذا الزمان، يبعن الرمان وأكواز الخشخاش — المنعشات والمنومات — في سوق الاثنين بطريقنا إلى العرائش، وهي سوق حافلة كسوق شفشاون، تقام كل أسبوع في بستان من النخيل بجوار قرية سيدي اليمني، فتُدعَى أيضًا باسمها.

وما أجمل الأسماء أسماء القرى والجبال والقبائل في هذه الناحية؛ إن أكثرها عربية نقية لا تشوبها العجمة، فهي ذي الفنيدق ودار شادي وسيدي اليمني، وهناك جبل الحبيب، وفيه منازل بني مصور وبني عروس.

وهذه فروع الطريق من تطوان، تنتهي إلى آفاق لازوردية، أو عند سفح الجبال الزمردية، أو تذوب في عناق المروج الذهبية، وفيها كلها الذكريات الطيبة والمرة لأحداث التاريخ وأساطير الشعوب. فها هنا انعراج إلى شفشاون، وفي الشمال الغربي انعراج آخَر إلى طنجة، والفرع الثالث يؤدي إلى أصيلة، والرابع إلى قبيلة بني عروس — عروس جبل الحبيب — والخامس عند العرائش يصل جنوبًا إلى الرباط، رباط الفتح، وهي على مائتي كيلومتر من العرائش.

وفي هذا الطريق المفروش أكثره بالزفت مخافرُ ومراقبُ من طراز ما شاهدنا بشفشاون، بيضاء ومنمنمة أندلسية عربية في هندستها، وفي وفر ما يزين جنباتها من الزهور، وبجوار كل مرقب بيت باشا البلدة أو قائد القبيلة،[٣] وهو مركز الحكيم الوطني المخزني الذي يشرف عليه، يرقبه المراقب (المستشار) الإسباني.

لا أَنْهُر في هذه الناحية بعد لوكوس أو قبيله، وليس ما يجيز المقارنة بين هذه الجبال الوادعة وأهلها العرب الأشاوس من بني عروس وبني مصور أكبر قبائلها؛ هي الربى وهم الجبال المشمخرة المنفردة، هي الربى تنحني وتتَّضِع، فتتصل وتنفصل بلين ولطف واطمئنان، لا روعة ولا شموخ، ولا مباغتات في الأغوار والأنجاد، زُرِعت سهولها قمحًا، وغُرِست منحدراتها بالكروم والأشجار المثمرة.

أما في الحقول إلى جوانب الطريق فيكثر الدوم بين النبات البري، الدوم هنا غير شجر الدوم في شبه الجزيرة العربية، فهذا الدوم المغربي من فصيلة النخيل — مراوح

[٣] قائد القبيلة مثل باشا المدينة، كلاهما يحافظ على الأمن، وينفِّذ أوامر الحكومتين الأهلية والحامية، ويجبي الضرائب، ويقضي كما تقدَّمَ في الدعاوى التي يقضي فيها قضاة الصلح عندنا. فهو من هذا القبيل موظف لحكومتين، حكومة المخزن وحكومة الحماية.

البساتين عندنا — نبتته لا تتجاوز القدمين علوًّا، يُصنَع من ألياف ورَقِهِ القيطان والحبالُ، وبجوار حقول الدوم وخلالها طنافس بيضاء بالأقاحي وأخرى حمراء بشقائق النعمان، وخطوط زمردية مطرزة بزهر الدفلى، وغيرها منشورة بين الأشواك من الخرنوب والبطم والملول، وأما الزيتون البري فقد شاهدنا الكثير من أشجاره الضخمة المتينة في أرض سيدي اليمني.

ورأينا فلاح المغرب، كفلاح اليمن، يحرث أرضه بمحراث صغير، على بقر عجاف، فيمشط الأرض تمشيطًا لا يبلغ الشغاف من قلبها البكر. وهذه الأكواخ الهرمية الشكل المبنية بالقش والطين، ذكَّرتني بمثلها في بلاد اليوكاتان بالمكسيك.

بعد أن نجتاز قرية سيدي اليمني نرى في هذه الديار القديمة شيئًا حديثًا ينساب في طرف السهل كالثعبان، وقد صعد من رأسه دخان كدخان الأتون، يتخلله الشرر الأحمر؛ نرى ذلك الشيء يجري، ولا نسمع له صوتًا، يجري كالثعبان الأسود تحت غيمة دكناء. هو القطار، قطار سكة الحديد الفرنسية الإسبانية بين طنجة وفاس، فيمر بأصيلة والقصر الكبير من هذه المنطقة.

وبعد سيدي اليمني يزدان الطريق على مسافة بضعة كيلومترات بشجر الكينا السامق السوي، فيخيم علينا إلى أن ندنو من العرائش.

وها هو ذا الأوقيانوس، بحر الظلمات، تفضض حواشيه الشمس وتذهِّب شاطئه، فتلطف تجهُّمه ولا تزيل من قلبه حقيقة الأساطير، وهي ذي قُبَيل أن نقطع الجسر إلى المدينة، خرائب شمِّيس، ثم النهر القديم الاسم والرسم نهر لوكوس، الذي يجري شمالًا من المنطقة الجنوبية، فيدخل هذه المنطقة ويتعرَّج عند المدينة إلى البحر، فيلتقي البحر والنهر ولا يتسعان في الميناء لغير المراكب الشراعية.

وها هنا بمدينة العرائش[٤] وبجوارها مقر السحر القديم وجنات الأساطير الشعرية والمادية، ذلك السحر وتلك الأساطير لا تزال آثارها في سحرنا الجديد، وفي أساطيرنا الدينية والسياسية، ولا تزال نفسية الشعب القاطن هذه الديار كنفسية مَن تقدَّمَه من الشعوب المتحضرة وغير المتحضرة، من البربر صعودًا إلى الإغريق. الساحر والمسحور حديثهما كالقديم، ولا يختلف القديم والحديث منهما بغير الاسم والصورة والسبيل، أما

---

[٤] تكتب بالإسبانية Arache، وهي على مائة وثلاثة كيلومترات من تطوان غربًا بجنوب، وعدد سكانها ثلاثون ألفًا.

بعد ذلك ... فإياك نعبد، وإياك نستعين ... وأنت السمع والبصر للعاشقين ... وفيك السحر الحلال حتى للسياسيين!

في هذا المغرب اليومَ ساحرٌ هو الجنرال فرنكو، وفيه المسحور وهو الشعب المغربي، وهاكم حروف السحر وتعاويذه وطلاسمه على جدران المساجد بالعرائش. أقف بك عند جامع الزاوية المصباحية، في آخِر جادة المعتمد بن عباد، فقد كان هذا الجامع صغيرًا حقيرًا، فأضحى بفضل الساحر كبيرًا كريمًا، الساحر الذي «أنفق في تجديده وتوسيعه من ماله الخاص، إعرابًا عن عطفه التام ومحبته الخالصة لإخوانه المسلمين»، كما هو مزبور في الأثر التذكاري على الجدار عند الباب.

وهذا مسجد القادرية «بُنِي في عهد الخليفة المعظم مولانا الحسن ابن مولانا المهدي ابن المولى إسماعيل، وعلى عهد حكومة الرئيس الإسباني الكبير الجنراليسمو فرنكو المنصور، كبرهان ساطع على إخلاص المحبة المتبادَلَة بين الأمتين المغربية والإسبانية، اللتين اتحدتا في ميدان الجهاد الشريف.»

وفي الأثر لمسجد محلة الفقراء زيادة في إيضاح الجهاد الشريف: «الجهاد الشريف لإعزاز الدين ومحاربة أعدائه.»

وفي أثر آخَر إفصاح فإيضاح لصداقة إسبانيا والمغرب «التي أنقذت العالم من استعباد الرجال الذين لا إله لهم».

إياك نعبد وإياك نستعين! نحن المغاربة والإسبان. أولئك القادريون الذين كانوا يعدون أواني الشاي لحفلة في المسجد تلك الليلة، فهم لا يجحدون النعمة، يدلونك على الأثر عند الباب، ولا يذكرون «مولاي الحسن» ولا «الجنراليسمو فرنكو»، بل يقولون: كله من فضل الله — عز وعلا — ثم من فضل مولانا عبد القادر قدَّسَ الله سره، وهم يقرءون المناقب مناقبه، ويذكرون ويرتلون: عبد القادر الجيلاني من إحسانك لا تنساني، ويشربون الأتاي المنعنع، ثم ينعسون[٥] على فراش السحر، ويحلِّقون في سماء الأساطير.

وفي المعهد الديني بهذه المدينة، العرائش، المهد الحديث للسحر والأساطير. هو شبه دير للطلبة يقيمون فيه على نفقتهم بمساعدة من وزارة الأحباس، ويتلقَّون مجانًا

[٥] نعس في اصطلاح المغاربة ونام لهما عكس معناهما المعروف عندنا، فهم ينامون ثم ينعسون، ونحن ننعس ثم ننام كما يشاء الله والقاموس.

العلوم الدينية واللغوية في المسجد الأكبر؛ فقه الكلام وفقه العبادة والتوحيد وفقه اللغة، يقرءونها جميعًا على أساتذة تدفع الحكومة المخزنية رواتبهم، ولا يد للجنرال فرنكو في هذا السحر الإسلامي العربي، المدونة علومه في مختصر الخليل المصري وتحفة الغرناطي ورسالة ابن أبي زيد القيرواني. حتى في الصرف والنحو، لا يزال طلبة هذا المعهد يغبُّون من الأحواض القديمة الدكناء كابن مالك وابن هشام.

بَيْدَ أن في هذا المغرب سحرًا جديدًا هو ثمرة العلم والعمران؛ فقد كان الفقير في الماضي يرفع من كوخه صوتَ الضراعة إلى الله: بيتًا من لدنك يا رب، بيتًا مثل بيوت الناس. فجاءت حكومة الجنرال فرنكو تلبِّي باسم الله دعوة الفقير؛ فبنت بيوتًا في تطوان وفي العرائش، بيوتًا حديثة بهندستها ومرافقها، صحية جميلة، للمسلمين والمسيحيين. تقدِّم البيتَ الواحد للعائلة الواحدة بأجرة زهيدة في الشهر من العشر إلى العشرين بسيطة، وعندما يتم دفع ثمن البيت يُسجَّل لصاحبه.

إن في تطوان محلتين من هذه البيوت الجديدة، في كل محلة نحو مائتي بيت، في البيت الواحد أربع غرف ومطبخ وحمام. محلة للمسيحيين على هامش المدينة، ومحلة للمسلمين قرب الناحية الإسلامية منها، وفي العرائش شارع بخمسين بيتًا، خمسة وعشرين عربية الهندسة خارجًا وداخلًا للمغاربة، وخمسة وعشرين قبالها أوروبية الشكل للنصارى الإسبان.

وقد زادت الحكومة على ذاك حيًّا جديدًا خارج البلدة لِمَن كانوا يعيشون هناك في أكواخ من «تنك»، كأكواخ الأرمن خارج مدينة بيروت. هناك في ساحة كبيرة بَنَتِ الحكومةُ الإسبانية الخليفية جامعًا ومدرسة، وسوقًا للبقول والثمار، ومغسلًا عامًّا، وحوضًا بصنابير لماء الشرب، وبيوتًا صغيرة بجدران من اللبن وسقوف من القش دفعًا لحرارة الشمس، ودارًا كبيرة لشيخ الحومة — المحلة — هي ذي إحدى مفخرات العرائش، ينطق بها أولئك الذين كانوا مقيمين بأكواخ التنك، وسيغدون بعد دفع خمس بسيطات شهريًّا لبضع سنوات، أصحابَ بيوت مثل بيوت الناس.

وإن في العرائش أيضًا، من فضل الحكومة الحامية، مختبرًا زراعيًّا ومشتلًا عامًّا يتولاهما مهندس إسباني وعمَّال من الأهالي يعاونون. ذلك المختبر قائم في وسط حرج من الصنوبر مساحته اثنا عشر كيلومترًا مربعًا، وحرج آخَر إلى جانبه من شجر الكينا.

لقد أبهجتني مشاتل الصنوبر المديدة، وفيها ما لا يقل عن المائتي ألف شتلة، يُنقَل منها إلى الجبال، ويأخذ منها الفلاحون والقبائل للغرس في أراضيهم، وهناك مشاتل من الأزدلخت والسنط والسرو والشربين والكينا، فضلًا عن أغراس الثمار على أنواعها.

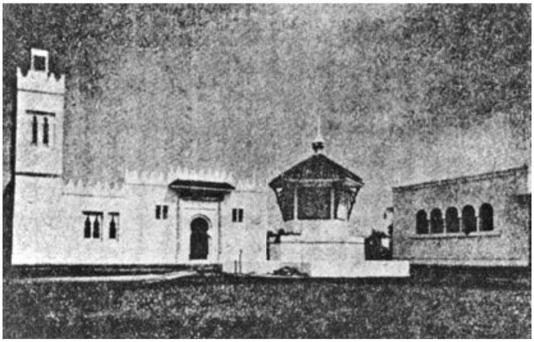

ساحة المحلة الجديدة، وفيها يظهر الجامع وحوض الماء والمدرسة.

أما هذه فتباع، وأما تلك فتُعطَى مجانًا، إلا أن الإقبال عليها قليل؛ لأن فلاح المغرب لا يزال مقيَّدًا بقيود الجمود والجهل والكسل؛ فيجب على الأحزاب السياسية والمدارس والحكومة أن تهتم للأمر، يجب أن يُخصَّصَ يومٌ للشجرة في هذه المنطقة المغربية، وجمعية لأصدقائها.

وهناك من فضل ربك، ثم فضل الإسبان، مقر لعلم الطب والصحة سحره الحديث من غير الكتب التي يجدها المطبب المغربي في مغارة النبي دانيال. هناك المستشفى البلدي، بمعداته وأدواته الحديثة للفحص والعلاج والتطهير والجراحة، يتمتع بها المريض من أبناء البلاد مجانًا لوجه الله، ويعجب لأنوار سحرها التي تريه ما لا يرى في بدن الإنسان وفي الحشرات والجراثيم. هذا المستشفى هو صنو مستشفى تطوان، أطباؤه إسبانيون وممرضاته من راهبات البر والإحسان، مجانًا للجميع، إلا مَن استطاع أن يدفع شيئًا لقاء النعمة، فيُقبَل منه تخفيفًا للنفقات التي تقوم بها الحكومة.

أقف ها هنا لأُعلِم القارئ بأساليب هذا الرحَّالة طالب العلم؛ فقد كان سبيلي إلى أولي الأمر من الحكومتين المخزنية والإسبانية اثنان، أو ضابِطًا ارتباط، إن شئت الأبهة في التسمية، هما السنيور طوباو بيني وبين الخليفة، والسنيور أراغون بيني وبين المفوض السامي، ينبوعَا الأخبار الرسمية. أَضِفْ إليهما الأديب البستاني ألفريد ومعاونًا له من الحكومة المحلية، دليلي في جولاتي الاستكشافية، وكثيرًا ما كان البستاني وحده صلة التعارف الطيبة بيني وبين زعماء البلاد ووجهائها، فتتم الآراءُ الوطنية الأخبارَ الرسمية

وتصحِّحها في بعض الأحايين، وهناك صلة أخرى قد تكون أهم الصلات، هي الصلة بيني وبين الشعب المغربي، هي الريحاني نفسه السارح لأمره بخيرة الله، خير الأدلاء، مستزيدًا في الاكتشاف والتحقيق.

العرائش مثل تطوان بلدتان قديمة وجديدة، وقد أُسِّسَتِ الجديدة خارج بوابة البلدة القديمة على قواعد البناء الحديثة في الهندسة والتخطيط؛ فهي في ساحتها وفسيح جاداتها إسبانية مثل غيرها، إسبانية جميلة، وهي في هندسة بيوتها وزخرفها الخارجي إسبانية عربية، وهي في ساحتها الكبرى، بنخيلها وأزاهيرها ومجالسها المدهونة باللونين الأحمر والأزرق، وفي «كرنيشها» على البحر بمقاهيه المدعاة للكيف «والنعس»، هي في هذه الصورة الفاتنة إسبانية استوائية، استوائية بدفء الخط الاستوائي لا بحرِّه، وبنسيم ليله لا بسموم نهاره.

بعد أن شاهدت ما تقدَّمَ ذِكْره ووصفه في هذا الفصل، خرجت صباح اليوم التالي وحدي أطوف بهذه المدينة الجديدة، ثم عرجت على العرائش القديمة، فدخلت البوابة الجليلة التي دخلها فاتحًا السلطان إسماعيل الكبير، الكبير بفتوحاته ومحظياته، فقال فيه الأديب المراكشي كنْسُس شعرًا شبه عربي — ولا عجب والاسم شبه كردي أو بربري:

في فتح العرائش قد تبدَّى لقدركم على الشعرى الظهور
وأضحى الناس كلهم نشاوى على طرب وما شربوا الخمور

والعرائش أول مدينة دخلتها الجنود الإسبانية سلمًا بقيادة الجنرال سلفستر، بعد الاتفاق الفرنسي الإسباني سنة ١٩١٢، نزل الجنرال سلفستر ورجاله ليلًا في القوارب من المدرعة الإسبانية باتفاق والشريف الريسوني الذي كان يومئذٍ في احتراب وإسبانيا، تتخلله الهدنات والمناورات، كما سنذكر مفصلًا فيما بعدُ.

إن السوق الكبيرة، بدكاكينها وأروقتها وقناطرها لأوسع ما شاهدت في هذه المنطقة، وهي تنعم في معاملاتها ببركتين: المعهد الديني في أحد طرفيها، والجامع في الطرف الآخَر، وهناك في حر الصيف البركة الكبرى، هناك إلى جانب الجامع مفيأة جميلة، هي كمسرح التمثيل، مقصورة بثلاثة جدران، مجالسها مثل جدرانها وأرضها، مصفحة بالبلاط الزليجي الزاهي الألوان، فمجرد صورتها تنعش الزائرين.

وهذه وراءها أسكفة المدينة القديمة والباب المفتوح إلى الجادات والزنقات، ببيوتها التي لا يُرَى منها غير الحائط الواحد والباب فيه. ما أشد فضول الغريب في هذه الزنقات، وهو يحاول التصور لما وراء الأبواب الموصدة من أسرار الحياة، ويقف كاللص عند باب مفتوح على شقه يسترق اللحظ إلى ما وراءه، فلا يرى غير مدخل ضيق ينتهي إلى باب آخَر موصد. هي الحياة المغربية، وقُلِ الشرقية العربية، بحجبها المتنوعة.

ولكن في الجادات عند زواياها شيئًا جديدًا، فريدًا في بابه. في الجادات التاريخ المكشوف لَمَن شاء التعلُّم ماشيًا؛ التاريخ، تاريخ مشاهير العرب، خذه من جادات العرائش.

هذه جادات المعتمد بن عباد، وخبر نكبته ووفاته بأغمات مع التاريخ مسطور على اللوحة تحت اسمه.

وهذا شارع ابن سينا، وهو الحكيم الإسلامي المشهور أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، المولود عام ٣٧٠هـ/٩٨٠م والمتوفى عام ٤٢٧ هجرية/١٠٣٧ ميلادية، ثم ترجمة ذلك كله باللغة الإسبانية.

وهذه ساحة مولاي المهدي، وقد كتب على اللوحة: مولاي المهدي ابن مولاي إسماعيل ابن المولى محمد أول خليفة بمنطقة حماية إسبانيا بالمغرب، من عام ١٣٣١ إلى عام ١٣٤٢ / ٢ أبريل ١٩١٣ إلى ٢٥ أكتوبر ١٩٢٣ تليه الترجمة الإسبانية.

وهذا القصر الجديد المغربي الشكل القائم في ساحة الجندي المجهول، فوق بقية من السور القديم، وهو — أي السور — من عهد الأشراف السعديين، وعلى الجدار عند الباب أثر تذكاري يقول: في هذه الساحة وفي هذه البنية، كانت ثكنة الشرطة الشريفية فرقة رقم ٦، ثم صارت للشرطة الأهلية، وبعد ذلك للمراقبات الحربية ... أولئك الذوات الذين كانوا أفضل ماهر أسَّس أخوَّة المغرب وإسبانيا تأسيسًا راقيًا، في ظل الخليفة مولاي الحسن والجنراليسمو فرنكو المظفر صفي المسلمين، ١٣٢٥–١٣٥٧ / ١٩٠٧–١٩٣٨.

هي طريقة مبتكرة في تعليم التاريخ؛ تعلَّمْه وأنت ماشٍ في أسواق المدينة، حبذا اقتباسها في مدن شرقنا العربي.

وبجوار تلك البنية ساحة مغربية بحديقة، ومَفْيَأة شبيهة بالتي تقدَّمَ ذكرها. حول الساحة مجالس بُنِيَتْ بالأسمنت وفُرِشت بالبلاط الزليجي الملون، وبوسطها ست مخمَّسات، في كل مخمَّسة شجرة من الليمون، حول مثمَّنة كبيرة غُرِست فيها أشجار السرو. لقد كان هذا المكان من البقع الجميلة في المدينة، وهو اليوم بأجمعه يندب سوء

حاله؛ فالمجالس متداعية، والأطواب مكسرة، والأشجار مريضة مائتة، والمَفْيَأة في أسمال مرقعة بعد أن كانت في ثوب العيد. كل شيء في الساحة يتهم المغاربة بالكسل والمجلس البلدي بالإهمال. ها هنا قناعة بما هو كائن، ونسيان لما كان، ولا فكر ولا أمل ولا عمل لما يجب أن يكون. قد لا يكون السببَ كله في هذه الساحة المنكوبة كسلُ الأهالي وعدم اكتراثهم؛ فالمجلس البلدي مؤلَّف من مغاربة وإسبان، وهذه الساحة مثل الساحة الكبرى في المدينة الجديدة، في ذمة المجلس.

بعد تطوافي بالعرائش القديمة مستعينًا مرةً بصبي من صبيان السوق دلَّنِي على المدرسة التي يقرأ فيها القرآن — وهي مثل كل المدارس القرآنية التي شاهدتها بالمغرب — حظيرة أطهار يلوكون كلمة الله ولحية طويلة مطوية على صدر صاحبها الناعس! بعد هذا المشهد عدت إلى الساحة العامة فالتقيت هناك بباشا العرائش خالد بن أحمد الريسوني، الذي أضافنا يوم وصولنا، فسُرَّ جدًّا أني كنتُ أطوف بالمدينة وحدي، وسألني هل زرت المدرسة الأهلية للبنات؟ ومعمل الزرابي؟ وبيت الجمعية الخيرية الإسلامية؟ فكان جوابي ثلاث لاءات، فقال: وهل ترغبون في زيارتها فأرافقكم؟ هيا بنا.

مشينا إلى معمل الزرابي، فدخلنا بيتًا فيه نولان كبيران طول الواحد ثلاثة أمتار، يشتغل عليه عشرون بنتًا متقابلات، عشر من كل جهة، فتلتقط الواحدة منهن خيط اللحمة وتعيده من بين خيوط السدى إلى البنت أمامها فتحكم القطبة، ثم تقطعها بالسكين وتمسدها بفرشاة مغموسة بالماء، ثم ترسل الخيط الآخَر خلال السدى فيعاد إليها محبوكًا لتفعل به ما فعلت بالسابق، وكذلك دواليك إلى أن يتم الزربي. النسيج متراخٍ، والعمل بطيء؛ فالعشرون عاملة يعملن شهرًا ونصف شهر في زربي مساحته أربعةُ أمتار في خمسة أو أقل.

وهناك على الأرض عشر بُنَيَّات، تتراوح سنهن بين الرابعة والعاشرة، ينفشن الصوف ويفتلنه فتلًا متراخيًا، خيوطًا للنسيج.

قلتُ للباشا خالد مشيرًا إلى أولئك الصغيرات: أَلَا يجب أن يَكُنَّ في المدرسة بدل هذا المعمل؟ فقال يجيب عن سؤالي ولا يجيب: سنزور مدرسة البنات.

وكانت المدرسة الأهلية للصبيان في طريقنا، وهي التي أكثر من ذكرها، وبشيء من الفخر؛ لأن الأهالي يقومون بنفقاتها. هي بين الابتدائية والثانوية، يعلم فيها شبان مغاربة.

كان الصف يدرس ساعة وصولنا فصلًا في الصرف، فأَطْلَعني المعلم على كتاب التعليم، وهو من الكتب الحديثة المطبوعة بمصر، ثم أشار إلى جملة تمثِّل القاعدة أَبْدَلَ كلمة فيها لتناسب المكان، فقال: بدل نهر النيل في العبارة نقول البحر الأطلنتيق.

وفي هذه المدرسة شاهدت للمرة العاشرة أو العشرين «زريبة» القرآن، وقد امتلأت أرضها بالصبيان، من الرابعة إلى العاشرة، وهم يقرءون الأمثولة من ألواح بأيديهم، يقرءون بأصوات عالية مجفلة، كما كان الصبيان بلبنان يقرءون مزامير داود تحت سنديانة الكنيسة، يكرون ويفرون، يخبون ويرملون. ليت شعري كيف يستطيع الشيخ المدرِّس — المدرر باصطلاح المغرب — إصلاح أغلاط تلاميذه؟ والعجيب أن كل «المدررين» أو أكثرهم من ذوي اللحى الطويلة؛ قلت: إن هذا لعجيب. ولا عجب مع سبب، فالسبب في ذلك، دام حسن ظنك، أن الشيخ جاز حد سوء الظن فأمسى وصبيانه واحدًا في الطهارة!

مدرسة البنات هي أتقن تنظيمًا وأنظف وأكبر من غيرها، استقبلتنا فيها سافرة السيدة المغربية التي تعلِّم البنات القرآن على الطريقة الصبيانية، ثم سيدة أخرى تعلِّم القراءة والكتابة، وهناك غيرهما يعلِّمْنَ الصرف والنحو والجغرافية والحساب. استقبلننا باسمات دون أن يُظهِرن شيئًا من الدهشة لمفاجأتنا بالزيارة.

وفي المدرسة معلمات إسبانيات يعلِّمْنَ اللغة الإسبانية والخياطة والتطريز. عرضت المديرة أمثلة من أعمال التلميذات، وهي تقول مثلًا: هذا صنع فتاة عمرها خمس سنوات، وهذا خط بنت عمرها عشر سنين، وهي في ذلك تثني على التلميذات والمعلمات معًا.

ثم زرنا المعهد الخيري الإسلامي للعجزة والمحاويج من رجال ونساء، وللمتشردين واللقطاء من الصبيان والبنات. فيه مسجد صغير وغرف صغيرة مظلمة للنوم. النساء ينمن على فرش ممدودة على الأرض، والرجال على أَسِرَّة في غُرَف أخرى.

ومن أعمال هذه الجمعية التي تأَسَّسَتْ سنة ١٩٣١ أن تمنع التسوُّل، وتأوي العاجزين عن العمل، وتساعد العاطلين منه، وتعلم البنات اليتامى، ثم تزوِّج مَن أمكن تزويجهن.

كان العرب قديمًا يكثرون العناية بمثل هؤلاء المحاويج والمتشردين، وقد كانت معاهدهم الخيرية متعددة متنوعة؛ ذكر ابن بطوطة بضعة عشر معهدًا في دمشق، منها معهد لبنات الفقراء فيعتني بتعليمهن وزواجهن، بعد تجهيزهن، كل ذلك مجانًا لوجه الله، وقد كانت تلك المعاهد منظمة خير تنظيم، وعلى جانب يُذكَر من أسباب الصحة والراحة والرفاه لساكنيها، والمنتفعين بها.

قلت ذلك لرفيقي فقال: هذا صحيح، وإننا باذلون الجهد لنبلغ الغاية في التنظيم والإتقان، وفي تعميم أسباب الراحة والنظافة والصحة. كل هذه الإنشاءات جديدة، ولا تزال في أولها تقوم بما يبذله الأهالي من مساعدة، ولا يخفى عليكم ما في شعبنا من الجهل، فنحتاج في الدرجة الأولى إلى التعليم. لا إصلاح يتم ويدوم بدون المدارس …

وحدَّثني أحد أدباء العرائش قال: كان الصبي خالد الريسوني — باشا العرائش اليوم — يكره العلم والتعليم والكتب والمدارس والمعلمين، فقيَّدَه والده يومًا بالحديد ليدرس أمثولته. هذا الرجل هو اليوم من أكبر دعاة التعليم في المنطقة.

جاء هذا الأديب يدعوني للاجتماع في أحد مقاهي البحر ببعض إخوانه الوطنيين المثقفين، النازعين إلى التجديد والتحرُّر. قبلت الدعوة فَرِحًا، فرحَّبَ بي شابان اثنان؛ الواحد ببرنس أبيض أنيق، والثاني معلم درس في الأزهر، وتشرَّبَ من محيط القاهرة الجديد أكثر من محيط ذلك المعهد القديم، فعاد إلى المغرب وهو يريد أن يفكَّه من قيوده الأجنبية، وقيود التقاليد والعادات القديمة العقيمة، ولا يرى إلى ذلك سبيلًا محققًا للآمال غير سبيل العلم — المدارس.

جلسنا في ذلك المقهى أمام الأوقيانوس الصخاب الأمواج، حول مائدة صُفَّتْ عليها فناجين الشاي، وكان الحديث في السياسة والأحزاب السياسية، فقال الأزهري الشيخ عبد القادر: لا خير في السياسة لبلاد مثل بلاد المغرب اليوم، أما الأحزاب السياسية فقد يكون بعض الخير في حزب واحد منها، ولكن تعدُّد الأحزاب بلية وطنية لمغربنا الحاضر.

فقال الأديب صاحب الدعوة: نريد أن تطَّلِع على حقائق الأمور، يا أستاذ. فلا تُخدَع بما ترى وتسمع، ولا تُخطِئ في أحكامك. قد يكون فخامة المقيم لغرض ما مشجِّعًا للأحزاب فتعدَّد وتتطاحن. نحن لا ننكر أنه محب للمغرب وأهله، ويريد لنا الخير، ولكنه لا يُوفَّق دائمًا في الوسائل التي يتخذها لخدمة البلاد. خُذْ مثلًا قضية الأحباس؛ لقد رفع المقيم المراقبة عن الأحباس، وامتَنَّ عليها بهذا الاستقلال، فرددت الجرائد والأحزاب كلمات الشكر والعرفان، ولكن ماذا فعل المقيم؟ بعد أن أطلق الأحباس من قيود المراقبة الإسبانية، عيَّنَ لها مديرًا لا يُحسِن إدارتها، وسيسوء حالها في عهد الاستقلال إذا كانت لا تحظى بمَن هو أهل لتولي شئونها. أحباس العرائش وحدها طائلة، يكفي ريعها لأعمال خيرية وإنشائية كبيرة.

فقال أبو البرنس … التازي: الحق مع الأخ مصطفى يا أستاذ. كثيرًا ما يخطئ العميد في انتخاب الرجال لخدمة البلاد؛ فإما أنه حسن النية فيؤخذ بالظاهر، أو بأسباب التدخل والتوصية، فيسيء إلى البلاد من حيث لا يدري، وإما أنه سيئ النية فيعيِّن

بنات مغربيات يتعلمن الحياكة.

لنا مَن هم غير أهل للإدارة، لا في العلم والاختبار ولا في الأخلاق، ليستطيع أن يقول، ويقدم الشواهد على قوله: إننا غير أهل لنتولى أحكام بلادنا. ولا تخلو البلاد من أصحاب الكفاية علمًا وأخلاقًا، ولكن التوسُّط والتوصيات — وخصوصًا ما يجيء منها من القصر الخليفي — يفسد على المقيم أعماله. أنا أعتقد أنه سليم النية يريد الخير للبلاد.

فقال الأزهري: ولا يفوتك، يا أخي، أن عندنا جماعة من الأقدمين يرغبون في إبقاء القديم على قِدَمه، ويتهافتون على الخليفة، ويتجاذبون نفوذه، فيزيدون في البلبلة والإفساد. لا أقول إنه يزمِّر دائمًا للذين يطبِّلون له لأغراض شخصية، ولكنه يضطر أن يجامِل ويداري وفقًا للأحوال حينًا، وحينًا لأن الأقامية تريد، وليس نفوذه لديها كما ينبغي أن يكون.

– وهل تفضل الصور في الوزارات على الرجال؟ سؤال سأله التازي. هل يجب أن يكون الوزراء دائمًا من ذوي اللحى الطويلة؟ لماذا لا يختار المقيم شابًّا لرياسة الوزارة؟ وشبَّانًا لوزاراته؟ أيخشى التطرُّف منهم؟ إن المراقبة كلها بيده، فإن اختار شابًّا للوزارة فهو يستطيع أن يراقب أعماله كما يراقب اليوم أعمال الشيوخ العُجُز، ويحول دون التطرُّف الذي لا تستقيم فيه مصالح المغرب، ولا مصالح إسبانيا. ليس في المغرب اليوم مَن لا يحب الإسبان ويخلص لهم؛ فالموظف ذو الكفاية هو خير لهم ولنا، والموظف العاجز والمفسد يضر بمصالح الجميع: المغاربة والإسبان.

انتقلنا من السياسة إلى الاقتصاديات، فقيل لي: إن الشركات الأهلية قليلة في البلاد، والحق في ذلك ليس على الإسبان وحدهم بل على المغاربة أيضًا.

في المنطقة شركة نقل واحدة هي إسبانية، وأكثر أسهمها بيد الرهبنات واليهود، لقد عُرِضت الأسهمُ على أهل البلاد فلم يُقبِلوا عليها لجهلهم قيمة الشركات الاقتصادية، ولعدم ثقتهم بها.

فقال الشيخ الأزهري: شعبنا في حاجة إلى التشجيع، وفي حاجة إلى المساعدة الفنية النزيهة، وأما أن الشركات الأهلية لا تنجح فلذلك أسباب وأسرار. في تطوان شركة كهرباء أهلية، غير الشركة الكبرى الإسبانية، عمَّالها الفنيون من الإسبان، اشترت هذه الشركة من الأدوات فوق حاجتها وطاقتها، فساعدتها الحكومة بمليون ونصف مليون بسيطة لدفع ديونها، وخسرت الشركة في السنة الأولى، فساعدتها الحكومة لسد العجز في ميزانيتها. فإذا كان الخلل الإداري من أعضاء الشركة الوطنيين، فالخلل الفني من الموظفين الفنيين الإسبان. عكس ذلك شركة الماء بتطوان، أو بالحري إدارتها التي بيد المجلس البلدي، فليس مَن يشكو هذه الإدارة — هي على غاية ما يرام.

التازي: الحق يقال، إن الحكومة لا تُلَام بقدر ما يُلَام الأهالي. تريد الحكومة أن تُشرِك الأهالي في المشاريع الاقتصادية، وهي تشجِّعهم على ذلك وهم يتردَّدون. الحق علينا لا على الحكومة الخليفية أو الإسبانية، في خلو المشاريع من أموالنا ومساهمتنا.

سألت سؤالًا عن حالة العمَّال في المنطقة، فعلمت أنها كانت في عهد الجمهوريين سيئة جدًّا؛ كانت أجرة العامل المغربي ثلاث بسيطات أو أقل أو أكثر قليلًا، وأجرة العامل الإسباني ثماني بسيطات، هذا عدا الإهانات التي كان يقاسيها المغربي من الإسبان العمَّال وغير العمَّال، أما اليوم فقد زادت أجرته، ولا احتقار ولا إهانة، إنما هناك مجال للتحسين … الاحتكار؟ لا احتكار البتة في المنطقة، والفضل في ذلك للحكومة الحامية.

الأزهري: لا نكران يجوز — ولا إطلاق. ضرورات العيش مضبوطة الإرادة والتسعير، فتُعطَى بالمقادير والأسعار المعينة، وخصوصًا منها الزيت؛ لأنه قلَّ في سنوات الحرب، والسكر والشاي والبن؛ لأنها تُجلَب من الخارج. أما الحنطة فهي موفورة، ولا قيد ولا تحديد في بيعها. إلا أن المراقبة شديدة والأوامر تُنفَّذ، فلا سبيل للاحتكار أو التلاعب بالأسعار. هذه من حسنات الحكومة الحامية، وقد ذكرنا لك بعض سيئاتها، وأهمها في الاقتصاديات ما قد تكون جاهله، أهمها جمرك واد مرتين، هل زرت واد مرتين؟ وهل رأيت المكان الذي كان جمرك هذه المنطقة؟ هناك عند مصب النهر وإلى

شاطئ البحر كان للبلد ميناء عامر في الماضي، هو ميناء تطوان، وكان فيه جمرك دَخْلُه بأجمعه لخزينة المنطقة، ويشتغل فيه ويرتزق منه من العمَّال وأصحاب المراكب الشراعية أكثر من ألفين من المغاربة. فكانت السفن الحاملة البضائع إلى تطوان ترسو في البحر قرب مصب النهر، فتنقل أحمالها بالمراكب الشراعية إلى الجمرك؛ هذا الجمرك ألغته الحكومة الحامية في بداية عهد الجمهوريين، أو بالحري نقلته إلى سبتة، فصارت البواخر الحاملة البضائع إلى تطوان ترسو في ميناء سبتة تدخل جمركها، فتدفع الرسوم الجمركية هناك، فتدخل بأجمعها خزينة المدينة المستقلة، ثم تدفع تلك البضائع رسمًا جمركيًّا آخَر — ١٢ ونصف بالمائة — للحكومة المخزنية عند حدود المنطقة بكستياخو. لا يخفى ما في ذلك من الخسارة للمنطقة وأهلها، فعندما كان جمركها بواد مرتين كان ألفان من العمَّال المغاربة يرتزقون منه، وكان دخله بأجمعه للخزينة المغربية. إننا حقًّا لَمظلومون! ظلَمَنا الجمهوريون الذين ألغوا ذلك الجمرك، وعطَّلوا ذلك الميناء، فهل تُنصِفنا الحكومة الوطنية الإسبانية، فتُعِيد إلى واد مرتين جمركها، وتحيي ميناءها؟ الأمل بالله، وبها وبما عندنا نحن من همة.

الفصل السابع

عمارة الخضر غيلان

إن الأولياء في المغرب لمثل القديسين عند النصارى، عددهم كثير، والغرض في تقديسهم واحد، هو الزلفى إلى الله بواسطتهم، اتقاءً لجحيمه، وطمعًا بنعيمه، وفي العقيدة نظر كما في العبادة والتوسُّل.

وإن الطرق في المغرب لمثل الرهبنات في لبنان مثلًا، اللهم إذا استثنينا التبتُّل الذي أمسى من مجمل حاله تقليدًا من التقاليد غير المرعية، ومدعاة للرياء والفساد. أما الروح في هذه الجمعيات المغربية واللبنانية فهي أصلًا دينية، وفصلًا مادية دنيوية، فيقل فيها ما يشفع بحالها، ويبرِّر كل أعمالها.

وأما التصوف، إن كان في الدين الإسلامي أو المسيحي، فهو اجتهاد شخصي قلَّمَا يتمثَّل في الجماعات تمثيلًا يليق في الأقل باسمه؛ ذلك لأن الهدف الأعلى من هذا الاجتهاد إنما هو معرفة الله، والاتصال به اتصالًا كليًّا، تضيع عنده الطبيعتان الإلهية والإنسانية، فيحلُّ محلهما، عند بعض كبار الصوفيين، الرموز الشعرية، وعند الآخرين صورة الجمع الكلية، مهما تكن غامضة أو مشوشة، وكل ما سوى ذلك في «تصوُّف» أو «ترهُّب» الجماعات هو تقليد وتقييد، بل هو تشويه لما تقدَّمَ من أغراض التصوف والطرق.

وكما تندر الرهبنة الصافية عقيدة وعبادة، روحًا وعملًا، تندر كذلك الطريقة التي تتمثَّل فيها حياة صاحبها الطاهرة، ظاهرة وباطنة، عبادة وروحًا؛ فهي تحمل الاسم، وتمجِّد الذكر، وتقيم المهرجانات، الأعياد والعمارات، لما فيها من التفريج، ومن المنافع المادية.

ليست هذه التوطئة للبحث في الموضوع بحثًا مستوفيًا، فلسفيًّا واجتماعيًّا؛ فالمجال ها هنا لا يتسع لذلك، إنما هي شمعة نضيئها عند الباب، باب هذا الفصل المخصص بزيارة ولي بني غُرْفُط يوم عيده في محله بالجبل، وعيد الولي في اصطلاح أهل المغرب

يُدعَى عمارة — بكسر العين — فيقولون: عِمارة القطب عبد السلام، عِمارة سيدي هدِّي، عِمارة الخضر غيلان، وهم يريدون، على ما أظن، العُمْرة أي الزيارة،[1] فقد جاء في القاموس أن العمارة، بضم العين، طول العُمر، وبكسرها تعمير المنزل، وبفتحها كل شيء على الرأس من عمامة أو قلنسوة أو تاج أو غيره. عِمارة، عَمارة، عُمارة، هي اللغة العربية، لغتنا، بما فيها من مرونة، ومن غموض لغير العارفين — ولكثير من هؤلاء أيضًا.

وقد يراد من العِمارة بكسر العين، معناها في حاضر حالها، فالولي — قدَّسَ الله سره — يجلب الناس من كل حدب وصوب يوم عيده، فيقام حول ضريحه سوق ومهرجان فيهما الخير والبركة لبلده وأهله وأشياعه؛ فيهما التعمير، وفيهما للسائح جاذب قوي.

فقد كنت أتأهَّب للرحيل من العرائش بعد انتهاء عملي فيها؛ إذ علمت أن في قبيلة بني غُرفُط، إحدى القبائل الكبيرة في هذه الناحية، عيدًا في اليوم التالي لوليها الخضر غيلان، وأن المراقب العام للإيالة، السنيور توماس غرسيا فغويرا Sr. Tomas Garcia Figuera يريد أن أرافقه وجماعته لنشهد ذلك العيد.

تلقيت الدعوة فَرِحًا، وكنتُ في صباح اليوم التالي أول المتأهبين للسفر، وها هو ذا الرفيق البستاني يجيء مبطئًا معتذرًا على عادته، وها هو ذا الشيخ عبد السلام الأزطوطي المبطئ غير المعتذر، ثم السنيور كرستوبال بيريز فيرا Sr. Cristobal Perez Vera الذي كان الرفيق والدليل في جولاتنا بالعرائش، وبعده المراقب العام يصحبه ضابطان من موظفي المراقبة.

قبل أن نركب السيارات إلى قرية سوق السبت، على نصف ساعة من العرائش، حيث ينتهي الطريق المعبَّد، أو أثناء سيرنا إليها، أزيدك علمًا بالرفقاء؛ فالمقيم العام السنيور توماس غرسيًّا هو الكاتب الإسباني الأديب المخصِّص أبحاثه وتآليفه في الآثار العربية الأندلسية، وهو عضو في معهد فرنكو المؤسَّس لنشر المخطوطات العربية في إسبانيا، تجديدًا للثقافة العربية، وتوطيدًا للصلات الودية بين الأمتين. يحب العرب، ويقرن الإحساس بالعقل في تقدير فضلهم على الفلسفة الإغريقية التي أحيوها في الماضي، وجعلوها من أركان المدنية الأوروبية، والسنيور كريستوبال بيريز مستشار أملاك الدولة

[1] العمرة: الحج الأصغر، والقصد إلى مكان عامر، والزيارة التي فيها عمارة الود (القاموس).

في الإيالة المغربية يشارك زميله في الحكومة وفي معهد فرنكو حبَّ العرب والإعجاب بهم، وهو يُحسِن العربية ويساعد في إخراج باكورتها في مستهل سنة ١٩٤٠.

أما الرفيق الآخَر — والآخَرون أولون — فهو العلامة الشيخ عبد السلام الأزطوطي — آل أزطوط من الأقدمين في العرائش — كان قاضي الناحية، وهو اليوم مدير المعهد الديني الذي تقدَّمَ ذكره، والشيخ عبد السلام محدِّث كثير العلم والرواية، خفيف الظل ظريف، يرصع أحاديثه بالشعر على الدوام، فيرويه بلهجته المغربية، الشبيهة بزقزقة الحساسين، فتطرب لها ولا تفهم معناها. فهو يقول عن الزَّارع: الزُّرع، وعن عبد السلام: عبد سلَم، وعن حطه السيل من علِ: حطَّه سْيلِ مْنِ عْلِ. فهل يُفهَم معنى المد والتسكين والتخفيف والتفخيم في زقزقة الحسون؟ وهل ينبغي أن تفهم في لهجة صنوه الأزطوطي؟ — وفي الاثنتين من الكر والفر، والإقبال والإدبار، التوكيد والخفض، ما يدهش حتى جواد امرئ القيس — ولكني أسارع إلى اطمئنانك، فلا تخشى جلاميد الصخور، إنما ها هنا ثمار تتساقط من شجرة العرفان، وها هنا الدرر الشعرية من كل ديوان.

سألت الشيخ عبد السلام عن قرية في الطريق فقال هي سوق الثلاثاء، ولكل يوم سوق في مكان معين أو في قرية تُدعَى باسمه، هي الوسيلة الوحيدة للمتاجرة بين القبائل.

– وذلك الجبل عن الأفق الشرقي؟

– هو جبل بني غرفط محجتنا، وبنو غرفط — تُكتَب أيضًا بالجيم وتُلفَظ كما تُلفَظ بمصر — من صفوة العرب، يصح فيهم ما قاله امرؤ القيس في بني عوف:

ثياب بني عوف طهارى نقية وأوجههم بيض المسافر غُرَّان

وهم مثل كل القبائل مزارعون. قبيلة غنية؟ لا غنى في هذه المنطقة، الثروة والخير في الجنوب، ولكن التملُّك عندنا، في هذه المنطقة الشمالية، عام شامل؛ كل عائلة من أهل الأرياف والجبال تملك بيتها، وإن كان كوخًا، وتملك بعض الأرض تستغلها بالحراثة

والزراعة. مع ذلك هم في ظاهر حالهم فقراء، ولكنهم أُبَاة بُسْل، لا يستسلمون للظلم ولا ينامون على ضيم:

لا زينة المرء تعليه ولا المال ولا يشرفه عمٌّ ولا خالُ
وإنما يتسامى للعلا رجل ماضي العزيمة لا تثنيه أهوالُ

كنَّا نمر بغابات من شجر الفلين، ولم أكن أعرف لها اسمًا غيره، فقال: هو الدلم واحدته دلمة.

وهذا شجر التين في سياج من الصبير، فقال: يُسمَّى التين عندنا كرموس، والصبير التين الهندي.

سألت الشيخ العلَّامة: وما أصل لفظة كرموس؟ هل هي عربية مُبَرْبَرَة؟ فأجاب: قد تكون محرَّفة من القرموط، فقُلِبت القاف كافًا والطاء سينًا، والقُرموط هو الأحمر من ثمر الغضا شبيه بالتين.

وبينا نحن سائرون في سهل تتخلَّل زرعه بقع بيضاء، قال مشيرًا إليها: وهذه صفحات كتاب بهامشها بياض الأقحوان. اسمه واحد عندنا وعندكم، قال الشاعر متغزلًا بمبسم الحبيب:

بالله يا أقحوان مبسمه على قضيب الأراك مَن نظمك؟

وهذه شقائق النعمان، يقال الشقائق للمفرد والجمع، وقيل مفرده شقيق، وعليه قول الشاعر:

وكأن محمَّر الشقيـ ـق إذا تصوَّب أو تصعَّد
أعلام ياقوتٍ نشر ن على رماحٍ من زبرجد

وقال أيضًا:

لا تعجبوا من خاله في خده كل الشقيق بنقطة سوداء

كان الشيخ يروي الشعر ونحن في السيارة، فتزكي هزهزتها لهجته المغربية، فتخفى عليَّ معانيها، فاستكتبته الأبيات عندما وصلنا إلى مركز المراقبة المحلية بقرية سوق السبت.

وقد لزمته أو لزمني ونحن نطوف بالمركز مع المراقب المحلي، وهو يزيدني من بحر علمه وأدبه، فكان أول ما نبَّهَني إليه مشهد الجبال من رواق الدار.

– تلك الجبال بعضها فوق بعض تُسمَّى بالعربية الفصحى النطُق، ومنها المنتطق أي العزيز الرفيع الشأن. قال الشاعر:

وأبرح ما أدام الله قومي على الأعداء منتطقًا مجيدًا

وعندما كان المراقب يحدِّثنا عمَّا يُربَّى في المركز من الدواجن، وقفنا أمام بيت الحمام فحاولت مجاراته في رواية الشعر، فذكرت بيتًا للمعري من قصيدته التي مطلعها: «غير مجد في ملتي واعتقادي»:

أبَكت تلكم الحمامة أم غنَّت على فرع غصنها المياد

فقال على الفور: لا بكت ولا غنت، الحمام لا يبكي يا أستاذ ولا يغني، الحمام يقرقر. يقال: قرقرت الحمامة، أي صاتت، والقرقرير صوت الحمام. قال الشاعر:

وما ذات طوق فوق عود أراكة إذا قرقرت هاج الهوى قرْقريرها

وبعد أن طفنا بالمركز فشاهدنا المختبر الزراعي، ونماذج من محصولات تلك الناحية — من الحبوب والصوف والفلين — ووقفنا أمام بيت الأرانب المبني بالخشب والشريط على الطريقة الفنية الحديثة، وهو مثل بيت الحمام بنظافته الأوروبية، واستعرضنا الخيل العربية وغير العربية، الإسبانية المغربية اللقاح؛ دخلنا ملجأ الأيتام ومدرسته التي يتعلَّم فيها نحو أربعين ولدًا اللغتين العربية والإسبانية، فحيَّاهم الشيخ العلامة ببيت الشعر المعروف:

ليس اليتيم الذي قد مات والده إن اليتيم يتيم العلم والأدب

وكل ما في هذا الميتم من الغرف، غرف الدرس والأكل والنوم، تنبئ بحسن الإدارة والاعتناء، فقلت لرفيقي العلَّامة: هذا مثال يجب أن تتخذوه في معهدكم الديني — الإدارة، النظافة، الثقافة — فهزَّ رأسه مبتسمًا، وقال:

يدق على الأفكار ما أنت فاعل   فيترك ما يخفى ويؤخذ ما بَدَا

قلت: وهل للتصوف يد في نسيج العنكبوت على جدران المعاهد الدينية، وعلى عقول الطلبة وأرواحهم؟

فقال: التصوف هو الحياة، يا أستاذ، والحياة هي التصوف، ولقد أحسن الشاعر في قوله:

خُذْ بنصل السيف واترك غمده   واعتبر فصل الفتى دون الحللْ

مرقب سوق السبت هو واحد من ستة مراقب محلية في هذه الإيالة الغربية، أما الخمسة الأخرى فهي: أصيلة، وسيدي علي، والقصر الكبير، وتطَّاف، ومسراح. وفي كل ناحية من هذه النواحي قبيلة معروفة بعلو منزلتها، وشدة بأسها بين القبائل، كالخلوط في القصر الكبير، وأهل سريف في تطَّاف، وبني عروس في سيدي علي، وبني غرفط في سوق السبت هذه، ولها كلها قوَّاد، أي حكَّام مخزنيون، يرقب أعمالهم المراقبون المحليون المرتبطون جميعًا بالمراقبة العامة بالعرائش، التي تتلقى الأوامر العليا من نائب الأمور الوطنية بتطوان، وهو الموظف الأول، بعد المقيم العام، في حكومة الحماية. هذا التنظيم الإداري يشمل الإيالات الأخرى في المنطقة.[٢]

---

[٢] وهي:

الإيالة الجبيلية: المرقب العام بتطوان تتبعه ستة مراقب محلية.

الإيالة الغمارية: المرقب العام بشفشاون تتبعه ثمانية مراقب محلية.

الإيالة الريفية: المرقب العام بسان خورخو يتبعه اثنا عشر مرقبًا محليًّا.

الإيالة الشرقية: المرقب العام بالناضور تتبعه ثمانية مراقب محلية.

ومما هو جدير بالذكر أن للمراقب العام حق التصرف بكل ما في إيالته من قوات التنفيذ والأمن والنظام، أي الشرطة والقوة المخزنية المؤَلَّفَة من عدد يتراوح بين الخمسين والمائة «مخازني»، ثم «الحملة الخليفية» أي جند تلك الناحية، لإخماد نيران الاضطرابات والفتن إذا اقتضى الأمر.

ولا خوف اليوم — ولا غدًا إن صدقت العهود الوطنية، وهي إن شاء الله صادقة — لا خوف، أقول، من الفتن والاضطرابات. إذن، وقبل أن نستأنف السير إلى السُّدَّةِ القدسية في الجبل، يجب أن أسجل هذه الكلمة: إن الحكومة الوطنية المخزنية لتتضاءل إزاء الحكومة الإسبانية الحامية، وإن هذه المراقبات بأصولها وفروعها هي فوق ما تقتضيه أحوال المغرب الحاضرة، الممتازة بالصلات المغربية الإسبانية الطيبة، وبعقلية أهل المغرب السلمية الولائية في عهد الجنرال فرنكو.

أما بعدُ — وما بعدَ ذلك غير الرحيل — فها هو ذا السائس جاء يقول: الخيل حاضرة. وها هي ذي الشمس تكاد تتكبد السماء، ولكنها في جميع أطوارها لا تنفذ إلى الساحة التي يشملها — وقُلْ يذلُّها — الزيتون البري العتيق بالفيء الدائم.

نزلنا إلى هذه الساحة أمام دار المراقبة، وامتطينا الجياد جميعًا إلا شيخنا الأزطوطي الذي شاء أن يحافظ على العادة القديمة؛ عادة العلماء أصحاب التَّجِلَّةِ والكرامة، فاختار لنفسه الحمار الوحيد بين الخيل، وراح يسوقه برفق، فلا يبعد عن الموكب، ولا يتعدَّى الوسط منه، وخير الأمور الوسط. فكنت أراه غالبًا أمامنا، وراء الطليعة من الفرسان المغاربة شاهري البنادق.

الوسط للعالم الحكيم، ونحن نحمي المؤخرة كما تحمي الطليعة المقدمة، فنسير سيره تصعيدًا في الجبل، ونطلق العنان للخيل اقتداءً به، هو المقتدي بالفرسان، عندما يبلغون سهلًا يحلو فيه العدو رملًا أو خببًا. هَرَأ قصدنا وأنت السبيل!

وعندما دنونا من هرأ، رأينا جماعة تمشي إلينا ومعها نوبة بطبلين وزمرين. هو وفد من أهل هرأ جاء يرحِّب بنا، فشرعت النوبة «تموسق» بحماسة حربية. رقصت لها الخيول طربًا، ورفعنا لها الأيدي شكرًا وإعجابًا، فزادها ذلك عنفًا وتفنُّنًا، فضاق الفضاء بزخر أنغامها، وأنَّتِ الأصوات التي تتموَّج فيه من إذاعات العالم، فرأينا أن نقف قليلًا رفقًا بهم وبها، لعَلَّها تقتدي بنا فيستريحون ونستريح!

ثم استأنفنا السير مخبِّين، فهرول «المموْسقون» مع وفد الترحيب وراءنا، إلا واحدًا منهم راح يبارينا في العدو وهو مستمر — لله درُّ أبيه وأمه — في التزمير، وقد سمعت الشيخ الأزطوطي يثني عليه ببيت من الشعر، فهمت منه كلمتين «صفير البلبل» لا غير.

وبينا نحن في هذه البهجة من الفرار، لاح عند سفح الجبل بياض كالثلج مديد، غطَّى الاخضرار على صدره وفي جنباته، وكلما دنونا منه بَدَا متموجًا متدافعًا. فما عتمنا أن تبيَّنا الحقيقة المجسمة في ذلك اليوم، حقيقة العمارة والمعتمرين بثيابهم البيضاء. هناك ألوف منهم، رجال ونساء وصبيان وبنات، هناك كبار القبيلة وصغارها، حتى الأطفال تُحمَل على ظهور الأمهات، خرجوا من القرية وجاءوا من المشادر المجاورة لها، ومن القبائل الموالية، يشاركون في عمارة الخضر غيلان.

بلغنا بعد التصعيد الساحة الكبرى، وفيها الجموع تزدحم وتتدافع، وقد فسح بوسطها لجوقة أخرى من «المموْسقين»، وشُقَّت السُّبُل لخيلنا، فوقفنا في حلقة هناك كحرس للساحة ومَن فيها. قدَّسَ الله سرك يا ولي الله! فها هم أولاء رسل البركة وأركان المجد، بل أرباب الطرب في إحياء المجد ونشر البركات. ها هي ذي الطليعة من أقمارك وأنوارك؛ ستة من الزنوج بأثواب مسرحية، مطرزة بالرقع والخرق، مزدانة بالودع والعظام، ستة من ظرفاء السودان، بخلاخيلهم وأساورهم والقلادات والتيجان والأجراس تتقلقل على الرءوس، وتتجلجل على الأرداف، ستة من مؤمني السودان، وفيهم الشيخ الملتحي، والشاب المستحي، والمريد، ومرقِّص العبيد. كلٌّ يحمل بكلتا يديه شُقيقات من حديد، في حجم النعل الكبيرة، بحلقات من جلد يدخل بها الإبهام والسبابة، ستة باثنتين. اثنتي عشرة آلة من آلات الطرب، اثني عشر صنجًا من النحاس بل الحديد، لها صوت من مجموع فنها يفعل بالجلمود فعل الديناميت، فكيف به إن أُطلِق على بني آدم؟ ولكن الجلادة في بني آدم جلاميد، تكونت والإحساس في العهد الآدمي الأول منذ الآلاف من السنين. فهات ما عندك يا سودان!

والغريب العجيب أن هذه النوبة السودانية هي ذات وتر واحد، ووزن واحد، ونغم واحد: ترا تاتاتا، تراتا تُمْ — بتسكين الميم في تم وتشديدها — ولا تنسَ أن الديباجة في الصوت حديدية، لا حرف لها ولا ظل، لا هالة ولا صدى. تراتا تم! ولا دونها دون. تراتا تا تا! ولا سر مكنون، ولا حذلقة في الجنون!

ربع ساعة منها، رافَقَها الرقص الأفريقي المتولد من مطاردة الحيوانات الضواري والفوز والإخفاق فيها، فيشب من الحلقة إلى وسطها ذلك الذي بلغ منه التهيج أقصاه، ويدور دورات على محوره ثم يقفز قفزات لولبية، ثم يمشي على رءوس أصابعه، ويثب بعدها وثبات عنيفة، ثم يجثو على ركبته ويغطي الأرض بصدره ومنكبيه، فتظنه لصق بها وسكن وارتاح، وما هو غير مخادع، فيفاجئ الناس بوثبة نمريَّة، ثم بفتلة درويشية، يجعلها الخاتمة، ويعود إلى شقيقاته «تارا تا تا» فيستأنف غيره الرقص، ولا تغيير في البرنامج ولا تبديل.

وبعد انتهاء دور السودانيين يتقدَّم إلى وسط الساحة شيخ القرية وخطيبها، وهو شيخ جليل بصوت جلاجل، ويبدأ بسم الله الرحمن الرحيم … إلى آخِر الفاتحة، ثم يُلقِي خطبة تنسينا ما قاسينا، والمصائب سحائب ينسخ المتأخر المتقدم منها. فمن ذِكْر نِعَم الله على عباده، وبركات المولى في شعبه وبلاده، يستطرد، ولكن قبل الاستطراد يذبح ثلاثين دقيقة من الزمان — ضحايا العيد — وهو يذكر ويردِّد ويعدِّد نِعَم الله وبركات المولى؛ ثم يستطرد إلى الأدعية، الأدعية الخالصة الحارة، الأدعية المضمخة بطيب القلوب أولًا للزعيم الأكبر — الجننار — الجنرال فرنكو، ثم للأمة الإسبانية، ثم للخليفة مولاي الحسن، ثم للمسلمين، ثم لمجادة المقيم العام، فالمراقب العام، فالمراقب المحلي. وكلما انتهى الدعاء، وهو خطبة بنفسه، يمسح الخطيب وجهه بيديه مسبِّحًا متوسِّلًا، فيهتف الناس مرددين كلماته الأخيرة — ويمنُّ الله عليه بالخير الغزير آمين، وبالهناء الكثير آمين، وبالنعمة والتعمير آمين، بالتوفيق في حسن العمل والتدبير آمين، آمين.

سكوت تحل فيه البركات، سكون يعيد النسمات المنعشات، فيتقدم المراقب العام من الخطيب، ويقدِّم له هدية من المال، فيتبعه المقيم المحلي بهدية مثلها، وبعد ذلك نستأنف السير راكبين — ما ترجلنا أثناء النوبة والخطبة — إلى أعلى بيت في القرية، بيت أنسباء الولي، وهو صغير حقير أمامه تينة كبيرة جليلة فُرِشت تحتها السجاجيد.

وكانت نساء المراقبة المحلية، الإسبانيات زوجات الموظفين وبناتهم، قد تقدَّمننا إلى ذلك المكان، فاحتللن ساحة الاستقبال منه، وتركن لنا البيت الصغير ذا السقف القائم والباب الضيق، الشبيه ببيوت اليمن القرويين، فجلسنا للغداء في زاوية منه، وجلس وجهاء القبيلة في الزاوية الأخرى.

كنتُ أظن أن قبائل المغرب، مثل عرب البادية في مآكلهم، يقتصرون على البسيط منها، فلا تتعدَّد الألوان ولا تتجاوز في الإسراف اللحم المسلوق مع البرغل أو الأرز؛ فأخطأت الظن، وقد دهشت بما شاهدت من تفنين المغاربة، بدوهم وحضرهم، في طبخ

اللحوم، وهم قلَّمَا يعنون بغيرها للضيافة، فالكسكس مثلًا، طبختهم الوطنية المشهورة، لا تُقدَّم للضيف؛ لأنها طبخة بيتية.

على أنهم في طبخ اللحوم، وتعدُّد أنواعها، من أمهر الشعوب المتحضرة علمًا وفنًّا، لا ينقصهم غير ذوق الغربيين في التهيئة والتقديم، وقد يبزُّ المغاربة حتى أمهر طهاة الفرنسيين في أنواع طبخ اللحوم. البرهان والدليل؟ ليس عندي غير هذه المأدبة المغربية الغرفطية؛ فبعد المعلاق المشوي على الشياش، والقوزة التي لا تمتاز عن أخواتها في اليمن والحجاز، جيء باللحم — بأقسام كبيرة من الخرفان ضحايا العيد — المشوي منه بالفرن، والمسلوق، ثم المحمَّر، يتلوه المخمَّر فالمجمَّر فالمعمَّر.

ليمسك القاري. فإني شارح موضِّح؛ فاللحم المجمَّر هو المشوي على الحجر، والمخمَّر ليس بالخمر، بل شيء أفعل من الخمر في دغدغة اللهات، بالإدام الكثير الأبازير، والمعمَّر هو الخروف المحشو، والسر في الحشو، كل الصيد في جوف الفرا.

وهاكم البرهان يقدِّمه الشيخ الأزطوطي؛ إذ يشمِّر عن ساعده، ويمد يده إلى جوف الخروف، وهو يقول: كنت مفتشًا بالجمرك … ثم يُخرِج بيضة، ويرفعها بين أنامله، كأنه ساحر على مسرح عمله، ويشقها ليرينا أنها هي أيضًا محشوة، وفيها الجوز واللوز والزبيب واللحم المقطع المغموس في الأبازير.

شغل مفتش الجمرك: وهل البيض من المهرَّبات؟ فمد يده ثانية، وأجالها جولات كاشفات، فعاد بها إلى أنظار الضيوف، وهي تحمل كليتين، قدَّمَ الواحدة للسنيور غرسيًّا والأخرى لي، ثم أعاد التفتيش وأخرج كليتين أخريين، فسأل البستاني ضاحكًا: ألهذا الحيوان أربع كلى؟ فأجاب الأزطوطي دون أن يضحك أو يبتسم: وأكثر من أربع؛ كليتان اثنتان حلال من الله، والباقي حرام — مهرَّب — مثل البيض.

ولا يفوتني أن أخبرك أنهم يتفننون بطبخ الدجاج تفنُّنهم بطبخ الغنم والبقر، ومن عاداتهم في المآدب أنهم يقدِّمون دائمًا أربع دجاجات — محمرة أو مجمَّرة أو مخمَّرة أو مبخَّرة — في جفنة واحدة. أربع دجاجات أقل ما يكون، وقد تتعدَّد الجفنات، وفي كل منها أربعة طيور — ما عرفت السر في هذا العدد، ولا أحد ممَّن سألت أزال جهلي أو بعضه، فالمعلوم هو أنها عادة القوم.

وهناك بعد كل ما تقدَّمَ، وفوق كل ما أذكر، هناك اللحم المشرْمل، أي المغموس بعد القلي بإدام كثيف يخالطه السعتر. هذا الإدام يُدعَى شرمولة، يغمس بها فخذ اللحم مثلًا أو الدجاجة أو السمكة حتى تصير كالغشاء الخارجي أو الدثار اللاصق بجسم الحيوان المطبوخ.

بقي أن أقول إن اللحم المبخر هو أفخر اللحوم وألذُّها، وهو يطبخ بقدور ثلاث، قِدْر للماء فوق الموقد، وقِدْر يتصل بها للبخار، فيخرج من ثقوب فيها إلى القدر الثالثة المحتوية على اللحم أو الدجاج.

أما الشراب، فليس منه غير الماء القراح. أفلا يشعر المغربي يا تُرَى بشعور الأوروبي بوجوب الخمر لتعديل الأدهان في هذه الوفرة من اللحوم؟ اغسل الورك بكأس من النبيذ أو بكوب من الجعة — كذلك يقول الفرنسي أو الإنكليزي. فيقول العربي الذي لا يرى في الحرمان غير البركة: القهوة المرة خير من النبيذ. ويقول أخوه المغربي: الشاي خير من القهوة المرة. وقول أخيهما العربي المسيحي: الحق كله في الكلمتين، وفيما قاله السيد المسيح. فيشرب الخمر قليلًا أو كثيرًا، ويشرب الشاي والقهوة، ولا يبالي.

نقلنا من البيت المظلم إلى نور الحرم تحت التينة، فجاء شيخ من مشايخ القبيلة يرفل ببرنسه الأبيض الفضفاض، وقد طيَّبَ لحيته السوداء بعطر الورد إكرامًا للولي وعيده. جاء يقوم بالعمل الذي يختص عند الإنكليز بربة البيت، فجلس وظهره إلى جذع الشجرة أمام أواني الشاي — العفو الأتاي — ثم جاء الخادم بالأتاي الأخضر وبطاقة من النعنع، فاختار منها الأطراف الطرية، وتناول حفنة من الأتاي وضعها في الإبريق مع النعنع، ثم أضاف السكر، وصَبَّ الماء الحامي من السموقار أمامه.

انتهى القسم الأول من الرتبة — وهي تكاد تكون دينية — فوضع راحتيه على ركبتيه، أحنى رأسه احترامًا لما أودعه الله في هذا الخلط الكريم، ثم صَبَّ قليلًا منه في كأس الزجاج فذاقه، وشرع يصب للضيوف.

وبينا نحن نشرب الأتاي طلع علينا أولئك السودانيون، وعادوا إلى تطريبنا — وزان تعذيبنا — بآلات الحديد «ذيالهم»، فسارعنا إليهم بشيء من المال، قدَّمناه مع دعاء من أدعية خطيب القبيلة — دعاء واحد بآمين مكررة.

ثم عدنا إلى الساحة الكبرى عبر الوادي، حيث تتزاحم الأشجار والأدغال مثل جموع المعتمرين، وقد ملئوا كل درب بين الربى، وكل بقعة منها غير مزروعة.

وكان أشد الزحام في الساحة الكبرى، فاخترقنا الصفوف إلى وسطها، فإذا هناك الراقصون والراقصات، وحلقات الذكر، وغير الحلقات. لقد شاهدت في البلاد العربية حلقات ذكر كثيرة، شعرية ودينية وبهلوانية، في نور القمر ونور الزيت ونور الكهرباء، وهي كلها للرجال، لا نساء بين الراقصين، ولا بين المتفرجين.

وهاكم في المغرب النساء والرجال في الحلقات وخارجها، اليد باليد ها هنا، فيثبون جميعًا ويحجلون، والصدور للصدور، فيهزون الرءوس إلى الأمام وإلى الوراء هزات عنيفة ويقعسون، وهناك الحلقات غير المختلطة، حلقات الرجال وحلقات النساء.

وهاكم من النساء المتفردات كل واحدة حلقة بنفسها ولنفسها، وبينهن الصبايا الحسان، وقد احمرت خدودهن، وانحلت شعورهن، وذبلت عيونهن من الاهتزاز العنيف المستمر، فهن يهززن الرءوس والصدور والأرداف، والعيون منهن شاخصة إلى أعلى، أو إلى لا شيء أمامهن؛ فتراهن غائبات ذاهلات هائجات مشغوفات بما لا يعلمه غير الله، أو بمَن لا يعرفه بعدَ الله إلا هن.

هي عمارة الخضر غيلان بمظاهرها الدرويشية، وبما يضطرم في صدور النساء والرجال والفتيات والفتيان، من التشوقات الروحية والجسمانية.

وبعد قليل تغرب الشمس على هذا المشهد الغريب — وسيغدو الإسلام غريبًا في دياره — فلا يرى، حتى العمارة القادمة في العام التالي، من أثر القداسة غير ضريح الولي في رأس الجبل، ولا يرى في ساحة المهرجان غير أثر الجنرال فرنكو التذكاري — حوض الماء والمسجد والمدرسة — لتعزيز «الصداقة» الإسبانية المغربية.

الولي – المدرسة – الصداقة الإسبانية المغربية؛ لَمَن البقاء؟

منذ عهد الكهان والكواهن في بابل وآشور ومصر، وفي بلاد اليونان والرومان والفينيقيين، كانت نساء البربر في المغرب يتعاطين السحر والتكهُّن.

وكانت لغمارة، التي لا تزال من أكبر قبائل البربر، نبي اسمه حاميم بن منن الله، تنبَّأ سنة ٣١٣هـ بجبل حاميم القريب من تطوان، فشرع الشرائع وقلد القرآن، فكان يتلو من كتابه ذاك على الناس بلسانه العربي البربري، وكانت عمة حاميم كاهنة ساحرة، وأخته كذلك، فتستغيث القبيلة بهما في الحرب والقحط.

قال ابن خلدون: وظهر فيهم نبي آخَر هو عاصم بن جميل، له أخبار مأثورة، وما زالوا يفعلون السحر إلى هذا العهد. أي عهد ابن خلدون.

وما زالوا يرقصون رقصة السحر والكهانة، رقصة الأسرار الروحية وقد اختلطت بالأسرار الجنسية — الشقية المكبوتة بلغة علم زماننا — ليس في غمارة فقط، بل في غرفط وغيرها من القبائل.

على أن الأولياء حلوا محلَّ الأنبياء، وحلَّت السواحر محل الكواهن، أما السحر فإن أكثر منتحليه «النساء العواتق» كما يقول ابن خلدون، ولهم كما للرجال — في زماننا

كما فيما مضى — «علم استجلاب روحانية ما يشاءونه من الكواكب، فإذا استولوا عليه وتكنفوا بتلك الروحانية، تصرَّفوا منها في الأكوان بما شاءوا، والله أعلم.»

ويجب أن أقول فيما يختص بسواحر المغرب الحاضر إنهن لسن كلهن من «العواتق»؛ فقد شاهدت بين نسوة بني غرفط الراقصات الذاكرات «المستجلبات روحانية الكواكب»، عددًا غير قليل من الصبيات الجميلات الوجوه والعيون والقدود.

هي الطرق وشعابها الجنسية، المكنونة والمكشوفة. هم الأولياء وأشياعهم، وفيهم الطالب والطالبة لوجه الله، والساحر والساحرة لوجه الحبيب في الحياة الدنيا، ولهم الزوايا التي لا تُحصَى.

أما الطرق نفسها فهي ستٌّ في المغرب، أذكرها بحسب أهميتها وانتشارها، وهي: القادرية،[٣] والدرقاوية، والتيجانية، والناصرية، والكتانية، والعيسوية، نسبةً إلى محمد بن عيسى المولود في مكناس.

وأما الأولياء فإني أعيد القول: ما أكثرهم في هذا المغرب! وإنهم لفي ازدياد على عقم الزمان في القداسة؛ فأصغرهم سنًّا — في الولاية — هو سيدي محمد بن صديق أخَمْليش، المتوفى منذ اثنى عشر عامًا، والمدفون بقبر ذي قبة في قبيلة بُونصار.

إن قبور الأولياء جميعًا بقباب، عدا قبر القطب الأكبر عبد السلام بن المشيش، فقد كان عبد السلام يقول: إن جسده ليس أحسن من التراب، وأراد أن يكون قبره من التراب بمستواه، لا قبة فوقه ولا بناء، فكأنه وهابي في هذا يقول قول الوهابيين: خير القبور الدوارس.

ومما هو جدير بالذكر أيضًا أن أكثر أولئك الأولياء كانوا في حياتهم أصحاب كرامات، ولا يزالون في مماتهم يصنعون العجائب، فيشفون المرضى والعواقر والمجانين، مثل إخوانهم قديسي لبنان.

قيل لي إن سيدي هِدِّي في بني عروس يشفي المجانين، ولكن طريقته غير طريقة الرهبان في دير قزحيا بلبنان، طريقة سيدي هدي علمية عصرية تختص بتربيته؛ فهو مدفون في مكان قريب من تزروت يتفشَّى فيه نوع من الحمى التي تصعد سريعًا إلى الدماغ، فتتغلب على ما به من مرض أو اختلال، فإذا جيء بالمجنون إلى ذلك المزار لا

[٣] والقادرية أغنى الطرق في أوقافها؛ فإن لها من المساجد والجوامع والزوايا ما يزيد على المائة.

يلبث أن يصاب بتلك الحمى، فتصعد توًّا إلى رأسه، وتطرد الشيطان منه — تشفيه من الجنون. إنها لعجيبة العجائب، فالمعروف أن الحمى، إذا ما تصاعدت إلى الرأس تجنِّن صاحبها! وبجوار سيدي هدي تفعل عكس ذلك؛ تعقل المجانين.

أما الخضر غيلان، فقد كُتِب اسمه في سفر المجاهدين قبل أن كتب في سفر الأولياء الأبرار. هناك بطنجة، في السهل القريب من وادي اليهود، كان معسكره، يوم كان البرتغاليون محتلين تلك المدينة، فجاهَدَهم سبع سنوات (١٦٥١–١٦٥٨) حتى يئست البرتغال من طنجة، فأهدتها إلى الإنكليز.

وأما قبيلته فإنها تهتم، مثل أكثر القبائل، بالزراعة قبل كل شيء، وهي تمتاز عن سائر قبائل هذه الإيالة بما تنتجه من الجلبان — البازلة — كما تمتاز بأحباسها الغنية التي يبلغ ريعها السنوي عشرين ألف بسيطة، رجل في الأرض ورجل في السماء. شأن بني عروس، أكثر القبائل وجاهة، وأشدها بأسًا، وأغناها بالمساجد والجوامع والزوايا. قيل لي إن فيها أكثر من مائة ولي، مهما يكن في القول من المبالغة، فالعدد الصافي المحقق يظل كثيرًا. إن الأولياء بروحانيتهم — أو بعجائبهم — لا بعددهم، وإن منهم في بني عروس: عبد الرحمن شريف، وسيدي يندر، وسيدي علي الريسوني، وسيدي محمد الريسوني. هذه العائلة هي من أوجه عائلات القبيلة، وقد بسطت نفوذَها على أكثر القبائل في أيام زعيمها الأكبر الشريف أحمد الريسوني.

وفي هذه الإيالة، في ديار بني عروس، أشهر جبال المغرب، هو جبل العلم، محجة المؤمنين والوطنيين، حيث تحفظ عظام القطب الأكبر، والولي الأشهر، عبد السلام بن المشيش، وحيث تجلس روحه الطاهرة لتستريح، ثم تستأنف حراسة المغرب.

من قمة ذلك الجبل ترى كل مدن هذه الناحية من المغرب الشمالي: أصيلة والقصر الكبير وطنجة وتطوان وشفشاون، ومن تلك القمة، من ذلك الجوار القدسي الوطني، نظر أحمد الريسوني إلى هذه البلاد ولسان حاله يقول: هي بلادي، وسأخلصها من حكم الأجانب.

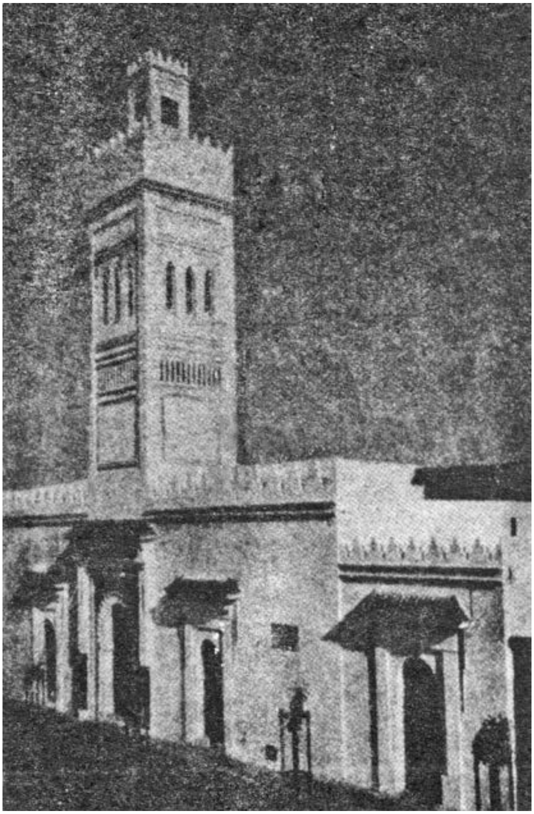

مسجد القادرية.

الفصل الثامن

الشريف أحمد الريسوني[1]

عندما جلس السلطان الولد عبد العزيز على عرش أجداده، بعد وفاة والده السطان الحسن في سنة ١٨٩٤، أدخل الله الرحمة على قلبه أو على قلب بعض الصالحين في بلاطه، فصدر الأمر السلطاني بالعفو عن سجين في الصويرة هو الشريف أحمد الريسوني.

كان للشريف أحمد يومئذٍ نحو أربعين عامًا من هذه الحياة الدنيا، قضى ثلاثة منها في ذلك السجن مكبَّلًا بالحديد، جزاء ما تقدَّم من ذنوبه في طرق المغرب وجباله، بعد أن كان يقطع الطرق على الطريقة البدوية الشريفة: اللهم لنا وللمحتاجين!

أما الدافع به من ركن داره إلى الطرق السلطانية يقطعها على رعايا السلطان، فهو أنه في تلك الأيام من شبابه المتأخر جاءته امرأة تشكو رجالًا سرقوا بيتها وقتلوا زوجها وولدها؛ فجاشت في صدره الحمية، فدعا بعض صحبه الشبان للجهاد في سبيل تلك المرأة المنكوبة بنكبات ثلاث، فلبوا الدعوة مهللين مكبِّرين، ثم أركبوا المنكوبة فرسًا، واندفعوا وإياها يبحثون عن اللصوص، فأدركوهم في إحدى الأودية وقتلوهم جميعًا. أما الغنيمة، فقد أعطوا المرأة ما سُرِق من بيتها، وأخذوا هم بغال اللصوص وسلاحهم.

---

[1] في هذا الفصل خلاصة أخبار وأحاديث مدونة وغير مدونة؛ أما الأولى فقد جاءت في كتاب «سلطان الجبل» للكاتبة الإنكليزية المعروفة برحلاتها الأفريقية والعربية، السيدة روزيتا فوربس التي زارت الشريف الريسوني في مقره بتزروت، بعد أن سكنت حركاته، وأقامت في ضيافته بضعة عشر يومًا تدوِّن أخباره وأحاديثه قدر ما كانت تفهم من لهجته المغربية. وأما غير المدونة، فهي التي جمعها الكاتب من شتى المصادر المغربية والإسبانية، فهي تكمل الرواية الإنكليزية في بعض المواضع، وتمحصها وتصحِّحها في بعضها الآخَر.

ولكن المرأة لم تكتفِ بأن يُرَدَّ إليها المسروق، بل دنت من جثة الرجل قاتل زوجها، فقطعت رأسه بيدها ونبذته قصيًّا لتفصل روحه عن جسده، فيكون ناقصًا يوم القيامة!

قال الشريف أحمد: تلك المرأة علَّمتني أن الخير ليس في الكتب، بل فيما يقوله بني مصوَّر، قبيلة أمي، وهو أن المصوَّري يُولَد في السرج والبندقية بيده.

حصان وبندقية، والسلام على سلطان الرعية!

والأمان والخير للمظلومين والفقراء، فقد كان الشريف أحمد أعرابيًّا قحًّا، يطيب له الأخذ والإعطاء، نهَّابًا وهَّابًا، موزِّعًا لخير الله وعدله، يدافع عن المظلومين، ويساعد الفقراء، ويظلم سواهم في سبيله تعالى؛ فتطوَّرت مهنته، وصار يشن الغارات على القرى، فينهب الأموال، ويؤدِّب الرجال، ويفرض مشيئته، ويوزِّع خيره على الناس.

فقال الناس: ما هذا بقاطع طرق، هذا قائد رجال، فارس فرسان. وردَّدَتْها القبائل، فانضم تحت لوائه كثيرون من بني عروس قبيلته وبني مصور قبيلة أمه، ومن أنجَرَا وغيرها؛ فصار رئيس العصابة قائد جيش يشتهي الحرب.

وكانت أخبار الريسوني تصل إلى فاس فتزعج السلطان في قصره، فصبر وتحقق، ثم أرسل عليه فرقة من الجيش؛ فحاربها وبدَّدَ شملها.

قال الشريف: كانت عساكر مولاي الحسن تتردَّد في محاربتنا، وتنذرنا فنفر هاربين، وكان بعضهم وهم فقراء جياع، يبيعوننا السلاح والذخيرة «ذيالهم».

وعندما تقع الوقعة والتذبيح، كان الريسوني ورجاله يلبسون أثواب مَن يقتلون منهم — كما كان يفعل البدو في الأحساء بالأتراك، قبل أن أخرجهم منها ابن سعود — ويدخلون القرى فينهبونها باسم الحكومة المخزنية.

حصان وبندقية، والسلام على سلطان الرعية.

ضجَّتِ البلاد من هذه الصولات والغزوات، وعجزت عساكر المخزن عن القبض على الريسوني، فعمد السلطان إلى الأسلوب الناعم يأمر به معتمده بطنجة، فأغرى المعتمد الريسوني بالوعود، فجاء طنجة آمنًا مطمئنًا، ونزل في دار الاعتماد ضيفًا كريمًا، ثم أُرسِلَ مكبَّلًا بالحديد إلى صوَيْرة، حيث ذبحت الثلاث السنوات من حياته، وذاق هو الشديد الشديد من العذاب. «ظل الحديد على رجليَّ ويديَّ وعلى عنقي والله ثلاث سنوات.»

فلا عجب إذا دخلت التوبة قلبه بعد أن خرج من ذلك السجن، ولا عجب إذا صار التقي التائب فقيهًا يعلِّم القرآن، إنما العجب لقداسة تفسدها السياسة، أو لسياسة تفتح القداسة أبوابها!

كانت شئون المغرب يومئذٍ في اضطراب داخلي وخارجي؛ فالفرنسيون والمنافسون لهم يستغوون السلطان الشاب بالهدايا، والقبائل في الجبال تلبي دعوة ثائر باسم الدين يُدعَى «بو حمارة»؛[٢] فهاج هائج الريسوني وفي قلبه شعلة من الحب لبلاده، أيضلِّل الأجانب السلطان الولد ويخادعونه ابتغاء السيطرة على بلاده؟ أيثور عليه شريف كاذب باسم الدين، والريسوني المنحدر من السلالة النبوية ساكت قابع في بيته؟ إنها لمن المخجلات! إنها لمن المنكرات!

دعا الريسوني رجاله، وشرع يؤلِّف جيشًا من القبائل؛ ليقوم بثورة عامة على الحكومة المخزنية، فيستأصل شأفة «الولي» الكاذب «بو حمارة»، ويوقف الأجانب في طغيانهم، وما عتم أن باشَرَ العمل، بل عاد إلى سالف سيرته.

خرج على السلطان دون أن يقلع عن قطع الطرق، وتفنَّنَ في جولاته وصولاته، فصار يخطف الرجال ذوي الوجاهة واليسر، ويحفظهم رهائن إلى أن يدفع أهلهم الفدية المعينة من المال.

وكانت مطامحه تكبر، وجسارته في تحقيقها تزداد يومًا فيومًا، حتى إنها شملت طنجة، وكر السياسة الدولية، ودهاقينها القناصل. فقال يخاطب نفسه: ها هنا الفدية الكبرى، وها هنا البوق بل الأبواق تذيع اسمك في أوروبا وأميركا فتلفت إليك وإلى قضيتك الدول كلها.

وقرَّرَ الريسوني أن يخطف قنصلًا من القناصل، وأن يخص بهذا الشرف قنصل الولايات الأميركية المتحدة إيون برديكاريس.[٣]

كان للريسوني في خطف القنصل الأمريكي وعائلته ثلاثة أغراض: أولها الفدية، وثانيها الأمل بتدخُّل الحكومة الأمريكية النزيهة في شئون المغرب فتدفع عنه تعدِّي الدول الأوروبية، وثالثها الدعاية للقضية الوطنية وحامل لوائها الشريف الريسوني.

ومَن هو هذا الريسوني؟ تساءلت الصحف والوزارات يوم حمَلَ البرق إلى عواصم العالم اسمه واسم القنصل المخطوف، فجاءت الأجوبة تترى: هو لص من اللصوص … هو بطل من الأبطال … هو رئيس عصابة تقطع الطرق … هو زعيم نهضة وطنية … هو خارج على سلطان المغرب … هو ثائر على النصارى في البلاد المغربية.

---

[٢] راجع [الجزء الأول – الفصل الأول: من الاستقلال إلى الحماية].

[٣] راجع [الجزء الأول – الفصل الأول: من الاستقلال إلى الحماية].

أحمد بن محمد بن عبد الله الريسوني الحسني العلمي — نسبةً إلى جبل العلم — هو من قبيلة بني عروس، ومن سلالة كبير أولياء المغرب عبد السلام الشريف، الذي يمتُّ إلى الحسن بن علي بن أبي طالب.

وُلِدَ الشريف أحمد في قرية زيْنَة تحت سقف من القش بكوخ مسيج بالصبير، في يوم مجهول وعام لا يُعرَف بالتحقيق؛ فقد يكون ١٢٧٠هـ أو العام الذي قبله أو بعده، سُئِل مرةً عن عمره فقال: العرب لا يعدون السنين. ثم وجَّهَ السؤال إلى خادمه: كم عمرك يا مبارك؟ فأجاب مبارك قائلًا: قدر ما يريد سيدي. عشر سنين، عشرين سنة، ثلاثين. والله لا أدري!

مما لا ريب فيه أن الريسوني، يوم خرج من السجن بالصويرة، كان قد جاوَزَ الأربعين، ويوم خطَفَ القنصل الأمريكي كان قد دخل في العقد الخامس من عمره، فلم تكن أعماله من نزق الشباب أو عنجهية البدو، ومما لا ريب فيه كذلك أنه من الأشراف، وأن مناقب الشريف في شخصيته وسجاياه.

وُلِد الريسوني زعيمًا ووُلِد فارسًا. اذكر ما يقوله بنو مصور قبيلة أمه، ولكن السرج والبندقية بعد أن كانا للغزو، أصبحَا للوطن، وأهل البوادي بعد أن كانوا لأنفسهم، أصبحوا للريسوني.

وقد كان للشريف من غير البوادي، ومن غير المال الذي جمعه بالطرق التي يبرِّرها «السرج والبندقية»، ومن غير الشخصية الفذَّة شخصيته، قد كان له قوة رابعة هي في الزعامة السياسية الدينية حليفته الأولى. قلت إنه من السلالة النبوية، فإن كان هناك ما يشوب النسب الشريف، قولًا أو عملًا أو تاريخًا، فليس هناك ما يشوب إيمان صاحبه، وبعد إيمانه بالله ورسوله كان الشريف أحمد مؤمنًا بما يُسمَّى في المغرب البركة.

البركة في بيت الشريف هي من الخوارق التي يأذن بها الله، بل هي القوة الإلهية التي تدفع عنه الشر والأذى، وتحمل الناس على طاعته، فيتقاتلون مستبسلين في سبيله.

كان الشريف أحمد يقول: إذا قلتُ لرجل اذهب إلى مكة أو إلى مصر، فهو يلبس برنسه حالًا دون أن يسأل سؤالًا ويذهب باسم الله … أذكر أن والدي غضب يومًا على أحد عبيده، فأمره أن يذهب، ويقول لإخوانه العبيد إن الشريف يأمرهم بضربه بالسياط. التقيت بالعبد خارجًا من البيت، فسألته: إلى أين أنت ذاهب؟ فأجاب: لأُضرَب بالسياط. فقلت: وما ذنبك؟ فقال: لا أدري، الشريف يدري.

ويوم خلع ضرسًا من أضراسه ورماه، تهافَتَ عليه عبيده وكسروه، فأخذ كل منهم قطعة منه بركة يتبرَّكون بها.

وقد تظهر البركة في عمل من أعمال صاحبها أو في مجرد إرادته. مرَّ الشريف أحمد برجل متسلِّق تحت زيتونة فلم يسلِّم، فسأله الشريف: لماذا لم تسلِّم؟ فأجاب الرجل: الشمس بعيني فما رأيت سيدي؟ فقال الشريف: أنت لا تستعمل نظرك فلا حاجة لك به. حلَّت البركة في الإرادة الشريفية، ونفذت الإرادة في الرجل، ففقَدَ نظره.

بمثل هذه الخوارق كانت تتعزز شخصيته، وتستقيم أغراضه، فتنقاد إليه القبائل وتستبسل في سبيله، وهو في نظرها وإيمانها سبيل الله والمغرب.

وقد كان الريسوني يشرف اليهود بشيء من «البركة» عندما تفرغ يده من المال، وتُسَدُّ أمامه السُّبُل الأخرى إليه. قيل له مرة: ثلاثة لا يقاتلهم العرب؛ النساء والحلاقين واليهود. فقال: ولكن المال عند اليهود، فكيف نأخذه منهم إن لم نروعهم في الأقل.

لم يكن الريسوني محبًّا للمال، ولا كان يرى نفعه في غير السياسة، فيأخذه من أهل الرهائن مثلًا ويوزِّعه على رجال القبيلة الموالية له، أو الموشكة على الولاء.

جاء رسول السلطان إلى الريسوني، وهو في الجبل يحكم بأمره، فعرض عليه الأمان لقاء الطاعة والإخلاص للعرش، فقال له: لا نيتك ولا نية عبد العزيز تخفى عليَّ، سأغتني بواسطتك. فقال الرسول: وهل تظن أن مولاي عبد العزيز يعزني كثيرًا فيدفع المال فديتي؟ فقال الريسوني: غيره يدفع وسترى. ثم أرسل يخبر كبار القبيلة أن عنده بضاعة للبيع، فجاءوا يشترون، فتقدم لهم الرسول، وقد كانوا يعرفونه، فقطعوا رأسه في الحال وهو ينظر إليهم.

تكرَّرَتْ مساعي الصلح، بالرغم من قتل الرسول الأول، وما أفلحت إلا في تعيينه معتمدًا في طنجة للسلطان عبد العزيز. طنجة مهد الفتن والفساد والفوضى، طنجة عش الدسائس الأوروبية والمناورات الدولية والسياسات الاستعمارية، وما كانت الضواحي والطريق منها إلى تطوان ترتع بالأمن والسكينة، وكان معتمد الحكومة المخزنية ينفض يده من كل تبعة، فلا قوة تعيد الأمن إلى نصابه، ولا قوة لتحمي حتى مَن يخرج من الأوروبيين للصيد في ضواحي المدينة.

وكان المغربي العربي إذا أثرى، وطمع بقصرٍ يبنيه لنفسه، يستهدف السلطة المحلية، فينتقل من الغبطة إلى الشبهات، فالتُّهَم، فالسجن. ولا أُذُن تسمع، ولا عين ترى، وكان المزارع يبيع ثمار بستانه فيضطر الشاري نفسه أن يحرس البستان من اللصوص.

وبكلمة وجيزة شاملة كانت الأحوال تنذر بتفكُّك الملك، وبذهاب السيادة الشريفية من المغرب الأقصى. وكانت الدول الأوروبية تتآمر على ذلك المغرب، كما كانت تتآمر على

الدولة العثمانية وتستعِدُّ لتقسيمها، ولقد تمَّ التقسيم لجزء كبير منها، فخلص مصطفى كمال البقية الباقية، وأنشأ منها دولة جديدة.

أبمثل هذا كان يطمع الريسوني؟ لستُ ممَّن يعتقدون ذلك. في كل حال لا فائدة تُرجَى اليوم من البحث في غوامض المسألة، حسبنا سرد الحوادث.

لقد كانت طنجة كما وصفت، وهل لا تزال في حكم السلطان شرعًا وعملًا، يوم باشَرَ الريسوني حكمه، فحكم باسم المولى عبد العزيز، وما عتم أن أعاد الأمن والنظام إلى المدينة وضواحيها، ثم شرع ينظف الطريق بين طنجة وتطوان. ومَن ذا الذي يحسن مثله هذا العمل؟ هو زعيم قاطعي الطرق يعرف كيف يقطع رءوس قاطعيها في عهده. حكم الباشا الريسوني بيد من حديد، وبقلب من جلمود الصخر؛ فقد كان المظلوم في أيام أسلافه يجيء الباشا شاكيًا، فيرسله إلى أحد أعوانه ينظر في أمره، فيقول ذلك المظلوم: وما هذا الباشا؟ فهو لا يقتل ولا يرتشي، ولا عبيد لديه يحملون السياط. فجاء الريسوني يُصلِح الباشوية مبدأً وعملًا، جاء بالسيف والسياط، وبالضمير الذي له عين وفكر، وليس له قلب وعاطفة. فكان الناس يرون كل يوم رأسًا معلَّقًا في السوق، فصاح الأوروبيون قائلين: هذه فظاعة. فقال الريسوني: هذا عدلنا. فراحوا يحتَجُّون إلى قناصلهم، واحتَجَّ القناصل إلى دولهم، واحتجَتِّ الدول إلى السلطان بفاس؛ فأرسل السلطان قوةً عسكرية إلى طنجة لتجيء بالريسوني إليه، فقابله الريسوني بوجهه المقنع للإرهاب، فقال القائد: لا أريد محاربتكم، ولكني أسألكم لو اقتتلنا، فكم من رجالي يقتلون وكم من رجالك؟

فأجابه الريسوني قائلًا: قد نقتل مائة من رجالكم وتقتلون خمسين منا.

فقال القائد: وبكم تشترون حياتهم؟

فابتسم الريسوني ابتسامة هزلية لاحت كالبرق تحت جبينه المدلهم، ثم اتفق والقائد على الفدية أو الجزية أو الرشوة، فدفعها، وبقي في طنجة يحكم بأمره، ولا يغيِّر من عدله.

وعلمت القبائل بما كان من أمر ذلك القائد، فقال كبارها وصغارها: إن الريسوني أقوى من السلطان الشاب، وإن ذلك السلطان بيد الفرنجة الطامعين ببلادهم، وبيد وزرائه الخونة. فهاج هائجهم على الأجانب الفرنجة وعلى الحكومة المخزنية، فقتلوا فرنسيًّا في أنجرا، وسجنوا إسبانيين في قبيلة أخرى، وضربوا وسلبوا المسيحيين في الدار البيضاء، وهجموا على أصيلة فنهبوا وخطفوا حاكمها.

سارَعَ الريسوني إلى أصيلة بقوة من رجاله، فدخل المدينة باسم المولى عبد العزيز، وأعاد إليها الأمن والنظام — والحكم السلطاني.

فهل أرضى السلطان؟ وهل أسكت الدول؟ لا هذا ولا ذاك، فقد عقد القناصل اجتماعًا، وقرَّروا الاحتجاج الشديد على الريسوني وحكمه، مدَّعِين أنه يريد أن ينفِّذَ «عدله الفظيع» حتى في الأوروبيين.

وكانت الدول يومئذٍ في صراع سياسي بخصوص المغرب، ولا سيما طنجة، فزار الإمبراطور غليوم تلك المدينة زيارة عاصفة، وتقرر بعد ذلك عقد مؤتمر الجزيرة، وعزل الريسوني من منصبه. ومن العازل؟ السياسة تقول: السلطان. والحقيقة تقول: الدول.

كان مؤتمر الجزيرة معقودًا يوم عاد الريسوني، في ديسمبر ١٩٠٦، إلى بيته بزَيْنَة، ويوم كانت المدرعات الأوروبية، بعد بضعة أشهر، في ميناء طنجة؛ لتنفيذ ما قرَّرَه المؤتمر، كان الريسوني قد حشد جيشًا من القبائل، وجدَّدَ الثورة على سلطان المغرب باسم الوطن الذي بدأت تعمل فيه عوامل الاستعمار الأوروبي. فهذه طنجة تخرج من حوزة السلاطين، وتنذر البلاد بالتقسيم والخراب.

قامت الحرب، ووقعت الوقعة الأولى بين رجال الريسوني وعساكر المخزن في زينة نفسها؛ فقُتِل القائد المخزني، وتقهقرت رجاله تحت وابل من رصاص البوادي، على أنهم عادوا في اليوم التالي بنجدة فيها مدفعي جزائري من الجيش الفرنسي، فكانت طلقات المدافع هذه المرة تصيب الأهداف، فانهزم الريسوني ورجاله، وشُغل العسكر عنهم بالقرية فنهبوها، وأضرموا فيها النار.

كانت تلك الهزيمة بداية حرب عوان دامت سنتين، وقد حاوَلَ جنود السلطان ورسل سره القبض على الريسوني حربًا أو سلمًا، بأية وسيلة كانت، فلم يفلحوا.

– نريد رأس الريسوني.

– سأجيئكم بقلبه — طائعًا مواليًا.

– الريسوني لا قلب له.

– القلب عندي إذا أذنتم بالمفاوضة.

فأذن السلطان عبد العزيز للسير هنري مكلين، نديمه ومعلم جيشه، أن يقابل الريسوني، فكتب السير هنري إليه يفصح عن رغبته في الاجتماع به، ويسأله أن يضرب له موعدًا، ففعل.

وقد اجتمعا في مكان خارج طنجة، فتعهَّدَ مكلين للشريف بالأمان والسلام إذا هو رافقه إلى فاس لمقابلة السلطان.

كان الريسوني يحترم مكلين، ولا يشك في حسن نيته، ولكنه كان يخشى الخيانة والغدر، وهو لا يزال يذكر الصويرة، ويذكر سجنها والحديد؛ لذلك رفض طلب مكلين وزوَّدَه بطلب منه؛ فهو يُعِيد النظر في الأمر إذا جاءه بخط من السلطان يؤمنه على حياته.

عاد مكلين إلى فاس، وما لبث أن كتب ثانية إلى الريسوني يقول إنه موفَّق في مهمته، وسيعود قريبًا إليه.

فقد أجاب السلطان عبد العزيز طلبه، لا بخط واحد بل بخطين؛ الأول: إلى الشريف يحمل الأمان والاطمئنان، ومعهما الوعد بأن يعيد إليه أملاكه المحجوزة، ويعيِّنه في منصب عالٍ، في غير طنجة؛ لأنها خرجت من يده.

والخط الثاني: إلى قائد جيشه في جبال بني عروس يخبره بما كتب إلى الشريف، ويأمره بأن يزوره مجاملًا مهنِّئًا، وللكتاب حاشية تقول: خذه بالحسنى، وابذل الجهد في إقناعه ليقابل مكلين، فيقبض عليه ويجيء به إلينا.

هي البركة، تلزم الشريف في القريب من أمره والبعيد؛ فقد نزلت بفاس، في القصر، في مكتب القصر، فحالت بين الكاتب وبصره، فوضع كتاب الريسوني في غلاف القائد، وكتاب القائد في الغلاف المعنون باسم الريسوني.[٤]

وجاء مكلين يحمل إلى الريسوني كتابه، وهو لا يدري بما دبَّرَه السلطان وأفسده الكاتب، ولكن الريسوني كظم ما عراه من الدهشة والاشمئزاز بعد أن فضَّ الكتابَ وقرأه، ثم قال لمكلين: سأعطيك الجواب بعد أن أستشير أخي، هو في خيمته مريض، فلم يتمكَّن من الحضور لمقابلتكم، سأرسل كلمة إليه.

قال ذلك وخرج من الخيمة، فأمر أحد رجاله المرافقين له أن يسارع إلى المضارب، ويأمرهم بالشد للرحيل، ثم عاد إلى مكلين يقول: أتريد أن ترافقني إلى خيمته؟

ما شَكَّ مكلين في صدق الريسوني، فركب معه وسارا يتبعهما الخدم والمرافقون، إلى تلك الخيمة، وأين هي؟ لقد طال الطريق، فطمأنه الريسوني قائلًا: وصلنا، وصلنا.

وصلوا إلى الخيمة — إلى الخيام — فرأى الضابط الإنجليزي نفسه في معسكر الريسوني محاطًا بالجنود، فقال إذ ذاك الشريف: هذا جوابي.

---

[٤] مثل هذا حدث في مكتب الشيخ مبارك الصباح حاكم الكويت يوم كانت الحرب قائمة بين ابن سعود وابن الرشيد، وكان الشيخ مبارك محايدًا يريد الشر للاثنين.

فأعطاه كتاب السلطان فقرأه وهو يجحظ ويقطب من شدة الدهش والغيظ، وقد أقسم بشرفه أنه جاهل كل الجهل تدبير السلطان وقصده، ثم قال: حقكم أن تأسروني.

فقال الشريف: لست بأسير، لا والله. أنت ضيفنا إلى أن تشاء حكومة بريطانيا أن تعود إلى بلادك.

ومشوا جميعًا في موكب مهيب إلى زَيْنة.

وفي اليوم التالي اهتزت أسلاك البرق اهتزازًا عنيفًا بين لندن وفاس، ولندن وطنجة، وتعددت الرسل بعد ذلك بين طنجة وتلك القرية الصغيرة في الجبل.

غضب الإنكليز ولا عجب، وارتاع السلطان الشاب، وضحك الريسوني، وما كان مكلين على شيء من الهم، بل كان وخادمه يتمتعان بكل أسباب الضيافة التي يستطيع بذلها وتسخيرها الشريف المضياف.

وكان الشريف الآسِر يصارِح أسيره فيما يبتغي من دولته.

– الحكومة البريطانية غنية، يا مكلين، ونحن اليوم في حاجة إلى المال ... أتريد أن تخرج للصيد؟

ما رأيك، يا مكلين، في قيمة الفدية؟ أيجب أن تكون أقل من أربعين ألف ليرة؟ ... اليوم جميل للنزهة. تفضلوا، نتريَّض قليلًا.

كثيرة؟ أتقول القيمة كثيرة؟ مقامك، يا مكلين، رفيع في نظرنا، والحكومة البريطانية عظيمة غنية. قُلْ ثلاثين ألفًا ... هذه أحسن بندقية عندنا للصيد، هي إنكليزية.

لا والله، القيمة تحدَّدَتْ. اكتب إلى حكومتك أن الريسوني لا يقبل أقل من خمسة وعشرين ألف ليرة ذهبًا.

استمرت المفاوضات، وكتب مكلين بعد التردد إلى حكومته، فطلبت من الحكومة المغربية قيمة الفدية. على السلطان أن يدفع. كذلك قالت حكومة صاحب الجلالة البريطانية، وأصرت، بل هددت وأنذرت فأذعن السلطان، على شرط أن يدفع عشرة آلاف ليرة نقدًا والباقي نسيئة.

قال الريسوني لضيفه الأسير: وهل يدفع السلاطين ديونهم إلا بعد أن تُرَى المدرعات في ثغور البلاد؟ وأين مدرعاتي؟ لا بأس. عندي البركة.

فقال مكلين: وخير لكم أن تكونوا دائني السلطان من أن تكونوا من المدينين له.

الريسوني: وأيُّ المصيبتين أشد؟

مكلين: كل شيء نسبيٌّ، غير أن الله معكم. خذوا وطالِبوا؛ هي قاعدة الزمان السياسية.

وقد أخذ الريسوني عشرة آلاف ليرة ذهبًا من السفير البريطاني في طنجة، دفعها السلطان عبد العزيز، ثم طلب من السفير الحماية الإنكليزية، فرفع طلبه إلى الحكومة بلندن، فقبلت بذلك، وأصبح الريسوني من رعايا صاحب الجلالة البريطانية. هي السياسة الأوروبية في المغرب، بعجرها وبجرها.

ومن عجيب الاتفاق، فيما يتعلق بهذه الشاردة من سيرة الريسوني، أن يلتقي هذا الكاتب بالرجل الذي كان خادمًا للسير هنري مكلين في تلك الأيام.

كنت أطوف والدليل في إحدى كنائس أشبيلية، فقلت: لهجتك الإنكليزية ليست لهجة إسباني. فسُرَّ بذلك، واندفع يتكلم بلهجة زاهية، فقال: أنا لست من إسبانيا، أنا من جبل طارق. اسمي جوزيف غرِّيرو Guerrero، كنت خادم مكلين يوم أسره الرسولي — باللام بدل النون، وبدون الياء الأولى، كما كانت تُلفَظ في أوروبا وأميركا في تلك الأيام — الرسولي! لا أزال أتصور وجهه المخيف ونفسه الكريمة، ولا أزال أذكر أيام ذلك الأسر، ليس في حياتي كلها أطيب منها.

لم يكن الريسوني عدو الأجانب ظاهرًا، بل عدو السلطان الضعيف الرأي والوطنية المنقاد إلى الأجانب. فقد شُقَّ عليه أن يرى العرش العلوي متداعيًا، وأن تكون اليد الهادمة يدًا علوية من سلالة إسماعيل الكبير، فأراد أن يصون ذلك العرش لنفسه، أو لَمن يعززه من السلالة الحاكمة؛ لذلك لم يحمل على الأجانب، ولا كان في بداية أمره يخشاهم. على أنه لم يدرك ما للحوادث من عوامل التطور والانقلاب في الدول والرجال.

فقد ازدادت أحوال المغرب اضطرابًا بعد مؤتمر الجزيرة، ولكن الريسوني، خلال الحرب التي قامت بين الأخوين عبد العزيز وعبد الحفيظ، وبعد أن شبَّتْ نيران الثورة على الإسبان في الريف، كان معتكفًا في بيته، وعندما انهزم السلطان عبد العزيز ونصب مكانه عبد الحفيظ، قصد الريسوني فاس مهنئًا السلطان الجديد، وآمِلًا بالتفاهم والتعاون في سبيل البلاد والملك؛ فأكرمه السلطان عبد الحفيظ، وأفضى إليه ببعض ما كان يقلق نفسه ويشغل باله.

– النصارى يطمعون ببلادنا، ويسعون للاستيلاء عليها؛ فيجب أن نتعاون على الدفاع عنها.

– والله لو قال سلفكم هذا القول وكان مخلصًا للوطن، لما حاربته، لا والله. ولو عاد للجهاد لكنتُ أول مَن لبَّى الدعوة.

وقد تحدَّثَا في بعض الشئون الفرعية، فوعده السلطان بباشاوية أصيلة بشرطين: أن يتخلَّى عن الحماية الإنكليزية، وألَّا يطالِبَ بالباقي من المال فدية مكلين. فقَبِلَ الريسوني بذلك.

ثم استدعاه قبل أن غادر فاس، واستقبله في الخلوة — المخلوان — فكرَّرَ ما قاله في التعاون، وجاء بالقرآن فسأله أن يقسم اليمين أنه سيخلص له الولاء، ويساعد ما دام حيًّا في دفع الأخطار عن المغرب، فقبَّلَ الريسوني الكتاب، وأقسم الاثنان اليمينَ المغلظة على التحالف والتعاون في الدفاع عن البلاد، والمحافظة على وحدتها العربية الإسلامية.

وبعد ذلك باح السلطان عبد الحفيظ بسرٍّ من أسرار الدولة، قال: نحن في حاجة إلى المال — الخزينة فارغة والله.

فوعَدَه الريسوني بالمساعدة، وبَرَّ بوعوده بعد عودته من فاس، فأرسل إليه ثلاثمائة ألف دورو — نحو ثلاثين ألف ليرة ذهبًا — جمعها من القبائل.

انجلى الجو للمولى عبد الحفيظ في بداية عهده، بعد أن قمع ثورة القبائل، وقبض على زعيمها بو حمارة،[٥] وقد رأى من مصلحته — كما رأى الفرنسيون أن من مصلحتهم يومئذٍ — أن تُمَدَّ ثورة الريف على الإسبان بالمساعدات الحربية. فكان ذلك، وقد انهزم الجيش الإسباني شرَّ انهزام في وقعة «سيدي موسى»، وانقسم البرلمان بمدريد في قضية المغرب، فاشتدت المعارضة على الحكومة، ولكنها قرَّرَتِ المضي في الحرب إلى أن يتم الاحتلال.

وكانت المنافسات بين الفرنسيين والإسبان مستمرة، تسكن ريحها حينًا، وحينًا تعصف، عملًا بتطور العنصر الألماني في قضية المغرب، ولم تكن سياسة الفرنسيين المغربية في عزلة عن ذلك التطور، بل كانت تتأثَّر دومًا به، فتشجِّع السلطان على مقاومة الإسبان تارةً، وطورًا تنصح بالتفاهم والولاء: نحن وإياك والإسبان على الألمان. أو نحن وإياك — في حال السكون الألماني — على الإسبان. ولا يعوزني المثل أعطيكه في القاعدتين؛ فقد ساعَدَ السلطان ثوَّار الريف على الإسبان، وقد عقد اتفاقًا والحكومة الإسبانية على احتلالها المنطقة الشمالية في السنة التالية. فهل تستوي اليمين والمعاهدات في زماننا؟ قال الريسوني بعدئذٍ — يوم تسالم والإسبان: قد حنِثَ السلطانُ بيمينه، فجعلني في حلٍّ من يميني.

---

[٥] راجع [الجزء الأول – الفصل الأول: من الاستقلال إلى الحماية].

كان الريسوني في تلك الأثناء قد تعيَّنَ باشا أصيلة، وبما أن بعض البوادي من عرب وبربر، ظلوا يذكرون قاطع الطرق المشهور معجبين به، فقد طفقوا يتشبهون به، وتمادوا في الشقاوة؛ فصار كل زعيم ريسونيًّا، وكثرت العصابات فكثر خطف الناس طمعًا بالفديات، فرأى الباشا الريسوني أن يعود إلى عدله الفريد الذي وصفه أوروبيو طنجة بالفظاعة.

فالعرب ينسون، كما كان يقول، وإن لم ينسوا فهم لا يصدقون غير ما تراه عيونهم. يجب أن يجسم العدل إذن في رأس يُعلَّق في السوق، وفي سجن يثقل حديده على أعناق الأشقياء، ولا يدخله نور أو هواء.

إنها لفضاعة، ولكنها في نظر حاكم مثل الريسوني مبرَّرَة بما كان يرتكبه أولئك الأشقياء، وهاك مثالًا من فظائعهم: جاءه ذات يوم قنصل إسبانيا في العرائش، مكفهر الوجه، مضطرب الأعصاب، يشكو زعيمًا من بني عروس خطف رجلًا وولديه من المغاربة المشمولين بالحماية الإسبانية،[٦] وسلب مالهم وحبسهم رهائن في بيته، بفدية قيمتها ثلاثون ألف ريال، تُدفَع في يوم معين، وبما أنها لم تُدفَع في ذلك اليوم قتل الشقي رهائنه الثلاثة، وعلَّقَ رءوسهم على رمح تحت راية القبيلة، فحمل رجاله الرمح وطافوا به يدعون الناس للعصيان. فهل يجوز أن يُعامَلوا بعدل غير عدل الريسوني؟

ولكن عدله لم يكن ذا عين واحدة؛ فقد كان له عين أخرى ترى في السياسة القصاص الذي هو أبلغ من قطِّ الرءوس.

كان الجيش الفرنسي في تلك السنة (١٩١١) قد دخل البلاد واحتلَّ مركزًا بالغرب من القصر الكبير، وكان الإسبان يتأهَّبون لاحتلال المنطقة الشمالية بموجب الاتفاق الذي عقدوه والمولى عبد الحفيظ، فوصل إلى ميناء العرائش في شهر يوليو مركبان يقلَّان جنودَ الجنرال سلفستر Silvestre، جنود الاحتلال!

وفي اليوم التالي حدثت فتنة في القصر الكبير ضد الأجانب، ومنهم المغاربة المتمتعين بحماية إسبانية، فشكا هؤلاء أمرهم إلى القنصل الإسباني، فرفع الشكوى إلى الريسوني. الفرنسيون بجوار القصر الكبير، والإسبان على أبواب العرائش، وقد كان الريسوني يخشى الفرنسيين ولا يخشى الإسبان، بل كان يقول: الإسبان يستطيعون أن يحمونا ولا

[٦] كل مغربي طامع بالفرار من العدل في تلك الأيام — أو من الظلم — كان يلجأ إلى دولة أجنبية طالبًا حمايتها، وكانت الدول تمنح الطالب حقوق الرعوية لأغراضها السياسية في المغرب.

يستطيعون أن يظلموا. فهل يستعين بهم الآن على الفرنسيين؟ هي الفرصة التي اغتنمها ليرضي القنصل ورعاياه.

– سنساعد الجنرال سلفستر ليُنزِل جنوده في العرائش.

ونزلت الجنود في الليل، فاستقبلهم الأهالي ساكنين واجمين، ولكنها إرادة الريسوني، والخير في تحقيق مقاصده إن شاء الله.

كلمة ردَّدَها الناس إلا اليهود منهم، ولا عجب، فالريسوني ميَّزَهم عن الناس بما يجوز لهم وما لا يجوز. لا يجوز ليهودي أن يجلس في حضرة عالم … يجب على اليهودي أن يخلع نعله إذا مَرَّ في سوق فيها مسجد[٧] … فهل يُلَامون إذا هم استقبلوا جنود سلفستر تلك الليلة بالمشاعل، ينيرون طريقهم إلى المدينة؟

الجنرال سلفستر رسول القدر إلى الريسوني، وصاحب عدل تأبط ميزانه وحمل الريسوني سيفه. صاحب عدل ذي وجهين، يقذف به القدر إلى بلاد لا تعرف غير العدل الواحد.

كان الاجتماع الأول في أصيلة، فقال الريسوني: نساعدكم إذا واليتمونا وأخلصتم لنا. وكتب الجنرال إلى حكومته يقول: إن الريسوني مخلص للإسبان، ولكن الفرنسيين يحاولون اجتذابه إليهم؛ فيجب أن نسرع في العمل مستعينين به ما دام مواليًا لنا، فقد ينقلب غدًا علينا.

وقال الريسوني في سلفستر بعد الاجتماع الأول: إنه شجاع ولكنه يتمنَّى لو كان في غير المغرب، فلا مكان لأسدين في غابة واحدة.

وما عتم أن وقع الخلافُ فالعداءُ بين الأسدين.

لقد ظنَّ سلفستر أن الريسوني يساعده في مطاردة الفرنسيين، ولكن الريسوني بعد أن تأكَّدَ أن الفرنسيين لا يطمعون بالمنطقة الشمالية، وبعد أن أراح ضميره من اليمين التي حنِثَ بها المولى عبد الحفيظ، اعتصم بحبل السياسة الحيادية؛ فترك الفرنسيين وشأنهم في الجنوب، واستقَلَّ هو في المنطقة الشمالية.

---

[٧] كان الريسوني مع ذلك أرفق باليهود من أسلافه حكَّام المغرب، الذين كانوا يوجبون على اليهودي أن يخلع نعله ليس فقط في سوق بها مسجد، بل أمام بيت القاضي أيضًا والقائد، وكان يُجبَر في مدينة فاس أن يمشي حافيًا.

استقَلَّ مبدئيًّا واستقل عملًا إلا في بعض المواقف الحرجة؛ فعندما أراد سلفستر أن يرسل إلى أصيلة ضابطًا لمراقبة الجمارك، رفض الريسوني قائلًا: إني ممثل مولاي عبد الحفيظ، لا ممثل سلفستر.

بعد ذلك سعى سلفستر للتقرب من القبائل بتخفيض الضرائب، فيثيرهم على الريسوني، وقد كتب إلى حكومته بمدريد أن القبائل غير راضية بحكمه، بل اتهمه بابتزاز الأموال منهم ليبني قصره، وأنه ظالم قاسٍ، وفوق ذلك جشع بخيل. فردَّ الريسوني على هذه التهم بقوله: أنا آخذ وأعطي، وغيري يأخذ ويمشي.

ومن أعمال سلفستر المعادية أنه كان يغري باشا القصر الكبير بالمال ويوغره على الريسوني، فاستدعاه مرةً إلى أصيلة، فحال سلفستر دون مجيئه.

ومع ذلك فقد كان سلفستر يزور الريسوني مجاملًا مداريًا، ويُظهِر الثقة به في بعض الأحايين دون أن يفهم مقاصده. فقد كان لا يرغب في الإسبان بأصيلة، إلا بما يبرر وجودهم فيها، حتى لا يقول المسلمون إنه انقاد إلى النصارى أو تساهَلَ معهم، وفي هذا ما يفقده النفوذ الذي كان أساس حكمه وعدله.

أسدان في غابة واحدة وبطبعين متناقضين؛ الإسباني لجوج غضوب، والعربي هادئ طويل الأناة، وما كان الأول ليتعلم شيئًا من الصبر والتؤدة اللذين اتصف بهما الثاني، وقد كان إلى ذلك متقلبًا، يومًا يمدح الشريف في رسائله إلى حكومته، ويومًا يطعن فيه، وفي هذا الاضطراب من حاله كان يرى من الواجب أن يتفق والشريف الطامع بالسلطة والاستقلال؛ فوعده بأن يسعى لدى الحكومة، يوم عاد إلى مدريد، لتحقيق بعض آماله، فَبَرَّ بوعوده، ولكن الحكومة سوَّفَتْ ثم رفضت، خشيةَ أن تُتَّهَم بالضعف، وهي يومئذٍ ترسل جيوشها إلى الناحية الشرقية لقمع الثورة التي كان يضرم نارها المجاهد الريفي أمزيان.

وفي أبريل من تلك السنة (١٩١٢) عُقِدت معاهدة الحماية بين الفرنسيين والسلطان عبد الحفيظ، فثار أهل فاس عليه وعلى الحكومة المخزنية، فرأى سلفستر أن يستمر في تعليل الريسوني بالوعود؛ ليتعاون وإياه على حفظ الأمن والنظام في المنطقة الشمالية فلا تمتد الثورة إليها، فأخلص الريسوني في ذلك التعاون، وما رأى من نتائجه ما يحقِّق شيئًا من آماله الوطنية.

فقد كانت الحكومة الإسبانية متذبذبة متقلبة في سياستها المغربية، فيجيء إلى الريسوني من الإسبان مَن يقول له: لا قوة لإسبانيا إلا في الجيش، فاتَّكِلْ على الحزب

العسكري؛ لأنه والملك واحد. ويجيئه آخَر يقول: لا تصغِ إلى العسكريين، فلا نفوذ لهم في الحكومة أو في السياسة. ولكن الريسوني كان يسلك مسلك المتحايد، فلا يهتم لشئون إسبانيا الداخلية، ولا يقطع صلته بحزب من الأحزاب، فنفعته هذه الخطة في الحرب، وأطرته في أيام السلم.

ذلك لأن الحكومة، في فترات الخير، كانت تعود إلى المماطلة والتسويف، ففقد المغاربة ثقتهم بها، وبالشريف المتكتل عليها. هو ذا الخطر الذي بدت غيومه السوداء في الأفق المغربي الإسباني. لقد كان في إمكان الريسوني أن يخدم الإسبان، لو بقيت القبائل كلها بيده، ولكن الإسبان في سياستهم مع الشريف أحدثوا في تلك القبائل شقاقًا ظنُّوه من مصلحتهم، فمضوا فيه مستبشرين. مالت قبيلة بني عروس إليهم، وبقيت بني مصور مع الشريف، فضعفت القوتان وما انتفع الإسبان بذلك الشقاق.

اختلَّ الأمن في البلاد؛ فزاد الريسوني في عدله قساوةً، وما عدل دائمًا في قساوته، فكان يُكثِر من سجن أعدائه لأسباب حزبية، فغصَّ سجن أصيلة بالسجناء، وكان يقيِّد الثلاثة أو الأربعة منهم بالسلسلة الواحدة من الحديد الثقيل. هذا عدا ما كانوا يقاسون من الجوع والقذارة والروائح الخانقة والضرب بالسياط.

ضجت القبائل، وتعدَّدَتِ الشكاوى إلى الجنرال سلفستر، فجاء ذات يوم إلى أصيلة محقِّقًا، فطلب أن يرى ذلك السجن، فرفض الريسوني طلبه، فأصرَّ سلفستر، فسخط الشريف سخط العادل المتيقن صحة عدله، فتناقَشَ الاثنان مناقشة حق تأججت ناره، فتطاير منها شرر الحنق والضغينة.

– أنتم لا تُطعِمون السجناء.

– وهل يجب على الحكومة أن تُطعِم المجرمين؟ أهلهم يُطعِمونهم.

– أنتم تأمرون بالتعذيب وبالضرب بالسياط.

– وهل تُكرِم الحكومة مَن يسيئون إليها؟ هؤلاء وحوش، وأنتم الأوروبيون لا تفهمون عدلنا، فلو اقتديت بكم وعملت بما تسمونه عدلًا لكنت ترى اللصوص والقتلة والأشقياء في كل طريق وكل مكان … أتريد أن ترى السجن؟ هيا بنا.

مشى وإياه إلى السجن في ناحية من القصر، ففتح السجَّان الباب، فإذا هناك نحو مائة سجين في غرفة صغيرة مظلمة، فاحت منها الروائح المنتنة الخانقة، وعلت الأصوات والأنات. تتخللها صلصلة السلاسل والقيود. فرفع الجنرال سلفستر يده إلى وجهه، ورجع أدراجه وهو يقول: شيء فظيع، شيء وحشي!

ثم طلب أن يُحضِر بعض أولئك السجناء أمامه، فجيء بثلاثة فسألهم ما ذنوبهم، فكان جواب كل منهم أنه بريء. ما صدَّقَ سلفستر ادعاءهم، ولكنه استفظع القصاص، وطلب من الريسوني طلبًا جحظت له عيناه.

سلفستر: يجب أن تطلق سراح السجناء كلهم.
الريسوني (محدقًا نظره إليه): أنا الحاكم هنا.

وتتابعت بعد ذلك الحوادث المنذرة بالإعصار.

أرسل الريسوني رسله إلى القبائل الموالية له يقول: إن الحرب قائمة بينه وبين الإسبان فَلْيستعدوا.

وكتب سلفستر إلى حكومته يُخبِر بما شاهد بعينه من فظائع الريسوني.

ورفع الريسوني الأمر إلى الحكومة الإسبانية بواسطة السفير الإسباني في طنجة، فزاد ذلك في سخط سلفستر وحقده.

وعندما قبلت حكومة مدريد بأن يفاوضها الريسوني مباشَرَةً، قدَّمَ سلفستر استقالته فرُفِضت.

ثم قررت الخطة التي تثبت قدمها في البلاد، منها أن يكون لجيش الريسوني ضباط من الإسبان، وأن يعين له مراقب إسباني.

ففضَّلَ الريسوني الخروج من أصيلة على أن يبقى فيها تحت أمر الأجانب. عاد إلى زينة، ولكنه وهو يعدُّ العدة للحرب، استمرَّ يعالج الأمر بالسياسة، فتفجرت القبائل وأرسلت إليه تقول: سلاحنا أكله الصدأ، وأيدينا ملت الانتظار.

حقيقة الأمر هي أن الريسوني لم يكن يرغب في محاربة الإسبان، ولكنه كان يقول: سأحارب سلفستر إذا هو سطا عليَّ.

وقد استمرت الحكومة الإسبانية في استرضائه، فقرَّرَتْ أن يُعقَد مؤتمر في طنجة لحسم الخلاف وتقرير المصير، فعُقِد ذلك المؤتمر برياسة سفير إسبانيا، وحضره قنصل العرائش السنيور زوغستي Zuqasti الذي كان يقول فيه الريسوني إنه أفضل مَن عرف من رجالات الإسبان.

... وكانت الكلمة لسلفستر، فاتهم الريسوني بأنه نكث عهده.

الريسوني: لو جاءت هذه الكلمة من أحد أبناء القبائل لما عاش بعدها. أما منك فلا بأس، أنا وإياك الآن تحت سقف واحد أخوان.

سلفستر: ولكنك حرَّضت القبائل علينا.

الريسوني: الصحيح عكس ذلك، فقد ردعتهم عنكم.

سلفستر: ضجَّتِ البلاد من أعمالكم البربرية.

الريسوني: وهذه من الكلمات التي لا تضمن السلم، فكأني بك تريد الحرب.

زوغستي (متوسطًا): الصبر … أرجوكم.

سلفستر (مستمرًا في ثورته): هو قاطع طرق. صبرت عليه، وقد عيل صبري.

الريسوني (بتؤدة): لذلك أنا أقوى منك، ولكني أرى أن السلم بيننا مستحيل. أنت تعصف كالريح وأنا أضطرب في نفسي كالأمواج، أنت العاصفة وأنا البحر، أما العاصفة فتذهب وأما البحر فيدوم.

(قال هذا ونهض يريد الخروج، فقال السفير: إلى أين؟ فأجاب الريسوني: إلى بيتي بزينة.)

السفير (مسترضيًا): أحب أن تنتظر إلى الغد؛ فقد أرسل رئيس الوزراء إليكم هدية من السجاد برهانًا على صداقة حكومتنا لكم.

الريسوني: ليس الوقت، يا سيدي، وقت هدايا، فإنْ أنا قبلت هدية منكم اليوم، فأبناء بلادي لا يحسبونها هدية.

السفير (مُصِرًّا): السجادات قديمة جميلة تروقكم.

الريسوني (بتهكُّم): أهنئ سيدي بحسن عدله.

السفير: لم أفهم.

الريسوني (مستمرًّا في لهجته الناعمة): يقال إن العدل أعمى، فسأوضح؛ كان لي بيت بأصيلة فاستوليتم عليه، كان لي سلاح وذخيرة فأخذتموها، كان لي أثاث وفرش فتصرفتم به، وقد أسرتم عائلتي،[8] وجئتم الآن تقدِّمون لي بعض السجاجيد! لا يا سيدي، ضموها إلى ما أخذتم.

---

[8] كانت الحكومة لا تزال آسرة حريم الشريف في القصر، ومعهن ولده خالد.

السفير (غاضبًا)**:** لم يُؤخَذ شيء من أشيائك، كلها محفوظة في أصيلة.

الريسوني: لن أعود إلى أصيلة.

السفير: أَلَا تريد أن تزور عائلتك هناك؟

الريسوني: عائلتي كبيرة، هي في المغرب كله.

يوم عاد الشريف الريسوني من مؤتمر طنجة إلى بيته بزينة، والجنرال سلفستر إلى مركزه بالعرائش، كان الجيش الإسباني في الناحية الشرقية قد انتصر على الثوَّار، عند نهر الكُرْط، في معارك شديدة، قتَلَ في إحداها زعيمهم أمزيان، وظهر لأول مرة في القتال الضابط الشاب فرنسيسكو فرنكو على رأس كتيبة ذكرها قائد تلك الحملة الجنرال بيرنغير بالثناء والإعجاب.

وقد تحسَّنت بعد ذلك الفوز معنويات الجيش الإسباني، ونشطت الحكومة في تنفيذ خطة الاحتلال في الناحية الغربية؛ فعيَّنت للمنطقة كلها مقيمًا عامًّا هو الجنرال الفاو Alfau، ونصبت خليفةً فيها المهدي بن إسماعيل.

دخل الجنرال الفاو بألفين من الجنود مدينةَ تطوان، بدون قتال، في فبراير سنة ١٩١٣؛ فهاجت القبائل المجاورة، وثار ثائرها الأشد على الخليفة المهدي الموالي للأجانب، فكتبت حكومة مدريد إلى الجنرال سلفستر تقول: إن الطريقة المثلى لتعزيز مركز الخليفة في القبائل هي أن يزوره الشريف الريسوني. فسعى سلفستر لذلك دون جدوى، ثم جاءه أمر من حكومته بأن يطلق سراح عائلة الريسوني، وينقلها مكرَّمة إلى طنجة، ففعل، ولكن النتيجة لم تحقِّق الأمل في التقرُّب من الشريف، بل جاءت على عكس ما توقَّعَه السياسيون في مدريد.

فقد قالت القبائل: لا يزال الريسوني قويًّا، والبرهان على ذلك هو أن الحكومة تخشاه فأطلقت سراح عائلته.

وقد انضَمَّ بعد ذلك إلى القبائل الموالية له كثيرون من المعادية، وبما أنها نهضت في جوار تطوان للدفاع عن البلاد، بعد دخول الجنرال الفاو، فحاصرت واد مرتيل، وامتدت حركاتها إلى ناحية العرائش؛ رأى الريسوني أن دور المفاوضات قد مضى، وأن الحرب لا بد منها، فاستنفر جميع القبائل، فنفر معظمها إلى القتال.

كانت خطة الريسوني في الحرب تجمع بين الدفاع والمناوشة، فيترك الهجوم للعدو، ويرسل من مكامن جيشه، وراء الصخور وبين الصبير الذي يكثر في المغرب، جماعات تناوِش جيش سلفستر حيث يكون ضعيفًا. ومن أساليبهم أن يستدرجوا العدو إلى

الجبال، ويرموه من أعاليها بالرصاص، أو يدحرجوا عليه الصخور، أَضِفْ إلى ذلك طريقة الريسوني الخاصة، وهي القبض على رجالات الإسبان، في كل فرصة تسنح؛ ليكونوا لديه رهائن تُفدَى بالمال، أو كما كان يقول هو: يصير عندي بضاعة للبيع.

قامت الحرب، ووقعت الوقعة الأولى في ناحية من بني قرش، بالقرب من تطوان، فبلغ عدد القتلى فيها مائتين من الإسبان وثلاثين من المغاربة (رواية الريسوني) أو مائة وخمسين من الإسبان وثلاثمائة من المغاربة (البلاغ الرسمي).

وتعددت المعارك؛ فجاءت النجدات الإسبانية، الواحدة تلو الأخرى؛ لحماية المراكز التي كانت في حوزة الجيش، ولفتح الطرق، وخصوصًا طريق تطوان–طنجة، التي كانت بيد الريسوني. وما كانت تلك النجدات موفَّقَة كل التوفيق في خططها وحملاتها، فوقع خلاف بين المقيم العام الجنرال الفاو والقائد العام الجنرال سلفستر، أدى إلى استقالة المقيم؛ لأنه يميل إلى السلم، فخلفه الجنرال مارينا Marina المتذبذب بين السلم والحرب.

استمر القتال، وبقيت طرق طنجة بيد الريسوني يجلب المؤن والمعدات، فلزمه النصر في أكثر المواقع في تلك السنة، سنة قامت في أوروبا الحرب العظمى.

وفي ذلك الصيف تكلَّلت انتصارات الريسوني بالمجد؛ فقد كانت أكثر القبائل الجبلية تحارِب تحت بنوده، فاجتمع في شفشاون قوَّادها وزعماؤها مع علماء بني غرفط والأخماس وأهل سريف، ونادوا بالريسوني سلطان الجبل؛ فكتب العلماء عهدًا بذلك تُلِي في جميع أنحاء البلاد.

هي سنة النصر، ختمها الريسوني بدخوله شفشاون فاتحًا مظفرًا، فهتف له أهلها، ونثرت نساؤها عليه وعلى رجاله ماء الزهر من قماقمهن، وهن يزغردن للشريف الملك، منقذ البلاد من الأجانب.

هي البركة تلازم الشريف على الدوام.

وهي القبائل، وفيها المتذبذبة، وفيها الخائنة؛ فقد كان الريسوني ذات يوم ضيف إحداها، وهي تتظاهر بالولاء والإخلاص، فكذبها كلب من الكلاب. كان الشريف يشكو ألمًا في المعدة فلم يأكل غير القليل، وشرع يطعم كلبًا دنا منه، وعندما جيء برأس الخروف إلى رأس القوم لم يأكل شيئًا منه، بل قدَّمَ معظمه إلى ذلك الكلب، فأكل حتى العظم متلمظًا به، وبعد قليل سُمِع يعوي من شدة الألم وما لبث أن مات.

هي البركة، لا تفارق الشريف.

وهذا إدريس الريفي ألدُّ أعداء الريسوني، يرسل إليه في جبل الحبيب وفدًا يقول: سي دْريس يريد السلم … سي دريس يريد رضى الشريف … سي دريس يلتمس الإذن بالمقابلة …

فظنها الشريف دسيسة، ولكنه قَبِل أن يجتمع بالريفي بشروط ذكرها، فعاد الرسل يحملون تلك الشروط إلى سيدهم.

كان قد اجتمع بهم في بيت له خارج القرية، فلما عاد الرسل راح هو إلى المسجد يصلي، فسمع وهو في سجداته دويًّا كالصاعقة، هو دوي القنبلة التي جاء بها رسل الريفي، ووضعوها تحت السجادة التي كانوا جالسين عليها، وهم يشربون الشاي ويدعون للشريف بطول العمر!

هي البركة، رأى الناس مفعولها في ذلك البيت الخراب بعد أن خرج الشريف منه.

ولكن البركة لم تدفع عن البلاد ويل النكبة الأوروبية الكبرى؛ فامتدت إلى المغرب، وهيَّمَنَتِ المجاعة في أطرافه، فأشار على الريسوني بعضُ رجاله بأن يتقرَّب من الألمان، فيمدوه بالذخيرة والمال ليواصل الحرب، وردَّدوا ما كان يُشاع يومئذٍ، وهو أن الألمان لا محالة منتصرون، فإذا والاهم ينصبونه سلطانًا على المغرب أجمع.

وقد كان للألمان رسل منهم في طنجة، وغيرها في شمالي أفريقيا، يبثون الدعوة لبلادهم، ويغرون الزعماء بالوعود الخلَّابة؛ فوعدوا الريسوني بالمساعدات المالية والحربية إذا هو حمل على الفرنسيين في المنطقة الجنوبية، فرفض بتاتًا، وقيل إنه قَبِلَ منهم بعض الذخيرة والسلاح دون أن يعقد وإياهم عهدًا ما.

أما الإسبان، فقد سعوا لتخفيف الأزمة الاقتصادية بما بذلوا من الإسعاف في البلدان التي كانت في حوزتهم، وقد حاوَلَ رسل السلم، ومنهم المقيم العام والقنصل زوغستي، أن يُصلِحوا بين حكومتهم والريسوني، فلم يتوفَّقوا. ما لان عود الشريف وما تغيَّرَت كلمته: لا سلم ما دام سلفستر في المغرب.

ولكن سلفستر كان ماضيًا في زحفه وتغلغله، فوصل بجنوده إلى مدينة القصر الكبير واستولى عليها، ثم احتل مركزًا في الطريق إلى طنجة؛ ليحول دون اتصال الريسوني بها.

الطريق إلى طنجة — حياة الريسوني الحربية.

سلفستر يستولي على تلك الطريق! غصَّ الشريف بهذا الخبر؛ فجمع قواده في جبل الحبيب، وكشف لهم الستار عن الحالة: لم يبقَ من سبيل إلى تموين القبائل، والضائقة تشتد في البلاد. سأشترط على الإسبان في قبول السلم ألَّا يدخلوا الجبال. السهول لهم، والجبال لنا.

وما ذكر سلفستر؟ سلفستر لا يزال في المغرب، وقد كُتِب له النصر أو شيء منه.

ولكن البركة لا تزال مع الشريف.

كان المقيم العام يميل إلى قبول شروط الصلح التي عرضها الريسوني، وكان الجنرال سلفستر يرفضها، فاشتد الخلاف بينهما، وبلغ منتهاه يوم أرسل الريسوني رسولًا إلى طنجة لغرض خصوصي، فقُتِل هناك غدرًا — قتله رهط من الشرطة بأمر من الضابط المحلي الإسباني أو بعلمه — فاحتدم المقيم غيظًا، وأرسل إلى سلفستر يدعوه إليه، فوبَّخَه على ذلك الغدر، وطلب منه أن يستقيل.

أبى سلفستر، واحتجَّ مكابرًا، فجلس المقيم على منضدته قائلًا: إذن، أنا أستقيل.

وكتب حالًا كتاب الاستقالة ودفعه إليه ليقرأه.

البركة تلازم الشريف.

لا سلم ما دام سلفستر في المغرب.

وهذا سلفستر يرى ما فعله المقيم العام، فيخجل ويكتب مثله سطر الاستقالة.

وقد قبلت حكومة مدريد الاستقالتين، وعيَّنَتِ الجنرال خوردانا Jordana مقيمًا عامًّا، والمركيز بللبا Villalba خلفًا للجنرال سلفستر.

لا سلم ما دام سلفستر في المغرب. أما وقد رحل، فالسلم أصبح قريبًا من مريديه. فجاء صديق الريسوني القنصل زوغستي يجدِّد السعي، وكان المقيم العام الجديد مؤيدًا له، فتحقَّقَتِ الآمال بصُلْح — صُليح — عُقِد في سبتمبر سنة ١٩١٥، على أن تكون الجبال للريسوني والشواطئ للإسبان.

وقد أعادت الحكومة الإسبانية أملاكه إليه، ومدَّتْه بالمال لتخفيف وطأة الجوع في القبائل، وتعهدت بدفع نفقات «محلته» أي جيشه المحدَّد بألف مقاتل؛ لحفظ الأمن والنظام في منطقته الجبلية، التي كانت عاصمتها تزروت في الطريق إلى جبل العلم.

فهل استقام الأمر للريسوني بعد انفراده في السيادة بتزروت؟ أَوَيستقيم الأمر لحاكمين، كلاهما ذو سيادة مطلقة، في البلد الواحد؟ قامت القبائل بعد ذلك الصلح تقول: خاننا الريسوني، باع البلاد للنصارى. وقد تألَّبَ عليه بنو حسن وبنو مصور وبنو عروس وغيرهم، فهجموا على تزروت بالبنادق والفئوس يريدون محق «محلته» وهدم بيته، فنازلتهم جنود «المحلة» وردتهم منهزمين.

كانت القبائل تحارِب مع الريسوني بشجاعة ركنها الإيمان، الإيمان بالله والبركة، أما في محاربتها الريسوني فقد كان الإيمان يفل من عزمها، ويضعف فيها الشجاعة

والاستبسال. هي البركة التي كانت تخشاها، تلك البركة التي دفعت عنه مرارًا رصاص البنادق، وكل شر وأذى. كان يؤمن بها الأصدقاء والخصوم، وإذا حمل هؤلاء عليه فبقلب خائر ويد مضطربة، فيطلقون بنادقهم وهم يذكرون «البركة» فينهزمون.

وهذا أحد أبناء الريسوني يخرج عليه ويمشي برجاله إلى تزروت يريد اكتساحها، فينهزمون عند الأبواب، ويرابطون في قرية مجاورة، فيخرج الريسوني برجاله ليلًا، وقد حملوا المشاعل والبنادق ففاجئوا العدو «بالبارود» وألقوا المشاعل على سطوح القرية، فاشتعل قشها والتهمت النار القرية بأجمعها.

وجاءت في اليوم التالي ابنة ابن عمه، وهي فتاة حسناء، تسترحم الريسوني لا من أجل أبيها الذي فَرَّ هاربًا، بل من أجل أمها التي كانت مع الخوارج.

– العفو، العفو عن أمي، طوَّل الله عمر سيدي.

– وأنتِ، يا بنتي؟

– أنا تحت قدمَيْ سيدي.

– أنتِ في عيني وقلبي، ولا بأس على أمك.

ذهب سلفستر، واندحر الخصوم من القبائل، وغنم الشريف غنيمة الحسن والجمال! فاقترن بابنة ابن عمه الحسناء. فهل صفا له الجو بعد ذلك؟

كان المقيم العام الجنرال خردانا مخلصًا للريسوني، يرعى عليه حرمته، ويعمل ما بوسعه لتعزيز سيادته في الجبال، فيحيل إليه كل مَن جاءه منها شاكيًا، وقلَّما يتدخَّل في شئونه.

على أن الحوادث كانت تحول دون تحقيق أمانيه في المسالمة والتعاون؛ فنقضت مرارًا ذلك الاتفاق الذي تحدَّدت بموجبه الحدود بين منطقة الإسبان والأراضي الجبلية المستقلة عنهم؛ فاضطر المقيم أن ينفِّذ خطته في المحافظة على العهود، فقاوَمَه الريسوني، وما كان مثله كريمًا حكيمًا.

– فلان وفلان المسجونون عندكم هم من منطقتنا، فيجب أن يُحاكَموا عندنا؛ لذلك أسألكم أن ترسلوهم إلينا.

– فلان وفلان وفلان لصوص وقَتَلة، ولكني حبًّا بخدمة إسبانيا وإكرامًا لكم، أعيدهم إليكم.

وأعادهم، بعد أن قطع أيديهم. فهل تستغرب غضبة المقيم؟ وهل يستغرب عمل الريسوني وقد برَّرَه الشرع الإسلامي.

قال المقيم: هي فظاعة. فقال الريسوني: هو عدلنا؟ وقد كنتُ رحومًا في تنفيذه. كان من الواجب عليَّ، وهم لصوص وقتلة، أن أقطع رءوسهم.

– أفي هذا الزمان؟

– في كل زمان.

– الحكم بما توجبه المعاهدة هو غير الحكم بما نريد.

– لا حكم يستقيم، لا بإرادتي ولا بما توجبه المعاهدة، إن كنت لا أقطع أيدي اللصوص، ورءوس المجرمين.

هي ذي العقدة التي يعقدها الشرع ولا يحلها القانون. هي ذي المعضلة في التوفيق بين الحكمين الإسلامي الصافي والمسيحي المدني.

وما كان المقيم موفَّقًا في سياسته الخليفية؛ فقد سأل الريسوني وألَحَّ عليه، أن يعترف بخلافة المولى المهدي، ويقبل منصب الصدارة العظمى، فكان يرفض قائلًا: تحتقرني القبائل وتخرج عن طاعتي إذا رأتني أنحني أمام لا شيء.

لقد كانت سياسة مَن تقدَّمَ خردانا من المقيمين مبنيةً على القاعدة: بلادي وإن أخطأت. فيحاولون أن يخدموا بلادهم بشتى الأساليب، مهما كلَّف ذلك من مال ورجال. أما خردانا فقد اتبع خطة الاعتدال والإنصاف في خدمة بلاده وبلاد المغرب؛ فسعى لعقد معاهدة القسمة بينهم وبين الريسوني، وأدرك بعد ذلك الخطأ فيها.

والحق يقال: إن المساومة في الرياسة، سواء أكانت أجنبية أم وطنية، تولد المشاكل والشرور. وإن الحق فيما قاله الريسوني يوم اجتمَعَ للمرة الأولى بالجنرال سلفستر: لا مكان لأسدين في غابة واحدة.

فقد كانت سلطة المقيم العام تضعف يومًا فيومًا؛ إذ إن الريسوني يحكم في الجبال بأمره، فيحول دون امتداد النفوذ الإسباني إليها، ولا يحترم في نفوذه الحدود والعهود، وما كان مع ذلك يعامِل المقيم، كما كان يعامِله، بالمعروف أو في الأقل بالمجاملة؛ فأثَّر ذلك أشد التأثير في نفسه، فكتب إلى حكومته يقول: إن سياسة الاعتدال التي اتخذتها قطعت طريق الجبال على التقدم الإسباني في البلاد.

اعترف خردانا بخطئه، وفي ذلك اليوم من نوفمبر ١٩١٨، وفي تلك الساعة التي كان يوقِّع فيها ذلك الكتاب، أُصِيب بنوبة قلبية، فسقط القلم من يده، وما رأى بعد ذلك نور الحياة الدنيا.

خلف خردانا الجنرال بيرنغِر Berenguer فكان مخالفًا له في سياسته، بيرنغر — وفيه شيء من سلفستر وشيء من مارينا — صمَّم على احتلال عسكري عام للمنطقة

كلها، فكتب إلى الريسوني كتابًا صريحَ الكلمة شديدَ اللهجة، فردَّ عليه الريسوني بمثله: الحدود بيننا القوة.

عاودت الاضطرابات البلاد، وخصوصًا على الحدود الريسونية الإسبانية، فتعددت «العركات» بين رجال الريسوني والمخافر، وكثر التجاوز والإجرام في شتى المظاهر — تهريب السلاح والقتل والثارات — تتلوها الشكاوى من الجانبين إلى حكومتي تطوان وتزروت.

وقد كان طريق طنجة-تطوان مفتوحًا، فسارع الريسوني إلى قطعه، والاستيلاء عليه لجلب الذخائر والسلاح تهريبًا في الليل ... تلك البضائع للتجَّار تستحيل بعد أيام بنادق ورصاصًا للجيش.

سلطان الجبل؛ يجب أن نضع حدًّا لسلطته، يجب أن يُذَلَّ، يجب أن يذهب. رُدِّدَتْ هذه الكلمات في تطوان، ورُدِّدَتْ في مدريد، فاختارت من قوادها أشدهم بأسًا، وأصلبهم عودًا؛ لتضرب الريسوني الضربة القاضية.

عاد الجنرال سلفستر إلى المغرب.

وهناك على رأس جبل العلم، المقدس بروح عبد السلام الطاهرة، في ليلة مقمرة، اجتمع زعماء القبائل من بني عروس وبني غرفط وغمارة والأخماس، ومعهم علماء زاوية تلدي — أكبر علماء المغرب — فولوا وجوههم شطر المشرق، قبلة مسلِمِي الغرب، وتَلَوا حزبًا من القرآن، فصلوا وسجدوا، ثم نادوا بالريسوني سلطان الجهاد، وعندما أطلق الناس بنادقهم مهلِّلين، صاح بهم أحد الشيوخ قائلًا: ادَّخِروها للنصارى.

عاد سلفستر إلى صراعه في الأمس، عاد إلى الريسوني بروح جبَّارة، وقوة قهارة، ففتح طريق طنجة، أهم طرق المواصلات الخارجية، واحتلَّ الفندق، باب المواصلات الداخلية. انتزعه من يد عدوه الشريف، فقال ذلك العدو شارحًا أمره: وجاءت الطيارات، طيور الجن ترمي بيض الموت علينا في الفندق، فتراجعنا.

ثم اشتبكت رجاله والعسكر الإسباني في وادي الراس، فدامت المعركة يومين، وكُتِب فيها النصرُ للريسوني، فقال المنتصرون: البركة والله أقوى من جيوش إسبانيا.

ولكن سلفستر، بعد أن استولى على طريق طنجة والفندق، تقدَّمَ إلى أصيلة وصمَّمَ على تطويق بني مصور.

بل كان للقوات الإسبانية، المقسومة إلى ثلاثة أقسام، ثلاث محجات؛ فمن تطوان تطلعت القيادة العامة إلى شفشاون، ومن العرائش إلى بني غرفط، ومن «سلفستر» —

كان يعلل سلفستر نفسه، وهو ينظر إلى جبال بني عروس، بالدخول إلى الزاوية المباركة بتزروت.

وما وقف الريسوني عند انتصاره في وادي الراس، بل استمَرَّ يجمع المقاتلة، ويجلب العتاد لحرب طويلة.

عاد سلفستر إلى المغرب، والريسوني لا يخادع نفسه.

ومما هو جدير بالذكر أن الضبَّاط المغاربة، المعلمين في المدارس الحربية الفرنسية والمدربين في الجيش الفرنسي، كانوا يساعدون الريسوني، كما ساعدوا بعده عبد الكريم.

ولا يفوتني أن أذكر كذلك أن الضابط فرنسيسكو فرنكو، القائد يومئذٍ لكتيبة في اللفيف الأجنبي كان مرابطًا في وادي «لاو»، فاشترك في المعارك التي أَدَّتْ إلى احتلال شفشاون في أكتوبر من سنة ١٩٢٠.

وبعد احتلال تلك المدينة فتحت الطرق الثلاث بينها وبين وادي «لاو» والعرائش والقصر الكبير، وتُرِكت «عشاش النسور في جبلَيْ بوهاشم والعلم» للريسوني.

في فصل الشتاء من سنة ١٩٢١ بدأ نجم الريسوني يأفل، وفي صيف تلك السنة أفل نجم الجنرال سلفستر، وطلع نجم عبد الكريم الخطابي، الذي أضرم نار الثورة في الناحية الشرقية، فكانت فاتحة انتصاراته نكبة الجيش الإسباني في أنوال.

هناك نكب الجنرال سلفستر، الذي كان قد نُقِل إلى مليلية — مليلية — ليتولى قيادة الجيش الشرقي، ومنه في تلك الأيام تسعة عشر ألفًا في أنوال بجبل أرويت، فهجم الريفيون عليهم، وفتكوا به فتكًا ذريعًا؛ قتلوا ستة عشر ألفًا منهم، ولحقوا بالبقية الهاربة يثخنون فيها، ثم قطعوا على سلفستر الطريق إلى الساحل، فوصلوا إلى أبواب مليلة.

بعد هذه الهزيمة لم تقم للجنرال سلفستر قائمة، بل أمسى ولا خبر له ولا أثر إلا ما كان من إشاعات. فعندما وصلت النجدة إلى مليلة استقبلها النائب العام، فسأله أحد الضباط عمَّا حلَّ بالجيش، فقال: إن سلفستر انتحَرَ — وقيل إنه قُتِل — ولم يبقَ واحد من القيادة العليا، وإن الهلع والذعر استولَيَا على الجنود الهاربين.

كان الريسوني عالمًا بما حَلَّ بالإسبان في الريف، بل كان عالمًا، يوم دنا نجم مجده في المغيب، بما يُعَدُّ للإسبان هناك؛ فقد تراسل وعبد الكريم بخصوص الثورة، فرغب الزعيم الريفي في التعاون ورغب الشريف عنه. أما السبب الحقيقي في ذلك فهو مجهول.

قال لي أحد قادة الريسوني إن المؤن كانت قد نفذت عند الشريف، وإنه كان يأمل أن فوز عبد الكريم يمكنه من تحويل بعض قواته إلى الجبهة الغربية، فخمدت فيها نار القتال ريثما تصل في الأقل المؤن والذخيرة.

وقد قال الريسوني نفسه — روتها روزيتا فوربس في كتابها «سلطان الجبل»:

> إذا أخلف الإسبان وعودهم التي قطعوها لي، أراجع فكري بخصوص عبد الكريم.

أما الإسبان فقد كانوا يسعون للسلم في الناحية الغربية، ويواصلون في الوقت نفسه القتال؛ ذلك لأن تغلغُلَهم في الجبال كان محفوفًا بالأخطار، وعندما أبطأ الجنرال بَريرا Barera في زحفه من شفشاون، وفتح الطرق إلى جبال الأخماس، استعادته حكومة مدريد، وبعثت بالجنرال سان خرخو مكانه، فاستأنف الزحف في ربيع السنة التالية (١٩٢٢) تتقدمه الطيارات، فحلَّقت فوق جبل بوهاشم، تمهيدًا للجيش في تطويقه تزروت.

وجاءت «طيور الجن» تضرب تزروت بـ «بيض الموت»، فاستمرت في ذلك ثلاثة أيام وهي تهدم وتحرق كل قائم فيها عدا الجامع ودار الريسوني.

حدَّثَني ضابط إسباني قال: كنت في الحملة التي فتحت تزروت، وكنتُ أول مسيحي دخل بيت الريسوني في تلك الوقعة، ساعة كانت طياراتنا ترمي القرية بالقنابل فيسقط منها في ساحة البيت، وهو جالس هناك تحت السنديانة[٩] لا يبالي.

ولكن «طيور الجن» أجبرته أخيرًا على التسليم، أو بالأحرى على الرحيل، ففَرَّ ورجاله إلى حيث كان قد أرسل عائلته — إلى جبل بوهاشم ملجأ أهله.

وفي يوليو من تلك السنة سقطت زاوية تلدي، أقدس الزوايا لدى الرياسنة، بعد أن دافعت عنها قبيلة الأخماس بضعة أشهر، وشارَكَ الطلبة في ذلك الدفاع، وعندما انهزموا حملوا معهم المخطوطات القديمة التي كانت مخزونة في زاويتهم المشهورة، كما فعل سابقًا أجدادهم، منذ أربعمائة سنة، يوم خرجوا من إسبانيا ومعهم الكثير من كتب المكتبة العامة بغرناطة.

[٩] هذه السنديانة العتيقة يقدسها الرياسنة، فعندما بنى الشريف بيته لم يقطعها، بل بنى البيت حولها.

هي المرحلة الأخيرة في جهاد الريسوني؛ فقد جاءه بعدها الرسل يقولون: إن الجنرال بيرنغر قد عاد إلى إسبانيا، وإن المقيم العام الجديد اسمه برغيت Burguete ، وأنه يحمل في حقيبته طيبات سياسة جديدة؛ فألحوا عليه في الصُّلْح، فأبى أن يكون هو الطالب، وثبت مطمئنًا في موقفه حتى تَمَّ ما كان يتوقَّعه.

عرض المقيم الجديد السلم بواسطة الجنرال خيرونا والقنصل زوغستي والترجمان سرديرا، فاجتمع هؤلاء به في الجبل أولًا وثانيًا، وقد حضر الاجتماع الثاني بعض قادة القبائل التي كانت ترفض السلم، وتريد جهاد النصارى حتى النهاية، فصرَّح الريسوني بمطالبه وعددها، فبدأ الإسبان يقبلون …

وعندما قاموا يودِّعون قال للخدم: خذوا هذه السجاجيد والوسائد ونفِّضوها؛ فقد وسَّخها النصارى!

فعاتبه بعدئذٍ أحد أولئك النصارى، فقال: قد تعمَّدْتُ ذلك، لأسكِّن خواطر أولئك المشايخ، وإلا استحال عقد الصلح مع المحافظة على ولائهم؛ ففي تنفيض السجاجيد مصلحتكم قبل مصلحتنا.

تلك المفاوضات والاجتماعات أسفرت بعد بضعة أشهر — في الخريف من سنة ١٩٢٢ — عن معاهدة صلح وسلم وولاء، ولكن الإسبان لم يسلموا بمطالب الريسوني إلا بشرط واحد، وهو أن يزور الخليفة بتطوان. فَلَانَ الشريف قليلًا وساوَمَ حتى في هذا الأمر؛ أرسل عائلته إلى العاصمة لتزور المهدي بن المولى إسماعيل.

أما مطالبه فهي: (١) أن تُعَادَ إليه أملاكه المحجوزة. (٢) ويُؤذَن لعائلته بأن تسكن في القصر بأصيلة. (٣) وتُبنَى تزروت مقره. (٤) ويُعيَّن للقبائل قادةٌ من كبار رجاله. (٥) ويدفع لجيشه ما حبس من المال أيام الحركة.

وقد تعهَّد هو بأن يسرح ذلك الجيش، إلا الحرس منه، وأن يساعد الإسبان بما له من نفوذ في القبائل ليحتلوا الجبال، ولكنه لم يعترف بالمهدي خليفة للسلطان، ولا لأحد من الحكَّام، وما طلب لنفسه وظيفة أو مالًا.

ولا تغيَّرَ موقفه تجاه البيت العلوي الحاكم؛ فقد أراد أن يكون للبلاد سلطان من هذا البيت حقيقةً ومعنى، قانونًا وعملًا، وإن كان لا بد من الحماية فهو يفضِّل الإسبان «لأنهم يستطيعون أن يحمونا، ولا يقوون على ظلمنا.»

بعد هذه الخاتمة لجهاد الريسوني، اشتدت الثورة على الإسبان في بلاد الريف، وامتدت إلى قلب المنطقة غربًا؛ فانضَمَّ إليها قبائل بني سعيد وبني حسان، حتى بعض أصدقاء الإسبان كالبقالي في غمارة وغيره من القواد.

وحسبنا ذكر بعض الحوادث البارزة؛ ليدرك القارئ مقدار ما قاسته وبذلته إسبانيا في المغرب:

(١) لقد تجرب في تلك الحروب أكبر قوادها؛ ميلان إستراي وسلفستر ومولا وبيرنغر وخُردانا وسان خرخو، وكان الكومندان فرنكو تحت قيادة أكثرهم في معظم القتال، فقد خاض غمار سبع وأربعين معركة خلال ست سنوات (١٩١٨–١٩٢٤)، فحارَبَ الريسوني، وحارَبَ عبد الكريم.

(٢) من الحاميات في غمارة، التي حمل عليها الثوار، وأذاقوها الأَمَرَّين في الحصار: حامية سولان، فقد قطعوا عنها الماء، فشرب الجنود برميلين من الخل، حتى البول؛ فمات الكثير بينهم صبرًا.

(٣) استغاثت المعسكرات في قبائل بني سعيد، فأرسلت النجدة الأولى إلى كوب دسْتَه، التي كانت محاصَرَة من جميع جهاتها، فأفنيت بأجمعها، فتَلَتْها الثانية والثالثة في الهزيمة والفناء. كان الكومندان فرنكو يومئذٍ بوادي لاو، فهروَلَ إلى تطوان، يعرض نفسه وجنوده لإنقاذ كوب دسته، فمشى إلى قصده وما أدركه؛ لأن الثورة كانت قد امتدت إلى ضواحي شفشاون وتطوان، فقطعت المواصلات بين البلدين وطنجة.

(٤) كان الجنرال خيرونا محتلًّا شفشاون ومعه كتيبة من اللفيف الأجنبي بقيادة فرنكو، فاضطر أن يجلو عن البلدة سرًّا في الليل؛ لينجو من جنود عبد الكريم، الكامنين وراء الآكام، وبين الصخور والصبير. مشى فرنكو بكتيبته تلك الليلة، ينقلون المؤن إلى الجيش المرابط بدار عكوب، ويا لها من ليلة تعدَّدَتْ أهوالها! وما كانت أهوال الطبيعة — الأمطار والأوحال والبرد والرياح والظلام الدامس — «لم يكن الواحد منَّا يرى الآخَر» — بأشد من هول المغاربة، الخفاف الأحمال، يرسلون مع الأمطار والرياح وابلًا من الرصاص على أولئك الإسبان؛ فقُتِل في الطريق الجنرال سرانو، وجُرِح الجنرال بيرنغر وعدد غير قليل من الضباط.

توالَتِ النكبات على الإسبان خلال السنوات الثلاث التي تَلَتِ الصلح بينهم وبين الريسوني، وما اطمأنَّ بال الريسوني وهو في تزروت الجديدة، يمحص النفس تحت سنديانته، ويقدِّمها صافية في الزاوية المباركة بين يدي الله. ما اطمأن سيد تزروت، ولا اطمأنت تزروت:

عوى الذئبُ فاستأْنَسْتُ بالذئب إذ عَوَى وصـوَّتَ إنـسـانٌ فـكـدْتُ أطـيـرُ

لله من هذا الإنسان، الذي يجر بلاياه على الجماد والحيوان! فتزروت المتفيئة جلال الغابات في جبال بني عروس، تزروت المقدسة، المدمرة، المجددة البناء لا تزال رهينة الردى، ولا تزال الفواجع تتأثَّر سيدَها الريسوني.

والسبب في ذلك وفاؤه للإسبان، وبره بعهده لهم: سأساعدكم لتحتلوا البلاد، ولكن هذا الخطَّابي يعترض لنا في جبالنا.

كان عبد الكريم يحتل المنيع من الجبال الغربية، والإسبان ينهزمون، والريسوني برًّا بعهده، يبذل ما له من النفوذ في القبائل؛ ليجتذبها إلى الإسبان، ويضمن ولاءها لهم. لا بد إذن من اصطدامٍ بعبد الكريم.

هي ذي خلاصة تلك الحوادث المفجعة التي تلت الصلح الإسباني الريسوني، وهاكم الخبر للنكبة التي خُتِمت بها حياة الشريف.

بعد أن خرج الجنرال جيرونا من شفشاون، دخلها جيش الزعيم الريفي وهي مقسومة إلى حزبين؛ غمارة والأخماس. فكانت غمارة قلبًا وقالبًا مع عبد الكريم، وكانت الأخماس تتذبذب بينه وبين الريسوني؛ فسعى لاستخلاصها بالمساعدات — بالسلاح والذخيرة والمال — والاستعانة بها على غمارة. وعمد عبد الكريم في بدء الأمر إلى السياسة والكياسة في مقاومة المساعي الريسونية.

من ذلك أن أخاه محمدًا الذي كان محتلًّا القلعة بشفشاون، أرسل وفدًا إلى الريسوني يدعوه للتعاضد والتعاون، فعاد الوفد خائب الأمل،[١٠] ثم بعث خمسة وعشرين من رجاله يطوفون في قرى الأخماس لبَثِّ الدعوة لعبد الكريم، والحث على مناصرته، فكانت «خزانة» أولى تلك القرى وآخِرها.

[١٠] قال الريسوني لمؤلفة كتاب «سلطان الجبل» ما أترجم حرفيًّا:

رحَّبَ أهل خزانة بهم، وأضافوهم، ثم هجموا عليهم بالسلاح في الليل، فقتلوا خمسة منهم، وقبضوا على زعيمهم، ففَرَّ الباقون هاربين.

وقد أُرسِلت على الأخماس حملة تأديبية، بقيادة السي يزيد بن صالح، قائد بني يرزين يومئذٍ، ومن كبار قادة عبد الكريم، فدارت رحى القتال بينهم وبين تلك القبيلة، وكانوا منتصرين؛ قتَّلوا من رجالها وشرَّدوا، ثم حرقوا القرية التي غدَرَ أهلها برُسُل السِّلْم إليهم.

بعد ذلك زحفوا على تزروت، مقر صديق الأخماس، وعونهم العنيد، فالتقت هناك بنادق ابن صالح — تسعمائة منها — بخمسمائة من بنادق الريسوني، فدامت المعركة يومين، قُتِل فيها خمسون من رجال عبد الكريم، ونحو مائة من حملة الشريف.

وفي اليوم الثالث دخل البيت قائد خمسين، يُدعَى الهلالي، ريفيٌّ من الريف، فقبضوا على الشريف الهَرِم — كان يومئذٍ مريضًا وفي السبعين من عمره — وقبضوا على أهله، ومعهم ابنه وأبناء عمه وحريمه، وبعض خدمه، وذهبوا بهم جميعًا إلى تماسنْت.

من السجن بالصويرة سنة ١٨٩٤ إلى الأسر بتماسِنْت سنة ١٩٢٥؛ هي ذي خاتمة مراحله في المغامرات السياسية والروحية، بل هي ذي حياة مجاهد عربي، شريف، فصيح، شجاع، صادق، أبيٍّ، وفيٍّ، كريم.

من الصويرة إلى تماسنت تعصف هذه الروح الجبارة، القصيرة الربيع، الضئيلة الصيف، الطويلة الشتاء، والشتاء الطويل لا يتقدَّمه خريف، ولا يتلوه ربيع!

فبعد خمسة أشهر من واقعة تزروت، وقبل أن نوَّرت الشقائق في جبال الريف، مات الريسوني في تماسنت ودُفِن هناك.

إنْ عَلَّمَ الأجنبي الوطني، فالوطني أخيرًا يغلب الأجنبي. هذا عبد الكريم الخطابي قد تعلَّم في مدريد وصار مهندسًا تخصَّصَ في علم المناجم، ولكنه استخدم علمه للتخريب. هو يحارب القدر، بدل أن ينتفع بما أرسله الله. لما كان صبيًّا طلب والده مني أن أساعده ليرسل ابنه إلى مدريد يتلقَّى فيها العلوم ففعلت، فكان جزائي أن يعاديني عبد الكريم، ويحرِّض القبائل عليَّ.

وفي تلك السنة، وذلك الربيع، دُفِنت كذلك آمال عبد الكريم الخطَّابي، بعد أن جمع الفرنسيون والإسبان كلمتهم، فسلَّم للقيادة الفرنسية (مايو ١٩٢٦)، ثم نُفِي إلى جزيرة ريونيون في البحر الاستوائي، وكان لا يزال إلى يومنا هذا في منفاه.

جمع الله كلمة العرب، فيُضيء نورهم مرةً أخرى في العالم.

الفصل التاسع

من القصر الكبير إلى القصر بأصيلة

في هذا الأوقيانوس الذي تلطَّفَتْ حواشيه بأساطير الأقدمين، وحول جزائره الخالدات، وعلى شواطئه الذهبية، نشر حَنُّو الفينيقي، منذ ألفين وخمسمائة سنة، أشرعته الزاهية الألوان، المقدسة في هيكل البعل، وسجَّلَ في تاريخ الرحلات الاستكشافية العمرانية خبر رحلة الإنسان الأولى، التي ربطت قرطنجة بطنجِس (طنجة) ووصلت طنجِس بجزائر الخط الاستوائي، بعد أن أسَّسَ تلك المستعمرات والمدن المخلدة لذِكْره وذِكْر رفقائه أبناء فينيقيا الأفريقية.

أجل، إن أول مَن رحل رحلة استكشافية عمرانية في العالم هو حنُّو الفينيقي، الذي تقدَّمَ كولمبوس بألفَيْ سنة.

وفي هذا المغرب الأقصى، بمدينة طنجة، وُلِد الرحَّالة العربي الأول ابن بطوطة، وقام برحلاته في الشرق والغرب وفي أواسط أفريقيا، كاشفًا لأسرار البلدان وشعوبها، واقفًا عند آثارها وأطلالها، مسجِّلًا لما شاهَدَ من عجيب العادات والتقاليد والعقائد، ولما سمع من غريب الأخبار والقصص والأساطير، مصوِّرًا ببيانه تلك الصور الأدبية التي لا تزال مشرفة مُطرفة في صفحاته الخالدة.

أجل، إن أول مَن رحل رحلة استكشافية أدبية في العالم هو هذا العربي المغربي أبو عبد الله محمد المعروف بابن بطوطة، وكان ذلك بعد حنُّو بألف وثمانمائة سنة.

فإن كان الفينيقيون من العرب، أو كان العرب من الفينيقيين، لا فرق اليوم عندنا، فقد تبيَّنَ من دَرْس الآثار المكتشفة في خرائب القصور والقبور — في جبيل والبحرين — أن الشعبين من جنس واحد، هو الجنس الفاتح بفرعيه العمراني والأدبي، الجنس السامي الجامع بين الخيال الروحي والحقائق المادية، وإنَّ فخْرَنا اليوم بالرائدين

الفينيقي والعربي من روَّاد الاستكشاف العمراني، والاستكشاف الأدبي، لَهُوَ فخر واحد، لا ينقص إذا ما ذكرنا حنو، ولا يزيد في ذكرنا لابن بطوطة.

وإن صاحب هذه الرحلة الأدبية العمرانية السياسية لَمِنْ سلالة هذين الرائدين العربيين الفينيقيين، ولكن بين يومه وأيامها أحقابًا من الزمن طلعت فيها نجوم للفينيقيين وللعرب، وأفلت نجوم، فبعد أن أشعلنا في العالم مصابيح العلم والأدب والعمران، وشيَّدنا لها المعاهد والقصور، دُمِّرت الديارُ، وأُطفِئت الأنوار، وطُمِست الآثار. ذهبت النكبات بما شيَّدْنا فأمست الأمة المجيدة ذات تاريخ مجيد، بمآثره وكنوز العلم والأدب، ثم جاء المستشرقون الأوروبيون يرحلون رحلاتهم العلمية، فيكتشفون تلك الكنوز ويدرسونها، متطلعين منها إلى ماضينا العربي الفينيقي، ذلك بعد أن كنَّا نحن المدرسين المعلمين لتلك الأمم، أممهم، البانين لهم حاضر حضارتها السعيد، المتطلعين مما شُيِّدَ فوقه إلى مستقبلنا الحافل بالأمجاد.

ومن أولئك المستشرقين المستكشفين: العالِم الإسباني دومنغو باديا لبلخ Domingo Badia Leblich المعتنق الإسلام، المنتحل اسم علي بك العباسي، الذي ساح في هذا المغرب الأقصى سياحته العلمية، الاجتماعية الأدبية، في العقد الأول من القرن الماضي، أي منذ مائة وثلاثين سنة، فكانت الرحلة الأوروبية الأولى من بابها.

وقد طبع كتاب رحلته باللغة الفرنسية، في ثلاثة أجزاء سنة ١٨١٤، طُبِع بباريس في تلك الهدأة النابليونية بين جزيرة إلبا وواترلو، يوم عادت الملكية البوربونية تصلح العرش المتداعي للملك لويس الثامن عشر. وقد قدَّمَ الطابعُ الكتابَ بكلمة وجيزة تُوقِفنا في هذا الزمان مدهوشين لما كان ينتاب الأمم في كل زمان من الخوف على التمدن، بل من الذعر والهلع، فتنادي بالويل والثبور، وتذرف الدموع على الحضارة والدين والثقافة والعمران، المهددة كلها بالخراب والاضمحلال. اسمع لأرميا تلك الأيام:

> لم تكن أوروبا في زمن ما مهدَّدة كما هي اليوم بالنكبة الجارفة التي ستعود بها مسرعة إلى التوحُّش Barbarie، فالعلوم والفنون، والتمدن ثمرتها، كادت تكون على وشك الزوال من بلادنا، عندما أعادت العناية الإلهية جلالتكم إلى عرش القديس لويس وهنري الرابع رحمة بالإنسانية …

واسمع لأرميا هذا الزمان، وقد رأى تلك العناية وتحقُّق مقاصدها. فهي تبعث اليوم بالحليفتين إنكلترا وفرنسا لتنقذ الديمقراطية، بل الحضارة نفسها، من الأخطار التي

تهدِّدها بالاضمحلال، وتنذر بعودة الأمم إلى التوحُّش. إن بين أرميا الأول وأرميا الثاني قرنًا وربع قرن من الزمن، وليس ما يدعو للذعر والهلع في الحالين غير فرق واحد، وهو أن تلك الأخطار الوهمية كانت في الماضي نابليونية فرنسية، وهي في الحاضر هتلرية ألمانية، وقد تكون بعد مائة سنة بلغارية أو تركية.

أما المدنية فهي تفدي نفسها دائمًا بالمال، وأما الديمقراطية أختها بالسفاح، فإن لها مثل القطط سبعة أرواح، فلا خوف على الاثنتين ولا هما تحزنان!

نعود إذن مطمئنين إلى موضوعنا وصلته الآن بعلي بك العباسي؛ فقد جاء هذا العالِم الإسباني المغرب في عهد السلطان العلوي المولى سليمان، يحمل إليه الهدايا المثيرة للظنون. لم يكن علي بك من الأغنياء ليرحل رحلة أميرية كلامارتين بعده مثلًا أو السير ولفريد بلونت وزوجته حفيدة اللورد بيرون، إنما كان مقرَّبًا من نابليون بونابرت، وقيل إنه كان رسوله إلى العالم الإسلامي في المغرب والمشرق، مهما يكن من الأمر فإن ما حُمِل إلى السلطان لا يتناسب ومقاصده العلمية؛ فمن تلك الهدايا مدفعان وعشرون بندقية وثلاثون مسدسًا وبرميل من البارود الإنكليزي، تقبَّلَها السلطان شاكرًا، وقد أكرَمَ صاحبها إكرامًا خاصًّا ممتازًا بإهدائه — في ظرف من الدمقس المطرز بالقصب — رغيفين من الخبز. فهنَّأَه الوزير بهذه الهدية قائلًا: لقد صرت أخًا للسلطان!

وقد برهَنَ جلالته غير مرة على هذا الإخاء. فهاك آية من الكتاب الكريم يخطها بيده ويقدِّمها له ليحفظها ذكرًا منه، وها هو ذا وضيفه في المخلوان بالقصر، يحدِّثه في بعض الشئون الشخصية، ويُعِيب عليه طول شاربيه، فيأمر بالمقص ويشير بمقدار ما يجب أن يشذب لتتم في وجهه آية الحُسْن والتحلية.

وقد اهتَمَّ المولى سليمان، وهو الفقيه العالم المحب للعلماء، بأدوات علي بك العلمية لرصد النجوم، وقياس درجات الأرض، وتسجيل الحرارة والرطوبة في الجو، فرفع إحداها بين يديه معجبًا بها، فقدَّمَها هدية إليه، فرفضها قائلًا: لا نُحسِن استعمالها، فهي تنفعكم ولا تنفعنا.

إن رحلة علي بك العباسي لتمتاز بالوصف الجغرافي والطوبوغرافي للأماكن التي مَرَّ بها، وتحقيق درجات الطول والعرض للمدن التي زارها، مع تصحيح بعض الأغلاط التي كانت شائعة في أيامه؛ فقد كان يحمل خارطة لبلاد المغرب، ظهر فيها مثلًا نهر لوكوس شمالي مدينة القصر الكبير، وهو يمرُّ جنوبًا منها، ثم ينعطف شمالًا إلى مصبه في ميناء العرائش، كما قدَّمْتُ في فصل سابق.

لقد كانت القصر الكبير — على ما يظهر من كلام هذا المستشرق — أكبر من طنجة في القرن الماضي، بل كانت المدينة الأولى، بعدد سكانها وأهمية مركزها التجاري، بين مدن الجنوب والسواحل الشمالية. بيوتها مبنية بالطوب، وسطوحها مفروشة بالقرميد كما في أوروبا، وسوقها الكبيرة عامرة بالمخازن والناس، وبينهم النساء المحجبات يلبسن الجوارب.

أما اليوم فالقصر الكبير هي المدينة الثالثة[١] أو الرابعة في هذه المنطقة، تتقدمها طنجة، فتطوان، فالعرائش. لم يقف علي بك في القصر الكبير، في طريقه من طنجة إلى فاس، ليصفها بالتدقيق الذي يميِّز وصفه للعرائش وطنجة؛ فقد كان نهرها شمالًا منها — على خارطته — فردَّه إلى مكانه في الجنوب، وما رأى حتى من ظاهر حالها غير طوب بيوتها، وجوارب نسائها.

هذه المدينة هي اليوم قريبة من مركز الحدود بين الحمايتين الإسبانية والفرنسية، أي من عرباوة، على خمسة كيلومترات جنوبًا منها. أما اسمها، فهو يعود إلى قصر قديم فيها كان يُعرَف بقصر كتامة لأحد قادة بني سريف، عبد الكريم الكتامي، نسبةً إلى قرية من قرى هذه القبيلة، لا إلى كتامة القبيلة المشهورة في المغرب.

وفي القصر الكبير اليوم ما لم يكن بالأمس في سائر المغرب، ولا في خيال علي بك العباسي. في القصر الكبير، محطة لسكة الحديد بين طنجة وفاس، ومطار عسكري إسباني تحطُّ فيه أيضًا الطيارات الألمانية للسفر من أوروبا إلى مدينة القصر الكبير، ومنها إلى الجزائر الخالدات التي تُدعَى اليوم باسم ذلك الطير الغريد الكنار — جزائر كناري. وفي القصر الكبير كذلك مدرسة ليلية للأميِّينَ، وفروع للأحزاب السياسية في العاصمة، ومركز للإذاعة!

ومن شرفة بيت الإذاعة كان زعيم من زعماء المغرب يخطب يوم زيارتنا (١٦ مايو) خطبة من نار، تتطاير بشرارها إلى ما دون عرباوة، إلى قلب المنطقة السلطانية، إلى مقر السياسة الفرنسية؛ فيردِّد الجَمْع المحتشد في الساحة كلمة الخطيب: ليسقط الظهير البربري، ليحيا المغرب موحَّدًا مستقلًّا.

[١] عدد سكانها ثلاثون ألف نفس، منهم خمسة آلاف من الإسبان، وبضعة عشر من الإنكليز والفرنسيين والألمان، وألفان من اليهود.

هذا ما سمعه سائح اليوم، وأما السائح بالأمس علي بك العباسي، فقد سمع الخطيب وهو يخطب خطبة الجمعة في المسجد بفاس، يقول: لا تبيعوا للنصارى، ولا تشتروا من النصارى، لا تتعاملوا والنصارى في أي حال كان.

تغيَّرت الألفاظ، وما تغيَّرت المعاني. تبدَّلت اللهجات، وما تبدَّلت الغايات. هي المقاطعة الاقتصادية منذ قرن وربع قرن. هو الدفاع السلبي في الماضي وفي الحاضر، أما أن الضعيف لا يعتدي على القوي فهو معلوم، وأما أن العرب اليوم، بل الإسلام، في موقف الدفاع فهو معلوم مؤكد أيضًا، ولكن أمم النصارى تخطب كلها اليوم ودَّ الإسلام والمسلمين، العرب وغير العرب، فهل نحن في آخِر ليل المسيحية والإسلام؟ هل نحن ندنو من الفجر الأول، فجر اليوم السعيد في تاريخ الأمم الكبيرة والصغيرة، القوية والضعيفة، في المشرق والمغرب؟ وهل نحن مُقبِلون على عهد جديد في السياسة الأوروبية؟

قُلْ: إن شاء الله، وتعال نكمل رحلتنا.

ليت كل شيء في هذه البلاد المغربية مثل هذا الطريق بين القصر الكبير والعرائش؛ فهو أجمل طريق في المنطقة الشمالية، ومن أجمل الطرق في العالم؛ إن كان في تعبيده، أو في السهول الخضراء التي يمر بها، أو في تشجيره إلى الجانبين من المدينة الواحدة إلى الأخرى — أي مسافة سبعة وثلاثين كيلومترًا — بشجر الكينا النامي نموًّا ماتعًا سويًّا، المغروس على المتر والخيط بقياس واحد هندسي! وأجمل من كل ذلك الرعاية المشمول الطريق بها؛ فقلَّمَا تجد فيه موضعًا حافرًا أو ناتئًا، وقلَّمَا تجد في صفي أشجاره مكانًا واحدًا فارغًا، أو شجرة واحدة متأخرة أو سابقة في نموها. هذا الاعتناء الدقيق يندر في أعمال أهل المغرب العامة. هو أوروبي ولا غرو، يُشاهَد مثله في أكثر الأعمال العامة في أوروبا، وخصوصًا في تشجير جوانب الطرق، وتزيين الحدائق بفرنسا وإسبانيا.

أما السهول، فلم تكن مأهولة يوم مَرَّ بها علي بك العباسي، ولم تكن غير مرعى للماشية؛ فكان يرى في طريقه خيمة هنا وأخرى هناك، وأكواخًا للعرب الرعاة، وقطعانًا من الغنم والبقر تُرعَى حيث نشاهد اليوم سهولًا مزروعة، وبيوتًا في أطرافها للمزارعين.

في مثل هذه المقارنات بين مظاهر الحياة والطبيعة في الأزمنة المختلفة يظهر بعض فضل الرحلات العلمية والأدبية. لقد تحوَّلَ وجه هذه الأرض شكلًا ولونًا، من الكلأ إلى الحنطة، وفي ذلك شيء من التقدُّم. ليت شعري ماذا يكون حالها بعد مائة سنة؟ فلو عاد علي بك العباسي إلى المغرب اليوم لأدهشته ولا ريب نتيجة اكتشاف البخار بعد وفاته ببضع سنوات، بل لأدهشته إحدى نتائجه في سكة الحديد، ولأدهشته أكثر من ذلك

ظاهرة اللاسلكي والإذاعة في اكتشاف الكهرباء والأثير الكهرطيسي في الفضاء. فما الذي يدهش يا تُرَى مَن يعود بعد مائة سنة إلى هذا الوجود؟!

على أن هناك تقاليد وعادات هي من الجمود كالجلمود، فلا تغيُّرَ فيها ولا تبدُّلَ، وهذا المغرب في بعض مظاهره الاجتماعية، وعاداته وتقاليده الدينية، لا يزال اليوم كما كان منذ مائة، بل خمسمائة عام؛ فهذا صبيٌّ على جواد وبعض خلانه يطوفون به في المدينة احتفالًا بانتهائه من قراءة القرآن. هي حفلة الختمة التي يفرح بها ذلك الصبي وأهله، ويهلِّل لها الناس فتحييه الرجال، وتزغرد له النساء.

هذه العادة عربية من قلب بلاد العرب، وهي لا تزال شائعة هناك، وخصوصًا في نجد، مع هذا الفارق؛ فالصبي في حفلة الختمة بالرياض مثلًا يمتطي جوادًا ويشهر سيفًا، وكذلك مَن يراكبونه من خلانه فيطوفون في المدينة وهم يهتفون: سامعين لامعين — أي إنهم سامعون دعوةَ الجهاد يلبُّونها وسيوفهم لامعة!

وهاك قبرًا ذا قبة لولي الأولياء ركب في حياته الدنيا هواه، فحلَّل لنفسه المحرَّمات، وأكثر من الصلاة والشعوذة، فقال الناس إنه ذو كرامات، وأنه إذا شرب الخمر حوَّلَه الله لبنًا على لسانه!

ومما شاهد علي بك في العرائش، التي كانت قرية لا يتجاوز عدد سكانها ثلاثة آلاف نفس، وهي اليوم مدينة سكَّانها عشرة أضعاف ما كانوا في تلك الأيام، شاهَدَ خارج القرية مقامًا لولية أسماها مريانا — مرجانة — مقامًا يُزَار كما تُزَار مقامات الأولياء في هذه الأيام للعبادة والتوسُّل، وليس هذا المقام الوحيد لولية تُستغاث في بلد من بلدان الإسلام؛ فلا يُستغرَب ذلك في المغرب، وقد مَرَّ بك في فصل سابق ما كان للنساء في الماضي من المنزلة الرفيعة في الكهانة، أما اليوم فلا أثر في العرائش، على ما أعلم، أو في غيرها من المدن لمزار الولية مرجانة، أو لولية غيرها بين الأولياء.

ولم يكن في هذه المدن الشمالية التي زارها العباسي أو مَرَّ بها صرح يُذكَر من الصروح، أو جامع يمتاز بشيء يُذكَر من الفن في الهندسة أو التزيين؛ ذلك لأن هذه الناحية الشمالية لم تكن على جانب كبير من العمران، فالمغرب الأقصى في عهد المولى سليمان وأسلافه كان يبدأ بالرباط على شاطئ البحر، وبمدينة فاس في داخل البلاد.

إنما كان لطنجة، على ما يظهر من أخبارها في الكتب القديمة العربية، ماضٍ مجيدٌ، وخصوصًا في عهد الإسلام الأول، يوم مَرَّ بها إدريس الكبير في طريقه إلى المغرب، ثم طرأ عليها من الطوارئ في الحروب، ومن الانقلاب في الاستيلاء، ما جعلها في المنزلة الثانية أو الثالثة بين المدن الشمالية.

أما أصيلة، القائمة على شاطئ الأوقيانوس بينها وبين العرائش، فهي اليوم من المدن الصغيرة أو القرى الكبيرة، سكَّانها لا يتجاوَز عددهم الثمانية آلاف نفس، على أنها في أهميتها التاريخية والأثرية، قديمًا وحديثًا، مثل طنجة في زمانها الغابر.

كانت أصيلة — أو أرسيلا كما تُكتَب بالإسبانية Arcila — من المستعمرات الرومانية، وقُلِ الفينيقية قديمًا، وقد كانت في أيام العرب أول مدينة العدوة مما يلي المغرب، كما يقول ياقوت الحموي، نقلًا عن أبي عبيد البكري. ويقول ياقوت أيضًا إنه «كان عليها سور، ولها خمسة أبواب.»

وذلك السور دُمِّر في الحروب بين العرب والبرتغاليين والإسبان، ولم يَبْقَ منه غير برج واحد من أبراجه على البحر، ظاهره برتغالي لا عربي، كان البرتغاليون جدَّدوه، ثم دمَّرَه العرب في استرجاعهم المدينة، أو الإسبان عندما رموها «بالقنابر» في النصف الثاني من القرن الماضي.

على ذلك الشاطئ وراء تلك البقية من السور، شيَّدَ الشريف أحمد الريسوني قصره الكبير، الذي يضاهِي فنًّا وجمالًا واتساعًا، أعظم القصور العربية في الأندلس أو في المغرب.

ولقد بناه يوم كان حاكمًا في أصيلة من قِبَل السلطان عبد الحفيظ، فاتهمه الجنرال سلفستر بالتسخير في بنائه، ولا أذكر فيما قرأت أو سمعت من أخباره أنه ردَّ هذه التهمة أو فنَّدها، وهو الصريح الصادق في أعماله وأقواله، فلو لم يكن سلفستر صادقًا في الاتهام لما سكت الريسوني، وكأني به يقول — وهو العالم بما كان من مسلك الحكَّام المسلمين وغير المسلمين قبله: أطعموا المحابيس وشغِّلوهم؛ فخير لهم أن يعيشوا ويشتغلوا من أن يموتوا من الجوع والكسل.

وكذلك كان في تشييد القصر بأصيلة، وفي تشييد ما تقدَّمَه من القصور في غرناطة وقرطبة، وبلنسية وفاس ومكناسة.

إن القصر بأصيلة لَهُوَ الريسوني مجسمًا للخلود — الريسوني بفكره، بعمله، بضميره، ببسطة يده. وبكلمة أخرى: إن عظمة الريسوني مجسَّمة في هذا القصر؛ فهو آية في الإسراف بناءً وتزيينًا. أما في الهندسة والفن فليس فيه ما يُحسَب ريسونيًّا؛ إنه لَعربي أندلسي بصحنه وردهاته وبهوه الكبير، كما أنه عربي بمقصوراته المثقلة جدرانها بالرسوم والأصباغ وبالآيات القرآنية والأشعار. كيف لا وفي الحمراء مثلًا مقصورات أَخَذَ عنها صنَّاع المغرب كل ما زيَّنوا به جدران الديوانخانة في الطابق الأول؛ فالجدار مقسوم

إلى ثلاث مناطق غنية: الأولى من الأرض إلى الوسط، فسيفساء زليجية بالأصفر الفاتح والأخضر الغامق والأزرق النيلي. والثانية جص منقوش، ملوَّنة رسومه بالأخضر الفاتح والأبيض المسيج بالرماد. والثالثة خشب محفور بالأشكال المقرنصة المصبوغة بالأخضر والأصفر والأحمر، تعلوها تلك التي تتصل بالسقف، وهي مثلها من الخشب، في رسوم هندسية، دوائر ومثمنات، بدل التقرنص، مصبوغة بالأصباغ التي ذُكِرت، وقد أُضِيف إليها التذهيب. فمن الرسوم المذهَّبَة في أعلى الحائط إلى الفسيفساء الزليجية في أسفله، وبينهما الجص الملون والخشب المحفور؛ هو ذا الإسراف في الفن، بل البذخ والتبذير. فلو وُزِّعَ ما في هذه الغرفة الصغيرة — هي مربَّعَة لا تزيد في طولها وعرضها على الخمسة الأمتار — لو وُزِّعَ ما فيها من النقوش والرسوم والأصباغ وأشكال التزيين الأخرى، على بهو حجمه خمسة أضعاف حجمها، لظَلَّ كثيرًا، ويحسب خارجًا عن التوازن الصناعي والتناسب الفني في البناء.

ولكن التناسُبَ قائم في صحن القصر، وفي وسطه بركة بنافورة من الرخام الطلياني، حوضها قطعة واحدة من المرمر الرقيق، دائرتها خمسة أمتار أو تزيد. هو حوض أنيق الشكل. وهذه النافورة — أو الشاذوران كما تُسمَّى في اليمن — قائمة في وسط صحن طوله مثل عرضه خمسة وعشرون مترًا، تعلوه قبة من زجاج بينها وبينه طابق ثانٍ فيه بهو الاستقبال كبهو السفراء في الحمراء، يليق بأن يكون بيت القصيد لأعظم القصور الأوروبية. مساحة هذا البهو ثلاثون من الأمتار في عشرين، سقفه من الخشب المحفور المزين بالرسوم الهندسية المصبوغة بالصباغ اللازوردي، المطليَّة بالذهب، وفي وسطه قبة كبيرة هرمية الشكل، وإلى جانبيها قبتان صغيرتان مثلها شكلًا، يحيط بكلتيهما أربع كوات محفورة مقرنصة وملونة بألوان السقف الذهبية واللازوردية. إذا ما وقفتَ في هذا البهو يجذب السقف ناظريك، فلا ترى الجدران — وهي مثل تلك التي في الديوانخانة — مقسَّمَة إلى مناطق فنية متعددة متنوعة، ولكن الإسراف فيها يتناسب ومساحتها، فيزين ولا يشين.

هذا البهو يفضي إلى بهو آخَر ولا يفصل بينهما غير صفٍّ من العمد والأقواس الأندلسية، ثم إلى رواق، وراء صف آخَر من هذه الأقواس والعمد يُشرِف على البحر، ويُرَى تحته البرج الباقي من السور البرتغالي، وقد بَدَا صغيرًا حقيرًا بين بحرين، ومن تلك الناحية البحرية يجيء النور وتجيء الشمس في الأصيل، فيملأان الرواق من فيضهما، ثم يدخلان رويدًا رويدًا إلى البهوين، فيلمسان أرجاءهما وألوانهما ورسومهما لمس الحب والاحترام ملمسًا لطيفًا يزيد بما لهما من جلال وفخامة.

وهناك فوق الديوانخانة في الطابق الأول مقصورة أخرى مثلها في الطابق الثاني مزيَّنَة جدرانها بالرسوم الهندسية الملونة التي ذكرت، إلا أن المنطقة الوسطى المحفورة رسومها في الجص باقية على لونها الطبيعي. أإهمالًا من الصنَّاع أو عمدًا لست أدري؟ فهي بين القسم الزليجي والقسم المذهب فوقها آية في الجمال الرائع الخلَّاب، كأنها منطقة من عاج بين منطقتين من الذهب واللازورد. منطقة من العاج، من ذلك اللون العاجي المحروق المنقطع النظير الذي يميِّز صور رمبرانت الزيتية عن سواها من روائع المصورين. هو فن جميل أصيل.

والعجيب أن صاحب القصر الشريف الريسوني كان ينام في هذه الردهة، ينام ناعم البال كأنه نائم في كوخ بجبل العلم! إن ذلك لعجيب عجيب في نظري. فكيف ينام المرء، وهذا الجمال الفني يقبض عليه من السقف والجدران كأشعة الشمس الشارقة بين عينيه، أو كقوس قزح بين جفنيه. إن كان بي شيء من النعاس، ودخلت هذه الردهة، يطير في الحال على جناح البهجة والحبور.

أقول فوق ذلك: إن في الطابق الأول مسجدًا، ولا يفوتني أن أذكر كذلك أن في ناحية من القصر، بالقرب من هذا الجمال الفتَّان، الملطف للشعور، المرهف للإحساس، في هذا الجوار الفني القدسي، ذلك السجن الذي أشعل في صدر الجنرال سلفستر نيران السخط والغضب، وكان من أسباب نكبة الريسوني، كما يقول السياسيون، وفي القول مقاصد تضيع عندها الحقيقة؛ فالظلم ظلم فظيع منكر يوم نريد أن نعزل الحاكم الظالم ونقضي عليه، والظلم عدل وحكمة ومرحمة يوم لا نريد غير تأييد صاحبه وتعزيزه.

لقد أشرت في مواضع شتى من الفصل السابق إلى الأسباب التي حملت الحكومة الإسبانية على حجز أملاك الريسوني، ومنها هذا القصر، ثم أعادت إلى ولده خالد الأملاك دون القصر الذي هو الآن ملك الحكومة الخليفية، وقد رأينا العمَّال يمدون الأسلاك الكهربية، ويصلحون بعض الغرف لأغراض عامة، فيضاف إلى الآثار العربية الخالدة، ويغدو مثل الحمراء والقصر بأشبيلية مزارًا للسيَّاح والمستشرقين.

انتهينا من الطواف في القصر، ووقفنا في ساحة البلدة أمام القلعة البرتغالية التي لا تزال قائمة هناك، ومشينا من الساحة نتذوق روح «أصيلة» في بيوتها وشوارعها، فإذا هي كالعرائش والقصر الكبير، لا يميزها عن سائر المدن الشمالية غير ذلك القصر المنيف، قصر الشريف الريسوني. الوداع يا أيها الشامخ بأنفه على تلك البقية من آثار الأجانب الذين كانوا بالأمس من المتغلبين.

وها نحن أولاء في الطريق عائدين إلى تطوان، ترافقنا البهجة، ويحدونا الإعجاب، فلا نزال في ظلال الأشجار، وبين بهاء السهول المتمومجة بفتي الحنطة والشعير. إن أخصب أراضي المنطقة الخليفية هي ها هنا في هذه النواحي الغربية البحرية، بين الربى الوادعة، المكسوة بالأزهار والنبات الطيب الأريج.

فها هي ذي حجرة النخل أو العقبة الحمراء مركز الحدود الدولية المغربية؛ فالفرع الشمالي من الطريق ينتهي إلى المدينة الخضراء (٢٤ كيلومترًا) والشرقي الذي نحن فيه يستمر إلى المدينة البيضاء (٦٣ كيلومترًا). قلت إن حجرة النخل مركز فأخطأت؛ إنها لمراكز عدة للشرطة والحراسة والمراقبة والجمرك وجوازات السفر!

فما أقرب طنجة، وما أبعدها!

وهذا النهر نهر المُهَرْهَر، يسير الهُوَيْنَا، وهو ينقبض ويتلوى بين المنطقة الخليفية والفحْص، أي الأرض الطنجاوية الدولية.

فيمَ الإقامة بالزوراء ... وفيمَ الوقوف؟ دُرْ بنا دون هذه المراكز السياسية الدولية. دُرْ بنا فوق تلك الرابية ... دُرْ بنا في هذا القاع السندسي وراءها ... دُرْ بنا بين هذه الربى الممرعة التي تدعو الرجايع ... وفيها مرقب وثكنة للحكومة الحامية.

ومن المرقب ترى الحدود الدولية بين طنجة وتطوان، فيشير إليها الدليل، ويمكن اللفظ، ولا يفوتنا العلم: هناك الحدود الدولية!

اثنان وخمسون كيلومترًا بين هاتين المدينتين الشقيقتين: طنجة، وتطوان. اثنان وخمسون كيلومترًا تحسبها في أشواقك الإنسانية كيلومترًا واحدًا، وفي علومهم الدولية اثنين وخمسين ألفًا من الكيلومترات!

الفصل العاشر

جحيم السجون ونعيمها

يوم كان الإسبان يلومون الريسوني على قساوته في مُقاصَّة الأشقياء والمجرمين، ويستنكرون سجنه بأصيلة، كان يقول لهم: هذا عدلنا. على أنه لم يكن منفردًا بذلك العدل، ولا مخترعًا لشيء من العذاب جديد؛ فالسجون في الماضي كانت على السجناء كالجحيم، ولا فرق بين الآسيوية منها والأوروبية، وقد كان من الإسبان أنفسهم حكَّام يشبهون الريسوني، بل يفوقونه، في عدله، وفي سجنه. لا أعود إلى التاريخ مستشهدًا بالحجَّاج الثقفي وإخوانه، في كل زمان ومكان؛ فحسبي أن أذكر واحدًا منهم إسبانيًّا في زماننا.

كانت جزيرة كوبا، درة الأنطيل، آخِر مستعمرة في العالم الجديد، وفي عهد حاكمها الجنرال وَيْلَر، الذي اشتهر بقساوته وبسجنه، كالريسوني؛ ثار الأهالي في آخِر القرن الماضي على إسبانيا، وظفروا باستقلالهم. ليس تاريخ تلك الثورة موضوعي، إنما أذكر الآن — وحديث السجون حقًّا ذو شجون — أني زرت مرةً سجن القلعة، قلعة مورو بهافانا، بعد استقلال الجزيرة.

تلك القلعة هي على البحر، ووراء جدرانها السفلى، المتلاطمة عليها الأمواج، سراديب عرضها متران، وعلوها لا يبلغ الثلاثة الأمتار، لا يدخلها الهواء والنور إلا من بضع كوات في جهتها البحرية. ذلك هو السجن، دخلناه على نور الشموع، فإذا هو خالٍ خاوٍ إلا من أشباح المظالم التي يتصوَّرها الزائر في ظلماته، ورطوبته، وهوائه الفاسد، ويرى آثارها بحلقات الحديد التي لا تزال بالجدران، وبالسلاسل المتصلة بها. ها هنا بهذه السلاسل والأطواق كان يُقيَّد السجناء، في عهد الجنرال وَيْلر وأسلافه، فيقضون الأسابيع، الأشهر، السنين، وليس مَن يرى بؤسهم — جحيمهم — ويسمع شكواهم، غير الله.

وفي زماننا كذلك بمكة المكرمة، كان القبو، قبو الملك حسين، وهو مثل هذه السراديب في عتمته ورطوبته وفساد هوائه، يُسَاق إليه المذنب، الشقي والتقي البريء، ويُنزَل بهم هناك، فيقضون الشهور والسنين، وليس مَن يرى جحيمهم، ويسمع أنينهم وشكواهم، غير الله.

ولكن صبره — تعالى — هو غير صبرنا، وعينه — سبحانه وتعالى — غير عين الناس؛ فيرى سجن وَيْلَر بهافانا، وسجن الريسوني بأصيلة، وسجن الحسين بمكة، يرى هذا الجحيم في السجون، وفيه الخمسون، المائة، المائة والخمسون من عباده، يموتون كل يوم، يُمِيتهم الجوع والقنوط، تُمِيتهم الروائح والأمراض؛ يرى كل ذلك ويصبر، ويسمع الصراخ والأنين ويصبر.

ثم يرى، ويسمع، ويستجيب.

وقد كان السامعَ المستجيبَ — سبحانه وتعالى — يوم بعث ابن سعود إلى مكة ليطهرها من الأرجاس، ويطلق سراح سجناء القبو فيها.

وكان السامع المستجيب يوم أضرم نيران الثورة في صدور أبناء كوبا، فكانت النهاية لسجن وَيْلَر، وحكم إسبانيا هناك.

وكان السامع المستجيب يوم أوحى إلى الجنرال سلفستر بأن يزور سجن الريسوني، فرأى ما رآه، وكانت تلك الغضبة المنقذة المطهرة — مثل سيف ابن سعود، مثل ثورة الكوبان.

ذهب الله بتلك السجون فيندر مثلها اليوم في العالم، وقد لا تجد لجحيمها أثرًا في غير أخبار التاريخ، ومنها ما قدَّمْتُ في هذا الفصل.

أما الجزء الثاني من عنوان هذا الفصل، فقد يحسبه القارئ ضربًا من المجون، أو مظهرًا من مظاهر المبالغة في التشويق والإصلاح، ولكني أؤكِّد للقارئ أن التشويق في هذه الصفحات لا يجاوز حدَّ المنطق في غريب المشاهدات، وحدَّ الشعر في عجيب الحقائق، وقد جاء في الأمثال الإنكليزية: رُبَّ حقيقة أغرب من خيال.

قال السنيور أراغون ذات يوم سائلًا: هل زرت السجن بوادي لاو؟ ثم مكرِّرًا: يجب أن تزوره. ثم شارحًا: ووادي لاو قريب من تطوان.

فقلت: وهل القريب عندكم مثله عند البدو؟

فقال: كلا، وادي لاو هو على أربعين كيلومترًا من تطوان — أربعين لا غير.

توكَّلْنا على الله، وخرجنا من العاصمة إلى واد مرتين، فاجتزناه إلى الجسر، وقطعنا الجسر إلى الساحل، ثم سرنا شرقًا، فبدا الطريق بالجبل أمامنا، الغاطس في البحر الشبيه برأس الشفعة بلبنان، فأشرفنا بعد القليل، من علو مائتَيْ متر على الأمواج الساجية، ودرنا حول الرأس، ثم هبطنا منه، فإذا نحن في وادٍ فسيح كواد مرتين، يُدعَى أمسا، ويجري فيه نهر وادع، مزدانة ضفاته بالدفلى الزاهرة.

ومن وادي أمسا شرعنا نصعد وندور، ونهبط ونغور، من مناكب الجبال إلى مرافض الأودية، الحافلة بالدفلى الوردية والزهور البيضاء. الوادي يتلو الوادي، ورءوس الجبال تنادي سفوحها الخضراء والذهبية، المعانقة هناك السهول؛ الناخَّة هنالك إلى البحر، وقد تخلَّلَها ساحات من الرمل بين الصخور، وبين الماء والزهور. هي الدفلى بزخرفها وبهجتها، تهديك إلى تلك الخلوات، وتناديك من أبوابها، وترافقك في المرافض النضرة، فلا تكاد تودِّع في المرفض الواحد حتى تسلِّم في الذي يليه.

طريق الدفلى إلى السجن، أعجب طريق إلى أعجب السجون.

ومتى ينتهي هذا التصعيد والتغوير، يالفريد؟[١] فابتسم الرفيق البستاني ابتسامة لا أمل فيها، ولا وهم.

فقلت: أَوَجئتَ يالفريد، بدمك البارد من لبنان، أم اكتسبته في هذا المغرب؟

فما أجاب، بارك الله فيه، بغير كلمة واحدة: تعوَّدْنَا.

مرت الساعة، ونحن في التصعيد والتغوير مستمرون، نطوي الجبال الخضراء المشرفة على البحر الأبيض، فيدنينا الطريق منه حينًا، فنستأنس بعينه الزرقاء الناعمة اللحظ، وحينًا يُبعِدنا منه، فيختفي صاحبنا فتعود إلى النفس الوحشة والكآبة.

إن مائة كيلومتر في طريق قويم في السهول لَأقل مشقةً من عشرة كيلومترات في مثل هذه الجبال.

وأين وادي لاو، يالفريد؟ قلتُ إنه على مسافة ساعة، وهذا ربع فوقها، وهاك رأس جبل آخَر، وهناك، هنالك الطريق على ما أرى، أم هو شرخ في رأس الجبل. قل لي، طَمْئِنِّي.

---

[١] تشيع في المغرب الأسماء الأولى الحاملة «ال» التعريف، كالتهامي الوزاني مثلًا، والعربي الفاسي، والمكي الناصري، والطبيب بنونه، وهذا أخ لهم من لبنان ألفريد البستاني، ومثل من نجد في النداء «يالأمير».

هو هو الطريق ينادينا، وإن بينه وبيننا لست أدري كم من الأودية، وما عتمنا أن علمنا، والحمد لله؛ فقد كان ذلك الجبل آخِر المحنة، فهو يشرف على الوادي المقصود، الذي يرفضُّ إليه نهر اللاو.

خمسة وأربعون كيلومترًا من تطوان إليه، لو كانت في سهل لقطعناها بنصف ساعة، وقد حسبنا الساعة ونصف الساعة يومًا كاملًا.

قلت في نفسي، ونحن نهبط من الجبل الأخير، سأعدُّ الأكواع والأودية في العودة، ولقد فعلنا أنا والرفيق المشرف — اسمه بألَّيْنِ من ألات التعريف — فكنتُ أنا أعدُّ الأودية وهو يعدُّ الأكواع، فجئنا بإحصاء عجيب في إحصاءات العالم.

قد شُغِلنا في المراقبة والعدِّ فقصر الطريق، ولا غرو، وقُلْ: قصرت الكربة، وخفت المشقات.

وهاك ما أحصيناه: إن في هذا الطريق العجيب الذي لا يتجاوز الخمسة والأربعين كيلومترًا مائتي كوع، عدا التفريجات والانحرافات، وعشرين واديًا، خمسة منها فسيحة بسهولها وأنهرها — نهرين جاريين وثلاثة جافة — وخمسة عشر واديًا ضيقًا، بسواقٍ تجري في الشتاء. فهل في العالم يا تُرَى طريق آخَر مثله بمسافته القصيرة، وأكواعه وأوديته المتعددة؟

أما الجبال التي قطعناها — في الربيع، والحمد لله، لا في الشتاء — فهي كلها خضراء ماتعة بالغابات والأدغال من صغير السنديان والبطم والغار، والدلم والسرو والدردار، وغيرها مما أجهل أسماءها، ولا يعرفها الأهالي، وإلى جوانب الطريق في بعض الأماكن، يجيء الطيون — طيون لبنان — وكذلك قصعينه وقندوله، مسلِّمين مرحِّبين.

حيَّاكم الله، في كل مكان، وحيَّاك أيتها الأكواع والأودية. مائتا كوع، وعشرون غورًا إلى وادي لاو — المكان قريب من تطوان؟! صلِّ على النبي يا ابن أراغان!

على أن في وادي لاو، غير السجن، مما ينسيك مشقات الطريق وعجائبه؛ في وادي لاو مسجد ذو مئذنة فريدة في بابها وجلبابها، علوها نحو عشرين مترًا، مثمنة الأضلع بخمس طبقات، وفي كل ضلع شبه شباك مبني بالزليج، وفي الرأس قبة مخمسة الأضلع بشبابيك خمسة؛ فيكون مجموع الشبابيك خمسة وأربعين. عُدْنا إلى الإحصاء، والحق في ذلك على الباني، لا عليَّ؛ فقد تعمَّدَ الإكثار من هذه الشبابيك، لا للنور والهواء والشمس، بل للزينة، فليس بينها غير ثلاثة أو أربعة شبابيك صادقة، تنير طريق المؤذن، المجلبب، في صعوده وهبوطه، بجمال الشبابيك الكاذبة؛ فهل يجوز، وقد تعمَّدَ هذا التزيين، أن

نهمل عَدَّ طبقاتِه وشبابيكِه، وألوان زليجه الزرقاء والخضراء والصفراء. إنها حقًّا لأغرب وألطف مئذنة رأيت في المغرب والمشرق!

وهذه المدرسة في جوار المسجد، تستقبلنا فيها المعلمة والمعلمان، فعلمنا أن أحدهما يعلِّم العربية، والآخَر القرآن، والسيدة تعلِّم اللغة الإسبانية، وأن عدد التلاميذ في المدرسة خمسون، من بنين وبنات، بينهم عشرون من الإسبان والإسبانيات، ومما علمناه أن المدرسة تقدِّم لكلٍّ من التلاميذ والتلميذات الفطورَ كلَّ يوم، والشاي مع الحلوى بعد الظهر، وكسوة كاملة ثلاث مرات في السنة.

سألت عن سن البنات، فقالت المعلمة: من الرابعة إلى العاشرة.

وسألت عمَّا كان من إقبال الأهالي على تعليم البنات، فقالت: الإقبال قليل، ولكنه في ازدياد …

قلت: وتلك الفتاة الشقراء الجالسة إلى جنب فتاة سمراء، أهي مغربية؟ فأجابت قائلة: هي ابنتي.

هذه السيدة المعلمة هي زوجة المراقب «أنطونيو سرفيرا برسيلو» Antonio Servera Barcelo، والمراقب هو أيضًا مدير السجن، والمدير هو منقطع النظير في سجنه، وإدارة سجنه، وروح سجنه، بل هو روح ذلك السجن، وملاكه الحارس.

مشينا في ذلك السهل الفسيح إلى البستان البشري، إلى سجن ذي ساحات رحبة، تحيط بها بيوت ذات طابق واحد، مفتوحة الأبواب، وخالية من الحديد، من السلاسل والقيود.

وهاكم بعض السجناء جالسين خارج سجونهم، أمام الأبواب، وفي الأروقة، كلٌّ يعمل عملًا؛ فهذا خياط الجلاليب، وذاك إسكاف يصنع الأحذية، وهاك الحائك، والحداد، والدبَّاغ، والنجَّار.

ومنهم حلقات يتعلَّمون هذه الصناعات، وغيرهم يعالجون ألياف القنب، فيستخلصون الخيوط منها لصنع النعال. وهذا أستاذ في علم الاقتصاد يستخرج الخيوط السليمة من برنس خلق ليصنع منها برنسًا جديدًا.

وما هم في أثواب خلقة أو رسمية — مخططة للتشهير — بل هم في أثوابهم اليومية، كأنهم عمَّال في معمل، لا سجناء.

لستُ أقول، مع كل ذلك، إن ما شاهدناه يميِّز هذا السجن عن سواه من السجون الجديدة في العالم المتمدن اليوم، وحسبي أن أذكر سجن بغداد مثلًا، فهو أوسع من هذا في فسحاته، وأصلح في بيوته، وأجود في صناعاته.

أما مزية هذا السجن الفريدة، فليست صناعية، ولا صحية، ولا فنية، فكل هذه الصناعات حسنة، ولكن ميزته روحية. أجل روحية، فقد كتب كثيرون من المصلحين في إصلاح السجون، وتحسين المعيشة فيها. ولكن طولستوي وقد رأى بعينيه سجونًا في روسية كالتي شبهتها بالجحيم، فصاح الصيحة الداوية النافذة، الجوابة لعواصم العالم، الصيحة المزعزعة لجحيم السجون، فقال: أَحْسِنوا إلى السجناء يحسِّنوا سلوكهم. أَحْسِنوا الظن بهم، تُوقِظوا الخير الراقد في قلوبهم. أيها المديرون لسجون العالم، ثقوا بفطرة الإنسان الطيبة، تظهروها من مكانها، وتخلصوها من الموبقات.

وقد وصل صوت طولستوي الخالد إلى هذا الشاطئ الأفريقي، إلى وادي لاو في أرض بني سعيد من المغرب الأقصى، بل وصل ذلك الصوت الخالد إلى جزيرة مايرْقا، مسقط رأس أنطونيو برسيلو، يوم كان رئيسًا في المدفعية.

سألته أهذه الفكرة فكرته أم هي مقتبسة؟ فقال: قرأت لما كنتُ ضابطًا في الجيش ما كتبه طولستوي في إصلاح السجون، وخصوصًا الأسلوب والنظر في معاملة السجناء. ففطرة الإنسان الطيبة، تنكمش فتتوارى وتكاد تضمحل، إذا ما عُومِلت بالقساوة والظلم، وهي تظهر وتنمو إذا ما عُومِلت بالمعروف، هذا الكلام أَثَّرَ بي أبلغ التأثير ورسخ في ذهني.

ثم دارت الأيام بحياة برسيلو، فقضى مدة في الجيش يعالج المدافع، ويُطلِقها في الحرب على إخوانه الآدميين، إلى أن سنحت الفرصة لوضع ما حمل بصدره من مبادئ طولستوي موضع العمل. تلك الفرصة الذهبية سنحت له في هذا الوادي على هذا الشاطئ الذهبي للبحر الأبيض؛ فقام منذ ثلاث سنوات، يوم تأَسَّسَ هذا السجن، يعمل بها وهو مسرور بعمله، مطمئن إليه مغتبط بنتائجه.

يقول المدير برسيلو لأولئك العاثرين المحكوم عليهم بالسجن من السنة الواحدة إلى الحد الأخير، أي السجن المؤبَّد: أنتم هنا عمَّال لا سجناء، وما دمتم تعملون عملكم بجد وإخلاص فلا باس عليكم، بل أنتم الرابحون؛ فإنكم تتعلمون الصناعات، وتصبحون من رجال المجتمع الإنساني المنتجين الصالحين. لا قيود حديدية عندنا، ولا غرف مظلمة، هذه الشمس لكم بخيرها كله، وهذا الهواء الطلق من حقكم الاستمتاع به، وهذه الحقول احرثوها وازرعوها وكلوا من خيرها. أنتم في هذا المكان أحرار، عمَّال أحرار، فكونوا أمناء أوفياء، حتى تعود إليكم الكرامة والسعادة.

وهو يعيِّن منهم الرعاة والخدم والحرَّاث: احملوا معاولكم، واتبعوني.

وقد شاهدناهم في الحقول يزرعون، وفي البساتين يحرثون، وفي بيوت الدواجن يطعمونها وينظِّفون مآويها.

قال المدير برسيلو يخاطب هذا الكاتب: إني أثق كل الثقة بكل واحد منهم. لا، يا سيدي، ما فَرَّ واحد منهم هاربًا منذ تأسيس هذا السجن، إني مسرور جدًّا بهذه النتيجة الباهرة لعملي، وإني أؤكِّد لك أن المغربي صادق أمين إن عُومِلَ بالمعروف، وهو إن وعد بَرَّ بوعده؛ فلو قلت لهؤلاء اخرجوا صباح اليوم للنزهة أو اذهبوا إلى تطوان، وعودوا قبل الغروب، لفعلوا. وقد طالما أرسلت الرسول منهم إلى المدينة بألفين أو ثلاثة آلاف بسيطة ليبتاع بعض حاجات السجن، ففعل، وعاد بها في الوقت المعين، ومعه لائحة الحساب وما يكون قد تبقَّى من المال، وها هو ذا واحد منهم.

كان الشاب السجين داخلًا من باب السجن الخارجي، عائدًا من الحقل، فناداه المدير فجاء فحدَّثْنَاه.

قلت: ولماذا سُجِنت؟

فأجاب: خمرة اليهود، سيدي، وبنات اليهود، ومزاحمة عليهن، وعركة مع المزاحم، وكانت الخمرة تدور بالرأس، واليهودية تلعب بالقلب، فطعنت الرجل بالخنجر — جرحته وما قتلت — هذا ذنبي، لعن الله خمرة اليهود واليهوديات!

لهذا الشاب أم في تطوان، فيقول له المدير، حين يرسله إلى المدينة: لا تذهب إلى بيتك لتشاهد أمك؛ لئلا يعرف الجيران، فيفسدون عليك حريتك. فيعمل بما يُؤْمَر به، دون سؤال.

– ما زرت أمي مرةً واحدةً. المدير لا يريد.

وهناك ما هو أعجب؛ كان المدير قد أخبرني أن من السجناء مَن انتهت مدتهم، ففضَّلوا البقاء في السجن على الخروج منه، وهو لا يُجبِرهم على ذلك ما داموا قائمين بالأعمال المعينة لهم. ثم دلَّ على أحدهم فسألته: لماذا أنت باقٍ في السجن وقد انتهت مدة قصاصك؟ فقال: وليش تعب الراس سيدي؟ هنا عمل، وراحة وهواء طيب، وأكل وكسوة، والحمد لله.

وقد أكَّدَ الحمدلة بيده، وهو يرفعها ورعًا إلى رأسه.

وفي مثل هذا السجن لا بد من مخزن يباع فيه ما بقي، بعد الاستهلاك من محصول ومنتوج؛ فها هو ذا المخزن، بوكالة أحد السجناء، أما العجيب فيه فهو أنه في كل سنة يعدل الحساب، فالذي يبقى من الدخل، بعد حسم النفقات كلها، يُوزَّع على السجناء.

إني مسجل الحقائق المجردة من كل تنميق.

قال المدير برسيلو: ربح السجن في السنة الماضية ألف بسيطة، وزَّعْنَاها على السجناء بالسواء.

فهل يُستغرَب بعد هذا تفضيل السجين البقاء في السجن بعد أن تنتهي مدة قصاصه؟

كان فيه يومَ زرناه سبعون سجينًا، وخمس عشرة سجينة، فزرنا السجينات في سجنهن الخاص — في بيتهن. دخلنا الباب المفتوح فألفيناهن يغزلن جميعًا، فسألت الأولى والثانية والثالثة: ما ذنبك؟ لماذا سُجِنتِ؟ فكان جواب الأولى: مقدور. والثانية: من الله. والثالثة وهي تنظر إلينا بعين سخينة: ذنبي كبير، كبير.

ولما خرجنا كمَّلَ أحد المرافقين العرب جوابهن قائلًا: جرمهن قتل الأطفال.

قلت: ما فهمت.

فقال: هن زانيات قتلن أطفالهن بعد الولادة لإخفاء الجريمة الأولى، فارتكبن جريمتهن.

هذا الوادي في جبال بني سعيد سُمِّي قديمًا باسم أهله الأولين بني لاو، وهم بطن من أربعة بطون — أماسة ونفوسة وضربة ولاو — تُدعَى البُتر نسبة إلى جدهم مادغيس الملقب بالأبتر، وهو وأخوه بُرنس أبوَيْ شعوب البربر.

وقد يكون الاسم — وادْ لاو — مركَّبًا من اسمَيْ بني لاو وبني عبد الواد، أصحاب الدولة المعروفة باسمهم الماهد لها يَغِمْراسِنْ بن زيان، فاستمرت مائة ونيفًا من السنين، وانقرضت في أيام السلطان الظاهر برقوق سلطان مصر. بنو عبد الواد وبنو لاو — واد لاو — وفوق كل ذي علم عليمٌ كما يقول ابن خلدون.

أما بنو سعيد، عرب هذه الناحية اليوم، فإن لهم سبعين مدشرًا — قرية — منتشرة في الجبال، أبعدها على ثلاثين كيلومترًا من الوادي، وأقربها القرية الجديدة القريبة من المرقب، وفيها نحو أربعين بيتًا، بَنَى السجناء بعضها.

وفي هذا الوادي الممتد عنقه في ثنايا الجبال، المفتوح قلبه للبحر، يجري نهر اللاو الذي شاهدنا أحد نبعيه عند جبل شفشاون. أما النبع الآخَر، فهو ينبثق من جبل باب تاز، وبعد أن يجتمع الفرعان قرب شفشاون، ويُستعمَلان هناك لتوليد الكهرباء، يخرجان نهرًا واحدًا، ثم ينضم إليه فروع أخرى، فيصل إلى مرفض الوادي نهرًا غزيرًا، إنما منخفض عن السهل إلى ضفتيه؛ لذلك باشَرَتِ الحكومة بناء سدٍّ يبعد عن البحر

اثني عشر كيلومترًا، لرفع المياه، فيحيون بالري ثلاثة آلاف هكتار من الأرض، ويؤسِّسون إذ ذاك معملًا للسكر بعد أن يزيدوا بزرع القصب الذي يُستخرَج منه، وقد كانوا يوم زيارتنا يشتغلون في تأسيس معمل للغزل مجهَّز بالآلات الكهربية.

ها هي ذي أسباب العمران الشامل البركات، ها هي ذي في وادي لاو البساتين — بستان الأولاد، بستان الرجال، بستان العمل — المدرسة والسجن والصناعة والزراعة. لا أظن أن في العالم كثيرين من أهل الإنسانية العاملة والغبطة الشاملة المتمثلتين في السنيور أنطونيو برسيلو وزوجته، العاملين الأوليين في هذه البساتين، بهذا الوادي المبارك، على هذا الشاطئ القصي المتواري بين الجبال.

عدنا من التطواف إلى بيت المراقب، حيث كانت زوجته أَعَدَّتْ لنا فنجانًا من الكاكاو — الكاكاو بوادْ لاو — وأطباقًا من الحلوى، فجلسنا حول المائدة نحن الخمسة — المراقب والعربيان رفيقاه وأنا والبستاني — وما جلست السيدة معنا، بل وقفت تخدمنا. هي عادة الأهالي، المضيف يخدم ضيفه فاقتبستها عنهم.

ويروق العربي، العالِم بما يعتري صلات الأهالي بالأجانب من التكلُّف والترفُّع في البلدان الشرقية، يروقه أن يشاهد الإسباني والمغربي مجتمعين متآخين بدون تعمُّل أو تصنُّع، بدون ترفُّع أو تواضُع من أحدهما. لقد شاهدت ذلك في أماكن عديدة، في النادي بتطوان، في قاعة الرقص، في المدارس، في البيوت.

دعانا عبد الحميد القادري، شيخ الطريقة القادرية بتطوان، للعشاء في بيته، ودعا معنا محافظ المدينة، فجلس في الحلقة جلسة ابن البلد، وأقبل على الزاد بيده، بالأسلوب السهل الممتنع، دون أن يلحن مرة — حكمت الاستعارة — بلغة السماط، دون أن يدلمز أو يبالغ بالتأنُّق.

وجلسنا جميعًا، نحن ومراقب العرائش وأعوانه، من ضبَّاط ومدنيين، إسبان ومغاربة، في ذلك البيت الصغير بقرية بني غرفط، كأننا من أهل الولي، جئنا نحتفل بمولده ونشارك في العمارة المباركة.

ومن أجمل الحفلات التي جمعت بين الشعبين، فاختلطَا اختلاط الخمر بالماء، وتشابَهَا إلا في القيافات؛ حفلة شاي أقامها السي عبد السلام الحاج، الذي دعاه الأستاذ يوسف العيسي طارقَ بن زياد لمهابة طلعته العربية، ويدعوه أصحابه بالأمير لكرمه الحاتمي؛ فإن له بيتًا بتطوان مفتوحًا للضيافة، وخصوصًا حين يؤم المغرب أحد مشاهير العرب.

حضر يومئذٍ نحو مائة من عيون المغاربة والإسبان، يلبون دعوة الطلاب الذين أرادوا أن يكرمونا في بيت أميرهم، وكان بين الحضور اليهود واليهوديات، فلعبد السلام الحاج قلب واسع، مثل بيته، يفتحه للحسان من سائر الأمم والأديان:

أدين بدين الحب كيف توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني!

تُرجِم هذا البيت لأحد كتَّاب الإسبان، وسُئِل عمَّا إذا كان بين شعراء إسبانيا مَن يضاهي هذا الشاعر العربي معناه وهواه، فقال: مثله لا يكون غير عربي، أو من وحي العرب.

وقال عبد الخالق طريس في عبد السلام الحاج: قلبه مثل قالب العسل؛ فيه مائة خلية، ولكل خلية خليلة.

فرفع الإسباني يده معجبًا بهذا التشبيه، وقال: ما نفد معدن النبوغ العربي، ولن ينفد. الإسباني والمغربي صنوان حتى في المجاملات الشرقية.

الفصل الحادي عشر

في جبال الريف

بعد طريق واذْ لاو تهون الطرق كلها. قلت هذا لرفيقي البستاني، صباح رحلتنا الريفية فقال: إن شاء الله. فعراني شيء من القلق؛ لأن الرفيق الصديق صادق فيما لا يقول صدقه في وجيز قوله، وما توسمت الخير في الـ «إن شاء الله» التي فاه وقتئذٍ بها.

توكلنا في كل حال عليه تعالى، وسرنا شرقًا بجنوب، في طريق شفشاون، فأطللنا ثانية عليها، وجزنا حماها، قاصدين باب تازي، ولكن الرفيق شاء أن يزور قرية له بين البلدين. أقول: له، بالرغم عن اسمها وأهلها؛ فهي تُدعَى مدشر الحاج فرنكو، ويقوم بتأسيسها بعض اللاجئين من المنطقة السلطانية، فمنحتهم الحكومة أرضًا قرب عين الرامي، شرقًا بجنوب من شفشاون، عند أفق مئذنةِ جامعها الكبير.

عرجنا على مدشر الحاج فرنكو، الذي كان منذ ثلاث سنوات غابًا من شجر الدلم والسنديان، فقطعت الأشجار وفحم خشبها، وجمع الفلين للتصدير، ثم بُنِيت الأكواخ، نحو عشرين منها، والمسجد والمدرسة، وها هو ذا الشيخ الذي يعلِّم الثلاثين ولدًا القراءة والكتابة، وها هو ذا زعيم القوم يعدِّد للبستاني مطالب المدشر الجديد؛ فقد ساعدتهم الحكومة بشيء من المال لابتياع أدوات البناء والزراعة، ووعدتهم بالمزيد، فطمأنهم ألفريد، وأكَّدَ لهم أن ما وُعِدوا به آتٍ إن شاء الله، وكانت «إن شاء الله» هذه المرة باعثة على الأمل والخير.

«مدشر الحاج فرنكو» لقد اختار هذا الاسم هؤلاء اللاجئون، اعترافًا بالجميل وعملًا بما يوصي به الورع والعلم، فالرجل الكريم صالح، والصالح تقي، والتقي لا بد له من محجة يحجها لوجه الله. إذن الحاج فرنكو؛ فهو المحسن إلى هؤلاء الفارين من وجه الموت، وهذا المدشر حافِظ لاسمه وذِكْره.

مع كل ذلك أقول إن الفضل في تأسيسه، ونجاحه، ورضا أهله، عائد إلى «الحاج» البستاني، الذي اهتمَّ بأمره منذ البدء، وهو لا يزال يعنى به وبشئون أهله، «إخواننا المغاربة».

ومن دار المراقبة بباب تازي، التي تعلو تسعمائة متر عن البحر، تُشرِف على الطريق التي سلكها أولئك المهاجرون من فاس، ودونها جبل باب القرن، ونهر صغير هو الحد بين المنطقتين السلطانية والخليفية، وللمشهد نُطُقٌ — اللفظة لصديقي الشيخ الأزطوطي — رائعة في جهاته الأربع؛ فهناك فوق باب القرن جبل خزانة، وعلى الأفق الشرقي بُوحَد، والشمالي ماكو ومُشْكَرَلا، وفي الجهة الغربية تبدو خيمة بوهاشم مبرقعة بين الوصيفات السافرات للشمس.

وفي هذه النواحي، بين شفشاون وباب تازي تقطن قبائل الأخماس السفلى والعليا، وهي تُربِي على العشرين ألف نفس، وفي الجنوب، على الحدود، قبيلتا غَزَّاوة وزِرْوال القاطنون في المنطقتين، نصفهم سلطاني والنصف الآخَر خليفي.

نستمر في التصعيد فنصل بعد ثمانية كيلومترات إلى قرية جميلة المكان، لا ترى هي فيه، أو إنها محجبة على الدوام. فهناك شلال المياه يطيح من نفنف عالٍ، فيذهب في ساقيه تتزاحم على ضفتيها أشجار التين والرمان والعرائش الشائكة والزاهرة. هناك الصخور تختفي وراءها البيوت، والأشجار تحجب المياه عن الأنظار، والظلال الممتدة فوقها وخلالها، تتعقب التائه والتائهة، والشلال والساقية، والهواء الناعس الهامس يضيع كل ما يحمله من الطيب، والسكينة التي تنوب عن القرية فتستقبلك في غابة من السنديان العتيق والزيتون، حول الجامع القديم، تحت جفن الجبل الذي يرى القرية شرافات، المختبئة في واديه، بين أشجاره وصخوره.

أما الجامع، فهو وحده يستمتع منذ القديم بجمال المكان، ويقال إنه أقدم جامع في هذا المغرب، بناه طارق بن زياد، وهو مبيض من الخارج، ولا ندري ما بداخله؛ لأنه كان مقفلًا، وما كان هناك مَن يفتح لنا بابًا من أبواب العلم والتقوى، إنما علمنا أن الجامع مشهور أيضًا بغير قِدَمه؛ فإن له أوقافًا كثيرة، وقد كان مقرًّا للعلم، فاشتهر علماؤه بإحسانهم القراءات العشر.

نفع الله الجيران بقدسيته وبعلم علمائه، نفع الله غمارة، إننا لفي جبلها الآن، جبل غمارة المشهور، منذ عهد ابن خلدون وقبله، بغير العلم والتقوى. جبل غمارة، عش الدسائس، ومدرج الفتن — نفعه الله بشرافات. وإن غمارة لمثل جامع شرافات، عريقة

في القِدَم، فقد كانت تصول في الجبل والساحل يوم وصل موسى بن نصير في فتوحاته إلى طنجة، وهي اليوم تشرف هذه الجبال باسمها، وتفسح فيها لغيرها من القبائل.

ومن حسنات أولياء الأمر في عهدنا الحديث أنهم عنوا بهذه القبائل فأحصوها، وسجلوا في لوحات على الطريق عددها، وعدد مداشرها، ومساحة أرضها. نحن الآن في جوار بني خالد التابعة لغمارة، وهذه اللوحة عند مفترق الطريق إلى ديارهم تقول: بنو خالد ١٠٧٨٠، مداشرها ٧٦، أرضها ٦٢٥ كيلومترًا مربعًا.

وهذا مركز الشرطة المشرف على وادٍ منبسط متسع ريان، يجري فيه نهر، وتقام فيه سوق لِبَنِي دكرون، وفي القرية مركز لقائد قبيلة الأخماس العليا، وإلي جوانب هذا الوادي من الجهات الأربع تتشامخ الجبال[1] وقمة غمارة منها مكللة بالثلج.

دخلنا منطقة الهول في المشاهد الجبلية، وشاهدنا لأول مرة غابةً من الصنوبر، بل هناك على رأس الجبل غابة من الأرز.

الأودية تتباعد، والرواسي تتعالى، والمنحدرات تفاجئك بالنفانف، والنفانف بالمهاوي، وتحت المهاوي البطاح والربى، تتموج في اخضرارها واصفرارها وظلال بساتينها، تتموج في نور الشمس خلال الغيوم البيضاء الشفافة، شيء يشبه لبنان في الناحية الشمالية، ويقلده في صنوبره — وفي أرزه — تباركت الأرض التي تتعاون والإنسان على كل شيء صالح حتى في التقليد، وتبارك أرز المغرب في غاباته المديدة، التي كانت في قديم الزمان للبنان.

نحن الآن فوق البحر، بألف وأربعمائة متر، نحن قريبون من جبل كتامة. نسير بين أشجار من الأرز اللبناني قائمة في أسناد الجبل ومنحدراته، فوق الطريق وتحته، هي أضعاف غابة أرزنا المشهور، إنما علو الأشجار هو دون العشرين مترًا، ومحيطها لا يتجاوز ثلاثة أمتار،[2] وقد رأينا منها المحروقة اللحاء، فعلمنا أن الأهالي يحرقونه قليلًا ليستخلصوا القطران منه، فمنعت الحكومة ذلك؛ لأن الحرق وإن كان سطحيًّا يضر بالخشب إن استُعمِلَ للبناء أو للصناعة.

---

[1] أعلى جبل في المنطقة الخليفية جبل كلعلي (٢٤٠٠ متر) في جبال غمارة على نحو ستين كيلومترًا، شرقًا من شفشاون.

[2] جاء في دائرة المعارف الإنكليزية (الطبعة الرابعة عشرة) أن في أعالي جبال المغرب الشمالية أرزًا عمره يتراوح بين الأربعمائة والخمسمائة سنة. علو الشجرة من ١١٥ إلى ١٣٠ قدمًا، ومحيطها من ١٦ إلى ٢٠ قدمًا، فقد يكون ذلك في غير الجبل الذي قطعناه.

بعد مفرق بني خالد نشرف على البحر، فيهتف الرفيق قائلًا: هناك الجبهة — أي بورتو كباس.

إنما بيننا وبينها أودية، وبطاح وكثبان من الرمل، ومساحات على الساحل تحضن القرى المسيَّجة بالصبير. لقد زار ألفريد الجبهة مرة، وقضى أيامًا طيبة بين أهلها، فهشَّ لها من أعالي الجبال؛ إذ تراءت له على الساحل القريب البعيد:

وتلفتت عيني ومُذْ خفيت عنها «البطاح» تلفت القلب

وهذه إساغن، اسم لغير مسمى، أو لقرية خفية مثل أكثر القرى في جبال المغرب، وهذا المخفر العسكري المخزني بإساغن، إنه يعلو ألفًا وخمسمائة متر فوق البحر، ويستقبل جبل تديغين المتوج بالثلج، في أواخر شهر مايو، وهو على مسافة ساعتين مشيًا في ذلك المخفر.

وفي جواره، بين الأخضر والأدكن والأبيض من الجبال، إلى جانب الطريق، نصب تذكاري، حديث الأسلوب الفني، بفراش من الرخام أمامه مُدرج بدرجات واسعة مديدة، تعلو بتؤدة إلى السدة القائم النصب فوقها، وهو في نحو عشرة أمتار، مضلع ومجنح، ومكلَّل بما يشبه العمارة في التماثيل المصرية القديمة.

أُقِيم هذا النصب في هذه الأعالي الجبلية في قلب المنطقة الخليفية، تذكارًا للثورة التي قادها الجنرال فرنكو إلى ذروة النصر، والأصح أنه تذكار لاجتماع بعض ضباط الجيش الأفريقي، إخوان فرنكو، في هذا المكان، في أواسط يوليو سنة ١٩٣٧؛ ليقسموا اليمين بأن يعلنوا الثورة، ويخلصوا لها، ويجاهدوا في سبيلها حتى النهاية.

والجدير بالذكر كذلك أن هذا النصب لا يتميَّز دينيًّا بشيء — فهو وطني فني، لا إسلامي وإن كان في المغرب، ولا مسيحي وإن كان إسبانيًّا — فكأن الذين أوحوا به، والفنانين والبنَّائين الذين كونوه، يقولون: إننا والمغاربة العرب أبناء وطن واحد.

لم يكن الجنرال فرنكو حاضرًا ذلك الاجتماع في جبل كتامة، في هذا المكان منه، بل كان يومئذٍ حاكمًا في جزائر الكنار، أو سجينًا أو منفيًّا هناك. من الواجب، ونحن واقفون عند هذا النصب، أن نُعلِم القارئ بما تقدَّمَ من حياته السياسية وأدى به إلى ذلك المنفى، وسنوجز الكلام.

حياة الجنرال فرنكو مرتبطة بحياة الجيش الإسباني منذ أيامه الأولى في المغرب، فكان وهو ضابط صغير يغار على الجيش غيرته وهو القائد الزعيم؛ فيطلب تطهيره

من الفساد، وتحسين أحواله المادية والمعنوية، بل إعادة تنظيمه على أحدث الأساليب العسكرية.

وبالرغم عما تسرب إليه من الدعايات السياسية، وتغلغَلَ في صميمه من نزعات أحزاب الشمال، بقي فيه كثيرون من أصدقاء فرنكو وأنصاره.

ولكن الحكومة الملكية، بعد انتهاء الحرب في المغرب ونفي عبد الكريم، أهملت فرنكو، فقضى سنة في السياحة والدرس، دون أن يبعد عن موضوع حبه وجهاده.

وما كانت الحكومة الجمهورية لتحسن الإصلاح الذي استمرَّ يطالب به. فلما قُلِّدَ خيل روبليس Gil Rubles منصب الوزارة عيَّنَ الجنرال فرنكو رئيسًا لفرع من أركان الحرب، وفوَّضَ إليه أمر إصلاح الجيش، وإعادة تنظيمه، فباشَرَ فرنكو العمل ولما يتمِّمه، ولا عجب.

فبعد أن فازت الجبهة الشعبية، واستولى الثوار — أحزاب الشمال — على الحكم، في فبراير سنة ١٩٣٦، عُزِل الرئيس ساموراZamora وأقيم مكانه منيوال أنسانيا Anzania الذي كان يقول يوم كان وزيرًا للحربية في مستهل الجمهورية، إنه سيرسل فرنكو إلى جزائر البليار ليخلص منه.

وهاك أنسانيا يعود إلى الحكم، وهاك فرنكو بين يديه، وقد زادته نكبات بلاده، على يد المتطرفين من أحزاب الشمال، سخطًا وألمًا، ونشاطًا في السعي لإنقاذ الجيش من عوامل الفساد والتفسُّخ، وإنقاذ الأمة بواسطته من عوامل التحزب والفساد والخراب.

فماذا عمل أنسانيا بفرنكو؟ عيَّنَه حاكمًا عسكريًّا بجزائر الكنار، تلك الجزائر القصية في الأقيانوس، وهو يظن أنه قضى عليه وعلى أحلامه، وما خفي على فرنكو شيء من مقاصد الوزير، فقبل الوظيفة — وقُلِ المنفى — وقاسى هناك ما يقاسيه السياسي المنفي من المراقبة والتجسُّس، وظلَّ مع ذلك مستمرًّا في مساعيه، وما كانت الأحوال في مدريد أقل اضطرابًا منها في تلك الجزائر، بل كان المتطرفون أشد عليه في ذلك المنفى، فهُدِّدَ مرة بخطف ابنه، وغير مرة بالقتل. تفاقمت الأمور وبلغ الصبر منتهاه.

ثم حدث الحادث الذي كان الشعلة لنار الثورة، ذلك الحادث هو اغتيال العلَّامة كلفو سوتيلو Calvo Sotilo زعيم الحزب الملكي. قُتِلَ في مدريد في الثالث عشر من يوليو ليلًا، بشكل شبه رسمي فظيع.

وقد كان الضباط الذين أقسموا تلك اليمين على اتصال دائم بفرنكو؛ فأُعلِنت الثورة في مليلية صباح اليوم السابع عشر، وفي تطوان مساء ذلك النهار.

وفي اليوم التالي وصل الجنرال فرنكو في الطيارة إلى تطوان، فاستقبله إخوانه الضباط وفي مقدمتهم الكلونل بايبدر لولب الحركة، وقلبها النابض في المغرب. ثم عُقِد اجتماع عسكري، قُرِّرَتْ فيه خطط العمل، ورُدِّد صدى اليمين التي أقسموها في جبل كتامة حيث يقوم اليوم هذا النصب التذكاري.

في ذلك الحين كان بعض قادة القبائل موالين لفرنكو، فبَثَّ الدعوة بواسطتهم في القبائل الأخرى، وأخذ المغاربة ينضمون إلى جيشه، ولكن نقل الجنود، بعد إعلان الثورة لم يكن متيسرًا؛ لأن البواخر الحربية الإسبانية كانت ترصد أبواب المضيق، ومع ذلك فقد جازت الفرقة الأولى في القوارب، وبعد ذلك سارت الجنود المغاربة والإسبان من تطوان إلى ساحات القتال.

إن أكثر مَن تطوَّعوا في جيش الجنرال فرنكو هم من جبال الريف، والريف منذ عشر سنوات كانت تحارِب إسبانيا. فما السبب في هذا الانقلاب؟ قرأت في جريدة إنكليزية رصينة مقالًا لُكاتِبها في إسبانيا يقول فيه إن السبب في تطوع عرب المغرب هو مادي محض، ينحصر في المعاملة الحسنة، والرواتب العالية. وقد ردَّدَ غيره من الصحفيين هذه الفكرة السطحية، واكتفوا من الأسئلة بظاهرها.

إن لانقلاب عرب المغرب من أعداء إلى أصدقاء، ومن مقاومين إلى مناصرين، أسبابًا غير الرواتب وحسن المعاملة، ومن هذه الأسباب أن الحكومة الملكية بعد انتهاء ثورة عبد الكريم، أهملت قادة تلك الثورة، وأبعدتهم عن مناصب الحكم، فباتوا لها أعداء، وما سعت — بعد أن رأت نتيجة سياستها — لإصلاح الأمر. فأولئك القادة رؤساء في قبائلهم، التي انقادت لهم، فاشتدت الضغائن على الإسبان، وحلت محل الثورة حركة فكرية خفية.

وفي عهد الجمهوريين تفاقَمَتِ الأمور؛ لأن سياسة مدريد الخارجية المغربية حذت حذو السياسة الفرنسية في المنطقة السلطانية، فاتفقت الحكومتان اتفاق أصحاب المصلحة الواحدة، فأهملت مطالب المغاربة، واحتقرت قادتهم، وفرضت المراقبة عليهم، فشعر الجميع، التابعون والمتبوعون، بالذل والهوان، وتحوَّلَتِ الثورة الفكرية إلى نهضة وطنية، على الحكومة الجمهورية.

ولو لم تكن ثورة فرنكو، لكانت ثورة المغرب.

أَضِفْ إلى ذلك أن الجنرال فرنكو وإخوانه الضباط كانوا يعطفون على المغاربة، ويخلصون الولاء لهم وللمغرب، فنصروهم على الجمهوريين، وسارعوا إلى السلاح والتطوع، فكان عددهم يزداد يومًا فيومًا، حتى بلغ في مدة الحرب الأهلية مائة وثمانين ألفًا، وما كانت شجاعتهم في الحرب مع فرنكو بأقل منها يوم كانوا حربًا عليه، بل حاربوا مستبسلين؛ لأنهم كانوا مؤمنين. فلقد آمنوا بفرنكو ودعوته، كما آمنوا بقادتهم والزعماء، وقد خاضوا المعارك متيقِّنين أن انتصارهم هو انتصار المغرب، وأن في تحقيق مبادئ الثورة تحقيقَ مطالبِهم الوطنية وآمالهم القومية.

والجدير بالذكر هو أن الإحساس الديني الشديد في المغاربة والإسبان، كان من العوامل القوية التي كوَّنت الثورة، وضمنت لها النصر؛ فقد تصوَّرَ الثوار، وصوروا للمغاربة، أن الجمهوريين أعداء الدين وأعداء الله، وأن الانتصار عليهم هو الانتصار على الكفر والإلحاد. إن في ذلك التصور من الوهم والخداع ما في كل دعاية من الدعايات السياسية في هذا الزمان.

نعود إلى رحلتنا الريفية، بعد أن وقفنا هنيهة أمام النصب عند باب الريف، نقصُّ على القارئ القصةَ التي تتعلَّق به بداية ونهاية ومستقبلًا. فإن للتعاون الإسباني المغربي نتائج دائمة، ظهر بعضها، والأمل كبير بما سيظهر فيما بعدُ.

نعود إلى رحلتنا الريفية، بل نبدأ الآن بها، وقد قطعنا جبال غمارة، واستقبلنا جبال الريف، فعاد الزمان إلى أوائله، على الأقل في الأسماء، أسماء الأماكن والبلدان.

إساغِنْ – كتامة – زَرْقَتْ – تَرْغيسْتْ؛ هذه الأسماء تبعدنا عن العربية، ولا تُدنِينا من لغة معروفة مألوفة، فالشائع أنها بربرية، وقد لا تكون كذلك من غير الوجهة الذوقية. أما من الوجهة التاريخية والجنسية، فقد تكون غوطية أو بيزنطية أو أفريقية أو فينيقية.

وصلنا من إساغن إلى ترغيست حيث تلتقي ثلاث سواكن: الياء والسين والتاء، وثلاث قبائل: بنو مَزْدَوي وبوخنُّوس وبونصار، وثلاثة ألغاز: بربري ومغربي وعربي.

والزمان يعمل في تكوين اللغز الرابع — الإسباني العربي. فيقف رحَّالة المستقبل عنده سائلًا كما نقف اليوم سائلين: وما البربري، وما المغربي، وما العربي، وما السبَنْرَبي؟

اللغز السبنربي هو هنا في ترغيست، وسنكفي رحَّالة المستقل مئونة السؤال. ترغيست مركز عسكري في وسط المنطقة، عند الحدود الغربية لجبال الريف؛ فالإسبان

العسكريون فيها أربعة آلاف، والمدنيون ألف واحد، والمغاربة تسعمائة نفس لا غير. إنما في جوار البلدة القبائل الثلاث التي ذكرت، وعددها جميعًا أربعة عشر ألفَ نفسٍ.

إسبان ومغاربة، في هذه البقعة الجبلية العالية، الطيبة الهواء المرهفة الغرائز الحيوانية، إسبان ومغاربة متآخين متحابين في هذا الزمان السعيد — في العقد الرابع من القرن العشرين — وقُلْ متناسلين، بالرفق والتؤدة. مرة كل شهر، كل عام، كل عشرة أعوام، فالمحصول بعد خمسمائة أو ألف عام هو واحد. هو هذا اللغز الأثنولوجي السبنربي، إنه يكون لغزًا، نعم، لولا هذه الأسطر العشرة الشارحة لأصله وحاله في التكوين.

فلو كان ابن خلدون، أو غيره من العلماء في الماضي، مدقِّقًا محقِّقًا في أصول الأشياء والناس مثلنا اليوم، لكفانا مئونة السؤال والافتراض والحدس، ومع ذلك سنعود في فصل آخَر إلى الموضوع فنسأل ونفترض ونحدس في: مَن هو البربري في المغرب، ومَن هو العربي، ومن هو العربي المغربي البربري؟

إننا الآن في ترغيست، على ألف ومائة متر فوق البحر، في سهل مفتوح للرياح الأربع، وما هي مع ذلك الكينا والحديد في المناخ، فتشعر بنشاط يذهب بتعب الأسفار، ويبش للغسق، فالمساء، فطنجة للعشاء مهما تكن، وفراش بعد ذلك من تراب، ووسادة من حجر.

ولكن في ترغيست قائدًا عربيَّ الاسم واللسان والروح، يقول للحجر: لِنْ، فَيَلِينُ. هو الحاج أحمد بن شعيب بورجَيلة، الحصيف الحكيم والتقي الورع، فقد حجَّ، ثم ساح في الشرق العربي، جاب الأمصار فتمصَّرَ، ثم عاد إلى هذه الجبال الريفية يتولى شئون القبائل، ويُشرِف على بناء المستشفى الجديد، ودار الصناعات، ويضيف الزائرين لترغيست أو المارين بها.

والحاج أحمد محدث فكه مفيد، يحدِّثك في شتى المواضيع إلا السياسة؛ فقد كان من القادة في جيش عبد الكريم، والسكوت بعدها أولى. أما القبائل، فالذي يعرفه عنها كان يجهله ابن خلدون.

صنهاجة؟ نعم، في هذه الناحية جذم منها وعدة بطون، عربية الاسم وغير عربية، تجمعها صنهاجة سراير. أما البطون العربية الاسم فهي: بنو شيبت — وهم في رأيه من بني شيبة الحجاز حافظي مفتاح الكعبة، إلا أن التاء القصيرة هناك أمست طويلة في المغرب — وبنو أحمد، وبنو بشير، وبنو بونصار. وغير العربية هي: تغزوت، وزرقت،

وبنو خنُّوس، وبنو مزدوي، ولكل هذه القبائل ولي واحد كبير، جامع شامل في بركاته وفي اسمه هو سيدي محمد بن صديق أَخَمْليش، المدفون بحيُّون في قبيلة بونصار.

صناعات؟ موجودة، فبنو مزدوي مشهورون بصناعة البارود، وتغزوت مشهورة بصناعة الأسلحة.

قلت: وهل تفكرون في غير الأسلحة والبارود في هذه الجبال؟

فضحك وقال: كنَّا نقول «الكلاطة[٣] قبل كل شيء.» فصرنا نقول «المدرسة قبل كل شيء.» ولكن منزلة الكلاطة محفوظة، ولا عزيز بعد الله غيرها وغير المدرسة.

قلنا للحاج أحمد: إن لعائلة بورجيلة فرعًا في لبنان، ولكنهم نصارى وفيهم بطريق. فقال: زادنا الله نعمة. ووعدنا بأنه سيزور لبنان — إن شاء الله — ليتعرف إلى أهله فيه.

ودَّعناه صباح اليوم التالي، وفي القلب غرس من بستان مودته، وشيء من الأمل باجتماع البورجليين، اللبنانيين والمغاربة.

وودَّعنا سهول ترغيست المرابط في أفقها جبل الأرز، فأطللنا ثانيةً على البحر البعيد الأفق، وبعد أن انطوى الأفقان وتوارَيَا، طلعت علينا طلائع ورْياغل في أراضي الوطا والنكور.

بنو ورغايل صناديد الريف، هذه ديارهم، تشرف عليها من مركز المراقبة بقرية بني حديفة، ونلاحظ أن البيوت في جبال الريف هي مثل البيوت اللبنانية القديمة مبنية بالحجارة، مربعة منبسطة السطوح، إلا أنها مسيَّجَة بالصبير، وبين البيت والآخَر فسحات مديدة يكثر فيها اللوز والتين والزيتون.

بعد بني حديفة نستقبل جبلًا ولا كالجبال، هو جبل الحمام، وليست الصفة الممتازة في الاسم أو فيما يأوي إليه من الحمام، بل هو جبل ولا كالجبال لأن فيه يُعقَد ديوان الأولياء، كما تقول الأساطير.[٤]

وهذه تماسِنْت أم القرى في ناحية الغيس من جبال الريف، وهي تمتاز بعد بساتينها الزاهرة، وسهولها الخصبة، ومياهها الجارية، ومدرستها الزراعية؛ تمتاز بشيء

---

[٣] الكلاطة: هي الاسم العام في المغرب لكل بندقية. وهناك زيدان: البارودة القديمة التي تُحشَى بالبارود. والخماسية — الأوروبية — ذات الخمس طلقات، وأم كحلة «عروس المغرب».

[٤] أيُّ الأساطير: الفينيقية أم الإغريقية؟ وهل لديوان الأولياء صلة بذلك الديوان الإغريقي الذي كان يُدعَى The Areopaqus of the Holy.

شبيه بالأساطير. كيف لا وهي مسقط رأس ذلك العلَّامة الفقيه المنقطع النظير في زمانه، وكل زمان؛ فقد كان كاتبًا غزير المادة، ولكنه ما كتب غير الحواشي، ملأ بها هوامش الكتب.

فلو علم به أبو بكر الخوارزمي لهبط من عليائه إلى تماسنت ليحيِّيه، ويفلي حواشيه، ولو سمع به الزمخشري لنوَّر ضريحه عامًا بعد عام بزيت الزيتون.[٥]

كادت حواشي فقيه تماسنت تُنسِينا الحاشية المهمة في تاريخها الحديث، وهي أن الشريف الريسوني مدفون فيها.

وإني أتصور ذلك المحبر للحواشي، وبيده سيرة الريسوني، يكتب على هامش صفحتها الأولى: أخطأ وأصاب، وعند الله كل الصواب.

وعنده تعالى الثواب لِمَن يُحسِن العمل مهما يكن، والعقاب لِمَن لا يُحسِنه؛ فقد رافقنا من مرقب بني حديفة رجل يُدعَى ابن علي العبد لاوي، فظننته من اسمه — لاوي — يهوديًّا، ولكنه يحمل الاسم قصاصًا له ولِمَن تحته من بني عبد الله عائلته. بنو عبد الله — عبد لاوي — كذلك تُنحَت أو تُنسَب الأسماء في المغرب، وكذلك تفسد اللغة. فهل يستعظم القصاص بعد تحويل الله إلى لاوي؟

وكنَّا أثناء الاقتباس لهذه العلوم اللغوية والإلهية، نهبط من الجبال إلى مرفض الوادي الكبير، وادي النكور، فعرجنا على إفْزورَن، وزرنا مدرستها الشبيهة بما شاهدنا من مدارس القرى والقبائل، بصفوفها وكتبها ورسومها الملونة النباتية والجغرافية والفيزيولوجية المعلَّقَة على الجدران، وبنظافة غُرَفها وتلاميذها من بنين وبنات.

وفي وادي النكور يجري نهران، النهر المسمى باسمه، ونهر الغيس، ويقوم إلى جانبه الشرقي من الوادي جبل تمسمان وبني توزين، فيمتد شمالًا إلى البحر، وينتهي في شبه رأس عند الخليج.

إن وادي النكور لَأرحب الأودية وأخصبها في هذه الناحية، كثير المياه والبساتين، كغوطة دمشق، وفيه من قديم المدن وحديثها اثنتان هما أجدير وسان خرخو.

سان خرخو، هاك رطانة جديدة في الأسماء، حلَّتْ محل الرطانات القديمة التي كانت شائعة في هذا المكان؛ فالطرف البحري منه قَنْتُ الزيت، والشاطئ الرملي تَغْذيت،

[٥] ولا بد لهذه الإشارات الأدبية من حاشية تنيرها. قيل لأبي بكر الخوارزمي عند موته: ماذا تشتهي؟ قال: النظر في حواشي الكتب. وقال الزمخشري: الزيت مخ الزيتون، والحواشي مخ المتون.

والقرية التي غمرتها المدينة كانت تُعرَف بتَغْرَوِيت، كأنها تنتقل من شكل إلى شكل دون أن تبرح أولى درجات الارتقاء.

قد تأسَّسَتْ هذه المدينة الجديدة على رأس البر، عند خليج النكور، سنة ١٩٢٥، ودُعِيت باسم القائد سان خرخو الذي نزل بجنوده على هذا الشاطئ في آخِر مرحلة من ثورة عبد الكريم. عدد سكان هذه المدينة اليوم ستة آلاف من الإسبان، ألفان من أهل الريف، وثلاثون أو أربعون يهوديًّا. مياهها تُجلَب من جبل هو على أحد عشر كيلومترًا منها، وفيها مأوى لفقراء الأهالي، ومدرسة دينية، ومستشفى عصري، ومحكمة شرعية، ومجلس بلدي مؤلَّف من إسبان ومسلمين، رئيسه الحاج سليمان الخطابي، باشا المدينة.

الخطابي الورياغلي: نحن في ديار بني ورياغل التي أشرفنا عليها من الجبال، وهي من أكبر القبائل الريفية، تُقسَّم إلى جذمين: مرابط وخطابي، ويُقسَّم الخطابي إلى بطون أهمها: بنو عبد الله بن علي، وبنو علي بن علي، وبنو يوسف بن علي، ومن المرابطين: بنو حديفة، وبنو بوعباش. وتكثر الآية في أسماء البطون والمداشر في أكثر القبائل الريفية؛ ففي ورياغل مثلًا: آية يوسف، وآية إبراهيم، وآية عمر وبكر. وفي تَغَرسيت آية مشيطة، وفي شوكت من بني سعيد آية حمُّو، وكلها تُكتَب بالتاء الطويلة! آيات في الخلط بين العربية وغير العربية، وبين الإسلام والوثنيات التي تقدَّمَتْه في هذا المغرب.

والنكور منها في القِدَم والغموض. يذكر ابن خلدون شيئًا من فصلها، ولا يتجاوزه إلى الأصل؛ فقد كانت اسمًا لمدينة اختطها سعيد بن صالح بن منصور الحميري من عرب اليمن الفاتحين، وكان يُعرَف بالعبد الصالح، استخلص بلاد النكور لنفسه وأقام فيها، وكثر نسله، فاجتمعت إليه قبائل غمارة وصنهاجة وأسلموا على يده.

هذا مثال من تاريخ ابن خلدون وعلمه، فالنكور مدينة اختطها ابن صالح اليمني، والنكور بلاد استخلصها لنفسه وأقام فيها، وليس في اسم المختط للمدينة، أو المستخلص البلاد، ما يدل على أصل النكور، أو يحل عقدتها.

ويقول ابن خلدون إن بلاد النكور تنتهي من المشرق إلى جراوة، مسافة خمسة أيام، ومن المغرب إلى مروان من غمارة، وإلى مسطاسة وصنهاجة. هذي هي بلاد النكور التي تكاد تكون أكبر من بلاد الريف، ولم يَبْقَ منها اليوم غير الوادي والنهر، الذي يخترق المنطقة من الشمال إلى الجنوب، مثل نهر الغيس، ولكن مخرج النكور من جبال غزناوة، ومخرج الغيس من جبل مزدوي بالقرب من ترغيست، والنهران لا يجتمعان في آكال، كما يقول ابن خلدون، بل يجريان من الجنوب الغربي والجنوب الشرقي، كل

في طريقه مستقل عن الآخَر، فيقترب الواحد من الآخَر قليلًا في الوادي ولا يلتقيان، ثم يصبان مفترقين في الخليج، تجاه تلك الجزيرة الغربية التكوين الشبيهة ببارجة حربية راسية في ميناء سان خرخو.

ومما لا ريب فيه هو أن مدينة النكور كانت في هذا الوادي، وربما مكان أجدير اليوم؛ لأنها كانت تُدعَى أيضًا بين النهرين.

وهذه بين النهرين، أجدير عاصمة بني ورياغل، ومسقط رأس عبد الكريم الخطابي. مررنا بالبيت الذي كان بيته وهو اليوم مقر المراقب المحلي، أما المرقب العام لإيالة الريف فهو بسان خرخو. والريف كله، وهو نصف المنطقة الشمالية،[٦] مقسوم إلى إيالتين: هذه التي نجتازها، والإيالة الشرقية التي نحن قادمون إليها.

عدنا في الوادي بجانب النهر، فجزناه بالسيارة عند سفح الجبل واستأنفنا التصعيد والدوران في طريق وعر، كثير الغبار، هو الطريق الجديد إلى مليلية، وقد تغيَّرَتْ كذلك تربة الأرض، فهي حوَّارية كلسية، دكناء جافة، ينبو النظر عنها، ويتعب الراكب في القليل من طريقها.

وما كان منه غير القليل؛ فبعد أن أدركنا — بين عزيب الميضاد ودار دريوس — أعلى نقطة في هذه الجبال، أي تزتز، التي تعلو ١٩٥٠ مترًا عن البحر، انفسحت الأرض، واخضرَّ بساطها المديد، فإذا نحن في سهل كسهل البقاع خصبًا وهواءً وبِشرًا.

وفي هذا السهل، بل في هذه المنطقة من المغرب الأقصى، شاهدنا لأول مرة الجمال، وعلمنا أن القبائل التي تقتنيها هي ثلاث رُحَّل لا غير، منها قبيلة بني بويحيى.

وفي هذا السهل، بل في جبال الريف كلها، لا تبيض البيوت من الخارج كما في الناحية الغربية، بل هي من لون الأرض التي تحيط بها، كبيوت القرى في اليمن.

وإلى بلدة تستوتين في هذا السهل تصل سكة الحديد من مليلية، فتمر بعد تستوتين بالجبل الذي وقعت فيه الوقعة الأولى في ثورة عبد الكريم، ومنه إلى سلوان محل النكبة التي نُكب بها الجيش الإسباني.

---

[٦] حدود الريف هي شمالًا: البحر المتوسط من كبدانة شرقي مليلية، إلى مثيوة شرقي الجبهة، أي بورتو كباس. وجنوبًا: المنطقة السلطانية من كتامة إلى نهر ملويه. وغربًا: من مسطاسة قرب البحر إلى كتامة على حدود المنطقة الجنوبية. وشرقًا: نهر ملويه إلى كبدانة. ويتبع بلاد الريف جغرافيًّا وتاريخيًّا، ثلاث جزر هي كبدانة والنكور وبادس، أما اليوم فهي في وصفها السياسي تابعة لمدينة مليلية المستقلة عن المنطقة.

ومن سلوان نجنح إلى الشمال، ونستمر نازلين، فندنو بعد قليل من البحر، ومن الغروب.

فهذه — بعد سلوان — الناضور، وفيها مركز المراقبة العامة للإيالة الشرقية، وهذه — على بضعة عشر كيلومترًا منها — مدينة مليلية.

الفصل الثاني عشر

مليلية وجبال الحديد

لو كان الإنكليزُ الفاتحين لهذه المدينة في القرن السابع للميلاد، والمستعمرين الحاكمين السائدين فيها ثمانمائة سنة، فخسروها بعد ذلك لفساد تسرَّبَ إليهم، أو لقوة أو حيلة في الصائل عليهم، وكانوا اليوم فيها مثل هذه الشرذمة من العرب المسلمين؛ لما كان السائح الإنكليزي يختلف كثيرًا في نظره وشعوره، عندما يدخل مليلية عن هذا السائح العربي.

المسألة قديمة جدًّا، هي أقدم من قطيع لابان، وأقدم من جب يوسف، وأقدم من دم هابيل؛ هي مسألة قديمة حديثة وعقلية وجدانية، والرأي السديد فيها هو دائمًا جديد، دائمًا جديد.

فمهما تغيَّرَت وتلوَّنت وجوه الحق والوجدان، فالحق والوجدان لا يتغيَّران، ومهما ارتقت القوانين، وتطوَّرت الشرائع، في حقوق التملُّك الشخصي أو الدولي، فالحقيقة الدائمة التي لا يعتريها شيء من الفساد أو التغيُّر، هي أن الإقامة والزمان، من أركان حق التملُّك، إن كان للأمم أو للإنسان. ولا تفسد ذلك، ولا توقف أحكامه، اللهم إلا وقتيًّا، حيلة لابان مثلًا، أو خيانة إخوة يوسف، أو ضربة قايين الذابحة.

وحينما يُسطَى على الإنسان في ملكه، بالقوة أو بالحيلة، أو يسيء هو إلى نفسه بما رَكَّ من خلقه، فيبسم للساطي ويداجيه، أو يخنع له ويواليه، فيفقد ذلك الملك، ويسلي نفسه مثل لابان ويعقوب بالعهود، فإن نظري قد يتغيَّر في المسألة، ويظل وجداني واحدًا لا يتغيَّر.

والسبب في ذلك هو أني من أولئك الذين يعطفون على الضعيف المظلوم، وإنْ كان ضعفه من نفسه وظلمه من يده، وإني في هذا — ولا ريب — مسيحي. فإن كنت أعجب بالقوي، فإعجابي لا يقرن دائمًا بالحب، ولا بذلك الشيء الذي يحمل أكثر الناس على أن

يكونوا من الأكثرية في المجتمع الإنساني؛ إني إذن مقلد لذلك الذي صُلِب، والحمد لله. فلو شهدت ديكين يَقْتَتِلان لملت بقلبي إلى الديك المغلوب، وإن كان لجار غير محبوب!

ولو كان الإنكليزي أو الفرنسي أو الإسباني هذا الديك المغلوب اليوم في مليلية، لكنت إنكليزيًّا أو فرنسيًّا أو إسبانيًّا في شعوري ووجداني.

إنما الديك عربي، وقد فقد الزاهي من ريشه، وذهب الزمان بعرفه وصوته، فليس في مليلية اليوم ديك عربي يصيح، ولا ديك عربي فصيح. فهل يلام السائح العربي إذا وقف وقفة شعراء الجاهلية عند الطلول والآثار؟

جلست قليلًا في المدينة التي فتحها العرب في أيام الفتح الأول، واحتلوها وعمروها، وكانوا السادة فيها ثمانمائة سنة، فعرتني رعشة من الأسى. ليس هنا أثر عربي، ولا إسلامي.

والعرب المسلمون — ألفان لا غير — ضائعون بين ستين ألفًا من الإسبان، وقلما يتميزون عنهم في هيئتهم وزيهم.

مشينا مع الدليل — وهو مسلم في ثوب إفرنجي، وعربي بلسان إسباني مغربي — إلى قهوة في الشارع الكبير، فاجتزنا شوارع كبيرة تعدَّدَتْ فيها المقاهي على الأرصفة، تحت الخيم، وازدحمت بها الرجال والنساء، فخلتني في مدريد أو في باريس، وهذا بائع الجرائد وليس بينها جريدة عربية.

قال الدليل: غدًا نزور الجامعة الإسلامية. فسررت، وما طال ذلك السرور؛ فقد زرنا «الجامعة» صباح اليوم التالي فإذا هي جمعية خيرية تأسَّسَتْ منذ أربعة أعوام للاهتمام بشئون المسلمين المقيمين والذين يؤمون المدينة من الجبال، وقد باشرت الأعمال التي تقتضيها الشئون الضائعة المتبعثرة. فمن ذلك: أن تبني مسجدًا، وتؤسِّس مدرسة بل مدرستين، للبنين وللبنات، وملجأ للعَجَزة، وآخَر للأولاد الفقراء المتشردين، وغرفة تجارية كذلك. ومن مقاصد الجمعية: تنظيم سلك العمَّال وأصحاب الحِرَف؛ لتحسين أحوالهم، وللدفاع عن حقوقهم ومصالحهم.

رافقنا الرئيس إلى أولى هذه المؤسسات، وهي بناية بطابقين، وراءها حمام عام، ووراء الحمام المسجد، وفي البناية دكاكين هي وقف عليه. لقد قدَّمت البلدية الأرض هبة للجمعية، وقدَّمت الحكومة لها بعض المساعدة المالية، وجلبت لها معلمًا من لبنان يعلِّم في مدرستها العربية.

كل هذه الأعمال الخيرية القومية المدنية والدينية، تقوم بها الجمعية، بمساعدة الحكومة. قالها الرئيس بلهجة فيها سرور، يخالطه امتنان. ونهضة المسلمين هذه، في

مدينة كانت لهم، فأمست أوروبية مسيحية حديثة العهد، كما قدمت؛ لا سابق لها، تمهيدًا أو إنشاء، لا بد من الإسبان ولا من المسلمين أنفسهم. فقبل أن تأسست هذه الجمعية كان القطيع بلا راعٍ يرعاه، ولا مَن يهتم بشئونه من المحتلين؛ فالحالة الحاضرة في الإنشاء والإصلاح والتعاون هي مظهر من مظاهر التجدد القومي في بلاد العرب، والنشاط الديني في بلدان الإسلام كافة. فالدولة الأوروبية المسيطرة على بلد إسلامي ترى من صالحها أن تساعد في تحسين أحوال المسلمين، الدينية في الأقل والاجتماعية، وهذا — من فضل ربك — في مليلية اليوم، وإن كان قليلًا. فالكثير الضائع، لا يفدى بالقليل أو بالكثير من هذه الأعمال الخيرية.

مليلية أحد الثغور الأفريقية والآسيوية على البحر المتوسط، بل أحد الثغور العربية في الماضي. عرتني — إذ جلست فيها — رعشةُ أسى تلتها رعشةٌ من الخوف؛ خفت على بيروت وطرابلس، خفت على حيفا ويافا، حتى على الإسكندرية؛ فالأوروبيون اليوم فيها جميعًا، والهجرات الأوروبية إليها متواصلة، والمشاريع الأوروبية فيها تزداد يومًا فيومًا، والمدارس الأوروبية تنشر أعلامها في جدار المدارس الوطنية، والحكم الأوروبي يحل محل أحكامها الأهلية، من إسكندرونة إلى … حذار يا إسكندرية. فإن تهاونًا في سيادتك القومية يصير فتقًا فبابًا للسيادة الأجنبية.

وليس التيار الأجنبي اليوم كتيار الأمس في مجراه؛ فهو اليوم مكهرب نشيط، سريع التدفق والشمول. فالانقلاب الذي استغرق مائة أو مئتي سنة في هذه المدينة من مدن المغرب، لا يستغرق خمسين سنة في مدن الشرق العربي، هذا إذا استمر التيار الأجنبي في مجراه الفيَّاض الغلاب.

وهو مستمر إن كانت الأمة العربية لا تتنبَّه له، هو مستمر إن كان أمراء العرب وملوك العرب وساسة العرب لا يهتمون للثغور العربية اهتمامهم للعواصم، هو مستمر وهو غالب، إن كان العرب لا ينهضون نهضة واحدة، موحدة الصفوف والمحجة؛ ليدفعوا هذا الخطر عن ثغور هي عربية منذ ألف، منذ ألفين، منذ ثلاثة آلاف سنة.

لقد خفت عليك يا بيروت، خفت وأنا في مليلية عليك! فعندما تلفظ الروح القومية فيك نفسها الأخير، تمسي مدارسك وجامعاتك قبورًا لها، وعندما تتلاشى فيك الوطنية العربية تنقلب المعاهد الحية عليك، وتغور طوع إرادة الأجانب في كل ما يبتغونه منك، وحينما يستسلم الرعيل الأخير من فرسانك الأحرار، يذل سادتك وزعماؤك وينبذون قصيًّا، فتهجر المساجد والكنائس، ولا يبقى لمئذنة صوت، أو لقبة صدى، وقد تبقى فيك،

يا بيروت، شرذمة من اللبنانيين العرب المسلمين والنصارى، كهذه الشرذمة الإسلامية في مليلية.

بيروت، حيفا، يافا، الإسكندرية، ثغور هذا البحر الأبيض جميعًا؛ إني أخاف عليك، إن لم تقم الدولة العربية الموحدة، المفعمة بروح المدنية الحقة — مدنية العلم والدين مقترنين، مدنية المادة والروح متعانقين — فتحميك من التيار الأوروبي الصائل الغلاب، وتردُّ عنك أخطار الاستعمار الحديث التي بدأت تدسُّ سمومها في دسم الثقافة والتجارة والسياسة والدين.

بيروت النصارى، بيروت المسلمين، استيقظي، لبنان الدروز والموارنة استفق، استفق. فلقد غزاك نصارى الشرق، السريان والكلدان، كما غزاكَ وكما غزاكِ يا بيروت، المستعمرون وأعوانهم المهاجرون، الأرمن والشركس والآشوريون.

وستزداد الأقليات قوةً في لبناني العزيز، فتسمى الأكثرية حلية، ويمسي أهله الأصليون أقلية صغيرة ضئيلة، ضعيفة ذليلة، وذي هي الشرذمة الإسلامية في مليلية تشهد على ما أقول.

فيا ملوك العرب، ويا أمراء العرب، إن الأجل قريب، وإن اليوم الذي ستشاهدون رهيب، إلا أن تستفيقوا، وتعملوا بعزم وإخلاص، العمل الواحد، مهما اقتضاه من بذل النفس والنفيس، فتحموا الثغور العربية على هذا البحر الأبيض، تحموها تحقيقًا لأماني أهلها، تحموها بالرغم عمَّا يريده أهلها، تحموها وأنتم في البداية والنهاية أهلها، وإن لم تدركوا معنى التبعة، وقيمة التبعة التي ألقاها الله على عواتقكم، فأنتم الخاسرون، وأنتم المظلومون. فالثغور اليوم ذاهبة، والعواصم ذاهبة غدًا، ولات ساعة مندم. وهذه مليلية تشهد على ما أقول.

ومن غريب أمر مليلية أنها في أواخر القرن الماضي، وفي زمن الحكم الإسباني كله، أي منذ انتزعها الإسبان من العرب، في النصف الأخير من القرن الخامس عشر إلى آخِر القرن التاسع عشر، لم تكن على شيء يُذكَر من الرقي والعمران؛[1] فقد كان عدد سكانها،

---

[1] مليلة من البلدان التي أسَّسَها الفينيقيون القرطاجيون، وقد أَسْمَوها روسدار، ولا يزال لتلك المدينة أثر عند الصخرة الكبيرة على البحر، ثم جاء البربر فبنوا بلدة إلى جانبها أو وسَّعوا المدينة الفينيقية، وهي التي استولى عليها الرومان، ثم الغوط في القرن الخامس للميلاد، ثم العرب في الفتح الأول، فأطلقوا عليها اسم مليلة على وزن سفينة، ولكنها حُرِّفت فصارت مليلية. وقد بلغ عدد سكَّانها في عهد العرب ما هو

سنة ١٨٩٥ ثلاثة آلاف نفس، وهم اليوم سبعون ألفًا منهم ألفان مسلمون، ثمانية آلاف من اليهود، وقليل من الأوروبين غير الإسبان.

ولكن بعد الاحتلال الإسباني، والحصول على جبل الحديد، وتوسيع المرفأ ومد السكة إلى الجبل، اتسع مجال العمل والتجارة للإسبان، فتهافتوا على مدينة المناجم، فأخذت تزداد عمرانًا، واستعادت سالف عهدها في الازدهار.

فالمناجم، ولا غرو، مصدر ثروتها وازدهارها، في الماضي والحاضر، والمناجم التي كان العرب سادتها في الماضي، هي اليوم باب من أبواب الرزق لعمَّال العرب.

فهل يكتفون به يا تُرَى وقد فُتِح لهم باب من أبواب العلم الذي كان أجدادهم سادته وحَمَلة مشاعله في العالم، ومن العلم اليوم ما لم يدركه أولئك السلف، ولا كان من أسباب الحضارة في زمانهم؟ فعلينا نحن أن ندرك الحقيقة القاسية في علوم هذا الزمان، وهي أن النفط والفحم والحديد هي لمدنيَّتنا كالماء والهواء والغذاء للإنسان، وأن الفحم والنفط والحديد للأمم هي قوام حريتها واستقلالها وسيادتها التامة. فالأمة التي لا فحم، ولا نفط، ولا حديد عندها، تكفي في الأقل حاجاتها، في أيام السلم والحرب، هي أمة وُكَلَة، فلا حرية ثابتة لها، ولا استقلال يدوم.

ولنا أن نقول إن السيادة الحقيقية في زماننا، وما يصحبها من استعباد العباد، إنما هي لشركات النفط والحديد، وللحكومات التي تتحالف وتتآلف وإياها. وفي إسبانيا اليوم مَن يدركون هذه الحقيقة، ولا يطمئنون إلى حالٍ تُوجِب عليهم استجلاب النفط دائمًا من خارج بلادهم، ودفع ثمنه نقدًا ذهبًا؛ لذلك بدءوا يبحثون عنه، وسيجدونه في الجهة الجنوبية الغربية من منطقة حمايتهم في المغرب.

أما الحديد، فإن في إسبانيا مناجم منه غنية المادة، ولكن الحديد الأجود هو ها هنا في هذه الجبال المجاورة لمليلية.

اليوم، أي نحو سبعين ألف نفس، فشغلوا المناجم المجاورة لها، واستخرجوا منها الحديد والقصدير، وقيل الذهب أيضًا. فازدهرت في عهدهم، واضطربت شئونها، فتقهقرت في زمن الحروب بينهم وبين الإسبان، تلك الحروب التي انتهت بانهزامهم سنة ١٤٧٠، فقد حاوَلوا غير مرة بعد ذلك أن يسترجعوا المدينة فلم يفلحوا، فعقدوا معهم معاهدة صلح وولاء في سنة ١٧٨٠، في عهد السلطان محمد بن عبد الله بن إسماعيل، وجُدِّدَتْ في سنة ١٨٥٠ في عهد السلطان عبد الرحمن بن سليمان.

وهناك حقيقة أخرى من حقائق علومنا العصرية القاسية، وهي أنه كلَّمَا تقدَّمنا في هذه المدينة، مدينة الفحم والنفط والحديد، ازدادت حاجاتنا، وازدادت أسباب صنعها وتعاطيها، وازدادت كذلك أنواع العمل في سبيلها، عمل الفرد وعمل الأمم.

أما الفوز في تنظيم هذه الأعمال وانسجامها للأمم التي تُحسِن العلم، فليس في تقسيم الأعمال وتوزيعها فقط، بل في تقسيم ما تنتجه من المال وتوزيعه بين العمال وأصحاب العمل على السواء.

هو ذا سر النجاح الذي بدأت تدركه إسبانيا الجديدة، فتعمل به في بلادها وفي منطقة حمايتها بالمغرب. إسبانيا، ومن شأنها الوثوب من حال إلى حال، من تطرف إلى آخَر، في تاريخها القديم والحديث، إسبانيا هي اليوم قادمة على تجربة في الاستعمار مقلقلة لدول الاستعمار جاراتها، وإن لها في ذلك إيمانًا عظيمًا، هو إرثها ومددها في كل أعمالها؛ فهي المدركة كذلك أن العلم والعمل، والابتكار فيهما، غير ممكن وغير مثمر، بدون السلم والأمن والطمأنينة. وكأني بها تقول: ليطمئن المغاربة بالًا، أطمئن أنا، وإن عدلت أنا عدلًا إنسانيًّا لا سياسيًّا، يخلد المغاربة إلى السكينة، ويخلصون الولاء، ويستقيم التعاون وإياهم لخيري وخيرهم.

إن إيمانها لعظيم، وقد تكون فيه مبدعة لعهد جيد في صلات الأمم بعضها ببعض، وفي العمران البشري، المادي الثقافي الروحي.

إن لمليلية فحصًا، مثلما لسبتة وطنجة، ولكنه صغير — لا يتجاوز الكيلومتر الواحد في كل جهة من جهاتها البرية. فإذا سلكنا الطريق المغربية منها، نصل بعد قليل إلى حدود المنطقة الخليفية، حيث مراكز الشرطة والجمرك وجوازات السفر.

أين المغاربة؟ أين أبناء الريف؟ هم دون هذه الحدود، في القرى القريبة من الجبال، وفي الجبال وأعاليها، وها نحن أولاء في شِيكَر عند سفح الجبل، على بضعة عشر كيلومترًا من مليلية، وهذه كذلك فرخانة، ولا يزال عليها أثر العتق والقِدَم؛ فقد كانت في أيام السلاطين مركزًا عسكريًّا لحراسة الحدود المغربية، وهي تُسمَّى قصبة مولاي إسماعيل؛ لأنها بنيت في أيامه (١١٢٠هـ)، وهذه بقية كئيبة من صورها.

وفي فرخانة اليوم مدرسة عربية، يتعلَّم فيها مائة من أبناء القبائل، وهي مجانية بكل ما فيها، وتقدِّم — فوق الكتب والقراطيس — الفطور والشاي للتلاميذ كل يوم، وكسوة كاملة لكلٍّ منهم، ثلاث مرات في السنة.

وفي الطريق الجنوبية من مليلية نصل بعد ربع ساعة في السيارة إلى المدينة الجديدة الجميلة التي بناها الإسبان؛ إلى الناضور Villa Nador، وفيها نحو ألف من المسلمين، وخمسة آلاف من الإسبان المدنيين. هذه المدينة قائمة على بحيرة تتكون من البحر، وتتصل به بعد أن تكون قد بلغت خمسة عشر كيلومترًا من الأرض، ووقفت عند سفح الجبال الشرقية، فتفيأتْ قسمًا مما أكلت — لسانًا رمليًّا طويلًا، يفصل بينها وبين البحر، فيُزرَع بطيخًا.

أريد أن أقول إن الناضور على الجهة الغربية من البحيرة، التي أَسْمَاها الإسبان «مارتْشيكا»، البحر الصغير، وفي هذه النواحي قرية غريبة الاسم، تجتمع فيه ثلاث لغات، قرية لبني نصر — تُلفَظ أنصار — من قبيلة مزوجة، تُدعَى «أولاد بُوَيْفو كُوُّزِين مارتشيكا»! فهل في العالم يا تُرَى قرية أخرى تحمل مثل هذا الاسم الضخم الفخم الرخيم، الجامع بين الإسبانية والعربية والمشلحة الريفية؟

لقد أنسانا هذا الاسم «البحر الصغير» والناضور القائمة على ضفته الغربية، وجبل كبدانة المقابل لها، واللسان الرملي الذي يمتد من سفح ذلك الجبل إلى البحر الكبير، بالقرب من مليلية، فتخرج البحيرة من ذلك الباب لتجتمع بسيدها البحر.

وفي الناضور مركز المراقبة العامة للإيالة الشرقية، ومعسكر كبير، رأينا الفراخ منه في الساحة أمام المركز. هناك رأينا عقاب الحرب يفقس بيضه، فيخرج منها الفراخ حاملين البنادق. سلاحك! إلى الأمام! الصوت الرهيب هو صوت العقاب، يسمعه مائة من أولئك الفراخ، صبيان من الخامسة إلى العاشرة، يمشون بخطوات شبيهة بتلك التي اخترعها الألمان. فراخ تخرج من البيض حاملة البنادق، جنود المستقبل، أبناء الحروب الدائمة!

وفراخ، في الميتم الريفي، يتعلمون القراءة والكتابة والقرآن الكريم، ذلك الميتم قائم في حديقة غنَّاء، وفيه أربعون من بنات وبنين، تقوم بخدمتهم امرأة مسلمة، ومعاونات لها، ويشرف على المعهد شيخ ذو لحية مثل لحى الأنبياء، طويلة مرسلة بيضاء.

ومما راقنا كذلك ثوب البنات الريفيات؛ فالبنات في ميتم أوروبي أو أميركي يكمدن بالثوب الصفيق القاتم، فيغدون كالراهبات أو كالسجينات، وما ذنبهن غير اليتم. أما في هذا المعهد فتراهن يمرحن في أثواب من الشيت، نعم، ولكنها زاهية الألوان، تعلوها المناديل الحمراء، وقد شُدَّتْ على الرءوس من وراء بأسلوب اللبنانيات، وكذلك تلبس نساء الريف، وهن في الجبال سافرات، ويُقِمْنَ أسواقًا خاصة بهن للمتاجرة، أسواقًا نقَّالة لا يحضرها الرجال.

خرجنا من الناضور نقصد جبل الحديد، فمررنا بقرية مغربية صافية إلا في اسمها؛ إسجانجن — باللفظ المصري للجيم — وهي مقسومة قسمين، نصفها على رأس الرابية، بيوت مربعة منبسطة السطوح محصنة بالصبير، والنصف الآخَر حديث البناء، في السهل، فيمر الطريق في السوق الغربية، وفيها عدا المدرسة العربية مدرسة صناعية.

ومن إسجانْجِن نباشر الأسناد في الجبل المنتسب إلى قبيلة بني بويَغْرور، المسمى باسم أحد بطونها، وِيْكْسِن — لا يروعنك التقاء الساكنين، فاذكر أنك مررت بترغيست، حيث التقت ثلاثة حروف ساكنة — ولبني بويغرور بطون أخرى منكرة الأسماء، إلا واحدًا هو أولاد شعيب.

ومن قبائل الريف ذات الأسماء العربية، أصلًا وفرعًا، قبيلة بني بويحيى، تلك التي تقتني الجمال، تلك التي تحفظ عهد البادية، وقديم صحبة «البُل». فمن بطونها المباركة: أولاد علي، وأولاد فطُّومة، وأولاد عبد الدايم، وأولاد موسى، ومُوحَن — لا بد من عثرة ولو في نعيم العربية. فموحن هو اختصارهم لمحمد! سامحهم محمد، وسامحهم الله.

وها نحن أولاء في جبل وِيْكْسِن، جبل الحديد، نترجل أمام بناية من بنايات الشركة، فيستقبلنا المدير، ويتلطف فيطوفنا بالمناجم القائم بعضها فوق بعض.

نمشي إلى رفٍّ من رفوف الجبل، فنشرف على منجم يحفر فيه العمال بالمعاول، فيخرجون التراب والحجارة يملئون بها العربات التي تسير على خطوط الحديد إلى آلات التكسير والتصويل.

ونصعد إلى رفٍّ آخَر فنشاهد المعول التجاري يعمل العجائب في حفر الجبل ودك صخوره. ونستأنف السير، والنظر والفكر والأذن تباري الرجل في العمل الواحد الشاق، ولكن لكل عامل حيلة يستعيد بها النفس والنشاط؛ فكنا من حين إلى حين نستوقف المدير لندوِّن في دفتر المذكرات كلمة قالها أو وصفًا لآلة أو عملية في التنجيم، وكذلك تتهم الرجل الذاكرة بالضعف، وتشارك الذاكرة الرجل في الراحة.

ثم نستأنف التصعيد في جبل بني بويَغْرور، الذي باعه «بو حمارة» لهذه الشركة الإسبانية؛ أعطاها امتيازًا مجهول الحدود والشروط، إلا في المديرية العامة، سنةَ كان ثائرًا على سلطان المغرب المولى عبد العزيز،[٢] وقد تكون الحكومة الحامية عالمة ببعض

[٢] راجع [الجزء الأول – الفصل الأول: من الاستقلال إلى الحماية].

تلك الشروط والحدود ولكنها متكتمة. قال لي المقيم العام الكولونيل بايبدر جوابًا على سؤال سألته: قريبًا تنتهي مدة الامتياز، وسيكون للمنطقة بعدئذٍ حقوق في الاستثمار.

أما الآن فالشركة الإسبانية للمناجم الريفية هي ربة هذا الجبل، ولكنها وإن كانت قد بدأت في الحفر سنة ١٩١١، توقَّفَتْ طويلًا؛ فقد حالت الاضطرابات والثورات مدة عشرين سنة دون الاستثمار، فلم تباشره حتى سنة ١٩٣١.

في هذه المناجم سبعمائة من العمال المسلمين، ومائة لا غير من الإسبان، وفيها القوانين والأساليب في الإدارة، والحقوق والواجبات في العمل، تامة شاملة طبقًا «لإنجيل» العمال في هذا الزمان؛ فالعمل ثماني ساعات، وأسبوع العمل خمسة أيام، والأرباح الإضافية مضمونة، ومخزن «الكوربوراتيف» مفتوح للعمال وأهلهم جميعًا.

لهذا المخزن لجنة مؤلَّفة من إسبان ومغاربة تتولى إدارته وتضبط حساباته السنوية، فتوزِّع الأرباح على العمَّال كل بالنسبة إلى قيمة ما يشتريه من المخزن، وقد بلغ ربح أحد عمال المغاربة خمسمائة بسيطة، وهو من الذين يشتغلون بخمس بسيطات يوميًّا، أي أقل الأجور، وهي تبلغ الخمس عشرة بسيطة للعمال الحاذقين والفنيِّين.

من الأعمال الإضافية التي تقوم بها الشركة أنها أنشأت مدرستين للعمال وأبنائهم، الواحدة للبنات والأخرى للبنين، فيتعلَّم فيها ليلًا مَن يشاء من العمال أنفسهم، ويتعلم أبناؤهم في النهار. وقال المدير: والإقبال حسن في النهار وفي الليل. الطالب المغربي من العمال يرغب خصوصًا في تعلُّم الحساب، والعامل المغربي نبيه نشيط يتعلَّم بسرعة العمل على الآلات الميكانيكية والتجارية.

وقفت لأدوِّن ذلك في مذكرتي؛ فقد كنا نصعد في الجبل من طبقة إلى طبقة، ورف إلى رف، حتى بلغنا ما يقرب القمة التي تعلو ستمائة وخمسين مترًا عن البحر، فمن تحت تلك القمة إلى المكان الذي وقفنا أولًا فيه حُفِرت الطبقات الأربع، فبدت كالنيران، وكلها مكوَّنة من التراب الأحمر والحجارة الحمراء المثقلة بالحديد.

هو الحديد الخام من هذه المناجم في بطن الجبل، بل في بطونه الكائنة بعضها فوق بعض، وينقل منها بعربات على خطوط من حديد إلى معمل التكسير، إلا الآلات، ويا لهول تلك الآلات الكسَّارة، المركبة في ثنيات الجبل، المتصل بها من أسفل ومن أعلى شبه قنوات من حديد، فتتدهور في العالية جلاميد الصخور، تقذف بها تلك العربات؛ فتتناولها الآلة بأضراسها الجبَّارة، وتكسرها بقوة هادئة خارقة كما تكسر اللوز والجوز بمكسرتك الفضية على المائدة!

هذه الآلة تكسر يوميًّا من الثلاثة إلى الأربعة آلاف طن، فترسل في القنوات السفلى إلى آلات التصويل والتحليل، فيفرز منها الكبريت والإكسير، وما تبقَّى يحتوي على ٧٠٪ من الحديد الأحمر hematite، وهو كما يقول المدير: أحسن حديد في العالم.

هذا المحصول من المناجم، أي نحو مليون طن في السنة، يُشحَن في سكة الحديد، وهي ملك الشركة، إلى الميناء بمليلية، ومنها إلى إسبانيا؛ ليُستخلَص الحديد ويُصنَّع من هناك؛ ذلك لأن هذه العمليات تستهلك من الفحم الحجري ما يكلِّف استجلابه إلى مليلية أكثر من نفقات شحن الحديد الخام إلى بلباوة مثلًا حيث تكثر مناجم الفحم.

ولكن الفحم موجود في المنطقة الجنوبية، والنفط موجود في الجهة الجنوبية الغربية من هذه المنطقة.

الفحم والحديد والنفط في المغرب،[٣] وكل المناجم بيد الفرنجة اليوم، ولا أظن أن أحدًا يطمع في أن تكون كلها اليوم بيد المغاربة.

إنما هناك عدل منشود، ووسط محمود.

فلأصحاب البلاد قسمتهم من ثروة البلاد.

ولأصحاب الامتيازات حقوقهم الفنية والمالية والاقتصادية، التي يجب أن تكون بعيدة عن السياسة وحدودها.

وعلى الحكومة الحامية في البلاد، إن كان في المنطقة السلطانية أو الخليفية، أن تعدل في الفريقين عدلها الأعلى، المنزَّه عن السياسة والمطامع السياسية، وإلا فما معنى الحماية؟

ولأن تُهمَل الفريقين أقرب إلى العدل من أن تحمي فريقًا دون الآخَر.

[٣] المناجم الغنية، على أنواعها، هي في المنطقة السلطانية، وجلها بيد الشركات الفرنسية. أهم تلك المناجم: الفسفات الذي صدَّرَ المغرب منه سنة ١٩٣٥ مليونًا وثلاثمائة ألف طن. وقد صدَّرَ من الفحم الحجري خمسة وثلاثين ألف طن، ومن المنغنيز مائتي ألف طن، أما الرصاص والزنك فالمغرب وطنهما الأول. وهناك أيضًا مناجم الحديد والصفر والفضة والذهب والنيكل والقصدير والألماس، وكل هذه المعادن يقول الخبراء إنها تضمن للشركات المستثمرة مائتي مليون فرنك ربحًا في السنة.

الفصل الثالث عشر

العرب والبربر

لولا شيوع هذا الاسم — البربر — في الماضي والحاضر، واستعماله حتى في زماننا لأغراض سياسية استعمارية، تمييزًا وتحقيرًا وتفرقةً؛ لَقلنا العرب والمغاربة، وإننا لقائلون ومقررون ذلك قبل أن نختم هذا الفصل.

على أننا مضطرون، ونحن نتدرج إلى هذه النتيجة، أن نمحص الحقائق الجوهرية في الموضوع دون أن نحمِّل القارئ ونحمل نحن وقر الأبحاث الأثنولوجية والبيولوجية، ودون أن نثبت أو ننفي ادعاءات العلماء والمؤرخين في الماضي، قبل ابن خلدون وبعده؛ فإنها من وجهة نظرنا الحاضرة لا تجدي نفعًا.

ووجهة نظرنا هي وطنية إنسانية، ووطنيتنا هي عربية قومية، لا عربية إسلامية؛ فقد جهرنا بذلك مائة مرة ومرة، ولا ننفك نجهر به في كل ما نكتب عن هذه الأمة العربية ونهضتها وأشواقها وآمالها، إن كان في المشرق أم في المغرب. وإن لنا في الوطنية غرضًا أكبر فيها، وإن كان قائمًا عليها ومتصلًا بها، ما كتمناه مرة، ولا حاولنا.

ذلك الغرض ناشئ عن الحقيقة التاريخية الظاهرة الباهرة، وهي أن العرب عنصرهم من العناصر الإنسانية المتحضرة، العريقة في الحضارة الناشرة أعلامها في العالم، وإن لها مطالب قومية، وأماني سياسية، لا تتجاوز حد تحقيقها إلا لتكون والأمم الأخرى على ولاء تام، وعاملة لتحقيق الإخاء الإنساني، والسلم الدولي العام في العالم.

فالمغرب بأجمعه، من برقة إلى طنجة، بركان مشتعل، يتفجَّر من حين إلى حين، ما دامت سياسة الاستعمار الأوروبية سائدة في شئونه ومستثمرة لكل أسباب الثروة والسيادة فيه، وكذلك كل قطر من الأقطار العربية في المشرق. فما دام في أوروبا اثنان: المرسل المنصِّر، والسياسي المستعمر، يتدخلان في سياستها الأجنبية، الأفريقية أو الآسيوية، ويسيطران حينًا بالقوة، وأحيانًا بالدعاية والمال عليها؛ فالحال التي وصفت لا تتغيَّر، والبركان لا ينطفئ.

فالمرسل وأعوانه: الدين والثقافة الأجنبية والمشاريع الخيرية ذات الأهداف السياسية، والسياسي وأعوانه: المال والدعاية والمشاريع الاقتصادية ذات الأهداف الاستعمارية؛ يسعون جميعًا لإحياء نعرات قديمة، أو بالحري يخترعون نعرات جديدة، مبنية على التاريخ المشوَّه، والثقافة المموهة، تذرُّعًا بحب الخير للبلاد التي يريدون استثمارها، وتوصُّلًا في الحقيقة إلى تبليغ رسالة التفرقة؛ لتتم السيادة الأجنبية وتتلاشى الوطنية.

وقد اخترعوا في هذا الزمان: الفرعونية بمصر، والفينيقية بلبنان، والبربرية بالمغرب الأقصى، اخترعوا هذه النعرات القومية القديمة، هذه النزعات الثقافية العقيمة، القومية ظاهرًا، الاستعمارية باطنًا، هذه النزعات والنعرات التي لم يكن لها اسم أو أثر في الزمان السابق للحرب العظمى.

وهؤلاء المخترعون لهذه النزعات هم أعداء الوطن العربي، وأعداء أوطانهم، بل أعداء السلم في العالم، يخلقون لدولهم المشاكل العويصة في الخارج، ولا يجلبون للأوطان الأجنبية غير بلية التفريق والشقاق.

المرسل المنصِّر، والسياسي المستعمر، ذاك يريد أن يهدي العرب «الخام» كما يقول — أي البربر — إلى الدين «الصحيح»، وهذا يريد أن يستثمرهم، ويستعمر بلادهم، ولسان حال الاثنين يقول: «يجب أن يصيروا تابعين لنا، وخدمًا يخدموننا، وعساكر يحاربون حروبنا، وإن كان فيهم المتمرد والضال، فعلينا أن نؤدِّبَ الأول ونهدي الثاني لخيرهما، وإلا فعلينا أن نستميل الواحد إلينا ليكون عونًا لنا على الآخَر؛ فنخترع لهذا الغرض نزعةً ينزعونها تحل محل نزعاتهم الوطنية والدينية، فنزيِّن للمصريين الفرعونية، وللبنانيين الفينيقية، وللمغاربة البربرية، ويجب علينا أن ننير أذهانهم بما نفهمه نحن من التاريخ، وبما يوافقنا نحن من الثقافة.»

ورأس كل علم، وكل ثقافة، وكل فهم، وكل حكمة في الموضوع هو أن البربرية والفينيقية والفرعونية لا تمت إلى العرب بصلة ما، بل هي والعروبة متناقضة متعادية.

لانكلِّف أنفسنا نفي هذا القول أو إثباته؛ فالبربرية والفرعونية والفينيقية في نظرنا نزعات مصطنعة، نزعات عقيمة سقيمة، نزعات مائتة، ولا نظن أن عرب اليوم يريدون أن تكون لهم صلة ما بالقديم العقيم، بالأموات المائتة، بل يريدون أن تكون صلاتهم بالسلف الصالح الحي المحيي المنير الهادي الباني للعروبة وللحق، الباعث فيهم روحًا جديدة ونزعات وطنية تمتاز عن نزعات الماضي بإنسانيتها الجديدة الشاملة.

وبما أننا في مباحث هذا الكتاب نعود عودات قصيرة إلى الأصول التاريخية والقومية والدولية، نمحصها ونجلوها ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا؛ لاتصالها بموضوعنا وبأغراضنا

المار ذكر بعضها، فعلينا الآن أن ننظر في أصل هذا الجنس البشري الأفريقي وفصله وأثره في تطور شئون المغرب.

يقول فريق من العلماء الذين لا يشوب علمهم مأرب سياسي أو غرض وطني أو دولي: إن أهل البلاد الأصليين من شعبين أسمَرَيِ البشرة، الواحد من صحراء أفريقية غير الزنجية، والثاني من جنوبي أوروبا، ويضيفون إليهما عنصرًا ثالثًا صغيرًا من أوروبا الشمالية أبيض اللون.

هؤلاء هم المغاربة الذين كانوا في البلاد منذ القِدَم، وبعبارة أوفى منذ أول التاريخ المدوَّن.

ويقول فريق آخَر من العلماء المنزَّهِين عن الأغراض الخاصة، والمعنين في المباحث الأثنولوجية البيولوجية، وفروعها الجغرافية والنباتية والجيولوجية: إن برزخًا، في عهد جيولوجي قديم، كان يصل شبه جزيرة إيبارية — ألبانية — بالمغرب الأقصى، ودليلهم على ذلك الجبلان المتقابلان المعروفان اليوم بجبل طارق، وجبل موسى المقابل له في القارة الأفريقية.

هذان الجبلان، في الزمن السابق للعهود الجليدية، كانَا جبلًا واحدًا، بشهادة علماء الجيولوجيا والحيوان والنبات؛ ففي الجبلين اليوم تشابه في طبقاتهما، وفي حاضر نباتهما، وفي آثار الماضي من حيوانهما، وقد مَرَّ بك في الفصل الذي عقدناه عن جبل طارق أن لحيوانات أفريقيا القديمة الحديثة — القرد والفيل والدنياسور — آثارًا وجدوها في الكهوف بذلك الجبل. وكما نزحت الحيوانات، وانتشرت النباتات الأفريقية من الجنوب إلى الشمال، نزح الإنسان السابق للتاريخ، إنسان العصر الحجري؛ والدليل على ذلك في جماجم من بقايا ذلك العصر في أوروبا شبيهة شكلًا وحجمًا بالجماجم الأفريقية.

إذن، وبموجب هذه الآراء العلمية، تكون الحقيقة على عكس ما كان يُظَنُّ؛ أي إن الأوروبيين من أفريقيا، وليس الأفريقيون من أوروبا، ولهذا الرأي الأخير غلاة من أهل العلم في زماننا، ولكن علمهم يتصل إما مباشرة وإما بالوسائط الثقافية والتبشيرية، بسياسة البلاد الاستعمارية، فيقولون: إن المغاربة الأصليين كلهم من أوروبا؛ ولذلك فللأوروبيين الحق أن يستولوا على بلادهم، ويحكموها ويستثمروها، وينشروا فيها الدين المسيحي.

والرأي الأجدر بالاعتبار هو أن الشعب المغربي الأصلي من القارتين — من صحراء أفريقيا وجنوبي إسبانيا، وقد يضاف إليه عنصر أبيض البشرة من شمالي أوروبا.

هذا الشعب المغربي الأصلي كان في البلاد قبل أن أسست قرطنجة، وقبل أن اتصل بالمغرب شيء من حضارة الإغريق.

ثم جاء شعب من المشرق يختلط به، فينقلنا من العلماء الطبيعيين إلى العلماء المؤرخين. ومن هؤلاء مَن يقول إن المغاربة — أو البربر كما صاروا يدعون — هم من بلاد كنعان، بل هم من الكنعانيين، فأخرجهم اليهود في أيام يشوع بن نون. ولهذا القول أشياع من زماننا يروقهم مثل هذه الأبحاث، وما الفائدة منها؟ لا فائدة ألبتة، وأما النتيجة فقد تكون وخيمة؛ قد يتحد غدًا المغاربة على إخراج اليهود من المغرب كما أخرجهم اليهود في قديم الزمان من أرض كنعان، ونحن نرجو أن يكون اليهود المغاربة مخلصين لوطنهم، متعاونين وإخوانهم المسلمين على دفع الأخطار عنه، فلا يلحق بهم شر أو أذى.

ومن العلماء المؤرخين مَن يردون كل شيء في حضارة الأمم الشرقية والغربية إلى اليونان، حتى قبل أن صار لليونان حضارة ما. فهؤلاء مثل أصحاب الرأي الكنعاني، والرأي العلمي البيولوجي، وليس في علومهم الافتراضية ما ينفع كثيرًا أو يضر.

بقيت المسألة التي تهمنا أكثر من كل ما تقدَّمَ، وهي مسألة نزوح العرب إلى المغرب وبداية عهده، وبما أن هذا البحث تناوله كبير من مؤرخي العرب وأمعن فيه، وبما أن تاريخه أو بالحري المقدمة منه، لا تزال من الكتب التي تتداولها أيدي الطلاب والأدباء، فعلينا أن ننظر فيما يقول، وقبل ذلك نلوم ابن خلدون؛ لأنه استعمل لفظة بربر بدل مغاربة، فشهرها بالعربية، بعد أن وضعها الأجانب الفاتحون، كما سنبين فيما بعدُ.

يقول ابن خلدون في أول المقدمة: إن عرب اليمن لم يصلوا قبل الفتح الإسلامي إلى المغرب، بل ينكر ذلك بشيء من الغيظ المقرون بالتحامل على أسلافه المؤرخين، وهذا كلامه بالحرف الواحد:

> ما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في أكاذيب مؤرخي اليمن.

ثم يقول في الفصل الحادي والعشرين من المقدمة:

> وأعتبر ذلك بحال العرب السالفة مثل التبابعة وحمير، وكيف كانوا يخطون من اليمن إلى المغرب مرة، وإلى العراق والهند أخرى.

وقَانَا الله مثل هذا التناقض والاضطرابات. فمما هو ثابت من الأخبار التي تؤديها علومنا الأثرية والتاريخية في هذا الزمان، أن البلاد العربية الجنوبية كانت صلة الوصل

التجارية بين الهند وبلاد الحبشة ومصر وسوريا، ثم ظهر من درس الآثار المصرية المكتشفة في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، أن تجار العرب — عرب قحطان، عرب اليمن وحضرموت — وصلوا إلى مصر في تجارتهم، واستمروا في أسفارهم برًّا إلى بلاد المغرب. هذا الطريق من الهند في السفن العربية إلى حضرموت، ومنها إلى سبأ فالبلقاء فمصر وبلاد المغرب، طريق قديم جدًّا يعود إلى عهد الأسرة الفرعونية الحادية عشرة، أي ٢٠٠٠ قبل المسيح.

ومن اضطراب ابن خلدون في تقرير المسألة أنه يذكر زناتة العرب فيقول: إن أولية هذا الجيل بأفريقية والمغرب مساوية لأولية البربر منذ أحقاب متطاولة لا يعلم مبدأها إلا الله تعالى.

ومن زناتة تفرَّعت شعوب كثيرة «أكثر من أن تُحصَى»، منها مغراوة وبنو يَغْرِن وجراوة وغيرهم ممَّن لا تزال أسماؤهم شائعة بين القبائل، وقد كانت مواطنهم من طرابلس إلى تلمسان إلى وادي ملويه بالمغرب الأقصى، وكانت الرياسة فيهم قبل الإسلام لجراوة، ثم لمغراوة وبني يغرن.

ويروي ابن خلدون في نسب زناتة أن نسَّابتهم يزعمون أنهم من حمير، ثم من التتابعة. وفي رواية أخرى أنهم من ولد جالوت، وأن زناتة هو جانا بن يحيى بن ضريس بن جالوت، وجالوت هذا يمتُّ بنسبه إلى قيس غيلان، أَوَليس جالوت من نسب غلياط الفلسطيني، وزناتة من الفلسطينيين أعداء يهوذا؟

ولكن ابن خلدون يحلِّل جانا تحليلًا دقيقًا لطيفًا، خلاصته أن جانا جُمِعت على جانات، وعُمِّمت بإضافة النون إليها، فصارت جاناتن، والجيم تُنطَق عندهم بين الجيم والسين، وأميَل إلى السين، فيقال سانات أو جانات، فأبدلوا الجيم زايًا لاتصال مخرج الزاي بالسين، فصارت زانات، وحذفوا الألف التي بعد الزاي في اشتقاقاتها الأخرى تخفيفًا؛ لكثرة دورانه على الألسنة. أي: جانات = زانات = زنات = زناتة.

والظاهر أن ابن خلدون كان ضائعًا بين حبه للبربر وغيرته على العرب، فيغالب هواه في الأمرين، فيغلب حينًا وحينًا يُغلَب، ولا ينجو في الحالين من الاضطراب. فهو في زناتة مثلًا يقبل بعروبتها، ويفنِّد مزاعم النسَّابة فيها، فيقول إن الذي حمل نسَّابة زناتة على الانتساب إلى حمير هو الترفُّع عن النسب البربري؛ لزعمهم أن البربر كانوا خولًا وعبيدًا للجباية.

ثم يقول: «وهذا وهم؛ فقد كان في شعوب البربر مَن هم مكافئون لزناتة في العصبية أو أشد منهم، مثل هوَّارة ومكناسة، ومن غلب العرب على ملكهم مثل كتامة وصنهاجة،

ومَن تلقَّفَ الملك من يد صنهاجة مثل المصامدة. كل هؤلاء كانوا أشد قوةً وأكبر جميعًا من زناتة.»

ولا تفاضل اليوم ولا تفاخر، فأبناء البلاد من سلالة الشعبين، وقد تكون السلالة اختلطت بالتزاوج حتى في أيام الزناتية الشهيرة، رهبة الكاهنة، التي ادعت «المعرفة بغيب الأحوال وعواقب الأمور»، فحكمت في قبائل زناتة خمسًا وثلاثين سنة، وعاشت مائة وسبعًا وعشرين، وقد استبدت الكاهنة حتى على أبنائها الثلاثة، الذين كانوا سائدين في قومهم، فانتهت إليها الرياسة الكاملة الشاملة، هذا في أيام الفتح الأول، فحارَبَتْ تلك الزناتية الوثنية المسلمين، واعتصمت بجبل أوراس، فكانت الغالبة في بداية أمرها، والمغلوبة في نهايته، وبعد أن قُتِلت في إحدي المعارك، لحق أبناؤها بقائد المسلمين، «وحَسُنَ إسلامهم، واستقامت طاعتهم، وعُقِد لهم على قومهم، ومَنْ هم في سواحل مليلية.»

ومن سلالتهم في الريف اليوم قبيلة بني بويحيى المتحدرون من الجد الأول جانا بن يحيى.

نقف عند هذا الحد والعلَّامة ابن خلدون، فنشكر له ما صفا من علمه، ونعيد ما قلناه في كفاءة الشعبين، وهما سواء في نظرنا، يوم كانوا وثنيين يحاربون الإسلام، ويوم صاروا مسلمين يحارب بعضهم بعضًا؛ فالذي يهمنا من أمرهم اليوم، ويهمنا أن يهتموا هم له، هو أن أبناء البلد الواحد أعزاء إذا تضامنوا وتعاونوا، أذلاء إذا كانوا متنابذين متخاذلين.

بقي أن نقول ما معنى كلمة البربر وما أصلها. لقد كانت هذه اللفظة شائعة في العهد القديم، يُطلِقها كل شعب فاتح ذي حضارة راقية على مَن يخالفه في الجنسية أو اللغة أو الدين، ويراد منها تحقير الشعوب الصغيرة والتنفير منها والحطُّ من قدرها.[١]

أما أصل الكلمة فهو على ما يظهر أفريقي، فأُخِذت من لفظة برباري المعرَّبة عن فرفاروس Vervaros، ومعناها: «اللفظ المشترك بين اللغط وبين نطق الألثغ.» ثم صار اليونان يطلقونها على كل مَن تكلَّم بلغة غير لغتهم، وقد أطلقها الرومان على كل مَن لم يخضع لسلطانهم من الأمم.

---

[١] في مجلة السلام التي كانت تصدر بتطوان، في الأعداد الثامن والتاسع والعاشر منها، مقال ممتع للأستاذ الحاج محمد بنونة: «صور من تاريخنا الوطني».

والذي يبدو لنا أن الإغريق، وقد وصلوا إلى هذه السواحل قبل تأسيس قرطجنة، أطلقوها على أهل البلاد؛ لأنهم كانوا «يفرفرون» أي «يبربرون»، أو كما نقول نحن اليوم: يتراطنون بالأعجمية. وأطلقها عليهم الرومان لأنهم حاربوهم، وتمرَّدوا على سلطتهم، وحاولوا غير مرة التخلص منها، فقالوا: إنهم برابرة — من البربر!

فما عذر العرب بالأمس في التمسُّك باسمٍ أُطلِق على إخوانهم أبناء البلاد تحقيرًا وامتهانًا؟ وما عذرنا نحن اليوم؟ ليس ما يسوغ الاستمرار في هذا الخطأ، بل هذه الإهانة.

إن في المغرب اليوم شعبًا واحدًا وإن تعدَّدت عناصره. أَوَليس في شبه الجزيرةِ اليمنيُّ والحجازي والنجدي؟ أَوَليس في القحطاني — لدى التحليل لعوامل الوراثة والجنس — ما يختلف عن العدناني؟ وأين في مضر وربيعة اليوم ما كان من عداء وضغينة في قديم الزمان؟ إنهم جميعًا اليوم عرب، تجمعهم اللغة العربية، وشعر امرئ القيس، كما يجمعهم القرآن والإيمان.

أما العناصر المختلفة في الشعب المغربي، فهي لا تتجاوز الثلاثة، ومنها العنصر الأوروبي الضئيل، ويجوز أن نقول إن في البلاد فرعين لشعب واحد: المغاربة العرب، والعرب المغاربة. فهؤلاء منحدرون من الفاتحين وأبناء الفاتحين بالأندلس، وأولئك منحدرون من القبائل الأولى — الزناتية وغير الزناتية — زمن سلالة العرب الفاتحين.

أولئك الأولون من المغاربة، وفيهم النصارى واليهود والوثنيون، قاتَلوا القرطجنيين والرومان، وقاتلوا كذلك العرب الفاتحين فانهزموا، ودخلوا في الإسلام فوحَّدَهم، والأصح أن نقول عمل في توحيدهم والعمل مستمر، فلا يزال في المغرب بعض القبائل من أولئك المغاربة الأولين الذين كانوا يتقلبون بين المسيحية واليهودية، ويحتفظون بأشياء من الدين الوثني.

هؤلاء القبائل يتكلمون اليوم الشلحَت، وهي لغة قديمة ولكنها لا تزال في بداءتها، وقد لا تخرج منها لجفاوةٍ وعقمٍ في أصولها، وهي تختلف طبعًا عن العربية، كما ظهر من بعض الأسماء والأعلام التي مَرَّ ذكرها، لا ماضي لها من الأدب، غير بعض القصص وجلها منتحل، عربي الأصل أو مغربي عربي. وفي الشلحة ألفاظ وأوضاع معرَّبَة وألفاظ عربية «مبربرة»، واشتقاقات تدل على قواعد أولية.[٢]

[٢] كالثاء مثلًا للتأنيث؛ «حنجير»: صبي، «ثحنجير»: بنت. والياء والنون للجمع؛ «ثمغر»: امرأة، «ثمغرين»: نساء. «إربز»: رجل، «إربزين»: رجال. ومن الألفاظ العربية «المبربرة»؛ «تاحدادت»: حداد، «تاخرازت»:

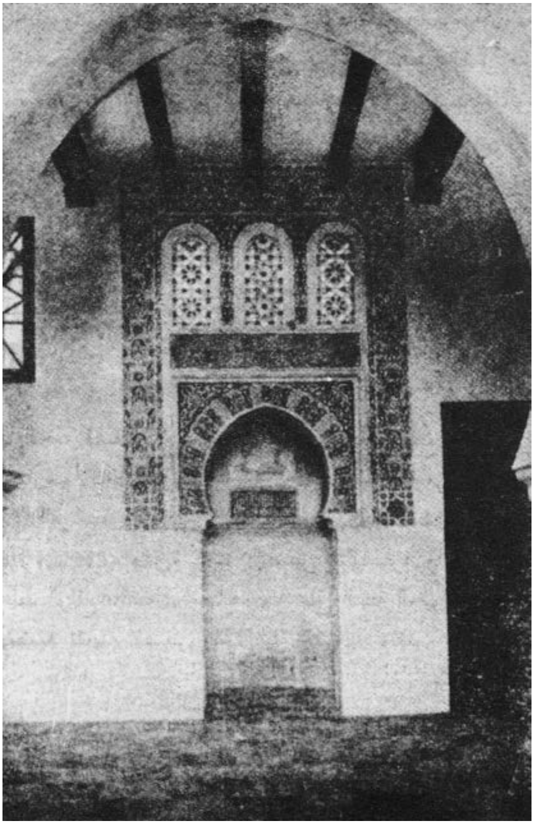

مبنى المعهد الخليفي.

أما أدبها فجله قصصي منقول غير مدوَّن، وقد جمع طائفة من قصص البربر أو أخبارهم كاتبان فرنسيان رنه باسه Bassét ومرسيه G. Merciea ، فترجماها إلى الفرنسية، ثم إلى الإنكليزية بمساعدة تشانسي ستاركويزر Chauncy Starkweather،

خراز. «تابقالت»: بقال. التاء تاء النسبة، والتقاء الساكنين في لغة الشلحت أكثر شيوعًا منها في لغة الإنكليز.

ومزية هذه القصص: الإيجاز، والسذاجة، وقساوة الأحكام، وخلط الواقع بالخيال. منها ما هو على ألسنة الحيوانات، ومنها أخبار القبائل، وبعضها تقليد لقصص ألف ليلة وليلة، كالقصة التالية مثلًا:

البستان المسكون

كان لرجل غني بنتان، طلب ابن الخليفة إحداهما، وطلب ابن القاضي الأخرى، فرفض والدهما الطلبين؛ فجاء الشابان في الليل إلى البستان الذي كان له، واجتمعا ببنتيه هناك، وكانا يجتمعان بهما كل ليلة ويتحدثون، فرآهم الوالد ذات ليلة، وفي اليوم التالي ذبح ابنتيه وسافَرَ للحج.

بعد ذلك اجتمع ابن الخليفة وابن القاضي بشاب يُحسِن العزف على الرباب والناي، فقالا له: نريد أن تعزف لنا على الناي في بستان ذلك الغني الذي رفض أن يزوِّجنا من ابنتيه. ليلة الغد نوافيك هناك.

ذهب صاحب الناي إلى البستان، فما وجد الشابين، فبقي وحده يعزف على الناي، وظل يعزف حتى منتصف الليل، فاشتعل إذ ذاك مصباحان، وظهرت البنتان من الأرض تحت المصباحين، فقالت إحداهما للشاب: نحن شقيقتان، نحن بنتا صاحب هذا البستان، قتَلَنا والدنا، ودفننا هنا، وأنت في هذه الليلة أخونا، سنعطيك المال الذي خبَّأه والدنا في ثلاثة مواعين. احفر ها هنا تجد المال.

فحفر صاحب الناي في ذلك المكان، فوجد الثلاثة المواعين وقد مُلِئت ذهبًا، فحملها إلى بيته، وعادت البنتان إلى قبرهما.

مثال من أخبار القبائل

في ديار إجْلُو ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل، لهم ألفان ومئتا بيت، وعندهم تسعمائة وستون رأسًا من الخيل. بلادهم على البحر، لها ميناء برصيف، فيه قوارب للصيد.

خرج بعضهم ذات يوم يصطادون السمك، فإذا مركب قادم من البحر، فعادوا إلى البر خائفين، وأخبروا أهلهم.

رَسَا ذلك المركب عند شاطئ إجلو، وظلَّ هناك حتى منتصف الليل، فدخل الميناء ورفع علمًا أحمر.

أما الأهالي فقد اجتمعوا جميعًا، كبيرهم وصغيرهم، وأرسلوا كتابًا إلى سيدي هاشم يقولون فيه: احضر حالًا، دهمتنا النصارى ودخلوا الميناء.

فأرسل سيدي هاشم رسله إلى القادة يقول: يجب أن توافوني إلى ديار إجلو؛ لأن النصارى هناك في الميناء.

اجتمعت القبائل المجاورة، وزحفت على إجلو، فقال سيدي هاشم يخاطبهم: ارفعوا علمًا أحمر[٣] مثل علمهم. ففعلوا، فلما رأى مَن في المركب العلم، أرسلوا رسولهم في قارب، فنزل إلى البر، وتقدَّمَ من المسلمين.

فقال سيدي هاشم يخاطب رجاله: لا تؤذوه، ولا تباشروا العداء، حتى نعرف السبب لنزوله في أرضنا.

فسألوه: ماذا تريد؟

فأجاب قائلًا: الأمان باسم الله.

فقال الجميع: أمان الله عليك وعلينا.

فقال المسيحي: نريد أن نتاجر معكم.

فقال سيدي هاشم: لا بأس، نحن نتاجر. فماذا تريدون أن تشتروا؟

فقال المسيحي: الزيت والسمن والحنطة والبقر والغنم والدجاج.

فجمع المسلمون الحنطة والغنم والدجاج وكل ما ذُكِر، فاشترى المسيحي، ودفع ثمن ما اشتراه، مسرورًا بما لقي من حسن المعاملة، ثم قال: تمت المتاجرة، فيجب أن نسافر إلى بلادنا، ولكننا سنعود إليكم.

فقال سيدي هاشم: يجب أن تعلم أننا عاملناك بالمعروف، وما كان أهل إجلو راضين بذلك، وقد ردعناهم فارتدعوا؛ لأنهم أعطوك عهد الأمان، وقد أعطيناك كذلك كل ما تبتغي، فعندما تعود إلينا اجلب لنا معك عشرة مدافع كبيرة وعشرين مدفعًا صغيرًا.

المسيحي: كما تريد، سنعود ومعنا المدافع بعد سنة في مثل هذه الأيام.

وفي بلاد النصارى اليوم شركات مثل هذا النوتي تبيع الأسلحة، المدافع الكبيرة والصغيرة، والطيارات والدبابات، لَمن يريد من الشعوب، على قاعدة «ادفع واحمل»، ولو كانوا من

[٣] يظهر أن العلم الأحمر في تلك الأيام كان كالعلم الأبيض في أيامنا؛ رمزًا للسلم.

أعداء بلادهم. هي التجارة، ولا بأس، نحن نتاجر، كما قال سيدي هاشم لذلك النوتي. نعطيك ما تريد إذا جلبت لنا معك المدافع الكبيرة والصغيرة.

ولا نظن أن سيدي هاشم في هذه القصة كان سيئ النية، يجلب المدافع من بلاد النصارى ليحاربهم بها، بل كان على الغالب يحتاج إليها ليوطد حكمه في القبائل، أو ليحارب أعداءه من أهل البلاد أو من أهله.

وهذا تاريخ المغرب، وفيه — مثل تاريخ الأندلس — صفحات وصفحات مكتوبة بدماء العرب والبربر الإخوان وأبناء العم. هي الحروب الأهلية، هي الحروب القبلية، هي الحروب المذهبية.

بنو مرين ملوك تلمسان، وآل زيري ملوك فاس، وبنو خزرون ملوك سجلماسة، وبنو وَمَاتو وَيَلومَي سادة المغرب الأوسط، يحتربون جميعًا بالسيوف والبنادق، وبمدافع النصارى.

البربر يقاتلون البربر، والعرب الرابحون.

دادا[٤] يَغِمْراسِن يحمل على دادا عثمان، ودادا إسنكيان يغزو بلاد دادا سكيمان …

والعرب الفاتحون يدخلون البربر طوعًا أو قهرًا في الإسلام.

ثم تنقلب الآية، فيحارب الأمويون الشيعة من سلالة إدريس، ويخرج المرينيون على الموحدين، والمرابطين، ويستظهر بنو الأحمر بالأندلس إخوانهم في الدين سلاطين المغرب، على النصارى، ثم يظاهرون ملوك النصارى على سلاطين المغرب عندما تقوى شوكتهم في ثغور الأندلس.

دادا يغمراسن يحمل على دادا سكيمان! وانشقت صفوف زناتة، وتجدَّدت العداوات بين يغرن ومغراوة، فتمكَّنَ الأمويون من بسط سيادتهم على المغرب.

ثم عادت السيادة الكاملة الشاملة إلى البربر في عهد يوسف بن تاشفين، فانقلبت الآية، وصار العرب يحاربون العرب!

ودادا يوسف يأكل داداوات أمية!

«وسرح كتائبه في البسائط، وخلال المعاقل، تنسف الزرع، وتحطم الغروس، وتخرب العمران، وتنهب الأموال، ويكتسح السرح، وتقتل المقاتلة، وتسبي النساء والذرية …»

---

[٤] دادا: السيد الأعظم.

وغزا الدادا الأعظم غزوته الموفَّقة، وقفل وجنوده عن البلاد إلى أوطانهم، «وقد امتلأت أيديهم من الأموال، وحقائبهم من السبي، وركائبهم من الكراع والسلاح …»

وقد انتهينا من كل هذا، ومن غيره من إرث القبائل المشئوم، وإرث المذاهب الأشأم؛ فلا كان العرب، ولا كان البربر رابحين.

ونحن اليوم في عهد جديد، عهد العروبة، عهد القومية العربية الشاملة، والأعمال الوطنية المعززة لها.

فالمغاربة عرب في دينهم، عرب في ثقافتهم، عرب في قوميتهم، عرب في قصصهم، عرب في أخلاقهم وطبائعهم، وإننا لَنرى التطوُّر عاملًا حتى في أسماء أهل المغرب التي كانت «بربرية» خالصة، فأضحت «بربرية» عربية، وسيتم التطور فتغدو عربية صافية.

وفي الأسماء برهان على ما في القلوب وما في الأماني؛ فلو تغلَّبَ اسم هربرت على اسم غسطون في فرنسا مثلًا، لَكان في ذلك دليل على انقلاب اجتماعي، وتطور قومي.

وهذا ما حدث وما هو حادث في المغرب؛ فالأسماء العربية الإسلامية دخلت على الأسماء المغربية، فغيَّرَتْ أولها حينًا، وأحيانًا آخِرها أيضًا، أي اسم العائلة.[٥] وهذا التطور

[٥] وهاك مثالًا من الاثنين:

أسماء مغربية «بربرية»	أسماء مغربية عربية
ماكس بن زيري	حميد بن يصل
يطوفة بن بلكين	باديس بن المنصور
حاموش بن بندوكسن	حماد بن بلكين
نكاس بن مكسوسن	زيري بن عطية
بلكين بن دوناس	المعز بن زيري
	بلكين بن محمد بن حماد
	مسعود بن عثمان
	عثمان بن شعيب

— وقُلْ هذا الارتقاء — في الأسماء مستمر، وستزداد الأسماء العربية انتشارًا في المنطقة الشمالية؛ لتعميم اللغة العربية في مدارسها.

والجدير بالذكر كذلك أن قبائل الريف حتى في النواحي التي يتكلَّم أهلها لغة الشلحت، يكتبون صكوكهم وحججهم باللغة العربية.

أهداني المراقب العام لإيالة الريف، الضون إميليو بلانكو إيزاغا Don Emilio Blanco Izaga كتبًا له في قوانين الجماعات، أي قضاة القبائل، ضمنه كل ما يتعلق باصطلاحاتهم وتقاليدهم وأوضاعهم في البيع والكراء والتملك، وفيه رسوم فوتوغرافية للصكوك والوثائق التي تتعلق ببيع المحصولات وحقوق المياه والري، وكلها مكتوبة باللغة العربية.[٦]

عليَّ أن أقول كذلك إن هذا الشعب المغربي، وفي ماضيه قبل الإسلام وبعده، ما له وما عليه، هو مثل عرب البادية في أمور كثيرة؛ فهو قلَّمَا يرى غير ما تراه العين، وغير ما يُلمَس من أسباب القوة، لا خيال له ولا نزعات روحية عالية، انغمس في الكهانة وخرافاتها في الماضي، ولا يزال بروحه وبزواياه أشياء منها.

وهو مع ذلك شعب باسل، صادق الكلمة صريحها، عزيز الجانب في خشونته وبداوته، وفي نزوعه إلى الاستقلال.

اعتنق الإسلام وقبله بحذافيره أو على قدر ما فهم منه، وما اقتبس من الثقافة العربية في الماضي شيئًا يُذكَر، وقد قدَّمْتُ مثالًا من قصصهم التي يقصها الرواة القصاصون.

---

[٦] مثال من توزيع المياه للري: مياه نهر النكور تُستعمَل للري بين بوعياش، وموسى وعمر وأمزورن كما يلي:

أول يوم: بوعياش.

ثاني يوم: بوموسى.

ثالث يوم: بوعياش.

رابع يوم: بوموسى وعمر.

خامس يوم: آيت بوعياش.

سادس يوم: أمزورن.

أما اليوم فهم يتعلَّمون باللسان العربي في مدارس وطنية، وبدءوا يفهمون معنى العروبة، وأبناء الريف منهم خصوصًا متصفون بتوقُّد الذهن والنجابة. قرأت على لوحة في مدرسة سان خرخو الكلمة التالية للخليفة الحسن:

> إني آمل بل إني أتيقَّن أن النهضة العلمية الحقة التي ستكون أساسًا متينًا للنهضة المغربية العامة، سينبعث نورها من أبناء الريف السامية أفكارهم، المتوقدة بالنجابة عقولهم.

الفصل الرابع عشر

المراقبون

انتهينا من التجوال في إيالات المنطقة الخليفية، وقد زرنا مراكز المراقبات، وتحدَّثنا إلى المراقبين، بواسطة ترجمان أو مترجمين، فيجب علينا الآن أن نُعِيد النظر في مسألة إدارية مهمة قبل أن نعود إلى قطب دائرة رحلتنا في تطوان.

أول ما يظهر للسائح المراقب في زياراته لمراكز المراقبات الإسبانية هو أن الحكومة الوطنية، أي الخليفية المخزنية، هي شيء ضئيل إلى جانب هذه الدوائر العديدة الكثيرة المراقبين والموظفين والكتَّاب والمترجمين لحكومة الحماية الإسبانية. وقد أسلفت القول إن لكل مراقبة رئيسية مراقبات فرعية، هي ست في إيالة العرائش مثلًا، وثمان في إيالة الريف، فيمتد نظر المراقبة ويدها إلى أقصى الأماكن الساحلية، وأعلى وأوعر الأماكن الجبلية.

قد يكون ذلك من ضرورات المراقبة والإدارة، وقد يكون أكثر الموظفين من الإسبان؛ لقلة ذوي الكفاية، علمًا وخبرة، من الوطنيين. فالمطالبة بتغييرها لا تجوز قبل المطالبة بإنشاء مدرسة لتخريج الموظفين، وهي — كما تقدَّمَ — في لائحة الإصلاحات للأحزاب السياسية الثلاثة.

والمسألة الثانية تتعلق بما يصح أن يُدعَى ميزان الإدارة. أريد بذلك مقدار ما تعطي السلطات الرئيسية والفرعية من الحرية في تنفيذ القوانين وتصريف الأمور، وفي توزيع هذه السلطة المقرونة بحرية العمل ضمن نطاقها، لا بد من المساواة المرتكزة على العدل والحكمة معًا.

فلو رجحت كفة الميزان للسلطة العليا بمدريد، أو للسلطة العالية بتطوان، أو للسلطات المتفرعة عنها في المراقبات؛ لَتعرقلت الأمور، وسادت الأهواء والفوضى مكان العدل والنظام، وهذا ما كان يحدث في سياسة الحكومات السابقة، الجمهورية والملكية.

إنه لَمن العدل والحكمة إذن ألَّا ترجح كفة الميزان — ميزان الإدارة — في المركز الأعلى، أو في المركز الأوسط، أو في المراكز الفرعية؛ فيُعطَى المقيم العام حرية العمل ضمن نطاق الخطة الأساسية للحماية، ويُعطَى المراقبون حرية العمل ضمن نطاق السياسة التي يتخذها المقيم العام. ليس في هذا القول تقرير للواقع كما يتبادر للذهن، بل فيه ما يتجاوز المعروف المألوف، وهاك المثال زيادة في الإيضاح.

هَبْ أن خطة الجنرال فرنكو الاستعمارية تعاطفية لا مادية، كما يقول، وكان من الواجب في تنفيذها — لخير مَن يعطف عليهم وعلى مصالحهم — أن تُعمَّم اللغة العربية في المدارس، فيصدر أمر المقيم العام بذلك لينفذه المراقبون، أو لتنفذه الحكومة المخزنية بمساعدة المراقبين.

ولنفرض أن في الإيالة الشرقية أو الريفية قبائل لا تقبل بالتعليم العربي في المدارس، بل تقاومه، فماذا يفعل المراقب؟ هل يجامل تلك القبائل في هواها فلا يصر على تعليم اللغة العربية في مدارسها، أم يجامل قادتها في مزاعمهم الوطنية، فيستميلهم إليه ويقنعهم بوجوب تنفيذ القانون، وبما في ذلك من الخير لأبنائهم ولمستقبل البلاد؟ إن في المراقبين مَن يسلك المسلك الأول، وفيهم مَن يتخذون لأغراضهم الخطة الثانية.

وإننا لنعلم ما لهؤلاء الحكَّام المحليين، مراقبين كانوا أم مستشارين، من الأعمال التي لا يستقيم فيها خير حكومتهم، ولا خير البلاد، توحيها المصلحة الخاصة — البقاء في الوظيفة مثلًا، أو الاستفادة من التحزُّب والشقاق — أو يمليها على الموظف طبعه أو عمله أو ما شَذَّ ونقص في الاثنين.

ولكننا نظلم الحكَّام المحليين إذا افترضنا أنهم جميعًا مثل ما ذكرنا؛ فالحاكم المحلي يرى ما لا يراه المقيم العام، وما لا يراه الحاكم الأعلى. هو القائم بالأعمال في محلها، يبني بناءه على قواعد معروفة، رأس الحكمة فيها الحذر من الأهالي الذين تعوَّدوا أن يثوروا على حكَّامهم، أو أنه يبني على قواعد معروفة تُقرَن بأعمال ارتجالية، أي بحرية التصرُّف كما قدَّمْتُ، فلا يُخشَى أن يضع ثقته بالأهالي، ويمعن في معاملته بالمعروف الذي لا يتنافى والخطة السياسية العامة.

قال أحد أولئك المراقبين: المراقبة لا تتفق والثقة الكاملة الشاملة؛ فالخلل الموضعي نخشاه أكثر مما نخشى الخلل العام. الخلل الموضعي — ثقب في حائط، حفرة في طريق،

مزلقة عند باب من أبواب الإدارة — تجلب البلية علينا وعلى زملائنا في الدوائر العالية. وبكلمة أخرى: نحن نخشى أن يقع السقف على رءوسنا خلال عاطفيات الحاكم الأعلى، أو المقيم العام.

وقال مراقب آخَر: السياسي الاستعماري بعيد النظر قصيره، فهو يرى الأفق المتألق أمامه، ولا يرى رسل الفتنة بين يديه، ونحن نرى رسل الفتنة ولا نرى الأفق. فإذا حذرنا يُقَال إننا ضعفاء البصر والبصيرة، وإذا سكتنا يقال إننا مهملون لواجباتنا. أشد الأخطار تحيط بالمراكز البعيدة، في الجبال البعيدة، في الجبال العالية أو في السواحل النائية. والمراقب الذي لا يرى غير الحرف من القانون، أو لا يرى غير القانون من خطة المقيم العام، لا ينجو من الغزوات، ومنها الأفخاخ ينصبها الزعماء المحليون بعضهم لبعض، فيقع المراقب في الفخ إذا كان لا يشارك في التحزب. يجب أن يكون المراقب ذا أربعة عيون في مؤخر رأسه كما في مقدمه، فيرى ما وراءه قبل أن يرى ما أمامه.

كنت وأنا أصغي إلى الترجمان، أراقب وجه المراقب فيبدو حينًا قاسي الإهاب، وفي أسرَّته ما قصر دونه لسان المترجم. وإني لأذكر أحد أولئك المترجمين — وهو يتكلم كل اللغات ولا يحسن إحداها — فكان في ترجمته يخلط ألسنته بعضها ببعض، فيثب من الواحد إلى الآخَر، ويعتصم بكلمة إنكليزية لينجو من ورطة مغربية، ثم يستعين بالفرنسية على الإنكليزية، ثم يفر من كل الألسنة الأجنبية إلى لسانه العذب الإسباني، فألجأ أنا إذ ذاك إلى رفيقي البستاني وأرجوه أن يترجم لي ما يقوله ذلك الترجمان.

لا يظن القارئ أن هذه الصعوبات كانت تحول دون فهمي ما يُقَال أو ما يُرَاد من القول. كلا، فقد كنت أتغلب بمساعدة أخي البستاني على الصعوبات، وأحول دون البلبلة التي تنذرني بها.

ولم أكن سعيدًا بالبستاني فقط؛ فقد سعدت مرة بترجمان لا كالمترجمين، بترجمانة أنستني المترجمين جميعًا؟ وذلك يوم دعانا مراقب الإيالة الشرقية الكلونيل خوسه برميجو Bermejo للشاي في بيته بمليلية؛ فبينا كان الحديث في مستهله، دخَلَتِ القاعة امرأة بيضاء شقراء، بضة، كأنها بلغة المقامات «برج من فضة»، تمشي مشية أميرة عربية بتؤدة واتضاع. فقال الكلونيل باللغة الإنكليزية التي يحسنها قليلًا: هي زوجتي.

سلَّمَتِ السيدة بكلمات شبيهة بخطواتها، ناعمة هادئة متمهلة، فقلت في نفسي: ما أشبهها لولا بشرتها بأميرة شرقية! جلست السيدة وهي تدعوني بكلمة إسبانية عذبة لأجلس إلى جنبها، فقلت كذلك في نفسي: وما أكثر ما فيها مما أتصوره في عربيات

الأندلس! وبينا أنا أردِّد — كذلك في نفسي — كلمة مديح أخرى، قال زوجها: هي تتكلم الإنكليزية. فزاد ذلك بسروري، ثم قال: هي أمريكية. فعراني من هذا الكشف التدريجي لستار البهجات شيء من الغيظ، حلَّ محله في الحال أشياء من الغبطة الصافية.

فهل كنتُ متشوقًا إلى مشاهدة أمريكية — حسناء أمريكية؟ أفلم أكن عائدًا من أمريكا حيث الحسان كدود الحرير في اليابان؟ ولكن العين لا تشبع من الجمال، والعقل لا يشبع من العلم، وفي الشقر الهيف الحسان القدود أبوابٌ للمعرفة مفتوحة، وأستار مكشوفة، وخصوصًا إذا كنتَ تُحسِن لغة واحدة من اللغات التي تنطق بها. تكلمت هي أو سكتت.

وكان سروري أني لقيت الترجمان الذي كانت تتوق إليه نفسي، فكلَّمتها بلهجة أبناء بلادها، فأبرقت عينها، وعندما علمت أني كنت في تلك البلاد، وقد أكون أعرفها أحسن منها، ابتسمت ابتسامًا ردَّدَه جبينها، وبدت أمريكية كما أعرف الأمريكيات. برعمت ونوَّرت، ابْرَنْشَقَت فوثبت بها النفس وثبات غيَّرت في لهجتها دون أن تُخرِجها عن التؤدة والسكون. هي لهجة أمريكية لطفتها إقامة سنوات في أوروبا، وعشر سنوات زوجة لضابط إسباني.

فما أجمل الأمريكية في حديثها وأسلوبها وأناقتها وتوهُّجها، إذا مازج كل ذلك شيء من روح العالم القديم — الروح الأوروبية الساكنة الخلَّابة المتعمدة السكينة والرفق.

كانت تترجم كلماتي وسؤالاتي لزوجها باللغة الإسبانية، ثم تترجم بالإنكليزية كلامه وجواباته بالسهل الفصيح في الحالين، فما تمالكت أن قلت لها: إنك أمهر وأفصح وأجمل ترجمان لقيته في رحلتي المغربية.

فضحك الكلونيل وضحكت زوجته الترجمانة الحسناء، ومن الطبيعي أن يكون الحديث في الشعر دون أن يخرج عن موضوع اهتمامي. سألت سؤالًا عن الشعر والشعراء في الريف، فقالت مدام برمنجو تترجم ما قاله زوجها: في جبال الريف لا يقول الشعر إلا البنات، ولا يجوز للمرأة المتزوجة، أي إنه يُسمَح للفتاة أن تتسلى بالشعر إلى أن تتزوج، فيحظر بعد ذلك عليها. أما الرجل الريفي، فهو يحتقر هذه الصفة في الرجال، ولا يرى الشرف في غير البندقية. الشعر عندهم منقول غير مدوَّن. نعم، هو من نوع الزجل، وفيه الأغاني الشعبية talk lore، وكله بلغة الشلحت إلا أنه ثلاثة أبواب: المدح والهجاء والغزل، وقليل من الحماسة.

لا يزال قسم من أهل الريف وثنيين في بعض عاداتهم؛ فهم يكرمون الضيف إكرامًا عربيًّا وثنيًّا، فيقدِّمون له امرأة تشاركه في ليلته، وهم في زواجهم شبه وثنيين لا يكتبون

كتابهم على الفتاة، ويكتفون بالشهود، وما كان يهمهم في الماضي أن يعقد العقد فقية أو إمام أو قاضٍ، أما اليوم فعندهم قضاة، ومع ذلك فإن لهم إلى الماضي رجعات.

وقد أَكَّدَ لي الكلونيل برمنجو بواسطة السيدة الترجمانة زوجته أن أهالي وسط المنطقة، أي كتامة وما إليها شرقًا وغربًا، هم أصدق في ولائهم لإسبانيا من أهالي الناحية الغربية.

ولبعض الإسبان نظر في تعريب المنطقة وتوحيدها، فيقولون: يجب على أهل أصيلة مثلًا أن يأخذوا عن أهل كتامة الإخلاص للإسبان، ويجب على أهل كتامة أن يأخذوا العلم والدين والثقافة العربية عن أهل المدن الغربية: تطوان والعرائش وأصيلة؛ فيحدث التوازن، ويسهل التوحيد.

ومما قاله الكلونيل برمنجو: إن أهل الريف كانوا في الماضي، قبل ثورة عبد الكريم، أَمْيَل إلى إسبانيا من العرب المغاربة.

فإذا صَحَّ هذا القول فذلك لأن العرب العريقون في العروبة، والمنحدرون من أولئك الذين أُخرِجوا من الأندلس، يشعرون من حين إلى حين بالعداء الكامن فيهم، فيأبون الولاء لَمَن أذل الأجداد، ويرفضون أن يأخذوا عن الأوروبيين، بالاقتباس أو التقليد، كما نفعل نحن في سوريا ولبنان، مع أنهم أقرب العرب إلى أوروبا.

أما المغاربة، فحسُّ العداء — مع أنهم دحروا وأُذِّلوا مثل العرب — ليس شديدًا فيهم؛ لأنهم — على ما أرى — ليس لهم أدب قومي يمكن ذلك العداء ويطيل أيامه، فضعف هذا الحس فيهم أو مات، وقد يكون اتخذ اتجاهًا آخَر، فأدناهم من الجنرال فرنكو، وحملهم على مشاركته في الثورة الوطنية.

لذلك يقول محدِّثي إنهم أَمْيَل إلى الإسبان النصارى منهم إلى المغاربة المسلمين.

الذين يتكلَّمون الشلحت أقلية في بلاد الريف، وأكثر هذه الأقلية في جبال كتامة، فقلَّمَا يفهمون اللسان العربي، فإذا جاءهم الفقيه يعلِّمهم القرآن فلا يفهمونه. إسلامهم «كِيفْ كِيفْ»، تغلب فيه الطرق والزوايا، وليس كإسلام أهل الناحية الغربية كطنجة وتطوان والقصر الكبير، ولكن هناك كذلك — في قبائل أنجره وواد راس — مَن هم على شيء من الإسلام، وأشياء من الفتور والجهل.

وكانت السيدة برمنجو تسألني خلال الحديث سؤالات عن بلادها، وتتلقَّى جواباتي ببشر لا يخلو من لهفة وحنين.

قالت إنها تشتهي أن تعود إلى أمريكا. كلا، بل هي تشتهي أن تزور لبنان وسوريا وخصوصًا دمشق.

ثم قالت وهي تفرغ النور من عينيها أسفًا: هو حلم من الأحلام.

وقال الكلونيل زوجها: ولا حَظَّ للجندي في الأحلام!

الفصل الخامس عشر

فوق جبال الريف

في أصيل يوم من أيام مايو الصافية الأديم، طرنا من الساحة الكائنة بين البحيرة ومدينة الناضور في طيارة إيطالية، تسافر يوميًّا من روما إلى مليلية فتطوان.

طرنا، بعد أن نضنضت الطيارة ألسنتها، فلمعت في نور الشمس ودوت، ثم درجت في سهلها وهي ترتفع عن الأرض، وتنطلق في الفضاء، فتراجعت البحيرة شرقًا، وبدت الناضور كقلادة في جيدها، ثم تلألأت إلى يميننا مدينة مليلية، وانطوت وميناءها فيما توارى من البحر، فتلتها فرخانة وواديها، وتلت فرخانة الجبال.

هي جبال الريف المنخفضة الكثيرة التجعد، كوجه العجوز، وكالأرض المخططة بالقنوات والأحواض للري، أرض مسنمة ومجوفة ومضلعة ومقبَّبة بألوف الحداب والعراقيب والأخاديد والعقاب. ظاهرها رملي ويندر فيها الاخضرار إلا حول البيوت، وهي قليلة، تراها على القمم والطلوع، لا يصل بعضها ببعض غير الطرق الجبلية، التي تبدو كالخيوط، أو كالخطوط الجغرافية، وهاك بيوتًا على حرف الضلع كأنها ذباب على حد السيف.

نجتاز هذه الجبال — العفو! — نطوي الجو فوقها بربع ساعة، فندنو بعد ذلك من شاطئ البحر، وساحله الضئيل، القائمة على جانبه الصخور الرملية كالجدران العالية، فتصاب رءوسها في بعض الأماكن برشاش من الأمواج.

على هذا الشاطئ فوق تلك الكثبان، تكثر البيوت، وهي مربعات بصحون ودور حول الصحون. تلك الصحون تبدو كالأحواض الفارغة، وقد طُوِّقت بشيء من الاخضرار.

ثم نعود إلى الجبال، أو تعود الجبال إلينا؛ فالحقيقة هي أننا نطير غربًا في خط مستقيم، والجبال تدنو من البحر في خطوط معوجة، فتمسي حينًا تحتنا، وحينًا تبعد فتتوارى.

إنها لَجبال عارية جافة موحشة، وليس فيها غير الطرق الجبلية التي ذكرت، فهي الصلة الوحيدة بين أهلها، وما أوهنها ظاهرًا، وما أقدمها وأثبتها لذي الحافر وصاحبه ابن آدم! فلا يُستغرَب أن يكون الريفيون أيبس وأصلب عودًا من البدو، ولا يُستغرَب نظرهم فيما يجمل الحياة. دَعِ الشعر والفنون والماء والخضرة والشكل الحسن؛ فلا جمال بغير الخيل، ولا شرف ولا عز بغير البندقية!

على أن أولي الأمر اليوم يريدون أن يعلِّموا هذه الطائفة من بني آدم غير الفروسية والغزو؛ يريدون أن ينشئوا المدارس في مفاوز جبالهم، فيعلِّموهم القراءة والكتابة في الأقل؛ يريدون أن ينشئوا المدارس في تلك القرى النائية المنعزلة المعتصمة بسنام الجبال، وبين القرية والقرية وهاد وآكام، وليس بينها ما يصل بعضها ببعض غير الثنيات والعراقيب، تلك الطرق الشبيهة — للناظر إليها من الطيارة — بالخطوط الجغرافية، ودون الوصول إليها من الطريق العام أهوال.

قال الجنرال فرنكو: أريد أن يصل «الدولاب» إلى كل قرية من قرى المغرب. فهو يريد أن يحييها بالدواليب — بالسيارات. فهل تحيا أراضيها يا تُرَى بغير المشاريع الزراعية؟ وبكل جبار في الجبال من تلك المشاريع — مشاريع الري والتشجير؟!

هي معضلة الريف. تفكِّر فيها وأنت في الطيارة، فتقول وأنت الطائر: ليس في نظر الله، ولا في كتاب العلم شيء مستحيل. ولا تكاد تقول ذلك حتى يتغيَّر ما يسميه العرب خد الشعيب، ويتغيَّر لون وجه الأرض، فتصبح الطيارة فوق خليج سان خرخو، وإلى يسارها يمتد وادي النكور الريان.

والبحر ساج، والشمس ترقص تحت جناح الطيارة، فتترك أثرًا على الأمواج كالوشم الفضي، أو هو كالشبك يطرحه الصياد على البحر، فيستحيل في سحر الشمس غربالًا من الذهب والفضة.

وهذه مدينة سان خرخو تحتنا، على ظهر الصخرة الممتدة إلى البحر، وهاك الجزيرة الغريبة الشكل — تلك المدرعة في الخليج — تفقد غرابة شكلها، فتعود للناظر إليها من علٍ إلى حالها الطبيعي البسيط؛ صخرة في المياه.

ولا نزال فوق البحر قريبين من الشاطئ الكثير الصخور، وهناك على الأفق الجنوبي جبال كتامة.

خمسة وثلاثون دقيقة من مليلية إلى حدود الريف المغربية، أي إلى الوادي الفاصل بين جبال غمارة وجبال الريف.

وهاك تحت جناح الطيارة بورتو كبَّاص، أي الجبهة وسهولها المنقطة بالبيوت، المسيَّجة بالفاقع والأدكن من الألوان الخضراء، بالزرع والصبير. وبعد الجبهة بقليل تعاين واد لاو ونهره على الشاطئ كحبل فضي على رحل الرمل الذهبي.

ومن واد لاو، قبالة تلك الجبال التي قطعناها بالسيارة فتقطعت أوصالنا إلى واد مرتين؛ عشر دقائق أخرى. فنعرج بعدئذٍ عن البحر، إلى ما فوق السهول الخضراء الصفراء، وفيها ينساب نهر مرتين، فنهبط هبطات تُدنِينا منه، ثم نسِفُّ عند منحدرات الرُّبَى، فيُخَيَّل إلينا أنها تهوي علينا، وبعد جولة قصيرة في السهل تلمس دواليب الطيارة الأرض، فتجري الهوينا إلى محطٍّ «رحالها» أمام المطار خارج مدينة تطوان.

يكاد يكون المعقول كالخرافة، والواقع كالأساطير؛ فلقد قضينا يومين في السيارة، نصعد في الجبال، وندور حول رءوسها، ونهبط منها، ثم نعود إلى التصعيد والدوران، فندرك من الرواسي الألفين من الأمتار، ونجتاز من المسافات أربعمائة وأربعين كيلومترًا، بين تطوان ومليلية، فنرى الموت غير مرة في الطريق، ونطير فرحًا؛ إذ نصدمه الصدمة التي فيها النجاة لنا، فنتركه وراءنا مدحورًا مدفونًا، ومع ذلك فقد قلنا يوم وصلنا إلى مليلية: لا نعود إلا ماشين والله، أو طائرين.

ولقد طرنا — شكرًا للشركة الإيطالية — فطوينا المسافة، وهي مائتان وأربعون كيلومترًا في خط مستقيم، بخمس وخمسين دقيقة لا غير، فأين رب المسافات؟ وأين أخوه رب المشقات؟ وأين ذلك الذي صدمناه ودهسناه بدواليب سيارتنا؟

ولقد تعلَّمت أنا كذلك علمًا جديدًا؛ تعلمت أن الآلام تُقهَر وتُذَلُّ كالمسافات والمشقات، والموت نفسه؛ فبالرغم عمَّا قاسيته في السيارة، وخصوصًا في أكواع الطريق، هبوطًا وإسنادًا، والخض العنيف يحرك آلامي العصبية فتتنقل حتى «الجاكتة» على كتفي وظهري، ويتهيج الوجع فيشتد ويدوم، فيوقف فيَّ التنبه الفكري، ويكاد يذهب بقوة المراقبة لما حولي من مشاهد طبيعية وقروية وبشرية؛ مع كل ذلك ما توانيت ولا وهنت إلا مرة واحدة. يوم خرجنا من سان خرخو في منتصف النهار وعدنا إلى التصعيد والدوران، فتألب الألم والتعب وحر الهجيرة عليَّ، فاسترخيت واستسلمت، أحسست بدوار في الذهن وتوتُّر، فتخدُّر في الأعصاب، فنمت — نمت من الإعياء الجسدي والذهني — وما استفقت حتى بلغنا أعالي جبال الريف، وما تغيَّرَ وجه الدنيا، ولا لون وجهها. فتحت عيني على أرض كلسية جافة عقيمة، وقد طمأنني الرفيق البستاني أننا لم نمر على قرية أو بيت أو أثر لإنس أو جن في الطريق.

خرجنا من مليلية، بعد أن زرنا في صباح ذلك اليوم جبل الحديد، فمشينا كثيرًا، طالعين في الجبل نازلين، وأعملت الذهن كثيرًا في الاستخبار والاستيعاب؛ فتعبت جسدًا وذهنًا، وحدث لأعصابي ما حدث في عقاب جبال الريف، بعد أن غادرنا مدينة سان خرخو فاستسلمت، نمت في السيارة إلى المطار، ودخلتُ الطيارة وأنا في حال مضنية.

ولكنها لم تَدُمْ غير بضع دقائق؛ فعندما بلغنا جو جبال الريف كانت المشاهدات تحتنا جديدة ومدهشة في تكوينها وأشكالها، فتنبَّهَ الذهن، وزال النعاس والتعب والألم جميعًا.

الألمُ عدوُّه العملُ لغرض ما إنساني، أو وطني أو شخصي. الألمُ عدوُّه القصدُ والمحجة والإرادة في إدراكهما. الألمُ عدوُّه كلُّ جديد بهيج في الطريق إلى المحجة. الألمُ عدوُّه الثقةُ بالنفس والإيمان بالله.

فلقد خبرت ذلك عندما وصلنا إلى واد لاو، وشاهدنا السجن هناك، وعندما دخلنا غابات الأرز في جبال غمارة، وعندما طرنا فوق جبال الريف. البهجة قوت القلوب، وفي القلوب قوة لا تُغلَب!

الجزء الثالث

الفصل الأول

مدريد[1]

بين أشبيلية ومدريد طريقان ملكيان، تنعم السيارة فيهما، فتسرع الإسراع المبهج للمجانين في أسفارهم، وأنا من أولئك المجانين، إن لم يكن لي غرض في البلاد التي أجتازها، وكان الطريق استواءً مثل لوح الزجاج. أجل، أنا إذ ذاك ممَّن لا يبالون بالكيلومترين في كل دقيقة، ولا يجزون القابض يده على الدولاب إذا نقص عدَّاد الكيلومترات عن التسعين في الساعة الواحدة.

أطوها طيًّا، يا حادي، التهمها التهامًا يابن زين!

قلت إن من أشبيلية إلى مدريد طريقين يلبيك فيهما ابن زين، طريقًا يجتاز مقاطعة استرمادوره شمالًا إلى ماردا من الجنوب الغربي.

والطريق الثاني يمر بقرطبة إلى بيلين، فليتارس، ثم شمالًا بولاية لامنشا المخلدة في سيرة ضون كيخوته، فإلى مدريد من بوابة الجنوب الشرقي، كلا الطريقين لا يتجاوز الخمسمائة كيلومتر. سلكنا الأول ذهابًا، والثاني إيابًا، فوقفنا في الأول، إذ وصلنا إلى تروخيو، من مقاطعة استرمادوره إكرامًا لَمَن أنجبت من رجال الفتح والاستكشاف.

هذه المقاطعة لا تشبه المقاطعات الإسبانية الأخرى في شيء من الخصب الطبيعي، أو اللمعان الاجتماعي، فإن طبائع أهلها مثل سمائها جافة، ومثل أرضها يابسة، أرض تقل فيها الغابات، وتكثر فيها المراعي، وهي مشهورة بخنازيرها، التي تُعلف البلوط. ولحم تلك الخنازير مشهور في إسبانيا، كما أنها مشهورة بأغنامها السارحة، التي تنزل في الخريف من أعالي جبال قشطيلة وليون، وتخلق المشاكل والدعاوى بين المالكين

---

[1] مجريط العرب.

والغنَّامين. أو كانت في الماضي! أما اليوم فالقانون يُوجِب إفراز مساحة معينة إلى جانبَيْ كل طريق للمرعى العام المشاع!

وبين إشبيلية وماردا سلسلة جبال خضراء وادعة هي السيارَّا مورينا Sierra Morena الممتدة شرقًا بغرب، المرتفعة عند لرينا إلى ستمائة متر، المنخفضة عند ماردا إلى المائتين من الأمتار، ثم تعود في تروخيو إلى العلو الأول، وأعلاها بالقرب من هذه البلدة جبال غوادالوبه، التي تفصل استريدمادوره العليا عن أختها السفلى، وتنقلنا من وادي قنا Guadiana إلى وادي التاخوس Tajos . هذان النهران يخترقان المنطقة من الشرق إلى الغرب، فيجتازان الحدود الإسبانية البرتغالية، ويستمر التاخوس غربًا إلى لشبونة، فيصب في الأوقيانوس الأطلنتيق. أما نهر قنا فهو يجنح جنوبًا، عند باداخوس، ويصب خارج مضيق جبل طارق.

نسير شمالًا من تروخيو كأننا نقصد جبال غِردوس Gredos العالية، المدركة في أعلى قننها الثلاثة الآلاف من الأمتار، فنصل إلى نهر التاخوس، ونشرق بعد أن نعبره، فتمسي تلك الجبال إلى يسارنا حتى تبلغ طلبيرا Talavera التي هي دون تروخيو في علوِّها عن البحر. على أننا لا نشعر بذلك؛ لأن الانحدار — وهو مائة متر — ضائع في نحو مائة كيلومتر من المسافة.

وقفنا في طلبيرا بضع دقائق وهي أهل لأكثر منها، فإلى طلبيرا هذه خرج طارق بن زياد من طلطيلة يلاقي سيده موسى بن نصير الذي كان قادمًا بجيشه من ماردا، وفي طلبيرا كما قيل لنا، أثر عربي يُدعَى البرج البراني Torres Albarranas، كما أن فيها، بعد ألف ومائة سنة، وقعت الوقعة الكبرى في الحرب النابليونية الإسبانية، بين الإنكليز حلفاء الإسبان بقيادة ولنغتوني والفرنسيين بقيادة يوسف بونابرت، فكان كلا الجيشين خاسرًا ما يُربِي على الستة آلاف مقاتل.

وفي طلبيرا، بعد مائة وخمس وعشرين سنة من تلك الوقعة، انتصر جيش الجنرال فرنكو على جيش الحكومة الجمهورية، فأخرجه من البلدة واحتلها، فمهَّدَ لنفسه الطريق إلى طليطلة ومدريد.

لا نزال في مقاطعة استرمادوره، في طرفها الشرقي الشمالي الذي يدنو من قشتالة الجديدة، وهو أخف وجومًا وأقل جفافًا من الطرف الجنوبي. على أن الأشجار تقل في الماضي، وأوشكت أن تضمحل، في كل نواحي المنطقة؛ لأن الفلاح الإسباني كان يظن أن الشجرة عدوه، لأنها تظلل الطيور الصغيرة التي تأكل بذور ما يزرع من الحبوب.

وقد بلغ هذا الخوف أشده في ولاية لامنشا، فقطع أهلها الأشجار ليقضوا على الأطيار، وقد قيل لي إنه في زمن ليس ببعيد لم يكن هناك إلا ما يندر من الأشجار، وأن ألوفًا من مواطني ضون كيخوته لم يروا في حياتهم غرسًا مغروسًا. وقد زكوا هذه الكلمة بمثلٍ يقول: يجب على القبرة التي تزور أرضنا أن تحمل زادها معها.

ولكن الإسباني مثل العربي مضياف، وإن تجهَّمَ القبرة، وجافَى في الماضي الطيور. ولقد سعَتْ حكومته، في مطلع هذا القرن، لتزيل ذلك الجفاء وتنشر من العلوم الزراعية ما يُعِيد إلى الفلاح حسن الظن بالطيور، وهي التي تأكل الحشرات الفتاكة بكل مزروع ومغروس، فتدفع عنها الشر والأذى.

وهناك في أعالي المقاطعة، كما في قشطيلة، آثار باهرة لقنوات الري التي مدَّها العرب في زمانهم، فجدَّدتها الحكومة، وزادت فيها فازدانت الأرض بالأشجار، وتحسَّنت العلاقات بين الفلاحين والأطيار.

بعد ساعة من طلبيرا نشاهد مدينة قائمة فوق مائدة من الأرض، تعلو مائة متر عن النهر الجاري في ناحيتها الجنوبية الغربية، وستمائة متر عن البحر. ذلك النهر الضئيل هو المنسانارس Manzanares، وتلك المدينة هي مجوريطم الرومان، مجريط العرب، مدريد الإسبان.

لم تكن هذه المدينة في القرن التاسع للميلاد غير حصن عربي لحماية الثغور من غزوات أهل الشمال النصارى؛ حصن مجريط. وقد كان ذلك الحصن قائمًا حيث القصر الملكي اليوم، فيُشرِف على النهر في سفح الرابية، وعلى السهول الفِيح دونها إلى اليمين، وهناك وادي الحجارة، فسرقسطة، ودونها إلى الغرب الشمالي، وهناك جبال وادي الرحمة Guadarrama، ووراءها بلد الوليد Valladolid.

ومدريد هي قلب قشتالة، كما أن قشتالة هي قلب إسبانيا، هي وليون كما كان يقال، قلب إسبانيا وحصنها، من قبل أن تُخلَق إسبانيا، يوم كانت الممالك الإسبانية كالممالك والإمارات العربية اليوم، أنانيات مسلَّحَة تريد أن تحمي خيالها المديد الزائل.

وقشتالة اليوم قشتالتان: القديمة والحديثة؛ القديمة التي شبت على الفروسية، وركبت في قنانها سنان الإيمان الكاثوليكي، والجديدة التي أنبتت الفكرة الإسبانية التي أنارت شموع الكنيسة للملكة إيزابلة والملك فرديناند؛ فكرة التوحيد، فكرة السيادة المركزية، فكرة الدجاجة الرنقاء تضم تحت جناحيها فراخ إسبانيا الجديدة المتحدة المظفرة.

وقد أصبحت مجريط مدريد في فجر القرن الثاني عشر يوم وضع ألفونس السادس بضع بيضات تحت جناحي الدجاجة «الرومية» الرنقاء.

ثم صارت مصحًّا في عهد شارلس الخامس الذي أمَّها مستشفيًا، ثم شيَّدَ فيليب الرابع عرشه فيها، فغدت عاصمته، وفيها بلاطه الوحيد.

ثم نُقِل إلى مدريد عبقري إسبانيا الأكبر سرفنتس، فأقام فيها خمس عشرة سنة، وكمل في بيت له فوق ذلك القصر كتابه الخالد.

ثم جاء صنو سرفنتس الفنان الأكبر فلاسكيز، فحامَ حومة حول القصر، ودخله ظافرًا فزيَّنَه بوجوده وبصوره وبسمو أخلاقه.

لم يكن في إسبانيا قبل ذلك غير العواصم، لم يكن فيها عاصمة؛ فكانت سرقسطة لأراغون، وبرغوس لقشطيلة، وطليطلة للغوط، وقرطبة وإشبيلية للعرب، وليس لإسبانيا عاصمة تعصمها من شرور الأنانيات الصغيرة، فخلقت الضرورة مدريد.

صار الحصن قصرًا، وأصبح القصر إرادة وسيفًا وصليبًا. فَلْتسمع أراغون، فَلْتخضع ليون، فَلْتدفع الأندلس الخراج.

وصار ابن مدريد بعد أن عَقَّها يفتخر بها، وبعد أن شتمها صار يقول: من مدريد إلى السماء، وفي السماء نافذة لمشاهدة مدريد.[٢]

شاهدناها من غير السماء، وما شاهدنا في أبوابها غير أبناء الجحيم مجسَّمة في الطلول الدوارس.

هو ذا الدير الذي كان مدفونًا في كنيسته نوابغ إسبانيا: سرفنتس، وهريرا، ولوبه ده بيغا، وفلاسكيز.

وهي ذي الأسواق التي أمست مقابر، والقبور فيها فارغة، فاغرة أفواهها وكأنها تصيح قائلة: أين موتاي؟

أين ضحايا الحرب الأهلية؟ مَن ماتوا تحت الردم، ومَن ماتوا في النار، ومَن ماتوا متعثرين بين الأطلال، ومَن ماتوا خوفًا وهلعًا، ومَن ماتوا غير مرة في الفرار والحرمان والجوع والبرد والتشريد. وأين ضحايا الحرب الأيتام، والمنقذين من مخالب الموت بأيدي الرحمة الجامدة العين، والإحسان القاتم الجبين؟

---

[٢] De Madrid al cielo y eu el cielo un ventanillo para ver a Madrid.

مُذْ دخلنا المدينة، من الجنوب الغربي، حتى اجتزنا الخمس عشرة أو العشرين من أسواقها، كانت الخرائب على الجانبين متواصلة، لا يتخلَّلها بيت واحد سليم في طابق من طوابقه العليا. هذي هي آثار الطائرات المدمرة، شاهدناها بأم العين.

ولقد شاهدنا ما هو أشد هولًا منها في ناحية الغرب الشمالي من المدينة، هناك في الحديقة الغربية parque del Oeste وعند جادة روزالس Paseo Rosalis بين أشجار السرو والحور والصنوبر، تقوم — أو كانت — مدينة الكليات.

صروح جميلة مبنية بالحجر الأبيض وبالقرميد الأحمر، يتصل بعضها ببعض، وينفصل بعضها عن بعض، صروح للعلم — للعلوم والفنون والصناعات — عشر كليات، عشرون كلية — بضع عشرة، بضع وعشرون بناية — كلها خراب يباب.

وكل أشجار تلك الغابة تندب مدينة الكليات. تلك الأشجار، وفيها المحطمات، والهاويات، والواقفات كالثكالى المحروقة أثوابهن، المحروقة أجسامهن حتى العظام، الصارخة أرواحهن صرخات تسمعها السماء؛ ترسل مع ذلك شمسها كل يوم لتدفئ عظام الأرض.

في هذه الغابة وبين صروح مدينة العلم قامت الحرب في أشدها بين أبناء الأمة — الأم — الواحدة. ها هنا أمام جبال وادي الرحمة تذابَحوا وتعاوَنوا في التدمير، والرحمة هناك علاها الشيب، وغشيها الصمم، فهي لا تشعر ولا تسمع ولا ترى!

وذي هي خنادقهم، وقد نصبت فوقها الألواح المكتوب عليها. هم Ello ونحن Nosotros، نصبتها الحكومة الوطنية الحاضرة للمتفرجين والسيَّاح والمؤرخين. هم، نحن. أي هناك كان العدو مخندقًا، وها هنا كنا نحن.

وهذا باب الحديد، درب من الشمال إلى مدريد يشطر مدينة الكليات شطرين، وإلى جانبَيِ الدرب خنادق «لهم» وخنادق «لنا»، مختلطة بعضها ببعض؛ فمنها للثوار بين ناري الجمهوريين، ومنها للجمهوريين بين ناري الثوار.

وكان الجنود من الجيشين، ساعة تخمد نار المعركة، يخرجون من الخنادق إلى قارعة الطريق، فيتلاقون هناك، ويشربون الخمر، ويدخنون، ويتمازحون، ثم يعودون إلى الخنادق يستأنفون أعمالهم المباركة!

وأغرب من ذلك أن تلك الخنادق مفروشة بالبلاط الأسمنت، فلا تتوحل في الشتاء. هو الارتقاء الخندقي، توحيه إلى إسبانيا أوحال خنادق الحرب العظمى.

وذي هي لوحة من غير اللوحات التي ذكرت، كُتِبت عليها كلمة تذكر بكلمة الجيش الفرنسي بفردون: لن تمروا. وجَّهَها جيش الحكومة إلى جيش فرنكو، وتحتها اليوم لوحة كتبَتْ عليها حكومة فرنكو الجواب: قد مررنا.

نستمر في درب باب الحديد الذي ينتهي عند شارع بلاسكو إبانياس Velasco Abaûez الكاتب المشهور، ونمشي في هذا الشارع نحوًا من نصف كيلومتر إلى ساحة إسبانيا، بين بيوتٍ متهدمة، وجدران بأثقاب سوداء، كانت شبابيك فأمست كالأشباح وهي تصيح: الموت، لا يدوم غير الموت.

كان الهجوم الأول على مدريد في ٢١ أغسطس سنة ١٩٣٦.

وبعد يومين حلَّقت فوقها عشرون طائرة من طائرات الثوَّار.

وفي ٦ نوفمبر دنوا من الجسور فوق النهر، فما بقي بينهم وبين بوابة الشمس Puerta del Sol — قلب المدينة — غير ستة كيلومترات، فنُقِلت الحكومة في ذلك اليوم إلى بلنسية.

ومنذ الهجوم الأول إلى أن سلَّمت، بعد سنتين وسبعة أشهر، هُوجِمت من الشرق والغرب والشمال والجنوب، فكانت جبهات الجيشين المتحاربين كالبحر في مدها وجزرها، وكالبحر الهائج في أمواجها المتلاطمة.

ويوم سلَّمت مدريد كانت هي المنتصرة، مدريد الأم المحافظة على تقاليدها الدينية والسياسية والاجتماعية والوطنية، مدريد إسبانيا الموحدة، مدريد الكنيسة وكل المصالح المتصلة بها، مدريد ألفونس السادس وفردیننـد الرابع، مدريد «الملكين الكاثوليكيين»،[٣] مدريد ديوان التفتيش، ومدريد الـ «كميونيروس» Comuneros،[٤] مدريد فيليب الرابع وشارلس الثالث؛ هذي هي المدينة المنتصرة في استسلامها، المنتصرة على نفسها، ثم على كاتالونية مهد الأحزاب الاشتراكية والشيوعية والفوضوية التي انضمت كلها تحت لواء الجمهوريين.

كانت مدريد بيدهم، وكانت بيد خصومهم، كانت مقيَّدَة في روحها، كما كانت مقيَّدَة في جسمها، فتنازَعَها الخصمان؛ فدافَعَ عنها مَن ترغب عنه، وحمل عليها مَن تميل إليه، والويل للمنقسمين في بيوتهم وعلى أنفسهم.

---

[٣] فردیننـد وإيزابلة.

[٤] الحزب اللامركزي في عهد الإمبراطور شارلس الخامس.

جئناها في الشهر الأول، وبعد سنتين وسبعة أشهر من أهوال الحرب، وهي في دور النقاهة، فلا عجب إن لم تكن قد تأهَّبت لاستقبال الزوَّار.

وما كانت أنزالها كلها مفتوحة؛ فمنها التي أقفلت أثناء الحرب لانقطاع أسباب السفر والزيارة، ومنها التي استُخدِمت للجرحى، فأمست جميعًا في حاجة إلى الإصلاح والترميم.

ولقد شاهدنا الأثر القبيح ليد الحرب وروحها في نُزُل المدينة الأكبر — في غرف النوم، وفي الأروقة والمجالس العامة، حتى في خدمة الخدم — فكيف به في الأنزال الأخرى.

كان ذلك النُّزُل مزدحمًا بالضباط المسرَّحين من الجيش وغير المسرَّحين، وبالأُسَر الإسبانية العائدة إلى العاصمة، تتفقَّد بيوتها المهجورة أو المتهدمة، وتعيدها كما كانت صالحة للسكن.

أما القصور الملكية، والمعاهد العلمية، ومتاحف الفنون والآثار فقد كانت كلها مقفلة، وليس هناك غير ذلك المعرض الدائم — المعرض البشري — في الساحة التي تُدعَى «بوابة الشمس».

ولكن الشمس الراقصة على حجارتها المرصوفة، الضاحكة حول موائدها المصفوفة، لم تكن في قلوب الجالسين والجالسات هناك، ولم تكن في دوائر الفكر والسياسة في زوايا تلك الحانات والمقاهي.

بوابة الشمس، وجه مدريد، وقلبها وفكرها، ولكن الوجه لا يزال واجمًا، والفكر مضطربًا، والقلب على شيء من الغم.

مدريد كالخارجة من المستشفى، تراها تتنزَّه في شارع الكلا، فكأنها تمشي في نومها، وتراها جالسة للشمس في «البرادو» فتنعس وتنام.

خرجنا من المدينة بعد يومين، تشيعنا الرُّدُم والأطلال، فقد استقبلتنا في الجنوب الغربي، وها هي ذي تلك الأطلال تودِّعنا عند بوابة الشمال في الطريق إلى برغوس، بل تفعل ذلك لطفًا منها — يا لتهكُّم الموت! — عند أية بوابة من بواباتها السبع.[٥] فلقد طوَّقتها الحرب، وضمتها إلى صدرها حبًّا وحنانًا.

---

[٥] الطرق إلى ليون في الشمال الغربي، ووادي الحجارة فسرقسطة في الشمال الشرقي، وبرغوس في الشمال، وقرطبة وطليطلة في الجنوب، وطلبيرا في الجنوب الغربي، وبلنسية في الشرق الجنوبي.

يقول الشاعر الفرنسي تيوفيل غوتيه Gautier في كاتدرائية إشبيلية إنها تظهر للقادم إلى المدينة كالفيل الواقف بين قطيع من الغنم النائمة.[٦]

هذا القول يصح في كل بلدة، وكل قرية إسبانية؛ حيث تقوم الكنيسة فوق البيوت كالفيل الواقف بين قطيع الغنم أو المعزى.

وما كانت القرى لتتبيَّن الأرض حولها، وهي في بيوتها من لون تلك الأرض البنية أو الدكناء، لولا «الفيل» الواقف في وسطها الشامخ بخرطومه — برج الكنيسة — عليها.

القرية (الضيعة) المدينة، ببيوتها المنخفضة، اللاصقة بالأرض، النائمة في ظل الكنيسة القاتم، هي إسبانيا الخاشعة التقية، الواجمة في خشوعها، القاسية في تقواها، إلا في الأعياد والمهرجانات. فتطفر يومذاك الطفرة المنقذة؛ تثب وثبة واحدة من نور الشموع إلى نور الشمس، وترقص قديسيها رقصة الحياة في ساحات المرح وواحات السرور.

يقول الدليل: وفي هذا القلب — أي قشطيلة الجديدة — بقع شاسعة هي الصحراء، ولكن الحكومة في الزمن الحديث قامت بمشاريع كبيرة للري والتشجير كما قدَّمتُ، فلم تَعُدْ ضواحي مدريد مثلًا كما كانت جافة قاحلة، بل هي اليوم زاهية زاهرة بالواحات والبساتين.

ومن ألطف ما شاهدنا من مظاهر الاهتمام بالتشجير تلك الصفوف من الحور والإزدلخت واللبلاب التي تزيِّن الطريق على جانبيه، إلى مداه، بدون تقطُّع يُذكَر، من مدريد إلى برغوس، مسافة مائتي كيلومتر.

وها هنا في الشمال شاهدنا ما شاهدناه في قلب إسبانيا، وفي الجنوب من تلك القرى والبلدان اللاصقة بالأرض الجاثية تحت أبراج الكنائس وقبابها، والأهالي، رجالًا ونساء وولدانًا، يمشون الهوينا إلى الكنائس، وكتب الصلاة أو السبحات بأيديهم، كما يمشون كل مساء إلى شارع أو ساحة التنزُّه في البلدة، إلى المعرض البشري، وهم في كلا الحالين مطمئنون مستبشرون، على وجومهم الذي أمسى كالقناع.

كنت أظن أن إسبانيا التقية الفقيرة ستتمرَّد ذات يوم على السلطتين الدينية والمالية فتسحقهما، أو تنزع في الأقل المخالب من جورهما، فتمرَّدَتْ إسبانيا، وظنَّ مَن تمرَّدوا أنهم فائزون، فما صَحَّ ظنهم.

فالكنيسة لا تزال في القرية وفي المدينة، كالفيل القائم بين قطيع الغنم غير النائمة.

[٦] Comme un éléphant debout au milieu d'un troupeau de mouton couchés.

أجل، لقد استيقظت إسبانيا. فإن قلنا إن الإكليروس في هذه الحرب كان منتصرًا على الأمة الإسبانية، فالأمة راضية بذلك. الأمة الإسبانية لا تستطيع أن تنام قريرة العين إن لم يكن لها دين، ولا تنام دون أن تصلي، ولكنها إن صَلَّتِ اليوم، فهي لا تعود إلى النوم، وقد لا تسكت إن رأت الكنيسة منتصرة على فرنكو وحكومته.

ليس من شك في أن الجنرال فرنكو وأكثر أنصاره من أبناء الكنيسة المؤمنين المخلصين في إيمانهم، وقد أدركوا أن الأمة الإسبانية على الإجمال مثلهم، وفي ذلك قوة استخدموها، فكانوا فائزين.

ومما لا ريب فيه كذلك أن الأمة التي أعادوا إليها كرامتها وإيمانها ستقف معهم إذا قام الإكليروس غدًا يُنازِعهم السيادة، أو يُطالِب بما كان له في غابر الزمان من الامتيازات.

الفصل الثاني

الجنرال فرنكو

كانت برغوس من المدن التي انضمت إلى الثورة في شهرها الأول، وقد اتخذها الجنرال فرنكو مركزًا للقيادة العليا، لا لذكرياتها التاريخية القديمة فقط، بل لأنها كذلك في موضع حصين من الأرض، وعند ملتقى الطرق العامة المسهلة للمواصلات بين الشمال الغربي والجنوب.

وقد أَسَّسَ فيها مجلس الدفاع الوطني، الذي شرع يُصدِر جريدة الوقائع الرسمية، وأنشأ الملجأ الذي اشتهر بضيافته السابقة لأهل القتلى من الجند وللجرحى والمحاويج.

ثم عين برغوس يوم وصولنا إلى السراي القديم لاستقبال أعضاء مجلس الشورى الأعلى العام، الذي انعقد في اليوم التالي، لأول مرة بعد النصر برياسة الجنرال فرنكو؛ فحضره الزعماء والحكَّام، والمدنيون والعسكريون، من جميع ولايات إسبانيا، وبينهم آنستان تمثِّلان نساء الأمة، هما السنيوريتا بيلار بريمو ده ريفيرا، والسينيوريتا مرسيدِس بتشيلار.[1]

وقد تناوَلَ المجلسُ البحثَ في جميع المسائل والمشاكل التي أورثتها الثورةُ الأمةَ، وخصوصًا مسائل التنظيم السياسي والاقتصادي، والترميم للمدن والأماكن المدمرة، ولكن الترميم لا يتم بدون المال، وقد كان ذهب إسبانيا، الذي أَوْدَعه الجمهوريون في فرنسا، لا يزال محفوظًا هناك، والحكومة الفرنسية تسوف في إعادته إلى الحكومة الوطنية،

---

[1] السنيوريتا بيلار Pilar Primo de Rivera هي ابنة الجنرال الدكتاتور بريمو ده ريفيرا، وشقيقة خوسة أنطونيو مؤسِّس الكتائب الإسبانية، ورئيسة الفرع النسائي للكتائب، والسينيوريتا مرسيدس Mercedes Sanz Bachiller هي مؤسسة الفرع الاجتماعي في الكتائب النسائية ورئيسته.

فذكرها الجنرال فرنكو في خطبته تذكيرًا معززًا للحقوق الإسبانية، والعلاقات الولائية في الوقت ذاته بين البلدين والحكومتين؛ مما دلَّ على أنه في السياسة، كما أنه في الحرب، يقرن الحَزْم بالحكمة، والشجاعة بالحصافة، شأن السياسيين المحنكين.

إني مردِّد ما قالته الجرائد الإسبانية وبعض الفرنسية في تلك الخطبة، ولست باحثًا في الشئون الداخلية والخارجية التي تناولتها؛ إذ ليس ذلك من أغراض هذا الكتاب.

جئتُ برغوس لأقابل الجنرال فرنكو في مسألة واحدة من مسائل حكومته الخارجية، هي مسألة المغرب الأقصى وعلاقته بإسبانيا، فانتظرت إلى أن ختم المجلسُ اجتماعاته في اليوم الثاني، وكان لي في برغوس من ماضيها ما شغلني ثلاثة أيام بالطريق المفيد من آثارها وذكرياتها.

وجاءني في اليوم الرابع السنيور طوباو يقول: الجنراليسيمو يستقبلكم اليوم بعد الظهر.

الطريق إلى البيت، مقر رئيس الحكومة ومسكنه، يمتد بين صفين من أشجار الكستناء الزاهرة الوارفة الظلال، والبيت على هامش المدينة، هو بيت وديع غير ذي فخامة، قدَّمَه صاحبه للجنرال فرنكو أيام الثورة، فجعل الطابق الأول مكتبه، والطابق الثاني سكنًا له ولعائلته.

دخلنا حديقةً يتصدَّرها البيت، ومررنا بين حارسين من الجنود المغاربة عند الباب، فإذا نحن في غرفة كاتب السر حيث انتظرنا بضع دقائق. فاستدعى أولًا رفيقنا السنيور طوباو، ومعه نسخة من السؤالات التي كتبتُها وترجَمَها هو إلى الإسبانية، فاختلى الجنرال به بضع دقائق، ثم خرج طوباو يدعوني والبستاني للدخول.

مررنا خلال ستائر من المخمل تحت صورة ألفونس العاشر المعلَّقة فوق الباب، فمشى الجنرال من وراء مكتبه لاستقبالنا، وهو مرتدٍ ثوبًا عسكريًّا بسيطًا أصفر اللون، من نسيج الـ «كالي»، وطوق قميصه مبسوط فوق طوق جاكتَّته على الطريقة الإسبانية. صافحته محني الرأس ساكتًا، وهو يقول بالإسبانية ما معناه: أهلًا وسهلًا. وبعد أن جلست إلى جنبه على الديوان، وجلس البستاني وطوباو على كرسيين أمامنا، شكرته باللغة العربية على تفضُّله في الإذن بمقابلتي، وهنَّأته بالنصر في ساحة الحرب، ورجوت أن تكون انتصاراته في ساحة السلم أعظم. فترجَمَ طوباو كلامي وكلمة الشكر التي فاه بها.

ثم أشرت إلى السؤالات التي كان قد اطَّلَعَ عليها، وبما أنه في جوابه تناوَلَها كلها إجمالًا، دون أن يتقيَّد بكل سؤال إفرادًا، أرى أن أُثبِتها ها هنا مترجمةً عن الأصل الإنكليزي، ثم أُلحِقها بالجواب الذي هو شبه بيان.

السؤالات

(١) يكثر التودُّد من ساسة أوروبا في هذا الزمان للعرب والإسلام، وأكثره لا يتعدَّى الكلام، ولكن إسبانيا في المغرب اليوم تقرن القول بالعمل، وقد أطلقت حريات الفكر والنشر والاجتماع من قيودها. فهل لسعادة الجنراليسيمو أن يؤكِّد للعالم العربي والإسلامي أن السياسة والأعمال التي باشَرَتْها حكومة إسبانيا لخير العرب والإسلام ستزداد وتدوم، وأنها لا تتقيد بالسياسات الدولية، ولا تتأثر بتطوراتها؟

(٢) بنيتم المساجد، وساعدتم في تأسيس المعاهد الدينية الإسلامية في منطقة حمايتكم، وباشَرْتُم تأسيس المعاهد التعليمية والثقافية. فهل لكم أن تطمئنوا أهالي المنطقة الشمالية بأنكم مستمرون في نشر التعليم والثقافة، على الطراز الحديث، وستزيدون اهتمامكم ببناء معاهد لها، ليس في المدن فقط، بل في القبائل أيضًا؟

(٣) الزراعة، كما لا يخفى على سعادتكم، هي قوام الحياة المغربية، وفيها مجال واسع للتحسين والإنشاء. فهل تفكِّر سعادتكم في اتخاذ الأساليب العملية لتحسين الزراعة، وتشجير الجبال والأراضي الواسعة الخالية اليوم من الأشجار؟

(٤) الاقتصاديات في المنطقة ضعيفة، وأكثر الشركات التجارية والمالية والاقتصادية هي اليوم على قلتها أجنبية. فهل تسعون لتمهيد السبل لمشاركة الوطنيين فيها، وتشجيعهم على ذلك؟

(٥) باشَرَتْ حكومتكم في منطقة الحماية الإسبانية تأسيس معاهد صحية عصرية مجهَّزَة بكل الأدوات والأسباب العلمية الحديثة، ولقد شاهدتُ أنا منها ما يدعو للإعجاب والثناء، ولكن كثيرين من القبائل لا يزالون محرومين هذا الإحسان. فهل يؤمل أن يكون لها ما لأهالي المدن من الملاجئ الصحية؟

الجواب

«ترغب إسبانيا في أن تتعاون والعرب لخير الأمتين معاونةً شريفةً مبنيةً على أُسُس متينة. فقد حدث في تاريخ الأمتين حروب في الماضي، تبعها التآخي والسلم، ونحن الآن نجدِّد هذا الإخاء بجهود متواصلة.

الثقافة العربية الإسبانية منبعثة من مصدر واحد، كان يحتل المركز الأول في عالم الثقافة، فطرأ عليه إهمال حقبة من الدهر، ونحن اليوم نجتهد أن نجدِّد تلك النهضة القديمة، ونزيد من أسبابها.

كانت قرطبة قاعدة العلم العالمي، وهي التي أنارت بنور العلم أوروبا بأسرها، فنحن نستمد من ذلك الماضي المجيد لتجديد العمل، وذلك على الأخص في إنشاء مكتبة عربية في إحدى عواصم الأندلس، تجتمع فيها تلك المخطوطات النفسية؛ لتكون محجة أعلام الثقافة ورجال العلم في المشرق والمغرب.

كان قصدنا أن نهيِّئ في المغرب وسائل ذلك العمران وتلك الثقافة، فكان الجو مضطربًا؛ كانت الحروب. ولكننا اليوم عاملون ما كانت تَحُول دونه الحروب والتنازع بين القبائل. هذه الأسباب في تأخير النهضة، أما اليوم وقد زالت الأسباب فقد باشرنا العمل بجدٍّ متواصل، وهو يزداد يومًا فيومًا.

دخلنا المغرب مضطرين، دخلناه بالقوة، وقد دافعنا في البدء عن حقوق السلطان والمغاربة نيفًا وخمسين عامًا؛ فعندما شاهدنا الدول الأوروبية تتآمَر عليه، ابتغاء استعماره، اضطررنا أن نحفظ منزلتنا فيه، ولكننا لم ندخل المغرب كالمستعمر المستثمر، وما قصدنا المنفعة المادية، بل إن جلَّ قصدنا هو خير المغاربة، والتعاون وإياهم على تعزيز شئونهم.

جئنا المغرب بأموال إسبانية فقط، ومن خطتنا أن نساعد المغاربة، ونشجِّعهم على المشاركة والمساهمة في الأعمال الاقتصادية، ولا نسمح لرءوس أموال أجنبية أن تدخل المغرب.

نحن نعمل اليوم في جلب المياه وحصرها للري لإحياء الأراضي الميتة، ونعمل كذلك ليتمَّ التشجير والتحريج في كل الأمكنة الصالحة لذلك. وبكلمة عامة إننا نعمل لرفع المستوى الزراعي في المغرب، فيتمكَّن الفلاح المغربي أن يعيش وعائلته عيشًا هنيئًا.

يوم كنت في المغرب في المرة الأخيرة نبَّهت السلطة إلى إنشاء المواصلات الحديثة بين القبائل، فلا يحرم أحد منها خير الملاجئ الصحية والمدارس، يجب أن يصل الدولاب — السيارة — إلى أصغر مدشر من مداشر المنطقة.»

كان السيد طوباو يترجم كلامه فقرةً فقرةً فيكتبها البستاني، وكنتُ أنا أثناء ذلك أتأمَّل مُحَيَّا محدِّثي، وأسلوبه في الحديث.

سألته بعد أن انتهى من كلامه إذا كانت تلك المخطوطات العربية لا تزال في مكتبة «الأسكوريال».

فقال: «قد تشتَّتَ بعضُها، وأخذ الحمر بعضها الآخَر، ولكننا ساعون لإعادتها، وقد توفَّقْنا في جمع كثير منها، وهي محفوظة. أتأسف أنك لا تستطيع أن تشاهدها الآن، فعسى ألَّا تكون زيارتك هذه هي الزيارة الأخيرة لإسبانيا، بل أتمنى أن تعيد الزيارة فتشاهد تلك الكنوز الثمينة.»

ثم قال، وقد أبت العاطفة منه أن تبقى كامنة: «وأتمنى أن ترى تلك المخطوطات، وتلمسها بيدك لمس المحب المعجب.»

تلا ذلك حديث ارتجالي خرج الجنرال فيه من المغرب إلى أميركا الجنوبية، ومن المخطوطات إلى الاقتصاديات وتحسين أحوال العمَّال.

ثم سألته: وهل تفضِّلون إرسال كلمة بخطكم إلى العالم العربي والإسلامي بواسطتي، تفصحون فيها إجمالًا عن سياستكم الإسلامية العربية الدائمة في منطقة حمايتكم وخارجها؟

فأجاب أنه سيفعل ذلك مسرورًا.

فقلت: ورسمكم؟ فأجاب كذلك بالإيجاب.

وفي مساء ذلك اليوم جاء الرسول من قِبَل الجنراليسيمو يحمل الرسم والبيان المنشور [أنظر شكل: رسالة الجنرال فرنكو إلى الشعب العربي].

ليس في مُحَيَّا الجنرال فرنكو ما يَحُول دون الثقة والاطمئنان، وليس فيه من مكنونات الخطوط، تحت العين، أو حول الفم، أو فوق الجبين، ما يستوجب إقران الاطمئنان بالحذر، والثقة بالتحفُّظ.

هو وجه مستدير وسيم نضير، أصغر مما يظهر في صوره المنتشرة، ذو جفن ساجٍ، وعين لا يبهرك ولا ينفرك نورها، وله فم كفم الأطفال إنما قليل الحركة والابتسام. ليس في مثل هذا الوجه سيماء العبقرية والزعامة.

ولكن هناك عبقرية، وهناك زعامة، برهَنَتِ الحرب، وبرهَنَتِ الأيام قبل الحرب عليها. فأين هي في وجه الرجل؟ هل هو مقنع؟ أو هل هي سجية أهل الشمال؟ قال أحد

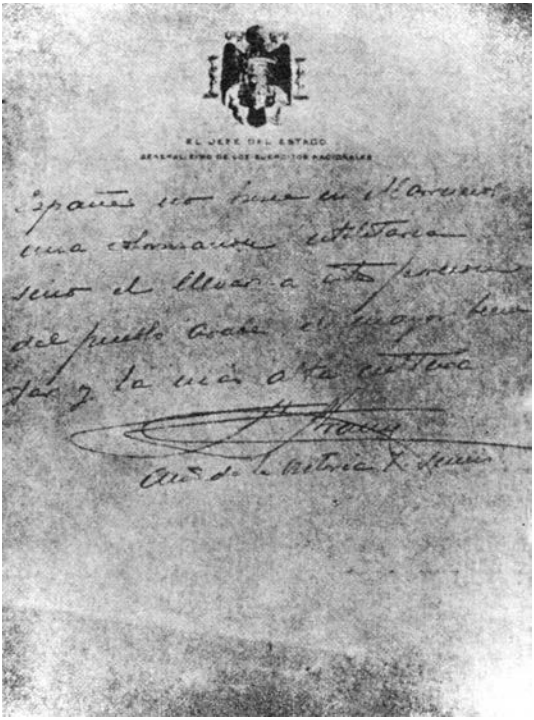

رسالة الجنرال فرنكو إلى الشعب العربي.

الكتَّاب إن وجهه لاتيني أو روماني الطابع والمعنى، وعندي أنه روماني الشكل، سامي المعنى، يوحي إليك قبل كل شيء بالاطمئنان والمحبة.

قيل لي إنه خطيب فصيح، ولا عجب؛ فالإسبان مثل العرب فصحاء على الإجمال، إنما الفصاحة ليست بالبرهان على العبقرية. فأين البرهان؟

يتكلم الجنرال فرنكو بصوت ناعم هادئ منخفض سويٍّ، لا طلوع فيه ولا نزول — لا نبرة ولا شاذة. ولقد تكلَّم أكثر من نصف ساعة وما تغيَّرَتْ لهجته، فكان السنيور طوباو يترجم، وأنا أثناء كلام الجنرال أتأمل ذلك الوجه الساجي في كل قسماته، المشرق إشراقًا هادئًا، لا يتحوَّل ولا يزول.

وعندما وصل في حديثه إلى قوله: دخلنا المغرب بالقوة. قالها كما قال غيرها، بذلك الصوت الذي يمثِّل وجهه أصدق تمثيل، وكان الترجمان يتحمس في بعض المواقف، فيُلبِس الكلام ما يستحقه من التوكيد إشارةً أو لفظًا، ولا يبدو شيء من ذلك في صاحبه. فهو يضع الحقيقة أمامك بارزة واضحة بدون تنميق، وهو يكره على ما يلوح لي، التفاصح والتنطُّع، فلا يحاول أن يسبي القلوب بزخرف القول.

ولقد ذكَّرني صوته بعكسه من أصوات الدكتاتوريين، وبوقفاتهم السينمائية المشهورة وبشقشقة هواهم، ولقد ذكَّرني وجهه بعكسه من الخدود المصعَّرة، والعيون الجاحظة، وبأصحابها الذين يحاولون أن يقنعوا بها العالم، بل يسحروه ويسودوه.

قال فرنكو في إحدى خطبه: أريد أن أقنع كما أريد أن أنتصر.

وليس لديه من أسباب الإقناع شيء مما ذكرت؛ لا سينمائيات، ولا دعايات، في الصورة وفي الخبر، ومع ذلك قد أقنعني، أفحمني، فقطع عليَّ خط النقد والريب والتردُّد. ولا أغالي إن قلت إني كنت أشعر في بعض الأحايين بما يعبِّر عنه بالسحر، وذلك عندما أصل في تأمُّلي إلى ما وراء تلك العين الساجية، وذلك الفم الطفلي.

إن في فرنكو مصدر قوة بعيد القرار، يوحي إليه بالثقة بالنفس، ويمده بقوة الإرادة؛ فلا يرى من حاجة إلى العوامل المألوفة في الفصاحة والبيان.

إنما فصاحة الرجل في إخلاصه، وإن بلاغته لفي ثقته بنفسه، وثقته بالله. وإن صوت فرنكو ليخرج من فمه كما يخرج الماء من سفح الجبل ويجري بين نفنفين منه؛ فتراه هادئًا في أعماق الوادي، وهو في الحقيقة نافذًا غلابًا، بالغًا محجته إلى البحر.

هو ذا السر في قوة فرنكو. فإن كان ذلك لا يقنعك فلا حرج عليه أو عليك، لقد فاتتك تلك الروح الجاثمة وراء ذلك السكون. وقد تسرع لذلك فتحكم لدى وقوفك عند حجابها، حكمًا ناقصًا أو بعيدًا عن الصواب، فما هو بالملوم، ولا أنت؛ إن القوى الروحية لا تُدرَك إلا بالقوى الروحية.

لست من أنصار الدكتاتورية في العالم، ولا أنا ممَّن يعجبون كل الإعجاب بالدكتاتوريين. فضلًا عن ذلك، فإن للجنرال فرنكو مبادئ دينية بل كنسية، طالما حملت عليها وعلى الخطل والشر فيها وفي رجالها، ولكني مع ذلك مقتنع بإخلاص الرجل الإسباني الأول، معجب بعبقريته، ومحترم كل الاحترام لذلك المصدر الروحي البعيد القرار والمدى، الذي يمده بما ظهر وبما سيظهر من القوة والحكمة، والأعمال الوطنية في شكلها، الإنسانية human في معناها.

وإني مقرر حقيقة أخرى من حقائق الزعامة والنصر؛ لقد اقتنَعَتِ الأمة الإسبانية بما قال لها فرنكو، ووثقت وآمنت به، فكان في اقتناعها وثقتها وإيمانها سر نجاحه وفوزه. قال الجنرال غرنت Grant للرئيس لنكولن Lincoln : «لقد فزت لأنك آمنت بي.» فما أصدقها كلمة يقولها فرنكو اليوم للأمة الإسبانية التي آمنت به!

فرنسيسكو فرنكو هو ابن ضابط في البحرية، من المقاطعة الشمالية الغربية، الكائنة على طرف شبه الجزيرة الإسبانية، بين جون بِسْكاي والبحر الأطلنتيقي، المشهورة بمعادن الحديد وتجارته. تلك المقاطعة هي غاليسيا — جليقيا العرب — وعلى رأسها عند ملتقى شاطئ البحر والجون، بلدة الفرُّول El Ferrol التي وُلِد فيها فرنسيسكو في ٤ ديسمبر ١٨٩٢.

ومنها في الخامسة عشرة، جاء طليطلة، فدخل المدرسة العسكرية فيها، وكان في نشأته وتحصيله من الممتازين بذكائهم واجتهادهم.

ثم جاء المغرب، وهو في سن العشرين، وشارَكَ في جميع الحروب المغربية الإسبانية؛ فكان منقطع النظير في عدد المعارك التي خاض عبابها خلال سبع سنوات، وهي سبع وأربعون معركة!

وقد كان ارتقاء فرنكو في الجندية فريدًا من وجهتَي السرعة والسن. فرنكو الشاب؛ قومندان في الثالثة والعشرين من سنه، وليوتنانت في الثلاثين، وكلونيل في السنة التي تلتها، وجنرال — أصغر جنرال — في الجيش الإسباني؛ لأنه لم يكن قد تجاوَزَ الثالثة والثلاثين من عمره.

وقد ساعَدَ فرنكو في تأسيس الكتائب الأجنبية التي تُدعَى بالإسبانية Tereio، وتعيَّن مديرًا للمدرسة الحربية بسرقسطة، فشغل المنصب بما اتصف به من علم وغيرة على الجيش، إلى أن أُعلِنت الجمهورية، فحُمِل على الاستعفاء.

كان فرنكو من المعجبين بالدكتاتور بريمو ده ريفيرا Primo De Rivera.

ولم يكن يخشى في الجمهوريين غير شراذم الأحزاب التي انتمت إليهم، وتسلَّطَتْ بعد حين عليهم، فبلغت الخشية بينه وبينهم حد العداء، وما شاءوا يومذاك معاداته. فعيَّنته الحكومة الجمهورية استرضاءً له حاكمًا عسكريًّا لجزائر البليار، ثم عيَّنته — لتُبعِده — حاكمًا عسكريًّا لجزائر الكناري؛ فكانت هذه منها الضربة الهادمة للحاجز

الأخير بينها وبين الثورة، فأضرمت نارها في المغرب، في شهر يوليو من سنة ١٩٣٦، كما تقدَّمَ.[٢]

أخبرني أحد رفقاء فرنكو في الجيش، يوم كان في مستهل ارتقائه، أنه لم يكن يشارك إخوانه في ألعابهم وسمرهم، بل كان يفضِّل المطالعة في ساعات الفراغ، ولم يكن يشرب الخمر ولا يدخِّن إلا قليلًا.

ولقد أيَّدَ هذا القول غيره في الجيش قائلًا: كان فرنكو محبًّا للمطالعة، راغبًا في العلم، ولا يزال.

أما مطالعته لتاريخ إسبانيا فلم تكن على ما يظهر مطالعَةَ راغبٍ في العلم، طالب للحقيقة، فهو لا غرو مشغوف بوطنه، وبأمجاد وطنه في الماضي، ولا يتجرَّد في مطالعته من هذا الشغف؛ ليستطيع أن يحكم حكمًا صائبًا قاسيًا، شأنه في ذلك شأن إخواننا العرب المسلمين الذين يزورون الأندلس مثلًا ولا يرون من تاريخه العربي غير آيات العظمة والمجد. أما الحقيقة المجرَّدة من ذلك الشغف والإكبار — حقيقة العرب في حروبهم الأهلية وتخاذُلهم وشقاقهم وأنانيتهم الأثيمة — فهم لا يرون ولا يريدون أن يروا شيئًا منها.

قال لي الجنرال فرنكو في أثناء الحديث عن المغرب، إن إسبانيا كانت دائمًا تُؤثِر على خيرها خيرَ أهل البلاد التي تدخلها، وقدَّمَ على ذلك برهانًا تاريخيًّا، بحسب نظره أو قلبه، فقال: تلك أميركا الجنوبية وقد تركناها لأهلها، وهم أهلنا، وفيها اليوم سبع عشرة جمهورية.

فهل ننسى حروب الاستقلال التي أقامها الأهالي هناك؛ لينقذوا أنفسهم من الحكم الإسباني وفساد الحكام؟ وإنَّ أحدث الأمثال لذلك هو في جزيرة كوبا، فإن صَحَّ القول إن الجمهوريين في إسبانيا فضَّلوا أن يسلموا البلاد إلى الوطنيين، من أن يفادوا بها في سبيل الشيوعية، فكلمة الجنرال فرنكو في أمريكا الجنوبية هي الحق، ولكني لا أظنه أنه يحارب الظلم في زمانه، وبغض النظر عنه فيما مضى من تاريخ بلاده.

وإني لأذكر تلك الحملات التي كانت تحملها الجرائد الأمريكية، الشمالية والجنوبية، الإنكليزية والإسبانية، على الجنرال ويلر Weyler وحكمه — ويلر الجزَّار كما كانت

[٢] راجع [الجزء الأول – الفصل الثالث عشر: الأحزاب السياسية].

تلقِّبه. على أن للصحافة في كل زمان ومكان أغراضًا في حملاتها السياسية تتنوع وتتلون، فتبعد في الغالب عن الحقيقة والإنصاف، حتى في أخبارها.

قبيح بنا التعميم، وهناك جريدة «التيمس» الإنكليزية، وأختيها الأمريكية والفرنسية المشهورة برصانتها، وبما يوجب على الناس تصديق روايتها، واحترام اسمها، وأنا من الناس الذين يريدون أن يصدِّقوا ويحترموا، ولكني — وأنا أعرض أمري — أترك الحكم للقارئ.

كتب مراسل جريدة «التيمس» الإنكليزية، بعد انتصار الجنرال فرنكو، وإعلان الحكم الوطني في البلاد، يصف خرائب الحرب، فقال: إن ثلث مدينة مدريد خراب يباب، وثلثًا منهدمًا معطلًا. وقد مررنا بمدريد، وزرنا أماكن الخراب في جهاتها الأربع، وهي كما هي، وقدر ما هي، مفجعة مفجعة، ولكن تقدير مراسل جريدة «التيمس» بعيد جدًّا عن الحقيقة. فإذا جمعنا الأسواق المتهدمة كلها في الجهات الأربع، وأضفنا إليها مدينة الكليات، فهي تبلغ جزءًا من العشرة من الأجزاء السالمة.

ونشرت جريدة «التيمس» بنيويورك خارطة تمثِّل وقائع الحرب الأهلية تحت عنوان: سقوط الأمة الإسبانية. هذا بعد النصر النهائي أو قُبَيْله، وفي التعليقات على تلك الخارطة ما يلي: فقدَتْ إسبانيا مليون رجل في حربها – صرفت بليونَيْن (مليارَيْن) من الريالات – مدنها المجيدة خراب – حقولها مزروعة بالقنابل – مناجمها مقفلة – مصانعها معطلة ... وهلم جرًّا.

قطعنا الطريق من إشبيلية إلى مدريد، ومن مدريد إلى برغوس، فإلى طليطلة، فإلى قرطبة، وما رأينا من نطاق النظر أثرًا يُذكَر للخراب، بل كان جل الطريق معبَّدًا أحسن تعبيد، ومفروشًا بالزفت، ومزدانة جوانبه بالأشجار الوارفة الظلال.

وقد قال لي مَن أدار فرعًا من فروع العمل في الثورة: إن المدينة الوحيدة التي خربت كلها، إلا عشرة بيوت منها — عشرة بيوت من ألفَيْ بيتٍ — هي أوفيدو عاصمة غليسيا. وما رأينا في نواحي الأندلس التي مررنا بها، ولا في المدن الأندلسية التي زرناها، أثرًا للخراب.

هذا لا ينفي أن في البلاد مدنًا، كمدريد وأوفيدو وبرسالونا، تستوجب الترميم، وأن في البلاد مجالًا واسعًا للإصلاحات الاقتصادية، وقد باشَرَتْ حكومة الجنرال فرنكو

العملين، بعد أن مهَّدَتْ لهما، حتى في أيام الثورة، فيما بنته من البيوت الرخيصة للعمال وللفقراء.[٣]

قال فرنكو: «يجب أن تنفذ مبادئ ثورتنا الوطنية بتحسين أحوال العيش لطبقتي المتوسطين والعمال.»

البيوت الرخيصة، لقد ذكرتها مرارًا في كلامي على المغرب، وقد كان رجال الحكومة الجديدة، حتى في أيام الثورة يتعاونون على هذه الأعمال، ويتنافسون بها.

أذكر منهم قائد جيش الجنوب الجنرال كيب ده لانو Queipe de Llaan صاحب الأيادي البيضاء خصوصًا في إشبيلية، وقد أراد أهلها أن يُظهِروا بعض ما له في قلوبهم من الحب والاحترام، فقدَّموا له هدية مالية، بلغت مليونَيْ بسيطة، فقبل الجنرال ده لانو الهدية، واشترى بالمال أرضًا في جوار المدينة، وباشَرَ العمل في بناء بيوت جديدة رخيصة هناك تأوي من الثلاثمائة إلى الأربعمائة عائلة.

مهما يكن شكل الحكومة في هذا الزمان — ملكيًّا دستوريًّا، أو ديمقراطيًّا اشتراكيًّا، أو فاشستيًّا نازيًّا — فالإصلاح الذي تقوم به هو على الإجمال إصلاح اشتراكي، مبني على تعاليم اشتراكية، إن كانت لكارل ماركس أو لغيره من الاشتراكيين.

لا إصلاح يدوم بدون إصلاح العيش للعمال، وحكمة فرنكو هي من هذا القبيل في مقدمة الحكومات الديمقراطية الاشتراكية. اسمها الرسمي هو الحكومة السنديكالية Syndicalist الاشتراكية الوطنية، والجنرال فرنكو هو رئيس هذه الحكومة.

فإن استنكرنا من الاشتراكية بعض ألوانها وأشكالها، كالشيوعية والنازية — هما واحدة أساسًا، وإن كانَتَا ظاهرًا على طرفَيْ نقيضٍ — فلا يجوز أن ننكر الحقيقة فيها، وهي التي توحي إلى رؤساء الحكومات والزعماء المصلحين، ما يقومون به من الأعمال الاقتصادية، التي من شأنها أن تضمن الخير للعدد الأكبر من الناس، وهذي هي الاشتراكية الحقة.

ومن أقوال الجنرال فرانكو: لا وجود في إسبانيا الجديدة لبيت بلا نار، ولا لإسباني بلا خبز. هي الكلمة التي يردِّدها في أشكال وأحوال شتى. أجل، «ستضمن الثورة العدل والخبز لكل إسباني.»

[٣] في قرطبة ٣٠٠ بيت، وفي مدريد ٧٠٠، وفي غرناطة ٢٠٠، وفي إشبيلية ١٢٠٠ بيت، وفي مدن المغرب أسواق من هذه البيوت ذُكِرت في الفصول السابقة.

على أن ذلك موكول بتحقيق الأهداف الوطنية الأخرى — كلها جمعاء — وهي أن تكون إسبانيا الجديدة عظيمة حرة.

ولا عظمة بدون اتحاد، ولا اتحاد بدون حرية.

فهل يستطيع الجنرال فرنكو أن يثبِّت التوحيد الذي قدَّسته الثورة، وباشَرَتِ الحكومة العمل به، في تعطيل كل الأحزاب السياسية، إلا حزب الكتائب الإسبانية؟

قلت إن البحث في سياسته الداخلية لا يدخل ضمن نطاق الكتاب، ولكني — في ذكري لبعض كلماته السديدة — أقف عندها لأقول كلمة لا تعدو الهامش.

إن في إسبانيا اليوم حزبين كبيرين: حزب الإكليروس، وحزب الكتائب، والحزبان — ظاهرًا في بعض الأحوال الداخلية — متحدان اليوم. فللكتائب برنامج إصلاح طويل عريض، اختلطت فيه النظريات والمبادئ العملية، ومنها ما يتعلَّق بالتعليم المدني والوطني.

وللإكليروس خطة في التعليم قديمة لا تصلح في أمة تنزع إلى التجدد، وللإكليروس مطامع في السيادة قديمة لا تتفق ومطامع أمة تريد التصعيد إلى ذروات الحرية والعظمة. فهل تصطدم السلطتان، سلطة الحكومة وسلطة الكنيسة، في المستقبل؟ يقول العارفون إنه لا بد من ذلك الاصطدام، ولكن اللاإكليريكية في إسبانيا لا تعني اللادينية.

إسبانيا أمة متدينة، لا غبار على دينها، ولا على صليبها الروماني؛ فهي من هذا القبيل غير ألمانيا، وغير إيطاليا، فالصليب في ألمانيا من خشب، وفي إيطاليا من نحاس، وهو في إسبانيا من الحديد المموَّه بالذهب.

فلا خوف على الحكومة إذا هي قاومت الإكليروس، وبيدها ذلك الصليب، إذا حاول الإكليروس أن يسيطر على التعليم.

وإن في الكتائب نفسها ما يضمن للبلاد حريتها في تعليم أبنائها، فلا يكونون أبناء الماضي، كما أنه يضمن للحكومة نظامها في تعميم التعليم وتجديده، فلا يكون إكليريكيًّا رجعيًّا.

لقد اغتالَ الجمهوريون مؤسِّس الكتائب خوسه أنطونيو — وخوسه اليوم، سيد الأمة، صورته منشورة على أبواب كنائس إسبانيا، بأمر الحكومة.

ومع ذلك فإن في الكتائب عنصرًا لاإكليريكيًّا قويًّا، لا يزدريه الجنرال فرنكو، فإذا اصطدمت الحكومة السنديكالية الوطنية بالسلطة الإكليريكية، فمما لا ريب فيه أن الكتائب تهبُّ لنصرة فرنكو ومبادئ ثورته، ومنها تعميم التعليم المدني الحر الحديث.

الفصل الثالث

الشريف الطوباوي

قلت إن الرحلة الإسبانية المغربية قد انتهت عندما وصلنا إلى الجزيرة، فلم يَبْقَ غير بضعة كيلومترات أقطعها إلى جبل طارق، ثم النزهة في باخرة مشرِّقة، ثم الحبس بالفريكة في لبنان.

ولكن الرفيقين أصلَحَا ظني، فقال السنيور طوباو: النهاية بيد الخليفة، فأردف البستاني قائلًا: والمقيم العام.

وعندما وصلنا إلى نُزُل كرستينة، رأينا في الساحة سيارةَ الخليفة، فوجم طوباو؛ لأنه كان عالمًا بعزم سموه على زيارة غرناطة، فخشي أن تُراد منه المرافقة، وهو تعب لا يرغب في المزيد من الأسفار، على أنه عاد بعد المقابلة مشرق الجبين، فقال لي: أنتم أسيريَّ إلى أن نصل إلى تطوان، فأسلمكم إلى المقيم العام فتنتهي مهمتي، وتبدأ مهمتكم الجديدة.

فقلت: أَوَظيفة بعد رحلة؟

فقال: قد تكون الوظيفة تنتظركم، وقد يكون السجن، أو المشنقة، أو ما هو مثلها — خطبة تخطبونها.

فقلت: وما ذنبي؟

فقال: ذنبكم أنكم من العلماء الفضوليين. العفو، الأفاضل. فقد سألتم السؤالات، وسجَّلتم المعلومات، وحدَّقتم كثيرًا إلى كلِّ ذو ساق أنيق، العفو، كل ذي ساق …

فقلت: لا ذو ولا ذي، بل كل ذات ساق أنيقة، لا أنيق، وأنتم الشريك في التحديق.

فقال: صحيح، مليح، والآن إلى تطوان، يابن لبنان.

فقلت: أسوأ خبر وتسجيع؟

فقال: في السجع الخير إن شاء الله، ومن الخير أن تسلِّموا أولًا على سمو الخليفة.

وقد تلا السلام على سموه سلامات على المشيعين له، والمرحبين به، العرب والإسبان، وأكثرهم من أصحاب الألقاب، والرتب التي لا أعرف ألقابها، ولا طمعت مرة بأن أكون من أبنائها.

فبعد كلمات أحد أولئك النبلاء، همست في أذن صديقي همسة واحدة، فقال وهو اللبيب: سننقذكم. يجب أن تصلوا إلى تطوان سالمين للمشنقة أو للخطبة.

عدنا إلى المدينة فتناولنا الغداء في أحد فنادقها، ونزلنا بعد الظهر إلى المرفأ، فأشرفنا على سيارتنا وهي تُنقَل بالسلاسل والحبال إلى الباخرة الصغيرة، التي تصل سبتة بالجزيرة.

وبينا نحن نجوز بحر الزقاق إلى أرض العدوة، كما كان يقول العرب الأقدمون، قال الصديق طوباو: لا شريف، في نظري، غير العلم، والأشراف الحقيقيون هم العلماء.

فقلت: إذن أنت شريف.

فقال: بل أنتم الشريف.

فقلت: لقد منحتك اللقب ومنحتنيه، فعلينا أن نمنحه رفيقنا أخانا البستاني.

فقال: والبستاني شريف.

فقلت: ونحن الثلاثة الشرفاء نحمل ألقابًا أخرى توازيها، إن لم تكن تفوقها شرفًا، فأنت الشريف الفارس — اسمه الثاني بالإسبانية Alvarez.

فقال البستاني مؤيِّدًا ومزيدًا: الشريف الفارس الطوباوي.

فقلت: طوبى للشريف الفارس، وطوبى للشريف الأمين، وللشريف البستاني الفريد. وإن فينا نحن الثلاثة، يتمثَّل الشريف الأكبر — الشريف الفارس الأمين الفريد — ضون كيخوته ده لا منشا.

عدنا إلى تطوان، ونحن نمثِّل هذا الشرف الأكبر الأوحد، وقد مثَّلناه في حياتنا الفانية، كما نمثِّله الآن في هذا الكتاب الخالد، ونحمل لقبه، ونخلص له، فكرًا وقولًا وعملًا.

عدنا إلى تطوان نحن الثلاثة الأقانيم للشريف الواحد، الشريف الفارس الأمين الفريد!

ولكن أَقْنومنا الأول هو الشريف الطوباوي، مستشار الخليفة الحسن بن علي، ودائرة معارف السياسة المغربية لفخامة المقيم العام، ومفتش معهد الدروس المغربية، والترجمان الأول للإقامة العليا، ورئيس التشريفات والقصر وتوابعهما.

وهناك وظيفة أخرى ما كنتُ أدري ما هي، فهو يؤم دار السعادة الدولية، طنجة، كل يوم خلا الأعياد والآحاد، فسألته مرة: وما هي وظيفتكم في العاصمة المكرمة؟

فأجاب قائلًا: يجيئني أصحاب الأوجاع، هذا يشكو صداعًا، وذاك تخمة، وهذا يَئِنُّ من ألم في ضرسه، وذاك يصيح كبدي أو بطني، يجيئني كل المصابين بالأمراض، أو الأوهام السياسية فأداويهم. ما الدواء؟ سألتني ما هي وظيفتي؟ فاعلم، يا أخي الشريف، أني مثل كربونات الصودا أصلح كل شيء، أنفع ولا أضر.

الشريف كربونات الصودا الطوباوي، قدَّسَ الله سره.

نسيت أن أخبرك أنه يحمل كذلك من الأوسمة شيئًا وافرًا؛ فيملأ في المواقف الرسمية صدره، يمنة ويسرة، بالشرائط الحمراء والخضراء والصفراء، والنجوم المرصَّعَة بالحجارة الكريمة، وهو في ثوبة العسكري — فاتني أن أخبرك أيضًا أنه ملازم في الجيش — وأوسمته، كما هو مجرد منها، لا تزيد ولا تنقص في فضله ولطفه واتضاعه، بل إن له في الثوب العسكري والأوسمة غرضًا فوق أغراض الناس.

كان يلبس ذلك الثوب، ويزيِّن صدره بتلك الأوسمة والشرائط في كل أسفارنا الإسبانية، وكان عندما نصل إلى النُّزُل، يذهب توًّا إلى غرفته، ويعود بعد قليل في الثوب المدني، ولا شبه شريط عليه أو وسام.

والسبب في ذلك؟ قال بارَكَ الله فيه: لا تزال البلاد في شبه حكم عسكري، التفتيش والمراقبة في كل مكان؛ فسترى إذن ما لهذه البذلة من المنافع في الطرق.

وما كان فيما قال مبالِغًا؛ فقد كنَّا ندخل البلدة، أو نمرُّ بالمخفر، فيوقفنا نفر من الدرك، وإذ يرون في السيارة تلك البذلة العسكرية وعليها صفان من الأوسمة اللألاءة، يرفعون أيديهم مسلِّمين، ونسير نحن على بركة الله مطمئنين شاكرين، وبالرفيق الأشرف مفتخرين.

الفصل الرابع

الحذاء والبلغة[1]

في كل مدينة زرناها، وكل قرية مررنا بها، وكل نُزُل أقمنا فيه، من تطوان إلى مليلية، ومن مليلية إلى الأندلس، إلى مدريد، إلى برغوس، كنا نرى الجنود، عشرات عشرات، ومئات مئات، باللباس العسكري، المضيِّق للعقلية البشرية، الميبِّس للشعور الإنساني، المقيِّد للأجسام والأحلام.

وكنَّا نرى الضباط كلهم بالأحذية والمهاميز، كأنهم صور للقوى المنظمة، ورموز للحق المادي المؤلَّه كالبعل. والحق حقان؛ حق فقير وديع يُصلَب كل يوم، وليس مَن يدافع عنه غير أولئك الذين خفتَتْ أو خُنِقت في هذه الأيام أصواتهم، وحق غني متكبِّر، ومسلَّح بكل ما اختُرِع من سلاح البر والبحر والجو — الحق الغني بالسلاح والجيوش، حق رمزه الحذاء والمهماز، وحق رمزه الصليب.

والحذاء العسكري الأنيق الضيِّق يحبس الدم في الأطراف السفلى من الأبدان، فيتدفَّق إلى أعاليها كل فترة من الزمن، بحكم الناموس الطبيعي الذي يأبى التقييد، يتدفَّق إلى الرءوس فيحدث فيها الهياج العصبي والغضب والتحكم، وأول مَن يشعر بنتيجته، ويتألَّم به صامتًا خانعًا هو الخادم العسكري الذي يُلبِس الضابط ذلك الحذاء، ويساعده في خلعه.

[1] البلغة، وقد تكون من لغة البربر، هي الحذاء المغربي الشبيه بالمشاية عندنا، يلبسه الرجال، أما النساء فحذاؤهن يُسمَّى شربيل.

هو الحذاء الآمِر المتحكم، وقد يُلطَّف تأثيره بالاستعراضات العسكرية، ويسكن بالخطب الحربية، ينطق بها الدكتاتوريون، وتنشر بواسطة الآلات المكبرة للأصوات المذيعة لها.

الحذاء الآمِر المتحكم الذي يريد أن يكون على رأس هذا الكون، قد يسأم المناورات والمخاتلات والدعايات والإذاعات، فيبادِر إلى الحديد الكاوي؛ يداوي أمراضه بالكي، وبالاعتداءات على الأمم الضعيفة بالاغتصابات، بالثورات، بالحروب — الحروب العظمى، الحروب الفظيعة!

ولماذا يلبس الدكتاتوريون الأحذية والمهاميز، خمس عشرة ساعة — وقُلْ عشرين — في اليوم الواحد فيقلِّدهم الضباط، فترتجُّ الأرض تحت نعالهم المسمرة — ترتج أرض القرى، وأرض المدن، وأرض البيوت والأنزال في ساعات العمل وساعات الفراغ، وفي ساعات الأكل، وساعات اللهو والطرب.

أصحاب الأحذية والمهاميز، وخدمهم، وصفوف رجالهم، إنهم لَيعملون جميعًا بنظام ويرتاحون بنظام، ويلهون ويطربون بنظام، ويسلِّمون مئات مئات وألوفًا ألوفًا بنظام، كالآلات يحرِّكها محرك واحد.

ثم يطفرون فيجنُّون، فيهبون للقتال.

هل هذا هو المثل الأعلى في الحياة البشرية الحديثة، ذات الصوت الواحد، واليد الواحدة، والحذاء والمهماز؟!

وفي كل مدينة من مدن هذا المغرب زرناها، وكل جبل وسهل و«مشدر» مررنا به، وكل نُزُل ونادٍ يممناه، وكل زنقة سلكناها؛ كنَّا نرى المغاربة، رجالًا ونساء وأولادًا بالبلغات المغربية، البيضاء والحمراء والصفراء والخضراء، يمشون الهوينا يجْرُون كالمياه في البسائط الفيح، ساكنين هادئين جميعًا، يمشون حيث يشاءون من الشارع أو الساحة أو الطريق، في وسطه وإلى جانبيه، وكيفما يشاءون، بلا أمر يُطاع، ولا نظام يُرعَى، ولا هَمٍّ — ظاهر أو باطن — في الأرجل، ولا هَمٍّ ظاهر في الصدور أو الرءوس.

ذوو البلغات يطئون الثرى بالنعال الناعمة، وليس فيها المسمار الواحد، النعال الساكنة اللطيفة، أحرار الأرجل والأجسام، في الأقل، فيتمشى الدم ناعمًا ساكنًا مرتاحًا في عروقهم، فتستقيم وتصح الأجسام، فيُحسِن أصحابها الأدب في المعاملة، وفي السلوك. لا اضطراب، ولا هياج، ولا طفرة ولا انفجار، وهم يُحسِنون فوق كل شيء وفي كل شيء، الصبر والتؤدة، ويستشعرون على الدوام السكينة والاطمئنان.

على أن ذلك لا ينفي ما قد يكون كامنًا تحت الرماد — وإن لزمنا الاستعارة نقول: تحت «قفحة» البلغة أو بين النعل والفرعة. ولا ينفي ما قد يكون مخزونًا في النفوس الناعمة الملمس، الساكنة النظرة، الهادئة الصوت، اللطيفة الإشارة والإيجاب.

فإن دعاها داعٍ باسم الوطنية الجديدة، أو باسم الدين — والاثنان لا يزالان في هذا المغرب من مترادفات الوطنية — تخرج في الحال من لطفها وصبرها، وتهبُّ من هدأتها، فتفعل وهي بالبلغة والجلباب — لا صوت لها — ما لا تفعله غضبة أولئك الفرنجة الصاخبة، وهي في اللباس المزنَّق والحذاء والمهماز. هذا إذا كانت الحرب بين الحذاء والبلغة، وكان سلاحها السيف، والبندقية لا غير، وستعود الأمم إليهما، وتُحرَم ما سواهما من السلاح، قبل أن تنتهي الحروب.

وليس من شك في أن الحذاء والبلغة تؤثِّران في النسل؛ فالمقيدة رجلاه وإرادته ورؤياه ليس كالمُطلق الرجلين والإرادة والروح. لا، الدم المحبوس لا يقوم بواجبه ساعة الواجب، كالدم الحر الطليق، وهذا في نظري أصل الخلاف في مظهَرَي النسل في البلدان الأوروبية والشرقية.

فالنسل في أوروبا ينقص، ليس من الحروب فقط، بل مما تفسده أيضًا في الرجال الحياة العسكرية؛ فإن في أسبابها، من الحذاء إلى الخوذة، وفي قيودها المعنوية والمادية، ما يضعف جرثومة النسل في الدم، فيثقل الإرث العسكري نفسية الأولاد، وقد يشوِّهها تشويهًا منكرًا.

أما في المغرب، فالنسل يزداد ازديادًا مستمرًّا؛ فلقد رأيت مما مَرَّ بك من الإحصاءات أن البنين والبنات الذين هم دون الرابعة عشرة من العمر يضاهون عدد الذكور والإناث فوق تلك السن، أي إنهم نصف السكان، والأولاد في أوروبا اليوم هم الربع من السكان أو الثلث في الأكثر.

وهناك ظاهرة أخرى جديرة بالاعتبار، وهي أن الحياة في المغرب تجري على السُّنَّة القديمة، فيتناسل المغاربة بالطرق الطبيعية التقليدية، على ما فيها من نقص في العلوم الصحية.

وهي في أوروبا، بالرغم من تلك العلوم المنظمة أسبابها، تجري على سُنَن مستجدة، هي علمية تقييدية، وقد يصحُّ أن تُدعَى بدعًا علمية، يوجنيَّة eugenistic ، اختيارية، انتخابية، وقُلْ بيولوجية حيوانية، كلها أو جلها، فيما يتعلق بالنسل البشري، اصطناعية،

تتعزز فيها مشيئة الشخص الفرد في البلدان الديمقراطية، ومشيئة الحكومة الفردية في البلدان الدكتاتورية، وفي المشيئتين خروج على السُّنَن الطبيعية، أو بالحري المعنوية منها، وإن كانت قديمة.

قديمة؟ وما يدريك فقد يكون هذا القديم في التناسل هو وحده القديم الدائم، القديم الذي لا يزول، القديم المجدَّد كل يوم، وسيقف جديده في المستقبل على رِجلَيْه بالبلغة — بالنعل — لا بالحذاء والمهماز.

الفصل الخامس

في القصر الخليفي

خليليَّ! ولا تخيُّل ولا تقليد. فهذا الأستاذ طوباو إلى يميني، وهذا السنيور أرغون — الحاج الرغوني — إلى يساري، على الديوان في المشْوَر، يشجِّعاني ويسهِّلان عليَّ الموقف.

ثم جاء رجل شَمَرْدَلٌ بلحية سوداء قوراء، يرفل في وفر من الملابس المغربية: جلباب من حرير فوق غلالة من كتان مزرَّرة بأزرار كحب الحمص، فوق قفطان من الجوخ، وقد تمنطق بخنجر فضي النصاب طويل رفيع. جاء هذا الشمردل يبسم لي، ويحدِّثني بلهجة ريفية، ساعدني طوباو في فهمها، فعلمت أنه من الذين اشتركوا في حرب عبد الكريم، فسألت: أمعه أم عليه؟ فأجاب وهو يبتسم كالطفل: يومًا معه، ويومًا عليه.

وقد شاء على ما أظن أن يُؤازِر خليليَّ في تشجيعي وتطميني، فذكَّرني بالله، وأنه — سبحانه وتعالى — «الشفيق الرقيق، المالك العتيق الوثيق، لا علو ولا سمو إلا به».

ثم جاء شمردل آخَر هو قائد الحرس الخليفي، يدعونا لمرافقته، فمشينا وراءه في رواق طويل مفروش بالسجاد، وبعد الانعطاف الثالث فيه، وصلنا إلى المدخل الرهيب، حيث وقفتْ تستقبلنا مجموعةٌ من البنادق في شكل هرمي، فصعدنا بضع درجات، ومررنا بمجموعة بنادق أخرى مَرَّ الكرام، فوقف الحارس في الباب وقال كلمات لم أفهمها.

ثم دخل فدخلنا، ومشى فمشينا وراءه إلى السدة الخليفية، حيث كان سمو الخليفة واقفًا، وصدره الأعظم دولة غنمية، وضابط الارتباط الإسباني، وطبيب القصر. فنزل سموه الدرجتين، من السدة إلى أرض الردهة، ثم خطا بضع خطوات إلينا، فرحَّبَ

بعريس الساعة ترحيبًا طيبًا، وعاد يتقدَّمنا إلى السدة، فسلَّمنا ثانية، وتلا السلام تهنئات بالعودة، مني له إذ كان هو عائدًا من غرناطة، ومنه لي.

ثم ذكر المحاضرة التي ألقيتها في حفلة جمعية الطالب المغربية، وخَصَّ بالذكر دعوتي فيها للاتحاد، اتحاد القبائل وجميع عناصر الأمة، تحت لواء العروبة، ولا شك في أن الصدر الأعظم نقل إليه بعض ما جاء في تلك المحاضرة، فسررت أنه مكَّن الاستحسان للعاطفة العربية الموحدة المفعمة بها.

– وبناء على ذلك، وجزاء على خدماتكم للعرب والعروبة، ولبلاد المغرب، نهديكم وسام المهدي من درجة سمو.

ما اضطربت، ولا ابتهجت، بل كنتُ من ذلك الجو الرسمي وفيه، واقفًا كسواي بما يستوجبه المقام من جمود.

إنما رمقت طوباو بلحظة عَلَّنِي أستمد منه شيئًا منعشًا يحرِّك جمودي، فما ظفرت بشيء، بل كان كالتمثال لو وكزته برمح لما تحرك.

وكذلك الطبيب الإسباني، وضابط الارتباط. أما الصدر الأعظم فإن ابتسامته — أدامها الله وحياه وحياها — لمطبوعة على وجهه، بين اللحية البيضاء والوجنتين الورديتين، طبعة أبدية.

بعد أن قال الخليفة: نهديكم وسام المهدي. تحرَّك طوباو، وما تحرَّك سواه، فتقدَّم إلى مائدة عليها صندوق صغير، ففتحه، وأخرج منه الوسام بوشاحه، فألبسني الخليفة الوشاح، وعلَّقَ طوباو الوسام على صدري، وبينا هو في عمله هذا، رمقته بنظرة استعطاف، فومضت عيناه بوميض من الحيلة والفهم، فشكرت الله.

وهل يشرف امرؤ بوسام من أعلى رتبة في الدولة، ولا يفوه بخطبة؟

قلت على ما أذكر إنه يستحيل عليَّ الإفصاح عمَّا يطمو في صدري من الشكر والفخر والسرور؛ لذلك أحنو رأسي صامتًا أمام ولي النعمة. وقد دعوت له فوق ذلك بالتوفيق في خدمة البلاد فيسعد هو بها، وتسعد هي به.

فأجاب بكلمة حسنة مسكُ ختامها: لا نريد أن تكون هذه الزيارة منكم الأولى والأخيرة.

فقلتُ مدَّعِيًا ملكية البلاد: هي بلادي كما هي بلادكم، وسأعود إليها إن شاء الله. فأمَّنَ — بارك الله فيه — على الثنتين؛ الملكية والعودة.

وبعد ذلك شيَّعَنا فخامةُ الصدر الأعظم إلى الباب، وأنا قلق حائر: أيجب أن أعود إلى النزل لابسًا وشاح المهدي أم ماذا؟

ولكن طوباو أزال قلقي عندما بلغنا الغرفة التي بدأنا هذا الحديث فيها، فمَدَّ يده إلى الوشاح قائلًا: لا أظنكم تريدون أن تعرضوه في السوق.

فقبَّلته بين عينيه، وقبَّلني على الكتف قبلة إسبانية مهنِّئًا مبارِكًا.

الفصل السادس

الأكياس والذي يوسوس في صدور الناس

أقبح ما رأيت في المغرب أكياس تمشي في الأسواق. في الطرف الأسفل من الكيس رجلان، وفي الطرف الأعلى رأس وعينان، لبنت من بنات حواء.

وأفظع ما رأيت حجاب شبيه بالكمامة؛ حجاب هو فوطة بيضاء، تُطوَى عدة طيات، وتُشَدُّ على الوجه من قصبة الأنف إلى الذقن، ثم تُربَط كالعصابة من وراء.

ليس في أشكال الحجاب، في البلدان الإسلامية شرقًا وغربًا أفظع من هذا الشكل المغربي، وليس في كل ما يُطلَق عليه من اللباس اسمُ جلباب أو معطف أو إزار أو عباءة، ما هو أقبح وأبشع من هذا الذي يغلِّف النساء في المغرب الأقصى، ويُدعَى بلغة المغاربة: حَيْكَا.

وما الحيكا غير ذلك الكيس الأبيض المنفوخ، لا كالمنطاد، فهو منفوخ في أماكن منه، ومميَّد مجوَّف في الأخرى، بل هو مقبَّب ومضلَّع ومسنم ومبعَّج، عنوان الفوضى في التقسيم، لا أثر فيه للاتساق والانسجام، ولا يشفع به غير النظافة؛ هو كيس أبيض نظيف، سواء كانت فيه الفقيرة من النساء أم الغنية.

شهدت مرة خارج تطوان مشهدًا من تلك الأكياس عجيبًا. هناك في الطريق إلى الثكنة العسكرية، على رأس الرابية، جبانة يؤمها النساء يومًا في الأسبوع للنزهة والزيارة والاجتماع — الجبانة نادي النساء! وقد يكون هناك قبر ولي من الأولياء، يزرنه ويثرثرن حوله تيمُّنًا وتبرُّكًا. شهدت ذلك المشهد، فخلتُ النساء لأول وهلة شواهد بيضاء فوق القبور!

قال رفيقي يلطف من قباحة الأكياس: هي شراشف بيضاء تلتف المرأة بها فتخالها خارجة من الحمام، ولكن المرأة خارجة من الحمام أو داخلة إليه هي مخلوقة مستحبة

في سترها المكشوف، بل هي مغرية، حتى وإن كانت عجوزًا متسترة. هي هي السر المكنون.

أما المرأة المغربية، المختبئة في كيسها، فليس فيها، ولا في هالتها، ولا في خيالها، ما يحث النظر على حُسْن الظن والتصوُّر.

دخلَتْ ذات يوم امرأة إفرنجية إلى النُّزُل، امرأة بيضاء من رأسها إلى قدميها، بيضاء بمنديلها، بفستانها، بجواربها، بحذائها ذي الكعب العالي، وبمعطفها ذي الشارة الحمراء، شارة جمعية الصليب الأحمر. تلك المرأة، ولا حُسْن في وجهها يستوقف النظر، كانت في أثوابها البيضاء الأنيقة جذَّابة للعيون والقلوب.

فهل يفضِّلها الرجل المغربي بزيِّها يا تُرَى على زيِّ المرأة المغربية في حيْكها، في كيسها المنتفخ؟!

ومن أقبح وأنكر ما شاهدت من صنف الأكياس سرب من البُنَيَّات بين الخامسة والعاشرة من العمر، تخرجن من المدرسة مكيَّسات كالنساء على رأسي وعيني الأكياس البيضاء! وفيهن البُنَيَّات الطاهرات النقيات، ولكن الفوطة البيضاء الصفيقة المشدودة على وجوههن — الحجاب! أستغفر الله. تلك الكمامات تحبس عنهن الهواء، وتحول دون التنفس الحر الطليق؛ فالحجاب في ألطف الأشكال مستنكَر على وجوه البُنَيَّات، فكيف في أقبح وأفظع أشكاله؟

سمعني أحد الشبَّان المثقفين أنتقد تلك الأكياس، وأسخط عليها وعلى مَن فيها، فجاء بعد أيام يدعوني للعشاء في بيت له خارج المدينة، ثم جاء هو ورفيقاه مساءً فركبنا السيارة، وخرجنا إلى ضاحية لحفلة بالبساتين، فسِرْنا في طريق مظلم، بين سياجات من القصب الفارسي والصبير.

قلت لرفقائي: أنتم الآن تخطفون الريحاني، كما خطف الريسوني القائدَ الإنكليزي في قديم الزمان.

فقال التطواني الظريف: وستبقى عندنا رهينةَ الأكياسِ البيضاء.

وقال الآخَر: هي الجزية.

فقلت وبي شيء من الخوف: أهو قصاص أم جزاء؟

فقالوا جميعًا: سترى عمَّا قريب.

وقفت السيارة أمام بوابة معلَّق فوقها قنديل ضئيل، فدخلنا فإذا نحن في حديقة تمشي إلى البيت، وقد أُنِير بالكهرباء.

استقبلنا أحد الخدم، فمشى أمامنا إلى الصحن، فصعدنا منه إلى الطابق الثاني، وفيه بضع غرف بدواوين عريضة منخفضة، مفروشة بالزرابي.

جلسنا نتحدث في السياسة، وننتظر العشاء.

ثم سمعنا في الحديقة أصواتًا خافتة تتخللها ضربات خفيفة على العود، فقال صاحب البيت: هو عبد الوهاب، وستسمعه الليلة هاهنا — في هذا المغرب.

ودخل عبد الوهاب المغربي، الشبيه في وجهه وشبابه ونعس ناظريه بعبد وهَّابنا المصري.

أما صوته، فهو الصوت الذي ملأ الشرق العربي عذوبةً وحنينًا. أجل، إن عبد الوهاب الفاسي ليقلِّد في أغانيه عبد الوهاب المصري تقليدًا صادقًا دقيقًا في كل أساليبه الفنية والصوتية، حتى إنك لو سمعته، دون أن تراه، لقلت: هذه أسطوانة لعبد الوهاب المشهور، أو هو عبد الوهاب بعينه يسيح في المغرب الأقصى، أو إن ماردًا حمله إلينا في تلك الساعة من القاهرة إلى تطوان.

والغناء المغربي يا سي عبد الوهاب؟ أتسمعنا موَّالًا مغربيًّا؟

فرفع صوتًا غير الصوت الأول، صوتًا عريضًا منخفضًا مخشوشنًا، وكان الموَّال خاليًا من الـ «يا ليل» ومن التخنُّث، ومن الصبابة المفتعلة، يجري فيه الصوت على فطرته المذكرة بشيء من التفخيم المذكر بمداته المفتوحة بالتفخيم الفارسي.

فقلت لعبد الوهاب الفاسي: ما لك يا أخي وتقليد عبد الوهاب المصري! ما لك والتقليد فإن فيما أسمعتنا أساس الفن العربي المغربي! فما عليك إلا أن تبني عليه، وتحسن به. فإذا استعنت بما عندكم من التقاليد المغربية في الألحان الأندلسية القديمة، تهتدي إلى الصحيح الوافر منها، فتكون قد أضفت إلى الموسيقى العربية الشرقية فنًّا هو اليوم مفقود، هو الفن الأندلسي القديم. ليس من الواجب أن تكون أغانينا وفنوننا الغنائية كلها واحدة في المشرق والمغرب، فإنْ احتفَظَ كل قطر بفنه وأتقنه، يصبح عندنا باقة أزهار مختلفة من فنون الغناء تجمعها اللغة العربية، وتتضوع منها الغالية الشرقية.

أطَلْتُ الكلام فاعتذرت، فلم يقبل الفنان الكريم الاعتذار، بل شكرني ووعد بالبحث عمَّا تركه أهل الأندلس من ألحان، تناقلتها أصوات المغنين متقطعة وما حفظتها القراطيس.

ثم أسمعنا «طقطوقة» مغربية، وبينا هو يردِّد:

يا ولهان،
في البستان
خاتم غصن البان.

سمعنا أصواتًا في الحديقة كصوت ماء الغدير بين الحصى، فخرجنا إلى الطنف، فرأينا بين حمائم الورود أشباحًا بيضاء يصحبها إنْسِيَّان اثنان.

وها هي ذي تلك الأشباح في الباب، وها هي ذي في الدار، وها هي ذي أمامنا نحن الرجال. هي ستة من الأكياس — وقُلْ مدقِّقًا، من الحوائك (جمع حيْكا) — استقبلهن رب البيت، فأدخلهن الغرفة المجاورة للمجلس، إلا واحدة قدَّمَها إليَّ قائلًا: ها هو ذا كيس من الأكياس، يا أستاذ، نكلِّفك فحصه فحصًا جمركيًّا.

ما بدا من الكيس غير عينين نجلاوين.

فقلت: وهذا اللثام أَلَا يحسر؟ أحسري، رعاك الله.

ففكَّتْ عقدة الحجاب، وأسفرت عن وجه أبيض ورديِّ الخدين، قرمزي الشفتين، ولا خضاب إلا الكحل في العين، ومبسم ألطف من نور البنفسج والأقحوان.

– وهذه «الحيكا» أَلَا تخلعينها؟

فسبقت اليد منها اللسان مني، وبرزت في غلالة من الحرير السماوي اللون، تخفي ما تحتها من حسن التكوين والإهاب، تُخفِيه عن العين، فيبدو شيئًا مُبهِجًا ساحرًا.

– وهذه المنطقة المزركشة بالفضة، أَلَا تخلعينها؟

فكانت الطائعة، وكانت اليد منها أسرع مما هي في المؤمنات الطائعات، القانتات الفاتنات، سبحان مَن كوَّن، وتعالى مَن صوَّر.

وبعد قليل برز من الغرفة الحور أخواتها، حور الجنان ولا مبالغة، وفيهن الشقراء والبيضاء والسمراء، وواحدة سوداء سبطة الشعر، فتَّانة اللحظ، جميلة المبسم.

أما البيضاء فكأنها إنكليزية، وكأن الشقراء أمريكية، والسمراء إسبانية أندلسية، كلهن من أرض المغرب وسمائه، فيختلفن عن فاتنات الفرنجة باتضاعهن وحشمتهن، وخجل فيهن ما لبثت أن عرفت أنه فطري غير مجلوب.

وهن، يا مولانا، من البنات المتعيشات بما وُهِبنه من الحُسْن، ومن فضيلتي الطاعة الإيمان. فالإيمان من الطاعة، والطاعة من الإيمان، وهن يؤمِنَّ بالله، نعم يؤمِنَّ بالله — أقسمت السوداء، وهتفت الشقراء: الله أكبر! — ويطعن عبده ابن آدم!

تباركت الطائعات القانتات، الفاتنات الوديعات الرفيقات، الناعسات الطرف، القابلات الكلام، القائلات بلسان أختهن السوداء: إن شفاه الحسان خُلِقت للقُبَل لا للنطق.

جلسنا بينهن، بل جلسن بيننا على الدواوين الواسعة المنخفضة، فنسينا عبد الوهاب المغربي وعبد الوهاب المصري، ونسينا العشاء.

ولكنه كان — وكان كما ينبغي أن يكون في تلك الساعة — مختصرًا، إلا بالوسكي الإنكليزيِّ، والنبيذ الشريشي الإسباني.

وقد حاولت أن أُفهِم الحوراوين اللتين عن يميني وشمالي شيئًا من اللغة العربية، فكانت السمراء تُلبِس الضحكَ عجزَها، والبيضاء تموِّه جهلها باللهجة المغربية، ثم شرعَتَا تعلِّماني لغة الذهب.

وما لغة الذهب؟ الذهب سرُّها؟ ولكنه غير الذهب الذي يتكالب الناس في سبيله. حاشا وكلا. على أني لا أدري كيف استخرَجَ علماء المغاربة الذهب من الغزل، أو الغزل من الذهب؛ فهم يقولون: ذهب اللحظ بالقلب. أو هذه الحربة بالعين كلها، أو الغمزة منها تعني كذا وكذا، فذهبت مثلًا — هي لغة في ذَهَبَ إذن، والله أعلم.

وهذه اللغة — لغة العيون — تُستعمَل عند الشراب بين الرجل والمرأة، فتقدِّم المرأة الكأس للرجل، وتميل بعينها، بحدقة عينها، إلى اليمين أو اليسار، أو ترفعها، أو تخفضها، أو تسدل عليها الستار، ولكل حركة معناها، والرجل يأتي بحركة تُشابِهها إن كان إيجابًا، أو تختلف عنها إن كان سلبًا!

لغة العيون، لغة الذهب، إنما هي كلغة الأزهار، أو المنديل، أو غيرهما من لغات الغزل الرمزية، وهي على الإجمال صبيانية، وفي الأغلب مُضحِكة، أما فنيًّا فهي تنسجم وساعة الشراب، ولكن ساعة الرقص تتعطل لغات الكلام والرمز كلها، إلا لغة الحب النورانية.

وكان من الرقص أولًا الفرنجي على رنات العود؛ فرقص الحور والشباب المغاربة رقصة الـ «تنغو» وغيرها، ثم الرقص المنفرد من كل حوراء — وليس فيه شيء من الخلاعة، الرقص باليدين والصدر والكتف ليس إلا، الرقص الشرقي الأدبي. ومن أين جاء رقص البطن؟ يقول الفرنجة: من المغرب. وهذا الطرف من المغرب يكذِّب قولهم، فقد يكون في الطرف الآخَر الجنوبي أو من الوسط. من بطن المغرب رقص البطن؟ لست أدري، ولا يضر الجهل.

بعد الرقص المفرد الأهلي الأدبي، رقصنا جميعًا الرقصة التي يُحسِنها كل مغربي ومغربية، بل يُحسِنها الصبيان والبنات؛ فهي في المغرب مثل رقص الشقيفات في الأندلس، بنت الأندلس تُخلَق والشقيفات بيديها، وبنت المغرب وصبيه يُخلَقان في حلقة الدراويش — حلقة الذكر.

كل المغرب يُحسِن الرقصة الدرويشية الدينية الذكرية، وهي في نظري أحسن التمرينات الجسدية المعروفة في المشرق والمغرب.

رقصنا في حلقة رقصة الدراويش، فسكرنا بها، وما سكرنا بالخمرة الإنكليزية أو الإسبانية ... وبعد ذلك؟

لقد كانت ضيافة إخواني التطوانيين حقًّا كاملة، فخرجنا من تلك الجنة ساعة الضحى، بعد أن شيَّعنا حورها، وهن في الأكياس والكمامات، إلى السيارات.

ملحق

(١) خطبة المقيم العام السنيور ضون خوان بايبدر، وخطبة المؤلف في حفلة معهد الدروس المغربية بتطوان.

في ٢٠ يونيو سنة ١٩٣٩ / ١١ جمادى الأولى ١٣٥٨.

(٢) كتاب «الكليات» لأبي الوليد ابن رشد.

خطبة المقيم العام

نحتفل اليوم في هذه المؤسسة باستقبال مفخرة من مفاخر الثقافة العربية، وهو صديقنا العزيز الأستاذ أمين الريحاني الذي شرَّفنا بقبول تسميته «مديرًا شرفيًّا لمعهد الدروس المغربية»، فباسم الجميع أشكر تلطُّفه بقبول دعوتنا، فقد كان من أعز رغائبنا أن يتعرَّف إلى هذه المنطقة السعيدة، ويرى بعينَيْ رأسه عمل فرنكو.

إننا ننتظر حكمه ونقده كسلطة لا جدال حولها في العالم العربي، فقد جاء إلى هذه المنطقة مجرَّدًا من كل حكم سابق، بشعوره الكيخوتي، ومن خلال نبوغه المتفوق رأى ما أراد.

إننا طيلة الحرب القاسية التي كلَّلها الانتصار قد عملنا ولم نتكلم ... ولم يكن عملنا سوى إطاعة لفرنكو لا أقل ولا أكثر.

إن حماية فرنكو هي حماية عاطفية لا سياسية، وحينما يفكِّر في الفتح إنما يقصد به فتح القلوب. إننا نترك الأمر لحكم التاريخ، والآن لشهادة أمين الريحاني.

فالحماية العاطفية التي ترى من خلالها إسبانيا الإمبراطورية لا تبحث عن الفتح النفعي، ولا عن المواد الأولية، ولا عن استغلال الناس والأشياء، إنما تتوق إلى ما هو أسمى، إلى إحياء عالم سامٍ هو اليوم في انحطاط، وما ذلك إلا إنهاض الثقافة والعاطفة والآداب العربية، وتجديد جزء لا يتجزَّأ من إسبانيا نفسها. نريد أن تنبعث قرطبة من الرماد الذي بردته الأجيال.

وبما أني أتكلم عن الثقافة العربية، فمن الثابت أن إسبانيا حيثما حلت أحلت العربية معها، وهذا شيء يجري في دمنا؛ الثقافة والمدنية والتعريب هي في نظرنا شيء واحد. وإنه لفخر عظيم لي أن أكون أصدرت المرسوم الذي يقضي بتعريب التعليم في هذه المنطقة السعيدة تعريبًا تامًّا. تبقى اللغات الهَرِمة والتعاليم الفوضوية القديمة كمادة لتنقيب الباحثين، ولكنها لن تصلح للثقافة والحضارة؛ إذ المركبة التي تسيران عليها هي العربية، وهكذا تعتقد إسبانيا.

إن ما عُمِل خلال هذه السنوات الثلاث في الدفاع عن اللغة والثقافة العربية ظاهر للعيان، وإني لَأحتفظ بكل حرص بالرسالة التي بعث بها إليَّ المساعدُ الأول للجنراليسمو فرنكو، وفيها يعطيني تعليمات تتعلَّق بحرية الصحافة العربية. لقد كان فرنكو يهتم بذلك أيام الحرب، فإن رجل الإلهامات العبقرية قد أَحَسَّ بالقضية، ولم يكن تفكيره منحصرًا في جنوده المغربة المحبوبين فقط، بل في حضارة ومستقبل هذه المنطقة السعيدة التي أودعها قلبه.

هكذا طبقًا لأوامر الزعيم أُتِيح لمؤسسات التعليم أن تنتشر انتشارًا واسعًا لا سابق له، كما شجعت الصحافة العربية. لقد رأى أمين الريحاني مدارس ذات بناء متين في أماكن يصعب الوصول إليها، وفي نواحٍ لم تتكلم أبدًا باللغة العربية؛ فاقتنع بأن أهمَّ وأمتنَ بناء هو المدرسة، ولتسهيل الوصول إليها أُنشِئت طرق تفوق مصاريفها مصاريف الأبنية نفسها، وحيث إن حمايتنا عاطفية تقوم على حب الشعب المغربي، فقد وجد برهانًا على ذلك حين رأى المؤسسات الاجتماعية كالإصلاحيات والبيوت الرخيصة التي أنشأتها الحكومة لإيواء الفقراء لقاء إيجار زهيد؛ والنظام الجديد الذي تسير عليه إدارة سجوننا ومنابع المدنية والثقافة، أي تلك المراقبات التي يقوم بأعبائها ضباط من الجيش الإسباني.

فبإمكان الأستاذ الريحاني أن يحكم على صدق نيتنا ووفائنا وولائنا للشعب المغربي، واحترامنا لشخصيته، ورغبتنا الحقيقية في رفاهية الشعب الشقيق الذي تجمعنا وإياه

تقاليد وتاريخ وعاطفة ودم مهراق في سبيل النصر المشترك. في هذا الاحتفال الرسمي يجب التحدُّث عن النصر؛ إذ إننا نحيا في حماسة الظفر الإسباني العربي، ونسمع ترديدَ آيات النصر في اللغتين.

ومن واجبي أن أعبِّر عن تقديري للجندي المغربي المنقطع النظير؛ فهو أكرم أخ للجندي الإسباني. لقد استفاق المحارب العربي كما استيقظت في الوقت نفسه الثقافة العربية، وفي هذه البقعة كان الانبعاث، وغير ذلك لم يكن ممكنًا، وإذا احتفظ لنا المستقبل بنهضة للثقافة العربية في حوض البحر المتوسط يجب أن تبتدئ هنا، فالوقت لم يَزَلْ متسعًا لهذا، وإذا كانت روما دمرت «كورينطو»، فإنها لم تَقْوَ حتى الآن على محو أثينا.

ونحن حينما نفكِّر في النهضة نفكِّر في أثينا الشرقية، وإليها نهرع ملتمسين عونًا ومساعدة في العمل الثقافي، وإن حضور الأساتذة الشرقيين اللامعين الذين يسمعون كلامي لَدليل ساطع على ذلك، وأود أن أشير إلى مؤازرة الأحزاب الوطنية المغربية في هذا العمل الشاق، هذه الأحزاب التي اعتُرِف بشرعيتها منذ اللحظة الأولى لحركتنا الوطنية، ولقد فهمت الأحزاب المغربية أن رسالتها الكبرى هي عمل الحضارة والثقافة، وهي تشارك في هذا العمل الآن الدولةَ الحاميةَ، كما شاركت فرنكو في حريتنا الظافرة.

شيء جديد في المغرب، فالجبهة الشعبية وأخواتها الأخرى لم يمكنها أن تشعر بالروح العربية، ولا أن تقدر ذلك المستودع العظيم للقوة والنشاط الذي هو الإسلام، ولا أن تفهم المثل الإسلامي الأعلى، وهي ليس بوسعها إلا أن تدمِّر كورينطو، وتضع القيود والأغلال.

يا لها من غريزة عجيبة جعلت سكان هذه المنطقة السعيدة يرون أن الطريق الأمين هو السير على إثر فرنكو! وقد حملهم إلهامهم على محاربة أولئك الذين اختلسوا مخطوطات الأسكوريال العربية، إحدى الكنوز الوطنية العظيمة.

المثل الأعلى لكونه أعلى لا ينضب معينه، فالآفاق غير محدودة، وأنظارنا وطموحنا لا حدَّ لها، ولسنا نرغب فقط في أن تنبعث قرطبة وأن تعود العربية لغة الثقافة العالمية كما كانت في العصور الوسطى، بل إننا لَنحلم بإيجاد وئام وتضامُن وعلاقات وثيقة بين الثقافتين اللاتينية والعربية، ونفكِّر في إحداث تناسُب وتناسُق بين الإسلام والنصرانية، فالشعب العربي كان أكثر الشعوب تسامُحًا، وكان تساهل وتفاهم حينما كانت العربية هي التي تحكم في البحر الأبيض المتوسط، ولما ظهر غيرها من اللغات الأجنبية ذات اللهجة المغولية، ظهر معها عدم التسامح الذي يتكلم التركية، وحينئذٍ محت روما

اليونان، وبدأ أسر بابل من جديد. إنَّ كل حبنا متجه نحو الأسير، وقلوبنا مفعمة له بالآمال.

لتنبعث اللغة العربية الجميلة، لغتنا، لغة الثقافة العالمية في القرون الوسطى التي كانت أهميتها إذ ذاك تضاهِي أهمية اللاتينية، والتي كانت ممر الثقافة بين الشرق والغرب؛ لتَعُدِ اللغة العربية إلى اجتذاب النفوس، وتحريك القرائح، وَلْيبعث ريموند ولوليو وأنسلمو دي طورميدا.

لم يكن بالإمكان تحقيق شيء مما حُقِّقَ في هذه السنوات الثلاث لولا اندفاع ومساعدة وإرشاد ونشاط أميرنا المحبوب، مولاي الحسن الخليفة المعظم الحاكم في هذه المنطقة السعيدة، فنشاطه المستمر وعبقريته المشرفة وخياله الملتهب هي عوامل حاسمة في تحقيق هذه الأعمال الثقافية العظيمة.

فاسمحوا لي بأن أنوِّه مع الثناء والاحترام بالصفات النادرة التي يتحلَّى بها صاحب السمو الخليفة المعظم، الذي يتجاوز نفوذه الأدبي حدودَ هذه المنطقة السعيدة. فشخصيته القوية التي تفرض نفسها، والكفاية النادرة التي يمارس بها مهمته الشاقة؛ هي صفات نبيلة تُكسِبه احترام الجميع، وليس من السهل أن يكون المرء حاكمًا محميًّا؛ لأنه زيادة عن مشاغل الحكم ومتاعبه يلزمه أن يكون ساهرًا على الدفاع عن شعبه، وأن يكون حارسًا بغيرة لتقاليده وعاداته، وأن يوجِّه تطوُّر رعاياه في دائرة تقاليدهم، ثم في الوقت نفسه يعمل على نشر الثقافة والحضارة، دون أن يكون وجود حماية أجنبية سببًا في إضعاف شخصية شعبه الاجتماعية والثقافية والدينية. وليس هذا وحده بكافٍ؛ إذ إن من واجبه أن يبتكر أفكارًا ومشروعات جديدة، وأن يطلب مساعدة الدولة الحامية على تحقيق مهمتها التمدينية الملقاة على عاتقها في أسرع وقت ممكن، تلك المهمة التي هي الشيء الوحيد الذي يبرِّر وجودنا بين هؤلاء الإخوة المغاربة.

وسأفاجئكم الآن ببشرى لطيفة مع الثقة بأنها ستنال من قلبكم ارتياحًا عامًّا، ذلك أن سمو الخليفة المعظم قد زيَّنَ صدر الأستاذ الريحاني بالوسام المهدي من درجة السمو.

والآن، وأنا أودِّع الأستاذ الريحاني، أتأمل في نفسي فأرى بين جنبي روحين؛ إحداهما إسبانية، والأخرى عربية، أما صديقي فليس فيه الآن سوى روح عربية، ولعله عندما يغادر تطوان يكتشف فجأةً أنني أقرضته نصف روحي الإسبانية.

بيوت جديدة شيَّدتها الحكومة للمغاربة المعوزين.

خطبة أمين الريحاني

فخامة المقيم العام، ودولة الصدر الأعظم.

سادتي الكرام.

أحيِّيكم باسمَي العروبة الجديدة وإسبانيا الجديدة، بل باسمَي النهضتين الإسبانية والعربية، وأحييكم باسمَي العدل والمساواة، الرافع علمهما الجنراليسمو فرنكو، والحامل ميزانهما في هذا المغرب الأقصى الكلونيل بايبدر، لا حاجة إلى ترداد الألقاب الرسمية ونحن أمام المثل الأعلى في الرجال، وها هو ذا المثل الأعلى مجسمًا في هذا الرجل الإسباني العربي الشريف؛ فهو شريف في أعماله وأقواله، شريف في عواطفه وآماله، شريف في حلمه الذهبي، المحقق إن شاء الله، فيسعد به العرب والإسبان معًا.

وما حلمه الذهبي غير حلم الجنراليسمو فرنكو العامل في تحقيقه لخير بلاده، ولخير أبناء هذه المنطقة في المغرب الأقصى التي هي اليوم في حماية إسبانيا.

أقول اليوم؛ لأننا نجهل ما يكنُّه الغد، ولأن العرب أنفسهم يحملون كذلك حلمًا ذهبيًّا، إنما في الحلمين موطن ائتلاف واتحاد. في الحلمين باب لتحقيقهما يدخله اليوم في هذه المنطقة المباركة الإسبان والمغاربة العرب معًا.

لا أقول المنطقة المباركة جزافًا، فهي حقًّا مباركة بفضل ما فيها من طلائع النهضة العربية الجديدة، ومن الجهود التي تبذلها الحكومة الخليفية الإقامية بفضل مولاي

الحسن وسيدي بايبدر في بناء الأسس المتينة، الروحية والثقافية والاقتصادية، لتلك النهضة.

وها هنا يأتلف ويتحد الحلمان الذهبيان الإسباني والعربي — ها هنا في ميدان الثقافة والعمران. ولنا أن نقول إن الحلم في جوهره عندنا وعندكم إنما هو حلم عمران وثقافة، حلم عظمة في الاثنين تجدَّدَ؛ لتكون أساس العظمة التي يشيِّد صروحها في هذا الزمان العرب والإسبان.

هذه الثقافة، أيها السادة، هي الثقافة العربية، وقد امتزجت في غابر الزمان وتوطدت بالثقافة اللاتينية، كما قال الكلونيل بايبدر، وما الثقافة اللاتينية في مظاهرها غير ثقافة الإغريق التي حمل العرب أنوارها إلى أوروبا، يوم كانت أوروبا تتعثر في الظلمات.

نعم، لقد كنَّا — ولا فخر — أصحاب النفوذ في نشر الثقافة في المشرق والمغرب، وقد كان لهذا المغرب، كما كان للأندلس، القسط الوافر في تلك الأعمال المجيدة التي لا يزال ينور ذكرها في حدائق التاريخ، ويتضوع أريجها في التآليف العلمية والفلسفية والأدبية، المطبوعة والمخطوطة. وإن عندكم في إسبانيا وفي المغرب كنوزًا من تلك المخطوطات، وقد باشرتم في جمعها ونشر النفيس منها؛ لتكون مصدر وحي ونشاط في تشييد صروح النهضة الثقافية الجديدة العربية والإسبانية.

أيها السادة، ليس من الضرورة أن يُعَاد الماضي بحذافيره، بل إن ذلك لا يجوز، وإنه — وإنْ جاز — غير ممكن. على أنه من الضروري الواجب أن نعود نحن إلى الماضي؛ لنستمد من أمجاده ما يساعدنا في أعمالنا التي نريد أن تكون كذلك مجيدة، إنما الماضي للاستيحاء لا للتقليد، للتكملة لا للتكرار، هذا ما يجب أن نفهمه نحن والإسبان جميعًا، فإن في تاريخ الأمتين العربية والإسبانية ما نريد أن ننساه، كما أن في تاريخهما ما يجب علينا أن نذكره على الدوام، ونجدِّد نشره وتعزيزه، فنعتزُّ نحن به، ونزداد أملًا ونشاطًا في الأعمال التي تؤهِّلنا لنكون خير خلف لخير سلف.

ومن هذا القبيل خصوصًا يجب علينا شكر الجنراليسمو فرنكو والكلونيل بايبدر؛ لأنهما أدرَكَا هذه الحقيقة، وباشَرَا العمل بها لخيرنا وخير إسبانيا معًا. فقد قال الجنراليسمو يوم تشرفت بمقابلته ومحادثته إنه موطن النفس على تأسيس مكتبة عربية في إحدى عواصم الأندلس، يجمع فيها المخطوطات العربية كلها، فتكون تلك المكتبة محطَّ رجال العلماء والمؤرخين وكل مشتغل بالعلم والأدب من العرب والإسبان في كل مكان. ولقد سبق الكلونيل بايبدر الجنراليسمو في أنه باشَرَ ها هنا في هذه المنطقة

المباركة، ذلك العمل الثقافي المجيد، وستُنشَر قريبًا باكورة أعماله، وهي كتاب الكليات لابن رشد.

أجل، إن الكلونيل بايبدر لَسبَّاق إلى المكرمات، وإنه لَمدهش — كدت أقول مزعج — في المفاجآت، فقد فاجأني بهذا الشرف الذي يبدو غريبًا في خزانة أدبي البسيطة الحقيرة. أمين الريحاني مدير شرفي لمعهد الدروس المغربية، ويلي وويل أدبي، فما أنا بأهل للمديريات والعضويات الشرفية أو غير الشرفية في المعاهد والكليات. أقولها صادقًا لا متواضعًا، فلقد قدر لي أو عليَّ أن أقضي حياتي الأدبية خارج الحظيرة، على شيء من الفوضى، وكثير من الاستقلال.

على أني أقبل هذا الشرف الذي تمنحنيه يا فخامة المقيم. أقبله بكثير من الشكر، وبشيء أكيد صادق من الفخر والسرور، ولكني أقرن القبول — لا تؤاخذوني — بما يُشبِه التحفظات والاحتياطات في المعاهدات الدولية. فإنْ أنا قصرت بالواجب الذي تفرضه عليَّ هذه النعمة — نعمة المديرية الشرفية لمعهد الدروس المغربية — فلا تعويض يُفرَض عليَّ، ولا لوم عليَّ ولا تثريب.

ولكني عامل بما لا يخلو من روح الواجب، سأكتب عن هذه المنطقة المغربية العربية المباركة كتابًا إن شاء الله يحمل بين دفتيه الحقيقة كما علمتها بالمشاهدة والسمع والدرس، وكما تأكَّدتها في أحاديثي مع الناس هنا كبيرهم وصغيرهم، من مولاي الحسن وبايبدر والوزراء والزعماء والأساتذة إلى الفلاح والإسكاف والبقال.

ولقد حملت في كل رحلاتي الاستكشافية أسمى روح إنسانية هي روح دون كيخوته الخالد، تلك الروح التي أشار إليها فخامة المقيم. هي الروح التي تفتح الأبواب إلى القلوب، وتمهِّد السبيل إلى أسمى الحقائق وأشرف الأعمال.

هي الروح التي يتجلى لكم بواسطتها يا سيدي بايبدر ذلك الحلم الذهبي، هي الروح التي تحملكم على أن تسعوا لتكون تطوان قرطبة ثانية. هي الروح التي أوحت إليكم تعميم اللغة العربية الشريفة في المنطقة كلها. هي الروح التي تُملِي عليكم مبادئ الوئام والمحبة بين النصرانية والإسلام. هي الروح التي تحرِّك قلبكم ويدكم وكل مؤتمر لأوامركم في تأسيس المعاهد الثقافية والدينية والصحية في منطقة الحماية الإسبانية من المغرب الأقصى.

وهي كذلك الروح التي تدفع بكم إلى المفاجآت العجيبة، المبهجة منها والمزعجة لكم ولسواكم من الناس. لقد ذكرت إحدى مفاجآتكم لي، وفي الخبر ما يزعج صاحبه حينًا

من الأحيان، وقد جئتموني اليوم بمفاجأة أخرى، وهي أن سمو الخليفة مولاي الحسن شرَّفني بوسام المهدي من رتبة لا أفهم معناها، ولا أنا من أصحاب التَّجِلَّةِ والكرامة لأستحق هذه النعمة. إني في كل حال أقبلها شاكرًا لسموه مسرورًا فخورًا بتَعَطُّفِهِ، وسأجتهد أن يكون سلوكي في المواقف الرسمية القليلة في حياتي لائقًا بها.

بقيت كلمة الختام وهي التي ختم بها بها الكلونيل بايبدر خطبته النفيسة، فقد قال رحم الله أجداده وأجدادي، إن نصفه إسباني ونصفه عربي، وإنه يرجو أن يكون قد حدث فيَّ شيء من هذه القسمة. إن في هذه الكلمة لقلبي مزيجًا من الغبطة والغم، ويلي من التقسيم في بلادي وفي نفسي؛ فقد قسَّمَ بلادي الفرنسيون والإنجليز، وكادت الهجرات تقسِّم نفسي.

أمين الريحاني بريشة الفنان الأميركي أوبرهارت Oberhart.

كيف لا وقد وُلِدتُ في لبنان، ونشأت في أمريكا، ثم في البلاد العربية، ويصح أن أقول إني وُلِدت ثلاث مرات، فتجاذبت نفسي الثلاثة الأوطان، فهل يريد سيدي الكلونيل

بايبدر أن يقول إني، وإن كنت قد تجاوزت الستين من عمري، أُولَد للمرة الرابعة في إسبانيا؟ إنا لله يا أخي، وإنا إليه راجعون — راجعون وفينا الوحدة التي أرادها سبحانه وتعالى لنا جميعًا، الوحدة السليمة الصافية الخالصة من شوائب التقسيم كلها.

وما هي هذه الوحدة؟ إني أقول لكم إن سرفنتس عبقريكم الأعظم، وأبا العلاء المعري شاعرنا الأكبر — الذي خصه المستشرق الإسباني الشهير آسين بالاسيو بدرس من دروسه القيمة — إن سرفنتس وأبا العلاء يتحدان في نفسي، ويحفظان فيها تلك الوحدة التي أرادها الله، وحدة الإنسانية، والمثل الأعلى في سبيل الإنسانية.

باسم هذه الوحدة وهذا المثل الأعلى أحييكم ثانيةً أيها السادة، وأودِّعكم الآن على أمل الاجتماع بكم مرة أخرى بعد ألف سنة.

كتاب «الكليات» لأبي الوليد محمد بن رشد

هي باكورة منشورات معهد الجنرال فرنكو بطنجة المغرب الأقصى، أو هو الحلقة الأولى من سلسلة المخطوطات العربية التي تعنى بنشرها لجنة المعهد للأبحاث العربية الإسبانية. طُبِع في مطبعة الفنون المصورة بالعرائش، والأصح أن المقدمة والفهرس والمعجم العلمي الطبي، وترجمتها إلى اللغة الإسبانية مطبوعة كلها طبعًا، والباقي — أي كتاب الكليات — من مائتين وثلاثين صفحة من القطع الكبير، مصوَّر بالتصوير الفوتوغرافي عن النسخة الخطية.

وقد كتَبَ المقدمةَ، واستوفى البحث في حياة ابن رشد وتآليفه وفلسفته، الأديب اللبناني ألفريد البستاني، أستاذ الآداب العربية في معهد الدروس المغربية بتطوان، وترجمها إلى اللغة الإسبانية «ضون كريستوبال بيريس بيرا» مراقب أملاك الدولة في الناحية الغربية من منطقة الحماية الإسبانية في المغرب.

إن كتاب الكليات هذا لأندر تآليف ابن رشد، فلا يوجد منه غير نسختين خطيتين؛ النسخة التي بين أيدينا صور صفحاتها كانت محفوظة في مكتبة دير الجبل المقدس بأعالي غرناطة، وهي أقدمهما وأصحهما، والثانية التي كانت في مكتبة سان بطرسبرج قبل الثورة السوفياتية، وقد نُقِلت عنها النسخة غير الكاملة الموجودة اليوم في مكتبة مدريد الأهلية.

أما تاريخ النسخة المنشورة في هذا الكتاب فالخاتمة تُنبِئ به، وهي كما يلي:

كمل الكتاب، والحمد لله على نعمه التي لا تُحصَى. صلى الله على محمد رسوله المصطفى وعلى آله وسلم تسليمًا. وكتبه لنفسه بقرطبة علاها الله عيسى بن أحمد بن محمد بن قادر الأموي القرطبي، وكان فراغه منه يوم الجمعة في العشر الوسط من صفر سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة — أي قبل وفاة ابن رشد باثنتي عشرة سنة.

ثم يقول:

طبقت مقابلته بكتاب مؤلفه الشيخ الفقيه القاضي الأروع ... الأوحد أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد ... وذلك في قرطبة حرسها الله.

هذه النسخة هي إذن الوحيدة الكاملة السليمة، المدقَّق في نَسْخها وتحقيقها، وهي تُقسَّم إلى سبعة أجزاء أو كتب: أولها تشريح الأعضاء. ثم (٢) الصحة. (٣) المرض. (٤) العلامات. (٥) الأدوية والأغذية. (٦) حفظ الصحة. (٧) شفاء الأمراض.

يتلوها فهرسان: فهرس المواضيع، وفهرس علمي بأسماء النبات والأشجار والحشائش والحيوانات والمعادن الطبية، وقد أثبتت أسماؤها كما في كتاب الدكتور جورج بوست الأميركي «زهور وطيور سورية»، باللغتين العربية واللاتينية ثم بالإسبانية في هذا الكتاب بدل الإنكليزية في كتاب الدكتور بوست، وإن اللفظ العربي أيضًا مطبوع إلى جنب الاسم بالأحرف الفرنجية، فيستطيع تعلُّمه ولفظه مَن شاء من الإسبان أو غيرهم من الأوروبيين.

وقد اعتنت اللجنة بهذه الأسماء المذكورة في كتاب الكليات اعتناءً علميًّا، فأضافت إلى التعريف والشرح المزية الطبية لكل نبتة أو معدن، ثم فائدته في معالجة الأمراض مستعينةً على ذلك بكتاب القانون لابن سينا؛ فجاء — في صفحاته الستين — فهرسًا طريفًا ذا قيمة علمية، تؤهِّله لدرس الاختصاصيين علماء النبات والحيوان، فيمحصون حقائقه، ويُصلِحون ما قد يكون من خطأ فيه.

ليس هذا الكتاب من أولئك الاختصاصيين، ولكنه من المحبين، محبي الأشجار والأزهار، وقد وقفر — على قِصَر باعه أو لِقِصَر باعه — في الموضوع، موقف الحائر السائل عند بعض التعريفات كالعرعار مثلًا وهو — عَرْعر فارسية — السرو. أما في الفهرس فهو «برِّي السرو».

لست أعرف للسرو نوعين بريًّا وبستانيًّا، وقد قرأت في «مقتطف» ديسمبر (كانون أول) الأخير، أن الشربين في الشام هو السرو في مصر وبلاد الجزائر، وأن العرعر عندنا هو عندهم الشربين. فهل يريد محرِّر الفهرس أن يقول إن الشربين هو بري السرو؟ إن الشربين على ما أعلم هو الـ «جونير» بالإنكليزية، والسرو هو الـ «سيبر» بالفرنسية، والـ «سيبروس» بالإنكليزية. فالعرعر إذن هو غير السرو البري، بل هو السرو المعروف عندنا، والسرو هذا والشربين والأرز هي كلها، في رأي الثقة الأمير مصطفي الشهابي، من فصيلة الصنوبر.

وقد جاء في الفهرس أن عصا الراعي نبات شائك، فاسأل الفلاح اللبناني يقل لك إن عصا الراعي من أجمل النباتات البرية المزهرة، ولا شوك فيه، إلا أنه ينبت في الجبل بين الصخور والأشواك.

حُلبة … وفي اليمن يسلقونها، ثم يصبونها فوق اللحم والبقول المطبوخة، ومعها فتات الخبز. هي ملوخية أهل اليمن.

دلب، ويقال لها «دلم»، أما الدلم في إسبانيا والمغرب فهو شجر الفلين، وهو شبيه بالسنديان، وأما الدلب فإنه في قشره الضارب إلى البياض أقرب إلى الحور، وورقه شبيه بورق العنب، وهو يكثر مثل الصفصاف على ضفاف الأنهر بلبنان.

أما موضوع كتاب الكليات، فالنظر فيه من اختصاص الأطباء العلماء، ولا أظن أن هذه الطبعة الفوتوغرافية تمكِّن من ذلك؛ فقد جاءت الصفحات غير متساوية في الطبع الواضح الجلي، فيها الكثيف والرقيق، الغاص بالحبر والظامئ إليه، المطموس والخفي، وهي فوق ذلك مكتوبة بالخط المغربي، الذي لا تسهل قراءته لعرب المشرق.

لذلك أقترح على معهد الجنرال فرنكو أن ينشر في المستقبل إلى جنب المخطوطة نصها المطبوع لتتم الفائدة. أما في الشكل الحاضر فالفائدة تنحصر في بعض المعاهد الشرقية والعربية، وفريق قليل من الناس هم المستشرقون والمغرمون باقتناء مثل هذه الأعلاق الأدبية والعلمية.

لست أشك في أن المعهد الجليل يقبل الاقتراح، وقد صدر الكتاب بتقدمة منه جميلة أنقلها بالحرف الواحد:

> هذا كتاب كليات ابن رشد يقدِّمه معهد الجنرال فرنكو إلى نصف أطباء العرب، وإلى كافة المعجبين بعبقرية فيلسوف الأندلس وطبيبها المشهور؛ عربون المودة الصادقة بين الأمتين، وبرهانًا على تجديد الصلة الثقافية بين الشعبين.

إذن سيتلو هذا الكتاب غيره من كنوز المخطوطات العربية الموجودة في إسبانيا، وقد قال لي الجنرال فرنكو يوم تشرَّفت بزيارته في برغوس في الربيع الماضي، وهو يذكر تلك المخطوطات ببهجة الفخر والحماسة، إنه معتزم نشر أكثرها لتكون أساس النهضة الثقافية الجديدة العربية الإسبانية، فعسى ألَّا يفوت اللجنة طَبْع نصِّ المخطوطة إلى جانب الأصل أو معها في الكتاب الواحد، فمهما يكن حظها من الخط الواضح الجميل فهي في الطبع بعد التصوير، لا تخلص من الشوائب الميكانيكية.

بقي أن أقدِّم للقارئ نموذجًا من مباحث ابن رشد في «الكليات»، وإني أختار ما لا يتجاوز أفق علمي وفهمي، فأنقل من كتاب «حفظ الصحة» مثالًا من بحثه العلمي. فهو يقول في الرياضة إنها «بالجملة حركة الأعضاء بإرادة، وذلك أولًا للأعضاء التي تحفظ بها الحركة، وهي جميع الأعضاء التي لها حركة إرادية، وثانيًا الأعضاء التي تجاوز هذه، وهي الأوردة وآلات الغذاء، ولما كانت الرياضة هي حركات الأعضاء كان منها جزئي وكلي، وذلك أن منها ما هي رياضة لجميع البدن، وهي الحركة الكلية النقلية لجميع الحيوان، ومنها ما هي رياضة مخصوصة بعضوٍ ما، مثل أن الصوت رياضة للريق (للرئة؟)، والقيام والقعود رياضة للقلب ... والرياضة منها قوية ومنها ضعيفة ... ومنها السريعة والبطيئة ... وربما اجتمعت في الرياضة السرعة والقوة كالذين يطعنون بالرماح، والرياضة المعتدلة فعلها بالجملة تنمية الروح الغريزي، ودفع الفضول عن آلات الغذاء وتحليلها وتطبيب الأعضاء أنفسها، وهي في هذا المعنى أفضل شيء ننمي به الحرارة ...»

ثم يحذِّر من المبالغة في الرياضة فيقول: «أما الرياضة القوية فإنها تستفرغ من البدن أكثر مما يحتاج إليه.»

فكأن ابن رشد رأى في زمانه ما أدركه العلم في زماننا، وهو أن الفضول في البدن — أي السموم — إما أن تزيد وإما أن تنقص، وفي كلا الحالين تفسد عوامل الصحة إن كانت عددية أو غذائية أو عصبية.

ثم ينصح بالاعتدال ويقول: «وأما أن الرياضة بالجملة نعمة عظيمة، وأنها أفضل من عدم الرياضة، فذلك تبيَّنَ من حال المقصورين في السجون، فتصفر وجوههم، وتختل أعمالهم الطبيعية. وليس يظهر هذا في الإنسان فقط، بل وفي جميع الحيوانات المقصورة كالطيور في الأقفاص وغير ذلك.»

وله في التدليك بحث لا يقل فائدة عن بحثه في الرياضة، فيبدو فيهما عصريًّا كأحد علماء عصرنا غير المتطرفين في نظرياتهم. فهو عصري، ليس في تفضيل الرياضة على

العقاقير في معالجة الأمراض، وليس في الدعوة لتقليل العقاقير في الاستشفاء، بل في رفع الرياضة والتدليك والغذاء إلى مستوى الأدوية في مفعولها، إن لم يكن إلى مستوى أعلى من مستواها.

فهل هو عصري كذلك، أو قريب من علومنا العصرية في أبحاثه الطبية؟

هل لكتاب الكليات قيمة علمية دائمة تضاف إلى علوم زماننا، أو هو حلقة في سلسلة علم الطب التاريخية؟

الجواب عن هذه الأسئلة عند الأطباء العلماء الذين يُطالِعون كتاب «الكليات» مدقِّقين النظر فيه؛ فتعرف بعد ذلك قيمته الحقيقية، ولا تضيع فوائده.

هنـــداوي